

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في أدب المغرب الإسلامي والحضارة
المتوسطة

الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحّدين
من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد مرتاض

إعداد الطالبة:

فايزة سعيدات

أعضاء لجنة المناقشة

رئيسا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ محمد بن اعمر
مشرفا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ محمد مرتاض
عضوا	جامعة مستغانم	أستاذ التعليم العالي	أ.د/ محمد سعدي
عضوا	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر "أ"	د/سيدي عبدالرحيم مولاي البودخيلي
عضوا	المركز الجامعي مغنية	أستاذ محاضر "أ"	د/ عبد الرحمان بغداد
عضوا	جامعة تلمسان	أستاذة محاضرة "أ"	د/ حرّة طيبي

السنة الجامعية: 1438 هـ - 1439 هـ / 2017م - 2018م

الملخص:

يتناول هذا البحث " الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري " في بلاد المغرب الإسلامي، وقد تطرقنا في ثناياه للحياة الثقافية والعلمية، بالإضافة إلى أدب هذه الحقبة؛ سواء كان شعرا أو نثرا والوقوف على مميزاتها للتعرف على أهم الانجازات الحضارية التي خلفها الموحدون، ذلك أن أدب كل أمة ينبع من بيئتها، ويحاكي واقعها، ويعكس أهدافها.

الكلمات المفتاحية : الحياة - الأدبية - المظاهر - الحضارية - عهد الموحدين.

Résumé :

Cette recherche traite « la vie littéraire et les aspects de la civilisation à l'époque des Almohades du sixième siècle jusqu'à la fin du septième siècle Hidjri, au sein du Maghreb islamique. Et de là, on a exploré à travers la vie culturelle et scientifique, en plus de la littérature de cette époque, que ça soit poésie ou de la prose en passant par ses caractéristiques afin de connaître les réalisations culturelles les plus importantes laissées par les Almohades, de façon que littérature de chaque nation tire de son environnement selon sa réalité et reflète ses objectifs et buts.

Mots-clés : vie - littéraire - aspects - civilisation - l'époque des almohades.

Summary:

This research deals with "literary life and aspects of civilization during the area of the Almohads from the sixth century to the end of the seventh century Hidjri, within the Islamic Maghreb. And from there, we have explored through cultural and scientific life, in addition to the literature of that time, that it is poetry or prose through its characteristics in order to know the most important cultural achievements left by the Almohads, so that each nation's literature draws from its environment according to its reality and reflects its goals and objectives.

Keywords: life - literary - aspects - civilization - the area of the Almohads

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1420 هـ

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي

بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿19﴾ سورة

النمل، الآية: 19.

شكر وعرفان

يطيب لي وأنا بصدد إنجاز هذا البحث المتواضع أن أتقدم بشكري وتقديري
وامتناني لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور "محمد مرتاض" الذي لم يأل جهداً في تقديم يد
العون والنصح والإرشاد لاستكمال هذا البحث، سائلة المولى (عزّ وجل) أن يحفظه ويرعاه،
دُخراً للناهلين من بحور العربية، والباحثين عن مكنزاتها .

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير سلفاً لأعضاء لجنة المناقشة الموقرين لتجشّمهم
عناء قراءة ومناقشة هذا العمل وتمحيصه، وتقديم الملاحظات والتوجيهات الدقيقة ليرقى
إلى مستوى البحث العلمي المطلوب.

إهداء

إلى والدي الكريمن بِّرا وإحسانا

إلى أختي الغالية مودّة وعطفًا

إلى إخوتي تقديرا واحتراما

إلى كلّ من مدّ لي يد العون شكرا وامتنانا

إليهم جميعا أهدي هذا البحث المتواضع راجية المولى - عزّ وجل - أن يجعله خالصًا

لوجهه الكريم.

فايزة

مقدمة

تُعَدُّ الحضارة العربية الإسلامية واحدة من أهم الحضارات التي شهدتها الإنسانية؛ فقد استطاعت بفضل تعاليم الإسلام الحنيف وما أضفاه عليها من مُرُونَةٍ وَعَالَمِيَّةٍ أَنْ تَمْتَدَّ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا؛ حَيْثُ قَامَتْ فِي ظِلِّهَا دُولٌ عَدِيدَةٌ تَبْضُ بِتَعَالِيمِهِ، وَتَعْتَبِرُ دَوْلَةَ الْمُوَحِّدِينَ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ وَاحِدَةً مِنْ أَهَمِّ الدَّوَلِ الَّتِي تَعَاقَبَتْ عَلَى هَذِهِ الْمُنْطَقَةِ، حَيْثُ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُوَحِّدَ بَيْنَ عُدُوتِي الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ تَحْتَ لَوَاءِ حُكُومَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْمُنْطَقَةِ بِالرَّغْمِ مِنْ تَعَاقُبِ دُولٍ عَدِيدَةٍ عَلَيْهَا، وَلَمْ تَكْتَفِ بِذَلِكَ فَقَطْ بَلْ سَعَتْ إِلَى تَحْقِيقِ الْعَدِيدِ مِنَ الْإِنْبِجَازَاتِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ لِتَحْلِدِ أَسْمَاءِ حُكَّامِهَا، وَيُعَدِّ الْأَدَبَ أَحَدَ أَهَمِّ تِلْكَ الْآثَارِ الَّتِي خَلَفَهَا هَذَا الْعَهْدُ لِكَوْنِهِ أَحَدَ أَمْزِجَاتِ الْمَعَايِيرِ الْهَامَّةِ بِلِ الْحَاسِمَةِ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمَسْتَوَى الْفِكْرِيِّ لِلْأُمَّمِ، وَلَمْ يَشُدَّ الْمُوَحِّدُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَمَا أَنَّ تَخْصُّصِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَدَبِ وَالْحَضَارَةِ فَقَدْ آثَرَتْ أَنْ أَقْفَ عَلَى حَضَارَةِ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ مَنْظُورِ أَدْبِهِمْ.

وَلَمْ يَكُنْ اخْتِيَارِي لِلْمَوْضُوعِ مَصَادِفَةً بَلْ كَانَ إِمْلَاءً لِرَغْبَةٍ شَخْصِيَّةٍ تَمَثَّلَتْ فِي إِعْجَابِي بِدَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ الَّتِي كَانَتْ مَغْرِبِيَّةَ الْفِكْرَةِ وَالِدَّعْوَةِ وَالثَّوْرَةِ، وَمَحَاوَلَةً لِلِإِسْهَامِ - وَلَوْ بِالنَّزْرِ الْقَلِيلِ - فِي إِثْرَاءِ التَّرَاثِ الْمَغْرِبِيِّ وَإِحْيَائِهِ وَالْحِفَاظَةَ عَلَيْهِ وَنَقْلَهُ لِلْأَجْيَالِ الْآلِاحِقَةِ عَبْرَ التَّرْكِيزِ عَلَيْهِ، لِاعْتِقَادِي أَنَّ عِبَاءَ إِحْيَاءِ تَرَاثِ أُمَّةٍ يَكُونُ عَلَى كَاهِلِ أُنْبَائِهَا بِالدرَجَةِ الْأُولَى، بِحُكْمِ انْتِمَائِهِمْ إِلَيْهَا وَعَيْشِهِمْ فِي كَنْفِهَا، وَهُوَ مَا يُمْكِنُ مِنْ سَبْرِ أَغْوَارِهَا بِأَقْرَبِ الطَّرْقِ وَأَسْلَمِهَا لِلْكَشْفِ عَنْ خُصُوصِيَّاتِهَا، وَذَلِكَ بِفَضْلِ احْتِكَامِهِمْ بِالْمُنْطَقَةِ وَمَعْرِفَتِهِمْ لِآثَارِهَا، وَقَدْ كَانَ أَمَلِي كَبِيرًا فِي أَنْ أَوْقِفَ يَوْمًا إِلَى إِبْرَازِ إِنْجِيزَاتِ أَسْلَافِنَا الْأَدْبِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ فَاهْتَدَيْتُ إِلَى عُنْوَانِ بَحْثِي الْمَوْسُومِ " الْحَيَاةُ الْأَدْبِيَّةُ وَالْمُظَاهِرُ الْحَضَارِيَّةُ عَلَى عَهْدِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمَجْرِي إِلَى نَهَايَةِ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمَجْرِي " وَذَلِكَ بِتَوْجِيهِ مِنْ أَسْتَاذِي الْمَشْرِفِ فَلَهُ عَظِيمُ الشُّكْرِ وَالتَّقْدِيرِ.

وَسَعَيْتُ بِوَسْطَةِ هَذَا الْبَحْثِ إِلَى الْإِجَابَةِ عَنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ التَّسْأُولَاتِ؛ أَذْكَرُ مِنْهَا:

- مَا طَبِيعَةُ الْمَوْرُوثِ الثَّقَافِيِّ وَالْإِنْجِيزَاتِ الْحَضَارِيَّةِ الَّتِي خَلَفَهَا الْمُوَحِّدُونَ؟

- ما هي أهم الأغراض الشعرية والفنون الثرية التي قامت في كنف دولة الموحدين، وأيهما كان أقدر على تصوير واقع الموحدين؛ الشعر أم التثر؟ وهل كان التركيز على مظهر واحد، أم أنه تطرّق لمختلف المظاهر الحضارية؟

- هل استطاع أدب الموحدين أن يواكب الحضارة التي شهدها هذا العهد؟

- هل تمكّن التّاج الفكري والأدبي من تقديم الإضافة إلى الحضارة العربية الإسلاميّة؟

وقصد الإحاطة بالموضوع، استعنت بخطة تمثّلت في مقدّمة ومدخل وأربعة فصول مذيّلة بخاتمة، وبقائمة للمصادر والمراجع وفهرس للمواد.

ففي المدخل تطرّقت إلى علاقة الأدب بالحضارة وحاولنا من خلاله الوقوف على مفهوم اللّفظتين، مع ذكر تعريفات مختلفة ابتغت التأسيس لمفهوم الحضارة ومن ثمّ التطرّق إلى علاقة التّأثير والتأثير بينه وبين الأدب.

وأفردت الفصل الأوّل لواقع الحضارة على عهد الموحدين، حيث استهلّيته بمبحث تمهيدي ضمّنته مختلف الجوانب التي قامت عليها دولتهم، ثم انتقلت للحديث عن الحياة الفكرية والعلمية على هذا العهد مبرزة إسهاماتهم في مختلف العلوم.

بينما تناولت في الفصل الثاني أهم الأغراض الشعرية التي شهدت رواجاً على هذا العهد وتقديم أمثلة عن المضامين التي جادت بها قرائحهم.

وأما الفصل الثالث فقد خصّصته لأهمّ الفنون الثرية مع عرض نماذج لكل واحد منها بغية الوقوف على مميزاتها إبان هذا العهد.

وتطرّقت في الفصل الرابع للمظاهر الحضارية التي عكسها أدب هذه الحقبة، للوقوف على مدى مواكبتها لها عبر تحليل نصوص شعرية وثرية للتعرّف على طابع دولة الموحدين.

وضمّنت الخاتمة مجموعة استنتاجات تُعدّ محصّلة لأهمّ النتائج التي توصلت إليها.

وإذا كان لكلّ بحث منهج يحدّد عناصره، ويوضّح محاوره، فإنّ هذا البحث أيضاً اعتمد على مجموعة من المناهج اقتضتها طبيعة الموضوع حيث استعنت بالمنهج التاريخي عند العودة لأحداث تاريخية معيّنة لدوره الكبير في التعرف على ماضي وكيفية نشأة الظاهر وتطوّرها عبر التاريخ مما يتيح للباحث الحلول ويسهّل تطبيقها بموضوعية، كما وظّفت المنهج الفني عند قراءة النماذج الأدبية لأنّه أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب والفنون ذلك أنّه يتناول القيم الفنية والشعورية لهذا النوع من الأعمال، فضلاً عن آليات التحليل والاستنتاج لدى محاولة شرح وتبسيط معاني النصوص الشعرية أو النثرية.

ولأنّه لا يمكن لأيّ عمل أدبيّ أن يُبنى من فراغ، فقد اعتمدت في بحثي على مجموعة من المصادر، كما استعنت بعددٍ لا بأس به من المراجع؛ فمن المصادر أورد الكتب المتخصصة في التراجم مثل: كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي، و"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي، و"نفع الطيب" للمقرّي، و"عنوان الدرّاية" للغبريني، و"برنامج شيوخ الرّعيني"، و"زاد المسافر وغرّة محيّا الأدب السّافر" للتّجيجي، ومن الكتب الحديثة: كتب الحضارات على غرار كتاب "الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين" لحسن على حسن، فضلاً عن المراجع المتخصصة في كلّ علم وفنّ مثل: "الشّعرا الأندلسي في عصر الموحّدين" لفوزي عيسى، ورسائل موحديّة لأحمد عزاوي إلى غير ذلك من المؤلّفات.

وككلّ البحوث الجامعية والأعمال الأدبية، فقد واجهتني صعوبات من أهمّها: طبيعة الموضوع الواسعة والمتشعبة؛ فهي تجمع بين الأدب بشقيه الشعري والنثري، وكذا الحضارة بأبعادها ومظاهرها المختلفة في عدوتي المغرب والأندلس خلال فترة تّنيف عن قرن من الزمن، فضلاً عن قلة الدّراسات في هذا الجانب، حيث اقتصرّت بعض المصادر على جمع نتاجات أدبية معيّنة مركّزة على البعد الدّيني، وإهمال نتاجات أخرى، فضلاً عن تقارب مجالات العديد من العلوم على غرار علم الكلام، والفلسفة، إلى جانب تداخلها فيما بينها، وما لها من تأثير في تشييت الدّهن، بالإضافة إلى عدم

ضبط أغلب الآثار الشعريّة بالشّكل؛ وهو ما صعب الغوص في معناها الحقيقي وذلك يعود حتماً لقلّة الاهتمام بهذا الكنز المغربي، وقد حاولت - جهد المقلّ - ضبطها بالشكل، كما واجهت بعض ما ذكر في اختلاف تواريخ ميلاد ووفيات العلماء والأدباء - أيضاً - وبخاصّة مع امتداد عمر بعضهم إلى الدّول اللاحقة، وهو ما كان له تأثير كبير في الحسم بشأن اعتماد بعض النصوص أو التّغاضي عنها، كما كان لرحلاتهم وتنقّلاتهم الداخليّة والخارجيّة منها صوب المشرق والحجاز دور في طبيعة المادة التي اشتمل عليها البحث؛ حيث اقتصرنا في غالبه - إن لم أقلّ كلّه - على ما كان إبداعه مغاربيّاً سواءً من حيث القائل أم البيئته دون إهمال دور المؤثّرات الخارجيّة على تطوّر العلوم والفنون وأدب هذا العهد.

وفي الأخير أودُّ أن أتقدّم بأسمى عبارات التّقدير والشّكر الجزيل والاحترام إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور "محمد مرتاض" على تخصيصه جزءاً من وقته - على كثرة انشغالاته ومسؤوليّاته - لمتابعة هذه البحث، وتصويبه حتى خرج في الصّورة التي بين يدي القارئ، وإفادته لي بخبرته الطّويلة في هذا المجال، كما لا يُفوتني أن أشكر لجنة المناقشة الكريمة لتجشّمهم عناء قراءة هذه الرسالة ومناقشتها.

تلمسان في: 24 صفر 1438هـ

13 نوفمبر 2017م

فايزة سعيدات

المدخل: علاقة الأدب بالحضارة

أ- تعريف الأدب

ب- تعريف الحضارة

ت- علاقة الأدب بالحضارة.

يُعرّف الإنسان بأنه اجتماعي بطبعه، وهو ما يَحْتَمُّ عليه الدُّخول في علاقات فَرَضَتْ عليه - دَوْمًا - ابتكار طرق جديدة للتعبير عن أفكاره ومشاعره منذ وُجُوده ومرورا بالحضارات المتعاقبة، وما النَّقْلة التي عَرَفَتْها الكتابة من استخدام التُّقوشِ الجدارية إلى اختراع الحروف، إلّا دليل على سَعِيهِ الحثيث لتحقيق تَكْيُفِهِ مع واقِعِهِ الذي عَدَا أَكْثَرَ تَعْقِيداً يوماً بعدَ يومٍ تماشيًا مع سُرْعَةِ المتغيّرات في ظلّ الطّفرة الحضارية التي يعيشها العالم اليوم، وهو ما استدعى الاعتماد على وسائل مختلفة للتعبير عن ذاته وواقعه .

ويعدّ الأدب أحد أهمّ أشكال التّواصل اللّغوي التي أخذت على عاتقها مهمّة "التبليغ" على اعتبارها واحدة من وظائفه التي حدّدها (رومان جاكبسون) (Roman Jakobson) إلى جانب وظيفتي "التأثير" و"التبادل"¹، فهل نجح الأدب - كونه ترجمان فكر الإنسان - في مواكبة واقعه الحضاري، ورصده بدقّة؟ أم أنّه لم يخلص بعدُ من قصوره احتواء الواقع بعد عجز اللّغة عن ترجمة فكر الإنسان²؟ وللإجابة عن ذلك وجب علينا التّمعن في مفهومي "الأدب" و "الحضارة" ومدى تأثير كلّ منها في الآخر.

1- الأدب :

أ - لغة:

أ.د.ب: ورد في لسانِ العرب أنّ الأدبُ الَّذِي يتأدّبُ به الأديبُ من النَّاسِ، سُمِّي أدبًا لأنّه يَأدّبُ النَّاسَ إلى المحامد، وَيَنهَاهم عن المقابح. وأصل الأَدبِ الدّعاء، ومنه قيل للصّنيع يدعى إليه

¹ - ينظر التّواصل اللّساني والسّيميائي والتّربوي، جميل حمداوي دت، دط، www.alukah.net، ص: 07.

² - ينظر اللّغة والفكر، أحمد طاهر، الأربعاء، 17 أفريل 2013م، hamedtaher.com.

الناس: مدعاة ومأدبة، وأدب الرجل يأدب أدبا، فهو أديب، وأرب يأرب أرابة وأربا في العقل، فهو أريب. والأدب: أدب النفس والدرس، والأدب: الظرف وحسن التناول، فهو أديب من قوم أدباء¹.

ب- اصطلاحا: وردت تعاريف عديدة للأدب ومن بينها ؛ قول ابن خلدون: «هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم. فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة»² فقد اعتبر القائل الأدب من جملة العلوم المعينة في معرفة العربية لتفسير النصوص الدينية، وهو يقوم على أسس ومعايير يجب احترامها من أهمها: الأسلوب المسجوع، ومعرفة مسائل اللغة والنحو التي تهذب اللسان وتجعله يسير على لغة العرب السليمة، فضلا عن الإحاطة بأخبار العرب وأنسابهم، وحفظ أشعارهم، وهو ما يفضي بصاحبه إلى مرتبة البلاغة التي لطالما كانت ميزة كلام العرب، وقدم ابن خلدون أربعة مصنفات وقد عدّ الاطلاع عليها أمرا واجبا على كل من أراد أن يغرف من علم الأدب وهي: أدب الكتاب لابن قتيبة، والكامل للمبرّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي³.

ومن التعريفات الحديثة للأدب قول ميشال عاصي: «الأدب هو أحد الفنون الجميلة الخمسة: كالرسم والنحت والرّقص والموسيقى، مثلها جميعا صناعة فنية يعبر بها التعبير المؤثر الجميل عن طوايا النفس البشرية في كلّ ما تضطرب به، من أشتات الرؤى وخواطر الوجدان، ولا يختلف عنها في شيء من حيث الغاية التأثيرية التي يسعى إليها كلّ فنّ جميل، ومن حيث إنّها جميعا نشاطات جمالية من جملة التّشاطات التي تؤلّف القطاع العقلائي»⁴ وهذا التعريف صنف الأدب في جملة الفنون التي

¹ - ينظر لسان العرب ، الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ،دار صادر ،لبنان، دط، دت، مج 1، مادة (أ.د.ب)، ص: 206.

² - مقدمة ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، حقق نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، سوريا، 2004 م، ط1، ج2، ص: 376.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 376-377.

⁴ - الفن والأدب، ميشال عاصي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، دط، دت، ص: 74.

تطرب في النفس؛ وتغوص في الخواج معبرة عن رأي الأديب وعاكسة انفعالاته الوجدانية، فضلا عن اتسامه بالبعد الجمالي الذي يؤثر في المتلقي فيمتعه مُتَوَجِّهاً بمسحة عقلية .

ويعرفه محي الدين أبو شقرا فيقول: «الأدب ليس مجرد ألفاظ وتراكيب، بل يحمل صورا، ومعان وأحكاما مختلفة هي تعبير عن موقف الإنسان من الوجود والمجتمع والحياة في تفكيره وانفعالاته ونزوعه، في تقبله ما يقبله، وفي رفضه ما يرفضه»¹ وبذلك يكون أبو شقرا قد وسع مفهوم الأدب؛ حيث أخرجها من الإطار اللغوي إلى وظيفته التعبيرية التي تُترجم انفعالاته، وتعكس تصوراتها، ومواقفه من الحياة والمجتمع .

2- الحضارة:

أ- لغة:

ح. ض. ر: جاء في لسان العرب بأنّ: الحَضُورَ نقيض المغيّبِ والعَيْبَةِ، حَضَرَ يَحْضُرُ حُضُورًا وَحَضَارَةً، وَ يُعَدَى فَيُقَالُ: حَضَرَهُ وَحَضِرَهُ وَيَحْضُرُهُ، وَالْحَضْرُ خِلَافُ الْبَدْوِ، وَالْحَاضِرُ خِلَافُ الْبَادِي، وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: ﴿لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ﴾، الْحَاضِرُ: الْمَقِيمُ فِي الْمَدِينِ وَالْقَرْيِ، وَالْبَادِي: الْمَقِيمُ فِي الْبَادِيَةِ، وَالْحَضَارَةُ الْإِقَامَةُ فِي الْحَضَرِ، وَتُلْفِظُ أَيْضًا الْحَضَارَةُ كَمَا أوردَهَا الْأَصْمَعِيُّ، وَالْحَضْرُ وَالْحَضْرَةُ وَالْحَاضِرَةُ: خِلَافُ الْبَادِيَةِ، وَهِيَ الْمَدِينُ وَالْقَرْيُ وَالرَّيْفُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَهَا حَضَرُوا الْأَمْصَارَ وَمَسَاكِنَ الدِّيَارِ الَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا قَرَارٌ، وَالْبَادِيَةُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اشْتِقَاقُ اسْمِهَا مِنْ بَدَا يَبْدُو أَي بَرَزَ وَظَهَرَ، فَالْمَعْنَى مُتَعَلِّقٌ بِالِاسْتِقْرَارِ وَالْمَكُوثِ فِي مَكَانٍ مَا، وَالْبَدْوُ يَبْرُزُونَ أَي يَتَنَقَّلُونَ، كَمَا تَمَّ رِبْطُهَا بِالسَّكَنِ فِي الدِّيَارِ؛ أَي بِالْجَانِبِ الْعِمْرَانِيِّ خِلَافَ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الَّذِينَ سَكَنُوا الْحَيَامَ²؛ فَالتَّعْرِيفُ قَدْ حَصَرَ لَفْظَ الْحَضَارَةَ سِوَاءَ كَانَتْ بَفَتْحِ الْحَاءِ أَوْ كَسْرِهَا فِي مَدْلُولٍ وَاحِدٍ: وَهُوَ السَّكَنُ فِي الْأَمْصَارِ،

¹ -مدخل إلى سوسولوجيا الأدب العربي، محي الدين أبو شقرا، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005م، ص: 45.

² - لسان العرب، ابن منظور، المجلد 4، مادة (أ.د.ب)، ص: 196- 197.

وهو المعنى نفسه الذي أورده الزبيدي في معجمه¹ وابن دريد في جمهرته؛ حيث أكد أن الحضور يدلُّ على الشهود² أي الالتزام .

وقد أطلق العرب قديماً تسميات قريبة من هذا المعنى مثل "أهل المدر" وهم سكان البيوت في القرى والمدن، وجعلوا في مقابلهم "أهل الوبر"، وهم البدو من سكان الخيام الذين يعتمدون في معاشهم على الماشية والتنقل من مكان إلى آخر³؛ ومفاد الاختلاف بين الفريقين يكمن في العيش المستقر لأهل المدن خلاف البدو الدائم التجوال والترحال.

واستعصى على الباحثين وضع مفهوم اصطلاحي شامل للحضارة؛ فقد وردت تعاريف عديدة لها تعكس تعقيد موضوعها، وعمق أفكارها، وصعوبة الإحاطة بها، ولعل أقدم من عرفها - عند العرب - عبد الرحمن بن خلدون، في قوله: « والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع، المستعملة في وجوهها ومذاهبه في المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية، وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجداته، والتأنق فيه تختصيه ويتلو بعضها بعضاً، وتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملذذ والتنعيم بأحوال الترف»⁴، وقد ربط "ابن خلدون" الحضارة بنمط العيش الذي يتميز به الإنسان المتحضر حيث تطبعه المبالغة في الأبهة، وهي تختلف باختلاف استجابة النفس للترف تحسن حياتهم وتسهلها في جميع مناحيها، كما تعكس مظاهر الرفاهية في الهدام، والطعام، والفرش؛ ممثلة الشق الاجتماعي؛ وبذلك ركز ابن خلدون في هذا التعريف على الجانب المادي للحضارة.

¹ - ح ض ر: حضر، حضر كنصر وعلم حضوراً وحضارة أو حضارة، خلاف البادية والبداءة والبدو، ينظر تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق كعبد الستار أحمد فراج، سلسلة التراث العربي، الكويت، ط2، 1965م، ج11، مادة (ح.ض.ر)، ص: 36-39.

² - ينظر جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، حققه وقدم له رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان، ط 1986، ج1، مادة (ح.ر.ض)، ص: 515.

³ - ينظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مصطفى عبد الكريم الخطاب، مؤسسة الرسالة، ط1، 1996م، ص: 51.

⁴ - مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، ج1، ص: 338.

وهذا التّصوّر للحضارة يجعلها يتلاقى ولفظ "المدنيّة" المشتقة من "المدينة" على اعتبار أنّ الإنسان إذا صار مدنيّاً فإنّه سيكون على طباع أهلها؛ من لطافة، ورقة، وتهذيب وأنس وهو ما يتنافى مع الوحشيّة¹، والتّشابه بين المفهومين نجده أيضا عند الغرب؛ فكلمتا مدنيّة أو حضارة (civilization) تقابلهما لفظة واحدة تعود إلى أصل لاتيني واحد (Civitas)² ويبقى التّباين واضحا في المعنى؛ حيث دلّت الحضارة عند الفرنسيين على المسار الذي يجعل النّاس مُتمدّنين³؛ وبذلك تكون المدنيّة مرحلة تابعة للحضارة وناجئة عنها، والغالب في هذه الأخيرة أن تكون رُوحية بمعنى قيمية فضلا عن مراعاتها الجانب التّوعوي، فيما تمتاز المدنيّة بصبغتها الماديّة النّفعية⁴، إلى جانب اختلافات أخرى نذكرها لاحقا⁵.

وقد حاول (ويل ديورانت) (will durant) متابعة نشأة الحضارة الإنسانية في مراحلها المختلفة، ومن ثمّ وضع تعريفا لها في قوله: « الحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثّقافي، وإثما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنّظم السياسية، والتّقاليد الخليقة، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ من حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنّه إذا أمن الإنسان من الخوف، تحرّرت في نفسه دوافع التّطلّع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعد إذ لا تنفكّ الحواجز تستنهضه للمضيّ في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها»⁶ هذا التّصوّر يجعل الحضارة من صنع الجماعة

¹ ينظر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، عبد الرحمان حسين الغزاوي، دار الخليج، الأردن، ط1، 2011 م، ص: 23-24

² الحضارة - الثقافة - المدنية" دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، نصر محمد عارف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المملكة الأردنية الهاشمية، دط، 1994م، ص: 34

³ ينظر أطروحات فوكوياما و هانتغتون و النظام العالمي الجديد "دراسة تحليلية مقارنة"، يحيي سعيد محمد قاعود، مركز البيان للدراسات والبحوث، دط، 20015م، ص: 35.

⁴ ينظر أطروحات فوكوياما و هانتغتون و النظام العالمي الجديد، يحيي سعيد محمد قاعود، نقلا عن: على عتبات الحضارة - بحث في السنن وعوامل التخلق الاثنيار، بتول حنّديّة، دار الملتقى من أجل وعي أعمق بقضايا الإنسان، سوريا، دط، 2011م، ص: 11-12.

⁵ وتختلفان في كون المدنيّة صفة حلقية مكنسبة تدل على توازن شخصية الفرد، عكس الحضارة الاجتماعية تتعلق بالاختراعات المادية والأنظمة الاجتماعية، ينظر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، عبد الرحمان حسين الغزاوي، ص: 25.

⁶ قصة الحضارة (نشأة الحضارة)، ويل ديورانت، تقديم محي الدين صابر، وركي نجيب محمود، دار الجيل للمطبوعات والنشر والتوزيع، بيروت، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والتعليم، دط، دت، مج1، ج1، ص: 03.

الجماعة وتمثّل مُهمَّتها في إعانة التّثافة والإسهام في رقيّها، ووصفُ (دُيورانت) (durant) الحضارة بالنّظام يجعلها تخضع للتّخطيط، وقد جاء هذا التّصوُّر مبنيًا على أربع مجالات تَمَسُّ مختلف جوانب الحياة، والأمن هو الدّافع والمحرّك لتحرّير النّفس معانقة الإبداع.

أمّا "مالك بن نبي" فيرى أنّ مشكلات الشّعوب ترجع في الأصل إلى مشكلات في الحضارة، ولا يمكن للأمم أن ترتقي إلّا إذا تمعنت في الأسباب التي ترفع من شأنها، وتزيد من قيمتها، وجاء تصوُّره للحضارة مختلفًا عن غيره، بعد اطلاعه على تعاريف كثيرة وضعها أشهرُ الفلاسفة الغربيين، وتميّزت في رأيه بالأحادية¹، فحاول بدوره وضع مفهومٍ يشمل الأفكار التي عرضوها ولخصها في معادلةٍ مفادها: الحضارة = الإنسان + التراب + الوقت، وقد ركّب هذه العناصر جميعها بالفكرة الدينيّة التي تشترط سلوك الفرد فتجعله يسير وفق غاية تتوارثها الأجيال لضمان استمرارها وذلك استنادًا إلى عناصرها، ووفقًا لإنجازاتها²، الذي منحها بعدًا وظيفيًا حيث قال: «هي مجموع الشّروط الأخلاقيّة والماديّة التي تتيح لمجتمع معيّن أن يقدم لكلّ فرد من أفرادها، في كلّ طور من أطوار وجوده، منذ الطّفولة إلى الشّيخوخة، المساعدة الضّرورية له في هذا الطّور أو ذلك من أطوار نموّه»³ قد ربط القائل قيام الحضارة بشروط أخلاقيّة، وضرورة توفير الإمكانيات الماديّة التي تُسهّل حياة الأفراد وتؤمنها، ما يضمن لهم العيش بكرامة في مختلف مراحل حياتهم و كان الاستمرار ميزتها، فضلًا عن حرص تقديم الإضافة الماديّة إلى الأفراد؛ كلٌّ من مكانه وحسب تخصّصه ومعرفة⁴، وقد عرّفها حسين حسين مؤنس في قوله: «الحضارة - في مفهومنا العام - هي ثمرة كلّ جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أو غير مقصود، وسواء

¹ - ينظر شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، سوريا، دط، 1986م، ص: 60-62.

² - ينظر مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي " بحث تمهيدي لمرحلة الماجستير في الدراسات الإسلامية"، عبد الملك عبد الرحمن عبد العزيز العتيق، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، لبنان، 2004م، ص: 9-10، نقلًا عن مفهوم الحضارة في القرآن الكريم ومالك بن نبي أمّودج المقارنة، التوبة، غازي، الوعي الإسلامي، العدد 383، رجب 1418هـ/1997م، ص: 28، ينظر شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عمر كامل السقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، دط، 1986م، ص: 45.

³ - القضايا الكبرى، مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر، سوريا، ط 2014، 11م، ص: 43.

⁴ - ينظر شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عمر كامل السقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، دط، 1986م، ص: 97، 87.

كانت الثمرة مادية أم معنوية¹ فهي بهذا المفهوم محاولة الإنسان لتحسين معيشتة بغض النظر عن الطريقة المتوخاة لذلك؛ سواء تمت عن تخطيط أو حدثت بتلقائية ، وبصرف النظر - أيضا - عن نوعية الثمرة اليانعة ملموسة كانت أو محسوسة.

غير أن أشهر تعريف للحضارة هو ما جاء به (إدوارد تاييلور) (edward taylor) في قوله: « إن " ثقافة " أو " حضارة " ، موضوعة في معناها الإثنولوجي الأكثر اتساعا، هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفرن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع² فالحضارة أو الثقافة مكتسبة بصفة لا شعورية من المجتمع، والثقافة هي الفيصل بين البدائيين والمتحضرين³، وتمثل في العناصر التي يكتسبها الإنسان من مجتمعه سواء بالتجربة والمعاشية اليومية أم بالوراثة والأخذ عن السابقين، وقد ساوى (تاييلور) (taylor) في تعريفه بين لفظي الحضارة والثقافة، وهذه المساواة خلقت جدلا كبيرا بين العلماء، سنحاول أن نعرض جانبا منه ، وقبل ذلك يجب الوقوف على معنى لفظة ثقافة.

3- الثقافة:

يرجع أصل هذه اللفظة إلى الفعل الثلاثي ثقف: ثقف ثقافةً وهذه اللفظة تحيل إلى دلالات جمّة من بينها: سرعة تعلم الشيء وفعله، ومنه المتأقفة وهي المعالبة في الحدق والفطنة وإدراك الشيء وفعله، والتثقيف هو التأديب والتّهذيب⁴ كما تدل كلمة الثقاف على الحديدية التي تقوم

¹ - الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، حسين مؤنس ، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1987م، ص: 13.

² - مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، دنيس كوش ، ترجمة منير السعيداني، مراجعة الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2007م، ص: 31.

³ - ينظر المرجع نفسه ، ص: 31-33.

⁴ - ينظر تاج العروس، الزبيدي، ج23، ص: 60-64، لسان العرب، ابن منظور، المجلد9، ثقف الشيء ثقفا وثقافة وثقوفة: حذقه ورجل ثقف ثقف إذا كان ضابطا لما يجويه، و ثقف ثقفا صار حاذقا فطنا، غلام لقن ثقف أي ذو فطنة وذكاء والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، الثقاف حديدية تكون مع القواس والزجاج يقوم بها الشيء المعوج، وتثقيفها تسويتها ينظر لسان العرب، ابن منظور ، مج 9، مادة (ث.ق.ف)، ص: 19-20. ينظر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، عبد الرحمان حسين العزاوي، ص: 07

اعوجاج السيف أو الرُمح وتُسَوِّيهُمَا¹، والثَّقَافَةُ بِالسَّيْفِ² أي الضَّرْبِ والمَلَاعِبَةُ بِهِ. كما تعني إيجاد الشَّيْءِ وَالظَّفَرُ بِهِ، حيث قال تعالى: M ! " # % \$ & () * + . 7 / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = L³ كما تُحِيلُ الثَّقَافَةُ عَلَى مَعْنَى الْقَيْدِ وَالْحَبْسِ⁴؛ ومن ذلك نستنتج أنّ لفظ "ثقافة" احتمَلَ معانٍ معنويّة، وأخرى ماديّة عديدة توحى بكثرة استعمالها في سياقات مختلفة.

وكان المعنى الاصطلاحي للفظ "الثَّقَافَةُ" في التّراث العربي محتفظاً ببعض دلالاته في أصل وضعه؛ ومن ذلك ما نجده لدى عبد الحميد الكاتب في قوله: «فتنافسوا يا معشر الكُتّاب في صُنُوفِ الآداب، وتفقهوا في الدِّينِ وابدأوا بعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، والفرائض ثم العربيّة، فإنّها ثقافُ ألسنتكم»⁵ أي استعينوا بالعربيّة في تقويم اعوجاج ألسنتكم وتهذيب كلامكم. وحاول الإغريق قديماً وَضَعُ تصوُّرٍ للثقافة من خلال تعريفهم للمثقف أنّه: «ذلك الذي يستطيع أن يكون كاتباً ماهراً: وفي آن معاً فيلسوفاً وعالمًا يمكنه حيازة معرفة كبيرة من كلّ فنٍّ وعِلْمٍ»⁶ وهذا التّعريف للمثقف يشبه التّعريف اللّغوي للمثقف أو الثَّقَفِ عند العرب الذي يتميِّز بالفطنة والمهارة في حيازة المعلومات مثلما أوردنا آنفاً.

وعُرف لفظ الثَّقَافَةُ لدى الغرب أيضاً وبالتحديد في اللسان الفرنسي، وذلك منذ القرن 13م، حيث كانت تعني لهم "العناية بالماشية" أو "الحقل"، وفي القرن 16م أصبحت تتّجه إلى ما يتعلّق بإصلاح الأرض من خلال قولهم (Agri - Culture)⁷، ودلّت في الأدب اللاتيني على معنى

¹ - ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة (ث. ق. ف)، مج 9، ص: 19-20.

² - ينظر جمهرة اللغة، ابن دريد، ج 1، ص: 429.

³ - سورة البقرة، الآية: 191.

⁴ - ينظر تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، عبد الرحمان حسين العزاوي، ص: 34

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص: 32، نقلاً عن المقدمة، ابن خلدون، ص: 44.

⁶ - ينظر الثقافة وتجلياتها السطح والأعماق، علي ناصر كنانة، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط 1، 2017 م، ص: 7.

⁷ - ينظر مفهوم الثقافة، دنيس كوش، ص: 17.

"التَّهْدِيب"؛ ومن ذلك قولهم: (Cultura-animi) بمعنى "التَّهْدِيب الرِّبَانِي"¹، وشهدت اللفظة خصوصية في القرن 18م؛ أين ظهرت "حركة الأنوار" فصار للإنسان أولوية على حساب الدين، كما تحررت من متمماتها المضافة لتدلّ على "التَّكْوِين" و"التَّربِيَّة". وفي القرن نفسه نقل الألمان لفظ الثقافة حرفياً عن الفرنسيين على اعتبار أنّ مدلوله كان حِكراً على الطبقة البرجوازية لديهم محاولين تقليدهم؛ فنتج صراع بين البلاط الألماني المنشغل بتقليد عادات الفرنسيين من حفلات واهتمام بالمظاهر، وبين الجامعيين الذين رأوا إهمالاً من الحكام للفنون والآداب، فكان الاختلاف متبايناً مسّ سلّم القيم، فعبروا عن كلِّ ما هو رُوحِي وفكري عميق بلفظة "ثقافة"، واعتبروا كلِّ فارِهٍ منمَّق الظَّاهِرِ سطحيّ "حضارة"؛ فالبرجوازيّون المتحضرون - من وجهة نظر الجامعيين - في حاجة إلى ثقافة ، وقد عملوا على تنمية هذه السّمة -الثقافة- في نفوس العامة².

وبحلول القرن 19م أصبحت الثقافة ميزة المجتمع الألماني بفضل انتشار صفات الرّوحية والصّدق بين أفرادهِ، لكن مع كثرة المشاكل السّياسية التي أدّت إلى انقسام ألمانيا وما نتج عنها من انقسام داخل هذا المجتمع أصبح النّاس يبحّثون عن مِيزَةٍ ترسم ملامح الشّعب الألماني، وجاء رأي (هيردر) (herder) الذي قال: بأنّ لكلِّ شعبٍ إنجاز يعكس ثقافته الخاصّة أي طريقته فاتحاً الباب للنّسبية في الثقافة؛ وبالتالي إمكانية تعدّد الثقافات في الرقعة الجغرافية الواحدة³، ورسخ هذا الاتجاه (بُؤا) (boowa) في ما بعد؛ إذ رأى أنّ كلِّ ثقافة تمثّل كليّة متفرّدة⁴، وأصبح لفظ ثقافة فيما بعد يشمل المنجزات الفنّية والفكريّة للأمة دون أن يشمل ذلك المنجزات الماديّة؛ سواء كانت اقتصادية أو تقنيّة وبخاصّة في القرن 19م أين أصبحت الثقافة تعبيراً عن رُوح الشّعب⁵، فيما اتّجهت محاولات (الإنجليز)

¹ - ينظر الحضارة، حسين مؤنس، ص:324.

² - ينظر المرجع نفسه، ص:20-22.

³ - ينظر مفهوم الثقافة ، دنيس كوش ص:23-24.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص:38-39.

⁵ - ينظر مفهوم الحضارة، حسين مؤنس، ص:324-325.

(الإنجليزية) إلى الجانب العلمي؛ حيث رأوا أنّها محاولة بلوغ الكمال الإنساني بأفضل ما قد يبلغه العقل البشري لتحقيق الرقي وهنا ظهرت قيمة الدين في تعزيز هذا الكمال¹.

وفي فرنسا تطوّرت لفظة "ثقافة" لتدلّ على السمات الخاصّة بشعب معيّن بعد أن كانت مرادفة للفظ "حضارة" وبخاصّة في الستينات²، ومن أشهرهم (إميل دُور كَايم) (durkheim) الذي كان يترجم عن الألمان كلمة "الثقافة" بلفظ "الحضارة" بعدما خلّص هذه الأخيرة ما شابها من إيديولوجيات، ورأى أنّ الإنسانية واحدة وتتكوّن من حضارات عديدة ساهمت جميعها في الحضارة الإنسانية، وفنّد القول بالتفاوت بين البدائيين والمتحضّرين³ كما حصّروها في النوع البشري حيث اتخذت الثقافة بُعداً إنسانياً لديهم⁴، وقرّنت لاحقاً بفكرة "التقدّم"، و"التربية"، و"العقل". وانتقل هذا المفهوم إلى العواصم الكبرى في أوروبا وأصبحت قريبةً من كلمة "حضارة" وإن اقترنت هذه الأخيرة بالتقدم الجماعي وتعلّقت الأولى بالتقدّم الفردي⁵.

وحاول العرب من وجهتهم وضع تعريفٍ للثقافة؛ ومن أشهرهم "مالك بن نبي" حيث قال: «الثقافة تتعرّف بصورة عملية على أنّها: مجموعة من الصّفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أولي في الوسط الذي وُلد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته»⁶ قد ربط بن نبي الثقافة بالأخلاق والقيم التي يكتسبها من مجتمعه بحيث بحيث تحدّد شخصيته، واعتبرها راسمال الفرد لأنّها العدة التي ينطلق بها في الحياة والتجربة هي من ستجعله يقرّر مصيره بين تكديس طباع وأخلاق مشابهة لما اكتسبه أو الاتجاه في مسار آخر.

¹ - ينظر مفهوم الحضارة، حسين مؤنس، ص: 325.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 42-43.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 44-45.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 25-26.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص: 18.

⁶ - شروط النهضة، مالك بن نبي، ص: 83.

ونستنتج مما أوردناه بأنّ الفرنسيين كانوا أصحاب الفضل في الاهتمام بلفظ "الثقافة" فاستخدموه بمعنى "الحضارة" ونقله عنهم الألمان من باب الاقتراض اللغوي بحيث اكتسب دلالات جديدة تمخّض عنها تمييز بين لفظي "ثقافة" و "حضارة"، وكان لهذين الرأيين أتباع، وسنحاول إدراج بعضهم:

"جعفر نجم نصر" الذي يرى أنّ أغلب علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا يستعمل الثقافة بدل الحضارة، ومنهم (تأيلور) (taylor) و(فِرْنَانْد بُرُودِيل) (Fernand Braudel) حيث رأى هذا الأخير أنّ الحضارة هي ثقافة كُتِبَتْ بأحرف كبيرة؛ فكلاهما يدلّ على القيم وأنماط التفكير والمؤسّسات¹ وهذا التعريف يرى أنّ الثقافة هي الجزء المادّي من الحضارة، وقد زكّي (صامويل هانت نغتون) (Samuel Huntington) هذا الرّأي حيث صرّح بالأ فرق بين المفهومين في قوله: «إنّ التّمييز بين الحضارة والثّقافة لم يأت سوى عند الألمان، وإن كان لم يُقبل في أيّ مكانٍ آخر وهذه المحاولات للتّمييز بين الحضارة والثّقافة لم تُنشر»² فهو يدعو لتجاوز فكرة الاختلاف بين المفهومين الذي ظلّ حبيساً في ألمانيا ولم تتقبّله سائر الدّول لأنّها لم تجد معنى لذلك.

أمّا "حسين مؤنس" فقد اشترط في قبول التساوي بين المفهومين، أن تدلّ الثّقافة على تراث خاصّ بشعب ما سواء دلّ على أسلوب حياة أو مفاهيم فيحدّد من جهة خصوصيته³، وهذا الرّأي يجعل الثّقافة - وبالتالي الحضارة- محصورة في الجانب المتوارث عن الأسلاف لأنّه العنصر الوحيد الذي يمنحه التّفرد عن سائر الثّقافات، ويحدّد من إمكانية خضوعها للتّجديد، عن طريق التّعلم

¹ ينظر مقدمة في أنثروبولوجيا عولمة الغرب من اقتصاديات الذات إلى جغرافيا الآخر (رؤية تحليلية)، جعفر نجم نصر، صفحات للدراسات والنشر، 2011م، ص: 24-25.

² ينظر المرجع نفسه نصر، ص: 45 - 46 ينظر صدام الحضارات "إعادة صنع النظام العالمي"، صمويل لتون، ترجمة طلعت الشايب، تقديم: صلاح قنصوة، New york، Center 1230 Avenue of the Americas، Rockefeller، Simon and Schuster،

ny10020، ط2، 1999م، ص: 68-69.

³ - ينظر الحضارة، حسين مؤنس، ص: 326.

اليومي، والتجربة المكتسبة؛ فنصبح بدورنا مرجعا للأجيال اللاحقة، ويمكن الاقتناع أكثر بهذا القول لو حدّد "حسين مؤنس" مفهوم هذا التراث، فهل يقصد به الدين مثلاً؟ أم تجاوزه لخلفيات أخرى؟ .

وقد ذهب فريق آخر للتمييز بين مفهومي الحضارة والثقافة، ومن بينهم (تزييفان تودوروف)¹ (Tzvetan Todorov) في قوله: «هناك استقلالية بين المفهومين، فالأول يحمل حكماً قيمياً مُطلقاً، والثاني يقتصر على تمييز حلقة من العالم مُدرجة في سياق تاريخي، الحضارة والثقافة ليستا مفهومين متعارضين، وذلك لأنّ كلّ مجموعة مُستقرة تمتلك بالضرورة ثقافة، ووجودها هو الشرط الضروري للحضارة»¹ والاختلاف بين المفهومين لا يعني وجود تعارضٍ لغياب التداخل بينهما؛ ففي الوقت الذي تركّز الحضارة على القيمة المادية للأشياء فإنّ الثقافة تشبّث بالتاريخ والتراث، ثمّ إنّ استقرار جماعة من الناس يؤدّي بالضرورة لتشكيل ثقافة وانضمامها لغيرها مكوناً حضارة؛ فالثقافة هي التّواة الأساسيّة لتشكيل الحضارة، أمّا (ماكس فيبر) (Max Weber) فجعل الثقافة تقتصر على القيم التي يضيفها الإنسان لمحيطه، فيما تتجه الحضارة للجانب التنظيمي الناتج عن التّقدم الماديّ لذلك فهي تراكميّة²، وتتجلّى الحضارة في الجوانب التّقنيّة، أمّا الثقافة فتتمثّل في الجوانب الروحية كالدين، والفلسفة، والفنّ³.

وكان للمفكرين العرب رأي في العلاقة التي تجمع الثقافة بالحضارة، ومن بينهم: "عبد الرحمن خليفة" و"فضل الله إسماعيل" في قولهما: «الحضارة هي الصّورة الماديّة لكلّ ما يصدر من الإنسان من نشاط، بينما تقتصر الثقافة على الجانب الفكري والمعنوي فقط»⁴ فالحضارة تجسيد ملموس ومرئي لما ينتجه الإنسان من أفكار، أو ما يحوزه من معارف ومهارات وهو ما يُعرف بالثقافة، وهو رأي قريب

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص:46، نقلاً عن الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات، تزييفان تودوروف، ت. جان ماجد جبور، حياة أبو ظبي للثقافة والتراث - كلمة، الإمارات العربية المتحدة، دط، 2009م، ص:38.

² - ينظر تاريخ الحضارة العربية الإسلاميّة، عبد الرحمان حسين الغزاوي، ص:38

³ - ينظر مقدمة في أنثروبولوجيا العولمة، جعفر نجم نصر، ص:19

⁴ - أطروحات فوكوياما و هانتنتون و النظام العالمي الجديد، يحي سعيد قاعود، ص:46.

من اعتبار الحضارة مجموعة من النظم، والعلوم، والصناعات، والاختراعات، فيما تشمل الثقافة اللغات والتاريخ، والآداب، والعلوم الإنسانية¹.

أما "حسين مؤنس" فحاول تقريب صورة العلاقة التي تجمع الحضارة بالثقافة فمثلهما بالعلم والفن؛ فالأول متشابه في جميع بلدان العالم كالأطباء مثلا: إذ تجدهم يتحدثون بلغة واحدة فيما بينهم سواء كانوا في فرنسا أو مصر أو المكسيك وهو ما يجعل تواصلهم عالميا، أما الفن؛ فهو "نسي" يتغير من بلد لآخر والأدب باعتباره فناً يختلف بين البلدان من حيث اللغة المستعملة، وطبيعة الموضوعات التي يعالجها، فضلا عن الأصول الفنية حتى داخل البلد الواحد، تبعاً لذوق أهله ومزاجهم؛ لذلك فهي ذاتية ونسبية²، وهي على هذا الاعتبار جزء من الحضارة، وقد استند في هذا الطرح إلى ما وجدته عند ابن خلدون الذي رأى أنّ الحضارة هي نهاية "ال عمران" وقد استخدم هذا اللفظ الأخير مرارا ليعبر به عما هو معروف عند "حسين مؤنس" بالثقافة³.

كما أيد هذا الرأي (أوسواينلد شينجلر) (Oswald Spengler) الذي يرى: أنّ الحضارة هي بلوغ أقصى درجات الوعي والتقدم الفكري، ولذلك حكم بأفول شمس حضارة الغرب، لأنهم دخلوا مرحلة "الحضارة العالمية": وهي عبارة عن قوالب ثابتة في التفكير والتصرف أثرت سلبا على الثقافة باعتبارها تمثل بصمة الشعوب؛ فطغيان الحضارة يطمس الثقافة، وهو ما يشكل تهديدا للغرب والعرب على حدّ سواء نظرا لتأثيرها الخطير في اختلال توازن القيم المؤذن بهلاك الدول⁴، وقد ساند من جهته عبد الرحمن عزوي هذا الطرح من جانبه⁵.

¹ - ينظر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، عبد الرحمان حسين العزاوي، ص: 29-30

² - ينظر الحضارة، حسين مؤنس، ص: 317-318.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 334-335.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 333-337.

⁵ - ينظر تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، عبد الرحمان حسين العزاوي، ص: 37.

واتخذ فريق آخر رأياً مخالفاً مُعتبراً الثقافة أوسع من الحضارة على اعتبار هذه الأخيرة تحمل معنى ضيقاً لأنها تقتصر على الشعوب التي بلغت مستوى عالياً من التمدن والاشتمال على جميع العناصر المادية واللامادية التي أنتجها الإنسان، أما الثقافة فهي عامة لجميع الشعوب؛ فهذه الأخيرة سواء أكانت بسيطة (الشعوب البدائية) أم معقدة فإنها تمتلك ثقافة، والاختلاف هنا يكمن في درجة التقدم لا غير، أما المدنية فهي إحدى أوجه الحضارة في تطورها¹، وذهب البعض الآخر في تفصيل العلاقة بين المفهومين إلى أبعد من ذلك فقد عدّها "إدريس هاني" علاقة جدلية بينهما؛ فالثقافة هي مرحلة القوة من الحضارة التي تُعتبر بدورها تجسيدا للثقافة، فهما وجهان لعملة واحدة: الأول سمته قُوّة الدّفع سمي ثقافة، والثاني صورته مادية تُسمى مدنيّة²، ونقطة التحوّل للثقافة تبدأ عند الدخول للمصنع وظهور التكنولوجيا، وقد مثلها بعضهم بالزراعة، فهي مرحلة تتوسّط البداوة أي ما قبل الزراعة، ومرحلة المدنيّة التي تلي اكتشاف الزراعة والاستعانة بمعدّاتها³.

ويرى (جون ديوي) (John Dewey) أنّ الثقافة هي التفاعل بين الإنسان ومحيطه ملامسا بذلك مفهوم (أرنولد توينبي) (Arnold Toynbee) لها الذي اعتبرها استجابة للتحديات التي يفرضها الواقع، ولم يحدّد التعريفان طبيعة الاستجابة، فيما ذهب (ت.س. إليوت) (T. S. Eliot) إلى أنّ الثقافة تجسيد لدين الشعب⁴، حاصراً إيّاها في الإطار الروحي، أمّا (إ.س. سابين) (E. Sapir) فقد عرّفها على أنّها نسق اتّصال بين الأفراد عبر الدلالات المتداولة⁵ لغويّاً في الإطار التواصلي، وحدّدها (ليفي سترأوس) (Lévi-Strauss) في مجموعة من الأنماط السلوكية السائدة بين جماعة من

¹ - ينظر المدخل إلى علم الاجتماع العام، أحمد طاهر مسعود، المنهل، 2011م، دط، ص: 133.

² - ينظر استمرارية التاريخ ما بين صدام المصالح وحوار الحضارات، حسن إبراهيم احمد، مؤسسة علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دط، www.books.google.com، ص: 59.

³ - ينظر العولمة الثقافية واللغة العربية (التحديات والآثار) محمد يوسف الهزايمة، دار المنهل، لبنان، دط، ص: 63-64.

⁴ - ينظر الحضارة، حسين مؤنس، ص: 325.

⁵ - ينظر مفهوم الثقافة، دنيس كوش، ص: 86-87.

البشر في مدة زمنية محددة¹، فهي تُترجم من خلال ممارسات الأفراد، وقد ربطها بشرط زمني، فهي في سيرورة وتجدد دائم وغير جامدة، وقد استقرّ مفهوم الثقافة لدى العرب على أنّها السرّ الكامن وراء كلّ ما نمارسه من سياسات وممارسات، أو هي ما يعلق في الذهن بعد نسيان كلّ شيء نتعلّمه².

وصعبت هذه الآراء قضية تحديد علاقة الثقافة بالحضارة مهمة علماء الأنثروبولوجيا لصياغة تعريف موحد للثقافة³، وقد عُقدت مؤتمرات وخصّصت أبحاث لوضع تعريف شامل لكن دون جدوى، فقد أُحصي لها أكثر من مائة تعريف⁴، لاقتها ببعض المفاهيم مثل الهوية⁵ والذهنية⁶ والتربية⁷ لذلك تعدّ من أكثر الكلمات دوراناً واستعمالاً لارتباطها بمختلف الميادين فنجد "مصطلح" التعددية الثقافية"⁸، و"ثقافة الحكم"، و"ثقافة المعارضة"، كما تدلّ على ردّة فعل الإنسان تجاه تصرف جماعة فنقول: "تلك هي ثقافتنا"، كما استخدمت لمعانٍ سلبية مثل "ثقافة الموت"⁹، كما يعود هذا التعدد في التعاريف لاختلاف زوايا النظر إلى الثقافة، حيث اتّجه البعض إلى تعريفها من حيث عناصرها؛ فذهب "حسين مؤنس" إلى أنّها تشمل طريقة العيش، والمعتقدات والعلوم، واللغة، والطعام واللباس، والصناعات اليدوية والأغاني، والأمثال الشعبية، وكلّ ما ينضوي تحت ما

1- ينظر مقدمة في أنثروبولوجيا العولمة، جعفر نجم نصر، ص: 25

2- ينظر الأمة العربية الممزقة بين البداوة المتأصلة والحضارة الزائفة دراسة لتفسير الصراع بنظرية العقل المجتمعي، علاء الدين صادق الأعرجي، شركة بريطانية مسجلة في إنجلترا E- kutub ltd لندن، 2015 م، ط1، ص: 59.

3- ينظر مفهوم الثقافة، دنيس كوش، ص: 30

4- ينظر الجودة الشاملة في التعليم " وأسواق العمل في الوطن العربي"، خالد محمد الزواوي، مجموعة النيل العربية، مصر دط، 2003م، ص: 18.

5- الهوية: تشكل بطريقة لا واعية، أما الذهنية: تحيل على معيار انتماء واع ظهر في الولايات المتحدة، وارتبطت أكثر بالجانب الاجتماعي؛ فنجد الهوية الاجتماعية التي تمكن الفرد من حجز مكان ضمن نسق اجتماعي، وأن يحدّد الآخرون مكاناً له في الإطار ذاته، وصار للهوية شأن كبير في بعض الدول التي أصبحت لا تتسامح في هذا الجانب، ينظر مفهوم الثقافة، دنيس كوش، ص: 148-159.

6- استخدم اللفظ في بادئ الأمر عند "بروغل" مقابلاً للثقافة، ينظر الحضارة، حسين مؤنس، ص: 49.

7- ينظر الثقافة وتحليلاتها السطح والأعماق، علي ناصر كنانة، ص: 09.

8- لطالما كان هناك تعدد في الثقافات حتى داخل المجتمع الواحد لكن أصبح يعني ضرورة الاعتراف السياسي، والرسمي بضرورة التعدد الثقافي، ينظر مفهوم الثقافة، دنيس كوش، ص: 184.

9- شُوش مفهومها بسبب الاستخدام غير الملائم؛ فقد تدلّ الثقافة على معنى سلبي مثل "ثقافة الموت" التي كثرها (يوحنا بولس) مراراً أو "ثقافة الكراهية" للتعبير عن عنف شباب الضواحي، ينظر المرجع نفسه، ص: 171-173.

يسمى "الفولكلور" شرط أن تنبع من تجاربه الخاصة وظروفٍ محيطة¹، وهذا التعريف لمؤنس يجعلها قريبة قريبة مما هو متوارث وقريب من الفلكلور وفي تماسٍ مع الحضارة مثلما أشرنا سابقا.

كما يمكن النظر إلى الثقافة من حيث أنها تُراث يتمثل في طراز العمارة والمخطوطات والكتب، أو إبداعا سواء كان أدبياً، أو مسرحاً، أو فنوناً تشكيليةً، أو عاداتٍ وتقاليدها تميّز بها كلّ قومٍ عن غيرهم، فالثقافة تعبير عن هويّة الأمة وتماسكها²، وقد تُعرّف الثقافة -أيضا- على اعتبار وظيفتها وظيفتها ودورها في الحياة؛ إذ أنّها تعمل على إشباع حاجيات البشر الجسمانية بواسطة المؤسسات التي تمثل الجانب الملموس للثقافة حسب ما ذهب إليه (مالينوفسكي) (Malinowski) ³ كما تعمل على تزويد الوظائف الحيويّة بالمعلومات من: أكل، ونوم، وجري⁴، ولا تُؤثّر الثقافة على البشر البشر فحسب، بل تتعدّاهم إلى الطبيعة فهي تُؤوّلها وتحوّلها.

ونستنتج ممّا سبق أنّ الفرنسيين رأوا ألا تعارض بين لفظتي "الحضارة" و"الثقافة" من حيث المعنى الاصطلاحي فيما يرى الألمان عكس ذلك وهم الذين نقلوا كلمة الثقافة حرفياً عن الفرنسيين⁵، وبعد ما عرضناه من تصوّرات لتعريف اللّفظتين لدى الفلاسفة وعلماء الأنثروبولوجيا من العرب والعرب، واستنادا لما سبق، يمكن القول إنّ الثقافة هي كل ما يحصّله الإنسان من محيطه سواء بالوراثة أم بالأخذ بما في ذلك الجانب الرّوحي، بحيث يمنحه الخصوصية، ويحدّد شخصيّته وأسلوب عيشه، أمّا "الحضارة" فهي كلّ إنجاز يُقدّم على تحقيقه بحيث يعكس ردّة فعله إزاء هذا المحيط بقصد تيسير حياته، وهي انعكاس لثقافته في الآن ذاته؛ فكم من اختراعات تغزو الأسواق اليوم تتشابه في وظيفتها ولكنها تختلف في خصوصيّتها من بلد لآخر!؛ فالعديد من المنتجات الآسيوية - مثلا - كانت

1- ينظر الحضارة، حسين مؤنس، ص: 319-324.

2- ينظر العولة الثقافية واللغة العربية، محمد يوسف الهزايمة، ص: 60-61.

3- ينظر استمرارية التاريخ ما بين صدام المصالح وحوار الحضارات، حسن إبراهيم أحمد، ص: 59.

4- ينظر المرجع نفسه، ص: 74.

5- ينظر أطروحات فوكوياما و هانتنغتون و النظام العالمي الجديد، يحي سعيّد قاعود، ص: 45.

كفاءتها أقلّ من نظيرتها الأوروبية، وفي أوروبا ذاتها تشتهر المنتجات الألمانية بجودتها عاكسة شخصية الفرد الألماني الذي يحبّ الإتقان والفخامة في كلّ شيء¹.

4- علاقة الأدب بالحضارة :

كان العرب في الجاهلية يحتفون بالأدب - ونقصد هنا الشعر - ويعدّونه مدعاة للفخر والتباهي فيما بينهم وهذا عائد إلى الدور الهامّ الذي أنيط به؛ والمتمثّل في الدفاع عن القبيلة والإسهام في التعريف بها، والرّفيع من شأنها بين نظيراتها لذلك كانت حضارتهم "حضارة أدب"؛ فقد مجّده دون الاكتراث بالبُعد الأخلاقي في غالب الأحيان، فكثيراً ما امتزج بالسّحر، والكهانة، والمجون حتّى إذا جاء الإسلام هدّب ألفاظه وحمله رسالة سامية بالتأليف بين المسلمين وتقريبهم أينما كانوا²، وقد نزل القرآن على الرّسول محمّد (صلى الله عليه وسلّم) في قبيلة قريش التي كانت من أهمّ حواضر العرب آنذاك وفيها نشأ خلفاؤه الرّاشدون، وجاء الإسلام لينقل العرب من ظلام الجاهليّة إلى نور العلم والمعرفة³.

وهذه التّقلّة التي أحدثها القرآن الكريم في حياة العرب طالت الشعر أيضاً، فكان شديد الصّلة بواقعهم، فهو ديوانهم و ترجمان حياتهم؛ إذ أثر القرآن بلُغته ومعانيه فيهم واستجابة لذلك اختلفت معايير النّقد الأدبي في منطقة الحجاز؛ حيث تباينت نظرة النّقاد القدامى للعربية الفصحى بين غيور على لغة البداوة، وحريص على العودة إلى الألفاظ التي تداولها الأقدمون من الجاهليّين، وبين آخر يرى أنّه يجب على اللّغة أن تنطلق من البيئة الجديدة وأن تحاكي الحياة اليوميّة بما في ذلك التّعاليم التي بثّها الإسلام في الناس⁴، وقد أسهم هذا الدّين الحنيف في خلق لغة جديدة هي لغة الحضارة التي

¹ - ينظر منافسة شرسة بين مصنّعي السيارات الألمان واليابانيّين والأمريكيّين، اسكندر الديك، الحياة www.alhayat.com، الأحد 18 ماي 2014م، يوم 16-02-2018، على الساعة 10:15.

² - ينظر من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة، حسن الأمراني، العدد 45، مجلة حراء www.hiramagazine.com.

³ - ينظر لغة الشعر الإسلامي وتطورها بين البداوة والحضارة، علي كمال الدين الفهادي، مجلة أدب الرافدين، العراق، العدد 40، 2005م، ص:

2-1.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 3.

جانبت غرابة البدو، ونطقت بلغة الحياة الحضرية؛ وهو ما تمثل بوضوح في "شعر الحجاز" الذي نطق بلغة القرآن، ولاسيما "الشعر الديني" منه، فيما استعان "شعر الفُتوح" بالعديد من الكلمات الأعجمية وبالأخص أسماء الأعلام والأماكن¹، وذلك وفقاً لطبيعة الموضوع وثقافة الشاعر.

وأثر الإسلام -أيضاً- على نوعية المواضيع المطروقة وطريقة طرحها، فنتج عن ذلك تمايز في أسلوب تعبير الشعراء حتى في الغرض الواحد وحسبنا أن ننظر إلى ما خلفته "الخنساء" في شعرها قبل دخولها الإسلام وبعده²، وبالمقابل أثار الشاعر في بيئته من خلال تصحيح نظرة الناس للإسلام المتمثلة في الدفاع عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ ومن ثمّ كسب أتباعاً جدد بفضل مخاطبة الأدب للعاطفة والعقل معا بعد أن كان مقتصرًا في السابق على العواطف فقط؛ وهو ما منحه قوة أكبر، وتأثيراً أكثر في المتلقين بفضل تحيّر الألفاظ والمعاني³.

ولم يكن الإسلام هو الدافع الوحيد في النقلة التي شهدتها لغة العرب قديماً؛ فقد كان لاختلاف طرائق العيش دور مهم في هذه المسألة بفضل كثرة الأمصار التي نتجت عن توسع الخلافة الإسلامية وما تبعها من تحوّل في طبائع الناس وخير مثال على ذلك قصة "علي بن الجهم" مع الخليفة "المتوكل" عندما مدحه بأبيات صاغها بلغته البدوية الخشنّة⁴، فعرف المتوكل حُسن مقصده بالرغم من خشونة لفظه، وأمر له بدار حسنة على وادي دجلة وأقام فيها مدّة ثم عاد ومدحه بقصيدة "بين

¹ - ينظر لغة الشعر الإسلامي وتطورها بين البداوة والحضارة، علي كمال الدين الفهادي ص: 8-10

² - هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمي، وقدرت ولادتها سنة 575م، واشتهرت بذكائها وجمالها ورجاحة عقلها، اشتهرت برثائها الكبير لأخويها معاوية وصقر هذا الأخير الذي خلفت فيه ديوانا لثرائه حتى ضرب بها المثل في هذا الغرض، وعندما جاء الإسلام دفعت بأبنائها الأربعة إلى الجهاد ولما بلغها نبأ وفاتهم قالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"، ولم تزد عليها شيئاً وتوفيت سنة 646م، ينظر ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه حمدوطواس، دار المعرفة، لبنان، ط2، 2004م، ص: 11-123

³ - ينظر المرجع السابق، ص: 19

⁴ - قال علي بن الجهم:

أُنسِتْ كَالكُلُوبِ فِي حَفْظِ كَلِّ لَللُّوْدِ وَكَلِّ التَّيْسِ فِي قِرَاعِ الحُطُوبِ
أُنسِتْ كَالسُّدُودِ، لَا عَدِمْنَاكَ دَلُودًا مِنْ كَيْبَارِ السُّدُودِ، كَبِيرِ السُّدُوبِ

ينظر علي بن الجهم الشاعر البدوي... بين الرصافة والجسر، محمد الحسيني، كلية التربية للعلوم الإنسانية، العراق، 26 سبتمبر 2001م،

الرّصافة والجسر" التي تفيض رقة وعدوبة متأثراً بالبيئة الجديدة المتحضرة¹، وكان بشر بن المعتمر أول من نبّه إلى ضرورة تحيّر الألفاظ بما يناسب المعاني وألح على ضرورة الابتعاد عن التّعقيد النّاجم عن التّوعر لأنّه سيسلّم إلى الغموض والإبهام²، وقد وافقه في ذلك تلميذه الجاحظ³.

وجاء على إثرهما "عبد القاهر الجرجاني" الذي تنبّه هو الآخر إلى تأثير البيئة على الأدب فأكد على أنّ سلامة اللفظ تأتي من سلامة الطّبع وهو ما يتجلّى - بحسب رأيه - بوضوح عند شعراء الغزل الذين يتخيرون أعذب الألفاظ وأرقّ المعاني تعبيراً عن عواطفهم، كما يمكن أن نلمس الفرق في أشعار الجاهليين ممّن استوطنوا البادية أو أهل الحضّر؛ فألفاظ البدو صعبة معقّدة وهذّبت عبارات الحضّر واسترسلت، وهو ما نستشفّه من قوله: «فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتّسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التّأدّب والتّظرف اختار النّاس من الكلام أليّنه وأسهله، وعمدوا إلى كلّ شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقترضوا على أسلسها وأشرفها؛ كما رأيتهم يختصرون ألفاظ الطّويل؛ فإنّهم وجدوا للعرب فيه نحو من ستين لفظة؛ أكثرها بشع شنيع»⁴، وقد قرن "الجرجاني" التّأدّب والظّرف وما يتبعهما من لباقة بالحواضر والأمصار والعكس صحيح؛ فقد مال النّاس إلى الألفاظ القريبة من تركيباتهم النّفسيّة الباحثة عن الجوّدة والرّقة واليسر في كلّ شيء، وبرّر الدّافع الذي صارت بسببه العديد من الكلمات العربيّة الفصيحة "مهملة"، وهو يعود في رأيه إلى صعوبة تركيبها وثقلها على

1 - وما جاء في مطلعها قوله :

عُيُونُ الْمَهْمَلَةِ بِبَيْنِ الرُّصَافَةِ وَالْجَسْرِ

ينظر علي بن الجهم الشاعر البدوي... بين الرصافة والجسر، محمد الحسيني.

2 - ينظر البيان والتبيين، تأليف أبي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع،

القاهرة، ط7، 1998م، ج1، ص:136

3 - ينظر المرجع نفسه، ص:138

4 - الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، و علي محمد الجاوي مطبعة عيسى

الباي الحلبي وشركاه، دط، دت، ص: 18

المستمع، بعكس ألفاظ أخرى اكتسبت بفضل حَقَّتْها على اللسان، وحُسن وَقَعها في الأذهان معان جديدة، وذلك وفقاً للسياقات التي وُظِّفت فيها.

وقد وافق حازم القرطاجي من خلال إيراد مصطلح "التخييل" الذي جعله عمدة الشعر، وقد ركّز من خلاله على سيكولوجية المتلقي في قوله: « والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر والمخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخييلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية الى جهة من الانبساط أو الانقباض»¹ وهذا التعريف نبّه على ما يثيره الخطاب الشعري الصادر عن الشاعر المتخيل بواسطة الأساليب والمعاني، فضلا عن تحيّر الألفاظ وطريقة رصفها، وما ينتج عن ذلك كلّ من صور يحدث تخيلها، وتصورها، واستدعاؤها بصورة شيء آخر انفعالا تلقائيا في نفس المتلقي يتسم بالغرابة التي تحرك المشاعر.

ونستنتج من هذا أن الشعر الجاهلي صوّر الحياة اليومية والتزم بقضايا المجتمع لذلك استحقّ الخطوة التي نالها عند العرب قديما، ولما جاء الإسلام هدّب ألفاظه وأثّر في معانيه فاستجاب الشعراء لمعطيات الحياة الجديدة التي عرفت انفتاحا فأبدعوا في استحداث أغراض تخدم الرسالة المحمدية وصار "أدب حضارة" وتفاعل مع المستجدات مؤثرا في مسار العديد من القضايا²، وأثرى تراثنا العلمي والأدبي بآثاره التي لا يزال صداها إلى الآن .

واليوم نحن مدعوون إلى التّهوض بحضارتنا - في ظلّ سياسة العولمة ومختلف التّحدّيات - وإعادة تصحيح مسارها من حضارة أدب إلى أدب حضارة لتحقيق شروط الإنسانية التي لا تقوم إلّا على تمجيد الرّوح³؛ ذلك أنّ الأدب إذا لم يتمكّن من تقديم الإضافة للمجتمع فلا جدوى منه، والتّحدّي الذي يواجه المثقّف العربي اليوم هو كيفية إفادة المتلقي بعد الطّفرة التي أحدثتها الدّين

¹ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صنعة أبي الحسين حازم القرطاجي، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008م، ص: 89.

² - ينظر الأدب و المجتمع "دراسة في علم اجتماع الأدب"، حسين عبد الحميد أحمد رشوان المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2005، ط1، ص: 173.

³ - ينظر من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة، حسن الأمراي.

الإسلامي وبخاصة في الأدب العربي، و لاسيما الشعر وهو ما أسهم في زراعة شجرة الحضارة الإسلامية التي لا زالت فروعها تمتد معانقة السماء، وإن كانت تعاني من الذبول ، فهي ثابتة وتواجه تحدي الصمود - وإثما لمنصورة - كما وعد الله (عز وجل) - وسط مختلف الرهانات، وقد احتفظ لنا التاريخ العربي بحقبة فريدة من نوعها ذلك أهما كررت تقريبا فترة القوة في حضارتنا الإسلامية (صدر الإسلام)، والتي انبثقت منذ البعثة المحمدية؛ ونقصد هنا "عهد الموحددين في المغرب الإسلامي" والذي عدّه مالك بن نبي أنموذجا متميزا للتحضر في تاريخ الإسلام والمسلمين وذلك منذ معركة صقّين¹، وسنحاول في هذا البحث معرفة مبررات مالك بن نبي لإطلاق هذا الحكم على هذا العهد.

¹ - ينظر وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار لفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر المعاصر، سوريا، ط1، 1986م، ص: 34-39.

الفصل الأول: واقع الحضارة على عهد الموحدين

أولاً: لمحة عامة عن عهد الموحدين:

1- نبذة عن قيام دولة الموحدين

2- النظام العسكري

3- النظام الإداري

4- الحياة الدينيّة

5- الحياة الاقتصاديّة

6- الحياة الاجتماعيّة

7- البناء والتّعمير

ثانياً: الحياة العلميّة والفكريّة

1- المحاضرات العلميّة

2- المؤسسات التعليميّة .

3- روافد الحركة العلميّة.

4- تجليات الحركة العلميّة

5- ميادين الحركة العلميّة.

تطرّقنا في موضع سابق إلى تعريف الحضارة عند (ويل دُيورانت) (Will Durant) الذي حكم عليها انطلاقاً من عناصرها فقال: « الحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخليقة، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ من حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف، تحرّرت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعد إذ لا تنفك الحواجز تستنهضه للمضيّ في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها»¹ فالحضارة إنتاج جماعي يعين الثقافة ويسهم في تنميتها، ولا يمكن الحكم عليها إلا بعد الاطلاع على مختلف عناصرها التي تمس الحياة اليومية للفرد؛ سواء تعلقت بالناحية الاقتصادية وما يتعلق بها من صناعة، وزراعة، وتجارة، أو سياسية تتعلق بنظام الحكم والإدارة، أو اجتماعية تتعلق بالقيم وتكوين السكان، فضلاً عن العادات والتقاليد، إلى جانب العلوم والفنون التي ينتجها الإنسان، ولا يمكن لهذه العناصر أن تتألف لولا وجود الاستقرار الذي يضمن وجود هذا التّجمع الإنساني وليكن الدولة مثلاً.

وسنحاول في هذا الفصل التّعرف على دولة الموحدين انطلاقاً من هذا التعريف، وسنعرض أولاً مختلف الأنظمة التي قامت عليها هذه الدولة، ونخصّص المبحث الثاني لمختلف العلوم التي نشأت في كنف هذه الدولة، أمّا الفنون ونقصد هنا الأدب فستعرّف عليها في مواضع لاحقة من هذا البحث، وإنّه من باب الأمان العلميّة أن نشير إلى أنّنا اعتمدنا في معالجتنا للمبحث الثاني التّقسيم الذي اعتمده "علي عشي" في بحثه الموسوم "المغرب الأوسط على عهد الموحدين".

¹ - قصة الحضارة، ويل ديورانت، ص: 03.

أولاً - لمحة عامة عن عهد الموحدين:

1 - نبذة عن قيام دولة الموحدين:

كان المغرب الأقصى يخضع لحكم المرابطين¹ بقيادة عبد الله بن ياسين (-459هـ)² الذي أقام دولته على أساس ديني، ثم خلفه يوسف بن تاشفين (-581هـ)³، وقد أسهمت جهوده ومن تبعه في تغيير ملامح الحياة على تلك البلاد، وتمكنوا من توسيع نفوذهم إلى الأندلس، فلما استقرت دولتهم، اندلعت حركة دينية على يد رجل مغربي آخر سعى إلى تقويض ملكهم، وهو المهدي محمد بن تومرت⁴ إذ عقد المناظرات لتأليب العامة ضدهم¹، فاستمال الناس مستفيدا من فصاحته وعلمه²، ونعت المرابطين بالمجسمين، وعددهم كقارا يجب قتالهم³.

¹ . بدأت الدعوة إلى هذا المذهب من الرباط؛ حيث اجتمع فيه هو وأتباعه للتعبد والجهاد مصداقا لقوله تعالى $\frac{3}{4} \frac{1}{2} \frac{1}{4} M$

ع ن $L\bar{A} \quad \bar{A} \quad \bar{A} \quad \bar{A} \quad \bar{A}$ ، سورة آل عمران، الآية:200، وقيل أيضا إنهم سموا كذلك نسبة إلى الرباط الذي أنشأه عبد الله بن ياسين في السنيغال تمهيدا لدعوته، ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، حسن علي حسن، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980م، ص:21، ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، ط2، 2008م، ص:19.

² - قيل إنّه كان عالما بأمور الدين، وتمتّع أيضا بنفاذ بصيرة، وبعد نظر، ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، حسن علي حسن ص:20.

³ - هو أمير المسلمين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني أمير المسلمين وملك الملتمين، كان بطلا شجاعا، وحازما، كريها، وشيخا زاهدا، وهو الذي اختط مدينة مراكش، ينظر الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، للشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي (قيل لأبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي)، عني بتصحيحه وطبعه وترجمته كارل جونس تونبرغ، دار الطباعة المدرسية، دط، 1833م، ص:87، ينظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، دت، ج7، ص:112، ينظر أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط2، 1980م، ص:354-355.

⁴ - هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود يرجع نسبه إلى الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) اسمه البربري (أسفو) بمعنى الضياء لأنه كان يكثر من إيقاد السراج في المساجد، وتومت، و(أمغار) هما لقبان لأبيه، ولد سنة 471هـ بمنطقة تينمل في جبال السنوس، قرأ في قرطبة والمهدية، ثم ارتحل إلى المشرق أين التقى بأبي حامد الغزالي صاحب كتاب "إحياء علوم الدين"، ثم قفل راجعا إلى المغرب بعد رحلة دامت أربعة أعوام، وبدأ في دعوته إلى أن بويغ سنة 515هـ، وخاض معارك ضد المرابطين إلى أن مات سنة 524هـ، ودفن في مسقط رأسه، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتّاني الشهير بابن القطان المراكشي، درسه وقدم له وحقق له الدكتور محمد علي مكي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1990م، ص:87-92، تاريخ المغرب العربي (تأسيس الدولة وقيامها 550-555هـ)

ثم خلفه عبد المؤمن بن علي (-580 هـ)⁴ الذي أنهك المرابطين بحروبه، وتمكّن من انتزاع معقلهم - مراكش - بفضل دهائه، وأخضعها بعد صراع طويل متّخذاً إياها عاصمةً لملكه⁵، ثم قرّر التوسّع شرقاً وبخاصّة بعدما بلغه من تطاول قبائل بني سليم وهلال من وجهة، والعدوان الخارجي على الساحل من وجهة أخرى، فتوجّه بجيش إلى بجاية سنة 546 هـ فاتحا قلعة بني حماد بعد أن أحرقها ونصّب ابنه عبد الله حاكماً عليها، وتمكّنت حملاته المتتالية من إخضاع طرابلس الشرق وتوحيد المنطقة لأول مرّة، ثم تطلّع لضمّ الأندلس فجهّز لذلك حملة كبيرة؛ وتمّ له أمر العديد من مُدنها⁶، بعدما قضى على محمد بن سعد بن مردنيش (-467 هـ) أمير شرق الأندلس، وحليفه ابن همشك اللذين آزرهما ملوك النصارى، لكن سرعان ما ضيق عليهما الخناق فاستسلم ابن همشك، وظلّ ابن مردنيش متمرداً على الموحدين إلى أن مات⁷ بعدما أضرب بمصالح الدولة وجرّاً عليها الطامعين، وقرّر عبد المؤمن

سعد زغلول عبد الحميد، منشأة دار المعارف، الإسكندرية دط، دت، ج5، ص240، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، تحقيق وتعليق محمد ماضور، الكتبة العتيقة، تونس، ط2، 2002 م، ص: 5-7.

¹ - ينظر تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الزركشي، ص: 26.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 28-29.

³ - ينظر تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمان بن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، دط، 2000 م، ج6، ص: 300-305.

⁴ - هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي التدرومي مؤسس دولة الموحدين لازم المساجد وتلاوة القرآن، اعتمد الارتحال إلى الشرق فلقي ابن تومرت في بجاية واصطفاه لما لمح فيه من النبوغ والعبقريّة، كان فقيها حافظا للسنة، وأديبا بارعا، حافظا للتاريخ وأيام الناس، صارما في تنفيذ أحكام الدين، محبا للغزو، وكانت وفاته بمدينة سلا، ودفن بتينمل إزاء قبر ابن تومرت، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لسان الدين بن الخطيب، دط، دت، ص: 107، ينظر تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الزركشي، ص: 7-13، ينظر معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص: 218-219، ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 206-2013.

⁵ - ينظر إعلام أهل العلم والدين بأحوال الموحدين، سقوط الأندلس الإسلامية ومحكم التفتيش البربرية، علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط1، سنة 2002، ص: 76-89.

⁶ - ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص: 312-315.

⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص: 318.

ترسيخ حكمه فجعل الملك إرثا بين أبنائه¹، بعدما كان يقوم على حسن الدين ولم يتوقف عن الجهاد إلى أن وافته المنية².

ثم خلفه ابنه أبو يعقوب يوسف (-580هـ)³، لما تميّز به من عدل، وحزم، وعلم، وقد تمكّن تمكّن من إخماد ثورة جبال غمارة⁴، وثورة قراقوش عميل الأيوبيين فنجح الأمير الموحي في إخمادها، واستدعته الظروف بعد ذلك إلى عبور الأندلس لقتال الصليبيين فأصيب بسهم في إحدى معاركه أودى بحياته بعد خلافة قاربت الثلاثين عاما⁵.

وبويع بعده ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور (-554هـ)⁶ الذي كان عهده ميمونا فقضى على ثورة الجزيري، وقاتل بني غانية في الجزائر الشرقية بالأندلس الذين حاولوا بعث حكم المرابطين بإغارتهم على بجاية، وافتكاكها من الموحيين سنة 581هـ، لكن سرعان ما قاموا باسترجاعها لكنهم لم يتمكنوا من استئصالهم⁷، كما توجهت جهود أبي يعقوب للأندلس حيث كان النصاري بقيادة

¹ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، أبو بكر بن علي الصنهاجي المكتبي بالبيدق، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1971م، ص: 76.

² - ينظر تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الزركشي، ص: 13-14.

³ - هو يوسف بن عبد المؤمن بن علي كان أبوه يستخلفه على مراكش، كان رقيق حواشي اللسان، حلو الألفاظ، حسن الحديث، ولي على إشبيلية فأبدع في تعميرها، وكان شديد الملوكية بعيد الهمة سخيا جوادا، وتبحر في علوم عصره، وأولى عناية خاصة بالفلسفة، ينظر تاريخ الموحدين (المعروف المعجب في تلخيص أخبار المغرب)، عبد الواحد المراكشي، تحقيق دوزي، مطبعة ليدن، بريطانيا، دط، 1871م، ص: 170-196.

⁴ - ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص: 320، ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 46.

⁵ - ينظر تاريخ ابن خلدون، ص: 324-325، ينظر: إعلام أهل العلم والدين بأحوال الموحدين، علي محمد محمد الصلابي، ص: 111-

112، ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 46-47.

⁶ - هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن أبي محمد بن عبد المؤمن بن علي، كان صافي السمرة، قريبا إلى الطول، جزل الألفاظ، أصدق الناس لهجة وأكثرهم إصابة بالظن، أعلى راية الملك، واقب العمال، وتابع أحوال البلاد، عرف بعدله وجوده، واختلف في شأن وفاته فمنهم من قال إنه ساح في الرض زاهدا، وكات في دمشق، ومنهم من قال إنه مات في مراكش، ينظر المعجب، المراكشي، ص: 189-190، ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ص: 3-10، ينظر تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الزركشي، ص: 15-17.

⁷ - ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص: 325-329، ينظر الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى "الدولتان المرابطية والموحدية"، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق وتعليق: جعفر ناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، المغرب، دط، 1997م، ج2، ص: 159-161.

(الأذفنش) يحشرون جيوشهم للانقضاض عليه، فأعدّ بدوره العُدّة لمعركة "الأرك" سنة 591 هـ¹ التي أحرز فيها انتصارا باهرا، وواصل جهاده إلى أن قضى نجه².

وعقبه ابنه أبو محمّد عبد الله الناصر (-616هـ)³ الذي تُعدّ مرحلة حكمه مفصليّة في تاريخ الدّولة؛ فقد شهد عهده انبعاث ثورة بني غانية من جديد؛ حيث تمكّنوا من السيطرة على تونس ولكنّه سرعان ما استولى على قاعدتهم، ثمّ لاحقهم وقضى عليهم نهائيا⁴، وفي الأندلس عاود ملك (قشتالة) تجهيز الجيش لموقعة ردّ الاعتبار، فنقض معاهدة الهدنة وطلب المدد من رجال الدّين، ومن وجهته حشد الناصر جنوده وفتح الباب للجهاد، استعدادا لموقعة "العقاب" التي ميّ فيها بهزيمة كارثية من حيث العَدَد والعُدّة⁵ فاغتمّ لذلك واعتزل الملك، وقلّد ابنه المستنصر⁶ الحكم وهو صبيّ (-620هـ) فأخذت الدّولة في الضّعف على عهده⁷. ثمّ توالى بعده العديد من الخلفاء لما يزيد عن

¹ - ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص:330. قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، راغب السرجاني، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2011م، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، راغب السرجاني، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2011م، ص: 688-690.

² - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 47-49.

³ - هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب لقب بالناصر ولد سنة 576هـ، وفيات الأعيان ص: 15، ينظر تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الزركشي، ص: 17-18.

⁴ - ينظر إعلام أهل العلم والدين بأحوال الموحدين، علي محمد محمد الصلاحي، ص: 152.

⁵ - ينظر حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، روجي لي تورنو، تعريب أمين طيبي، شركة النشر والتوزيع والمدارس، ط2، 1998م، ص: 95-96، ينظر قصة الأندلس، راغب السرجاني، ص: 615.

⁶ - هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ولد سنة 594هـ، وكان شبيها بجده المنصور في خلقه وخلقه، ينظر المعجب، المراكشي، ص: 237-238.

⁷ - ينظر الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، عبد الله علي علام، سحب الطباعة الشعبية للجيش دط، 2007،

الخمسین عاما لکنهم فشلوا في إرجاع الدولة لمكانتها¹، فبدأت في الانهيار ثم الاندثار نهائيا سنة 668هـ بعد حُکم زاد عن قَرْنٍ ونصف من الزّمن²، وظهرت على إثرها ثلاث دُوِيَّات تقاسمت تركتها وهي: دولة المرينيين³ في المغرب الأقصى، والزّيانيين في تلمسان⁴، والحفصيين في تونس⁵. لقد امتازت دولة الموحّدين بعظمتها؛ حيث تمكّنت من توحيد المغرب الإسلامي للمرة الأولى والأخيرة في تاريخه ومع ذلك كان مآلها الزوال وذلك يرجع إلى أسباب عديدة من بينها: اتّساع رقعة الدولة؛ وهو ما صعّب التحكم فيها، وقد شارك عبد المؤمن في إضعاف الدولة عندما جعل نظام الحكم وراثيا يقوم على صلة القرابة⁶؛ بعدما كان يخضع لشروط دينية على عهد ابن تومرت⁷، وبدا

¹ - ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص: 337-357، ينظر تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الزركشي، ص: 20-23.

² - ينظر الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ذوو الوزارتين محمد لسان الدين خطيب، طبع على نفقة السيد الحاج عبد الله بن الحسين الجري المغربي السوسي الفاضل السيد إبراهيم بن محمد العيسى، عني بتصحيحه السيد البشير الفوري، مطبع التقدم الإسلامية، تونس، ط1، ص: 129، ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ص: 18.

³ - كان المرينيون بدؤوا أعزاء على الدولة الموحدية ثم اعلنوا التمرد عليها سنة 610هـ، وبعد حروب عديدة تمكّن يعقوب بن عبد الحق من تأسيس دولة تمتد من المغرب الأقصى إلى جهات أندلسية مسلمة واتخذت فاس عاصمة لها، وتميّت بتحضرها إلى أن هلك أبو عنان، فاختلفت أحوالها، وسقطت، للتفصيل ينظر تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، تقدم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، ص: 2، ج2، ص: 417-437.

⁴ - تأسست الدولة بسيف بن عبد الواد، وتنسب إلى زيان بن ثابت بن محمد بن طاع من بني عبد الواد، وعرفوا بفروسيّتهم وبطولتهم، وشهدت الدولة القيام الفعلي على يد (يغمراسن) بن زيان سنة 633هـ الذي أحسن سياسة قومه، وظلت ثابتة أمام أطماع جارتها المرينيين والحفصيين، إلى أن سقطت سنة 957هـ، ينظر تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، ص: 439-446، ينظر باقة السوسان في التعريف بالحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان "جغرافيا- وتاريخيا- وفتيا- ومعماريا (دراسة مصحوبة بخرائط وصور)، الحاج محمد بن رمضان شاوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 2003م، ج1، ص: 62.

⁵ - وإلى الخليفة التاصر وزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص أعمال إفريقية، فأمدّه برجال أكفاء وترك له حرية التّحكّم فيها، وماهي إلا مده حتى خلعوا حكم الموحّدين واستأثروا بملك تونس، ثم جاء أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد وهو موطن دولة الحفصيين، ثم بايعه أهل بلنسية من الأندلس، ثم تولى بعد ابنه المستنصر، ثم تولى عليها حكام كثر إلى أن خضعت للحكم التركي سنة 981هـ، ينظر تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، ص: 383، 413.

⁶ - ينظر حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، روجي لي تورنو، ص: 120.

⁷ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 140-141.

تأثير ذلك واضحا في عهد الضعف؛ حيث تحكمت الميول والأهواء الشخصيّة في القرارات¹، ومن الأسباب أيضا إرهاق خزينة الدولة لكثرة الفتن الداخليّة التي قامت بسبب النّعات² أو بدعم من الأيوبيين بهدف التّوسّع³، وتواصلت هذه الفتن طيلة حكم الموحدين، ناهيك عن التّربص المتواصل من الخارج والمتمثّل في العدوان الصّليبي السّاعي إلى تقويض الحكم الموحد، وطرده المسلمين من الأندلس⁴.

2- النظام العسكري:

كان الجيش الموحد مصدر فخر للدولة لهذا حرصوا على تجهيزه بالشكل الذي يجعله في الطليعة، فصرفت الدولة الموحدية همّتها لرعايته وتطويره بما تأتي لها من إمكانيات⁵، وحرصت على صرف مرتبات الجنود في موعدها وبخاصّة في عهد القوّة، وتباينت أجور الجنود حسب رتبهم، واختلاف أصنافهم⁶، وشهدت فترة حكم الموحدين العديد من الثورات الداخليّة في بعض المدن التي التي كانت مناصرة للمرابطين أو التي قامت بتحريض من الخصوم مثل الأيوبيين، وهو الأمر الذي استدعى تحرك الخليفة أبي يعقوب لاسترجاع هذه المناطق وبخاصّة مدينة قفصة التي تغت رسائلهم

¹ - إذا تأملنا الدّويلات التي عقبتها وجدنا أنّ مؤسّسها كانوا ممّن بايعوا الموحدين ، لا سيما أبو حفص الهنتاني جدّ الحفصيين الذي يعدّ من أشيخ الموحدين الذين ناصروا ابن تومرت وكان أحد أبنائه وزيرا للخليفة الناصر ثمّ انقلب عليه، ينظر تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مبارك بن محمد الميلي، ص:383.

² - ينظر المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، دار الرشد الحديثة، المغرب، دط، 2000م، ج1، ص:297.

³ - ينظر دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر أحمد موسى، دار الشروق، دب، ط1، 1983م، ص33-34

⁴ - ينظر المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ص:298، ينظر قصّة الأندلس، راغب السرجاني، ص:630

⁵ - ينظر الحلال الموشية، ابن الخطيب، ص: 114

⁶ - ينظر المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص : 424، 322.

بفتحها وأسهب في وصفه¹، واشتعل فتيل العديد من القلاقل في الأندلس لكن سرعان ما تمكنوا من القضاء عليها.²

وقد رفع المصامدة في بداية أمرهم خرقاً من ثيابهم في مقابل راية المرابطين³، وسرعان ما تطوّر الأمر مع مرور الوقت، وتزايدت الفتوح حيث كانوا يغنمون رايات العدو ويضيفونها إلى ما لديهم فكثرت عددها⁴، فاتخذت كل قبيلة لنفسها راية تميّزها عن غيرها على عهد عبد المؤمن⁵، كما اهتموا بالطبول؛ وكان من أقدمها الطبول ذات الشكل المربع التي ترجع إلى ابن تومرت وأضيفت إليها الزينة لاحقاً⁶، فكانت تقرب عند الاحتفالات؛ إذ تحمل كل قبيلة رايتها وتقرع الطبل الخاص بها⁷، كما كانت ترافق الخليفة في رحلاته لأرجاء الدولة⁸.

أمّا عن تكوين الجيش فقد عرف تنوعاً في الأجناس فمنهم: العرب، والعزّ، والأندلسيون، والرّوم، وبعض قبائل المرابطين، وغيرهم⁹، وقُسموا إلى صنفين: يُدعى الأول منهما الجُموع وهم "المرتزقة" الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها، والصنف الآخر يُدعى "العُموم" وهم الماكثون في بلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا في التّغير الأعظم، و كان عدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائر الأجناد ما يقارب عشرة آلاف بمراكش وخارجها في سائر البلاد من الموحدين¹⁰،

¹ - ينظر مجموع رسائل موحديّة من إنشاء كتاب الدولة المؤمّنية، إ. لافي بروفانصال، المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، الرباط، المغرب، دط، 1941م، ص: 144-149، ينظر رسائل موحديّة، أحمد عزّاوي، ص: 150-144.

² - ينظر رسائل موحديّة "مجموعة جديدة" تحقيق ودراسة أحمد عزّاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب، ط1، 2002م، ج1، ص: 240-241.

³ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 168.

⁴ - ينظر رسائل موحديّة "مجموعة جديدة"، أحمد عزّاوي، ص: 201.

⁵ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 55.

⁶ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 342.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 75، 216.

⁸ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 165.

⁹ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 248.

¹⁰ - ينظر المصدر نفسه، ص: 248.

وقد بلغ عدد الجيش الموحدى فى إحدى الغزوات اثنى عشر ألف مقاتل بين موحدىن وعرب تراوحوا بين أجناد، ورجالة، وزُمامة¹.

وتنبه الموحدون لأهمىة التّعبئة التّفسىة فى شحد همّة الجيش؛ فأمر أبو يعقوب العلماء بجمع أحادىث الجهاد لتُملى على الموحدىن تحمىسا لهم وكان هذا دأبهم إبان حكمهم²، كما توجهوا إلى المقاتلین بخطابات حماسية فُبل كلّ معركة؛ وتعدّدت لهجاتها وفق تعدّد أجناس الجيش الموحدى، وكان الشىخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر³ من الأشخاص الذىن كلّفوا بهذه المهمّة .

وعند بداية القتال يكون الهجوم وفقا للسّبق إلى التّوحد⁴؛ فأول من ىدخل المعركة ذرىة الشىخ "أبى حفص الهنتانى" ثم أبناء عبد المؤمن ثم أهل الجماعة على ترتىبهم، فأهل الخمسین، وتلّىهم سائر قبائل الموحدىن.

وقسّمت المهام فى صفوف الجيش فكان الالتحام مهمّة الجيش المكوّن من قبائل بلاد المغرب نظرا لإقدامهم وشجاعتهم، وخوف القادة من تقاعس الجنود العرب الذىن قاموا بدور الإعانة فقط⁵، فقط⁵، وما تجدر الإشارة إليه هو أنّ هذا الجيش كان منقسما بدوره إلى فرق صغيرة تنتمى لنفس القبيلة وتحمل بُندا يخصّها، ويرأسها شىخ أو سىّد من إخوة الخليفة مع مراعاة التّفاوت فى الرّتب الذى كان حسب السّبق إلى التّوحد⁶، واللافت للانتباه هو أنّ هذا الأمر لم يؤثّر على الأداء الجىّد للجيش الذى عرف لحمّة وتماسكا فى عهد القوّة بفضل جهود أشىاخ الموحدىن الذىن كانوا همزة وصل

¹ - ىنظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 402

² - ىنظر المصدر نفسه، ص: 183

³ - ىنظر المصدر نفسه، ص: 346

⁴ - أول القبائل قبيلة هرغة التى ىنسب إليها ابن تومرت، ثم قبيلة تىنملل ثم كومية ثم سائر الموحدىن ىنظر المصدر نفسه، ص: 248

⁵ - بعض العرب ظهر منهم رواح ومیل عند التصرف فى الحرب، ىنظر المصدر نفسه، ص: 403.

⁶ - ىنظر المصدر نفسه، ص: 403، 404-405.

بين السّادة والمقاتلين، وقد يرجع السّبب في ذلك لكونهم أدري بلهجاتهم ونفسياتهم، وكانوا يعاقبون الجنود المتقاعسين بالسيّاط، والحّرمان من الطّعام¹.

واعتمد الموحدون في حروبهم على أسلوب الكّر والقرّ في بداية عهدهم لقلّة عددهم²، إلى جانب الحصار³، وكان لأسلوب المكر دَوْرٌ في الإطاحة بالأعداء بفضل الاعتماد على الجواسيس⁴، وقد استعانوا بالأدلاء في الأماكن المجهولة⁵، كما حرصوا على افتداء الأسرى في حروبهم وبخاصّة على عهد الخليفة أبي يعقوب⁶، ولم تكن هذه الانتصارات لتتحقّق بعزيمة الجُنْد وحدها؛ فقد اعتمدوا على أقوى الأسلحة المعروفة على عهدهم؛ ومن أشهرها: السّيف، والدُّروع، والرّماح⁷.

واستعانوا بالسّلام والآلات الخشبيّة في الحصون المحاطة بالأسوار⁸، كما أدّت الحصون دوراً مهمّاً في الاحتماء لوجودها بكثرة في ربوع الدولة والتي قد لا تتعدّى المسافة بين الواحد منها والآخر بضعة أيّام⁹، فضلاً عن انتشار القصاب وتقاربها¹⁰؛ وهو الأمر الذي يوحي بقوة الدّولة ومنعتها من وجهة، وعن طابع الدّولة العسكري من وجهة أخرى.

¹ - مثلما حدث عند تحاذل الجنود النصارى في فتح وبذة، ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 411.

² - وهذه ميزة قتال أهل المغرب والبربر، ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج1، ص: 457.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 400، 408، ينظر المعجب، المراكشي، ص: 179

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 67-68.

⁵ - من قبيل ذلك حريم على ابن همشك في غرناطة، ينظر المصدر نفسه، ص: 131، 133

⁶ - ينظر الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي وقيل

لأبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي، عني بتصحيحه وطبعه وترجمته، (كارل بوحن نوزنبرغ)، دار الطباعة المدرسية، دب، دط، 1843م، ص: 149

⁷ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 341، 348.

⁸ - ينظر المصدر نفسه، ص: 408

⁹ - من بين الحصون: حصن (بلج) الموصوف بالمنعة والشهوق والذي يفصل بينه وبين حصن (الكرس) مسيرة خمسة أيام، وعلى الطريق الرابط بين مدينتي شاطبة ومرسية تتواجد حصون عديدة وهي حصن (ثليانة) وحصن (عصف) يوم الثلاثاء، وحصن (الج)، وحصن (أوربولة)، ثم

حصن (منت أقوط) ولا يفصل بين الواحد منها والآخر أكثر من يوم، ينظر المصدر نفسه، ص: 400-401.

¹⁰ - ينظر المصدر نفسه، ص: 423

وكلفت هذه الحروب خزينة الدولة مصاريف باهظة واستمر بعضها وقتا طويلا تطلب الإمداد بمؤونات إضافية ، ومن ذلك أنّ أبا يعقوب كان قد خطط لغزو الروم برّا وبحرًا بالأندلس فتجهّز لذلك إذ يقول صاحب المنّ بالإمامة : « وأعدّ من القمح والشّعير للمعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبّو بالمعمورة المذكورة ما عاينته مكّدسا كأمثال الجبال»¹ حتى إذا نفذت المؤونة قام الجنود بشراء الطّعام من ما لهم الخاصّ مَهْمَا كَلَّفَ ثَمَنَهُ² .

ولم يكن الأسطول الموحدى أقلّ شأنًا من الجيش في البرّ فقد دان له البحر هو أيضا ؛ إذ حاز شتى أنواع القطع البحريّة ومن أبرزها السّفن، والطّرائد، والغربان³ ويرجع الفضل في ذلك إلى تنصيب قادة محنّكين على مختلف وحدات الأسطول. وكان الخلفاء يتابعون الانتصارات المتتالية في عرض البحر، وقد زفوا الأخبار السّارة للموحّدين، كما بلغت الأنباء بانتصاراتهم بلاد المشرق فأبرق الناصر صلاح الدين الأيوبي برسالة يستنجد فيها بالخليفة المنصور ليكفّ بلاء الصّليبيّين على بلاد الشام أو يُلجِم حملاتهم المتواترة، بعد عجزه عن دفعها عبر إعانته بشرط من أسطوله غير أنّ هذا الطّلب قُوبل بالرفّض⁴ .

وكان من الطّبيعي أن تحرز هذه الانتصارات مكاسب لخزينة الدوّلة بفضل الغنائم التي تعدّدت أصنافها بين حيوانات⁵ ونساء⁶ و طعام و ثياب⁷، وألوية⁸، وغيرها ممّا يُرجع به إلى خزينة الدوّلة، الدوّلة، كما انعكست الانتصارات إيجابا على الموحّدين حيث هزموا راية المشركين وكسروا شوكتهم، وسلّبوهم كلّ نفيس.

¹ - ينظر المنّ بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة،ص: 147.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 352، 421.

³ - ينظر رسائل موحديّة، أحمد عزوي ، ص: 185، 181.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 184. ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج 1، ص: 440.

⁵ - ينظر نظم الجمّان ، ابن القطان، ص: 164- 165

⁶ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 56.

⁷ - ينظر نظم الجمّان ، ابن القطان، ص: 163

⁸ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 56

3- النظام الإداري:

حرص الموحّدون على جعل مراكش عاصمة لخلافة إسلامية تمتدّ شرقاً وغرباً، وتلقّبوا "بأمراء المؤمنين" خلافاً للمرابطين¹، كما اتخذوا ألقاباً للملك؛ فسَمّى ابن تومرت نفسه بالمهدي المعصوم، والإمام المعلوم²، ودُعي عبد المؤمن بأمير المؤمنين³ وتلقّب في مهرجان الفتح بالخليفة⁴. وقد يلقّب الحاكم - لديهم - بالإمام، واستمرّ الأمر بعد استقرار الدولة حيث اتخذوا ألقاباً تُناسب أجهتهم؛ فسَمّى أبو يوسف يعقوب المنصور، وابنه أبو عبد الله محمد بالناصر لدين الله⁵، فضلاً عن ألقاب أخرى عديدة⁶، تعكس إنجازات أصحابها من وجهة، وقوّة الدولة من وجهة أخرى.

واهتمّ أمراء الموحدين بتربية أبنائهم - على اعتبار أنّهم حكام البلاد المستقبلين - فحرصوا على أن يكونوا من نخبة المثقّفين والفرسان المبرزين وسمّوهم السادة⁷ أو الأمراء⁸، وأقحم عبد المؤمن أبناءه أبناءه مع طلبة الموحّدين في تعليمهم، وأحسن تأديبهم⁹، وقد رافق السادة الخلفاء في مختلف مجالسهم، مثل الخليفة يعقوب المنصور الذي لازم مجالس والده منذ حداثة سنّه، وسُيح له بإبداء رأيه في مختلف القضايا مهما كانت هيّنة، نحو: تعليقه على أبيات لابن مجبر¹⁰، كما تقلّدوا مناصب هامة

¹ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، حسن علي حسن، ص: 78-80.

² - ينظر نظم الجمان ، ابن القطان ، ص: 91-93، ينظر مجموع رسائل موحّديّة لاني بروفانصال ، ص: 01، 05، 04.

³ - ينظر رسائل موحّدية ، أحمد عزاوي، ص: 110.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 80-81.

⁵ ينظر وفيات الأعيان، ابن خلّكان ، ص: 3-15.

⁶ - ينظر المرجع نفسه ، ص: 16-18.

⁷ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 304، 305.

⁸ - ذكر أحمد عزاوي في تقديمه لأربع رسائل بعث بها يوسف بن عبد المؤمن إلى الأقطار لاستبدال لقب الأمير بأمير المؤمنين الذي يدلّ على

تولّيه مقاليد الحكم، ينظر رسائل موحّدية ، أحمد عزاوي، ص: 110.

⁹ - ينظر نظم الجمان ، ابن القطان ، ص: 172، ينظر الحلل المشوية، ابن الخطيب ، ص: 114.

¹⁰ - ينظر فتح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، أحمد بن محمد المقرئ التّلمساني، حققه إحسان عباس، دار صادر، لبنان، دط،

في شباهم منها ما هو عسكري¹؛ يتمثل في جهاد النصارى؛ نحو خروج المنصور مع والده عند معركته في (شنترين)².

وسعى الخلفاء إلى إنشاء جهاز إداري قوّي ومتنوّع من حيث المناصب؛ فاتخذوا الحُجّاب منذ عهد ابن تومرت اقتداءً بالخلافة المروانية في الأندلس³، وكان صاحب هذا المنصب حظيًا وملازمًا للخليفة، حسب ما يرويه المراكشي عن "أبي محمد واسنار" حاجب محمد بن تومرت⁴ الذي لم تقتصر وظيفته على خدمة سيّده في حياته فحسب، بل تواصلت حتّى بعد موته، وصار اتّخاذ الحُجّاب بعد ذلك عادةً لدى الخلفاء⁵، وشهد هذا المنصب تطوُّرًا على هذا العهد؛ فقد قسّم المهدي المهدي أتباعه لطبقات وفقا للسّبق إلى التّوحيد، وجعل في مقدّمهم طبقة العشرة أو الجماعة⁶ التي ضمّت أصحابه، وكانوا من القبائل التي بادرت إلى نصرته فجعلهم أهل مشورته⁷، كما جعل عبد المؤمن أبناءه هم الوزراء بُغية تمكينهم من الحكم، واستعان الحكّام بشخصيات كان لها وزن في تاريخ الدّولة؛ على غرار أبي العلاء إدريس بن جامع⁸ فضلا عن شخصيات مُثقفّة من أدباء، وقضاةٍ

¹ - ينظر الحضارة العربية الإسلامية في المغرب و الأندلس، حسن علي حسن، ص: 102.

² - ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 7، ص: 3-4، ينظر المصدر السابق، ص: 76-77.

³ - ينظر نفع الطب، المقرئ، ج 1، ص: 216.

⁴ - ينظر المعجب، المراكشي ص: 236.

⁵ - اتّخذ الخليفة أبو يوسف المنصور ربحان الخصي ولما مات خلفه م مبشر الخصي حاجبا له ولوده أبي عبد الله من بعده، كما حجب هذا الأخير أبو السرور، ينظر المصدر نفسه، ص: 228-229، 238.

⁶ - أهل العشرة هم: عبد المؤمن بن علي، وأبو محمد البشير، وأبو إبراهيم الهزرجي، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي، وأبو الربيع سليمان بن الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تمارا، وأبو يحيى أبو بكر بن بجيت، وأبو عبد الله محمد بن سليمان، وأبو حفص عمر بن يحيى، وعبد الله بن ملوية، ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 127-128.

⁷ - يلي هذه الطبقة أهل الخمسين ثمّ أهل السبعين، ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 128، ينظر أعز ما يطلب، محمد بن تومرت مهدي الموحدين، تقلد وتحميق عمار طالبي، صدر عن وزارة الثقافة، دط، 2007م، ص: 245.

⁸ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 208-209.

حظيت بهذا المنصب عن استحقاق¹ وتمثلت وظيفة الوزير الأساسية في تنظيم الجيش، كما أُسندت إليه مهمة الكتابة والإشراف على سير الأعمال، أو النظر في المظالم²، فإذا رأى الخليفة منه تقصيرا أو أو خيانة عاقبه بالعزل أو القتل مثلما حدث مع الوزيرين والكتابين أحمد بن عطية وشقيقه³.

ومن المناصب الإدارية على هذا العهد أيضا "إمارة الأقاليم"؛ حيث قُسمت الدولة إلى أقاليم لتسهيل عملية التحكم فيها، وتنظيم أعمالها⁴، ومن القرارات الهامة التي أصدرها الخليفة عبد المؤمن تولية أبنائه عليها⁵، أمّا عن المهام التي كلفوا بها فتمثلت في: حشد العساكر، والأمُرُ بالمعروف والتّهي والنّهي عن المنكر، إلى جانب التّفقّه في الدّين، والتّزام العدل في الأحكام، وضرورة الرّجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله عند البتّ في القضايا، ومجانبة الظُّلم، وضرورة مشاورّة العامّة⁶.

ولم يكتف الخلفاء بما رفعه الولاة من تقارير تصف أحوال البلاد، بل تنقلوا شخصيا إلى مختلف الأقاليم للاطلاع على سير الأعمال⁷، وعند سماعهم بحدوث تجاوزات أبرقوا برسائل لتنبّه المقصّرين؛ مثلما فعل عبد المؤمن مع طلبة بجاية الذين دعاهم إلى وجوب الالتزام بالقوانين في رسالة الفصول

¹ - من هؤلاء الوزراء كاتبه أبو جعفر أحمد بن عطية وأخوه أحمد بن عطية، ينظر البيان المغرب في اختصار أخبار الأندلس والمغرب، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى، حقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه بشار عوّاد معروف، محمود بشار عوّاد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2013م، ج3، ص 173، ينظر نفع الطيب، المقرّي، ج5، ص: 183.

² - ينظر نظم الحمان، ابن القطان، ص: 101 - 104.

³ - أبو جعفر أحمد بن محمد بن عطية من أهل مراکش، كان أبو من أهل الحفظ للحديث، كتب لعلي بن يوسف المرابطي، ثم التحق بالجيش الموحيدي، ثم اختاره عبد المؤمن للكتابة ثم الوزارة، وقد تعرضا للنكبة معا أحيه أبي عقيل فقتلا بسبب وشاية، ينظر رسائل موحدية، أحمد عزراوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيظيرة، المغرب، ط1، 1995، للتفصيل في نكبة ابن عطية، ينظر المعجب، المراكشي، ص: 244، ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 147-151.

⁴ - الأقاليم المشار إليها هي: اشبيلية، ومرسية، وغرناطة، وقرطبة، وبلنسية، وسرقسطة، واتبعا السياسة نفسها في بلاد المغرب وهذه الأقاليم هي: فاس، وسجلماسة، وتلمسان، والسوس، والصحراء، والجزائر الشرقية لبني غانية، أما سبتة وطنجة فكانتا إقليما واحدا، ينظر رسائل موحدية، أحمد عزراوي، ص: 231، 232، ينظر المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ص: 196.

⁵ - ينظر الحلل الموشية، ابن الخطيب، ص: 114.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص: 65-66.

⁷ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس، حسن علي حسن، ص: 140.

وشدّد فيها على عمّاله- في مختلف الأقاليم- بوجوب إقامة الصلّاة ، وإلزام العامّة بحفظ سورة الفاتحة وما تيسّر من القرآن الكريم ، كما أمرهم بقتل كلّ من تهاون في تنفيذ هذه الأوامر¹.

وعرفت دولة المصامدة تعاقب العديد من الخلفاء، فكان من الطبيعي أن تشهد سياساتهم تعديلات أملتتها المستجدّات، وذهنيّات أصحابها؛ فقد عزل عبد المؤمن الحفّاظ بأشياخ الموحدين²، وقد شهد هذا العهد إجهاضاً لبعض القرارات السياسيّة؛ فقد أجبر الشيخ "أحمد بن يحيى بن أحمد العبدري" الأمير المنصور على التراجع عن مسعاه في تولية أبنائه وإخوته الصغار على الولايات خوفاً من سُخط العامّة³.

وعلى الرّغم من بُعد الولاة عن مركز الخلافة، واتّساع رقعة الدولة إلّا أنّ الأخبار كانت تصل الأمراء أوّلاً بأوّل، كما بلغت أوامره مختلف العمّال وذلك بفضل تطوّر البريد، بعد أن وُضعوا في رجاله شروطاً صارمة، في حقّ الرّعيّة، حيث ألحّت بضرورة محاسبة المقصّرين مهما كانت مكانتهم حسب ما تبين من رسائلهم مع الولاة؛ كما طالبوهم بضرورة الرّجوع إلى القضاء في المسائل المعقّدة⁴، وأولوا هذا هذا الأخير أهميّة بالغة باعتبارها شريان الحكم، والمسؤولية عن حفظ أرواح النّاس وممتلكاتهم⁵، وحدّدوا وحدّدوا معايير لاختيار منصب القاضي⁶ لم يكن يرق لها إلّا الفقهاء⁷.

أما طبيعة القضايا التي عُرضت عليهم؛ فمنها ما هو متعلّق بالجانب الشرعي، وآخر مرتبط بالدين⁸، وقد سطرّت الحكومة مهامّ القضاة وفق ما تُثمله الشريعة الإسلامية كما يتضح من بعض

¹ - ينظر مجموع رسائل موحديّة ، لاني بروفانصال ، ص: 133.

² - ينظر الحلل الموشية، ابن الخطيب، ص: 114

³ - ينظر الدّيل والتّكملة لكتّابي الموصول والصلّة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق محمد بن

شريعة، دار الثقافة، لبنان، دط، دت، السّفرة 1، ص: 565-566.

⁴ - ينظر الأنيس المطرب ، ابن أبي زرع، ص: 143

⁵ - ينظر رسائل موحديّة ، أحمد عزّاوي، ص: 489-490.

⁶ - ينظر المصدر نفسه، ص: 488، 408، 492، 502.

⁷ - ينظر التّقديم الثّاني والخمسون، المصدر نفسه، ص: 483-484.

⁸ - ينظر المصدر نفسه، ص: 479.

تَقَادِيمِهِم التي دَعَت القضاة لإزالة المنكرات وتغييرها، والتَّحذِير من ممنوع المحدثات ومخذورها¹، ونظرًا لكثرة مهام القضاة فقد أمدَّتْهم الحكومة بمساعدِين لمؤازرتهم وتسهيل أعمالهم²، وقد برَّعت بعض الأُسَر في هذا المجال حتى أصبح هذا المنصب متوارثًا بينها³.

وكانت الحسبة تابعة للقضاء، وهو من بيده تعيين المحتسب أو عزله، وتمَّ ذلك وفق شروط قريبة من تلك التي اعتمدت في اختيار القضاة نظرًا لتقارب المهنتين؛ فكثيرًا ما ناب المحتسب عن القاضي عند غيابه⁴، ومن مهامه أيضًا محاربة كل التصرفات المخالفة للشرع، ومنع التجاوزات الخارجة الخارجة عن قوانين الدولة، والتعامل معها بحزم مهما كانت الجهات التي صدرت منها سواء كان الأمر داخل الأسواق أم خارجها، كما أوكل إليهم أيضًا مهمة معاينة الرُّبِّ التي تطلبت منهم الفطنة والصَّرامة⁵.

وشدَّدت أوامر الحكَّام على وجوب إقامة العدل، والتَّريث في إصدار الأحكام، مع ضرورة رفع القضايا المتعلقة بالقتل إلى الخليفة⁶، وعمومًا فقد سهر الحكَّام على إقامة العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخلق جوًّا من الأمن والاستقرار في تسيير شؤون بلادهم الداخليَّة، أمَّا سياستهم الخارجيَّة فتميّزت بالصِّراع على تحقيق مناطق نفوذ أكثر بهدف التوسع شرقًا على حساب غرمائهم الأيوبيين⁷، كما تطلَّع المصامدة لاسترجاع مناطق أكبر من يد الصليبيين، لذلك ظلَّ التَّرقب هو السِّمة الغالبة على سياستهم الخارجيَّة ولاسيَّما مع النَّصارى.

¹ - ينظر رسائل موحديَّة ، أحمد عزاوي ، ص: 516.

² - كان الأول يسمَّى كاتب القاضي، والآخر نائبه، ويكون في العادة إمَّا المحتسب، أو صاحب السُّوق، ويقوم بالفصل في القضايا الأقل

تعقيدًا ينظر المصدر نفسه، الهامش رقم 7، ص: 485.

³ - وهو يتَّضح من رسائل تقادِيمهم ، ينظر المصدر نفسه، ص: 505.511.

⁴ - ينظر المصدر نفسه ، ص: 488.

⁵ - ينظر نظم الجمان ، ابن القطان، ص: 197 .

⁶ - ينظر رسائل موحديَّة ، أحمد عزاوي ، ص: 64.

⁷ - ينظر نظم الجمان ، ابن القطان ، ص: 182.

4- الحياة الدينية:

تغيّرت الحياة الدينية في المغرب الإسلامي كثيرا مع ظهور الموحدين بفضل ملهمهم محمد بن تومرت الذي استفاد كثيرا من رحلته المشرقية؛ حيث سمحت له العلوم والمعارف التي حصلها في تلك الديار - فضلا عن حدة ذكائه - في إفحام كل من حاول التصدي له في المناظرات التي عقدها في مختلف الأماكن التي نزل بها، وأبان فيها عن براعة في الإقناع والتأثير¹، وتمكّن من بثّ قناعاته في مختلف أرجاء بلاد المغرب؛ والتمثّلة أساسا في فكرة التوحيد التي كانت خلاصة فكره، وقوام دعوته.

وحدّد حسن علي حسن الخلفيات التي بنى عليها ابن تومرت فكرة التوحيد بقوله: «نادى بالإمامة، وبعصمة الإمام على مذهب الشيعة، ويقول بالظاهرية ويكره التأويل على رأي داود وابن حزم، ويتشدد في العقيدة تشدد الحنابلة، ويفهم التوحيد فهم المعتزلة ويذهب في كثير من المسائل على مذهب الأشاعرة وأطلق على دعوته دعوة التوحيد، وسمى أتباعه الموحدين»² فابن تومرت لم يبن فكرة التوحيد من فراغ، بل جاءت تليقًا لمختلف المعارف التي اكتسبها في المشرق، فقد ذهب مذهب المعتزلة في التوحيد؛ وهو أحد أصولهم الخمسة، حيث نزّها الذات الإلهية عن صفات البشر، كما ارتقوا عن فكرة التجسيم التي قال بها بعض المتكلمين³، ومن المعلوم أنّ المعتزلة ركّزوا على نشر الإسلام بالعقل والجدل في الكثير من البلدان⁴.

وبدا تأثر ابن تومرت بالفكر الاعتزالي عند تعريفه للتوحيد حيث قال: «فالتوحيد هو إثبات الواحد، ونفي ما سواه من إله أو شريك أو وليّ أو طاغوت، كلّ ما يعبد سواه يجب نفيه والكفر به والتبرؤ منه. بيّن الرسول التوحيد، وفسّره (...). نبه فيه بغاية ما يمكن فيه النفي من الجحد والإنكار،

¹ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 458-459.

² - المصدر نفسه، ص: 454.

³ - ينظر موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، دار الفارس للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1995م، ج2، ص: 472.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 513.

والكفر بما سوى الواحد القهار»¹ فالله منزّه عن تشبيهه بصفات البشر، وهو واحد فردٌ لا إله غيره، ويجب على العباد الإقرار بالخضوع والخشوع له، وكلٌّ من يتغني غير ذلك فهو كافر، كما استمدّت هذه الدّعوة مبادئها من المذهب الظاهري الذي يكتفي بالوقوف عند ظاهر النصوص القرآنية، ويناهض التّأويل²، أمّا المذهب الأشعري فقد ترك التّأويل والاحتكام إلى الكتاب والسنة، وقال أيضا بتنزيه الله عن الصّفات³، كما تأثر ابن تومرت بالحنابلة الذين قالوا بجواز الخروج عن الإمام غير العادل⁴، ولذلك كان من حقّه الخروج عن المرابطين، وأوجد لزعمه مسوّغات عديدة، من أهمّها كفرهم، وتجسيمهم، وتأويلهم لكتاب الله⁵.

ومن المبادئ التي قامت عليها فكرة التّوحيد أيضا "الإمامة" التي انتحلها من الفكر الشّيوعي، فقد جعل القرآن الإمام هو القائم على الأمور الدّينية، وقد استغلّ الشّيعة هذه الجزئية فأصبحت الإمامة هي المبحث الأثير لديهم؛ وبخاصّة أنّ الإمام هو من يمثّل السلطة العليا في المجتمع، فقاموا الإمامة على النّبوة، لا على الولاية أو الإمارة، أو الحكم، وجعلوا طبيعتها دينية لا مدنيّة، وقالوا إنّها شأنٌ من شؤون الله؛ فهو الذي يحدّد ذوات الأئمّة والتّصوص التي بعثوا بها وغيرها، ولا شأنٌ للبشر فيها⁶، وقد صرّح ابن تومرت نفسه بذلك حيث قال: «هذا باب في العلم وهو وجوب اعتقاد الإمامة الإمامة على الكافة وهي ركن من أركان الدّين، وعمدة من عمد الشريعة، ولا يصلح قيام الحقّ في الدّنيا إلّا بوجوب اعتقاد الإمامة (...). ما من زمان إلّا وفيه إمام قائم بالحقّ في أرضه، من آدم إلى

¹ - أعزّ ما يطلب، المهدي بن تومرت، ص: 267-268.

² - ينظر براءة الأشاعرة من مذهب أهل السنة والجماعة، سلطان بن عبدالرحمن العميري، الدرر السنية، www.dorar.net/article، 29 جمادى الآخرة 1434هـ.

³ - ينظر خصائص الفكر العقدي الأشعري (الجزء الثالث)، المهدي بوشدوق، موقع مغرس، www.maghress.com، يوم 29-04-2014م، تاريخ الولوج إلى الموقع: 10 أكتوبر 2017م، الساعة: 21:26.

⁴ - ينظر الطاعة السياسية في الفكر الإسلامي: النص والاجتهاد والممارسة، هاني عبادي محمد سيف المغلّس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي الأردن، ط1، 2014م، ص: 245.

⁵ - ينظر أعزّ ما يطلب، المهدي بن تومرت، ص: 242.

⁶ - ينظر موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ص: 190.

نوح¹ فالإيمان بإمامة المهدي بن تومرت أمر واجب، لأنه سنة من سنن الله في خلقه، فلطالما بعث لخلقهم عبادا اصطفاهم هو بعلمه وحكمته، ولا دخل له في هذا الاختيار فهو قدر قضاء الله، وفي رفضه معارضةً لمشيئته.

كما منحه انتسابه لآل البيت مشروعية في ثورته على الرغم من تشكيك العديد من المؤرخين في صحة هذه النسبة²، وقد وُصف هذه الجزئية ببراءة؛ حيث أقنع أتباعه بأنه هو المهدي المنتظر³ لذلك ادعى بعض الكرامات والحوارق، وحشد الأدلة وطالبهم بطاعته لأنه معصوم⁴، كما ضمّن مشروعه برنامجاً دينياً ممتلاً في عقيدته التي زاح فيها بين اللغة العربية ممثلة في كتاب "أعز ما يطلب"، واللّهجة البربرية وهي المعروفة "بالمرشدة"، وضمّنهما الأعشار والأحزاب والسور⁵، وأمرهم بحفظها، وقراءتها بعد تلاوة حزب من القرآن بعد صلاتي الصبح والمغرب، واعتبر كل من امتنع عن ذلك في منزلة الكافر لأنّ الهدف من هذا البرنامج هو تجديد عقيدة وفكر الموحدين من الفساد الذي لحق المسلمين ولاسيما مع مجيء المرابطين المحسمين⁶، لذلك أوجب على أتباعه حفظها والعمل بها لأنها الوحيدة التي تمتلك مفاتيح الوصول إلى السعادة والنجاة في الدارين؛ الدنيا والآخرة.

كما أمر المؤذنين إذا طلع الفجر أن ينادوا "أصبح والحمد لله" إشعاراً بأنّ الفجر قد طلع، وألحّ عليهم بضرورة أداء صلاة الجماعة⁷، وقد سار على نهجه أتباعه الذين أمروا الموحدين بقراءة عقيدته، وأوجبوا قراءة البسملة قبل فاتحة الكتاب⁸، وقد شهد هذا العهد إحراق الخليفة أبو يعقوب

¹ - أعز ما يطلب، المهدي بن تومرت، ص: 229.

² - ينظر تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد الأندلس، مجدي فتحي السيد، دار الصحابة، طنطا، مصر، ط 2007، م 1، ص 166.

³ - ينظر رسائل موحديّة، أحمد عزراوي، ص: 125، وقد ذكر ابن خلدون بأنّ العرب لا يحلّ لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية، وهو ما يفسر اعتماد ابن تومرت على مبررات دينية، ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج 1، ص: 289.

⁴ - ينظر نظم الجمان، ابن القطن، ص: 91.

⁵ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 457.

⁶ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 269.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 168.

⁸ - ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ص: 4، ينظر نفع الطبيب، المقرئ، ج 1، ص: 563.

المنصور لكتب الفروع محاولة منه لإضعاف المذهب المالكي الذي كان سائدا في المغرب¹، كما انتقد مهدوية ابن تومرت²، ثم جاء على إثره الخليفة المأمون الذي أعلن الخروج عن تعاليم ابن تومرت لبطلانها، ومخالفتها شرع الله، وأزال اسمه من السكّة والخطبة³، وفي ذلك دعوة صريحة للخروج عن فكرة التوحيد التي بنى عليها المهدي دعوته وهو ما قد يُشير إلى الوعي الذي عرفه حُكّام الموحّدين بعد رحيل ابن تومرت.

واعتنى الموحدون "بالمصحف الإمام" الذي خطّه عثمان بن عفان (رضي الله عنه)⁴؛ فقد وصلتهم نسخة منه كانت مُودعة في مسجد قرطبة، وأحضرت إلى العاصمة مراكش في عام 552هـ وذلك منذ عهد ابن تومرت⁵، واستقرّ المصحف الإمام في تلمسان سنة 645هـ؛ إذ أخرج الخليفة المعتضد بالله في جيشه في إحدى معاركه ضد المرينيين الذي احتفوا بهم أيضا، ثم أُعيد المصحف لاحقا إلى جامع قرطبة حسب ما أورده المقرئ⁶، وظلّ الاهتمام بهذا الإرث الديني قائما عند الدول التي تلت المصامدة⁷.

5- الحياة الاقتصادية:

اعتمدت الدولة في وارداتها على جمع الزكاة⁸، والأنفال¹ من مصادر مختلفة²، ومع توسّع الدولة، وتزايد التّفقات استلزم الأمر إيجاد مصدرٍ آخر للدّخل؛ ففرضت الخراج، والجزية على أهل

¹ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 202، ينظر حضارة الموحدين، محمد المنوني، دار توفيق للنشر، المغرب، ط1، 1989م، ص: 53.

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 270.

³ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 25.

⁴ - للتفصيل في الموضوع ينظر الذّيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 156-169.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص: 159.

⁶ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 548.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 606.

⁸ - ينظر الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، عبد الله علي علام، ص: 255، ينظر مجموع رسائل موحدية،

بروفانصال، ص: 133، ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 211.

الدَّمة الموحدين على أرضها، كما أخذتها من الدَّول المجاورة وذلك مقابل الهدنات التي وقَّعوها معهم؛ فأكسبهم ذلك مبالغاً طائلة أُنمت الخزينة، فضلاً عن الهدايا النفيسة التي خُطب بها الملوك ودَّهم³.

كما اهتموا بتنظيم الشؤون المالية فعينوا لجنا عند فتح البلدان مكوّنة من كُتّابٍ وأعيان المناطق المعنيّة، وذلك بإشراف من الولاة والوزراء؛ بحيث يُقومون بجمع الأموال الموضوعة في المخازن ويودِّعونها في بيت المال⁴، بمساعدة أصحاب الأشغال أو أمناء المخازن⁵ وكانوا في العادة من أشياخ الموحدين⁶، أو غيرهم في مختلف الجهات ممّن استحقَّها⁷، وعرفوا بالسداد والاعتدال، وحددت مسؤولياتهم في رسائل التقاديم المختلفة⁸ القاضية بضرورة جباية الضرائب، والسهر على إزالة المحدثات وضرورة مجانية الظلم⁹، ولم يكن اختيار عمّال المخازن يتمّ إلا بعد التجربة والاختبار¹⁰. وقد أمّدت السلطات عمّال المخازن بمعاونين¹¹، مثل جباة الضرائب والمختصّين¹²، وفي آخر عمر الدولة جمع

¹ - أورد ابن منظور في معنى لفظة لأنفال: «وفي التنزيل العزيز: "يسألونك عن الأنفال"؛ يقال الغنائم واحدها نَقْل، وإنما سألوا عنها لأنها كانت حراماً على من كانت من قبلهم فأحلّها الله لهم»، لسان العرب أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، لبنان، ط1، دت، ج11، مادة (نَقْل)، ص:671.

² - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص:66، 77.

³ - ينظر المعجب، المراكشي، ص:182.

⁴ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص:138-139، 142.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص:211، 181.

⁶ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص:186.

⁷ - ينظر المقدمة، ابن خلدون، ص:428.

⁸ - ينظر نظم الجمال، ابن القطان، ص:193-194.

⁹ - والمقصود بما الضرائب غير الشرعية والتي هزت خزينة الدولة، ينظر رسائل موحديّة، أحمد عزراوي، ص:431.

¹⁰ - ينظر المصدر نفسه، ص:437، و477، 461.

¹¹ - ينظر المصدر نفسه، ص:442.

¹² - جابي الضرائب / جمع الضرائب والمختص: مسؤول عن اشغال المخزن المخزنية والمختصيّة، ينظر هامش رقم 6، ينظر المصدر نفسه، ص:474.

الولاية الضرائب شخصياً¹، وبخاصة عند تفشّي الفساد بين عمّال خزينة الدولة، واستفحال ظلمهم² ظلّمهم² واستعلت أموال بيت المال في دفع نفقات الجيش الذي كلف مبالغ طائلة³.
 كما اهتمّ الموحدون بختّم العملات⁴، فقد وجد العديد منها مختلفة تشير إلى فترات مختلفة من عمر الدولة، ومن أشهرها "الدينار الموحدى"، الذي كان وزنه العادي أخفّ من الوزن الشرعي⁵، الشرعي⁵، فأقدم الخليفة أبو يعقوب سنة 581هـ على خُطوة هامة عندما قام بمضاعفة وزنه دون المساس بشكله⁶، بُغية تحقيق التكافؤ مع العملات المعاصرة، كما قاموا بسكّ "الدرهم الموحدى" الذي عُرف بشكله المربع والذي بلغ من الشهرة أن قلّده الأوروبيون، وسكّوا له أجزاء، ولم يقتصر الموحدون في صنع نقودهم على معدني الذهب والفضة فقط بل استعانوا بالنحاس أيضاً⁷، وقد انتشرت دُور الضرب في عدويّ المغرب والأندلس⁸.

وأما فيما يتعلّق بالصناعة فقد تمتعت البلاد بإمكانات طبيعية هامة شجعت قيام مختلف الصناعات، والحرف اليدوية، واستطاعت تغطية حاجات الأفراد؛ ومن بينها المعادن التي توقّرت

¹ - هذا ما يبدو في تقديم لأحد العمال، ينظر المصدر نفسه، ص: 437.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 476.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 348.

⁴ - عرف ابن خلدون السكة بقوله: «السكة وهي الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد، ينقش فيه صور، أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة» المقدمة، ابن خلدون، ج1، ص: 446.

⁵ - قدّر الوزن الشرعي ب 4،25 غ فقد تراوح بين 2،27 غ و 2،51 غ وجاء خفيف الوزن بالنظر لحاجة الدولة لتوفير الذهب قصد تغطية نفقات الحروب التي خاضوها ضد المسيحيين، ينظر مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا و الأندلس (بلاد المغرب)، عبد النبي بن محمد، رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1979م، ص: 41-43.

⁶ - هي الدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إلى يوسف بن عبد المؤمن، ينظر الذيل والتكملة لكتّابي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، ط1، 1973م، السفر 6، ص: 325-326، ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 393، ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، المجلد 7، ص: 12. كان وزن الدينار يعقوبي مضاعفا إلى 21 مرة من الوزن العادي للدنانير من قبل مع حجم أكبر حيث بلغ قطره 56 ملم، ينظر المرجع نفسه، ص: 44.

⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص: 53-56.

⁸ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 58-69.

بكثرة: كالفضة والحديد، والرصاص¹، كما تميّزت المواد الأولية بكثرتها على غرار: الرّحام، والمرمر، والخشب²، وغيرها من المواد، ووظّفت هذه الإمكانيات في صناعات شتى؛ حيث استُغلّ الذهب والفضة في سكّ العُمّلات³، وأدّت كثرة المواد الأولية دوراً هاماً في صناعة بعض السلع؛ فقد اشتهرت اشتهرت بعض المدن بجودة ثيابها مثل منطقة السّوس⁴، كما أسهمت في إمداد بعض المنتجات كالقصاص والأطباق الخشبية في بياسة⁵، ولم يقتصر على الصناعات الخفيفة فقط، بل اتّجهوا إلى بعض الصناعات الثّقيلة؛ فقد توفّرت مدينة لطيش على معدن الحديد الذي يدخل في صناعة المراسي⁶، وأما بجاية، فكان فيها الخشب الكثير لذلك أنشئت فيها دار صناعة السفن والمراكب والحرايبي⁷، كما كثرت صناعة الأرحاء⁸.

وهيمنت الدولة الموحدية على رُقعة جغرافية هامة عُرفت بكثرة جنّاتها التي طعمت ميدان التجارة بمختلف المنتجات؛ فقد اختصّت بعض المدن بمنتجات لا تتوفّر في عداها مثلما هو الحال في إشبيلية⁹، واشتهرت بعض المدن بإنتاجها لمحاصيل بعينها حتى قُرنَت بها؛ فعرفت بلنسية بكثرة رباحينها حتى سُمّيَت "مطيب الأندلس"¹⁰، ولقّبت مدينة مكناس "بمكناسة الزيتون"، وشهدت

¹ - ينظر المصدر نفسه، ص 263 264.

² - ينظر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبو عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمّودي الحسني المعروف بالشّريف

الإدرسي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دط، 2002م، المجلد الأول، ص: 534.569

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 215.

⁴ - ينظر نزهة المشتاق، الإدرسي، ص: 226.

⁵ - ينظر المرجع نفسه ص: 569.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص: 542.

⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص: 260.

⁸ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 248.543.

⁹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 213.

¹⁰ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 268.

المحاصيل الزراعية تنوعاً ووفرة في كلتي العدوتين¹، وكان للتنوع في نظام السقي دور في طبيعة المحاصيل، وما حققته من اكتفاء ذاتي، فلم يقتصر الموحّدون على الرّي الطبيعي المتمثّل في مياه الأنهار فحسب²، بل كان الاعتماد أيضاً على السّواقي الجارية كما هو الحال في فحص غرناطة³، فضلاً عن ينابيع المياه مثل مدينة قفصة⁴ حيث استفاد النّاس من مياه العيون في الشرب والسقي، وقسموها فيما بينهم حسب الحاجة، كما انفجرت بعض العيون داخل أراضيهم فاخترت على المزارعين نقل المياه عبر القنوات.

وزحرت البلاد بثروة حيوانية متنوّعة، ومن أهمّها: الخيول، والبراذين، والغنم⁵، والأسماك التي امتازت بالجودة والتنوّع؛ فتعدّدت أصنافها في مدينة بنزرت باختلاف شهور السنّة⁶، ومن النّشاطات أيضاً تربية دود الحرير في بعض المدن، فنتج عن ذلك كلّ وفرة في المنتجات الفلاحية؛ من لحوم، وألبان، وسمن، وعسل⁷، واستطاعت بعض المناطق توفير ما يكفيها في ميدان الفلاحة فصدّرت الفائض إلى غيرها؛ على غرار مدينة (ميورقة) التي غلبت عليها البادية⁸، ولا شكّ في أنّ هذه الخيرات الخيرات كان لها دورٌ في توفير مهن عديدة؛ من بينها الجزارة والرّعي والصّيد، فضلاً عن توفير المواد الأولية لمختلف الصناعات مثل: الصوف، والقطن، والجلود⁹.

¹ - الحناء والحنطة والتوابل، لجني الرّيب الذي يطلبه ملوك المغرب والجزو والعنب وشتى الفواكه، فضلاً عن قصب السّكر ببلاد السّوس، ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 278، 279، 573.

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 265، 273، 272.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 128.

⁴ - ينظر رسائل موحّدية، أحمد عزاوي، ص: 148.

⁵ - ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 256.

⁶ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 256.

⁷ - ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 258.

⁸ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج 3، ص: 221.

⁹ - ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 279.

وشهدت التجارة نشاطا وتنوعا فعمرت الأسواق¹، وانتعشت التجارة البيئية؛ فقد صدر النسيج البلبنسي إلى عُدوة المغرب²، وكانت السفن ترحل من مدينة سفاقس إلى رقادة القيروان³، واتسع التبادل التجاري بين الدول الموحدية لينتقل إلى دُول الجوار؛ فقد اشتهرت مدينة مرسية بالحصير التي تعلق على الجدران والبسط التي نقلت إلى بلاد المشرق⁴، أمّا أسواق الجزيرة الخضراء فشهدت تردّد للسفن، واشتهرت مدينة وهران بكثرة الصناعات وأنواع مختلفة من التجارة فقصدتها المراكب الكبار والسفن السفريّة لأخذ العسل والغنم والبقر⁵، وشهدت الطّرق البرية النشاط نفسه الذي عرفه البحر؛ حيث عبرت القوافل من مدينة تلمسان مُروراً بصفروي إلى تادلة فأغامت مُروراً ببني درعة ووصولاً إلى سجلماسة⁶، ووُجد في بجاية من الصناعات ما قلّ في غيرها؛ فكثرت القوافل والسفن المقلعة إلى مختلف الأمصار⁷، وفي المقابل استوردت بعض المدن البضائع من الدول المجاورة؛ فتروّدت مدينة طرابلس بالقمح من مملكة (بيشة)⁸.

وكانت التجارة الخارجية تسير وفق معاهدات مكتوبة شهدت في بعض الأحيان خرقاً لنصوصها بسبب الاعتداءات، أو القرصنة على السواحل وهو ما استدعى الرد بقوة من الجهات المتضررة، واستمرت بعض الاتفاقيات إلى ما يزيد عن العقدين⁹. غير أنّ الاقتصاد لم يكن يسير على وتيرة واحدة؛ حيث شهد تذبذباً في بعض مراحل حكم الدولة متأثرة ببعض العوامل مثل: الحرائق مثلما

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص: 569

² - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 221

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 282

⁴ - ينظر زهبة المشتاق، الإدريسي، ص: 221

⁵ - ينظر زهبة المشتاق، الإدريسي، ص: 539.552.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص: 249.

⁸ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 268

⁸ - ينظر رسائل موحدية، أحمد عزراوي، ص: 163

⁹ - ينظر المصدر نفسه ص: 163، 174، 120، 221.

وقع في مدينة فاس والذي أضرب بمصالح الكثير من الناس¹، كما شهدت بعض المناطق فسادًا في الغلات بسبب الجراد²، أو مواسم الجفاف فاضطرت الحكومة لتقديم مساعدات للتقليل من وطأة الضيق الذي أصاب المتضررين كتقديمها المؤونة لسكان مدينة بطليوس³، وقد شهد الاقتصاد تأزّمًا في آخر عُمر الدولة، وذلك بسبب تدهور الوضع السياسي⁴؛ حيث ضعفت التجارة بسبب كثرة الحروب وما نتج عنها من عبث بالقوافل⁵ فحلت الولايات بالمواطنين، وكثر الغلاء، ومن قبيل ذلك ما حلّ بأهل إشبيلية أيام حصارها⁶؛ حيث نفق الكثير من سكّانها جوعًا وعطشًا .

6- الحياة الاجتماعية:

شهد المجتمع الموحدى تنوعًا في الأجناس، ومن أهمهم "البربر"⁷ وهم أصل قبيلة مصمودة التي نصرت ابن تومرت في دعوته، وقد استوطنوا بلاد المغرب الأقصى، وتميّزوا بكثرتهم⁸، إلى جانب "العرب" الذين تقاطروا على بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي وتمركزوا بصفة خاصة في منطقة إفريقيا لاسيما بعد تغلبهم على الصنهاجيين⁹، فضلًا عن "الهلاليين" الذين نزحوا إلى المغرب بدعم من

¹ - ينظر نظم الجمان ، ابن القطان ،ص: 268.

² - ينظر المصدر نفسه ،ص: 235.

³ - ينظر المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 435، 371.

⁴ - ينظر الأنيس المطرب ، ابن أبي زرع ،ص: 166

⁵ - ينظر رسائل موحديّة ، أحمد عزوي ص: 453

⁶ - ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1990م، ق2، ص: 627.

⁷ - يقال إن "أفريقيش بن قيس" عندما غزا المغرب وإفريقية أطلق على سكان المنطقة اسم "البربر" وهو صفة للغة التي لم يتمكن من فهمها فقد وجدها أصواتها مختلطة ، أما أصلهم فقيل أنهم يرجعون إلى "كنعان بن حام بن نوح عليه السلام" ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص: 116-127.

⁸ - استوطنت هذه القبائل منطقة المغرب الأقصى لذلك حاول المرابطون استمالتها ليعزّزوا ملكهم بها ومن أشهر قبائلهم: هرغة وهنّانة وتينملل وكدموية و ووريكة وهزميرة ودكالة وإيلانة وغيرها كثير، ينظر المرجع نفسه، ص: 275-299، ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، حسن على حسن، ص: 302

⁹ - ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص: 217-219.

الفاطميين لمضايقة الحماديين¹؛ وهم خليط من الأجناس شكّلت قَلْبًا ودُعرا في المنطقة فاستملمهم الموحّدون بسياستهم الجامعة بين التّرهيب والتّرعيب، وأقنَعُوهم بالاستقرار في الأندلس مستغلّين طاقاتهم في محاربة الإفرنج، والسّيطرة على الجزيرة دون المساس بهويّتهم، وخدمت هذه العناصر الدّولة كثيرا فأسهّموا في فتح قابس، وقفصة بإفريقية². وشكّل "الغرّ" أيضا جزءا من النّسيج السّكاني، وقد حلّوا ببلاد المغرب على عهد أبي يوسف المنصور³، واستفادوا من امتيازات عديدة مقابل تأدية دَوْر عسكريّ هام⁴.

وكان من الطّبيعي أن يحمل هذا التّعدّد في الأجناس تنوعًا في الأديان، فقد عاش أهل الدّمة إلى جانب المسلمين على رقعةٍ واحدة وعرفوا مرحلةً من الأمن والاستقرار في كنف الدّولة المرابطية⁵، لكنّ الخليفة عبد المؤمن غير من السلوك الذي كان سائدا لدى دخوله مراكش؛ حيث جمع اليهود والنصارى وخيّرهم بين الإسلام، أو الجهاد، أو القتل، وخزّب الكنائس وحوّلها إلى مساجد منقّدا وصيّة ابن تومرت⁶، واستمر الأمر على عهد أبي يوسف المنصور⁷، بيد أنّ وضعهم شهد انفراجًا في الفترات الموالية حيث تمتّع أهل الدّمة - ولا سيما النصارى - بحريّة أكبر شجّعتهم على الانتقال في العيش من الأندلس إلى مراكش أين شيّدت لهم كنيسة وذلك نظير مساعدتهم للمأمون في التّغلب على المنقّلين عليه في الأندلس، وتمتّعوا بمعاملة حسنة؛ فكثّر عددهم واندجوا مع المسلمين، حتّى تشبّهوا بهم في هندامهم⁸.

¹ - ينظر النثر الفخفي في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية دط، 2004م، ص: 89، ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص: 252-261.

² - ينظر تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص: 252.

³ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 210.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 211.

⁵ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 368.

⁶ - ينظر دولة الموحدين، علي محمد محمد الصلاحي، ص: 119.

⁷ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 368.

⁸ - ينظر تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، ص: 331-332.

ولم يمنع موقف السلطة من أهل الذمة احتكاكهم بالمسلمين؛ فالتاريخ شهد وقوع عدّة مصاهرات بين الجانبين؛ فقد تزوّج عبد المؤمن بإحدى النصرانيات، الحسان، فكانت حظية لديه، وأحبّ نسائه إليه¹، وعلى نهجه سار ابنه يوسف؛ حيث تزوّج من امرأة روميّة اسمها "ساحر"²، وهذا الأمر شاع عند بنيهم من الخلفاء أيضا³، كما نشأت مصاهرات مع من كانوا خصومهم في الماضي مثل الأمير إدريس المأمون؛ فأتمه صفية بنت الأمير عبد الله بن مردنيش⁴، أمّا عن أصول زوّجات الخلفاء فقد تباينت بين الحرائر⁵ والسبايا⁶.

وقسم ابن تومرت المجتمع وفق السبق للتوحيد، حيث شكّلت أربع عشرة طبقة للموحدين⁷، للموحدين⁷، ثمّ اختزلها عبد المؤمن إلى ثلاث، واحتلت "الطبقة الحاكمة" الصدارة في المجتمع، واقتصرت على قبيلتي (تينملل) و(كومة)⁸ تمهيدا لتقليد أبنائه أهمّ المراكز الإدارية، رفقة "طلبة الموحدين"، وأطلق هذا اللقب في عهد ابن تومرت على أصحابه المقرّبين المخلصين لدعوته الذين نصره، وكانوا أهل مشورته وتلقوا العلم منه حتّى إذا انتشرت دعوته سمّاهم أهل الجماعة⁹، وأصبح لقب الطلبة يُطلق على الفئة التي تلي المجلس الاستشاري المكوّن من أهل الخمسين والسبعين¹⁰، ثمّ انقسموا بدورهم إلى عدّة طبقات، واشتدّت شوكتهم في بعض مراحل الدولة¹¹، ثمّ جاء العلماء في

¹ - ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ص56.

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص:189

³ - ينظر الأنيس المطرب، ابن أبي زرع، ص163، 174.

⁴ - ينظر الأنيس المطرب، ابن أبي زرع، ص:166.

⁵ - الخليفة الناصر أمه حرة اسمها "أمة الله" بنت السيد أبي إسحاق بن عبد المؤمن، ينظر المعجب، المراكشي، ص:152

⁶ - الأمير أبو يعقوب تزوّج "مريم الصنهاجية" من قلعة حمّاد وكانت سبّية، ينظر المصدر نفسه، ص:242

⁷ - ينظر الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، علي عبد الله علام، ص:257-260

⁸ - ينظر نظم الحمان، ابن القطان، ص82.

⁹ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص:331-332

¹⁰ - ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

¹¹ - هو شيخ فقيه وقاض جليل من أهل بجاية تولى خطة القضاء من مراكش توفي في القرن السابع الهجري، ينظر عنوان الدراية، الغبريني،

الطبقة الثانية حيث ظلّوا محتفظين بالمكانة نفسها التي تمتّعوا بها على عهد المرابطين غير أنهم حدّوا من سلطة الفقهاء قليلاً؛ فقد اعتبروهم نموذجاً للجمود الفكري¹، ونال العلماء على عهد الموحدين دنيا عريضة أحرزوها من المنح التي استفادوا منها فضلاً عن الرّواتب التي خُصّصت لهم ، وهو ما صوّب سهام العامّة إليهم².

كما خصّصت طبقة لأصحاب الحرف والمهن، وقد عرفت هي الأخرى تنوعاً في عناصرها من أهمهم البتّاون الذي كانوا كثيراً نظراً لانتساع العمران، وشجّعت الدولة هذه الفئة فجعلتها جزءاً من فرق الجيش³، بالإضافة إلى الصيّادين الذين كانوا في العادة من سكّان المدن الساحلية، وتميّز بعضهم بذكاء كبير وبخاصّة في منطقة بنزرت؛ حيث تفتنّوا إلى أنواع الأسماك المتعدّدة باختلاف شهور السنة، كما استحدثوا آلات صيد خاصّة سهّلت عليهم العمل اليوميّ ولا سيّما في منطقة سبتة⁴. وكان للحدّادين دور هام في المجتمع نظراً لدخول أعمالهم في بعض الصناعات؛ كصناعة السفن والقوارب وبخاصّة أنّ الموحدين عرفوا بضخامة أسطولهم وتعدّد سفنه⁵، فضلاً عن مشاركتهم في صناعة الأسلحة المختلفة كالسيوف، والمجانيق⁶ نظراً لكثرة الحروب التي خاضتها البلاد وهو ما استدعى وجود هذه الفئة بكثرة ضمن المجتمع الموحدّي.

وشكّلت المرأة عنصراً هاماً في المجتمع، وقد سعى ابن تومرت إلى صون كرامتها عندما منع اختلاطها بالرجال مثلما كان عليه شأنها على عهد المرابطين⁷، وقد تغيّرت نظرة خلفاء الموحدين لها تبعاً للنّهضة الفكرية والعلمية والتّرف الذي شهده هذا العهد؛ فقد اعتبرها أبو الوليد بن رشد مكافئة

¹ - ينظر المصدر نفسه ، ص: 336-338

² - ينظر المصدر نفسه ، ص: 342-343

³ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن ، ص: 349

⁴ - ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 291

⁵ - ينظر المقدمة، ابن خلدون، ص: 449-440

⁶ - ينظر الأنيس المطرب ، ابن أبي زرع ، ص: 153

⁷ - فقد حدث مرّة عند نزوله مدينة " وجدات " أي " وجدة " أن رأى اختلاطاً بين النساء والرجال في الوضوء فأمر بصنع صهريج وساقية قرب

الجامع ، ينظر أخبار المهدي بن تومرت ، البيدق، ص: 21.

للرجل في الطّبع؛ فهي قادرة على الإبداع لذلك فقد دعا إلى منحها مساحةً أكبر للبروز والمشاركة في مختلف الأنشطة¹، وهو ما شجّعها على اقتحام العديد من المجالات؛ فأبدت رأيها في أمور الحكم²، والطّب³ وكذا التدريس⁴ فضلا عن نظم الشعر⁵، وهذا الانفتاح الذي شهدته المرأة الموحدية جعلها تتمرد في بعض الأحيان على أعراف المجتمع؛ وتعدّ الشاعرة حفصة الركونية⁶ أنموذجا لتلك المرأة الجريئة الجريئة والعاثبة التي قرّرت البوح بمشاعرها لحبيبها أبي جعفر بن سعيد⁷ دون الاكتراث بالتقاليد والأعراف.

ولم تكن الحرية مقصورة على النساء المثقّفات فقط بل تمتعت بها البقية أيضا؛ حيث ألفيناهن يرفعن أصواتهن ترحيبًا بالخليفة عبد المؤمن⁸، وعند زيارة الخليفة المنصور "تملّل" استقبالته الجموع ومثّلت النساء جانبا مهمّا من الحاضرين، ولم تقتصر عناية الموحّدين بالحرّات فقط، بل تعدّتها إلى السّبايا اللواتي عشن فترة من الظلم وانتهاك لحقوقهن فانبرى عبد المؤمن للدّفاع عنهن. وقد اشتهرت النساء المغريّيات بجمالهن، وقد وصف الإدريسي بعضا منهنّ حيث يقول: «فنساء بلاد السّوس سُمّر الألوان وفي نساءهم جمال فائق وحسن بارع وجمال ظاهر وحذق صناعات بأيديهنّ»⁹ وهو ما يُشير

- ¹ - ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مطلوب، دار الكتاب الجديد، ليبيا، ط1، 2000م، ص 435، نقلا عن ظهر الاسلام ص ج3 ص257
- ² - كانت أم الخليفة الرشيد من دهاة النساء، ينظر المعجب، المراكشي، ص: 170 .
- ³ ينظر الدّليل والتكملة لكتّابي الموصول والصلّة، تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسّي المراكشي، تعلّم وتحقيق
- وتعليق محمّد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، السّفر 8، دط، 1984، ص: 124
- ⁴ - وهو ما يمكن ملاحظته في مقامة شمس الخلافة، ينظر منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل، مصر، ط1، 1998م، ص: 97-102
- ⁵ - ينظر نفع الطيب، المقرّي، ج4، ص: 292.
- ⁶ - وصفها المقرّي بقوله: الشاعرة الأديبة مشهورة بالجمال، والحسن والمال، ينظر المصدر نفسه، ص: 171-173، وقد اعتبرها سعد بوفلافة أشعر شواعر الأندلس على الإطلاق نظرا لجرأتها وفصاحتها، ينظر نفع الطيب، المقرّي، ص: 157.
- ⁷ - هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي، اشتهر بحبه للشاعرة حفصة، ينظر ترجمته في المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، حققه شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط4، ج2، ص: 164، ينظر لمصدر السابق، ج4، ص: 179-180.
- ⁸ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 165.
- ⁹ - ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 227-228.

إلى أنّ النساء كنّ يشاركن في الأعمال اليدوية، كما قد يحيل على أنّ السّمة كانت من معايير جمال النساء في هذه المنطقة، وقد فضّلت النساء الموحّديات اللون الأبيض في ثيابهن - عند الخروج من المنزل - اقتداءً بالأندلسيات وكنّ مسفرات عن وجوههن خلافاً للمرابّيات¹، واعتنت الأندلسيات منهنّ بحبّهن للزّينة الكثيرة والبهجة².

وألح الخلفاء على ضرورة التحلي بالأخلاق الفاضلة عن طريق التحريض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر³، فحاربوا المتشبهين بالنساء ومنعّوهم من حضور المناسبات العامّة⁴، وحملت سعة سعة الرقعة تعدّدا في الدهنيات والأخلاق التي تباينت من منطقة إلى أخرى بين وفاء⁵، وكرم⁶ وحُسن وحُسن سيرة، فيما ترك سكّان بعض المدن انطباعات بالقبح وسوء المعاملة⁷، وقد جاءت تلك الأخلاق إمّا وراثّة أو استجابة لظروف الحياة اليومية المتراوحة بين العسر واليسر، حيث شكّلت تلك الطّباع في شخصيّتهم وأصلتها مع مُرور الوقت.

ولم يكتف الموحّدون بالاطّلاع على ما ألقوه من كتب، بل دفع بهم الفضول إلى التّعرف على ثقافات الشعوب المعاصرة لذلك اتّجهوا إلى تعلم اللّغات⁸، ومطالعة الكتب التي خطّت بلغات أجنبية أجنبية وترجمة بعضها فانتشرت الوراقة، وكثر التّساخ الذين برعوا في الكتابة بمختلف الخطوط؛ على

¹ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 21

² - ينظر إعلام أهل العلم والدين بأحوال الموحدين، علي محمد محمد الصلابي، ص: 124

³ - ينظر نظم الجمال، ابن القطان، ص: 187.

⁴ - ينظر في آداب الحسبة، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي، ترجمة (ليفني بروفانصال) و(ج.س كولان)، مكتبة (

أرنست برونكس)، باريس، دط، دت، ص: 68

⁵ - ينظر نظم الجمال، ابن القطان، ص: 176-177.

⁶ - ينظر المصدر نفسه، ص: 171-172

⁷ - ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 229، 252، 271، 277

⁸ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، أبو الحسن، علي بن محمد بن علي الرعيبي، حقّقه إبراهيم شيوخ مكتبة الدكتور مروان العطيّة، مطبوعات

مديرية إحياء التراث القديم، سوريا، دط، 1962م، ص: 98

غرار أبي محمد عبد الحق الأنصاري الذي كان ابن مقلة زمانه¹، فيما أجاد أبو عبد الله محمد بن أحمد الأريسي الخط المشريقي².

واقصر ابن تومرت في ثيابه على لبس الصوف عن قميص، وسراويل، وجبّة تواضعا لله تعالى وزهدا³، وأباح الطيب للرجال والنساء ومنع بعض الثياب لأنّه رأى فيها انتقاصا من رجولتهم⁴. وتغيّر الأمر مع مجيء أتباعه من الموحدين، وقد تميّز المشايخ والعلماء بارتداء الطيلسان⁵، ومن الثياب التي اعتادوا لبسها أيضا القرو، وثياب الملف، والقباطي⁶، و العمام، والغفاير، والأكسية⁷، كما شكّلت شكّلت النعال جزءا من هندامهم⁸ وتنوّعت طريقة ارتدائها؛ فقد كان أهل مكناس يلبسون الأكسية ويربطون العمام⁹، كما تميّز اليهود على عهد المنصور بثياب كحلية وأكمام مفرطة في السعة تكاد تصل إلى أقدامهم سببت لهم الإحراج¹⁰.

وعرفت المائدة الموحدية تنوّعا في الأطباق، بتعدّد المناسبات، واختلاف المواسم، وكانت تقدم مُرتبة¹¹، وراعوا تزيين المائدة عند التقديم¹²، ومن المأكولات التي قدّمت في المناسبات " أسّمان " فيروى أنّ ابن تومرت عندما وصل (إيكلي) طلب من مضيّفه تحضيرهم له، و اعتمد في صنعه على

¹ - ينظر عنوان الدرّاية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تأليف أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني، حَقّقه وعلّق عليه عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط 2، 1979 م، ص: 57.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 249.

³ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 172.

⁴ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 13.

⁵ - ينظر عنوان الدرّاية، الغبريني، ص: 128.

⁶ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 565.

⁷ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 215.

⁸ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 6، ص: 451.

⁹ - ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 246.

¹⁰ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 223.

¹¹ - ينظر الأسرة الأندلسية في عهدي المرابطين و الموحدين، مريامة لعناني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، تخصص تاريخ وحضارات بلاد الأندلس، تحت إشراف عبد العزيز فيلاي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، دت، ص: 125-126.

¹² - ينظر المرجع نفسه، ص: 127.

السَّمْن أو الزَّيْدَة، وهي وجبة اقتصادية بحيث تكفي لنفر من الناس¹، ومن المطبوعات أيضا المِسْمَنَات، والكَعْكُ²، والاسْفَنْج³، وهريسة الشَّحْم⁴.

7- البناء والتعمير:

شهد عهد الموحدين حركة بناء نشيطة تماشيا مع النهضة التي عرفتها مختلف الميادين، فقاموا بتشديد المدن في العدوتين، وكانت مدينة رباط الفتح أول ما شيّده بغية توطيد حكمهم، وقد أورد صاحب المن بالإمامة سبب ذلك فقال: «قيل إنهم إنما بنوها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك وذلك أنه قال لهم تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر يعني البحر الأعظم ثم يظطرب⁵ أمركم وتنتقص عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان»⁶ وقد استجاب عبد المؤمن لوصية ابن تومرت، وشرع في بنائها سنة 555هـ فأوكل هذه المهمة لابنه أبي يعقوب الذي أبدع في تشييدها، كما عمروا مدينة فاس في عدوة المغرب وتفنوا في ذلك حتى زاحمت مدينة مراكش التي شفع لها موقعها الجغرافي في اتخاذها عاصمة ملكهم؛ فهي قريبة من قبائل اللمّثونيين مؤسسي دولة المرابطين والمصامدة الذين شيّدوا الدولة الموحدية وقد فضل المراكشي مدينة فاس على سائر مدن المعمورة⁷ لأنها استغنت بما فيها عن غيرها لحِصْب ثريتها، ثريتها، ووفرة منتجاتها، وبخاصة الجبوب.

وأخذ الموحدون في توسيع العديد من القرى منذ عهد ابن تومرت الذي أحدث زيادات في (تينملل) مسقط رأسه وحوّلها إلى مدينة عامرة بعدما كانت منطقة جبلية⁸، واعتنى عبد المؤمن

¹ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 33.

² - ينظر في آداب الحسبة، السقطي، ص: 39.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 37-38.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 31.

⁵ - هكذا وردت وفي الأصل "يضطرب".

⁶ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 262.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁸ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 94.

بالبحيرة وغرس فيها بستانه وبنى قصره ومسجدا¹، كما أصدر الناصر أمره ببناء مدينة وجدة سنة 604هـ، و شملت عنايتهم تشييد الأحياء أيضا على غرار "حومة الصّالحة" بضواحي مراكش؛ فبعد اتّساع المملكة وكثرة الوافدين قرّر بناءها بعدما هدم المباني القديمة، مشدّدا في ذلك على الاتقان والفخامة².

وفي ما يخصّ المساكن فقد اقتصر ابن تومرت على السكن في "الخيام" و"القياطن"، حتى إذا اتّسعت الدّولة اتخذ أتباعه القصور والفساطيط³، وقد تنافس الأغنياء على تشييد الدّور والقصور الفخمة في المدن سواء في العاصمة مراكش أم في مختلف الحواضر⁴، وبخاصّة الأمير أبو يعقوب الذي الذي شُغف بمدينة إشبيلية التي عاش فيها معظم أيّام صباه⁵؛ فاحتطّ فيها مجموعة من القصور المسماة "البحيرة" وذلك بالقرب من باب جهّور بمحاذاة "دار المزينة" التي اتخذها ملوك "بني عبّاد" مقرا لهم واشتهرت بفخامتها⁶، وقد أرتب على قُصور أخيه السيد الأعلى أبي حفص التي كانت بالقرب منها، وأجريا فيها المياه⁷، كما صرف الحكّام جهودهم إلى حفر الآبار⁸ وبناء الصّهاريج⁹، والأخبية¹⁰.

وافتنن المهدي بن تومرت بالمساجد أيّما افتتان؛ فلزِمها وكان يشعل قناديلها للقراءة والتّعلّم حتى لُقّب "أسفو"¹¹، وكان يبني مسجدا في كلّ مكان ينزل فيه عند بداية دعوته بعد قفوله من

¹ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت ، البيدق ، ص: 79

² - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 275

³ - ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج1، ص: 454

⁴ - ينظر المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 266، ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق ، ص: 265.

⁵ - ينظر المساجد والقصور في الأندلس ، السيد عبدالعزيز سالم، مؤسّسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 1986م، ص: 37

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص: 117

⁷ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة ، ص: 373-374

⁸ - ينظر المصدر نفسه، هامش رقم: 1، ص: 306 .

⁹ - ينظر نفع الطب، المقرئ، ج3، ص: 497-498

¹⁰ - ينظر المصدر نفسه، ص: 497

¹¹ - ويعني هذا الإسم بالبربرية "الضياء"، ينظر ، نظم الجمان ، ابن القطان ، ص: 90.

رحلته المشرقية¹، وعلى نهجه سار أتباعه فقد حوّلوا العديد من الكنائس إلى مساجد²، كما هدموا بعضا منها قبل دخولهم إلى مراكش بدعوى أنّها كانت معاكسة لاتّجاه القبلة ولن تحلّ لهم إلا إذا غيروها³، وشيّدوا فيها جامعهم الذي زوّده بمقصورة عجيبة الصنّع؛ وقد أوردتها المقرئ مبدّيا إعجاب به بما ودكر مصيرها إذ تعطلت حركاتها وبقيت آثارها⁴، وشملت عنايتهم بالمساجد ترميم أو توسيع بعضها؛ مثل مسجد مدينة فاس الذي أحدث فيه الوالي عبد الحق بن عبد الله بن معيشة زيادات عديدة⁵.

وأمر أبو يعقوب بتشيد قسبة مراكش وبنى بقربها جامع الكتبيين ومنارته فضلا عن بنائه لجامع حسان⁶، وكان لبعض الميسورين مشاركة في حركة العمران التي شهدها هذا العصر مثل أبي عبد الله الكاتب (-607هـ) الذي شيّد مسجد دار القضاء بغرناطة وأصلح مساجد أخرى، وكان كثير البذل فقد ساهم في تنمة القنطرة على وادي (شّينيل) بمبلغ أربعة آلاف دينار⁷.

ومن أشهر المساجد أيضا جامع إشبيلية الذي شيّده أبو يعقوب، وحرص على أن تكون عملية بنائه متواصلة؛ حيث استمرّت ثلاث سنوات⁸، وقام بانتداب كبار المهندسين والفعلة، ويرجع سبب بنائه إلى ضيق المصلّي الذي شيّده من قبل؛ حيث اضطرّ الناس للصلاة في الأسواق وصعب عليهم الاستماع إلى الخطب⁹، ونالت صومعته إعجاب كل من رآها، وقد كان الغرض من المبالغة في تنسيق

¹ - شيّدت بعض المساجد في الطريق من بجاية إلى تلمسان مثلا في منطقتي (الأخماس) و(كساس)، ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق،

ص: 18-19.

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 206.

³ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 66.

⁴ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 240.

⁵ - ينظر نظم الحمان، ابن القطان، ص: 248، ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 397.

⁶ - ينظر الأنيس المطرب، ابن أبي زرع، ص: 592.

⁷ - ينظر الذيل والتكملة، السفر 6، ص: 369.

⁸ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 385.

⁹ - ينظر المصدر نفسه ص: 384.

تَنَمِيقُ هذا المسجد هو مزاحمة مسجد قرطبة الذي يعدّ فخرها، وبالتالي توجيه الأنظار من هذه المدينة إلى إشبيلية وهذا ما حدث بالفعل حسب ما ذهب إليه المقرئ¹، وإن كان عبد العزيز سالم يعتبر مسجد قرطبة هو نواة الفن الأندلسي في قوله: «يُجْمَعُ مؤرّخو الفنّ الأندلسي على أنّ جميع الصّور المتطوّرة لعناصر البناء في مختلف أبنية الأندلس إنّما تَنَبِّثُ أصلا من بُنيان المسجد الجامع بقرطبة ففيه تكمن المِنايَبُ الأولى للفنّ الأندلسي»² وهذا يفضي إلى وجود تشابه في الطّابع العام لمختلف أشكال أشكال العمران في الأندلس، وهو ما يشهد بأسبقيّة جامع قرطبة وتميّزه.

وتعدّ صومعة مسجد إشبيلية من أفخم الآثار التي خلفها الموحدون فقد أثرت زخرفة هذه الصّومعة في قريناتها ببلاد المغرب والأندلس من خلال قصور الموحدين وبني نصر بغرناطة، والمرينيين بمراكش، كما ألهمت فنّاني إسبانيا لاحقا في تزيين كنائسهم مثل كنيسة (سَانْتَا كَاتَالِينَا)، وكنيسة (سَانْ مَارْكُوسْ)، والأمر نفسه حدث في طليطلة³، وعندما سقطت الأندلس شهدت تغييرات تغييرات على مستوى الشّكل وأصبحت تسمّى ما يُعرف اليوم ب(الخَيْرَالِدَا)⁴، التي تختلف عن نظيراتها من المآذن المعاصرة لها فهي في غاية الأبهة والزخرف تنمّ عن الرّحم والتّرف الأندلسي فيما تميّز الفن المغربي بالتّكشف والبساطة⁵ ولعلّها أكبر شاهد على عظمة الموحدين الذين تركوا طابعهم في بلاد الأندلس .

¹ - ينظر فتح الطيب ، المقرئ، ج1، ص: 548.

² - العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، السيد عبد العزيز سالم، بحث من مجلة عالم الفكر، الكويت ، المجلد الثامن - العدد الأول (عدد أبريل، مايو، يونيو)، 1977م، ص: 91.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 127-128.

⁴ - بدأ ذلك منذ عهد (فرديناند الثالث) ملك قشتالة حولها الى كنيسة سانتا ماريا وحول المذئنة إلى برج للنواقيس دون المساس بنظام بنائها، وقد فقدت تفاعليتها الأربع إثر زلزال 1355م، كما فقد جزء كبير من المذئنة ، وقد استبدله (بروتولومي موريل) بتمثال برونزي يدور مع الرياح ويرمز للمسيحية فأطلق عليه (خيراالدو) أي دوّارة الرّياح، ومنه جاءت تسمية هذه المذئنة "الخيراالدو"، ينظر المساجد والقصور في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم ص: 126.

⁵ - ينظر المرجع نفسه ، ص: 45.

ومن المعلوم أنّ دولة الموحدين كانت حريصة على تحقيق مناطق نفوذ أوسع ، لذلك لجأت إلى تحصين مدنها بتشبيد الأسوار والقصاب، حيث وسّع أبو يعقوب حصن قلعة جابر بشرق إشبيلية التي يعود صنعها إلى عهد ملوك الطوائف وكانت أهم نقطة دفاعية على عهدهم وأجرى فيها ساقية¹، ثمّ قام حفيده الناصر بجلب الماء إليها ، كما حوّط هذا الأخير مدينة فاس بسور منيع يعصمها من أيّ عدوان خارجي، كما أمر عبد المؤمن ببناء سور تاقرا مسقط رأسه، وأعلى أسوارها وبنى حصن المدينة، كما أمر بتعمير مدينة البطحاء قرب شلف بعد خرابها²، ومن المنشآت التي استعانوا بها لتحسين مدنها الأبراج البرانية الملتصقة بالحصون التي تعدّ ابتكارا موحديا كان القصد منه تدعيم الأسوار من الخارج وتباينت أشكالها بين مربعة و مئمنة وهذه الأخيرة أكثر مناعة ، حيث استخدمت في حماية الأماكن الضعيفة في الأسوار ويبدو أنّهم أضافوها إلى الحصون التي فتحوها، ومن أشهرها ما كانت في (بظليوس)، و(ماردة)، وإشبيلية، أما المواد المعتمدة في البناء فتباينت بين الآجر والطين والحجر في منطقة (أغمات) وهو ما يوحي بثناء سكان المنطقة³ نظرا لغلاء ثمن هذه المواد، فضلا عن الكدّان والرخام⁴.

ثانيا - الحياة الفكرية والعلمية :

تطلّع الموحّدون للسيادة على العرب والمسلمين فتنبّهوا لأهمية العلم؛ لذلك أقدموا على رعايته ونشره بالسّهر على خدمة المعارف، وتغذية العقول لأنّ الدّولة القويّة هي التي تقوم على العلوم؛ من أجل ذلك أولّوها عنايةً فائقة بتشبيدهم المساجد والكتاتيب عند كلّ فتح ، إيمانًا منهم بأنّ الدّين

¹ - ينظر الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال " دراسة تاريخية أثرية " ، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي ، مصر، ط2،

1997م، ص:69

² - ينظر تاريخ الجزائر في القدم والحديث ، مبارك بن محمد الميلي، ص:333

³ - ينظر نزهة المشتاق ، الإدريسي، ص: 232

⁴ - ينظر المعجب، المراكشي، ص:201

يسيرُ جنبًا إلى جنب مع العلم؛ فذاك يُرَبِّي النَّفوس وهذا يَهْدِبُ العقول¹، وحرصًا على تكوين مجتمع قائم على أفراد أسوياء.

وشهدت الحركة الثقافية على عهد الموحدين نشاطا منقطع النظير، شمل مختلف الميادين سواء كانت فكرية، أو علمية، أو أدبية، لأنّ الخلفاء كانوا أنفسهم من نخبة المثقفين، لذلك بجلوا العلماء الذين كان لهم دورٌ كبير في انتقال المعارف بين العدوتين، كما أثروا كثيرا في ازدهار الحركة الثقافية، والعلمية التي بلغت ذروتها على هذا العهد، وجاء ذلك نتيجة تضافر أسباب عدة أبرزها:

(أ) - الاستقرار السياسي: تحقّق ذلك منذ عهد المرابطين في ظلّ حكومة مركزية موحدة²، واستتبّ أكثر على عهد الموحدين بفضل جهود الدولة، ولا سيّما في مرحلة القوّة حيث يقول حسن علي حسن: « وفي مناخ الاستقرار السياسي نمت الحركة الفكرية وترعرعت فروعها حتى صارت وارفة الضلال تعطي أطيب الثمار، وقد صاحب هذا الاستقرار امتداد سلطة أبناء المغرب الأقصى إلى خارج حدودهم»³، وقد أسهم هذا الوضع في توسيع رقعة الدولة المترامية أطرافها بين شمال إفريقيا والأندلس، وهو الأمر الذي أنعش الاقتصاد⁴ بفضل تنوّع الواردات ووفرته، فتفرّغت مختلف الفئات لطلب العلم .

(2) - تشجيع الدولة للعلم والعلماء : حرص ابن تومرت على نشر العلم بين أنصاره، ومنحه مرتبة رفيعة؛ فهو حسب رأيه : « أعزّ ما يطلب وأفضل ما يكتسب وأنفس ما يدّخر وأحسن ما يعمل ، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كلّ خير هو أعزّ المطالب وأفضل المكاسب وأنفس الدّخائر وأحسن الأعمال»⁵ لقد قرن ابن تومرت العلم بالعبادة ، واتّخذة قربانا لنيل رضى الله (عزّ وجلّ)،

¹ - ينظر بلاغة العرب في الأندلس، أحمد ضيف، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط1998، ص:19.

² - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص:443.

³ - المصدر نفسه، ص:443.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص:207-209.

⁵ - أعزّ ما يطلب، محمد بن تومرت، ص:29.

وجعل أهله في أعلى المراتب وأسناها، كما حثّ الأمراء أتباعهم على طلب العلم النَّافع الذي اجتمع فيه القول والفعل لأنّه يعزّز الملك، ويؤيّد هيئته¹، فاتّخذوه مطيّةً لتبليغ مذهبهم .

وسار خلفاء الموحدين وأمراؤهم على نهج ابن تومرت في طلب العلم؛ فكانوا من كبار العلماء والأدباء؛ فقد عُرف الخليفة أبو يعقوب بحبّه للعلوم وتبحّره فيها؛ حيث قال عنه ابن خلكان: «كان أعرف النَّاس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهليّة والإسلام، صرف عنايته إلى ذلك ولقي فضلاء إشبيلية أيام ولايته لها، ويقال أنّه كان يحفظ صحيح البخاري. وكان شديد الملوكية بعيد المهمة (...)» وكان يحفظ القرآن العظيم مع جملة من الفقه² لقد اطلع أبو يعقوب على أدب العرب بداية من العصر الجاهلي لأهميته في اكتساب البلاغة والفصاحة، كما حفظ كتاب الله كونه دستور المسلمين فهو سيّعه على تسيير البلاد وفق مقتضيات الدّين الحنيف، وقد تنبّه هذا الخليفة لأهمية التّفقه والغوص في العلوم الشرعية في تهذيب النَّفس، وتحسين الأخلاق، فغرف منه ما استطاع.

وحرص قادة الموحدين على تقريب العلماء من مجالسهم وإكرامهم حسب مراتبهم؛ فقد اجتمع لأبي يعقوب من العلماء ما لم يجتمع لملك من ملوك المغرب قبله³، ومن العلماء الذين ازدان بهم البلاط الموحدي: أبو بكر بن طفيل⁴، والقاضي أبو الوليد بن رشد (-595هـ)⁵، وأبو مروان بن زهر

¹ - ينظر الشر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، دط، 2004م، ص: 39.

² - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج 7، ص: 134.

³ - ينظر المعجب، المراكشي، ص 171.

⁴ - هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي، من أهل برشانة بألمرية، وهو طبيب، وفيلسوف، وأديب، أخذ العلم على يد ابن باجة له تصانيف عديدة في الطبيعيات والإلهيات، ومن أشهرها رسالة "حي بن يقظان" و"رسالة النفس"، وكان حريصا على الجمع بين الفلسفة والشريعة، كما كان ميالا للموسيقا، وقد استدعاه أبو يعقوب للمكوث معه في قصره وهو من عرفه على ابن رشد، ينظر المقتضب من كتاب تحفة القادم، ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي الأندلسي، اختيار وتقييد إبراهيم البليقي، تحقيق إبراهيم الأبياري، قرئ على طه حسين، مطبعة الأميرية، مصر، دط، ص: 72.

⁵ - هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن رشد (520هـ-595هـ) وصفه الشقندي بقوله فقيه الأندلس وفيلسوفها الذي لا يحتاج في نهايته إلى تنبيهه (...) وليّ قضاء القضاة بقرطبة، وكذلك جدّه أبو الوليد «، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي،

(-557هـ)¹، ومن مظاهر اهتمام الخلفاء بهذه الفئة أنّ عبد المؤمن عزل أشياخ المصامدة الذين مثّلوا أعلى هيئة على عهد ابن تومرت واستبدلهم بالعلماء، وقلّدهم مناصب هامة في الدولة².

ولم تذخر السلطات جهداً في تشجيع الحركة العلميّة والثّقافيّة؛ فقد سعت لخلق توازن ثقافي بين منطقتي المغرب والأندلس، بعدما تنبّهت لميل المغاربة إلى الجانب الدّيني والأدبي على حساب العلوم العقلية، إلى جانب نقص خبرتهم في الجانب الفنيّ ذلك أنّ معظم المهندسين الذين أشرفوا على تشييد المنشآت كانوا من الأندلس؛ لذلك عكفت على تشجيع العلوم العقلية وتوفير أسباب رواجها، وقد أثمرت مساعيها؛ حيث نبغ العديد من المغاربة في هذا الصّنف من العلوم³.

(3) - الصّلات الثّقافية بين المغرب والأندلس: وقد ازدادت وتيرتها إبان الحكم الموخّدي فأصبحت أكثر رسوخاً وعمقاً؛ حيث كثرت تنقّلات العلماء بين العدوتين؛ فقد كانت بعض المدن المغربية نقاط عبور لقوافل العلماء على غرار مدينة بجاية التي مكث فيها العديد من الأعلام في

حققه وعلّق عليه الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط4، دت، ص: 104-105، ينظر ترجمته في التكملة لكتاب الصلة، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ابن الأبار، تحقيق الدكتور عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، دط، 1995م، ج2، ص: 73-75، ينظر الذيل والتكملة لكتّابي الموصول والصّلة، تأليف أبي عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الملك، الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، ط1، 1973م، السفر 1، ص: 21-31.

¹ - هو محمد بن عبد الملك بن زهر أبو بكر الحفيد ابن الوزير الكبير الطيب النحرير والفيلسوف العظيم أبو العلاء زهر ابن وزير ذلك الدهر أبو مروان عبد الملك الذي تولى رئاسة الطب ببغداد، ينظر ترجمته و بعض شعره في المطرب من أشعار اهل المغرب، ابن دحية ذي النسين أبي الخطاب عمر بن حسن، تحقيق: إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع، لبنان، دط، دت، ص: 203-208، قال المراكشي في ترجمته: «كان أحد رؤساء الأندلس ومن انتهى إليه السؤدد منهم، ذا مناقب جليّة وخصال جميلة، صارما أيبا عزيز الجانب منيع الحمى، أدبيا بارعا حافظا للحديث والفقّه والآداب واللغة، إماما فيها، ماهرا في الطب حاذقا بالعلاج موقفا فيه، لم يكن في أطباء زمانه من يتقدمه، سلطاني الطبايع عظيم الجدة والإيثار، متواضعا على شرفه، مريبا بفضل خلقه على فضائل سلفه، يطب الناس حسبة، ويعطيهم الأدوية العزيزة الوجود تبرعا طيب النفس بها» وقد اشتغل إلى جانب ذلك بالقضاء واشتهر بموشحاته ولد بإشبيلية 507هـ وتوفي 591هـ بمراكش، ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 5، ص: 18-19، ينظر المصدر نفسه، السفر 6، ص: 398-403، ينظر التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ص: 80-81، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، حققه شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط4، ج1، ص: 270،

² - ينظر الحلل الموشية، ابن الخطيب، ص: 114.

³ - ينظر المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ص: 350.

طريقهم إلى المشرق أو الحجاز¹، وازدادت وتيرتها في عصر الضعف فرارا من الفتن والاضطرابات التي عصفت بالأندلس².

وسعى الخلفاء والأمراء للاستفادة من العلماء بالاقتراب من معارفهم أجر الحماية والعطاء بسخاءٍ حسب ما يؤكده إبراهيم حركات في قوله: «والحق أنّ عصر الموحدين يمثل ذروة النشاط الفكري لهذه البلاد أمّا أسباب ذلك فتعود إلى أنّ علماء وأدباء كثيرين هاجروا من القيروان والأندلس إلى المغرب إبان حكم المرابطين وفي عهد الموحدين لأسباب سياسية في الغالب إذ انتشرت الفتنة في الأولى بسبب وجود القبائل المكتسحة، وفي الثانية بسبب نشاط النصارى وغدر بعض الأندلسيين الذين تقرّبوا إليهم»³؛ لقد ارتحل العلماء هربًا من بطش القبائل الجائرة التي غزت إفريقيا وبخاصة مدينة القيروان، فضلًا عن تعاقب الفتن التي ألت بالأندلس، وقرروا الاستقرار ببلاد المغرب، وأدى ذلك دورًا هامًا في دعم الحياة الثقافية والدينية في المنطقة، ولا شك في أنّهم أسهموا في تخريج أجيال من العلماء، كما أدت الهجرات التي قام بها العلماء إلى تبادل الثقافات؛ فكانوا بمثابة قنوات لنقل العلوم والمعارف سواء بين الضفتين أو مع بلاد المشرق؛ حيث نقلوا معهم ثقافتهم التي استقوها من مشارب مختلفة⁴، وأقبل المغاربة على علماء الأندلس ينهلون من فيض معارفهم سواء عبر مؤلفاتهم أم بالتواجد في حلقاتهم التي عقدوها في مختلف الحواضر المغربية التي تنقلوا بينها، كما كان للعديد من العلماء المغاربة مشاركة في الحياة الثقافية وبخاصة في عصر الضعف⁵.

¹ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 115، 73، 22.

² - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين "دراسة سياسية وحضارية"، د. جمال أحمد طه، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، دطدت، ص: 269.

³ - المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ص: 349.

⁴ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 446-447.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص: 445-446.

1) الحواضر العلمية: تذكر المظان أنّ هناك العديد من المدن الموحّديّة التي اشتهرت باستقطابها للعلماء من مختلف الأقطار، وقد انتشرت في عدوتي المغرب والأندلس، وعبّر ابن خلدون عن أهمّيّتها فيقول: « وذلك أنّ القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمراؤها وكان فيهما للعلوم والصنّاع أسواق نافقة، وبحور زاخرة، ورسخ التّعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة، فلما خربتا انقطع التّعليم عن المغرب¹ فالعلم عند ابن خلدون مرتبط بكثرة العمران؛ فقد انتشر في المدن، وقلّ في البوادي شأنه شأن الصنّاع التي راحت في الحواضر، وهذا مايفسّر سبب تنقل طلبة العلم بين المدن الكبرى لطلب العلم وإثراء ثقافتهم، ويبدو أنّ المكانة العلمية لبعض المدن عرفت تراجعاً خلال عهد الموحّدين لصالح غيرها كمدينة "تاهرت" التي كانت واحدة من أهمّ الحواضر العلمية ببلاد المغرب أيّام الرّسّميّين وقلّ إشعاعها على عهد الموحّدين²، وإذا حاولنا تتبّع مواقع الحواضر العلمية على عهد الموحّدين وجدناها تنقسم على اعتبار الإطار الجغرافي لهذه الدولة إلى قسمين:

أ- الحواضر العلمية في بلاد المغرب: كان للمدن الكبرى دورٌ كبير في رواج الثقافة وازدهارها، واشتركت من حيث التّوجّه الدّيني والمذهبي، وقد رصد حسن علي حسن جانباً من ذلك الازدهار قائلاً: « نشطت الحركة الفكرية بالبلاد وأصبحت تعجّ بطلّاب العلم والعلماء، وصارت المساجد وغيرها تشهد المناقشات الفقهية، واللغوية، والأدبية، وغير ذلك مما حفلت به الحياة الفكرية بالبلاد وصارت المدن المغربية نجومًا تتألأأ بما فيها من معارف وعلوم³، وهو ما انعكس بلا شكّ على طبيعة العلوم والدّراسات المتناولة في المنطقة، واشتملت عدوة المغرب على عدة مدن كانت لها مشاركة هامّة في الحياة الثقافية والفكرية على غرار كلّ من: سبتة، والجزائر، ووارجلان، ووهران وغيرها ممّن

¹ - المقدّمة، ابن خلدون، ص166 .

² - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحّدين، علي عشي، " دراسة تحليلية للأوضاع التّقافية والفكرية" (534هـ/1139م إلى 633هـ/1235م)، مذكر لنيل شهادة الماجستير، علي عشي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية: 2011-2012، ص: 65.

³ - الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 447.

شهدت حراكًا فكريًا ملحوظًا¹، لكنّها لم ترقَ إلى مستوى حواضر أخرى نالت شهرة أكبر وأوسع، من أهمّها:

- مراكش: هي عاصمة دولة الموحّدين حيث ارتحل إليها علماء الأندلس وغيرها من البلدان للتقرب من الخلفاء²، حتّى أصبحت ملتقى لرواد الثقافة من أعلام الفكر الأندلسيين، ومن أهمّ علمائها أبو الحسن الحرّالي (-638هـ)³.

- فاس: حازت هذه المدينة مكانة رفيعة؛ فقد كانت وجهة العديد من العلماء وبخاصّة عقب الفتن المتلاحقة على الأندلس⁴ ممّا ساعد على تنشيط الثقافة، وقد وصفها المراكشي بقوله: «ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب فلما اضطرب أمر القيروان كما ذكرنا بيعت العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء»⁵ فقد كانت هذه المدينة قبلة العديد من العلماء الذين خرجوا من قرطبة بالأندلس، والقيروان بالمغرب وبمّوا أرضها، فازدهرت المعارف فيها حتّى انتزعت لقب "بغداد المغرب"، وقد عرفت هذه المدينة ازدهارا للعلوم الدّينية منذ عهد المرابطين، وذلك بفضل مساجدها المنتشرة بكثرة، واستمرّت في حكم الموحّدين حيث كان "جامع القرويين" بمثابة الجامعة⁶؛ فقصده الطّلاب النّبهاء الذين قطعوا مراحل متقدّمة في طلب العلم، كما شهد توافدا للعلماء الذين

¹ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 64.

² - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 447.

³ - هو الفقيه العالم المطلق، والزاهد الورع، وهو نسيج وحده أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرّالي التّجيجي، من مدينة مراكش، تخلّى عن الدنيا ورحل إلى المشرق، أين التقى جلة من العلماء، وكان أعلم الناس بعلم التعاليم، وأعرفهم بعلم الفقه رواية ونقلًا، ينظر عنوان الدّراية، الغبريني، ص: 143.

⁴ - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، جمال أحمد طه، ص: 270.

⁵ - المعجب، عبد الواحد المراكشي، ص: 260.

⁶ - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، جمال أحمد طه، ص: 273-274.

لاقوا ترحيباً وعظفاً من القائمين على هذه المدينة؛ فبتدّل حال الكثير منهم من الضنك والفقر إلى الرخاء واليسر¹ بفضل عطف حكام الموحدين.

- **تلمسان:** أوّل الموحدون رعاية كبيرة لهذه الحضارة؛ وذلك لقربها من العاصمة مراكش، فضلاً عن كونها مسقط رأس عبد المؤمن بن علي مؤسس دولتهم، وشكّلت هذه المدينة صلة ثقافية قويّة مع مدينة بجاية فقد كانتا قاسماً مشتركاً لرحلات العلماء العلمية²، والأمر ذاته جمعها مع مدينة فاس³، وأنجبت هذه الحضارة جيلاً من العلماء الذين فاخرت بهم عبر العصور المتلاحقة، والذين كان لهم أياد بيضاء في مجالي الفكر والثقافة حتى زاحمت عواصم المشرق آنذاك، وقد تخصّص علماءها في ميدان الإصلاح الديني، والدراستات الفقهيّة، وبخاصّة علم الحديث، كما كانت محجّاً للمتصوّفة والأولياء الصّالحين⁴، ومن أهمّ علمائها أبو عبد الله محمد بن الحاج (- 625هـ)⁵ وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني⁶ الذي كان قريباً من المنصور الموحدي، والفقير محمد بن عبد الحق بن سليمان التلمساني النّدرومي⁷ الذي تصدّر لرواية الأحاديث النبوية الشريفة.

¹ - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، جمال أحمد طه، ص 165.

² - من بين العلماء الذين تردّدوا على هاتين المدينتين أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي، ينظر عنوان الدراية، الغريبي، ص: 218-220.

³ - من هؤلاء العلماء محمد بن عبد الرحمان بن علي بن محمد بن سليمان التنجي اتخذ مدينة فاس محطة له في رحلته العلمية، ثم استقر في تلمسان، ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 6، ص: 352 - 357.

⁴ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 66.

⁵ - هو أبو عبد الله محمد بن الحاج أبي محمد عبد الحق بن سليمان، كان في بلده متصدّياً لأهل العلم، له برنامج "الإقناع في ترتيب السماع" وكتاب "فضيلة العلم والعالم"، وبرع في النثر والنظم، تنقل في طلب العلم بين مدن المغرب، والأندلس والمشرق، ينظر برنامج شيوخ الرّعيّ، الرّعيّ، ص: 169-170.

⁶ - كان مجّداً في الفقه والأدب، ومال لعلم الظاهر، وغلب علمه وحفظه للأدب شعره، ينظر الغصون اليبانة في محاسن شعراء المائة السابعة، ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، دط، 2009، ج 1، ص: 29-30.

⁷ - كان راوية للحديث وحافظاً متقناً، ومتكلماً متفناً، جلس للتدريس رواية في مراكش، وفاس، وسبتة وإشبيلية، وهو صاحب برنامج "الإقناع، في ترتيب السماع" ينظر الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة، تأليف أبي عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الملك، الأنصاري الأوسي المراكشي، نقله وتحقيق وتعليق محمد بن شريف، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، السّفر 8، ص: 317-318.

- بجاية: اتخذها محمد ابن تومرت إحدى المراكز لدعوته¹، نظرا لقيمتها السياسية والتاريخية فكانت كما وصفها الإدريسي قطبا لكثير من البلاد²، وفيها التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الذي قصدها لطلب العلم، وقال له: «العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب»³، لقد كانت مشتلة للمعارف فاستهوت العلماء الذين توجهوا إليها من كل حدب وصوب، ومما أسهم في استقطابهم كونها محطة لقوافل الحجاج، وكذا طلاب العلم الذين وجدوا فيها المناخ الملائم لتنظيم حلقاتهم؛ حيث قال عنها أبو مدين شعيب أنها "تعين على طلب الرزق الحلال"⁴، وكثرت هجرة العلماء إليها بخاصة مع نهاية عهد الموحدين⁵، بالإضافة إلى أنّ حكّام هذه المدينة كانوا من المثقفين مثل: الأمير أبي الربيع سليمان الموحّد الذي كان مجلسه حافلا بالعلم والأدب⁶، وقد أُوثر عن هذا الرجل حرصه على تقديم الدّعم والتّشجيع للعلماء الذين تقاطروا على المدينة بكثرة.

ومن العلماء الذين أنجبتهم هذه الحضارة: علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله (-652هـ)⁷، وأبو الفضل بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي (-598هـ)⁸، وأبو عبد الله

¹ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص:13.

² - ينظر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ص: 260.

³ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 16.

⁴ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص:77.

⁵ - ينظر الشّعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، دراسة في موضوعاته وبنيتها (ابن معطي نموذجاً)، عبد الرحمان عبان، تحت إشراف دن العيد جلولي، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة قاصدي مرياح، ورقلة، السنة الجامعية 2007 - 2008، ص:35.

⁶ - هو أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الزناتي الكومي الموحد ولد سنة 532هـ، له اختصار لكتاب الأغاني للأصبهاني، للتفصيل ينظر ديوان أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، سعيد أعراب، محمد بن العباس القباج، محمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الآداب والمركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، دط، ص:06.

⁷ - الشيخ الفقيه، العالم العابد الورع المبارك، أبو الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله ولد ببجاية في 506هـ، كان له فضل، ونبيل ووجاهة، وعلم، رحل إلى الأندلس وبعدها إلى المشرق، كان يروي، ويسمع ويتفقّه، وكان ممن ظهرت له كراماته، وعرف بالأحوال كان الملك يزوره، ويلبي حاجته، ينظر عنوان الدراية، الغريبي، ص:137-142.

⁸ - هو الشيخ الفقيه الجليل، العالم الصدر النبيل، الكاتب البار، السني القدر، المعروف بابن محشرة، يكنى أبا الفضل وأبا العلي، ينظر المصدر نفسه، ص:53.

محمد بن إبراهيم الفهري المشهور بالأصولي (612هـ)¹، وأبو محمد عبد الله ابن القاضي أبي العباس بن أبي القاسم التميمي ابن الخطيب².

- قابس: شكّلت هذه المدينة مصدر قلق للموحدين؛ حيث وجدوا صعوبة في فرض سلطتهم عليها ذلك أنها موطن الهلاليين الذين قاموا بمحاولات تمرد عديدة على الحكومة الموحدية بسبب ولائهم القديم للمرابطين، وحرصهم على بعث أجداد هذه الدولة، ومناصرتهم لدولة الأيوبيين في المشرق، وشهدت هذه المدينة مرحلة من الازدهار سطع فيها نجم العديد من العلماء على غرار الوزير سلام بن أبي بكر بن فرحان الهلالي³، والفقهاء أبي محمد عبد المجيد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الصدي الطرابلسي (ت 684هـ)⁴.

(ب) الحواضر العلمية في الأندلس : تالأأت حواضر العلم في كنف الحكم الموحد في عهد القوّة ، حيث لقيت الحركة العلمية والثقافية تشجيعاً من حكامهم ، وكان لها إسهام في تخريج فطاحل العلم والفكر ؛فقد كان لكلّ مدينة علماءها، وأدباؤها المبرزون، غير أنّ الوضع تغيّر مع نهاية الحكم الموحد وانهيار الدولة لصالح الممالك النصرانية التي بادرت إلى طمس معالم الإسلام والعروبة من المدن الأندلسية التي لم تتمكن من الصمود أمام تحالفها فكان قدر المسلمين مرتبطاً بقرارين إمّا البقاء في تلك البلاد تحت حكم النصارى وإمّا الهجرة نحو عدوة المغرب أو المشرق وهوما تبين لنا من تراجم علمائهم على غرار الفريشي (-633هـ)⁵، وقد أسهم علماء الأندلس في التّقدم الذي عرفته عدوة

¹ - ورد في ترجمته : « ومنهم الشيخ الفقيه الأصولي المتكلم ،العالم المجتهد النبيل الفاضل الجليل ،أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري المشتهر بالأصولي، من أهل بجاية» ، عنوان الدراية ،الغبريني ،ص: 208-211.

² - ينظر ترجمته برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي،ص173.

³ - سلام بن أبي بكر بن فرحان الهلالي، عاش في بساط بني جامع الهلاليين وتقدم عندهم حتى صار وزيرهم ،ينظر مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية،(442هـ-665هـ)، محمد بركات البيلي،دط،2000م، مصر ،ص:206.

⁴ - الشيخ الفقيه العالم المجتهد ، الصالح المبارك، كان أحد المشائخ الأجلء بالحاضرة أفريقية،له عقيدة في علم الكلام ينظر عنوان الدراية،

الغبريني، ص:109-110

⁵ - نسبة إلى فريش إحدى مدائن قرطبة، ينظر ترجمته في نفح الطيب، المقري،ج2،ص:56.

المغرب بشكل كبير بفضل آرائهم التي بثّوها في حلقات العلم التي عقدوها في مختلف المراكز التعليمية، أو ضمن مؤلفاتهم التي طارت شهرتها في مشارق الأرض ومغاربها¹، كما كان احتكاكهم بزملائهم في العدوّة فرصة لتبادل الآراء مع الذين تمتّعوا بثقافة محلّية مكتسبة من حواضر المغرب، أو جاءت محصّلة رحلاتهم نحو المشرق والحجاز².

- **قرطبة:** هي كرسى خلافة بني أمية في الأندلس وقد نوّه الفيلسوف ابن رشد بفضل هذه المدينة في قوله: «ما أدري ما أقول غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتّى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً»³ ويبدو أنّ ابن رشد قد حسم المقارنة لصالح مدينة قرطبة، إذ اعتبرها دار العلم بالأندلس لذلك كانت محجّاً لأهله على مدار قرون، وهذه السّمة لم تفارق المدينة على الرغم من تراجع مستواها في هذا العهد، ومن علماء هذه المدينة: الشيخ الزاهد أبو الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي (ت662هـ)⁴، والقاضي عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري⁵، وأبو الربيع سليمان بن حكم الغافقي⁶.

- **إشبيلية:** كانت هذه المدينة أوّل محطة للموحّدين ببلاد الأندلس، فاتّخذوها قاعدة لهم⁷،

وحازت مكانة رفيعة زاحمت بفضلها قرطبة عاصمة بني أمية حتى لقبها المراكشي بحاضرة الأندلس⁸

¹ - من المؤلفات ألفية ابن معط الزواوي مثلما سنورد لاحقاً، وقد تأثر به ابن مالك في ألفيته وغيره الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحّدين، عبد الرحمان عبان، ص: 76 .

² - ينظر حضارة الموحدين ، المنوني ، ص: 41.

³ - نفع الطّيب ، المقرّي، ج1، ص: 155.

⁴ - ينظر ، عنوان الدّراية، الغبريني ، ص: 174-177..

⁵ - ينظر برنامج شيوخ الرّعيّي، ص: 72.

⁶ - ينظر المصدر نفسه ، ص: 126.

⁷ - ينظر المن بالإمامة بن صاحب الصلاة، ص: 432.

⁸ - ينظر المعجب ، المراكشي ، ص: 272.

بعد أن جعلها ابن رشد عنواناً للفن، ولأريب في أنّ نجاحها في المزاوجة بين المجالين لم يكن محض صدفة، بل جاء ثمرة حرص القائمين على توفير المناخ المناسب لاستقطاب العلماء والمبدعين، مثلما يؤكده فوزي عيسى في قوله: «تألفت إشبيلية فعدت أهم مركز علمي بالأندلس بعد اضمحلال قرطبة، واحتلت تلك المنزلة الرفيعة التي تمتعت بها قرطبة وقت ازدهارها ورحل إليها العلماء والأدباء من كل مكان، وحاولت المدن الأندلسية الأخرى أن تحذو حذو إشبيلية، فكان لكل مدينة علماؤها وأدباؤها المبرزون فيها»¹، لقد توافد العلماء على إشبيلية لكونها عاصمة الموحدين في الأندلس؛ فحاولوا التّقرّب إليهم، ومن العلماء الذين أنجبتهم هذه المدينة: أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرّعيني الإشبيلي (-666هـ)²، وأبو مدين شعيب بن حسين الأندلسي (-594هـ)³، بالإضافة إلى إلى الشّيخ الكاتب أبي بكر بن الرّمّاك⁴.

(2) - المؤسسات التعليمية: تعددت أصنافها بتعدد مراحل التّعليم ومن أهمّها:

أ- المساجد: تعدّ من أعرق المراكز التعليمية، وأهمّها في نشر الثقافة الإسلامية؛ إذ كان هدف الدّراسات الأولى في الإسلام شرح تعاليم هذا الدّين، فكانت المساجد أماكن للتّعبّد، ومقرّاً للتّعليم، ومحلاً للقضاء والتّشاور⁵، وبما أنّ الدّعوة الموحّدية ارتكزت على أساس ديني؛ فقد اهتم الخلفاء بتشبيد بتشبيد المساجد في مناطق شتى من الدّولة، وقد بلغ عددها في مدينة فاس وحدها سبع مائة وأثنين وثمانين مسجداً؛ تراوحت بين صغيرة اشتملت عليها مختلف الأحياء، ويتولّى إدارتها السّكان المجاورون

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 51.

² - هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد الرّعيني الإشبيلي، يعرف بابن الفخار، إشبيلي المولد والنبته والقراءة، ولد سنة 592هـ، نشأ بها، وأخذ عن علماء عصره، وأجازوه صغيراً، وقدم للتّدرّيس، تولّى القضاء، واشتهر بالكتابة، وله رسائل احتفظ بها تلاميذه، من مؤلفاته: "صلة المطمح والذخيرة"، و"شرح الكافي لابن شريح"، وينظر برنامج شيوخ الرّعيني، الرّعيني، ص: ط - ك.

³ - هو الشّيخ المحقق، الواصل القطب، شيخ مشايخ الإسلام في عصره، إمام العباد والتّهاد وخاصة الخلاء من فضلاء العباد، عنوان

الدراية، الغريبي، ص: 22-32.

⁴ - ينظر برنامج شيوخ الرّعيني، الرّعيني، ص: 09-10.

⁵ - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، جمال أحمد طه، ص: 273.

لها، وأخرى كبيرة سمّيت بالجوامع، وانحصرت في الحواضر حيث يشرف عليها الخليفة بنفسه، أو يوكل بدله قاضياً يكون له الحق في تعيين الإمام المسؤول عنها¹، ومن أهمها "جامع القرويين" بمدينة فاس²، و"الجامع الأعظم" بسبته³، و"الجامع الأعظم" ببجاية⁴، و"جامع قرطبة"⁵ في الأندلس، وقد حرصت الدولة على تشييد مساجد جديدة، كما رُزمت المساجد العتيقة⁶.

ومثلت المساجد المرحلة الثانية في سلّم التعلم إذ يلي الكتاب؛ حيث يقول شوقي ضيف: «ينتهي هذا التّعليم الأوّل على أيدي المؤدّبين يتحوّل إلى حلقات الشيوخ في المساجد ليتّسع في دروس العريّة إن شاء، أو ليتزوّد من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدّينية إمّا الفقه وإمّا التّفسير وإمّا الحديث النبوي»⁷ ويبدو أنّ مرحلة التّعلّم في المساجد تكميليّة يقبل عليها التّاشئة لاكتساب العلوم العلوم الدّنيّة فقط، وكانت الغاية منها تكوين شخصية مسلمة، ومن العلماء الذين تصدّروا للتّدرّيس في المساجد ونظّموا حلقاتهم: أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي الذي كانت له حلقات في مساجد بجاية لتدريس علم الحديث⁸.

وزاد عدد المساجد في عواصم المغرب حتى لم يحل منها حيّ من الأحياء، فتواجدت في القصور⁹، ومن أشهر المعلّمين أبو عمران موسى المعلّم¹⁰، وأبو علي عمر بن أحمد بن عمر بن موسى

¹ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 49.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 273.

³ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 75.

⁴ - ينظر عنوان الدرّاية، الغبريني، ص: 199.

⁵ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 131.

⁶ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 49.

⁷ - تاريخ الأدب العربي "عصر الدول والإمارات، الأندلس"، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، دط، دت، ج8، ص: 62.

⁸ - ينظر عنوان الدرّاية، الغبريني، ص: 36.

⁹ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 107.

¹⁰ - ينظر الأنيس المطرب، ابن أبي زرع، ص: 33.

موسى القضاعي المعروف بالزّبار¹، أمّا عن الأدوات المستخدمة في التدريس فإنّها تعتمد الألواح والأقلام المصنوعة بطريقة تقليدية² تلازم المتعلّمين في دروسهم.

(ب) - الكتاب أو المكتب³: سميّ كذلك "المسيد"، وهو يلي المسجد من حيث الأهمية والانتشار، ومثّل مرحلة أولية وإجبارية في تلقين الصّبيان، إذ يجتمع فيه الذين هم دون السنّ المسموح به للتدريس في المسجد⁴، وكانت على شكل قاعات، وظهرت في بادئ الأمر ببلاد المشرق وانتقلت إلى المغرب والأندلس مع الفتوحات؛ حيث خصّص القائمون أفضيةً ضمن المعسكرات لتلقين الصّبية القرآن الكريم⁵، وهذا ما دأب عليه المهدي بن تومرت في بداية أمره؛ حيث كان يجلس لتعليم الصبيان في مختلف المدن التي مرّ بها⁶؛ فكانوا يأخذون منه مبادئه بالإضافة إلى القرآن الكريم، ورسم خطّه مع اختلاف القراءات، وهو الهدف من هذه المراكز، وقد يتعدّاه المؤدّب⁷ ليشمل تعليم النّحو، وتخفيف الأشعار للصّبية النّبهاء، كلّ ذلك مقابل أجرٍ من أهلهم يؤخذ من أبناء الأغنياء ويمنح للفقراء غالباً⁸.

(ج) - الزّاوية والرباط: وتمثّل مرحلة انتقالية تتوسط الكتاب والمدرسة، وخصّص هذا النوع من المراكز لتعليم القرآن الكريم، والحديث الشّريف، وشعر المواعظ وغيرها من الأناشيد الدينية وقد

¹ - ينظر ترجمته برنامج شيوخ الرعيبي، ص: 07-09.

² - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 108.

³ - تناقلت المصادر هذه اللفظة؛ فقد وظّفه الغزالي في قوله: « كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه»، إحياء

علوم الدين، الإمام الغزالي ص: 257، و كما ذكره الغبريني في معرض حديثه عن شيخه أبي الحسن علي بن محمد الزواوي « ولقبتة رحمه الله (...) وأنا يومئذ في المكتب»، عنوان الدراية، الغبريني، ص: 125.

⁴ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 105.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها

⁶ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 11-12.

⁷ - وهو الاسم الذي يطلق على المعلّم في هذه المرحلة، ينظر تاريخ الأدب العربي "عصر الدول والإمارات، الأندلس"، د. شوقي ضيف، دار

المعارف، مصر، دط، دت، ص: 61.

⁸ - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، جمال أحمد طه، ص: 275.

زاجت بين الدور التعليمي والديني¹، كما أسهمت في احتواء طلبة العلم الوافدين من مناطق أخرى، وجّهت بمكتبات وأماكن للتعليم²، ويبدو أنّها كانت ميزة بلاد المغرب فقط؛ إذ لم نعر فيها وقعت عليه أيدينا ما يؤكّد انتشارها في الأندلس، وقد أحيطت بعض الزوايا والربط بأسواق ومرافق مختلفة، فيما اتّسع بعضها ليصبح مدينة كما حدث مع "رباط الفتح"³، و"رباط تازة"⁴ التي شيّدت في عهد عهد عبد المؤمن بن علي، فضلا عن رباط العباد بمدينة تلمسان⁵، و"رباط تينمل" معقل الموحدين.

(د)- المدرسة: ظهرت لكثرة العلوم وتشعبها؛ فكانت انعكاسا للزّقي الحضاري الذي بلغه الموحّدون؛ حيث كان لها دور في تخريج أفواج من العلماء، وازدادت شهرة هذه المراكز منذ عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الذي أسّس مدارس عديدة بالعاصمة مراكش، واستدعى ابن رشد للإشراف عليها، من أهمّها المدرسة العامّة لتخريج الموظفين، ومدرسة تعليم الفلاحة، والمدرسة الملكيّة لتخريج الأمراء من أبناء الموحّدين⁶، كما ابتنى المنصور الموحّدي عدّة مدارس في العدوّة والأندلس؛ من أهمّها المدرسة التي اختطّها خارج مدينة مراكش، والتي ضمّت عددا من المكتبات، ومختلف المرافق لتؤدّي المهمّة المنوطة بها، بالإضافة إلى المدرسة الواقعة بمسجد سلا⁷ غير أنّ المتونّي يرى أنّ ظهور أول مدرسة كان على عهد الخليفة المرتضى الذي شيّد "مدرسة القصبية" النواة الأولى لباقي المدارس⁸.

المدارس⁸.

¹ - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، جمال أحمد طه، ص: 109.

² - ينظر التربية الإسلاميّة في المغرب أصولها المشرقيّة وتأثيراتها الأندلسيّة، د. محمد عادل عبد العزيز، الهيئة العامة المصرية للكتاب، دط،

1987 م، ص: 40.

³ - ينظر الحضارة الإسلاميّة في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 384.

⁴ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 176، ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 110.

⁵ ينظر نظم الجمال، ابن القطان، ص: 77.

⁶ - ينظر حضارة الموحّدين، المتونّي، ص: 20-21.

⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص: 21.

⁸ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 113-114.

أما في منطقة المغرب الأوسط؛ فقد بنيت المدارس في مدينتي بجاية وتلمسان وكانت تأوي الطلبة الذين يتلقون المعارف في العلوم الثقيلة، وقد استقطبت علماء الأندلس بصفة خاصة، ومن الشيوخ المبرزين في ذلك العهد ابن عصفور الحضرمي (-669هـ)، بالإضافة إلى ابن حزم الأموي¹ الذي كان أستاذ إشبيلية المقدم لديهم؛ حيث درس اللغة العربية لأكثر من خمسين سنة، كما ساهم بعض الأفراد في إنشاء المدارس على غرار أبي الحسن الشّاري الغافقي السّبي² الذي شيّد مدرسة نُسبت إليه، وسيّرهما على نهج المشاركة، كما قام بعض الأساتذة بجمع الطلبة في بيّتهم لتدريسهم³.

ومن المعاهد التي شيّدها الدولة للاهتمام بطلبة العلم "بيت الطلبة"⁴ وهو مقرّ للواردين على مراكش كان بمثابة ميدان للمناظرة، يضم الطلبة من المصامدة وغيرهم، ويشرف عليهم كبار العلماء مثل أبو جعفر أحمد بن عتيق الذهبي البلنسي⁵ الذي جمع بين سُمّو شمائله وتبحّره في العلوم.

وبلغ اهتمام الموحّدين بالتعليم أن شيّدوا مدارس خاصة لتخريج العلماء وكبار الموظّفين؛ مثل المدرسة التي شيّدها الخليفة عبد المؤمن بن علي وأشرف على تدريس كبار الحقاظ من الطلبة، وجعل لها برنامجا داخليا، دمج من خلاله الرياضة في التدريس، وتكفل بمؤونتهم وكان عددهم حوالي ثلاثة آلاف من المصامدة وغيرهم، وكان من بين هؤلاء الطلبة ثلاثة عشر من أبنائه تميّزوا جميعا بسرعة الحفظ وحسن التّربية، وعندما تخرّجوا شغلوا المناصب التي كانت لأشياخ المصامدة⁶، فيما عين أبنائه ولاية على مقاطعات الدولة، ويبدو أنّ سائر المدارس الخاصة قد دقّق مسؤؤلوها في انتقاء الأساتذة

¹ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 80.

² - ينظر حضارة الموحدين، المنوني، ص: 21.

³ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 120.

⁴ - ينظر حضارة الموحدين، المنوني، ص: 17.

⁵ - قال فيه الشقندي: «إنّ الكمال الإنساني إن جمع لإنسان فإنّه لم يعد ثلاثة: أرسطو وابن سينا وأبا جعفر الذهبي»، ينظر الغصون

اليانعة، ابن سعيد الأندلسي، ص: 36.

⁶ - ينظر الحلال الموشية، ابن الخطيب، ص: 114.

لإشراف على الطلبة الذين كانوا بدورهم من الممتازين¹؛ ومن الأساتذة الذين استقدموا للتدريس أبي العباس أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي الذي أدب بني عبد المؤمن².

(ه) - المكتبات: اهتم الخلفاء بإنشاء المكتبات والخزائن العلميّة، وتباينت بين مكتبات خاصّة ضمّتها قُصورهم، وأخرى عموميّة وضعت في متناول العامّة بُغية توفير الكتب للجميع باعتبارها واحدة من أهمّ مصادر المعرفة. واشتملت تلك المكتبات على مصنّفات كثيرة في علوم شتى³، ومن مظاهر ذلك الاهتمام استحداثهم لخطة "الخزانة العالية"، واشترطوا في من يتولّى هذا المنصب سعة العلم، وكثرة الاطلاع والمعرفة بالكتب والمكتبات قصد المحافظة عليها، ومن العلماء الذين تولّوا هذا المنصب ابن الصّقر الأنصاري (-569هـ)⁴. كما قاموا بفتح أبوابهم لطلبة العلم؛ فكانت ملمحًا للنهضة العلمية التي شهدتها ربوع الدّولة، وبما أنّ دولة الموحّدين تبنّت مذاهبًا بعينها فمن الطّبيعي أن تُرَوِّج لها بواسطة دعمها لكتبٍ محدّدة، وجعلها متوفّرة في أيدي النّاس⁵.

واشتهر الخليفة أبو يعقوب بحبّه للكتب واهتمامه باقتنائها بخاصّة كتب الفلسفة⁶؛ وقد بلغ به الأمر أن اقترح على العلماء تصنيف كتب في علوم معيّنة؛ مثلما فعل مع ابن رشد حيث طلب منه ترجمة كتب (أرسطو طاليس) (Aristote)⁷، أو أن يأمر بنسخ بعض المؤلّفات ليشجّع العامّة على قراءتها، وقام بعض الخلفاء بانتزاع مكتبات بكاملها من أصحابها مقابل تعويض؛ ليعيهم بقيمتها،

¹ - ينظر حضارة الموحدين، المنوني، ص: 24.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 18.

³ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 125.

⁴ - ينظر الذيل والتكملة، عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 228.

⁵ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 125.

⁶ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 171.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 175.

وخوفهم من ضياعها، وحرصاً منهم على إفادة مختلف أفراد المجتمع؛ مثلما فعل الخليفة أبو يعقوب مع أبي الحجاج المراني¹.

وتنافس العلماء بدورهم على حيازة أكبر عدد من الكتب والمصنّفات بنسخها الأصلية، ومن أشهرهم علماء فاس الذين كانوا يتبارون في اقتناء الكتب²، وكان لبعض الميسورين هواية جمع الكتب، ووضعها في مكتباتهم الخاصة على غرار الأستاذ أبو القاسم عبد الرحمن بن الملجوم (-605هـ) حيث شيّد غرفة ضخمة قصدها أعيان مدينة فاس ضمّت العديد من الكتب والدواوين حتى تفرّدت في ذلك المصر³، كما كان للعلماء مكتبات فخمة مثلما كان عليه الأمر مع "أبي عبد الله بن طراوة" الذي قال فيه ابن عبد الملك المراكشي: «شديد المحافظة على كتبه، مثابراً على الاعتناء بتصحيحها، مهتماً باقتناء الأصول التي بخطوط أكابر الشيوخ وعنوا بضبطها وجمع منها جملة وافرة»⁴ فلم يقتصر هذا العالم على اقتناء الكتب بنسخها الأصلية وتجميعها فحسب، بل اتّجه إلى دراستها وتصحيح ما ورد فيها من أخطاء، وكان لهذه المكتبات دور في إذكاء العقول، ودفع تيار الثقافة، وتزويد الحياة الفكرية بما تحتاجه في شتى فروع المعرفة. كما عملت على تحفيز حركة النسخ والكتابة، وأسهمت كثيراً في تطويرها⁵.

(3) - روافد الحركة العلمية:

لقد أوتر عن الموحدين حبهم للعلم واهتمامهم بأهله، وكان الحرص على تحصيله شديداً، وبشتى الطرق التي كانت ميسرة آنذاك؛ لذلك ألفيناهم يجولون عواصم العلم التي كانت ذائعة الصيت آنذاك للاحتكاك بأساطين العلم والفكر، وحصد الألقاب العلمية ولاسيما "الإجازة العلمية" التي كانت

¹ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 271.

² - ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، جمال أحمد طه، ص: 271.

⁴ - ينظر الذيل والتكملة، عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص: 265.

⁵ - ينظر مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، جمال أحمد طه، ص: 271.

هدف كل طالب علم، كما حرصوا على شحذ همهم لتوسيع مداركهم في مختلف الجوامع العلمية ، والتي لم تقتصر على المراكز العلمية فحسب، بل كانت من اهتمامات العامة من الناس أيضا، وكل ذلك يعكس الرقي الفكري الذي عرفه المغرب الإسلامي، ومن أهم روافد العلم في القرنين السادس والسابع الهجريين:

1- الرحلة في طلب العلم : كان ابن تومرت أول موحدي قام برحلة علمية يمم فيها بلاد المشرق فاغترف من علوم عصره، والتقى كبار العلماء، وعلى رأسهم الإمام الغزالي¹، فاتحًا الباب لأتباعه الذين تأسوا بخلاله الحميدة؛ ومن بينها حبه للعلم وتقديره لأهله، والسعي في أسبابه، ومن أهمها: الرحلة في طلبه، التي تعارف عليها أهل العلم آنذاك، وكانت الغاية منها توسيع المدارك بالتنقل بين مختلف الحواضر بخاصة تلك التي اختصت في علم من العلوم، أو اشتهرت بوجود مركز علمي مشهور لديها، أو مسارعتهم إلى اقتناء كتاب ذائع الصيت². وكانت بعض الرحلات تنظم تحديدا لطلب العلم ومقابلة العلماء، والأخذ عنهم مباشرة، أو مبرجة ضمن نشاطات أخرى³، وكان أهل العلم مرحبًا بهم أينما حلوا، وقد هيأت السلطات الموحدية مراكزا للتكفل بهم من قبيل الزوايا والرباطات⁴، وقد انقسمت الرحلات إلى نوعين:

أ- رحلة داخلية: حيث يقوم طالب العلم بتحصيله في مدينته أو إقليمه، أو داخل عدوته، وقد يتجاوزها إلى العدو المقابلة، وشاع هذا النوع من الرحلات لتقارب اللسان، وقلة التكلفة⁵، كما أدت الفتن التي تلاحقت على الأندلس دورا في الهجرات نحو المغرب، إلى جانب كون عاصمة الدولة الموحدية هناك، وأكثر بعض العلماء التجوال مثل: الراوية المقرئ "ابن الطيلسان الأوسي" الذي طاف

¹ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 72-73.

² - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 30.

³ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 135.

⁴ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 31.

⁵ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 135.

مُدناً عديدة نحو : قرطبة، وإشبيلية، ومالقة أين تويّ خطيباً بجامعها¹، و"أبو الحسن سهل بن مالك الأزدي"²؛ وهو من رجالات علم الحديث، وقد تنقل بين إشبيلية، وغرناطة، ومرسية، بالإضافة إلى "أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الصنهاجي" (-628هـ) وهو من قلعة بني حمّاد لقي العلماء ببجاية، والجزائر، وتلمسان وغيرهما من بلاد المغرب³.

ب - الرّحلة الخارجية: كان طلاب العلم يقصدون عواصم العلم في المشرق التي كانت منارات للعلم، ومصدر وحي للمغاربة والأندلسيين، ومن العلماء الذين تنقلوا بين حواضر المغرب الإسلامي والمشرق: "محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري"⁴ وهو من إشبيلية أخذ العلم سنة 572هـ وهو في طريقه إلى الحجّ عن أبي الطاهر السلفي وغيره، ومن العلماء الذين تنقلوا بين مختلف الأقطار، إلى جانب "أبي محمد بن أبي الدنيا الصديفي النّبلسي" (-648هـ) وهو من تونس جال بلاد المشرق وأخذ عن علمائها⁵، فضلا عن المدرّس الشّاعر الطّريف "أحمد بن مسعود الخزرجي القرطبي" والذي كان جليل المقدار، وجائلا في الأقطار، رحل من بلده قرطبة فدوّخ أقطار المغرب والمشرق⁶، وزوج بعض العلماء بين كلا التّوعين من الرّحلتين.

وأكثر طلبة علم الحديث من التّنقل بين الأقطار، وكثرة التّجوال في الأمصار، وكذا الاتّصال بالعلماء، والأخذ عنهم مباشرة، وهذا ما لمسناه في المؤلّفين اللذين اتّخذناهما نموذجا للدراسة وهما "عنوان الدراية" لمؤلّف مغاربي وهو أبو العباس الغبريني (-714هـ) و"برنامج شيوخ الرعيّني" لصاحبه

¹ - ينظر برنامج شيوخ الرعيّني ، الرعيّني، ص:25.

² - تلقى العلم على يد عديد الشيوخ من الأندلس والمغرب منهم القاضي أبو عبد الله بن زرقون، وإحدث أبو محمد بن عبيد الله ، والرأوية أبو القاسم بن بشكوال، والأديب أبو العباس بن عبد السلام الجراوي، والقاضي أبو الوليد بن رشد وغيرهم كثر، ولقي من أهل المشرق: أبا الطاهر الخشوعي، وأبا الفضل العزّوني ، وأبا محمد بن محدث، ينظر برنامج شيوخ الرعيّني ، الرعيّني ، ص:60.

³ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص:218-220.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص:316.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص:109-110.

⁶ - ينظر الغصون اليانعة، ابن سعيد، ص:51.

أبي الحسن الرعيني (-666هـ)؛ حيث أفرد هذا الأخير فصلاً لشيوخه من الفقهاء والمتصدين لتدريس علم الحديث¹، وذلك ليكون المتعلم في مرتبة الثقة؛ فعلى كثرة الشيوخ الذين أخذ عنهم يكون رسوخه في العلم .

وما يجب التنبيه إليه هو أنّ علماء الموحدين لم يرتحلوا إلى المشرق طلباً للعلم فقط، بل حملوا معهم زاداً وفيراً من الثقافة، وسعة الاطلاع حتى إذا انتقلوا إلى المشرق والحجاز فاقوا نظراءهم؛ مثل "ابن جبير الشاطبي" (-614هـ)²، وابن محرز الوهراني³ اللذين ارتحلا بعد نضجهما في مختلف العلوم، وكما فعل أيضا "ابن دحية الخطّابي" (-633هـ) الذي كان حظياً عند ملوك المشرق⁴، وبلغ إجلالهم إجلالهم له أن أمر الملك الكامل بتشيد له "دار الحديث الكاملية" ونصّب للتدريس فيها⁵.

وأسهمت هذه الرحلات في التقليل من حالة التقليد والانبهار بالمشاركة التي عرفها المغرب الإسلامي؛ حيث أصبحوا قادرين على الإبداع والتأثير في جيرانهم بما بلغوه من نضج، كما قرّبت - هذه الرحلات - بين الثقافات؛ إذ أسهمت في نقل العديد من العلوم، والفنون، والعادات، بفضل مدوّنات الرحالة بصفة خاصة⁶، كما أسهمت في حركة نقل الكتب التي كانت مقرّرة في برامج التدريس.

¹ - ينظر برنامج شيوخ الرعيني، لأبي الحسن الرعيني، ص: 31-91.

² - ينظر رحلة ابن جبير، ابن جبير، دار صادر، لبنان، دط، دت، ص: 06.

³ يقول ابن محرز الوهراني مؤكداً ما تمّت الإشارة إليه: «أما البلاد فقد دستها وجستها، وأما الملوك فقد لقيت كبارها، وحفظت أخبارها»،

منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل، ألمانيا، ط1، 1998م، ص: 02.

⁴ - قال فيه الغبريني: «وارتحل إلى المشرق في مدة بني أيّوب فرفعوا شأنه، وقربوا مكانه، وجمعوا له علماء الحديث، وحضروا له مجلساً أقرّوا فيه

بالتقدم، واعترفوا له أنّه من أولي الحفظ والإتقان والتفهم»، عنوان الدراية، الغبريني، ص: 272.

⁵ - ينظر نفع الطيب، المقرّي، ج2، ص: 102.

⁶ - ينظر رحلة ابن جبير، ابن جبير، ص: 259، 278.

ب - **المجامع العلمية:** كانت عادة من تنظيم الخلفاء، والأمراء، والأشياخ، حيث ناقشت المسائل الفكرية والعلمية المختلفة، وكانت تُعقد في أماكن تخص المهتمين بالثقافة مثل: قصور الحكام، والمساجد، وبيوت العلماء، وقد تقام في أماكن يقصدها العامة كالحوانيت مثلما فعل "أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي" (-580هـ) مع "أبي محمد عبد الحق الإشبيلي" و"ابن قريشة" وهم من كبار العلماء حتى سمي ذلك الحانوت "مدينة العلم"¹.

وأنشأت الدولة مجامع علمية لمواكبة هذا الازدهار، والتي احتضنتها مجالس الخلفاء؛ فكانت حافلة بالمذاكرة والمناظرة في مختلف العلوم لما كان يحظرها من علماء، وأدباء، وأطباء، وفلاسفة سواء كانوا مغاربة أم وارين من مختلف الأصقاع²؛ ومن بين العلماء الذين زينوا البلاط الموحدي؛ الفقيه الواعظ "محمد بن أحمد بن محمد اللخمي التلمساني" (-614هـ)³ الذي نال حظوة لدى الخلفاء الثلاثة: المنصور، والناصر، والمستنصر بفضل مجالسه في الوعظ التي كان يقيمها بالحضرة مراكش يومي الاثنين والخميس.

وقد حرص العلماء على التزوّد بقدر كبير من المعرفة تسمح لهم بمجالسة الخلفاء والأمراء، لذلك كانوا في العادة من زمرة الفقهاء، والأدباء، والقضاة، والأطباء، ومن المجالس العلمية التي نشطت على ذلك العهد تلك التي اكتست طابعا دينيا مثل خطبة الجمعة، كما كانت هناك مجالس موسمية تُعقد في شهر رمضان، وتتفاوت من حيث عدد الحاضرين الذي كان يتناسب طرديا مع الشخص المنظم للندوة ومدى شهرته⁴، ومن المجامع العلمية المشهورة في تلك الفترة؛ ما نظّمه الأمير أبي زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن، ومن بين المناظرات التي دارت في رحابها المناظرة التي جرت

¹ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 36.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 30.

³ - ينظر الذيل والتكملة، عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص: 266.

⁴ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 152.

بين "الشقندي" و"أبي يحيى الطنجي" حول المفاضلة بين الأندلس والمغرب¹، وكان هؤلاء العلماء آداباً لزموها عند دخول المجالس²، كما كان لهذه المحافل العلمية نظام خاص؛ إذ تنطلق في حضور الخليفة أو الأمير إلى جانب بياض الحضرة والنخبة من العلماء فيبتدئ الرئيس بإلقاء المسألة موضوعاً للنقاش³، ويقوم الحضور بإثرائه بفضل مناقشاتهم وتحليلاتهم، ثم يحتتم الرئيس الجلسة بالدعاء ويؤمن الوزير خلفه⁴.

ج- الإجازة العلمية: مثلت ضرورة علمية حرص طلبة العلم على تحصيلها، وهي تقتضي ضرورة الأخذ المباشر عن العلماء بخاصة المحدثين منهم⁵، والإمام بقدر كاف من العلم يسمح لهم بالتدريس. وقد تقدّم الإجازة على ورقة أو في مكان بارز كصفحة عنوان الكتاب الذي فرغ من حفظه⁶، كما يشترط في المتعلم حسن الخلق ليكون أهلاً للمسؤولية الملقاة على عاتقه.

وكان علماء الحديث أكثر تشدداً في منح الإجازة⁷؛ إذ منحت للنجباء منهم فقط، وقد وجدت إلى جانب وثيقة الإجازة ألقاب تؤكد إجادة طالب العلم لذلك الفن وحذقه فيه، وهي تشبه الدرجات العلمية العالية المعروفة على أيامنا، وكان المتعلم يحصلها من اجتهاده وشدة سعيه، كما يمنحها له المشتغلون بالتدريس⁸، ومن الألقاب العلمية الشائعة على عهدهم: "الإمام" وهو اسم يطلق على كل حاذق في علم من العلوم؛ سواء كان فقيهاً أو خطيباً أو غيرهما، فضلاً عن لقب "الحافظ" الذي اختص به الحفاظ للحديث، إلى جانب لقب "العلامة" وهو الحافظ للغاية، فضلاً

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 186-222.

² - ينظر عنوان الدراية، الغريني، ص: 54.

³ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 173.

⁴ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 49.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص: 159-160.

⁶ - ينظر المصدر نفسه، ص: 186.

⁷ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 20.

⁸ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 36.

عن لقب "المحدّث" الذي يطلق على من سمع الحديث وحفظه وعلم عدالة رجاله وجرحها، أمّا "الشيخ" فهو لقب وُسم به أهل العلم والصّلاح توقيرًا لهم¹.

(4)- تجليات الحركة العلميّة:

كان ابن تومرت أوّل من أدخل طرق التدريس المشرقيّة إلى بلاد المغرب باعتبارها أسبق وأعرق في هذا الميدان، وشدّد على ضرورة تحفيظ القرآن الكريم، كما استعان باللسان البربري لتوضيح مرامي دعوته؛ ذلك أنّ أغلبيّة العامّة كانوا أميين وجعله أحد شروط القبول في الوظائف الإدارية، ثم انفراد بمهمّة الوعظ وأوكل التدريس لأصحابه المقربين².

(أ) - المعلمون: أوّل الموحّدون أهميّة فُصوى لهذه الفئة وعيًا منهم بدورها في بناء المجتمع عبر تخرج المثقّفين، لذلك وضعوا شروطًا لانتقائهم استقوّها من تعاليم الإسلام، ومعلّمهم الأوّل المهدي بن تومرت المتأثر بالإمام الغزالي؛ من أهمّها: التدين، وحسن الخلق، واشترطًا بخاصّة في المؤدّبين، ومن الذين تحقّقت فيهم هذه الصّفات: "أبو فارس عبد العزيز بن عمر بن مخلوف" (-686هـ) الذي أثنى عليه الغبريني بقوله: « كان مبارك التعليم ميمون التّقيّة في التّفهيم درس عليه العلم خلق كثير وانتفعوا به، وكان أكثر الناس أصحابا وألينهم جنابا، وكان سليم الصدر لا يعرف شيئا من الشر »³ فهذا المعلّم الجليل زواج بين الإجادة في التدريس ونقاء السّريّة، وحسن الأخلاق، فضلا عن السّمعة الطيّبة، وهي كلّها شروط ساعدت في انتقائه لمهنة التدريس، ومن المعلّمين أيضا "الفقيه أبو عمران موسى المعلّم" الذي درّس بجامع القرويين وعرف بورّعه⁴، وفي المقابل فقد قام القائمون على

¹ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز ، ص:37.

² - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين ،علي عشي،ص:168.

³ - عنوان الدراية ، الغبريني ،ص: 63.

⁴ - ينظر الأنيس المطرب، ابن أبي زرع ،ص:32.

المؤسسات التعليمية بعزل من طعن في أخلاقه مثل "أبي محمد قاسم القضاعي" الذي طعن فيه بعض الفقهاء لإساءته في التعامل مع الصبيان¹.

كما راعوا الآداب التي ينبغي أن يكون عليها المعلمون والتي توافرت في إمامهم ابن تومرت المتأثر بالإمام الغزالي، ومنها: غزارة العلم وسعته بخاصة في المساجد والمدارس باعتبارها تمثل مرحلة تكميلية في التعليم، لذلك كان من المتصدّرين لهذه المهمة: القضاة²، بالإضافة إلى من عرفوا بالفصاحة مثل: الخطباء³، والفقهاء⁴ لما لهم من قوّة تأثير مثلما كان عليه الفقيه المحدث أبو زكريا يحيى بن أبي علي المشهد (-611هـ) الذي كانت لدروسه صدى في نفوس المستمعين حتى تكاد نفوس الحاضرين تفيض في مجلسه⁵.

وكان سنّ التعلّم يبدأ في مراحل مبكرة، أما عدد الطلبة في ما يمكن تسميته بالصّف فكان متباينا حسب مقدرة الأستاذ، وطبيعة المكان الذي يدرّس فيه، ونوعية الدّروس المقترحة؛ فقد تخرّج على يد أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن يخلف الجزائري في إحدى الدّفعات حوالي ثمانين طالبا تقلّدوا مناصب هامة أقلّها خطّة الكتابة⁶، وهو رقم يعكس حجم الإقبال المعترف على طلب العلم في مرحلة التّعليم النّهائي باعتبار أنّ هذا الشّيخ كان يقدّم دروسا في النّحو، بالإضافة إلى الشّيخ الفقيه ابن عصفور الحضرمي (-669هـ)⁷ الذي تميّز بتبحّره في العلوم بخاصة علم النّحو، ومقدرته على إيصال معلوماته إلى الطلبة، وقد أثنى الغبريني على طريقة تدريسه قائلا: «جمع رحمه الله بين

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، فوزي ، عيسى ، ص: 120. ينظر نوح الطيب، المقرئ، ج: 3، ص: 386.

² - ينظر برنامج شيوخ الرّعيبي، الرّعيبي، ص: 41.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 66.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 52.

⁵ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 128.

⁶ - ينظر المصدر نفسه ، ص: 78.

⁷ - وصفه الغبريني بقوله: « ومنهم ، الشيخ الفقيه، الأستاذ النحوي التاريخي، المحصل الجليل الفاضل ، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن

علي الحضرمي، عرف بابن عصفور ، شهير الذكر ، رفيع القدر، من أهل إشبيلية »، المصدر نفسه، ص: 317.

الحفظ والإتقان، والتّصوّر وفصاحة اللسان، وهو حافظ متصوّر لما هو حافظ له، قادر على التّعبير عن محفوظه، وهذه هي الغاية وهي أن يكون المرء حافظاً له متصوّراً معتبراً وقلّ أن يجمع مثل هذا إلاّ الآحاد¹ كما كان للمرأة مشاركة في الحياة العلميّة ولمعت في مختلف المجالات مثل زينب ابنة أبي يعقوب المنصور².

وفيما يخصّ أوقات التّدريس؛ فكانت في العادة تقدّم بعد صلاة الفجر، وفي الظّهيرة، وبين صلاتي المغرب والعشاء؛ إذ تفتنّ المدرّسون لجدوى هذه الأوقات في التّعليم مثلما كان يفعل الشيخ الفقيه "أبو فارس عبد العزيز بن عمر بن مخلوف" (-686هـ)³ بالإضافة إلى الفقيه "أبي محمّد عبد الله الله بن محمّد بن عمر بن عبادة القلعي" (-669هـ)⁴ الذي تصدّر للتّدريس بالجامع الأعظم ببجاية وكان يعقد حلقاته عقب صلاة الفجر.

وكان للمتعلّمين ألقاب يتفاوتون بها حسب تدرّجهم في العلم؛ فقد أطلق الموحّدون لقب الطّلبة⁵ على كبار مشايخ وعلماء الموحّدين، وتليهم طبقة الحفّاظ⁶ التي استوحت اسمها من حفظ موطأ المهدي ابن تومرت، تكوّنت أساساً من أبناء الأمراء والسّادة وكذا النجباء من كبار المدن الموحدية والذين تلقّوا تعليماً خاصّاً متعدّد الجوانب لتولّي مراكز هامّة في الدولة، واستحدثت الخليفة عبد المؤمن هذه الطبقة لضمان كراسي لأبنائه في الحكومة الموحدية فكان دورها سياسياً في الدّرجة الأولى بالإضافة إلى "طلبة الحضرة"⁷ وهم العلماء الوافدون على مرّآكش من مختلف الأمصار وسُمّيو

¹ - عنوان الدراية، الغبريني، ص:318.

² - ينظر الدّليل والتّكملة لكتابي الموصول والصّلة، تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاريّ الأوسيّ المرّاكشيّ، تقديم وتحقيق وتعليق محمّد بن شريفة، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، السّنفر 8، دط، 1984، ص:124.

³ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص:63.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص:65.

⁵ - ينظر الموحّدون في الغرب الإسلاميّ تنظيماتهم ونظمهم، عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلاميّ، ط1، 1991، ص:97.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص:98-100.

⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص:101-102.

بهذا الاسم تمييزاً لهم عن "طلبة الموحدين"، ومن المدرسين الذين انتدبوا لهذه المهمة "أبو جعفر الذهبي"¹ شيخ طلبة الحضرة.

وجمع المعلمون بين اللين والشدة في تعاملهم مع طلبتهم²، وتكفل المؤدّبون بتعليم الصبية من المسلمين الصلّاة ومعاقبتهم إذا لم يؤدّوها شرط عدم حرمانهم من الطّعام إن كانوا صغاراً³، وتفادي ضربهم على رؤوسهم، أو في وجوههم، وأن يكتفوا في توبيخهم لهم بالتعريض دون التصريح لأنّ فائدته أكبر⁴، كما وجب عليهم العدل بين المتعلّمين وإسداء النّصح لهم⁵، ولا يحقّ للمدرس في الكتاب الانشغال بأمر خارج الدّرس كالصلّاة على الجنائز، أو عيادة المرضى لأنّه أجيّز.

كما خصّصوا وقتاً لتدريس القرآن الكريم وكان عادة يوم الخميس، أمّا يوم الجمعة فاعتبر يوم إجازة⁶، واستفاد التّلاميذ من أيّام أخرى للعطل وذلك في الأعياد⁷؛ فكان يسمح لهم في عيد الفطر الفطر بيوم واحد، وفي عيد الأضحى من ثلاثة إلى خمسة أيّام⁸، كما وجب على المعلّمين التّدرج في الفهم حسب مدارك المتعلّمين لكي لا ينقروهم من المادّة، وأن يجيّبهم في الإقبال على طلب العلم بمختلف أصنافه⁹، وقد سهرت الدّولة على ضمان السّير الحسن للتّعليم، فجعلت من مهامّ المحتسب: التّجوال بين مختلف المراكز، والعمل على جعل التّعليم يتماشى مع متطلّبات الشّريعة

¹ - ينظر الغصون اليانعة، ابن سعيد، ص 36.

² - ينظر إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، إعداد ودراسة: إصلاح عبد السلام الزّفاعي، إشراف ومراجعة: د. عبد الصبور شاهين، مركز

الأهرام للترجمة والنشر، ط1، 1988، ص: 261.

³ - ينظر آداب المعلّمين، لابن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، الشركة التونسية للنشر،

تونس، ط2، 1972م، ص: 06.

⁴ - ينظر إحياء علوم الدين، الغزالي، ص: 97.

⁵ - ينظر آداب المعلّمين، لابن سحنون، ص: 05..

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص: 8-9.

⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص: 07.

⁸ - ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁹ - ينظر إحياء علوم الدين، الغزالي، ص: 98.

وأهداف الدولة، كما يجب أن يحرص على التأكد من سلامة المباني والاستماع لانشغالات الأسرة التربوية، وقد يضطرّ المحتسب لحضور جوانب من الدروس المقدّمة للوقوف على فاعليّة المناهج المعتمدة ومدى تنفيذها¹، أمّا عن الموارد المالية التي اعتمدها الحكومة في نفقاتها على مجال التعليم فتمثلت مصادرها في: الأوقاف، والإعانات، والهبات، بالإضافة إلى الجزية².

ب- التعليم: كان المهدي يجلس للتعليم في كل مكان يمرّ عليه بعد عودته من المشرق، وقد التقى بعبد المؤمن في بجاية عندما كان هذا الأخير في طريقه لطلب العلم³، ومع قيام الدولة وانتشار الثقافة ازداد إقبال الناس على التعلّم الذي أفرز مستويات على هذا العهد:

أ- التعليم الأولي: كان مجّاناً وإيجابياً تساوى فيه الذكور والإناث الذين تقاربت أعمارهم اقتداءً بالمدرسة الداخلية التي أسّسها الأمير عبد المؤمن⁴، وتعمل هذه المدارس على تحفيظ الصبّية القرآن الكريم برواية ورش، مع تجويده ورسمه⁵ فضلا عن معرفة بعض مبادئ النحو، والنحو، وتحفيظ النجباء منهم الأشعار، وكان هذا النوع من التعليم متّاحاً في جميع ربوع المملكة⁶، ومن العلماء المبرزين الذين تصدّروا للتدريس أبو بكر بن الرّمّك الذي كان حاملاً لكتاب الله وتجويده، وأصلاً في الضبط له، و بلغ في العناية به الغاية⁷.

¹ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 7-8.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 63.

³ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيهقي، ص: 11-12.

⁴ - ينظر الحلل الموشية، ابن الخطيب، ص: 114.

⁵ - ينظر برنامج شيوخ الزعميني، الرعيبي، ص: 14.

⁶ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 10.

⁷ - ينظر برنامج شيوخ الزعميني، الرعيبي، ص: 10.

ب- التعليم العالي: انتشر في الحواضر العلميّة وتمتّع الطلاب بحريّة في إلقاء الأسئلة، وانتقاء الأساتذة¹، أمّا الموادّ المقترحة للدراسة: فتباينت بين دروس في العلوم الدّينية كعلم التّفسير، والحديث، والتّوحيد، والفقه؛ ومن بين المؤلّفات المقترحة: كتابا "أعز ما يطلب"، و"المرشدة" لابن تومرت²، فضلا عن موطأ الإمام مالك، وصحيح البخاري ومسلم، وسنن ابن ماجه، وكتاب الشّهاب للقضاعي، ويعدّ الفقيه "ابن زرقون" من الأساتذة المشهورين في هذا المجال³.

كما شمل المحتوى كُتبًا في: علوم اللّغة، والأدب، والنحو، والبلاغة، والعروض، مثل: مقامات الحريري، وكتاب "أدب الكتاب" لابن قتيبة، و"الكتاب" لسيبويه، و"الكامل" للمبرّد⁴، وغيرها من من الكتب التي تركز على تحصيل ثقافة أدبيّة معتمدة على البلاغة المستقاة من القرآن الكريم، والعناية بتحسين رسم الخطّ، كما تتّجه إلى دراسة عيون الشّعر العربي، وروائع النثر ولا سيّما التّرسل الذي تتبّعوا أعلامه⁵، ولا شكّ في أنّ ذلك انعكس على مضامين الشّعر، والفنون النثرية على هذا العهد، ومن الأساتذة الذين عكفوا على تقديم هذه الدّروس: "ابن أبي عزة"⁶، والأديب والأديب "أبو الحسن بن مالك الأزدي الغرناطي"⁷، فضلا عن برجة العلوم العقلية في التعلم نحو: الحساب، والمنطق، والهندسة؛ من الكتب التي تمّ تدريسها "إحياء علوم الدين" للغزالي⁸، إلى

¹ - ينظر برنامج شيوخ الرّعيبي، الرعيبي، ص: 28.

² - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 173.

³ - ينظر برنامج شيوخ الرّعيبي، الرعيبي، ص: 31-34.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 44-60.

⁵ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، ط 2، 1986 م، ص: 213.

⁶ - ينظر برنامج شيوخ الرّعيبي، الرعيبي، ص: 42-47.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 59-63.

⁸ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 23.

جانب مؤلفات محيي الدين بن عربي¹، ويبدو أنّ الهدف من هذه المواد هو إفساح المجال للتخصّص في العلوم، وتخرج العلماء ذوي الكفاءات المؤهلة لتشغل مناصب سامية في الدولة .

(ج)- المناهج: تولّت الدولة تحديدها بما يتوافق مع الكتاب والسنة، ومقاطعة كتب الفروع بخاصة في عهد المنصور الموحدي، وتماشت مع مصالحها السياسية الأمر الذي كان له دورٌ في تحديد نوعيّة الكتب المقترحة، كما عرفت هذه المواد العلميّة تعديلات حسب ما تقتضيه الأوضاع المستحدّة²، التي جاءت كردّ فعلٍ على سياسات التدريس التي حالت دونَ تحصيل العلم بصورةٍ أفضل؛ ومن أبرز تلك المحاولات ما نادى به "محيي الدين بن عربي" (-541هـ)³ الذي رأى بأنّ المذاهب الشائعة في التعليم الأوّلي عقيمة، فدعا إلى لاقتصار على تعلّم علم البلاغة، والنحو، وعلوم العربيّة، وكلّ ما من شأنه صقل مهارات الصّبيّة في اللغة العربيّة فإذا تأتى لهم ذلك انتقلوا إلى العلوم التي تحتاج إلى تركيب وتحليل بالتدرج مثل الحساب فإذا تمّ لهم ذلك انتقلوا إلى فهم معاني القرآن الكريم⁴.

واعتمد ابن عربي في منهجه على التدرج في التعليم؛ عبر الانتقال من البسيط الى المركّب مع مراعاة الفروق الفرديّة لضمان استيعاب المتعلّمين مما يساعدهم على التّخصّص في العلوم والإحاطة بجزئياتها، وهذا ما دعا إليه قبله "الإمام الغزالي" معلّم المهدي بن تومرت ، ويبدو أنّ هذه الدّعوات لاقت صدى من قبل القيّمين؛ حيث انعكس على محتوى المواد الدراسيّة المقترحة⁵.

¹ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 157.

² - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 171.

³ - أورد الغبريني في ترجمته قوله: « ومنهم الشيخ الفقيه الجليل، الحافظ المتصوّف المحقّق، أبو عبد الله محمد بن علي الطائي الحاتمي المعروف

بابن سراقه .» عنوان الدراية، الغبريني، ص: 156-158.

⁴ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص: 210-211.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(د) - الطرائق : تحكّم فيها الموروث الثقافي واختلفت من منطقة إلى أخرى، وقد اعتمد بعض المدرّسين على أكثر من طريقة في توصيلهم للمعلومات مثلما كان يفعل ابن تومرت المعلّم الأوّل لدى الموحّدين¹، والمتتبع لطرائق التدريس في فترة الدّراسة يجد أنّها تكاد تنحصر في ثلاث:

أ- طريقة التلقين والسماع : كان ابن تومرت ممّن اعتمدوا هذه الطّريقة في تحفيظ أتباعه القرآن الكريم²، وترتكز هذه الطّريقة على الحفظ والاستظهار وخلصتها أن يقوم المتعلّم بترديد الكلام الذي يتلقّظ به مدرّسه بصوت مرتفع، على أن يصحّح معلّمه أخطائه في النطق³، واعتمدت هذه الطريقة في المغرب الأوسط، ومدينة فاس⁴، وقد اعتبر ابن خلدون هذه الطّريقة نموذجًا للتعليم الرديء وانتقدها بقوله: « تجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة»⁵، فهي تحدّ من إمكاناتهم إمكاناتهم وتجعلهم مجرّد مكرّرين لما قاله السّابقون دون الجيء بالجديد، وهو ما يبرّر براعتهم في العلوم التي تتطلّب الحفظ.

وأدّت هذه الطّريقة إلى تقرير مصنّفاتٍ أرهقت المتعلّمين، حيث كانت تستغرق وقتًا طويلاً في التّعلّم امتدّ إلى ستّ عشرة سنة⁶، وأدّت إلى نقص في العلوم العقلية، وظهور الحفظ، و كثرة المنظومات، والشّروح، وهو ما كان له أثر سلبي على مستوى التّعليم في المؤسّسات التي تبنّت هذا النوع من التدريس، وزادت حدّة في العصور اللاحقة⁷، ومن المعلّمين الذين درّسوا بطريقة التلقين:

¹ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 182.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 185.

³ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 14.

⁴ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص: 213.

⁵ - المقدمة، ابن خلدون، ص: 157.

⁶ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص: 213.

⁷ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 16.

الشيخ "الزبار"¹، ويعدّ "الحافظ أبو بكر بن الجدد الفهري" من العلماء الذين تلقوا العلوم بهذه الطريقة².

ب - طريقة اختيار كتاب معين: وتقوم هذه الطريقة على مدارس الطلبة لكتاب معين مع شرحه ونقده؛ ومن صور هذه الطريقة أن يقوم الشيخ بقراءة كتاب في علم من العلوم على الطلبة بعدما ينسخونه، أو أن يضع كتبا بين أيديهم ثم يأمرهم بقراءة نصوص من الكتب، ويصحح لهم أخطاءهم في الكتابة أو القراءة مُرفقا ذلك بالشرح، وهذه الطريقة كان قد اعتمدها ابن تومرت في التدريس حيث استعان بمؤلفيه "أعزّ ما يطلب" و"المرشدة" في تلقين تعاليمه لأتباعه³.

ج - طريقة المحاورة والمناظرة: تعدّ أفضل الطرق المنتهجة؛ حيث يكون الطالب محورًا في التعلّم، ويكتفي المدرّس بدور الموجه، واعتمدت هذه الطريقة في مدينة تونس، وقد أبدى ابن خلدون إعجابه بها قائلا: « وأفضل طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية الفهم الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها⁴ » وتكمن أهمية المحاورة في تنمية مقدرة الطلبة على التعبير والشرح والتعليل.

ولعلّ هذه الطريقة كانت تعتمد مع المتعلّمين الأكبر سنًا لأنهم أقدر على المناقشة والتحليل، ومن المشايخ الذين اعتمدوا هذه الطريقة في التدريس "أبو محمد عبد الحق بن ربيع" (-675هـ)⁵ وهو شيخ الغبريني الذي لازم حلقاته كثيرا، وكان الدرس يتمّ بإلقاء الأسئلة من الطلبة وتقديم الإجابة من الشيخ، وهو الأسلوب ذاته المتبع من طرف الشيخ أبي العباس الغماري⁶ الذي كان يُلقي الدرس

¹ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 07.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 33.

³ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 187.

⁴ - المقدمة، ابن خلدون، ص: 167.

⁵ - ينظر ترجمته في عنوان الدراية، الغبريني، ص: 57-61.

⁶ - ينظر المصدر نفسه، ص: 356.

ثم يقوم بإلقاء الأسئلة، وكذلك كان الحال مع الأستاذ أبو محمد عبد الحق أبو الحجاج بن سعيد¹ الذي كان يُقرأ عليه ثم يعرب، وهكذا يفعل مع كل الطلبة فتعمّ بذلك الفائدة. لذلك كانت هذه الطريقة هي أجود المذاهب عند ابن خلدون؛ لاعتمادها المحاورة التي تسهم في تنمية إمكانات المتعلم الذهنية كما أنّ المدّة المستغرقة في الدراسة لا تتجاوز خمس سنوات²، ولا شكّ في أنّ هذه الطريقة تختصر مراحل الدراسة وهو ما أسهم في ظهور نوابغ عديدة في سنّ مبكرة³.

(6)- مبادئ الحركة العلمية والفكرية:

شهد عصر الموحدين صراعا فكريًا اتخذ شكلين: دار أحدهما بين الموحدين والمرابطين حول مسألة التوحيد بخاصة في عهد ابن تومرت⁴، والثاني بين الفقهاء و الفلاسفة⁵ ويعود الفضل الفضل إلى دعم الخلفاء للعلماء وفق سياستهم التي جرت على إطلاق البحث والتفكير خلافا للدولة المرابطية⁶، وكان من نتائج ذلك تقاطر العلماء على بلاد المغرب الإسلامي وهو ما انعكس انعكس إيجابا على العلوم التي انشطرت إلى صنفين:

أ- العلوم النقلية: وتُسمى أيضا "العلوم الشرعية"⁷، وقد أولى الموحّدون عنايتهم في بادئ الأمر بهذا الضرب من العلوم نظرا لطابع الدولة الديني⁸ ثم اتّسع نطاقها مع مرور الوقت ومن أهمّها:

¹ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 358.

² - ينظر مقدمة ابن خلدون، ج2، ص: 168.

³ - ينظر حضارة الموحدين، محمد المنوني، ص: 21.

⁴ - ينظر أعز ما يطلب، المهدي بن تومرت، ص: 244، 245، 247.

⁵ - من مظاهر هذا الصراع محنة الفيلسوف ابن رشد بسبب وشاية الفقهاء به لدى المنصور الموحدي، ينظر المعجب، المراكشي، ص: 224-

225.

⁶ - ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ص: 647.

⁷ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 71.

⁸ - ينظر حضارة الموحدين، المنوني، ص: 11.

1- علم القراءات: ويصنّف هذا العلم في مقدّمة العلوم الدينية لمحاولته تفسير كتاب الله (عزّ وجلّ)¹، وقد لقي اهتماما كبيرا من خلفاء الموحدين أملاً في أن يتلوّ الناس القرآن الكريم تلاوة سليمة²، وقد فرض محمد بن تومرت على أتباعه قراءة حزب من المصحف الشريف بعد صلاة الصبح والمغرب³، وكان أبو يعقوب الموحدي حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراءات⁴، ومن العلماء الذين برزوا في هذا العلم: "أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعافري القلعي"⁵ الذي كان حسن التلاوة؛ فاحتشد الناس للصلاة خلفه لصدق قراءته والتبرك به، والمقرئ "أبو بكر محمد بن عبد النور بن أحمد السبتي" الذي قال فيه الرعيّني: "ما لقيت مثله إتقاناً للقراءة وإتقاناً فيها"⁶، وأحمد بن عبد الصمد الخزرجي القرطبي (-582هـ)⁷ نزل بجاية وألف كتاب "نفس المصباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه"، فضلاً عن "أبي جعفر الذهبي" (-604هـ)⁸.

2- التفسير: يُعدّ الخطوة الثانية في فهم معاني القرآن الكريم بعد القراءات، وقد اعتمد المرابطون في تفسير القرآن الكريم على نهج الإمام مالك القائم على التفسير الحرفي للآيات القرآنية مع مجانبة المتشابه منها⁹، وعلى الرغم من أنّ ابن تومرت اعتمد في فكرة التوحيد على آراء المعتزلة والشيعية إلا أنّ ذلك لم يخرجهم من الجوّ السبّئي¹⁰، وزاد إقبال العلماء على تفسير القرآن الكريم لأنّه المصدر الأوّل للتشريع¹¹، وتكافلت جهود المفسّرين الأندلسيين والمغاربية في هذا الجانب؛ ومن

¹ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 200.

² - ينظر الدّولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي، عبد الله علام، ص: 295.

³ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 168.

⁴ - ينظر المعجب المراكشي، ص: 170.

⁵ - ينظر عنوان الدراية، الغريبي، ص: 133.

⁶ - ينظر برنامج شيوخ الرعيّني، أبو الحسن الرعيّني، ص: 14.

⁷ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 239.

⁸ - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، حققه شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط4، ج2، ص: 321.

⁹ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 73.

¹⁰ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 204.

¹¹ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، حسن علي حسن، ص: 483.

أشهرهم: "أبو يعقوب يوسف الوريحاني" (-570هـ) الذي ألف تفسير القرآن في سبعين جزءاً¹، و"أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحزالي"² صاحب كتاب "مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل"، إلى جانب "أبي زكريا يحيى بن أبي" علي المشتهر بالزواوي الذي روى الشهاب للفضاعي، وإعجاز القرآن للخطابي³، وبلغ الموحدون في هذا العلم مبلغاً عظيماً؛ إذ انتقلوا من التفسير العادي إلى التفسير بالإشارة⁴ الذي يتكلم في الأمور العجيبة كقصّة يأجوج ومأجوج، ومسألة خروج المسيح الدجال⁵.

3- الحديث: عرف هذا العلم إقبالاً واسعاً؛ فقد استدعى الأمير أبو يوسف المحدثين من الأندلس وأدناهم منه، وكان الخلفاء أنفسهم حافظين للأحاديث النبوية فعدّ الخليفة المأمون من الحفاظ ومن أشهر المحدثين: الخطيب "أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي"⁶ مؤلف كتاب "الأحكام الكبرى في الحديث" و"ابن زرقون" مؤلف كتاب "قطب الشريعة والمهل العذبة الشريعة"⁷، ومن علماء الحديث أيضاً أبو عبد الله محمد خلفون الأزدي الأوني صاحب كتاب "علوم الحديث وشروطه وصفة ورواته"⁸ الذي جمع فيه كل ما يحتاجه المتخصص في هذا العلم.

4- الفقه: أوتر عن المرابطين اهتمامهم بمذهب الإمام مالك، فاهتموا بشرحه، وانشغلوا عن النظر في كتاب الله وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فشاع التقليد وتعددت الآراء في

¹ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، حسن علي حسن، ص: 483.

² - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 144.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 204.

⁴ - رأى المتصوفة، ومن يؤمنون بالتشيع أنّ الآيات القرآنية تحمل معان غير التي يذهب إليها الذهن أولاً، ينظر موسوعة الحضارة العربية

الإسلامية، ص: 161.

⁵ - ينظر حضارة الموحدين، المنوني، ص: 34.

⁶ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 42.

⁷ - ينظر برنامج شيوخ الرعييني، ص: 32.

⁸ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 54.

المسألة الواحدة حتى كادت تؤدّي إلى الفرقة، وعمد الموحدين منذ مجيئهم إلى تشجيع الفكر وحاربوا طريقة المرابطين داعين إلى العودة لتدريس كتاب الله، وحديث نبيّه (عليه الصّلاة والسّلام) فشاع هذا العلم في عصرهم، كما حفظوا عقيدة ابن تومرت¹، وفي عهد الخليفة المنصور دعا العلماء للأخذ بظاهر النّصوص²، ولذلك وجد الفقه عندهم على ضربين:

أ- **الفقه المالكي:** وهو الأسبق ظهورًا واعتمادًا في المغرب الإسلامي، وقد تميّز بطابعه السّني، وكان ابن تومرت عازمًا على تقويض ملك المرابطين فلاحظ أنّهم كانوا بعيدين عن الشّبّهات بفضل دعم علماء وفقهاء المالكيّة، الذين قوّيت شوكتهم وأصبح لهم دخل في كلّ القضايا، ونالوا احترام العامّة لأنّهم تكلموا باسم الدّين³، فقرّر التّخلّص منهم ليسهل عليه أمر المرابطين، عبر المناظرات التي التي دعاهم إليها وانتصر فيها بفضل خبرته في الجدل التي أخذها من الفكر المعتزلي، وأنّهم بأنّه أراد محاربة مذهب مالك على الرغم من تأليفه مختصرًا لكتابه "الموطأ" وجعله ضمن كتاب أعز ما يطلب⁴.

ما يطلب⁴.

وكان الفقهاء الأكثر تعصّبًا لهذا المذهب، من بينهم: "أبو طاهر عمارة بن يحيى بن عمارة"؛ الذي كان في بجاية عندما غزاها بنو غانية وافتكّوها من الموحدين فاستبشر وقال: "الحمد لله الذي أعاد الأمر إلى نصابه وأزاله من يد أعدائه"، فلما استردّوها مرّة ثانية سُجن مدّة، ثم عُفي عنه⁵، ومن العلماء الذين ظلّوا على مذهب الإمام مالك الشّلطيشي (-617هـ)⁶، وكذا ابن زرقون⁷ الذي ألّف كتاب "تهذيب المسالك إلى تحصيل مذهب مالك"، وأبو زكريا البجائي صاحب كتاب "حجة

¹ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 209.

² - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 53-54.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 217.

⁴ - ينظر أعز ما يطلب، المهدي بن تومرت، ص: 12، ينظر المصدر نفسه، ص: 218.

⁵ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 46.

⁶ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 40-41.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 32.

الأيام وقدوة الأنام" الذي أثار حفيظة أتباع المذهب الظاهري فرفعوا أمره إلى الخليفة الموحيدي¹. وما تجدر الإشارة إليه أنّ المذهب المالكي ظلّ ثابتاً في وجه تلك الإجراءات؛ فقد كانت الكتب تُكتب مرّة أخرى فور إحراقها²، كما أكدّ المقرّي - وهو متأخر عن الموحدين - أنّ مسلمي الأندلس كانوا على مذهب الإمام مالك³.

ب- **الفقه الظاهري**: هم أتباع ابن حزم الأندلسي، وقد شاع هذا المذهب على عهد الموحدين، وكان المفضلّ لدى الأمراء والحكّام لأنّه من الأفكار التي أسّس عليها ابن تومرت عقيدته، ثمّ جاء الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الذي حمل الناس على الأخذ بظاهر النصوص⁴ و كان يرى يرى بأنّ كل العلماء هم عيال ابن حزم⁵، ولم يكتف بذلك بل أحرق كتب الفروع⁶، التي اعتبرها تقليداً، وكان من نتائج ذلك ظهور جيل من العلماء يعمل على تفسير الفقه من الكتاب والسنة، ويفتون ويحكمون مثل أبي "إسحاق إبراهيم بن أحمد بن هارون المراد الفاسي" الذي يعرف بابن الكماد⁷، والفقيه "أبو الحسن علي بن محمد بن خيار البلنسي"⁸، ومن أشهر المؤلفات التي صنفت في الفقه الظاهري: "بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام"⁹ لابن القطان .

5- علم الكلام: كان المرابطون يسيرون على نهج السلف الصالح لذا عدّوا الإقبال عليه كُفراً، ومع مجيء الموحدين قاموا بتشجيع الناس على الاشتغال فيه فكثرت المتكلمون حتّى أصبحت تشدّ

¹ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين ، علي عشي، ص:227.

² - ينظر النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون،، مكتبة التراث المغربي الأندلسي، المغرب الأقصى، ط2، 1960م، ص:123.

³ - ينظر نفع الطيب ، المقرّي، ج1، ص:221.

⁴ - ينظر حضارة الموحدين، المنوني، ص:37.

⁵ - ينظر نفع الطيب ، المقرّي، ج3، ص:238.

⁶ - ينظر المعجب ، المراكشي، ص:202.

⁷ - ينظر حضارة الموحدين ، المنوني، ص:39.

⁸ - ينظر المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

⁹ - المرجع نفسه، ص:39.

الرحال إلى المغرب¹، وأوصى ابن تومرت بقراءة عقيدته² مرتين في اليوم، واعتبر كل من لم يخض في علم الكلام على طريقة الأشعري كافراً لا يملك من الإسلام إلا الاسم لذلك سمي أتباعه الموحدين³، ومن أشهر المتكلمين: أبو عمرو عثمان بن عبد الله السلاجي (-564هـ)⁴ إمام أهل المغرب في علم الاعتقاد، وأحمد بن عبد الله بن خميس بن معاوية بن نصر الأزدي البلنسي (-548هـ)⁵، إلى جانب أبي علي حسن بن علي بن محمد المسيلي (-580هـ)⁶، وقد ألّف كتب في علم الكلام على غرار مؤلفات ابن تومرت⁷.

6- علم النحو: عرف هذا العهد علماء كثراً اهتموا باللّغة كاهتمامهم بالنحو؛ حيث قدّموا نظريّات جديدة في هذا الجانب؛ ومن أشهرهم ابن مضاء القرطبي (-592هـ)⁸ في كتابه "الرد على النحاة" حيث طالب بإلغاء نظرية العامل، حسب ما صرح به في كتابه حيث قال: «قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأتبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه. فمن ذلك ادّعاؤهم أنّ النصب والحذف والجزم لا يكون إلاّ بعامل لفظي، وأنّ الرفع منها يكون بعامل لفظي وعامل معنوي»⁹ فهو يريد أن يحذف من النحو كلّ ما لا يحتاج إليه النحوي، لذلك ألغى كلّ

¹ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 230.

² - ينظر الحضارة الإسلاميّة في المغرب والأندلس، ص: 387.

³ - ينظر النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ص: 121.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 143.

⁶ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 33.

⁷ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 179.

⁸ - أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن مضاء اللخمي القرطبي، نشأ في بيت علم اعتنى بلقاء أساتذة عصره فارتحل إلى إشبيلية وتلقى العلم عن ابن الرّمّك، ومن ثمّ إلى سبتة لأخذ علم الحديث، ثمّ تولّى قضاء في فاس وبجاية، ثمّ ارتقى إلى منصب قاضي الجماعة، ومن مؤلفاته "تنزيه القرآن عمّا لا يليق"، و"المشرق في النحو"، ينظر الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر ط2، 1947م، ص: 18-20.

⁹ - الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص: 76.

ما فيه تأويل من العلل الثواني والثالث، فضلا عن القياس، والتقدير، والتأويل في النحو العربي¹ ورأى بأنها مجرد تزييف من النحاة، فالعامل في كلامنا هو الله (عز وجل).

وكان في تأثر ابن مضاء بالمذهب الظاهري دور كبير في دعوته بإلغاء العامل، وأثرت نظريته في الدرس النحوي بشكل كبير، ولا يزال صداها إلى يومنا؛ حيث صار التسليم بها أمراً ضرورياً حيث يقول شوقي ضيف: «وإنه لحري بنا أن نستجيب إلى هذا النداء، حتى نخلص الناس من صعوبات النحو التي ترهقهم من أمرهم عسرا، ولن يكلفنا ذلك جهدا، فقد مهد ابن مضاء الطريق أمامنا، بما وضع فيها من صوى وأعلام، أليس يدعو إلى إلغاء نظرية العامل، وقد طبقتها في أبواب النحو؟ وإذن فلنعمم هذا التطبيق»² ويبدو تأثر شوقي ضيف واضحا بابن مضاء، وقد دعا إلى ضرورة التجديد في النحو العربي، عن طريق إزاحة التأويلات التي نقرت الطلاب من دروس النحو، إذن فالغاية من إلغاء العامل هي التيسير والتسهيل.

وينبع علماء كثر في علم النحو في فترة الدراسة، ومن أشهرهم: أبو عبد الله محمد بن الحسن بن ميمون (-637هـ) صاحب كتاب "الموضح في علم النحو" وكتاب "نشر الخفي في مشكلات أبي علي"³، ومن النحاة البارعين أيضا أبو موسى عيسى بن عبد الله الجزولي صاحب "المقدمة الجزولية"⁴ إلى جانب ابن عصفور الحضرمي⁵، ومن المؤلفات النحوية مقصورة أبي القاسم بن هشام هشام الأزدي⁶ التي عارض بها مقصورة ابن دريد.

¹ - ينظر الجهود اللغوية في المغرب الأوسط من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجريين، عمار مصطفى، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان،

السنة الجامعة: 2006-2007، ص: 34-35

² - ينظر الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص: 47-48.

³ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 70.

⁴ - ينظر الحضارة الموحدين، المنوني، ص: 44-45.

⁵ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 317.

⁶ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 197.

7- التاريخ: ازدهر بشكل يتناسب ومقام الموحدين العلمي حيث ظهرت طائفة كبيرة من المؤرخين الذين صنّفوا الكتب ومن بينها ما جاء في علم الأنساب؛ مثل: كتاب "الأنساب في معرفة الأصحاب" لمؤلف مجهول¹، وظهرت طائفة من المؤرخين الذين ألفوا في نواحي شتى من هذا العلم، ومن أهم المؤلفات التي تمّ تصنيفها على هذا العهد: كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين"، الذي ألفه أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، وأصدرته دار المنصور للطباعة والوراقة بالمغرب والذي يختصّ بتاريخ الملوك، وقد وضعت كتب حول تاريخ الموحدين على غرار كتاب "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان" لابن القطان (-826هـ)² وتولّى تحقيقه محمد مكي، فضلا عن كتاب "تاريخ المن على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين" أو ما يعرف "بتاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين"، من تأليف عبد الملك بن صاحب الصلاة³، وقد حقّقه عبد الهادي التازي، فضلا عن كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" أو "تاريخ الموحدين" لعبد الواحد المرّاكشي وقد حقّقه الدّوزي.

8- الجغرافيا: شهد هذا العلم ازدهارا كبيرا؛ فنظرا لحُبّ المغاربة للسياحة؛ حرص حكّامهم على توفير الأمن لتسهيل الرّحلات، والأبحاث العلمية مثلما يشير إليه المنوني في قوله: «وكانت للجغرافيا دولة أيّما دولة في هذا العهد، بما توافر من السّائحين والجغرافيين والجغرافيات وبما اكتشف فيه من المجهل وظهر فيه من الأفكار الجغرافية المبكّرة»⁴، لقد كان ظهور علم الجغرافيا ملازما للرحلات التي كان الإقبال عليها كبيرا، والتي تعدّدت أسبابها وهو ما تطلّب معرفة بالطرق السالكة،

¹ - ينظر حضارة الموحدين، المنوني، ص: 47-48.

² - هو علي بن محمد بن عبد الملك بن يحي الكتامي الفاسي الدار، القرطبي الأصل، يكنى أبا الحسن، لقي العديد من العلماء منهم ابن مضاء القرطبي، وابن زرقون، وأبو محمد بن الفرس، ألف كتاب شرح الاحكام لعبد الحق، تولى قضاء سجلماسة، حتى توفي فيها، ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 13.

³ - عبد الملك بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الباجي المكنى أبا مروان، وأبا محمد والمعروف بابن صاحي الصلاة، ونظرا لكونه ينتسب لمدينة باجة فقد انتسب لأسرة حملوا هذا اللقب، ولم تورد ما يفصل عن حياته ولا حيّات موته كثيرا سوى أنّه ألف "ثورة المريدين"، للاطلاع أكثر ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 8-9.

⁴ - حضارة الموحدين، المنوني، ص: 53.

وبمواضع الأماكن التي كانوا يقصدوها، ولا شك في أنّ من أهم الجغرافيين الذين أنجبهم هذا العصر: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإدريسي (-562هـ)¹ الذي أحبّ الترحال منذ صغره فجال البلدان مشرقاً ومغرباً قبل أن يكلفه ملك صقلية (روجر الثاني) برسم خريطة يوضّح فيها مواقع بلدان العالم² وما تشتمل عليه من تضاريس، فجعلها في خارطة ثمّ نقل ما كان فيها إلى كُرّة مصنوعة من الفضة تعكس تصوّره لشكل العالم³، وأشرف الإدريسي على العمل، وجلب الصنّاع الحدّاق؛ فجاءت الدائرة في منتهى الدقة والرّوعة، وكتب عليها كلّ ما عرفه عن تلك الأماكن بأحرف عربيّة وسمّي هذا الإبداع "المائدة الفضية"⁴، ثم جاء مؤلّفه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" أو "كتاب (روجر)"⁵ شارحاً ومعلّقاً على ما وجد في الدائرة .

وقام الإدريسي في عمله بتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ووفقاً إلى حدّ كبير في التّدليل على درجات العرض دون تحديد خطوط الطّول مركزاً في ذلك على القسم الشّمالي من المعمورة، وطال الحريق قسماً كبيراً من النسخة الأصليّة بعدما تعرضت له مكتبة (الإسكوريال)، وتكمن أهمية هذا الإنجاز في كونه يحمل أقدم خارطة للعالم عرفها التاريخ قاربت تصوّراتها آراء الجغرافيين في العصر الحديث، ووضعت حول نزهة المشتاق عدة شروحات وتذييلات تعترف بفضله وأهميته كما ترجمت العديد من أقسامه إلى مختلف اللغات⁶، وعرف هذا العهد جغرافيين آخرين تمكّنوا من اختراق

¹ - أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف الإدريسي، ينتهي نسبه إلى آل البيت، ولد في سبنة بالمغرب الأقصى، سنة 493هـ ، أين أخذ تعليمه الأول ثم قصد الحجاز للعمرة وطلب العلم، طاف بلدانا كثيرة على غرار مصر والحجاز، واستقر في صقلية حيث ألف كتاب "المشتاق في نزهة الآفاق" الذي شرع في تأليفه عام 533هـ ، وكتاب "الجامع لصفات أشتات النبات وضروب أنواع المفردات"، و"بجحة الأونس ونزهة النفس" تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، مصر، ط2، 1986م، ص: 171-193. ينظر حضارة الموحدين، المنوبي، ص: 57، ينظر الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص: 356.

² - ينظر نزهة المشتاق ، الإدريسي، ص: 06.

³ - ينظر قصة الأندلس ، راغب السرجاني، ص: 705-706.

⁴ - ينظر نزهة المشتاق ، الإدريسي، ص: 03.

⁵ - ينظر موسوعة علماء العرب ، عبد السلام السيد ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط2، 2011م ، ص: 145.

⁶ - ينظر موسوعة علماء العرب ، عبد السلام السيد ، ص: 147.

المجهول، ومن بينهم الأمير الموحد أبو دبّوس بن أبي يعلى¹ الذي تمكّن من بلوغ مصبّ نهر النيل. وقد دوّن بعض الرحالة مشاهداتهم مثل: "رحلة ابن جبير" لابن جبير الشاطبي (-614هـ)² الذي ضمّنها خلاصة رحلاته الثلاث إلى بلاد المشرق.

ب- العلوم العقلية: وتعرف أيضا "علوم التعلّم"؛ وهي العلوم التي يهتدي إليها الإنسان بمداكره³، وهي بدورها تتفرّع إلى عدّة علوم منها:

1- العلوم العددية:

أ- الجبر والحساب: وهو من جملة العلوم العددية يعتمد على استخراج العدد المجهول من المعلوم لمناسبة بينهما⁴، وقد شهد نهضة كبيرة، ومن علماء الحساب: ابن الياشمين الفاسي (-) الفاسي (-601هـ)⁵ الذي خلّف أرجوزة في الجبر⁶، وقد استفاد العلماء من الحساب وبخاصّة ما يتعلق خاصّة بتقسيم التركّات ومن علماء هذا الميدان أيضا ابن فرحون (-601هـ) واضع

¹- ينظر حضارة الموحدين، محمد المنوني، ص: 63.

²- ينظر هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناي ولد ببلنسية وقيل شاطبة بين 539هـ - 540هـ له ثلاث رحلات إلى المشرق وقد حجّ في كل واحدة منها وله رسالة "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" جاور طويلا الحرم المكي وبيت المقدس ثم لاستقر بالإسكندرية أين لقي ربه، وقد كان أدبيا بارعا وشاعرا مجيدا سري النفس كريم الأخلاق أنيق الطريقة في الكتابة، له أمداح في سعيد بن عبد المؤمن، ينظر ترجمته المصدر نفسه، ص: 595-621، ينظر التكملة، ابن الأبار، ص: 109-110، ينظر زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، اعتنى بنشره وتهذيبه والتعليق عليه عبد القادر محداد، لبنان، دط، 1939، ص: 72-73، نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص: 381، ينظر رحلة ابن جبير، ص: 5-6.

³- التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 127.

⁴- ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج2، ص: 253.

⁵- المجلس المنفرد الكاتب أبو محمد بن الياشمين بن عبد الله بن حجاج الإشبيلي، تخرج بإشبيلية في فنون العلم، واشتغل بالنظم والنثر وفنون الآداب، فصار من أعلام الكتاب والأدباء وقد وجد مذبوحا في غرفة على باب داره، ينظر الغصون البانعة، ابن سعيد، ج1، ص: 42-50.

⁶- ينظر حضارة الموحدين، المنوني، ص: 74، ينظر الغصون البانعة، ابن سعيد، ج1، ص: 42-50، ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص: 144.

كتاب " اللّباب في مسائل الحساب " ¹، وعبد المنعم بن محمد المراكشي الذي كان من أهل المعرفة باللغة والآداب والحساب ².

ب - الهندسة : وقد عرّفها ابن خلدون بقوله: « هو النّظر في المقادير ،أمّا المتصلة كالخط والسطح والجسم، وإما المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية، مثل أنّ كلّ مثلث فزواياه مثل قائمتين، ومثل أنّ كلّ خطّين فالزّاويتان منهما متساويتان متقابلتان» ³ وعرف هذا العلم دولة وصوله نظرا لكثرة المنشآت التي تمّ تشييدها على هذا العهد، والتي احتاجت إلى مهندسين أكفأ كانوا من أبناء الدولة، على غرار: "أحمد بن إبراهيم بن عبد المنعم العبدي" (-626هـ) الذي سكن مراكش، واستقرّ إزاء جامع المنصور الموحدي فأخذ عنه خلق كثير، ومن مؤلفاته: "فقه الحساب وتجريد أخبار كتب الهندسة على اختلاف مقاصدها" ، وكان لا ينام حتّى يستظهر كتاب "الأركان" (لإقليدس) (Euclide) ⁴، و من المهندسين البارعين أيضا: "الحاج يعيش المالقي" الذي أشرف أشرف على مسجد إشبيلية، و"ابن حسّان القاضي" ⁵ الذي بنى مسجد حسّان بالرباط .

2 - الطّب والصّيادلة :ظهر جيل من الأطباء الذين أولوا هذا العلم اهتماما كبيرا، كما اعتنى الحكّام بتشديد "المارستانات" ⁶، ومن أشهر الأطباء: أبو الوليد بن رشد طبيب هذا الخليفة الذي اختصّه المنصور، وأبو مروان بن زهر الحفيد طبيب الخليفة الناصر صاحب كتابي " التيسير" و"الأغذية" ⁷، ومن الأطباء أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي (-674هـ) الحكيم الحاذق الفاضل الذي كان طبيب ولاة بجاية ، وقد وضع شروحات لكتب الطب ككتاب

¹ - ينظر الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي ،عبد الله علي علام 370

² - ينظر التكملة ، ابن الأبار ج3، ص:130.

³ - المقدمة . ابن خلدون، ص: 257

⁴ - ينظر التربية الإسلامية في المغرب، محمد عادل عبد العزيز، ص:144.

⁵ - ينظر حضارة الموحدين ،المنوني، ص:74.

⁶ - ينظر المعجب ،المراكشي، ص:209.

⁷ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص:185.

القانون¹ لابن سينا، فضلاً عن أبي جعفر الذهبي الذي كان من علماء الطب، وقد خدم الخليفين المنصور ثم ابنه للناصر من بعده²، كما اقتحمت المرأة هذا المجال وبرعت فيه، على غرار شقيقة ابن زهر الحفيد وابنتها أم أبي العلاء³ اللتان كانتا مختصّتين بنساء الأمراء، كما اهتم الحكام بالصّيدلة فأدجوها ضمن المستشفيات، ومن أهمّ رواد هذا العلم ابن الرّومية⁴ المسّمي "العشاب" و"النباتي" الذي مال إلى معرفة الغريب منها، ومن أهمّ مؤلفاته "الأدوية المفردة".

3- الفلك والتنجيم: لقي هذا العلم إقبالاً من لدن العام والخاصّ؛ ومن البارعين في هذا المجال الأمير المنصور الموحّدي، حيث استثنى من كتب ابن رشد التي أمر بحرقها تلك المتعلقة بالتنجيم ومعرفة الأوقات⁵، كما شيّدوا الأبراج لرصد حركة الكواكب والتّحوم، ولعلّ أعظم شخصيّة أنجبتها هذا هذا العصر في علم الفلك العالم العظيم "البطروجي" الذي وضع كتاباً في علم الهيئة أكّد فيه أنّ الكواكب تطوف حول الشّمس في مدار إهليجي، ليتّرجم الكتاب إلى عدّة لغات، ويبدو أنّ العالم الألماني (كبلر) (Kepler) كان قد اطّلع على محتواه، وقد استفاد منها (نيوتن) (Newton) عند اكتشافه قانون الجاذبيّة⁶، وهو ما يؤكّد فضله على علم الفلك الحديث.

4- الفلسفة والمنطق: كانت أنفاس الفلاسفة مقيدة على عهد المرابطين؛ حيث غدّ الاشتغال بها حراماً، وبمجيء الموحّدين فُسّحت الأبواب للخوض في غمارها بفضل الترجمة، ولاسيّما في فترة حكم الخليفة أبي يوسف المنصور الذي عُرف بحبّه للعلم، وكثرة مطالعته، وكانت الفلسفة من جملة ما شدّه وبخاصّة آراء (أرسطو) (Aristote)؛ فكانت له مطارحات مع فلاسفة عصره من أهمّهم: ابن باجه

¹ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 75.

² - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 263، نقلاً عن عيون الأنباء، ابن أبي صبيعة، ص: 497.

³ - ينظر حضارة الموحدين، المنوي: 91.

⁴ - ينظر الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي، علي عبد الله علام، ص: 363-364، ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 185.

⁵ - ينظر الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي، علي عبد الله علام، ص: 358.

⁶ - ينظر تاريخ الأدب العربي "عصر الدول والإمارات، الأندلس"، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، دط، ج 8، ص: 76.

وتلميذه ابن طفيل الذي لازمه في قصره طويلا ،وله عدّة مصنّفات في: الإلهيات والطبيّيات من أشهرها: رسالة "حي بن يقضان"، ورسالة أخرى " في النَّفس"¹ وهو الذي قدّم للأمير أبي يعقوب أبا الوليد بن رشد القرطبي الحفيد²(-595هـ) هذا الأخير الذي قام بترجمة كتب (أرسطو)(Aristote)، فبسّطها، وهذّبها بما يتناسب مع الدّين الإسلامي، ومن أهم مؤلّفاته: " تهافت التّهافت"، و"السّماء والعالم" و"إثنا عشرة مسألة في المنطق"³، وغيرها من المصنّفات .

كما ظهر على هذا العهد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي(-630هـ)⁴ الذي يعدّ أحد أقطاب التّصوف الإسلامي، وذروة ما بلغته الأفلاطونية حتّى سمي ابن أفلاطون ، وقد أثنى عليه العلماء قديما وحديثا؛ وألّف حوالي أربع مائة مؤلّف في مختلف، ولا تزال كتبه محلّ إقبال من الفلاسفة والدّارسين ينهلون من قواعده على الرّغم من الاضطهاد الذي عانى منه كثيرا في حياته⁵.

ويّتضح من المثالين اللّذين أوردناهما مدى الانفتاح الفكري الذي بلغه الموحدون؛ فابن رشد تلميذ الاتجاه العقلائي في فلسفة الإغريق ممثّلة في ابن سينا الذي تأثّر بفلسفة(أرسطوطاليس)(Aristote)⁶، فيما يمثل ابن عربي الاتجاه المثالي بزعامة أبي نصر الفارابي المتأثّر (بأفلاطون)⁷، وعرف

¹ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 172.

² - ينظر تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، مكتبة نخضة الشرق، دط، سنة 1990، ص: 280-281، بنظر حضارة الموحدين، محمد المنوني، ص: 71-72.

³ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 175.

⁴ - أبو عبد الله محمد بن علي الطائي الحاتمي المعروف محي الدين بن عربي، والمعروف بابن سراقه و الملقب بالشيخ الأكبر والكبير الأحمري ولد في مرسية سنة 560هـ وانتقل إلى اشبيلية وأخذ العلم عن علمائها الذين أجازوه، ثم ارتحل إلى بجاية ثم انطلق إلى المشرق، استقر في دمشق إلى أن مات فيها ، وتباينت آراء العلماء حوله بين مكفر له وآخر يراه مسهما في تقريب ما وراء العقل إلى العقل وفريق ثالث يعتبره إمام أهل الكشف، وكان له في الأدب الشأو الذي لا يلحق، والتقدم الذي لا يسبق، ومن أهم مصنّفاتة: الفتوحات المكية ، ، وترجمان الأشواق، وديوان شعره، إلى غير ذلك ، ينظر ترجمته عنوان الدراية ، الغريبي، نفع الطيب ، المقرئ، ج2، ص: 161-169، ينظر ترجمان الأشواق ، ص: 11-13 ينظر تاريخ الأدب العربي" عصر الدول والإمارات الأندلس" ، شوقي ضيف، ص: 363

⁵ - ينظر تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، ص: 285-295.

⁶ - ينظر عنوان الدراية، الغريبي، ص: 359.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 359.

هذا العصر فلاسفة آخرون على غرار أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري المشهور بالأصولي (-612هـ)¹، وأبي العباس أحمد بن خالد (-660هـ)² الذي عرف بتعمّقه في علم الحكمة والطبيّيات.

5- التّصوّف: اعتبر المرابطون التّصوف خارجا عن الشريعة، غير أنّ هذا الإجراء لم يمنعه من شق طريقه بفضل ظهور أعلام كبار على غرار ابن العريف³، وتغير الأمر مع مجيء الموحدين حيث حظي المتعبّدون والصالحون بمنزلة كبيرة لدى الخلفاء ولاسيما المنصور الموحدي الذي كثر في أيامه الصالحون والمتبتلون وكان لهم صيت حتى أنه كتب إليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم⁴، كما شهد المتصوفة تكريما من الناس حيث قصدوهم للتبرك⁵ ولاسيما بعد جهاد المتصوفة ضد العدوان المسيحي⁶، وشهدت العلوم الدينية إقبالا كبيرا فاختر الكثير من العلماء طريق التّصوف التّصوف مذهبا⁷.

ومن أسباب ظهور التّصوف المدائح الدينية، واشتداد تيار الزهد الأمر الذي هيأ الأوضاع لظهور المتصوفة⁸، وشكّلت كثرة الحروب والفتن قلقلًا نفسيًا تطوّر مع الوقت وأصبح شعورًا بالضياع، بالضياع، وولّد إحساسا بالخوف لذلك أصبح الفرد الموحدي يبحث عن الراحة النفسيّة والاستقرار الوجداني فوجد ضالّته في الدين الذي رأى فيه خلاصه من طيشه، كما كان لموقف الصّوفي من

¹ - ينظر الذيل والتكملة، عبد الملك المراكشي، ص:271، ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص:208-211.

² - ينظر المصدر نفسه، ص:73.

³ - ينظر التراث المشترك الأندلسي المغربي في ميدان التّصوف، محمود علي مكي، مطبوعات سلسلة مطبوعات أكاديمية المملكة

المغربية، عدد23 أبريل 1992م، تاريخ 11-06-2016م، على الساعة 10:15، ص:161

⁴ - ينظر المعجب، المراكشي، ص:201

⁵ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص:477-478

⁶ - ينظر التراث المشترك الأندلسي المغربي في ميدان التّصوف، محمود علي مكي، ص:162

⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص:483

⁸ - ينظر الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس والسابع الهجريين "دراسة موضوعاتية فنية"، أحمد عبيدي، تحت إشراف د.محمد

الأخضر الزاوي، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، السنة الجامعية: 2004-2005م،

ص:142.

مجتمعه دَوْرًا في ازدهار هذا الاتجاه؛ إذ كان يَشِيح بوجهه عن محيطه ويتَّجه إلى الخلوَّة بحثًا عن الطمأنينة¹ لأنَّه لا يقوى على تغيير واقعه على النحو الذي يريد، واتَّقاء لشرِّ بعض الفقهاء، فهجر الوطن واستأنس بخلوته، وقد وجد المتصوفة في الشعر متنفسًا لمشاعرهم²؛ فعَبَّروا من خلاله عن أحوالهم وأشواقهم وأذواقهم، وكان الحب الإلهي عندهم أصل وجود الحب في العالم³.

ومع نهاية القرن السادس الهجري وحلول القرن السابع للهجرة أصبح التصوف رمزًا للثقافة الدينية في المشرق والمغرب مزاحمًا الفقه في المكانة التي احتلها قرونا من الزمن ولم يقف الفقهاء إزاء هذا التهديد مكتوفي الأيدي بل سَعوا لإيغال صدور الحكام لمضايقتهم⁴، وقد لآخ للعيان جمع من المتصوِّفة ولاسيَّما مع ظهور قطبين في بلاد المغرب الإسلامي أولها "أبو مدين شعيب"⁵ والثاني تلميذه محيي الدين ابن عربي"⁶ (-630هـ)، فضلا عن "الششتري" (-668هـ)⁶ ومتصوفة آخريين¹

¹ - ينظر جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة قاصدي مرياح، ورقلة، الجزائر، ص: 60

² - ينظر الشعر في عهد المرابطين و الموحدين، محمد مجيد السعيد، ص: 291

³ - ينظر تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي أبو مدين التلمساني نموذجًا" دراسة تتناول العلاقة بين الصوفي والحب العذري"، رضوان محمد سعيد عجاج إيزولي، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن، ص: 244.

⁴ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 479

⁵ - أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي من إشبيلية، الشيخ الفقيه المحقق، الواصل القطب، شيخ مشايخ الإسلام في عصره، إمام العباد والزهاد، وقد أورد له الغبريني من كرامات ما يعجب له السامع، ونقل قول ابن عربي عنه في أن أبا مدين لم يمت حتى تقطب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات، والقبطية للعارف هي منتهى آماله "ولما اشتهر أمره ببجاية سعي به عند بني عبد المؤمن فطلبوا من والي بجاية التلطف به وحمله إلى الحضرة في أحسن حال وعند مروره بتلمسان طلب منهم المكوث فيه قليلا بالعباد ففاضت روحه إلى بارئها وقبره بما مشهور، ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 22-32، ينظر تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص: 86

⁶ - هو أبو الحسن بن عبد الله النميري الششتري من منطقة "لوشة" ولد سنة 610هـ و قال فيه الغبريني: له تقدم في علم النظم والنظر على طريقة التحقيق، وشعره في غاية الانطباع والملاحة، وتواشيعه ومقبياته ونظمه الهزلي الرجزلي في غاية الحسن، وقد حفظ القرآن منذ صغره وتدرج في أخذ العلوم الدينية ثم الحكمة وانتهى به المطاف إلى التصوف، وكان لأبي مدين شعب وابن عربي أثر كبير عليه وهو ما اتضح في شعره، وقد تأثر بصورة أكبر بابن سبعين وطلب منه أن يتحوَّل في الأسواق ويدعو الناس لعلمه وهو يعرف على آلة الششتري، ثم ارتحل إلى طرابلس ثم مصر ثم إلى بلاد الشام ومكة حيث أصبح صاحب الطريقة الششتري له مؤلفات عديدة، مثلما كان ابن عربي أول من أدخل الموشح للتصوف، ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 239-242، ينظر نفع الطيب، المقري، ج2، ص: 185-189، ينظر ديوان الششتري، الششتري، ص: 6-14

خلّفوا مؤلّفات عديدة في هذا الميدان سواء كانت شعرا أو نثرا² وبفضلهم أصبح المغرب يمدّ المشرق بالمتصوفة من خلال هجرتهم ورحلاتهم إلى الحج والتزود بالعلم حيث أصبح صوفيّة المغرب أساتذة في المشرق³.

وإذا كان ازدهار التصوف يتجلّى في اعتماده على الرموز التي تحاول محاكاة الجمال المطلق الذي يرمز إلى الذات الكلية فإنّ هذا التطور تجلّى أيضا في طبيعة الآراء التي تطرّق لها أولئك العارفون والتي كانت تخرج من مشكاة واحدة وهي الأخذ عن أبي مدين شعيب، وتختلف في طريقة عرضها، فمن المعلوم أنّ هذا القطب كان مرجعا لكبار المتصوفة على هذا العهد، واستقر في مدينة بجاية بالمغرب الأوسط التي كانت حلقة وصل بين مختلف أقطاب التصوف في المغرب والأندلس فأخذوا عنه أبجديات التصوف وزادوا على طريقته ما تشربوه من طرق أو معارف .

ويعدّ ابن عربي أحد تلامذته الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية من خلال النظرية الأفلاطونية المحدثه⁴، وتجلّى ذلك في المصطلحات التي عبّروا بواسطتها عن ظواهر الشعور التي لا تفهم إلا بالعودة إلى الأصل اليوناني⁵، كما تعمّد الإغراب والتعقيد فكان له قاموسه الخاص، وقد اكتسبت آراؤه شهرة

¹ - ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ص: 677-680، ينظر تاريخ الأدب العربي ، الأدب في المغرب والأندلس "عصر

المرابطين و الموحدين" ، عمر فروخ ، دار العلم للملايين، لبنان، ط2، 1985م، ج5 ، ص: 657

² - ينظر الخطاب الشعري الصوفي في المغرب، أحمد عبيدي، ص: 141

³ - ينظر التراث المشترك الأندلسي المغربي في ميدان التصوف ، محمود علي مكي ، ص: 162

⁴ - الأفلاطونية المحدثه مذهب فلسفي وديني صوفي زواج بين الفلاسفات الشرقية القديمة والفلسفة اليونانية نتج عنها مذهب يناسب مبادئ الدين الاسلامي وهذا المذهب يقول بان مصدر المعرفة هو الكشف وليس المنطق و الاستدلال، ويرى ايضا بان الاول المطلق هو اساس كل شيء ، وانه من واجب الانسان الارتقاء من عالم المحسوس الى عالم المعقول من خلال التجربة الذوقية والرياضة الصوفية ليعود الى الفناء في اصله، كما يقول بان الوجود تنظمه وحدة جامعة وان العالم المادي فاض عن الاول مثلما تفيض اشعة الشمس عن الشمس ، كما يقول بان المعرفة مصدرها الكشف عن طريق التصاعد من المحسوس الى المعقول وتمثل حقيقة من خلال اتحاد الكاشف بالمكشوف لتحقق الوجد او العشق ينظر الحب الالهي ، ينظر محمد الكتاني ، ص: 195

⁵ - ينظر جمالية الرمز في الشعر الصوفي "محي الدين بن عربي نموذجاً"، هدي فاطمة الزهراء، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

الحديث، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية، 2006م ، ص: 124.

بين الناس رغم التعظيم الذي لفت به¹ ومن بينها القول "بوحدة الوجود"² و"الحلول" و"الوحدة المطلقة"³، وكلها تشير إلى أن هذه الكائنات هي تجلّ لله في الأرض لذلك يمكن أن يحلّ الله في الوجود ويتّحد معه واكتست آراؤه بعدا علميًا عندما قال "بوحدة الأديان السماوية" وقد أشاد المستشرقون بابن عربي كثيرا واعترفوا بدوره في النهضة الأوروبية والإصلاح الديني؛ فقد أثر في الشاعر (دانتي)(Dante) كما تجلّى تأثيره في متصوفة العرب والفرس حسب (بلاثيوس)(Palacios) عبر منهجه الذي جمع بين الفلسفة والدين⁴، ويعد الششتري تلميذا آخر من تلامذة أبي مدين التلمساني لكنّه قرّر الاعتماد على طريقة الدراويش سيراً على خطى ملهمه "ابن سبعين"⁵ ويظهر ذلك من خلال لبس الخرقه، وحمل البندير، وهو ما يفسر اعتماده على الموشحات والأزجال كثيرا.

إذن، عرف المرابطون ببدايتهم التي أعاققت حرية الفكر، ومع مجيء الموحدين تغيرت الأوضاع عاش المغرب والأندلس أزهى عصورها فكرياً وعلمياً حتى في فترات التقهقر السياسي⁶، فقدّموا للإنسانية عقليات نادرة خدمتها في شتى أنواع المعرفة ولم تقتصر فائدتها على العرب والمسلمين بل تجاوزتهم إلى الغربيين، ومما يمكن ملاحظته على الحياة العلمية والفكرية بعد هذه الدراسة:

¹ - ينظر جمالية الرمز في الشعر الصوفي "محي الدين بن عربي نموذجاً"، هدي فاطمة الزهراء، ص: 125

² - وحدة الوجود: وهو مفهوم ذو بعد فلسفي كان له جذور مشرقية ومفاده أنّ المخلوقات جميعها هي تجلّ للذات الإلهية ونحن عندما ننظر إليها فإننا ننظر لصورة الله من خلالها وإن الله يحلّ في الذات الإنسانية ينظر الخطاب في الشعر الصوفي المغربي، أحمد عبيدي، ص: 142، يرى ابن عربي أنّ الوجود واحد وهو تمظهرٌ للوجود الإلهي وهذا التعدد في الوجود وإذا كانت الحقيقة العددية للكون واحدة هي الحقيقة الإلهية فإدراكها هو الهدف الأسمى للتصوف؛ فالنفس تعود بشكل مثالي للاتحاد بالله وهو أول من قال بوحدة الوجود، ينظر المرجع السابق، ص: 123

³ - الوحدة المطلقة التي تميز بين الوجود الحقيقي وهو الله عز وجل والوجود الوهمي وهي الكائنات الحية، وقد نتجت عن الذوق والكشف لا عن الفكر والعقل، ينظر الخطاب في الشعر الصوفي المغربي، أحمد عبيدي، ص: 142

⁴ - ينظر أعمدة التصوف الإسلامي في ميزان المستشرقين "ابن عربي نموذجاً"، مشتاق بشير الغزالي/ www.iasj.net، ص: 10-12

⁵ - هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين ولد بمرسية سنة 613هـ، له علم وحكمة ونباعة وبلاغة، استقر في بجاية مدة من الزمن وكان له أتباع كثر من الفقراء، كان كثير الملازمة لبيت الله الحرام، وكان أهل مكة يهتدون بأفعاله، ينظر عنوان الدراية، الغريبي، ص: 237-238

⁶ - ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ص: 645.

- أسس ابن تومرت دولته على أساس ديني يقوم على مبدأ التوحيد الذي استقى معالمه من الكتاب والسنة، وأضاف إليه محصلة ما أخذه من علوم في المشرق.

- سعت السلطنة إلى خلق جوّ من الاستقرار داخل أرضها والمنافسة على توسيع رقعتها .

- تمتعت الدولة بموارد اقتصادية هائلة نظرا لتعدد مصادرها الطبيعية في العدوتين.

- ضمّ المجتمع الموحدين عناصر مختلفة الأجناس، والأديان، ولا شكّ أنّه حمل مع اختلافها في

الثقافات.

- اعتنى الموحدون بالعمران سواء بتشديد مدن جديدة أم توسيع أخرى، ولم يقتصر على

مجهودات الدولة بل ساعد الميسورون من وجهتهم أيضا.

- أولى الموحّدون عناية فائقة لمختلف العلوم، ودعموها سيراً على نهج معلّمهم ابن تومرت

الذي ظلّت معالمه متّقدة في أذهانهم، وقد انعكست على الحياة الفكرية والعلمية بوضوح ،

وكانوا سباقين إلى استحداث أنماط من التعليم لم تكن معروفة على الأقل في بلاد المغرب

وأخضعوها لخصوصيتهم حيث يقول المنوي: « نعم، كان فضل الموحدين على المعارف عظيما،

فإنّهم حافظوا على ما اختاروه منها إلى حدّ كبير وشجّعوها (...) وطبعوا ذلك بطابعهم الثلاثي

الخاص، وأنّ تشجيعهم للمعارف التي كانت شائعة في عهدهم بلغ مبلغا عظيما وكان تشجيعا

ماديا وأديبا تفننوا فيه بما شاءت لهم همهم»¹ فلم ييخل الموحدون بما جادت به أذهانهم على

المعارف، وقد برعوا في العلوم العقلية والنقلية على حدّ سواء .

- عكف حكام هذه الدولة على تشييد المؤسسات العملية بمختلف أشكالها سعياً منهم

إلى نشر الثقافة التي احترّم فيها اللهجة البربرية عبر تخصيص حيزٍ للناطقين بها حفاظاً منهم على

¹ - حضارة الموحدين، المنوي، ص: 14.

الهوية المغربية، وحرصا من القائمين بشؤون هذه الدولة على التخفيف من نسبة الأمية، وقد نجحوا في خلق توازن فكري بين علماء العدوتين بفضل تشجيع العلوم العقلية في المغرب.

- حرص المتعلمون على أخذه من ينابيعه بخاصة علم الحديث؛ فعكفوا على حصد الألقاب العلمية، وهو الأمر الذي أسهم في تخريج أفواج من العلماء شغلوا مناصب سامية في بلدانهم أو في الأماكن التي هاجروا إليها، كما كان لهم مشاركة واسعة في حركة التأليف التي أثمرت بآراء ونظريات هامة لا تزال شغل الناس إلى يومنا نحو صنيع ابن مضاء القرطبي في كتابه "الرد على النحاة" من خلال نظرية العامل النحوي، وكتاب البطروجي حول حركة الكواكب الذي غيّر الكثير من المفاهيم.

- عرفت بعض المراكز العلمية بتخصصها في مجالات معينة من العلوم مثل مدينتي تلمسان وبجاية اللتين شهدتا إقبالا كبيرا من الفقهاء والمتصوفة، المحدثين، فتخصصتا في العلوم الدينية .

- تعددت أنواع التصوف تبعا لمشاربه بين تصوف سني وآخر متأثر بالفلسفة اليونانية، فيما اقتدى آخرون بطريقة الدراويش، واتسمت بعض آرائهم بالبعد العالمي كالقول بوحدة الأديان .

الفصل الثاني: الشعر على عهد الموحدين

- 1- الغزل
- 2- المدح
- 3- الوصف
- 4- الهجاء
- 5- الرثاء
- 6- الحنين
- 7- الفخر
- 8- الشكوى
- 9- المدائح الدينية
- 10- الزهد
- 11- التصوف
- 12- الشعر التعليمي
- 13- الموشحات و الأزجال

سار الشعر ببطء في بداية حكم المرابطين؛ لبعْدِ ولاة الأمرِ عن ميدانه وانشغالهم بالجهاد والفتنة، فكان انصاتهم للشعر نوعاً من الترف لا غير حسب ما يظهر من رسالة الشقندي¹، ولما وجد شعراء المدح صعوبة في التنقل إلى بلاطاتهم- لما تتطلبه الرحلات من وقت ومال- لجؤوا لإرساله، وعرف الأمر انفراجاً على عهد علي بن يوسف، ومن تبعه حيث استساغوا الشعر وطربوا للغناء²، بيد أن الشعر شهد تحسناً مع مجيء الموحدين؛ حيث بلغ مستوى عالياً من الازدهار مُتَّبِعاً خُطى ملوك الطوائف ولم يخب وهجه حتى في عصر الانهيار³، وذلك لأسباب عديدة من أهمها:

1- اهتمام ولاة الأمر بالشعر: وذلك مُوازاةً مع حرية التعبير والفكر التي أطلقوها خِلافاً للمرابطين⁴، وقد كان منهم من يقرض الشعر ويتذوقه ومن ثمة يقوم بنقده وذلك منذ عهد المهدي ابن تومرت⁵، ووصولاً إلى الخليفة المرتضى⁶، كما شارك في نظمه الوزراء، والولاة، ومختلف فئات المجتمع سواء كانوا من داخل الدولة أو خارجها⁷، ومن مظاهر اهتمام الحكام بالشعر:

أ- تقريب الشعراء من حضرتهم: فقد كان الشعراء من بين الغنائم التي حصلوا عليها عند

¹ - ينظر نفتح الطيب، المقرئ، ج3، ص: 186-222

² - ينظر التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، حمدي عبد المنعم محمد حسين، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1977م، ص: 381-384.

³ - ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ص: 688.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 647.

⁵ - ينظر خريدة القصر وجريدة العصر "قسم شعراء المغرب"، العماد الأصفهاني الكاتب، تحقيق: ومحمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلالي بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، ط2، ج1، ص: 167.

⁶ - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 583.

⁷ - ومن أمثلة ذلك: الشاعر أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الذكواني الكائني من قرية من قرى السودان بكانم تسمى بله، وكان لونه غريباً وأمره غريباً جاء إلى المغرب قبل المائة السادسة ودرس الآداب بمراكش، وقيل أنه توفي ما بين 608هـ-609هـ، ينظر المقتضب من كتاب تحفة القادم، ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي الأندلسي، اختيار وتقييد إبراهيم البلفيقي، تحقيق إبراهيم الأبياري، قرئ على طه حسين، مطبعة الأميرية، مصر، دط، ص: 109.

فتح قلعة بني حمّاد¹، واجتمع لأبي سعيد بن عبد المؤمن عصابة من الشعراء²، وقد حرص الحكام على تقريبهم في المحافل وإجزال الهبات لهم؛ إذ كان الخلفاء يصغون للشعر ويثيبون عليه في مختلف الندوات والمناسبات التي شهدتها الدولة؛ ومن أشهرها مهرجان الفتح الذي استدعى فيه عبد المؤمن الشعراء ابتداءً؛ ومن بينهم حفيد الشريف الطليق الذي أنشده قصيدته التي جاء في مطلعها: «ماللعدى جنة أوقى من الهرب» فتفاعل عبد المؤمن مع هذا الشطر وردّ بحماس: "إلى أين، إلى أين أيها الشاعر؟" فواصل الشاعر قوله وأتمّ القصيدة فعلق عبد المؤمن بقوله: «بمثل هذا تمدح الخلفاء» وهذا دليل آخر على تذوق الأمراء للشعر وتفاعلهم معه؛ إذ لم يكتفوا بالإنصات وحده³.

وكان الخلفاء يثيبون على قول الشعر⁴؛ ويتجلى ذلك عند افتكاك مدينة "آبله" من يد النصارى؛ حيث أقام أبو يعقوب احتفالا كبيرا في "إشبيلية" فأنشده الشعراء ما صاغوه من نظمهم، وكان الكاتب أبو علي الأبخيري أولهم، فاستحسن الخليفة شعره، وأثنى عليه، ثم تلاه غيره من أهل العُدوة وأهل إشبيلية فطال إنشادهم، وأمر بتعجيل جوائزهم، وأجزل لهم العطاء حسب طبقاتهم، وهذا يدلّ من وجهة على كثرة الشعراء في هذه الفترة حتى قُسموا إلى طبقات، كما يدلّ من وجهة أخرى على تفضيله الشعراء الكتاب على سواهم، ويدلّ من وجهة ثالثة على تقريبه شعراء المغرب

¹ - ينظر خريدة القصر، الأصفهاني، ص: 177.

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 159.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 102، وورد اضطراب في رواية الأبيات على شهرتها أذجاءت في مصادر أخرى هكذا:

مَا	لِلْعَدَى	جَنَّةٌ	أَوْقَى	مِنْ	الْهَرَبِ	كَيْفَ	الْمَفْرُ	وَحَيْلُ	اللَّهِ	فِي	الطَّلَبِ
لَوْ	بَدَّلُوا	قَدَمًا	رَلْتُ	بِقَادِمَةٍ	لَأَصْبَحَ	الْكُلُّ	طَيَّارًا	مِنْ	الرُّعْبِ		
وَأَيْنَ	يَذْهَبُ	مَنْ	فِي	رَأْسِ	شَاهِقَةٍ	إِذَا	رَمَتْهُ	سَمَاءُ	اللَّهِ		بِالشُّهْبِ

الأبيات موجودة أيضا في نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 592، البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 296، ونظم شعرا للتحريض على تولية عبد المؤمن الحكم لابنه محمد، البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 133-134.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 110، 340.

على الأندلس في إطار سياسة عبد المؤمن الميالة للبربر¹، واستمر الأمر مع أتباعه من الخلفاء؛ فبعد عودة "المنصور" من معركة الأرك منتصرا توافد عليه الشعراء وأكثروا القول فيه حتى حالت رقاعهم بينه وبين الناس².

ب - تشجيع المنافسة بين الشعراء: شجع الحكام المنافسة بين الأدباء رغبة منهم في تثبيت دعائم الملك، وإذاعة دعوتهم في الأقاليم المفتوحة، ولذلك استقطبت الدولة طائفة كبيرة من الشعراء الذين انبهروا بالدعوة الجديدة وبما أحرزته من انتصارات ساحقة في بدايتها، وغدوا منذ ذلك الحين يُعرفون بشعراء الخلافة الموحّدية، وقد ولدت المنافسة بينهم المشاحنات والغيرة على نحو مالمسناه في قصة ابن مجبر وأبي العباس الجراوي³، وكلاهما من شعراء الخلافة⁴.

وهذه المنافسة لم تكن بتشجيع من الخلفاء وحدهم بل جاءت كردّ فعل على استفزاز الأدباء الأندلسيين للمغاربة، ومفاخرتهم بكثرة شعرائهم مثلما يظهر من رسالة الشقندي⁵، وبخاصّة أنّ عاصمة الملك كانت في مراكش، ولعلّ قصة الجراوي مع ابن مجبر في حضرة عبد المؤمن خير دليل على ذلك التنافس، وقد زوّي عن الكورائي⁶ - وهو أديب عدوة المغرب - أنّ عبد المؤمن كان يقول

¹ - ينظر النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله ككون، ص: 115-116

² - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص: 172

³ - أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي نسبة ابن سعيد لقبيلة كوراية من بربر المغرب الأقصى وجعله محقق الغصون البانعة من جراوة وهو موضع بين قسنطينة وقلعة بني حماد، وتردد على الأندلس وكان عالما بالأدب واللغة، توفي بإشبيلية، ينظر ترجمته في نفع الطيب، المقرئ، الهامش رقم1، ص: 502، للاطلاع أكثر ينظر زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، اعتنى بنشره وتهديه والتعليق عليه عبد القادر محداد، لبنان، دط، 1939، ص: 7-90، ينظر المقتضب من كتاب تحفة القادم، ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي الأندلسي، اختيار وتقييد إبراهيم البلفيقي، تحقيق إبراهيم الأبياري، قرئ على طه حسين، مطبعة الأميرية، مصر، دط، ص: 44، الهامش رقم1، ص: 98.

⁴ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 238.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص: 186.

⁶ - الأديب الجليل أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكورائي، من "تادلا" وهو موضع بن فاس ومراكش وهو من شيوخ الأدباء الذين رزقوا طول العمر ومجالسة الخلفاء بداية بعبد المؤمن وأبي يعقوب ثم المنصور الذي ألف له كتابه "حماسة الكورائي"، ثم جالس الأمير الناصر، وعلى الجمل فهو أديب المغرب على الإطلاق في زمانه، ينظر الغصون البانعة، ابن سعيد، ج1، ص: 98-103.

يقول له: "إنا نباهي بك أهل الأندلس"¹، وهو أمر استوقف عبد الله كنون الذي رأى أنّ المغاربة كانوا أمام حتمية الرد على اسفزازات الأندلسيين لهم والتي تعلقت بتعداد محاسن أدبائهم، وابتكارات شعرائهم التي بدّوا غيرهم فيها وجاء ردّهم بعيداً عن السرقة أو التقليد²، ولم يقتصر التنافس على الأدب وحده بل شمل مختلف المجالات وهو ما كان له أثرٌ إيجابي على هذا العهد.

2- كثرة الرّحلات والتّنقلات الدّاخلية والخارجية: فقد ارتحل بعض الشعراء إلى مراكش وسواها من بلدان المغرب كتونس وبجاية³، وارتحل آخرون إلى بلدان المشرق و الحجاز⁴، وتحكّمت هذه البيئات الجديدة في طبيعة المنتوج الشعري.

ونج عن هذه المحفّزات ظُهور طائفة كبيرة من الشعراء الذين نظموا في مختلف الأغراض⁵ فخلّفوا دواوين تشهد ببراعتهم ومن بينها: ديوان شعر ابن قسّوم (-639هـ) الذي قرأ عليه الرعيبي وقد خطّه بيده، ورتبه على حروف المعجم⁶، كما اطّلع على شعر "ابن مرج الكحل"⁷ عندما كان كان ملازماً له في قرطبة⁸، ووقف ابن عبد الملك المراكشي على شعر "ابن حريق" (-622هـ)⁹ في

¹ - ينظر الغصون اليبانة، ابن سعيد، ص: 100.

² - ينظر عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ص: 165.

³ - من الشعراء ابن الأبار الذي نظم شعرا في الاستصراخ، ينظر ديوانه، ص: 409.

⁴ - ينظر الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تأليف أبي عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الملك، الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، ط1، 1973م السفر 5، ص: 615.

⁵ - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 493-494.

⁶ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 93.

⁷ - هو عبد الله بن إدريس الجزيري يكنى أبا عبد الله كان شاعرا مغلقا بديع التوليد والتجويد وقد حمل عنه ديوان شعره، ينظر ترجمته في التكملة، ابن الأبار، ج2، ص: 136، للاطلاع على شعره ينظر زاد المسافر وغرة حيا الأدب السافر، أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي" يشتمل على أشعار الأندلسيين من عصر الدولة الموحدية، اعتنى بنشره وتخليده والتعليق عليه: عبد القادر محداد، دط، لبنان، ص: 27-28.

⁸ - ينظر المرجع نفسه، ص: 209.

⁹ - علي بن محمد بن أحمد بن حريق المخزومي البلسي شاعر الفحل المستفحل في الأدب واللغات له " الرسالة الفريدة والأملوحة المفيدة" وقصائد غزلية" عارض بها "مقصورة ابن دريد" كان نزيها فكّها لم يتدنس شعره بمجاء أحد، ولد سنة 551هـ، ينظر التكملة لكتاب الصلة، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلسي ابن الأبار، تحقيق الدكتور عبد السلام المراس، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، دط، 1995م، ج3، ص: 233، ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 275-277، ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 22-27.

مجلدين ضخمين¹، وديوان "ابن جبير" (-614هـ) الذي خصص قسماً منه لثناء زوجته سمّاه "نتيجة وجد الجوانح، في تأبين القرين الصّالح"² وجزءاً آخر سمّاه "نظم الجمان في التشكي من إخوان الزّمان"³، وكان شعر "أبو بكر بن يخلفتن" مُدوّناً على عهدهم وكثيراً⁴، كما رُوي لأبي عمرو بن بن خبّازة مدائح في "أبي العلاء بن المنصور" بلغت ثلاثة مجلدات ضخمة⁵، ومن دواوين الحكام: سفر شعر للمرتضى⁶، وديوان لأبي الرّبيع سليمان الموحد غير أنّ مصير أغلب هذه الدواوين آل إلى الضياع ولحسن الحظ فقد استطاعت بعض المؤلفات الأدبية؛ سواء المدوّنة على هذا العهد، أو في فترات لاحقة الاحتفاظ بجزء هامّ من إنتاجهم الشعري، كما جمعت بعض الكتب المتأخرة شتات هذا الأدب مثل: "خريدة القصر وجريدة العصر" للعماد الأصفهاني الذي أورد ديوان "أبي الصلت" مرتّباً على حروف المعجم⁷، وقد ضاعت بعض المؤلفات التي عُيّنت بالشعر مثل: كتاب "صفوة الأدب وديوان العرب" الذي أهداه الجراوي للمنصور الموحد، وقد جمع فيه الشعر الجيّد على شاكلة كتاب "الحماسة" عند المشاركة⁸.

وشهد الشعر تذبذباً إبّان ضعف الدّولة؛ فهاجر العديد من الشعراء - ولا سيّما الأندلسيين منهم - إلى بلدان أخرى طلباً للرزق، وبخاصة في أواخر عمر الدولة الموحدية، وقد عبّر بعضهم عن نقمتهم على الوضع المزري الذي بلغوه مثل: ابن حبوس الذي نظم أبياتاً تعكس مرارة الخيبة التي ميّ بها بعض الشعراء فأقبل يذمّ الشعر، وهذا قد يدلّ على أنّ إكرام الشعراء وتقريبهم كان مُقتَرناً

¹ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 275.

² - ينظر رحلة ابن جبير ، ابن جبير، ص: 5-6

³ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 608.

⁴ - ينظر المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص: 133

⁵ - ينظر الذيل والتكملة لكتّابي الموصول والصّلة، تأليف أبي عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الملك، الأنصاري الأوسي المراكشي، تقدم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، السّفر 8، ص: 389.

⁶ - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى ، ص: 583

⁷ - ينظر خريدة القصر، الأصفهاني ، ج1، ص: 189-263.

⁸ - ينظر وفيات الأعيان، ابن خلّكان، المجلد 7، ص: 12.

بضروف معيّنة؛ فعلاقتهم مع الحكام كانت بين مدّ وجزر ولا سيّما الشعر التّكسي منه ، وهو ما دفع ببعض الشعراء إلى البحث عن مهن أخرى؛ مثلما فعل الجزار السرقسطي حيث يقول :

تَرَكْتُ الشُّعْرَ مِنْ عَدَمِ الإِصَابَةِ وَغَدْتُ إِلَى التَّجَارَةِ وَالْقِصَابَةِ¹
فابن الجزار قرّر العودة إلى التّجارة وممارسة المهنة التي كان عليها أبوه لأنّ ذلك أجدى له من انتظار فرصة لنيل قوته قد يطول أمدها، وقد لا تكفي حاجته.

ومهما يكن من أحوال الشعراء فإنهم حاولوا أن يعبروا عن انفعالاتهم بغضّ النظر عن طبيعتها، وسنحاول في هذا الفصل التّطرق إلى أهمّ الأغراض والفنون الشعرية التي شاعت على عهد الموحدين للوقوف على أبرز المميزات التي طبعت شعر هذه الفترة .

(1) - الغزل :

ازدهر الغزل بنوعيه؛ العفيف والماجن لتوفر دواعيه من سحر طبيعة، وترف عيش، وذيوع مجالس اللّهو والطرب، وانتشار للجواري والقيان، فضلا عن نفسية الفرد الأندلسي ذو الحسّ المرهف وإقباله على الحياة، وعدم اكتفائه بمعشوقة واحدة وإعلانه ذلك صراحة²، وقد عرف هذا العصر ظهور موجة غناء قويّة أثرت في شعر الغزل، وشجّعت على ازدهار الموشحات؛ ومن بين الشعراء الذين غنّوا شعرهم على العود أبو إسحاق إبراهيم بن أيوب المرسي³، وقد أخذ بعض الشعراء الغزل العذري منهجا في الشعر وصرّحوا به مثل أبي الحسن بن مطرف⁴ .

¹ - زاد المسافر، التّجبي، ص: 98.

² - ينظر شعر الأطباء في الأندلس في القرن السادس الهجري "دراسة تحليلية نقدية" لسليبي محمد محمود نوفل، تحت إشراف أ.د. وائل أبو صالح، أطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، فلسطين 2009م، ص: 13.

³ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 305.

⁴ - ينظر زاد المسافر، التّجبي، ص: 106 .

ونالت المرأة حرية كبيرة أتاحت لها التعبير عن مشاعرها بصراحة بلغت حدّ الجراءة، وتعدّ حفصة بنت الحجاج الركونية نموذجاً للمرأة العاشقة لحبيبها أبي جعفر بن سعيد وقد دفعها هواه إلى التصريح بحبه دون شعور بالحرج، وبخاصّة أنّ كليهما شاعر، وها هي في هذه الأبيات تدعوه¹ إلى موعد وصال وقد مزجته بالشوق:

أُرْوَرُكَ أُمُّ تَزُورُ فَإِنَّ قَلْبِي إِلَى مَا تَشْتَهِي أَبَدًا يَمِيلُ
فَتَغْرِي مُرورًا عَذْبُ زُلَالٍ وَفَرُغُ دُؤَابِي ظِلُّ ظَلِيلٍ
وَقَدْ أَمَلْتُ أَنْ تَظْمَأَ وَتَضْحَى إِذَا وَاقَى إِلَيْكَ بِي الْمَقِيلُ
فَعَجَّلَ بِالْجَوَابِ فَمَا جَمِيلٌ إِبَاؤُكَ عَنِ بُشَيْنَةَ يَا جَمِيلُ²

تُعتبر هذه الأبيات نموذجاً حقيقياً لجرأة المرأة بحيث كانت هي المبادرة للبوح بحبها دون حجل، وهو أمر عرفته بلاد المغرب على الأقل في جزيرة الأندلس، وحفصة تحير حبيبها بين أن تبادر هي بالزيارة أم أن تترك الأمر له، ثم إنّها لا تجد حرجاً في إعلان شوقها الكبير له، والذي قد يفوق ما يكتنه لها، ثمّ تأخذ في تعداد مفاتها لإغوائه، وختمت كلامها باستعجاله في الرد عليها، وقد كتبت عن اسميهما؛ بجميل وبشينة الذين يعتبران رمزاً للحب العذري التقى عند العرب.

وكانت المواعدة بينهما تكون بإرسائل قصائد شعر تسيل عذوبة ورقة، وحدث مرّة أن تماطلت

حفصة في قبول دعواته للقائها فبعث لها برسالة عتاب وقد صاغها شعراً جاء في مطلعها:

يَـمَـنْ أَجَازِـبُ دِكْـرِ اسْمِ مِـمَّهِ وَحَسْبِي عَلامَةٌ³
فقد استعاض أبو جعفر عن ذكر اسم حفصة بعلامة أو كناية تنوب عن التصريح به في رسالته، وقد بثها شوقه لخليلته لطول نأيها، ومبالغتها في تيهها ودلالها عليه حتى نال منه اليأس لكن

¹ - للاطلاع على قصة حب حفصة الركونية، ينظر الشعرالنسوي الأندلسي "أغراضه وخصائصه الفنية" سعد بوفلاحة، ديوان المطبوعات الجامعية،

الجزائر، دط، دت، ص: 157-176.

² - نفع الطيب، المقرئ، ج4، ص: 178.

³ - المصدر نفسه، ص: 173.

دون جدوى¹، فنظمت بدورها قصيدة على القافية نفسها تلومه على تدمره من حبه لها، ومما جاء في آخرها:

لَوُكُنْتُ تَعْرِفُ عُذْرِي كَفَقْتُ عَزْبَ الْمَلَأْمَةِ²

فلا شك في أنّ عذرها الذي حال دون لقاءها كان قاهراً، وهو حراسة الأمير الشديدة عليها، وقد استعانت الشاعرة بالطبيعة في غزلها حيث اعتبرتها غريمتها في حبها لابن سعيد إذ تقول:

لَعَمْرُكَ مَا سُرَّ الرَّيَاضُ بِوَصْلِنَا وَلَكِنَّهُ أَبْدَى لَنَا الْغِلَّ وَالْحَسَدَ
وَلَا صَفَّقَ التَّهْرُازِيَّاحاً لِقُرْبِنَا وَلَا صَدَحَ الْقُمْرِيُّ إِلَّا بِمَا وَجَدَ
فَلَا تُحْسِنِ الظَّنَّ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ فَمَا هُوَ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ بِالرَّشَدِ
فَمَا خِلْتُ الْأَفَقَ الَّذِي خَلَا بِجُومِهِ لِأَمْرِ سِوَى كَيْمَا تَكُونُ لَنَا بِالرَّصَدِ³

فكلّ الضروف كانت تترصّد هذا الحب؛ ومنها الخوف من الحراسة الشديدة التي فرضها عليها أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن الذي كان يحبها هو الآخر⁴، فكان ذلك دافعا في تأجيلها لِقائه، فقد كان هذان العاشقان كغيرهما يخافان من نظرات العذول التي كانت تلاحقهم في كلّ مكان ومعها الشائعات التي تحاك حولهم لذلك كانا يستتران عند اللقاء كغيرهم من العشاق حيث تلثمت النساء منهم⁵، كما اتخذوا علامات يعرفون بفضلها بعضهم بعضا بدلاً من التصريح بأسمائهم. وعلى النقيض من ذلك فإنّ بعض العشاق لم يأجوا بما سمعوه من لائمهم إذ لم يؤثر ذلك على حبهم في

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 173.

² - المصدر نفسه، ص: 174.

³ - المصدر نفسه، ج3، ص: 218.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ج4، ص: 177.

⁵ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 173.

شيء مثل ابن مجبر الذي لم يكن يُعير كلامهم سمعاً لأنّه مشغول فيما ابتلي به من الوجد الذي صار مطبوعاً عليه منذ أمدٍ بعيد¹.

ولم يكن الخوف من الشائعات وحده ما يكدر صفو العشاق؛ فقد كان لنأي الديار سلطان عظيم عليهم؛ حيث صوّر ابن حريق جذوة الحب المتوهّجة في أعماقه حين عاقه البعد عن لقاء محبوبته، وهي من حسنات شعره حيث قال:

يَا وَيْحَ مَنْ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ثَوَى حَلَفَ النَّوَى وَحَبِيْبُهُ بِالْمَشْرِقِ
لَوْلَا الْحِذَاؤُ عَلَى الْوَرَى لَمَلَأْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ زَفِيرٍ مُحْرِقِ
وَسَكَبْتُ دَمْعِي ثُمَّ قُلْتُ لِسَاكِهِ مَنْ لَمْ يَدْبُ مِنْ زَفْرَةٍ فَلْيَغْرِقِ
لَكِنْ خَشِيْتُ عِقَابَ رَبِّي إِنْ أَنَا أَحْرَقْتُ أَوْ أَعْرَفْتُ مَنْ لَمْ أَخْلُقِ²

فالشاعر يبتّ نار شوقه وحنينه المضطرب ولا يجد منه خلاصاً؛ لنأي وطنه عن محبوبته، فلولا الخوف على أرواح الناس لأحرق بزفيره الأخضر واليابس الذي يُحول بينهما، أو أغرق بفيض دموعه كلّ ما يمنع وصالهما.

ويعدّ أبو الرّبيع سليمان الموحّد أحد الشعراء المبرزين في الغزل على هذا العهد، وقد نحا منحى "مهيار الديلمي" في كثير من قصائده³ كما وصف المرأة تضيفاً حسياً وبلغّة مباشرة، وعندما أسرته مفاتنها التفت إلى الطّبيعة مستعينا بمكوّناتها لتصوير جمال محبوبته⁴ الذي جاء على شكل لوحة فنّية تمازجت عناصرها لترسم مشهداً يأسر الناظرين، وقد نجده يصف جمال جسمها بشكل مُجمل كما في قوله:

¹ - ينظر زاد المسافر، التحيي، ص: 13.

² - نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 410.

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين "مقاربة لفنونه وخصائصه في الفترة الأولى"، محمد محي الدين، رسالة للحصول على شهادة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة تلمسان، 2008م، ص: 57.

⁴ - ينظر الصورة الشعريّة في ديوان أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد، مدكّرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري القديم، إعداد الطالب رابع محوي، تحت إشراف د. عبد الرحمن تير ماسين، جامعة خيضر بسكرة، الموسم الجامعي 2008-2009م، ص 48-56.

وَقَدْ غَرَسَتْ كَفُّ الْجَمَالِ بِخَدِّهِ رِيَاضاً سَقَاهُ الْحُسْنُ صَوْبَ عَمَامِهِ
 غَزَالٌ رَحِيمٌ لَمْ يَدُقْ طَعْمَ دَا الْهَوَى فَيَا شَدَّ مَا أَلْقَاهُ عِنْدَ كَلَامِهِ!¹
 لقد اعتبر الشاعر محبوبته جنة بكل ما تحويه من رياض ومشمومات وغزلان، وما تُحدثه في
 النفس من فتنة وإعجاب يأسر من يراها، ولعل أكثر ما شدّه فيها خدّاهما اللتان تضارع حمرتهما
 الورود، وقدّها الذي يحاكي قدّ الغزال رشاقة وحسنا، وقد اعتمد على صُور من الطبيعة متداولة لدى
 الشعراء المتقدمين مثما نبّه إليه إبراهيم قادة في قوله: « فجعل اللؤلؤ موازيا للدموع والنجس مقابلا
 للعين، والورد للحدود، أما العنّاب فلأطراف الأصابع، وأما البرد فللأسنان، وأعتقد أنّ كلّ ذواق
 يُحس بما يمكن أن تثيره هذه الصورة في النفس من ألوان المشاعر »² وهذه الصور تجعلنا نلامس نفس
 الشاعر الرقيقة.

إذن، بدا تأثر الشعراء بالطبيعة واضحا في تغزّلهم؛ فاستعاروا أوصافها التي توحى بالركة واللين
 والجمال كقول القاضي أبي حفص بن عمرو القرطبي (-603هـ)³ في أبيات اعتبرها ابن سعيد "من
 كنوز المعاني":

هُم نَظَرُوا لَوَاحِظَهَا فَهَامُوا وَتَشَرَّبُ لُبَّ شَارِبِهَا الْمَدَامُ
 يَخَافُ النَّاسُ مُقْلَتَهَا سِوَاهَا أَيُّدَعِرُ قَلْبُ حَامِلِهَا الْحَسَامُ
 سَمَّا طَرَفِي إِلَيْهَا وَهُوَ بَاكِ وَتَحْتِ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ الْعَمَامُ
 وَأَذْكَرُ قَدَّهَا فَأَنْوُحُ وَجَدًّا عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْتَدِبُ الْحَمَامُ
 وَأَعْقَبَ بَيْنَهَا فِي الصَّدْرِ عَمَّا إِذَا غَرَبَتْ دُكَاءُ أَتَى الظَّلَامُ¹

¹ - ديوان أبي الربيع سليمان الموحد، أبو الربيع سليمان الموحد، ص: 103.

² - صورة المرأة في الشعر المغربي حتى نهاية القرن الثامن الهجري، إعداد الطالب إبراهيم قادة، إشراف الدكتور عبد الحميد بن صخرية، مذكرة مقدمة لنيل
 شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2008-2009، ص 191، نقلا عن الأدب وفنونه
 ندراسة ونقد، دار الفكر العربي القاهرة، مصر، ط 8، سنة 2004، ص 81.

³ - هو القاضي الأديب أبو حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السلمي القاضي من أهل فاس كان فقيها علامة بارعا في
 الأدب عرف بظرفه وعدله ولي قضاء إشبيلية واشتهر بكثرة غزله حتى شكى به إلى المنصور، ينظر، الغصون البانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، أبو
 الحسن علي بن موسى ابن سعيد، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، ط، دت، ج 2، ص: 91-92.

وقد استعان الشاعر في هذه الأبيات بتأثير الخمرة على العقل ليعبر عن ردة فعله من شدة جمال محبوبته، كما اتكأ على الطبيعة ليبرز مواضع الحسن فيها من سحر طرف، وإشراقه وجه تضارع شمس الصباح، ولين قد يحاكي انثناء الأغصان، وغيرها من الأوصاف المتداولة في شعرهم².

ولم يكن الشعراء على قدر واحد من الانسياق خلف أهوائهم؛ ففي الوقت الذي تدلّل فيه العديد منهم لصاحباتهم³، جنح بعضهم الآخر إلى العفاف عن الوصال⁴ واكتفى بتصوير مفاتن محبوباتهم التي شغلت فكرهم⁵، بل إنّ منهم من كبحه حياؤه أو كبرياؤه عن البوح بحبه مثلما فعل أبو الحسن جعفر بن إبراهيم⁶، فيما استسلمت فئة أخرى إلى العبث والمجون وفق ما حملته أشعارهم من معان حسية تحدى الحياء؛ كوصف ابن سعيد لإحدى مغامراته العاطفية⁷.

وشهد هذا العصر دخول مصطلحات من اللغة والتصوّف إلى الغزل⁸ مثل قول ابن الجنان

الشاطبي:

أَحْبَابَنَا وَدَعَّيْتُمْ نَاطِرِي وَأَنْتُمْ بَيْنَ ظُلُوعِي نُزُولُ
حَلَلْتُمْ قَلْبِي وَهَوَالِي يَقُولُ فِي دِينِ الْهَوَى بِالْحُلُولِ⁹

فالشاعر يؤكد لمحبوبته أن صورتها لا تفارقه حتى عند غيابها عن نظريه لأنها سكنت قلبه وملكته، وهو من الذين يرون بالحلول، وهذا المصطلح صوفي معناه أن الله تعالى يحلّ في عبده

¹ - نوح الطيب، المقرئ، ج3، ص:209، الغصون الياقة، ابن سعيد، ص:93، وقد نسبت الأبيات للقاضي الأغماتي مع تباين في صياغة الأبيات، ينظر الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي عند فقهاء المغرب العربي " دراسة تحليلية نقدية"، محمد مرتاض، دار الأوطان، الجزائر، دط، 2009م، ج2، ص:875.

² - ينظر نوح الطيب، المقرئ، ج4، ص:88.

³ - ينظر الغصون الياقة، ابن سعيد، ص:53.

⁴ - ينظر المقتضب، ابن الأبار، ص:84، ينظر المعجب، المراكشي، ص:173.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص:44.

⁶ - ينظر خريدة القصر، الأصفهاني، ج1، ص:139.

⁷ - ينظر نوح الطيب، المقرئ، ج2، ص:265.

⁸ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص:117.

⁹ - المصدر نفسه، ص:122.

فَيَتَّحِدَانِ بِمِثِّ يَصْبِحُ الْكَلُّ (الله) وَالْجِزْءُ (العبد) ذَاتَا وَاحِدَةً؛ فَكَذَلِكَ الْحَالُ مَعَ شَاعِرِنَا وَخَلِيلَتِهِ بِمِثِّ لَا يَفْصِلُ بَيْنَ ذَاتَيْهِمَا شَيْءٌ لِأَنَّهُمَا فِي الْأَصْلِ وَاحِدٌ، وَمِنْ أَمْثَلَةِ التَّأَثُّرِ بِمِصْطَلِحَاتِ اللُّغَةِ قَوْلُ أَبِي الْمَطْرَفِ بْنِ عَمِيرَةَ الْمُخْزُومِيِّ (-658هـ)¹:

كَيْفَ اللَّقَاءُ وَفَعْلٌ وَعَدِكَ سَيِّئُهُ أَبَدًا تُخْلِصُهُ لِلاِسْتِيقْبَالِ²

يشتكى ابن عميرة من كثرة وعود صاحبه بلقائه ثم إخلافها لذلك، فلفرط تأجيلها لقاءه وتمنيته به أصبح استحالة لقاءهما أمراً مسلماً به كالتسليم بالقاعدة النحوية بأن حرف السين عندما يسبق الفعل المضارع فيصبح معناه يفيد الاستقبال دائماً.

ولم ييئ الشعراء وجدهم وعشقتهم للنساء وحدهنّ؛ فقد حظي الغلمان على هذا العهد بقدر لا يستهان به من الإعجاب بل الهيام حتى صار آفة لدى شعراء هذا العصر؛ فما من واحد منهم إلا وله بيت أو بيتان في شباب وسيم، أو تلميذ، أو صبي من أبناء بعض النبلاء الذين جرفتهم حياة اللهو والعريضة³، وكانوا في العادة من أهل الكتاب⁴، وكان المؤدّبون أكثر تورطاً في تلك العلاقات الشاذة.

وتباينت أسباب التغزل بالغلمان؛ بين الانحراف الخُلقي، أو البحث عن وسيلة جديدة للمتعة⁵، أو محاولة من بعضهم لإظهار البراعة والقدرة الفنيّة في هذا المجال، ويعدّ الشاعران الظريف⁶،

¹ - هو أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي من مدينة بلنسية ولد سنة 580هـ، وقد أسهب المقرئ في الثناء عليه وذكر أخباره، ومما جاء في سيرته قوله: «نكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها، وشمسها التي أخفت ثواب كواكبها حين أبدعها، مبدع البدائع التي لم يحظ بها قبله إنسان، ولا ينطق عن تلاوتها لسان؛ إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة، وروية بدر العلم فصيحة»، أخذ العلم عن مشايخ الأندلس ومال إلى الحديث والرواية لهُل مؤلفات عديدة من بينها "التببيها على ما في البيان من تمويهات" وله وعظ لا يجارى، ورسائل خاطب بها ملوك الموحدين والحفصيين، ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 313-315.

² - المصدر نفسه، ص: 315.

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 118.

⁴ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 325.

⁵ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 80-84.

الظريف¹، وابن الفراء²، نموذجين للمؤدبين المتغزلين بتلامذتهم؛ ويروى أنّ هذا الأخير كان يدرّس صبيّاً اسمه حسن فسأله: كيف تقول إذا تعجبت من حسنك؟ قال: ما أحسنّي!، وكان كثيراً ما يخطيء في النطق إذا طلب منه القراءة، فقال فيه:

يَا حُسْنَهُ إِذْ قَالَ مَا أَحْسَنِي وَيَا لِدَاكَ اللَّفْظِ مَا أَعْدَبَهُ!
فَفَوْقَ السَّوْقِ السَّهْمِ وَمَ يَخْطِينِي وَإِذْ رَأَيْتَنِي مَيِّتاً أَعْجَبَهُ
وَقَالَ كَمْ عَاشَ؟، وَكَمْ حَبَّبَنِي؟ وَحُبُّهُ إِيَّايَ قَدْ عَدَّبَهُ
يَرْحُمُهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْنِي قَتَلَنِي لَهُ لَمْ أَدْرِ مَا أَوْجَبَهُ!³

لقد استعذب ابن الفراء طريقة نطق تلميذه لاسمه على الرغم من خطئه، فكأنما كانت كلماته سهاماً أودت بقلبه، وهو هادئ جاهل بما صنع في معلّمه، ويستدرك في البيت الأخير على عبارة "يرحمه الله" بأنّ القصد هو الدّعاء له بطول العمر وليس الدّعاء عليه.

ومن الشعراء الذين تغزّلوا بالغلّمان صفوان بن إدريس التجيبي (-598هـ)⁴ الذي أعجب برقص أحدهم في إحدى ليالي الأنس التي حضرها، فجاء في بعض غزله قوله:

يَا حُسْنَهُ وَالْحُسْنَ بَعْضُ صِفَاتِهِ وَالسَّحْرُ مَقْصُورٌ عَلَى حَرَكَاتِهِ
بَدراً لَوْ أَنَّ الْبَدْرَ قِيلَ لَهُ اقْتَرِحْ أَمْلاً لَقَالَ أَكُونُ مِنْ هَالَاتِهِ

لقد كان هذا الغلام في غاية الجمال والحسن، إذ أنّه يسحر بطرفه كلّ من رآه، فقد ضارع بهاء وجهه منظر بدر التمام، ويحاول تقريب شدّة حسنه فيقول:

¹ - ينظر الغصون اليانعة، ابن سعيد، ص: 54.

² - هو الخطيب الأديب النحوي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الفراء الضرير كان يعلم القرآن والنحو واللغة بألمرية، وكان شاعراً معروفاً بفظنته وذكائه الفائقين، ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 386.

³ - نفع الطيب، المقرئ، ص: 386، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 120.

⁴ - هو صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن عيسى الإدريسي التجيبي المرسى أبو بحر الأديب الحسيب، كان سريع البديهة، مليح العشرة، طيب النفس، تساوى حظه في النشر والنظم، له توالييف عديدة منها "زادامسافر وغرة محيا الأدب المسافر، و"العجالة"، وانفرد في تأبين الحسين وبكاء آل البيت، ولد سنة 560هـ، ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 121.

وَإِذَا هِـلَالُ الأُفُقِ قَابَلَ وَجْهَهُ أَبْصَرَتْهُ كَالشَّخْصِ فِي مِرَاتِهِ¹
 ويجزم أبو بحر بأنّ جمال هذا الشاب يفوق أيّ نوع من الحسن الذي ألفناه لأنّه أتمّ وأكمل ،
 وهو لا يتردد في أن يجعله المورد الذي ينبغي أن تصدر منه أوصافه عند الحديث عن جمال الطبيعة لما
 له من فتوة، وحيوية، وجمال فاق الهلال في نُوره وُبُعد مناله، وقد يكون في هذا التشبيه المقلوب رغبةً
 في إظهار توارى محبوبه عن الأبصار إذا لا يُرى إلا نادرا .

وبلغت جرأة بعض الشعراء أنّ شغلهم محبّوهم عن الخشوع عند تأدية العبادات كتغزّل الوزير
 أبي محمد بن حامد بشاب صلّى بجانبه ففتته عنها²، وقد مزج بعض الشعراء وصف غلمانهم
 بالطرافة؛ ومن ذلك عند جلوسهم بين شيأين ضخمين كقول ابن جبير:

وَبَغْلِيَّةٍ مَاهَلًا مِثْلَ أَلِ يَرْكَبُهُ الْاَلْدُبُّ وَالْعَزَالُ
 كَأَنَّ هَذَا وَذَا عَلَيَّهَا سَحَابَةٌ خَلَفَهَا هِـلَالٌ³

ويعجب ابن جبير من شأن هذه البغلة التي جمعت على ظهرها بين دُبيّن مفترسين وشادن
 ضعيف، ثم يحاول أن يصوّر الفرق في الجمال بينهما فيشبههما بالسحابة الكثيفة التي تخبيء خلفها
 نُور الهلال وتحجبه.

وإذا كان الخال⁴، واللحظ⁵، والصدغ⁶، والجيد، والقَدّ، والرّدْف⁷، وغيرها من أبرز ما جذب
 الشعراء إلى أولئك الغلمان - الذين التبسّت أوصافهم بأوصاف الإناث - فإنّ هناك العديد من

¹ - زاد المسافر، التحجبي، ص:147، ينظر المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص:83. ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص:159.

² - ينظر زاد المسافر، التحجبي، ص:44.

³ - المصدر نفسه، ص:114.

⁴ - ينظر ديوان ابن سهل الأندلسي، دراسة وتحقيق: يسرى عبد الغني عبد الله، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، ط3،

2003م، ص:2، 33، 36.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص:29

⁶ - ينظر المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص:83

⁷ - ينظر الغصون البائعة، ابن سعيد، ج2، ص:93

الصفات التي جعلتهم ينقمون عليهم بسببها مثل: الألتحاء¹، وظهور العذار؛ كقول أبي بكر بن ملك في غلام خلع العذار:

كَانَ غَزَالًا فَعَادَ تَيْسًا وَبَدَّ مِنْ شُؤْمِهِ طُوَيْسًا
وَصِرْتُ لَأَرْضِ صِي هَوَاهُ مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُ فِيهِ قَيْسًا²

ويقارن أبو بكر بين علاقته بهذا الغلام قبل ظهور عذاره وبعدها؛ حيث أصبحت متردبة؛ فقد كان يحاكي الغزال حُسنًا وجمالاً جعل الشاعر يُفتن به ، ويُكثرُ التَّغزلَ به حتى ضارِعَ في ذلك قيس بن الملوِّح الذي كَلَّفَ بليلي، وأمسى بعد ظهور عذاره "أشأم من طويس" وفي هذا الأمر مدعاةً لنقمته حتى خَلَعَ هواهُ من قلبه.

ولعلَّ أشهر المتغزِّلين بالغلمان على هذا العهد ابن سهل الإسرائيلي(-649هـ)³ الذي خَلَّفَ ديوان شعر جاء أغلبه في فتى يهوديَّ اسمه موسى⁴، وقد حاول الشَّاعر كثيرًا أن يحدِّد السَّببَ الذي جعله يقع في حبه فاحتار في ذلك إذ يتعجَّب قائلاً:

أَيَا فِتْنَةً فِي صُورَةِ الْإِنْسِ صُوِّرَتْ وَيَا مُفْرَدًا فِي الْحُسْنِ غَادَرْتَنِي فَزْدًا!⁵

فلا يمكن أن يحصر ابن سهل سبب إعجابه بموسى في صفة أو خصلة واحدة لأنَّه خُلِقَ فِتْنَةً لِلنَّاطِرِينَ، إذ لا يمكن أن يَنازعه في حُسنه أحد من البشر، ويبدو أنَّه حاول نسيانه مرارًا لكنَّه فشل⁶

¹ - ينظر خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق: آذرناش آذرنوش، نقحه وزاد عليه: محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج

يحي، محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1986، ج2، ص140

² - زاد المسافر، التيجي، ص:34.

³ - هو ابراهيم بن سهل ولد في إشبيلية سنة 609هـ، عاش فيها عند حكم الموحدين ثم هاجر إلى سبتة بعد استيلاء الإسبان عليها، وقد اتصل بابن خلاص واليها حتى موته غرقاً معه، جاء شعره استجابة لعاطفته ووجدانه بعيداً عن التصنع ولا سيما غزلياته، وله موشحات كثيرة، وقد طعن في

صحة إسلامه الذي قيل إنه أعلنه من باب التقية، ينظر ديوان ابن سهل الإسرائيلي، ص: 5-7.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص:09.

⁵ - المرجع نفسه، ص:30.

⁶ - ينظر ابن سهل الأندلسي، ابن سهل الأندلسي، ص:35.

في ذلك، فمحاولة الابتعاد عنه هي سبب الجنون الذي غشيه وسيقوده حتماً إلى الانتحار، لذلك فإنه يفضل بأن يبقى عبداً لموسى ، وهو يصرح بذلك محاولة منه لإخراص كل الأفواه فيقول:

فَقَالُوا: هَلْ رَضِيتَ تَكُونُ عَبْدًا لَقَدْ عَرَضْتَ نَفْسَكَ لِلَّهِ وَإِنْ؟
فَقُلْتُ : نَعَمْ أَنَا عَبْدٌ ذَلِيلٌ لِمَنْ أَهْوَى فَخَلُونِي وَشَانِي¹

فابن سهل يرى في تذلُّله لموسى رفعةً وعِزًّا لأنه سينال بفضله رضاه، وقربه، وعلى الرغم من الحبِّ الجارف الذي ملك قلب ابن سهل إلا أنه لم يلجأ إلى الغزل الحسِّي الماجن وهذا من أهمِّ مميزات شعره، فضلاً عن الرقة والعدوبة التي طبعت شعره لأنه اجتمع فيه ذلُّ العشق وذلُّ اليهودية، بالرغم مما أبداه من إسلامه² الذي تأثر به من خلال توظيفه القصص القرآني حيث أكثر من ذكر قصص موسى (عليه السلام) نبيِّ الله وكيِّمُهم مع السامري، وفرعون، والسحرة³، وغيرها مما يؤكد اطلاعه على نصوصه.

وبعد النماذج التي عرضناها عن غرض الغزل على هذا العهد يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- شغلت الصُّورة البصريَّة حيِّزاً كبيراً في تشييب الشعراء بمحوبيهم؛ إذ كان لمواطن الجمال التي التقطتها حواسهم انعكاس على نتاجهم الشعري مما أدى إلى طغيان الصُّورة البصريَّة على شعر الغزل.

- رسم الشعراء ملاحاً واضحة لمحوباتهم سواء كانت حسية أو نفسية - وإن كانوا قد ركزوا على الشقِّ الأول بشكل كبير - وبدت المرأة في إنتاجاتهم عادةً جميلة الحيَّا، متناسقة الجسم، وحسنة القدِّ، تُولي عناية كبيرة لجميع أشكال الزينة لتزيد من جمالها ، كما كشفت أشعارهم عن بعدها النفسي؛ فهي مدللة، ومتمتعة، وكثيرة الصِّد، وقاسية في تعاملها مع الرِّجل وبخاصة المرأة المغربيَّة لبدائها، أمَّا

¹ - ديوان ابن سهل الأندلسي ، ابن سهل الأندلسي، ص: 76.

² - ينظر ديوان ابن سهل الأندلسي ، ابن سهل الأندلسي، ص: 09

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 84، 35، 56، 57.

الأندلسية؛ فقد كانت أكثر جرأة، وإن كانت كلتاها ترضخ في كثير من الأحيان لنداء مشاعرها فتعود لطلب الوصال.

- لجأ الشاعر إلى أوصاف الطبيعية لأنها أقرب إلى فطرته وخياله، والاستعانة بها لا يحتاج إلى جهد كبير في أعمال الفكر.

- احتذى بعض الشعراء بمدرسة الغزل العذري في المشرق، فيما أوغل بعضهم في المجون، وفضل فريق آخر الاعتصام بالعفة وكبح عواطفهم، وكان لطريقة مهيار الديلمي أثر على شعرهم.

- الاعتماد على المراسلات الشعرية المكتوبة التي نابت عن الحوار المباشر لخوفهم من الرقيب أو احتراماً لتقاليد المجتمع.

- الإكثار من التغزل بالغلما ن بغض النظر عن توجهات الشعراء الأخلاقية حتى يتهيأ للقارئ أن معايير الغزل قد انقلبت لصالح الرجال، وشعر ابن سهل في موسى خير دليل على ذلك، كما تشابهت أوصاف الغلمان بالنساء إلى حدّ الالتباس على المتلقي.

2- المدح:

عرف شعر المدح تذبذباً على عهد المرابطين نظراً لطبيعة حكّامه المتديّنة، والبعيدة عن الأبهة والشهرة، ولالتفاتهم إلى الجهاد، وهو ما جعل هذا الشعر مقصّوراً على الولاة والوجهاء وبخاصة على عهد يوسف بن تاشفين، بيد أن الأمر شهد انفراجاً مع قدوم خلفائه من بعده¹، ولم يلبث الوضع أن تغيّر مع قدوم الموحدين حيث شهد انتعاشاً لتوقّر دواعيه؛ فكان الخلفاء والحكام يتذوّقون الشعر ويتنافسون في استقطاب الشعراء الذين تخصّص بعضهم في المدح، ولا سيّما شعراء البلاط؛ ومن

¹ - ينظر الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين "عصر الطوائف الثاني" 510هـ-546هـ / 1116م-1151م، عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1988م، ص: 430-433.

بينهم: أبو العباس الجراوي¹، وابن جبوس²، وابن حربون، فضلا عن شعراء جوالين³ مثل ابن خروف⁴ فيما نظم البقية في هذا الغرض بتفاوت.

وتفاعل شعر المدح مع ظروف الحياة اليومية، وما يطرأ عليها؛ فقد نظمت بعض الأشعار بأمر من الخلفاء أنفسهم⁵ الذين كانوا ينقدون القصائد؛ سواء من حيث الافتتاح، أو الوزن، أو المضمون⁶، وبخاصة فيما يتعلق بحرص الدولة على توسيع رقعتها وتأمين أراضيها؛ حيث اقترن عادةً بالحث على الجهاد مثلما فعل ابن طفيل مع عرب إفريقية وقد نظر في مطلعته إلى لامية الشنفرى⁷:

أَقِيمُوا صُدُورَ الْحَيْلِ نَحْوَ الْمَعَارِبِ لِعَزْوِ الْأَعْيَادِي وَأَقْتِنَاءِ الرَّغَائِبِ⁸
وجاء هذا المطلع حماسياً يحث العرب على التجهز لحرب الغزاة في الأندلس مقابل نيل ما وعدهم به الخليفة من مكافآت وذخائر، ثم يتخلص إلى المدح، وقد خاطبهم ابن طفيل بالشعر بدلاً من النشر لأنه أشدّ وقعاً على النفس وبخاصة أنهم قدموا من جزيرة العرب بحيث يستثير الشعر

¹ - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 344، 345، 349.

² - هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن جبوس من فاس سنة 500هـ، شعره كثير ناهز ستة آلاف وخمسمائة بيت، وتوفي 570هـ، ينظر المطرب من أشعار اهل المغرب، ابن دحية ذي النسيين أبي الخطاب عمر بن حسن، تحقيق: إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع، لبنان، دط، دت، ص: 199-200

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين "مقاربة لفنونه وخصائصه في الفترة الأولى"، محمد محي الدين، رسالة للحصول على شهادة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة تلمسان، 2008م، ص: 110.

⁴ - هو أبو الحسن علي بن محمد بن خروف القرطبي ولد في غرناطة ونشأ في قرطبة ثم ارتحل إلى المشرق فطبّق ذكره في الآفاق وامتألت بحاسنه مسامع الشام والعراق، ثم استقر في حلب ومات غريقاً في جب ماء، ينظر الغصون البانعة، ابن سعيد، ج1، ص: 138-144، ينظر شعره، زاد المسافر، للتجبي، ص: 20-22

⁵ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 78

⁶ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 135

⁷ - قال الشنفرى:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمِ سَوَاكُم لَأُمِيلُ

ديوان الشنفرى عمرو بن مالك نحو 70 ق هـ، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، لبنان، ط2، 1999م، ص: 58

⁸ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 325.

عواطفهم بسهولة، وهو ما يدلّ على تفتّن الشعراء لنفسيّاتهم، وبالفعل نجحت مساعيه في إقناعهم، وما تجدر الإشارة إليه هو أنّ هناك أشعار عديدة قيلت على هذا العهد لاستنفار الهمم والحضّ على الجهاد¹.

وكان للفتوح² التي قام بها الموحدون دور كبير في إلهام الشعراء - وحتى الأمراء - وبخاصة عند عند فتح المهديّة؛ فقد روي لعبد المؤمن شعرٌ جميلٌ في فتحها و قد أمر بحفظه، وجاءت ردود أفعال أتباعه إزاء الانتصارات مشابهة لذلك لا سيّما عند تأمين تونس³، وكذا في النصر العظيم الذي كان في معركة الأرك الشهيرة⁴، ومن شعرهم ما نظمه أبو عبد الله الجياني مهنتاً عبد المؤمن عند دخوله مراكش، وقد تميّز بتوظيف التصريح في أوّله:

أَصَاةَتْ لَنَا الْأَيَّامُ وَأَتَّصَلَ النُّجُحُ وَكَانَ وُجُوهُ الدَّهْرِ مُسْوَدَّةً كُلِّحُ⁵
والشاعر في هذا البيت يقارن بين حال الموحدين قبل مجيء دعوتهم وبعدها أين كانوا في ظلام دامس بسبب الجهل والظلم والهوان، وأصبحت الحياة أسهل وأفضل بمجيئهم، وتفاعل عبد المؤمن بهذا البيت فزاد عليه قائلاً:

هُوَ الْفَتْحُ لَا يَجْلُوا غَرَائِبُهُ الشَّرْحُ أَصَابَ بَنِي التَّجْسِيمِ مِنْ بَاسَهُ الطَّرْحُ⁶

وهذا البيت يعكس سعادة عبد المؤمن، وفخره بإنجازته الذي تجلّى للمناوئين، وكان صفة قوية لأعدائه من المرابطين الذين وصمهم بالتجسيم والشرك، وهو شهادة حقيقية على مقدرة هذا الخليفة على ارتجال الشعر بفضل حضور ذهنه، وبراعته فيه حيث ضمّن هو الآخر البيت بتصريح.

¹ - ينظر البيان المغرب، ابن عذاري، ص: 153، 157.

² - ينظر ديوان أبي الربيع سليمان الموحّد، أبو الربيع سليمان الموحّد، ص: 20-22، 23-26.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 358، 356.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 251.

⁵ - الحلال الموشية، ابن الخطيب، ص: 119.

⁶ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وقد كان من عادة الشعراء أن يشاركوا في كل مناسبة تشهدها الحضرة بمراكش مثل: الأعياد¹، أو مراسم البيعة بالخلافة؛ من ذلك تراحمهم عند بيعة الخلفاء مثل: بيعة أبي يعقوب²، ومن الشعراء أبو الوليد اسماعيل بن عمر الشليبي الذي مدحه بقصيدة يقول في مطلعها:

عَهْدٌ أَنْارَ بِهِ الْهُدَى وَالْهُدَى وَالْهُدَى وَالْهُدَى
وَأَسْـَٔلُ بِتُظْهِرَ التَّأْيِيدُ وَالْتَّمَكِينُ
بُشْرَى لِلْخِلَافَةِ إِذْ تَقَلَّدَ عَهْدَهَا
الْبِرُّ التَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْمَيْمُونُ³

ويفهم من البيتين أنّ صفة التدين، وحسن الخلق كانتا شرطين مهمين في الخليفة، أو الإمام الذي سيكون عهده ميمونا ومباركا لأنه شجاع، وصاحب خبرة عسكرية كبيرة مثلما يتضح من شعره في موضع آخر⁴.

وتفاعل بعض الشعراء مع ما أصدرته حكومتهم من قرارات فلقي استحسان العامة مثل منع شرب الخمر وبيعها، أو عند تشييد صرح مثلما حدث في مهرجان الفتح - كما ذكرنا - الذي أكثروا فيه القصائد، وهو دليل حرصهم على تخليد إنجازاتهم. وتباينت دواعي المدح بين الاستجابة لمشاعر شخصية كالشوق⁵، أو الطمع في قضاء الحوائج⁶، أو اتقاء لشر الحكام⁷، أو تحريضا على تنفيذ أمر مثل القتل، أو بداعي التشفي في شخص بعينه، ويعدّ الخوف والاستعطاف⁸ أحد الأسباب الأسباب التي تدعو إلى هذا النوع من الشعر أيضا، ومن ذلك ما ذيلت به أسماء العامرية رسالتها إلى الأمير عبد المؤمن تسأله رفع الإنزال عن دارها في أبيات مدح؛ حيث اقترن النصر بعبد المؤمن،

¹ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 144

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 173، 177

³ - المصدر نفسه، ص: 171

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 172، 173.

⁵ - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى ص: 187، 162، 274، 285

⁶ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 255

⁷ - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ص: 139.

⁸ - ينظر المرجع نفسه، ص: 150، 149، 296.

وأصبح أمراً طبيعياً في عهده، فضلاً عن مناقب أخرى وإنجازات عديدة أنجزها هذا الرجل مُقتدياً بابن تومرت مثلما تشير إليه في قولها:

رَوَيْتُمْ عَلِمَهُ فَعَلَّمْتُمْ وَهُوَ وَصَّيْتُمْ عَنْهُ فَعَدَا مَصُونًا¹
غير أن بعض الشعراء مدحوا دون سبب مقنع مثل صنيع ابن حزمون في أبي الريح سليمان الموحّد وقد أمطرته سحابة². وقد تباينت مواقف الشعراء من المدح حيث اعتبره البعض واجباً لأنه دليل على طاعة الخليفة أو الإمام التي تعدّ عبادة كقول الجراوي:

مَدْحُ الْإِمَامِ عِبَادَةٌ تَرْجُو بِهَا عِزَّ الْحَيَاةِ وَأَنْ نَقُوزَ مَا بَا
مَا سَأَفَرْتُ أَذْهَانُنَا فِي مَدْحِهِ إِلَّا وَكَانَ هَا الْقُصُورُ إِيَابَا
لَمْ يَدْرِ حَقَّ مَقَامِهِ مَنْ لَا يَرَى مِنْ دُونِ حَقِّ مَقَامِهِ الْإِطْنَابَا³
ففي مدح الخليفة عبادة يرجو العبد بها التّقرب من الله (عزّ وجلّ)، وأعلن الشاعر قُصوره عن مجارة مناقب ممدوحه مهما أُنّب في القول، ولذلك نجد بعضهم يذيل المدحة بالاعتذار من الخليفة في حالة تقصيره⁴، والتكفير عن ذلك بالدعاء له بالتمكين كالأبيات التي ضمّن بها ابن عياش رسالة بمناسبة القضاء على (ابن مردنيش)⁵.

وقد فضّل بعض الشعراء التّأي بأَنفسهم عن التّكسب على غرار الرصافي البُلنسي⁶ على الرغم من المنزلة التي حظي بها لدى أمراء الموحدين؛ حيث يقول:

¹ - نفع الطيب، المقرئ، ج 4، ص: 292

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 216-217

³ - البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 299

⁴ - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 206

⁵ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 209 .

⁶ - محمد بن غالب الرّفاء البُلنسي، سكن مالقة ويكنى أبا عبد الله كان شاعر زمانه المعترف له بالإجادة مع العفاف والانقباض وعلو الهمة والتعيش من صناعة القرو، وكان شعره رقيقاً سلساً لأنه كان يسهر على تقرّضه وتجويده، خرج من وطنه صغيراً فكان كثير الحنين له، ينظر التكملة، ابن الأبار، ص: 36، ينظر المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص: 56-59، ينظر شعر الرصافي الرّفاء البُلنسي "دراسة موضوعية فنية"، خالد شكر محمود صالح الفراجي، رسالة من متطلبات الحصول على درجة الماجستير آداب في اللغة، جامعة ابن رشد، العراق، 2003م، ص: 11-19، ينظر

يَقُولُ أَنَسٌ: لَوْ رَفَعْتَ قَصِيدَةً لَأَدْرَكْتَ حَتْمًا فِي الزَّمَانِ بِهَا أَمْرًا
وَمِنْ دُونَ هَذَا غَيْرَةٌ جَاهِلِيَّةٌ وَإِنْ هِيَ لَمْ تُلْزَمْ فَفَقَدْ تُلْزَمُ الْحَرًّا
مَتَى أَرْسَلْتَ أَيْدِي الْمُلُوكِ هَبَاتِهِمْ وَمَ يُوصِلُوا جَاهًا وَمَ يُجْزِلُوا دُخْرًا¹

وجاءت هذه الأبيات جوابا من الرصافي على من نصحه بتوجيه شعره إلى الملوك إذا ما أراد نيل الجاه في الدنيا، وجاء رفضه لأنه يرى فيه مذلة لا تحملها نفسه؛ لما جُبل عليه من أنفة، وكبرياء، ودم المصانعة، فهو إن نال منهم جاهًا فإن يدفع مقابل ذلك مبادئه.

ولم يكن الجِدُّ هو السبيل الوحيد الذي نهجه الشعراء في مدائحهم؛ فقد مزجوها بالهزل كقول ابن خروف يستجدي خروفاً من بعض الرؤساء:

يَـأَمَنُ حَـوَى كُـلِّ مَجـدٍ بِجـدِّهِ وَجـدِّهِ
أَتَاكَ بَجْـلُ خَـرُوفٍ فَـأَمُنْ عَلَيَّهِ بِجـدِّهِ²

وقد استغلَّ ابن خروف كُنيتَه لِيَنال مآربه، وقد استعان بالفكاهة والحيلة فبعدما قام في البيت الأول بالثناء على نسب ممدوحه ورفعة مقامه انتقل لاستعطافه رابطا بين كنيته " ابن خروف " وطلبه خروفا، وإذا كانت الحيلة وسيلة هذا الشاعر فإن ابن حبوس قد بالغ في تعظيم عبد المؤمن في مهرجان الفتح، مستعينا بالتصريح في قوله:

أَلَا أَيُّهَا الْبَحْرُ جَاوَزَكَ الْبَحْرُ وَخَيِّمَ فِي أَرْجَائِكَ النَّفْعُ وَالضَّرُّ³

إنَّ صفة الكرم والسخاء من المعاني التقليدية التي تناولها الشعراء قديما، إلا أنه جعل ممدوحه رجلا مختلفا عن البشر؛ حيث جعل سعادة المرء وشقائه بيده مادام النَّفْعُ والضَّرُّ بأمره، وقد ذهب

الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، مراجعة وتعليق وتقديم: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، دط، دت، ج3، ص: 290-319.

¹ - المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص: 59.

² - نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 463.

³ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص: 294.

بعضهم لأبعد من ذلك عند إضفاء صفة القداسة على سادتهم حتى تتحوّل إلى غلّو مثل قول اسماعيل بن عبد الدائم في أبي سعيد بن عبد المؤمن والي غرناطة:

لَوْ تَسْتَجِيرُ صَلَاتَنَا وَصِيَامَنَا صَلَّى إِذَنْ كُلُّ الْأَنْامِ وَسَلَّمَ¹

لقد علّق الشاعر صحّة صلاته أو بطلانها على رضى الخليفة وعفوه، وفي ذلك تأليه للممدوح قد يجعل الشاعر في مرتبة الشرك لأنه جعل مساويا لله (عزّ وجلّ) في تقبّل الطّاعات أو رفضها من عباده.

وانجّمت قصيدة المديح إلى كلّ من له سلطة، أو جاه، أو علم بداية بابتن تومرت² ثمّ الخلفاء³، وشارك الأمراء في غرض المدح أيضا مثل: الأمير أبي الربيع سليمان الموحد والي بجاية الذي ضمّن ديوانه قصائد في ابن عمّه أبي يوسف المنصور⁴، كما وردت أشعار عديدة نظمت في أعيان الموحدين مثل: عائلة مدافع أمراء قابس⁵، وفي أولي المناصب الهامة مثل القضاة كقول علي بن الزيتوني في أحدهم:

نَهَاهُ عَنِ مَحَارِمِهِ نُهَاهُ وَقَرَّرَهُ مِنْ خَالِقِهِ تَقَاهُ
وَقَالَ اللَّهُ لَيْسَ لِسِوَايَ رَبُّ وَلَا شَرِيْعِي أَحَدٌ سِوَاهُ
هُوَ الْبِرُّ الْعَطُوفُ عَلَى الْبَرَائِيَا وَبِالْأَيْتَامِ يَرْحَمُ مَنْ أَتَاهُ⁶

¹ - المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص: 183.

² - ينظر نظم الجمان ، ابن القطان ، ص: 174، ينظر المعجب ، المراكشي، ص: 135-136.

³ - ينظر خريدة القصر، الأصفهاني، ج1، ص: 345-346.

⁴ - ينظر ديوان أبي الربيع سليمان الموحد، ص: 29-30، ينظر الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب ، محمد مرتاض ، ص: 849.

⁵ - ينظر خريدة القصر، الأصفهاني، ص: 125-126، 127.

⁶ - المرجع نفسه، ص: 181-182.

لقد كان هذا القاضي نموذجاً صالحاً لكل من تولى هذا المنصب؛ فهو رجلٌ عاقلٌ يعرف كيف يزن الأمور، وتقي؛ يراعي الله في كلِّ أحكامه ، فلا يجيد عن شريعته السَّمحة، وهو مع ذلك كلُّه رجلٌ رحيمٌ بالناسٍ مراعيٌ لأحوالهم عند إصدار أحكامه.

وقد يتخذ الشاعر في مدائحه منحى مختلفاً عن سائر شعراء هذا العهد عندما يمدح أعداءهم الصليبيين؛ مثل صنيع أبي إسحاق إبراهيم بن الفخار اليهودي في مدح (الأذفونش)¹، كما أثنى بعض الشعراء على معارضي سلطة الموحدين الذين تمردوا عليها مثل (ابن همشك)² و(ابن مردنيش) الذي تقدّم له الشاعر نفسه بمدح قدّم له بالغزل، فقال :

أَمْؤَمَلٌ عَيْرَ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ ذَاكَ ابْنُ سَعْدٍ، يَا مَدَائِحَ فَابْشِرِي
كَمْ جُبْتُمْ مِنْ أَطْهَرِ فِي أَطْهَرِ وَنَقَلْتُمْ مِنْ أَظْهَرِ فِي أَظْهَرِ
وَجَنَيْتُمْ ثَمَرَ الْفُتُوحِ بَرُوضَةٍ لِلرِّزْقِ تَنْبُتُ بِالرُّعَافِ الْمُقْرِ³

فقد علق ابن الفخار آماله (بابن مردنيش) واستبشر بلقائه، وبخاصة أنّ أميره قد نشأ فارساً قوياً ، ونال محبة أتباعه وتأييدهم، ويكفي ما أحرز من فتوح وانتصارات في المعارك التي تشهد على حنكته في الحروب .

وتباينت طرائق الشعراء في التقديم لقصائدهم بغية تحضير المدوح نفسياً وتشويقاً لإتمام القصيدة، وفق ما اقتضاه الموقف، فقد قدّموا لمدائحهم بالغزل⁴؛ ومن ذلك قول الأديب ابن المنخل الشلبي :

أَقْدُكِ أُمَّ غُصْنُ مِنَ الْبَانِ أَهْيَفُ وَحَلْظُكِ أُمَّ سَيْفٍ مِنَ الْهِنْدِ مُرْهَفُ⁵

¹ - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص:23، ينظر نفح الطيب، المقرئ، ج3، ص:528.

² - ينظر زاد المسافر ، التجيبي، ص:57.

³ - خريدة القصر ، الأصفهاني، ج2، ص:339.

⁴ - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى ، ص:146

⁵ - هو أبو محمد عبد الله بن أبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنخل المهري، من أهل شلب، ينظر المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار ، ص:69،

للاطلاع على شعره أكثر، ينظر زاد المسافر، التديبي، ص:87-88، ينظر ترجمته في نفح الطيب، المقرئ، ج4، ص:73.

لقد شبه الشاعر قد هذه المرأة بالغصن الذي يطاوع النسيم في حركاته، كما شبه لحظها بسيوف الهند التي اشتهرت بجودتها، وسرعة نفاذها إلى الجسم وكلاهما يوحيان بالفتنة، ثم ينتقل للمدح فيقول:

فَقَالُوا: أَعَزُّو؟ قُلْتُ: لِأَشَكَّ أَنَّهُ فَقَالُوا: فَمَنْ يَغْزُو الْعِدَى؟ قُلْتُ: يُوسُفُ¹

واستعان الشاعر بالحوار الذي رافقه الاستفهام ليدل على تعجب الناس من كثرة عزوات الخليفة أبي يعقوب، وتوالي انتصاراته على المشركين، التي أزهبت الأعداء، وأبهرت الناس في مشارق الأرض ومغارها.

وقد نجد في مطالع قصائدهم تقديمًا بالصلاة والسلام على النبي (عليه الصلاة والسلام) كقول ابن حربون بإيعاز من الخليفة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ مَدِينِي شَاسِعِ الْأَمَلِ وَنَاطِمِ الشَّمْلِ فِي سِلْكِ مِنَ الْجَدَلِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ يَشْفَعُهَا عَلَى الرَّسُولِ الَّذِي اسْتَوْقَى مَدَى الرُّسُلِ
عَلَى الَّذِي تَمَّتْ أَحْكَامُ مِلَّتِهِ مَكَارِمًا لَمْ تَكُنْ فِي سَالِفِ الْمَلَلِ
وَمِنْ رِضَاهُ عَنِ الْمَهْدِيِّ أَحْفَلُهُ كَمَا هَدَى بِسَنَاهُ أَرْشَادَ السُّبُلِ
ثُمَّ الدُّعَاءُ لِمَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا خَلِيفَةُ اللَّهِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِي²

لقد لقيت هذه القصيدة استحسان الخليفة، وجاءت على شاكلة مقدمات الرسائل الثرية؛ حيث استهلها بالحمدلة ثم الصلاة والسلام على الرسول الأمين (صلى الله عليه وسلم) الذي بُعث بآخر الرسائل الإلهية، وجاء متممًا لمكارم الأخلاق، وقد انتقل بعد ذلك إلى الثناء على المهدي محمد بن تومرت قائد دعوتهم، ثم خليفته عبد المؤمن مؤسس دولتهم، ليتخلص في الأخير إلى الثناء على ممدوحه الخليفة أبو يعقوب.

¹ - البيان المغرب، ابن عذاري، ص: 146.

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 280.

واستهلت بعض القصائد بالحديث عن سيرة ابن تومرت¹ دليلاً على وفائهم لمبادئه مثل قول أبي الحكم البلنسي في أبي يعقوب:

مُسَامِرِيٌّ وَخَيْرُ الْقَوْمِ مَسْئُولٌ² حَدَّثَ فَقَوْلُكَ مَسْمُوعٌ وَمَقْبُولٌ
حَدَّثَ فَإِنَّكَ قَدْ أَسْمَعْتَنَا حَسَنًا وَعَطَّرَ الْأَفْقُ ذَاكَ الْقَالَ وَالْقَيْلُ
أَلَسْتَ عَنْ سِيرِ الْمُهْدِيِّ تُخْبِرُنَا وَمَنْ عَنِ اللَّهِ نَبِيٍّ عَنْهُ جَبْرِيْلُ؟
وَعَنْ حَوَارِيهِ الْأَسْنَى وَعَنْ صَفْوَتِهِ وَسَيْفِهِ حِينَ سَيَّفِ الدِّينِ مَقْبُولٌ³

فقد جاء مطلع القصيدة على هيئة حوار بين شاعرٍ ورجلٍ عارفٍ بأحوال المهدي، ذلك الزعيم الذي عُرف بحُسن سيرته، وتقرّبه بأفعاله وروحانيّاته من الله (عزّ وجل)، وقد اصطفى لنفسه خير الرجال؛ وهو عبد المؤمن الذي سمّاه "الحواري" تشبيهاً له بأصحاب عيسى (عليه السلام) لأنّه رجل تقيّ نقيّ، صدّق دعوته وفداه، وتأسّى بخلاله في الدّودِ عن حياض الإسلام .

كما استهل بعض الشعراء قصائدهم بوصف رحلاتهم إلى ممدوحهم كصنيع ابن حربون:

بَحَشَّمْتُ هَوْلَ الْبَحْرِ فِي طَلَبِ الْبَحْرِ وَلَمْ أَشْكُ صَرْفَ الدَّهْرِ إِلَّا إِلَى الدَّهْرِ
فَقُلِ الدِّيَاجِي أَعْدِي أَوْ تَكْشَفِي فَهَذَا أَنَا قَدْ أَمْسَيْتُ فِي ذِمَّةِ الْبَدْرِ⁴

فالشاعر يصف ما تجشّمه في رحلته لبلوغ الخليفة الذي يطمع في أن يلقى من كرمه ما يعوّضه عن ذلك العناء، وبخاصة أنّ كرم ممدوحه قد ضارعه البحر سبعة، وأمّا وصفه بالدّهر فإنّه يقصد بذلك أنّ مناقب الخليفة التي تُروى عنه يصحّ نسبتها لشخص أسنّ وأطول عمراً كما أنّها ستُخلد ذكره حتى بعد رحيله، وقد كان لتوضيف التصريح في البيت الأوّل بين لفظيّ (البحر، الدّهر) أثر جميل في نفس المتلقي لما أحدثته من نغم.

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 101.

² - هكذا وجدت وفي الأصل "مسؤول".

³ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 422.

⁴ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 256.

وجاءت بعض المدائح في عقب الهجاء¹، وكثيرا ما وردت المدحة صرفةً وهي كثيرة وبخاصة ما جاءت على شكل مقطوعات² حيث يباشر الشاعر المدح³، ومن ذلك قول محمد التيفاشي:

مَا هَزَّ عِطْفِيهِ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ مَثَلِ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ⁴
وبرع التيفاشي في وصف عبد المؤمن الفارس وهو ثابت في المعركة، ويقاقل ببسالة لا يهاب شيئا، وقد استعان بالتصريح (الأسل، علي) لشد السامع، وهاهو ابن المنخل الشلي يثني على سيده عبد المؤمن الرجل السياسي في قوله:

تَمَنَّ الْخِلَافَةَ أَنْ جَلَّوَتْ صَبَاحَهَا وَمَدَدَتْ مِنْ نُورِ الْهُدَى أَوْصَاحَهَا
وَوَقَّزَتْ مِنْ حُسْنِ السِّيَاسَةِ حَظَّهَا فَحَمَيْتْ جَانِبَهَا وَرُشَّتْ جَنَاحَهَا⁵
وبهنيء ابن المنخل الخلافة بتوي عبد المؤمن زمامها؛ فعدت أيامها بيضا في عهده فهو الخليفة التقي النقي، ثم ينتقل ليصف عبد المؤمن الرجل السياسي الذي قادها إلى بر الأمان بفضل دهائه وحكمته موضفا التصريح في البيتين للتأثير في المتلقي. وقد أعجب الشعراء أيضا بأخلاق ومدوحهم فأثنوا عليها كقول ابن حربون:

وَمَنْ ارْتَقَى فِي سُلْمِ التَّقْوَى رَأَى زَهَرَ الْكَوَاكِبِ بِالْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ
أَلْقَتْ أَرْمَتَهَا إِلَى مَنْ هُمُّهُ فِي مَرْهَفٍ أَوْ مَصْحَفٍ أَوْ مَسْجِدٍ⁶
فقد سمى التقوى والزهد بمدوحه فوق الثريا؛ لأنه باع بريق الدنيا بنعيم الآخرة؛ وكان يُروِّح عن نفسه بالخروج للغزوات نُصرةً للحق، أو بتلاوة كتابه العزيز، أو بالانقطاع للتعبد والتقرب منه .

¹ - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 313.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 161.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 175.

⁴ - خريدة القصر، الأصفهاني، ج 1، ص: 128.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 173.

⁶ - البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 196.

هارون الرشيد مع البرامكة¹، أوقصة تشييد سيدنا إبراهيم (عليه السلام) للمقام، وقد اقتبسها ابن كسرين المالقي في قصيدة للسيد أبي إسحاق إبراهيم بن الأمير يوسف بن عبد المؤمن من قصيدة مطلعها:

قَسَمًا بِجَمِّصَ إِنَّهُ لَعَظِيمٌ فَهِيَ الْمَقَامُ وَأَنْتَ إِبْرَاهِيمُ²
تضمن هذا البيت أسلوبًا إنشائيًا وهو القسم والغرض منه التأكيد على صدق كلامه والمقصود بحمص مدينة إشبيلية لتشابه المدينتين التي تكفل برعايتها وتعميرها مثلما شيّد إبراهيم الخليل المقام بمكة المكرمة وتأذن للناس بالحج فكلاهما مقصد للتبرك.

وبعد هذه اللّحة المختصرة عن غرض المدح على عهد الموحدين، يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- تعدّ المدائح وثيقة تاريخية تشهد على إنجازات الموحدين، وتخلّد معاركهم التي عكست بطولاتهم الخالدة، وسياساتهم الرّاشدة، كما تؤكّد على كثرة الفتوح التي شهدها هذا العصر.
- أدّى هذا الشعر دورًا هامًا في تعبئة الناس للحرب بفضل مخاطبتهم حسب درجات وعيهم، وطبائعهم.
- صوّرت الأمدوحة صراع الدولة السياسي، والأفكار الجديدة التي تضمّنتها دعوتهم، وأوغلت بعض القصائد في المدح حتى أشربت الشرك.
- تأثّر الشعراء بأسلافهم المشاركة من خلال تضمين أبياتهم في الحماسة أو المدح.
- جاءت بعض المدائح مقدّمة بأغراض أخرى، فيما نُثر بعضها ضمن قصائد لأغراض أخرى.

¹ - ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ص: 206

² - نفع الطيب، المقرئ، ج، 3، ص: 993

- تعددت أسباب المدح بين موضوعية تمثلت في بيئة الشعراء، وأخرى ذاتية حرّكتها المحاباة ومصالح الشعراء الشخصيّة، لذلك يصعب الحكم عليها بصدق العاطفة، ولا سيّما ما كانت بغرض التّكسب.

- الاستعانة بالطّبيعة في أوصافهم، كما كان لثقافتهم الدّينية حضور كبير في آثارهم بفضل توظيف القصص القرآني، واستحضار أحداث من التراث، ولم يهملوا البعد العقائدي الذي تمثل في المهدي ابن تومرت الذي ظلوا مخلصين له في عهد القوّة مسايرة لأحكام الخلفاء.

- اعتماد الشعراء على أسلوب الحوار كثيرا في قصائدهم، وحرصهم على تجويد أشعارهم بسبب المنافسة الشّديدة، بالاعتماد على البديع ومن أهمّها التّصريح الذي أكثروا من توظيفه لشدّ المتلقي فضلا عن الجناس، فضلا عن البيان من خلال كثرة التشبيهات، أمّا أسلوبهم فقد زواج بين الأسلوبين الخبري عند تقرير الحقائق، أو وصف ممدوحهم، إلى جانب الأسلوب الإنشائي المتمثّل في الدّعاء، والاستفهام المراد به التعجب، وقد بدت استعانتهم بالمعجم الدّيني واضحة حيث استقوا منه ألفاظهم.

- التّركيز على تدوين الخلفاء وتأسيسهم بالخلال الفاضلة النّاتجة عن تربيتهم الدّينية، واقتداءهم بمهديّهم، كما مزجوا في مدحهم بين معانٍ تقليدية مثل التّغني بجود الممدوح، وعُلو شأنه وحُسن سيرته، وقوّته، وأخرى خاصّة كالتأكيد على مهدويّة ابن تومرت.

3- الوصف:

عاش المغرب في ظل حكم الموحدين مرحلة من الهدوء، والانفتاح على العلوم والثقافات، وشيوع حياة التّرف، فضلا عن سحر البلاد الذي حرّك مشاعر الشعراء؛ وأذكى قرائحهم؛ فأسرفت في وصف جماله، وارتبطت عادةً بمجالس الأُنس التي صاحبها الخمر والجواري، كما تجاوز الشعراء

مع المشاهدات التي عاينوها يومياً¹، فوصفوا الطبيعة بشقيها الساكن والمتحرك؛ فما من تفصيل رأوه في السماء أو الأرض إلا وحاولوا وصفه في شعرهم ، كما عرضوا في أشعارهم لفصول السنة؛ ففضلوا الربيع على البقية²، ومن ذلك تعيّن ابن الياسمين (-601هـ) بجماله كما نجد في شعرهم ذكراً لما يتخلّل هذه الفصول من تغيّرات في المناخ، وما ينتج عنها من مطر وتلج³، وتأثيرها على الأرض، كما وصفوا تعاقب الليل والنهار⁴، وما يطرأ عليهما من شروق وغروب⁵، فضلاً عن الأجرام السماوية⁶، والظواهر الفلكية؛ ومن ذلك قول ابن الأبار (-856هـ)⁷ في خسوف القمر:

نَظَرْتُ إِلَى الْبَدْرِ عِنْدَ الْخُسُوفِ وَقَدْ شِئِينَ مَنَظَرُهُ الْأَزْيُنُ
كَمَا سُفِرَتْ صَفْحَةٌ لِلْحَيِّبِ فَحَجَّجَبَهُ بِرُفْعِ أَدْغُنٍ⁸

فقد شان الخسوف منظر البدر الجميل، وشوّهه كتشويهه الحبر عند وقوع دواته على رسالة خطّها لحبيته فشين منظرها وغداً قبيحاً يسوء النفس لأنّها أفسدت متعة صياغة الكلام المنمّق لحبيته، فوجه الشبه هو الاستياء، وتكدّر الصّفو بعد سعادةٍ وسرور.

¹ - ينظر شعر الأطباء في الأندلس ، سلسيل محمد محمود نوفل ، ص : 62.

² - ينظر المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص: 64

³ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر 1، ص: 47 .

⁴ - ينظر نفع الطيب ، المقري، ج4، ص 192

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ج3، ص: 206

⁶ - ينظر ديوان ابن الأبار، أبو عبد الله محمّد بن الأبار القضاعي البلنسي، قراءة وتعليق عبد السلام الهزاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية، المغرب، دط، 1999م، ص: 344، 428

⁷ - أبو عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمان بن أحمد بن أبي بكر القضاعي، الشهير بابن الأبار، ولد ببلنسية سنة 575هـ ، وقد وصفه

الغبريني بالشيخ المحدث المقري، والأديب المجيد واللغوي الكاتب التاريخي، له مصنفات عديدة من بينها: " التكملة لكتاب الصلة" ، و"معجم شيوخ

ابن الأبار" و" إعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب" ، و" الحلة السيرة في أشعار الأمراء" وغيرها كثير ، ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 309-313،

ينظر نفع الطيب ، المقري، ج4، ص: 319-320، ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 11-20

⁸ - المرجع نفسه، ص: 344

ومن أمثلة ذلك أيضا ما رواه التجيبي عن محاورة شعرية دارت بينه وبين صديقه الوزير أبي محمد بن حامد في موضع يُدعى (مقنت)، وقد أعجبهما منظر ثمار تَهْرَمَا الرِّيح، فأنشأ أبو محمد قائلا:

وَسَـرْحَةَ كَـاللَّوَاءِ تَهْفُـو
بِعِطْفِهِـا هَبَّـهُ الرِّـيـاح
فَقُلْتُ: كَأَنَّ أَعْطَافَهَا سَقَمَتْهَا
كَفُّ التَّعَامَى كُـؤُوسَ رَاحِ
فَقَالَ: إِذَا انْتَاخَهَا النَّسِيمُ هَزَّتْ
أَعْطَافَهَا هَزَّةَ السَّـمَاحِ
فَقُلْتُ: كَأَنَّ أَعْصَاهَا كِرَامٌ
تُقَابِلُ الصَّيْفَ بِإِتْيَاحٍ¹

وتدل هذه المحاورة الشعرية على مقدرة الشعارين على الارتجال وبراعتهما في الوصف الذي لم يقتصر على ظاهر الأشياء بل غاص في كُنْهها وهو أمر شائع على عهدهم²، وجاءت لغة الأبيات سهلة، وسريعة الإيقاع تعكس أنسه وابتهاجه، وقد نُظمت على حرف التروي نفسه، وقد شبَّها اهتزاز أوراقها بشخص أماله السكر يمينا وشمالا، أو بمن يُذنب ثم يعود فيطلب الصَّحح، وقد وُقِّفا في توظيف هذه الصور التي اقتبسوها من الواقع.

ويندرج تحت هذا الباب ما تحتويه الأرض من تضاريس، وما تشتمل عليه من مدن، وقُرى وما تحتويه من جامد ومتحرك سواء في برّها؛ من جبال، وهضاب، وسهول، أو بحرّها وما يجري مجراه من وديان³ وأنهار وجداول⁴، فضلا عن المدن⁵ وما اشتملت عليه؛ من أحياء سواء كانت نباتات أم حيوانات أو بشرًا، وقد نالت المشمومات حيِّزا كبيرا في وصف الطبيعة؛ ومن أهمها الرِّياحين والأزهار

¹ - زاد المسافر، التجيبي، ص: 143

² - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج4، ص: 197-198.

³ - ينظر تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص: 661.

⁴ - ينظر ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 295

⁵ - ينظر المقتضب من تحفة القادِم، ابن الأبار، ص: 104

نظرا لكثرتها كالياسمين¹، والتارنج²، والورود³، وقد فضل ابن الأبار زهرة السوسن عن سواها بدليل أنه وصفها في مواضع عديدة من ديوانه⁴، ومن ذلك قوله:

يَا حُسْنَهَا سَوْسَنَاتٌ أَطْلَعَتْ عَجَبًا مُدَاهِنًا مِنْ جُئِينَ لَمْ تُحْبَبْ أَلَذَّهَا
لَمَّا سَقَّاهَا الْحَيَا مَا شَاءَ مِنْبَتِّهَا لَمْ تَعُدْ أَنْ مَزَّقَتْ أَنْوَابَهَا طَرَبًا⁵

وقد شبّه ابن الأبار هذه الأزهار الفوّاح عطرها، وقد تساقطت بعض أوراقها بعد أن ارتوت بالغادة المتعطّرة في مجلس غناء، وقد شقّت ثيابها انتشاءً وطرباً بما سمعت من ألحانٍ عذبة، وهذا التداخل بين الإنسان في حال فرحة والطبيعة عند ازديانها يتكرّر في أوصافهم؛ حيث يتجلّى بوضوح أكبر في همزية صفوان بن إدريس التجيبي⁶.

كما وصف الشعراء الفواكه؛ ومن بينها التفاح⁷ والتين وبخاصة الجيّد منه والمعروف بالباكور⁸ الذي عرف انتشاراً في بلاد المغرب الإسلامي، إذ يقول إدريس بن إبراهيم ابن عبد الرحمن بن إدريس في وصف إحداها:

وَبَاكُورَةٍ سَوْدَاءٍ مَخْطُوطَةٍ بَدَتْ كَمِثْلِ غُرَابٍ فِي ذَرَا الْعُصْنِ أَبْقَعِ
وَقَدْ رَقَمَتْ رِيحُ النَّعَامَى أَدِيمَهَا فَجَاءَتْ كَمِثْلِ الْآبُنُسِ الْمَجْرَعِ⁹

وتعكس هذه الأبيات دقّة ملاحظة الشاعر الذي وصف تفاصيلها مثل الخطوط على قشرتها فيخيّل لمن يراها أنّها غراب حطّ على الأغصان وقد شابهُ بياضٌ، ويستعير صفوان صورة أخرى من

¹ - ينظر ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 476.

² - ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 85، ينظر العصون اليبانة، ابن سعيد، ص: 48.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 130، ينظر ديوان لأبي الربيع سليمان الموحّد، ص: 135.

⁴ - ينظر ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 139، 147.

⁵ - المرجع نفسه، ص: 94.

⁶ - ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 130-131.

⁷ - ينظر ديوان أبي الربيع سليمان الموحّد، ص: 134.

⁸ - ينظر المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص: 49.

⁹ - زاد المسافر، التجيبي، ص: 111.

الطبيعة عندما يشبه فعل النسيم فيها بالخشب الصّلب عند لمعانه، وهذه الأبيات تجعلنا نقف أمام ظاهرة توظيف عناصر الطبيعة حتى عند وصف عناصر أخرى منها في مختلف أشعار الوصف سواء كانت متفرقة أو مجتمعة¹، كما وصف شعرهم الجماد ومن أمثلة ذلك وصف الرصافي البلنسي لجبل:

وَأُذِرْدُ مِنْ ثَنَائِيَاهُ بِمَا أَخَذْتُ مِنْهُ مَعَاجِمَ أَعْوَادِ الدَّهَارِ
مُحَنِّكَ حَلَبِ الأَيَّامِ أَشْطَرَهَا وَسَاقَهَا سُوقَ حَادِي العِيرِ لِلعِيرِ
مُقَيِّدُ الحَطُوبِ جَوَالِ الحَوَاطِرِ فِي عَجِيبِ أَمْرِيهِ مِنْ مَاضٍ وَمَنْظُورِ
قَدْ وَاصَلَ الصَّمْتِ وَالإِطْرَاقَ مُفْتَكِرًا بَادِي السَّكِينَةِ مُعَقَّرَ الإِسْرِيرِ
كَأَنَّهُ مُكَمَّمٌ مِمَّا تَعَبَّدَهُ خَوْفُ الوَعِيدَيْنِ مِنْ ذَلِكَ وَتَسْبِيرِ²

لقد جعل الرصافي الجبل رمزًا للقوة والشموخ، وشبهه بالرجل الحكيم الذي خبر الدنيا وجرّبها لتوالي الحقب والخطوب عليه، فجلس يتأمل في هيبه، وخشوع، وثبات لا يحركه شيء كأنه مصعوق أو هلع لما علمه من مصيره الذي حصر بين أن يُدكَّ ويصير ترابا أو أن يُسيّر طوعا أو قسرا إلى سيده وخالفه، وهو ما أورده النص القرآني في سورتي الحشر³ والتكوير⁴، وهذه الأبيات تتقاطع في معانيها ومعانيها مع قول ابن خفاجة في الجبل⁵، وقد جاء أسلوبها سهلا بعيد عن التكلف، وهي سمة شعر الرصافي البلنسي مثلما نبّه عليه الفراجي في قوله: « كان الرصافي يعلو بخياله إلى أسمى الآفاق

¹ - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص:110

² - شعر الرصافي الرفاء البلنسي، خالد شكرمحمد صالح الفراجي، ص:65

³ - قال تعالى: [Z Y M \] ^ _ ` dc ba j i h g f Lk سورة الحشر، الآية:21.

⁴ - قال تعالى: M) * + L ، سورة التكوير، الآية:03.

⁵ - ، يقول ابن خفاجة :

وَقُور	عَلَى	ظَهْرٍ	الْقَلَاةِ	كَأَنَّهُ	طَوَالَ	اللِّيَالِي	مُفَكَّرٌ	فِي	العَوَاقِبِ
يَلُوثُ	عَلَيْهِ	العَيْمُ	سَوَادِ	عَمَائِمِ	لَهَا	وَمِيضُ	حَمْرُ		الدَّوَابِّ

ينظر شعر الرصافي الرفاء البلنسي، خالد شكرمحمد صالح الفراجي، ص:65

ويغوص إلى اقتناص المعاني الجيدة إلى الأعماق، معبرا عن معانيه الرائعة بأسلوب سهل جميل شرق الدباجة يمتاز بالركة والليونة، ويتسم بالقوة والجزالة، ويخلو من التعقيد والعسر، والغلو في التجميل ويصبه في قوالب متناسقة من الألفاظ الجميلة البديعة، وبعبارات موسيقية يتأنق في اختيارها، وبطيل التأمل في رقتها وجرسها وبريقها¹ فقد اهتم الرصافي بكل تفصيل في شعره مراعيًا البساطة، والدقة ليكون شعره أكثر تأثيراً ورسوخاً في ذهن المتلقي.

كما فتن الشعراء بكل ما تمتعت به مدنهم من مجاري مائية كالبحيرات والبحار²، ومن أشهرها نهر إشبيلية الذي ألهم العديد منهم ومن أشهرهم الشاعر نفسه في قوله:

وَمَهْدَلِ الشَّطِئِنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مُتَسَّيْلٌ مِنْ دُرَّةٍ لِيَصَافِيهِ
فَاءَتْ عَلَيْهِ مَعَ الْعَشِيَّةِ سَرْحَةٌ صَدَّتْ لِقَيْتَتِهَا صَفِيحَةٌ مَائِهِ
فَتَرَاهُ أَرْزَقَ فِي غَالَاةٍ سُمْرَةٍ كَالدَّارِعِ اسْتَلْقَى بِظِلِّ لَوَائِهِ³

لقد وقف الرصافي منبهاً بجمال هذا النهر عند الأصيل وقد فاضت مياهه التي يحاكي صفاؤها الدرر على جانبيه، ويشبه انعكاس ظل الأشجار على مائه بالصفيحة التي شابها الصدا أو قد يبدو انعكاس لون السماء عليه كفارس ارتدى بدلة زرقاء واستظل بدرعه ليسترىح، ويعدّ الرصافي الوريث الشرعي لمذهب ابن خفاجة الذي أقام القصيدة على قاعدة المقطوعة؛ فجاءت صورته متراكمة ومتلاحقة⁴.

وكان لوصف الحيوانات نصيب في شعر الموحديين ومن بينها الطيور⁵، والخيول كقول ابن مجبر في في خيل المنصور الموحد:

¹ - شعر الرصافي الرفاء البلنسي، خالد شكرمحمود صالح الفراجي، ص: 63

² - ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 151.

³ - الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، ص: 316-317.

⁴ - ينظر شعر الرصافي الرفاء البلنسي، خالد شكرمحمود صالح الفراجي، ص: 63.

⁵ - ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 107.

لَهُ حَلْبَةُ الْحَيْلِ الْعِتَاقِ كَأَنَّهَا نَشَاوَى تَهَاوَتْ تَطْلُبُ الْعَرْفَ وَالْقَصْفَا
عَرَائِسُ أَعْنَتَهَا الْحُجُولُ عَنِ الْحَلَى فَلَمْ تَبْغِ حِلْخَالاً وَلَا التَّمَسَّتْ وَقُفَا¹

يشبه ابن مجبر خيول المنصور بالجواري الثمالي من الخمر المعتقة فهي تشبه في حسنها العرائس المحتجة والتي استغنت بجمالها عن الزينة، وفي الأبيات تفصيل لكل نوع منها؛ فمنها "اليق" الذي يضارع بياضه الصحيفة البيضاء النقية أو الشيخ العالم الذي ارتدى الثياب البيضاء وهي في العادة رمز للتعوى ، وأخرى "بلقاء" مزجت بين اللونين الأبيض والأسود كالليل إذا غشيه الصبح فأضفى عليه نورا، ولم يكتف ابن مجبر بوصف جمال منظر الخيول بل عبّر عن قوتها وبطشها بأعداء المنصور في ساحة الوغى فيما تبقى من القصيدة.

ووصفت أشعارهم الإنسان باعتباره الكائن الأهم في هذا الوجود فتابعته في مختلف مراحل حياته وقد استوفقتهم مرحلة الشيخوخة لأنها تعبّر عن خلاصة ما خبروه في هذه الحياة؛ ومن بينهم ابن لبّال² الذي يقول فيه :

لَمَّا تَقَوَّسَ مِنِّي الْجِسْمُ عَنْ كَبِيرٍ فَأَبْيَضَ مَا كَانَ مُسْوَدًّا مِنَ الشَّعْرِ
جَعَلْتُ أَمْشِي كَأَنِّي نِصْفُ دَائِرَةٍ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ أَوْ قَوْسٌ بِلا وَتَرٍ³

وتعبّر هذه الأبيات عن موقف الشاعر الناقد على الشيب لأنه يحمل بقدمه مظاهر العجز والقبح ، حيث يقترن ظهوره بضرورة التحلي بالرزانة ومراجعة النفس فيما تبقى لها من وقت، وبخاصة عندما ينحني الجسم فيصبح صاحبه أشبه بنصف دائرة أو قوس بلا وتر؛ أي بلا حول ولا قوة.

كما تطرقت أشعارهم إلى الإنسان في إطار المجموعة مثل الأصدقاء وما ينجم عن هذا اللقاء من تصرفات؛ كالقيام برحلات للتنزه - مثلا - سواء كانت في الرياض والمنتزهات¹ ، كما وصفت

¹ - قيل هو الخللحال أو السوار من العاج أو الدّبل وجمعه وُقُوف، ينظر لسان العرب، ابن منظور ، المجلد 9، مادة (و.ق. ف) ، ص:361، نفح

الطيب، المقرئ ، ج3، ص: 238-239

² - هو الفقيه الأجل الحسيب أبوالحسين علي بن أحمد بن لبّال الأميني القاضي من أهل شريش وذكره ابن دحية "لبّال" وهو فارس النظم والنثر ،

ينظر المقتضب من التحفة القادم، ابن الأبار، ص:74، ينظر المطرب ، ابن دحية، ص:97.

³ - المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص:74.

تمردّه على تعاليم دينه وأعراف مجتمعه ونقصه بذلك مجالس الخمر وكل ما يقع فيها من تجاوزات أخلاقية، وقد وصف الشعراء الخمر وبخاصة المعتقة منها² فكانت الفلّك الذي دارت حوله مجالس الأُنس والسّم التي عقدت بين أحضان الطبيعة³، ويروي المقرئ أنّ ابن مجبر حضر مع رجل أسود اللون جاحد لفضله عليه فطلب منه أن يصف زجاجة سوداء فيها خمر، فقال:

سَأَشْكُو إِلَى النَّدْمَانِ أَمْرَ زُجَاجَةٍ تَرَدَّتْ بِثُوبٍ خَالِكِ اللَّوْنِ أَسْحَمِ
نَضَبُ بِهَا شَمْسِ الْمَدَامَةِ بَيْنَنَا فَتَغْرُبُ فِي جِنْحِ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمِ
وَتَجْحَدُ أَنْوَارَ الْحُمَيَّا بِلَوْحَهَا كَقَلْبِ حَسُودٍ جَاحِدٍ يَدَ مُنْعِمِ⁴

تعدّ هذه الأبيات من محاسن شعر الوصف الأندلسي الذي قيل ارتجالاً⁵، وهي تعكس تأثير الخمر على ابن مجبر كأنها - وقد تألأت في كؤوسهم السوداء عند سكبها - سليلة الشمس، ولا سيّما عند غروبها في عتمة الليل، فيحجب نورها تماماً كما أنكر الرجل الجاحد فضل ابن مجبر عليه.

كما وصف الشعراء ما كان يحدث في المجالس من تهتك، وخروج عن تعاليم الدين الاسلامي؛ ومن بينهم "ابن العوّام الاشبيلي" و"أبو جعفر بن طلحة" وكانا ممن جاهروا بالزندقة، ومن ذلك قول هذا الأخير:

يَقُولُ أَخُو الْفُضُولِ وَقَدْ رَأَى نَا عَلَى الْإِيمَانِ يَغْلُبُنَا الْمُجُونُ
أَنْتَهِكُونَ شَهْرَ الصَّوْمِ هَلَا حَمَاهُ مِنْكُمْ عَقْلٌ وَدِينُ
فَقُلْتُ اصْحَبْ سِوَانَا، نَحْنُ قَوْمٌ زَنَادِقَةٌ مَذَاهِبُنَا فُنُونُ
نَدِينُ بِكُلِّ دِينٍ غَيْرِ دِينِ الرَّ عَاعِ فَمَا بِهِ أَبَدًا نَدِينُ⁶

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:253.

² - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص:17

³ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج4، ص:197-198

⁴ - المصدر نفسه، ج3، ص:206

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص:206

⁶ - نفع الطيب، المقرئ، ص:309

والشاعر يصرح بزندقته دون رادع؛ فهو ينتهك حرمة صيام رمضان دون أن يراعي في ذلك سخط الله (عز وجل) وغضبه عليه، أو نقمة المجتمع المسلم الذي ينتمي إليه، وهو لا يُجبر أحدا على اتّباعه لذلك لا سبيل لئومه لأنه حرٌّ في اختياره الذي دفعه لاتباع كل شرعة أو هوى من غير دين الإسلام الذي سماه "دين الرعاع" وفي ذلك مجاهرة بالكفر.

وبعدما عرضناه من أمثلة لشعر الوصف على عهد الموحدين يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- تطرّق شعر الوصف لكلّ تفصيل يحيط بالإنسان في الكون، بمنتهى الدقّة، والبراعة؛ وجاء ذلك نتيجة تأملهم الدائم وتدبّره في تفاصيل الوجود .

- جاءت المحاورات الشعرية لتعكس مقدرة الشعراء على الارتجال، وهو ما يعكس سرعة بديهتهم، كما أكّدت على طول نفسهم وإجادتهم في تطويع اللغة كيفما شاءوا، ومتى أرادوا؛ بفضل تناوبهم على وصف الشيء من شتى أبعاده إلى غاية الوقوف على جوهره، وتيقّنهم من أنه أصبح قريبا من الفهم، وقد لاحظنا أنها ارتبطت أكثر بمجالس الأُنس التي كانت تقام بين أحضان الطبيعة.

- خلع الشعراء على الطبيعة صفات إنسانية في حالي صحوها أو اضطرابها وجعلوها في مقابل فرحه و حزنه ، ونالت المرأة النصيب الأكبر باعتبارها رمزا للخصب والجمال، وقد بلغوا من الافتتان بها حتى يحيل لك أنك بإزاء غرض التغزل لا الوصف.

- كان سحر الطبيعة طاغيا بصورة جليّة على مخيلة الشعراء؛ حيث ألفيناهم يستعيرون عنصرا منها ليفسّروا أو يقربوا عنصرا آخر؛ فقد ربطوا الطبيعة بكلّ موضوع، وجعلوها مفترشا للموضوعات الأخرى¹، وهو ما يعكس نفسيّة الشاعر المهرفة، وقد اعتمدوا بكثرة التشبيهات، فضلا عن الصُّور الطريفة لتقريب المعاني إلى الذهن.

4-الهجاء:

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر المرابطين، فوزي عيسى، ص:128

بلغ شعر الهجاء والتّقد مكانة مرموقة على عهد المرابطين، وأبّجّه الشعراء لهجاء حكام المرابطين والفقهاء بطريقة ساخرة¹، وقد ذكر ابن سعيد أنّ هجائي الأندلس ثلاثة اجتمعوا على هذا العهد وهم: الأعمى المخزومي (541-)²، وأبو بكر محمد الأبيض³، فضلا عن أبي بكر اليكّي⁴، ولقي هذا الشعر إقبالا على عهد الموحدين على الرّغم من طبيعة الدولة الدّينية⁵؛ ومن قبيل ذلك طلب عبد المؤمن من الشعراء هجو وزيره ابن عطية على الرّغم من أنّه كان حظيا لديه⁶، و قد علّق عبد القادر محّداد محقق كتاب زاد المسافر على شعرهم في الهجاء بقوله: « وشعرهم شعر هجو ، فهجا قوم هذا العصر بغير حساب، و تعاطو الهجو المر القادح الذي قلما تعاطاه سواهم»⁷، ومن الشعراء الذين اشتهروا في هذا الغرض: ابن حزمون الذي استوقف ابن عبد الملك المراكشي ببذاءة لسانه، وإبدائه الشّرّ حتى هابه الناس⁸، ووصف صاحب المعجب هجاءه باللاذع، وترفّع عن إيراده لما يخالطه من فحش، وقد نال هذا الشاعر جاهاً من قضاة ووجهاء المغرب خوفاً من لسانه، وحفظ

¹ - ينظر الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصمت عبد اللطيف دندش، ص433، ينظر التاريخ السياسي والحضاري حمدي عبد المنعم الخفاجي، ص:386.

² - جاء من ترجمة ابن سعيد له قوله: « بشّار الأندلس انطباعا ولسنا وأداة، وهو الذي أحيا سيرة الخطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد، ولا يزال يخط الآفاق بعصاه، ويقع فيمن أطاعه أو عصاه « المعجب ، ج1، ص:228، جاء في ترجمته قول الأصفهاني: وصفه الحكيم يحيى : «رأيتّه وهو ندال هجاء . وصفه بالإجادة في الهجاء والإغارة على الأعراض ، والإصابة فيها إلى الأعراض ، وكان مهيب الصّولة، مرهوب الجولة ، مخصوصا بالتحايا والتّحف والهدايا والطّرف « خريدة القصر، العماد الأصفهاني ، ج1، ص:255، و ينظر المرجع نفسه، تحقيق: آذرناش آذرنوش ، نقحه وزاد عليه: محمد العروسي المطوي ، الجيلاني بن الحاج يحيى، محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط1986، ج2، ص:3، ج3، ص:579، ينظر الإحاطة ، ابن الخطيب ، ج1 ص337، ينظر شعره زاد المسافر ، التجيبي ، ص:75.

³ - ينظر خريدة القصر، الأصفهاني، ج3، ص:579

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص:580.

⁵ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر المرابطين والموحدين، فوزي عيسى ، ص:213

⁶ - ينظر نفح الطيب، المقرئ، ج5، ص186

⁷ - ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: "ج"

⁸ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر 5، ص:240-241

شعره في جميع بلاد المغرب¹، فضلا عن الشاعر ابن خبازة الذي صنّفه ابن الأثير مع الذين لم يجد لهم غير الهجاء².

وكانت مناهضة أعداء الموحدين سببا هاما للهجاء ولعلّ من أقدمهم وأهمهم المرابطين، فقد كان هجاؤهم جزءا من الحرب النفسية التي تهدف إلى تأليب الأنصار ضدهم، وضمّهم إلى الموحدين في إطار سياسة المهدي بن تومرت، ومن ذلك قول أبي عبد الله بن سهل اليكّي³ معرّضا بهم:

إِنَّ الْمُرَابِطَ بِأَخْبَلٍ بِنَوَالِهِ لَكِنَّهُ بَعِيَالِهِ يَتَكَرَّمُ
الْوَجْهَ مِنْهُ مَخْلُقٌ لَقِيحٌ مَا يَأْتِيهِ فَهُوَ مِنْ أَجَلِهِ يَتَلْتَمُ⁴
وتبدو لهجة الشاعر شديدة على المرابطين سواء في هذه الأبيات أو في سائر ما قاله فيهم⁵، إذ يرميهم بالبخل والدياثة وبشاعة الظاهر التي توافق قُبْحَ الباطن، ولاشكّ في أنّ المصلحة هي التي كانت توجه شعر اليكّي لأنه كان قد توجه بأبيات مدح للمرابطين⁶ أيام حكمهم وكانت معانيها تنافي تماما ما أوردناه آنفا.

¹ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 215-216

² - ينظر أزهار الرياض في أخبار عياض، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ضبطه وحققه وعلق عليه: مصطفى السقا، إبراهيم

الأياري، عبد الحفيظ شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، دط، 1940م، ج2، ص: 379

³ - هو أبو بكر يحيى سهل اليكّي أديب وشاعر هجاء، ينظر ترجمته في هامش زاد المسافر، التحجبي، ص: 77.

⁴ - المصدر نفسه، هامش ص: 78.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص: 78

⁶ - يقول اليكّي مادحا المرابطين:

قَوْمٌ	هُمْ	شَرُفٌ	الْغُلَا	فِي	جَمِيرٍ	وَإِذَا	اتَّمَوْا	لِثَوْنَةٍ	فَهُمْ	هُمْ
لَمَّا	حَوَّوْا	إِخْرَازَ كُلِّ	فَضِيلَةٍ	عَلَبَ	الْحَيَاءِ	عَلَيْهِمْ	فَتَلْتَمُ			

زاد المسافر، التحجبي، الهامش، ص: 78

وينضاف إلى أعداء الموحدين أولئك المنشقين عن الدولة، والمتمردين عن سلطتها، ومن أبرزهم (ابن همشك)¹، وابن مردنيش من ذلك قول أخيل الزندي وقد جمع فيه بين مدح الموحدين وهجاء هذا الأخير:

أَمَّا ابْنُ سَعْدٍ فَهُوَ أَوْلُ مَارِقٍ يَا لَيْتَهُ بِأَيِّهِ سَعْدٌ يَكْتَنِي
مَا قَدَرْتُ مُرْسِيَةَ - وَحُكْمَكَ نَافِدٌ - إِنَّ شِئْتِ مِنْ عَدْنٍ لِأَرْضِ الْمُعْدِنِ²

فالشاعر يرى بأن ثورة ابن سعد محكوم عليها بالإخفاق أمام عظمة الموحدين الذين لو شأواوا لحكّموا مشارق الأرض ومغاربها، و أعجب عبد المؤمن بهذه القصيدة فعلق عليها بعد أن استمع إليها كاملة بقوله: "أجدت"، وعبر الشاعر عن سعادته بأن ارتجل بيتين آخرين بين يديه³.

ولم يتردد شعراء الهجاء في تقديم انتقاداتهم لحاشية الخلفاء؛ من كتاب أو وزراء إذا بدا منهم ما يستدعي التقدير على الرغم من تاريخ بعضهم الحافل في خدمة الدولة⁴؛ ومن ذلك تعريض الكورائي بابن يزجان الذي كان السبب في إبعاده عن مجالس الخلفاء، حيث قال:

لَقَدْ كُنْتَ تَحْكِي فِي التَّحَهُمِ مَالِغًا وَكَأَنْتِ بِكَ الْأَحْوَالُ تَحْكِي جَهَنَّمَ
فَمَا أَعْظَمَ الْبُشْرَى بَعُودَكَ خَامِلًا وَغَيْرُكَ قَدْ أَضْحَى النَّبِيَةَ الْمَقْدَمًا!⁵

ولم يخف الشاعر شماتته في الوزير؛ فقد شبهه بمالك "حازن النار" وهو ينظر إلى أهل جهنم بغضبٍ وسخط كبيرين، أما وقد عزل هذا الوزير عن منصبه فهي بشرى سارة لأنه نفذ من عذاب الجحيم الذي كان يمسه كلما لقيه.

¹ - ينظر المقتضب من تحفة القاد، ابن الأبار، ص: 77.

² - نفع الطيب ، المقرئ، ج4، ص: 202.

³ وجاء في البيت الثاني:

فَقَدْ مَدْحُكَ خَائِفًا أَلَا يَغِي لَسْنِي بَمَا يُعْبِي جَمِيع الْأَلْسِنِ

ينظر نفع الطيب ، المقرئ، ص: 202.

⁴ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 158.

⁵ - الغصون الياضعة، ابن سعيد ، ص: 107.

وأتجه هذا الضرب من الشعر إلى انتقاد بعض الشخصيات تحذوهم في ذلك الغيرة على الدين أو الحرص على مصالح الناس؛ وذلك لتقصير أصحاب المناصب في أداء مهامهم، أو لارتكابهم تصرفات تنافي المهام المنوطة بهم وبخاصة الفقهاء¹، والقضاة² نظرا لأهمية هذين المنصبين، كما توجه الشعراء إلى هجاء سكان بعض المدن³ التي كانوا يجلّون بها في أسفارهم، وقد ينتقلون بعدها إلى هجاء المدينة عامة تعبيرا عن معاناتهم أثناء الإقامة فيها، ومن المدن التي هجاها الشعراء في هذه الفترة: مدينة مراكش⁴، ومدينة فاس وأهلها⁵، ومدينة لورقة⁶، ومرسية⁷، وشاطبة، وفي عدوة المغرب المغرب نشعر بلهجة الكورائي الساخطة على مدينة فاس بسبب جفاء أهلها فهجاهم جميعا في قوله:

يَا ابْنَ السَّيْلِ إِذَا مَرَرْتَ بِتَادِلَا لَا تَنْزِلَنَّ عَلَيَّ بَنِي غَفْجُومِ
قَوْمَ طَوَّوَا طُنُبَ السَّمَاخَةِ بَيْنَهُمْ لَكِنَّهُمْ نَشَرُوا لِوَاءِ اللُّومِ
يَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِهِمْ وَلَوْ أَنِّي مِنْ أَهْلِ فَاسٍ مِنْ بَنِي المَلْجُومِ⁸

وهذه الأبيات وإن كانت تسعى في ظاهرها إلى تقديم النصيح والخوف على مصالح الناس فإن الهدف منها هو التعريض ببني غفجوم سادة مدينة فاس؛ فهم لثام لا ينبغي الائتمان لهم على الرغم من انتمائه إليهم وذلك لما مسّه من شرهم، وقد تكون هذه المشاعر الناقمة آتية وليدة ظرف عاشه، وهي قابلة للتغير بمجرد تجاوب قومه معه.

¹ - ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 07، 77.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 21، 39، 77.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 62، 79-80.

⁴ - ينظر حريدة القصر، الأصفهاني، ج2، ص: 339.

⁵ - ينظر أزهار الرياض، المقرئ، ج2، ص: 365.

⁶ - ينظر الذيل و التكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 6، ص: 76.

⁷ - ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 76.

⁸ - الغصون اليانعة، ابن سعيد، ص: 99.

كما عرف عهد الموحدين خصومات بين الفقهاء والفلاسفة¹، وأخرى بين الشعراء لدواعٍ عديدة، دفعت بالعديد منهم إلى إنشاء شعر في التعريض ببعضهم بعضاً، وقد وصل الأمر بهم إلى حدّ السباب، ومن هؤلاء الشعراء ابن مرج الكحل وأبو حريز الشريف حيث أنشأه هذا الأخير قوله:

تَبَّتْ يَدَا مَرْجِ الْكُحُولِ فَإِنَّهُ أَفْنَى الْأَنْبَامِ بِشِعْرِهِ الْمَشُورُومُ
قَدْ أَهْلَكَ الْإِسْلَامَ سُؤْمٌ مَدِيحُهُ هَلَّا أَشَارَ بِمَدْحِهِ لِلرُّومِ²

ويبدو أنّ شعر ابن مرج الكحل كان سُؤماً على من قيل فيه حتّى وإن كان مديحاً فقد اعتبره ابن حريز ظلماً وجوراً قد يوذي به إلى الهلاك، ووجه أغلب هجائه إلى شعر ابن مرج الكحل، فردّ هذا الأخير على الشريف بهجاء اقتبس فيه من شعر المخزومي³ وهو ما يشير إلى وجود شعر النقائض النقائض على هذا العهد.

ومن الأمور التي استوقفت الشعراء العيوب الخلقية مثل أشر العين الذي جرى دمعه فهجاه

ابن حنون الإشبيلي⁴ في قوله:

يَا طَلْعَةً أَبَدَتْ قَبَائِحَ جَمَّةً فَالْكُلُّ مِنْهَا إِنْ نَظَرْتَ قَبِيحٌ
أَبْعَيْنَكَ الشُّتْرَاءَ عَيْنٌ نَرَّةٌ مِنْهَا تَرَفُّرَقَ دَمْعُهَا الْمَسْفُوحُ
شَتَرْتَ فَعُلْنَا: زُورُقٌ فِي جِئَةٍ مَالَتْ بِإِحْدَى دِفْتَيْهِ الرِّيحُ
وَكَأْتُمَا إِنْ سَأَلْتُمَا مَلَأَتْهَا قَدْ خَافَ مِنْ عَرَقٍ فَظَلَّ يَمِيحُ⁵

¹ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 612، ينظر المرجع نفسه، السفر 8، ص: 296.

² - المرجع نفسه، ص: 82

³ - حيث قال المخزومي: مَا لِزَيْنِدِيقِ بِي فَاعِلٌ يَذَمُّ مَنِّي كُلَّ مَا يَحْمَدُ

يَلْخَطِنِي شَرًّا إِذَا مَرَّ بِي كَأَنَّي فِي عَيْنَيْهِ مَسْجِدٌ

زاد المسافر، التجيبي، ص: 83.

⁴ - أبو العباس أحمد بن حنون الإشبيلي من أغنياء هذه المدينة اتمم بالخروج عن السلطان ثم عفي عن له موشحات شهيرة، ينظر المغرب في حلى

المغرب، ابن سعيد، ج1، ص: 249، ينظر ترجمته نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص: 603.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ج3، ص: 206.

وقد شبه الإشبيلي هذا الأشر بملاح يصارع الأمواج فكادت أن تغرقه، وهو تشبيه تمثيلي وُصف فيه الشاعر صورة منتزعة من متعدد ليقرب لنا المعنى الذي كان بصدده عرضه منّا عن خيال واسع، وبراعة في التصوير وهذه الأبيات من مفاخر الشعر الأندلسي¹، واتخذ بعض الشعراء الهجاء وسيلة لانتقاد بعض التصرفات كوصف أبي بحر صفوان لشراهة صديقه:

وَصَاحِبٍ لَا كَانَتْ طَبَائِعُهُ كَأَنَّهَا سُحْبٌ بِالسَّرَطِ مِنْهُمْ رَه
 إِذَا أَحْسَسَ بِمَا كُؤِلَ تُقَدِّمُهُ يَكَادُ يَسْبِقُ فِيهِ حَلْفُهُ بَصَرَهُ
 كَأَنَّ فَاهُ عَصَا مُوسَى انْقَلَبَتْ وَمَا تُقَدِّمُهُ إِفْكٌ مِنَ السَّحَرَةِ²

يوحّه أبو بحر نقده إلى صديقه بطريقة ساخرة؛ فهو متدّم من أسلوبه في الأكل؛ حيث يتناوله بنهم وسرعة كبيرة، وهو لا يكاد يميّز ما قدّم له لأنّه يسعى لملء بطنه فحسب، ويعقد في البيت الأخير مقارنة طريفة بين منظره وبين مشهد ابتلاع عصا موسى لأفاعي السحرة الذي أورده القرآن الكريم³.

وقد يتّجه الشعراء إلى النظم في غرض الهجاء لخلل في نفسيّتهم كهجّوهم أنفسهم نحو صنيع ابن حزمون؛ في مستهلّ قصيدة توجّه بها إلى أحد قادة الأندلس؛ حيث قال:

تَأَمَّلْتُ فِي الْمِرْآةِ وَجْهِي فَحَلْتُهُ كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهِ⁴

لقد رسم ابن حزمون صورة ساخرة لنفسه حيث شبه نفسه بعجوز قبيحة لينتقل بعدها إلى هجاء أحد قادة الأندلس المعروفين على ذلك العهد.

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 186.

² - المقتضب من تحفة القاد، ابن الأبار، ص: 102.

³ - قال تعالى في هذا الصدد: $M \frac{3}{4} \frac{1}{2}$ أ À ع LÈ ÇÆ ÄÄÄ Ä Ä ع ، سورة الأعراف ، الآية : 117.

⁴ - المعجب، المراكشي، ص: 216.

وقد بلغ بعض الشعراء بالإقذاء إلى قذف الأعراس¹، فيما أحجم فريق آخر عن النظم في هذا الغرض؛ ومن هؤلاء الشعراء الرّفاء الرصافي البلنسي²، والأستاذ أبو إسحاق الكانمي³ الذي يقول:

كَمْ سَائِلٍ لَمْ لَا تَهْجُو فَقَلْتِ لَهُ: لِأَنْنِي لَا أَرَى مَنْ خَافَ مِنْ هَاجِي
لَا يَكْرَهُ الدَّمَ إِلَّا كُلُّ ذِي أَنْفٍ وَلَيْسَ لُوْمٌ لِيَّامَ خَلْقٍ مِنْهَاجِي⁴

فالكانمي اتخذ من مُسالمة النَّاسِ فلسفةً ومنهجاً في الحياة لا لضعف في شعره، أو لُخوفه من إبداء رأيه، بل ترفُّعاً منه؛ لما في هذا الغرض من استباحة للأعراس لأنَّ هذا ما أمّلته عليه أخلاقه الفاضلة، وحسن تربيته، التي تمنعه من الخوض في هذا الغرض.

وبعد هذه القراءة المختصرة في شعر الهجاء على عهد الموحدين، فإنّه يمكن الخروج ببعض الملاحظات من أهمّها:

- تباينت مواقف الشعراء من غرض الهجاء بين ميّال إلى الهجاء حتى غلب عليه، وآخر دفعته الظروف إلى النظم فيه، فيما نأى فريق ثالث بنفسه عن التّعرض للناس لأنّه يخالف ثقافتهم وتربيتهم.

- لقد لقي هذا الغرض تشجيعاً من الحكام؛ حيث اتخذوه وسيلةً لمواجهة أعداء الدولة ومناوئيتها، على الرّغم من طابع دولتهم الدّيني.

- مزج الشعراء هجاءهم بالتّندر مُعريين عن جسّ دعاية، وفكاهة، كما استعانوا بالقصص القرآني لتأكيد ثقافتهم الدّينية.

¹ - ينظر زاد المسافر، التّجيب، ص: 80-81

² - ينظر نفع الطيب، المقرّي، ج3، ص: 401.

³ - هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الذكواني الكانمي، قدم إلى المغرب قبل الست مائة، وسكن مراكش، ودّرس الآداب، ينظر المقتضب من تحفة القادم، ابن الأبار، ص: 109

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

- جاءت لهجة الانتقادات صريحة ولاذعة، بلغت حدّ استباحة الأعراس أحيانا، بصرف النظر عن الأشخاص الذين قيلت فيهم.

- شهد غرض الهجاء توسّعا في المواضيع؛ فقد اتّجه بعض الشعراء إلى هجاء الفلاسفة غيرّة منهم على الدين، وتأكيدا على اشتداد الحرب بين الفقهاء والفلاسفة على هذا العهد، واتجهوا إلى هجاء المدن وسكانها أيضا.

5- الرثاء:

كان الرثاء من الأغراض التي عرفت زواجا على عهد المرابطين وذلك لطبيعة الظروف السياسية، وتفاعل الشاعر مع واقعه، وعرفت فترة حكم الموحدين ضربين من شعر الرثاء؛ اختصّ الضرب الأول منه في رثاء الأشخاص، فيما اتجه الضرب الثاني لرثاء المدن والممالك الزائلة، وسنحاول التّطرق لكليهما في هذا المبحث.

أ- رثاء الأفراد : تعدّدت أنواع هذا الرثاء؛ ومنه الرثاء الرسمي الذي كان يتمّ بأمر من الخلفاء في بعض الأحيان مثلما فعل أبو يعقوب مع الشعراء عندما كان في زيارة إلى قَبْرِي المهدي ووالده (بتنمل)؛ حيث يمزج فيه الشاعر بين الرثاء لمن توفّي والمدح للخليفة الحالي¹، كما اتّجه به أصحابه إلى أولي المناصب السّامية في الدولة كالخلفاء والأمراء²، والوزراء³ والقادة العظماء ممّن كان لهم وزن كبير في تسيير شؤون البلاد. ولعلّ المهدي بن تومرت كان الأحقّ بالتأبين فلولاها لما كان لدولة الموحدين ذكر، وقد رثاه الكتندي⁴ وهو من أهل بجاية بقصيدة طويلة بعث بها إلى قبره، ومما جاء في مطلعها:

سَلَامٌ عَلَيَّ قَبْرِ الْإِمَامِ الْمَمَجَّدِ سَلَاةٌ خَيْرِ الْعَالَمِينَ مُحَمَّدِ

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 168.

² - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص: 97-98.

³ - ينظر القصيدة التي أنشأها ابن خبّازة في رثاء الوزير ابن الجدّ وعزّى بها أباه في أزهار الرياض، المقرئ، ج2، ص: 380-381.

⁴ - هو أبو بكر محمد بن عبدالرحمان الكتندي، ترجم له ابن سعيد بقوله: «قال والدي: هو من نبهاء شعراء عصره. سكن غرناطة وانتفع به من قرأ عليه من أهلها. ولازمها حتّى حسب من شعرائها»، المغرب، ابن سعيد، ج2، ص: 264، ينظر شعره في زاد المسافر، التحيي، ص: 54.

وَمُشَبِّهِهِ فِي خَلْقِهِ ثُمَّ فِي اسْمِهِ وَفِي اسْمِ أَبِيهِ وَالْقَضَاءِ الْمَسْدَدُ
وَمُخَيِّي غُلُومِ الدِّينِ بَعْدَ مَمَاتِهَا وَمُظْهِرِ أَسْرَارِ الْكِتَابِ الْمَسْدَدُ
أَثْبَاهُ بِهِ الْبُشْرَى بِأَنْ يَمْلَأَ الدُّنَا بِقِسْطٍ وَعَدْلٍ فِي الْأَنْامِ مَخْلُدًا¹

والكتندي من الشعراء المتأخرين عن المهدي ابن تومرت، وقد ركز على نسبة الذي ينحدر من سلالة الرسول (عليه الصلاة والسلام)؛ فهو شبيه له في اسمه وصفاته، ولهذا الرجل الفضل في إحياء علوم الدين في بلاد المغرب؛ بفضل اهتمامه بالقرآن الكريم وشرحه وتأويله، فلا جرم أنه هو المهدي الذي ملأ الدنيا عدلاً ونوراً، وقد استعان بالتصريح في البيت الأول للفت الانتباه.

كما بكى الشعراء علماءهم²، ومشايخهم³، إقراراً منهم بفضلهم على الناس؛ ومن الشخصيات التي مدحها الشعراء بعد موتها القاضي والفيلسوف أبو الوليد بن رشد الذي بعث الشاعر ابن الجنان إلى أبنائه رسالة يعزيهم فيها، وقد ضمّنها قصيدة من الشعر⁴، ومن العلماء أيضاً أبو العباس المشهور بابن العشاب (-637هـ)⁵ الذي كان من الشخصيات التي اشتهرت بتاريخها الحافل في خدمة العلم؛ حيث أفرد له صاحب الذيل والتكملة ترجمة وافية أسهب فيها الحديث عن أعماله، وقد رثاه صديقه الأديب والقاضي "سعد السعود" بقصيدة عدّد فيها خصاله، وخلّد بها ذكراه، فجاءت مقدّمة القصيدة مُصَوِّرة لهول الرزية التي ألمت به؛ فهو مصدوم لا يكاد يصدّق ما حلّ به، ثم ينتقل إلى ردّ فعل الأحياء والأموات عند سماعهم بهذا النبأ فيقول:

وَلَعَلَّ أَصْحَابَ الْمَقَابِرِ أَعْرُسُوا وَتَدَخَّنُوا بِأَلْوَةِ الْأَعْرَاسِ
لَا بَلَّ تَضَوُّعٌ تُرْمِيهَا إِذَا قُدِّسَتْ بِمَقْدِسِ الْمُثَوَى مِنَ الْأَذْنَسِ

¹ - المعجب، المراكشي، ص: 135.

² - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج4، ص: 473.

³ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 2، ص: 108-114.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 121.

⁵ - هو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن محمد بن أبي الخليل مفرج الأموي، يكنى ابن العشاب وابن الرومية واشتهر بالعشاب والنباتي، و"توهين طرق حديث الأربعين" و"حكم الدعاء في أدبار الصلوات"، ينظر المصدر نفسه، السفر 1، ص: 487-518.

نَمَتْ شَمَائِلُ زَكَائِهِ بِشَمَائِلِ
 أَرْهَتْ بِعُرْفِ الْعَارِ وَالْبَسْبَاسِ
 فَتَعَرَّفَ الْمَوْتَى نَعِيمَ جَوَارِ
 وَاسْتَشَعَرَ الْأَحْيَاءُ وَقَعَ الْبَاسِ¹

لقد استبشر الموتى بخبر التحاق ابن العشاب بهم، لأنّ في مجاورته لهم راحة وسكينة تفيض على المقبرة التي دفن فيها، ثمّ ينتقل إلى وصف التربة التي ضمت جسمه، الذي يعبق مسكا يضارع طيبه عطر نبات الغار والبسباس، ولا شكّ في أنّ الفرحة التي عاشها الموتى قابلها حزن وأسى من أهله وخلائه الذين غادرهم هذا العالم الجليل.

كما بكى الشعراء آباءهم²، وإخوانهم وأهلهم بحرقه، ومن أشهرهم الأمير أبو الربيع سليمان الموحد الذي عقد باباً للرتاء ضمّنه العديد من القصائد، ومن ذلك ما نظمه في فقد ابنه محمّد:

جَلَّ الْأَسَى عَن خُلْدِي
 بِقَطْعَةٍ مِّنْ كَيْدِي
 يَا حَسْرَتَاهُ اخْتَلَسَتْ مِّنْ
 أَضْأَلْعِي تَحْتِ يَدِي
 لَكُمْ أَثَارَتْ مِّنْ مُّقِيمِ
 فِي الْحَشَى وَمُثْعِمِ
 مِّنْ مَدْمَعٍ مَتَدَفَّقِ
 وَمِنْ حَشَى مُتَّقِدِ³

وتظهر الأبيات عاطفة الأب المفجوع لفقد فلذة كبده، فهو يبكيه، ويندب فراقه بحسرة وأسى، فدموعه جارية وقلبه منقطر، لأنّ الموت قد خطفه من بين يديه على الرّغم من سهره الدائم على حمايته من كلّ مكروه مُحْدَق، ولكن ما باليد حيلة !.

وشهد هذا العهد حضوراً ملفتاً لرتاء النساء من الأهل أو ما أطلق عليه إحسان عبّاس "البكاء على زوال الرّقة والجمال"⁴، وكان ابن جبير ممن اشتهروا بذلك؛ حيث خلّف ديواناً في رتاء زوجته مزج فيه بين القصائد، والموشحات والأزجال، ومن ذلك قوله :

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 514.

² - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص: 392.

³ - ديوان أبي الربيع سليمان الموحد، أبو الربيع سليمان الموحد، ص: 44.

⁴ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحيدين، محمد محي الدين، ص: 147.

بَسْبَبَةً لِي سَكَنٌ فِي الثَّرَى وَحِلٌّ كَرِيمٌ إِلَيْهَا أَتَى
فَلَوْ أَسْتَطِيعُ رَكْبْتُ الْهَوَى فَزُرْتُ بِهَا الْحَيَّ وَالْمَيِّتَا¹

بيث الشاعر في هذه الأبيات حينه لزوجته المدفونة بسبته في المغرب؛ فقد كانت نعم الرفيق له في حياته، وهو يتمنى لو أنّ له جناحين ليطيرَ بهما إليها لفرط حنينه إليها، ويندرج تحت رثاء الرقة والجمال أيضا رثاء الجوّاري والغلمان الذين كانوا من خاصّتهم².

وظلّت صلوات الشعراء قويّة بأصدقائهم و ضربوا المثل في الوفاء لهم حتى بعد وفاتهم مثلما فعل ابن طفيل في رثاء ابن العباس:

لَأْمُرٍ مَا تَعَيَّرَ الدُّهُورُ وَأَظْلَمَتِ الكَوَاكِبُ وَالْبُدُورُ
وَطَالَ عَلَيَّ نَجْيُ الْهَمِّ لَيْلٌ كَأَنَّ النَّجْمَ فِيهِ لَا يُغُورُ
لِنِبَاةٍ صَارِخٍ وَطُرُقٍ خَطْبٍ تَكَادُ لَهُ الجَوَانِحُ تَسْتَطِيرُ
جُحْبَرِي بَلْ كِبِيرِي كَانْ أَوْدَى وَمَا يَبْقَى الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرُ³

يستهلّ الشاعر أبياته بسؤال إنكاري وهو أمر يستوقفنا في هذا النوع من المراثي⁴، فهو يعكس صدمة ابن طفيل من هذا النبأ؛ حيث اختلّ ناموس الكون في ناظره فأضحى كل ما يحيط به ظلامًا مُوحشًا أسدل معه الهموم والأوجاع، وهو في حالة من الضياع والانقباض بعد ذهاب صديقه الغالي، عظيم القدر بين أحبائه ومعارفه - وإن كان منجل الموت لا يميّز بين صغير وكبير - كما رثى الشعراء منازلهم وجيرانهم مثل أبي القاسم السهيلي:

يَا دَارُ أَيُّنَ بِيضُ وَالْأَرَامُ أَمْ أَيُّنَ جِيرَانُ عَلَيَّ كِرَامُ؟⁵

¹ - نفع الطيب ، المقرئ، ج2، ص:489.

² - ينظر المقتضب من تحفة القادِم ، ابن الأَبار ، ص:56.

³ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر1، ص:231.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص:514.

⁵ - نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص:400.

يذكرنا هذا البيت بالوقوف على الأطلال الذي عرفته العرب منذ العصر الجاهلي حيث نرى الشاعر يقف ليستحضر أيامه مع جيرانه، ويتحسّر على انقضائها وبخاصة أنّهم كانوا من الفضلاء والنبلاء، وهو يتمنى رجوعها على الرغم من استحالة ذلك.

ومن رثاء الشهداء تآبيرُ ابن الأبار لأبي الربيع بن سالم¹ وأصحابه الذين استشهدوا في إحدى المعارك وكانوا من أهل الصّلاح؛ فنظم فيهم أبياتا مؤثرة، جاء فيها:

مَضَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدَمَا كَأَنَّما
يَطِيرُونَ جِوَارَ اللَّهِ أَكْبَرَ مَعْنَمِ
عَظَائِمِ رَأْمُوهَا فَخَاضُوا لِئِيلِهَا
وَهَانَ عَلَيهِمْ أَنْ تَكُونَ حُودُومِ
يَطِيرُونَ مِنْ أَقْدَامِهِمْ بِقَوَادِمِ
كَذَلِكَ جِوَارَ اللَّهِ أَسْنَى الْمَعَانِمِ
وَلَا رَوْعَ يُثْنِيهِمْ صُدُورَ الْعَظَائِمِ
مُتُونِ الرَّوَابِي أَوْ بُطُونِ التَّهَائِمِ²

يصف ابن الأبار حال أبي الربيع وأصحابه عند خروجهم للجهاد بإقدام، يطمعون في نيل الشهادة، وبهياً لمن يراهم بأنهم يطيرون في السماء أسراباً، ولم يروّعهم أن يُدفنوا أشلاء مترامية بين أعالي الأرض ووهادها مادام المقابل في ذلك هو نيلُ جوار الله (عز وجل) وثوابه.

وقد ذكر فوزي عيسى أنّ الشعراء - على عهد الموحدين - قد خرجوا من رثاء الأشخاص إلى رثاء الدواب والأثاث أو رثاء أمور معنوية كالشباب³. والمتتبع لهذا الغرض في الفترة المقترحة للدراسة تستوفيه أشعار في رثاء الحسين بن علي (رضي الله عنهما) الذي نظم فيه ابن إدريس التجيبي شعراً كثيراً في تأبينه⁴ وفق ما أشارت إليه بعض المصادر¹، والنظم في هذا الشأن ليس بدعاً؛ فقد عُرف

¹ - هو سليمان بن موسى بن سالم ولد عام 565هـ بمدينة بلنسية حال في المغرب والمشرق حيث لقي شيوخاً من علوم شتى فأجازوه، له مصنفات في الحديث، والسير، والأدب تدل على رسوخ قدمه في المعارف، ومن مؤلفاته من بينها "مصباح الظلم من بينها أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" و"المسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشادات" وديوان رسائله "و"ديوان شعره"، وكان من أولي الحزم والشجاعة يحضر الغزوات ويقاتل فيها بنفسه حتى استشهد بظاهر (أنيشة) من عمل بلنسية سنة 634هـ، للتفصيل ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 4، ص: 83-95.

² - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 90

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 175

⁴ - وبدأت أشعاره في آل البيت بسبب منام رآه حسب مارواه، ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 121-123

عند مهديهم أيضا² وذكر المقرئ كتبنا في التشيع لآل البيت مثل: "معادن اللجين في مرثي الحسين"³، وكتاب "درر السمط" لابن الأبار الذي اكتفى بإيراد بعض فصوله لأنه في الباقي "رائحة التشيع". وقد زواج في رثائه بين النثر والنظم؛ حيث أورد المقرئ أبياتا في هذا الباب⁴، ومن الشعراء الذين بكوا الحسين ناهض بن محمد الأندلسي (-615هـ) في قصيدة مؤثرة صاغها على شكل حوار مع حمامة جاء فيها قوله:

إِيهِ حَمَامَةُ حَبْرِيْنِي، إِنِّي
أَبْكِي قَتِيلَ الطَّفِّ فَرَعِ نَبِيْنَا
وَيَلُّ لِقَوْمِ غَدْرُوهُ مُضَرَّجًا
مُتَعَمَّرًا قَدْ مُرِّقَتِ أَشْلاؤُهُ
أَبْكِي الْحَسِيْنَ، وَأَنْتِ مَا أَبْكَاكِ؟
أَكْرِمِ بَفَرَعِ اللَّبْؤَةِ زَاكِي
بِدِمَائِهِ نَضْوًا صَرِيْعَ شَكَاكِ
فَرِيَا بِكُلِّ مُهَنَّدٍ فَتَّاكِ⁵

لقد اتكأ الشاعر في رثائه للحسين على الطبيعة من خلال محاورة الحمامة والنوح على الشجرة، وقد وصف القتل بطريقة أقرب ما تكون إلى المدح؛ حيث صور مشهد الحسين وهو مخضب بالدماء ومنكل به، بعد أن قُتل غدراً وظلماً، دون مراعاة للمجرمين حرمة كونه سبط النبي (عليه الصلاة والسلام).

كما نجد لثناء النفس نصيباً في هذا الغرض؛ حيث يقوم الشعراء بنظم أبيات في حياتهم ويوصون المقربين منهم بكتابتها على شواهد القبور، ولعل الفقهاء والصالحون هم الأكثر نظاماً، لهذه الأشعار لأنهم نذروا أعمارهم لتوجيه الناس؛ فكانت هذه الأشعار استمراراً لمهمتهم حتى بعد موتهم في محاولة منهم لربط البشر بالآخرة، وقد تشابه شعر الكتابات على القبور من حيث المضمون؛ ففيه دعوة للوقوف ولو لبرهة للاعتبار من حال الميت لاستشعار حقيقة فناء الدنيا مهما عمّر المرء،

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج5، ص: 70.

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 135.

³ - ينظر الذيل والتكملة، عبد الملك المراكشي، ج4، ص: 320.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 500-506.

⁵ - نفع الطيب، المقرئ، ج5، ص: 70-71.

وتعدّ القصيدة التي أنشأها ابن زهر في رثاء النفس من أطول القصائد في هذا الميدان¹، ولم يكتف الشعراء بالقصائد العمودية بل استعانوا بأشكال النظم الأخرى؛ كالمخمّسات مثل قول الخليفة المرتضى :

قَهْرُ المنيّةِ تحَتِ التُّرابِ أَسْكَنِي وَمَا أَخَذْتُ مِنَ الدُّنيا سِوَى الكَفَنِ
فِيأُبْنِي وَيَا إلفي وَيَا سَكَنِي تَاللهِ لَوْ كَانَ لي حُكْمٌ عَلَى الزَّمَنِ
يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ مَا فَارَقْتُكُمْ أَبَدًا²

ويبدو المرتضى في هذه المخمّسة مستسلما لمشيئة الله، متقبّلا لفكرة الموت لأنه قدر محتوم، فعلى كلّ واحدٍ منّا أن يتجهّز للرحيل لأنّ الأمر ليس بأيدينا وما نحن إلّا مسافرون في هذا الحياة الدنيا، وتعكس هذه الأبيات شخصية هذا الخليفة المتدينة والزاهدة في الدنيا على الرغم من كونه سيّدا في قومه.

ب- رثاء المدن و الممالك: تغيّر الوضع السياسي في دولة الموحدين منذ واقعة العقاب؛ حيث ضعفت الدولة وتجرّأت عليها الدّول المجاورة، فتربّصت بها في كلّ حين، وتخطّفت مدنها الواحدة تلو الأخرى، فوقف الفرد الأندلسي مصدومًا من وقع البلاء الذي حلّ بالجزيرة، وقرّر بعض الشعراء ممن كانوا على صلوات بسائر الحكام في عدوة المغرب الاستنجاد بهم واستشارة غيرتهم على الدين الإسلامي، ومن بينهم ابن الأبار الذي شدّ الرّحال إلى بني حفص بتونس ليترجى حاكمهم إنقاذ بلاده³ كما فعل الموحدون وقبلهم المرابطون وأنشأ قصيدته السّينية بين يديه لاستنفاه، فجاء فيها:

أَدْرِكْ بِجَيْلِكَ خَيْلَ اللهِ أَنْدَلَسًا إِنَّ السَّيْلَ إِلَى مَنْجَاتِهِمَا دَرَسًا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيْزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسًا⁴

¹ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ،السفر 6، ص:401

² - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر 1، ص:584

³ - ينظر دولة الاسلام في الأندلس ،محمد عبد الله عنان ،ص:706

⁴ - ديوان ابن الأبار، ابن الأبار ، ص :408.

وقد استهل ابن الأبار القصيدة بالتماس من الخليفة يرجوه من خلاله أن يبعث جيشاً لمساندة إخوانهم في ديار الأندلس لأنّ القضية التي تجمعها هي قضية الدين الإسلامي الذي اجتمع النصارى على محاربتة ، ولا شك في أن هذا المدد سيؤتي ثماره ، ثم ينتقل لوصف أوضاع المدن الأندلسية حيث يقول:

تَقَاسَمَ الرُّومُ لَا نَأَلَتْ مَقَاسِمُهُمْ إِلَّا عَقَائِلَهُمَا الْمُحْجُوبَةَ الْأُنْسَا
وَفِي بِلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقُرْطُبَةَ مَا يَنْسِفُ النَّفْسُ أَوْ يَنْزِفُ النَّفْسَا
مَدَائِنَ حَلَّهَا الْإِشْرَاكُ مُبْتَسِمَا جَذَلَانَ وَارْتَحَلَ الْإِيمَانَ مُبْتَسِمَا¹

وهذه الأبيات تؤكد سقوط كل من " بلنسية " و" قرطبة " في أيدي النصارى وأول ما قام به قادتهم تحويل المساجد إلى كنائس لمحو الدين الإسلامي، ثم انتقل بعدها إلى مدح الأمير أبي زكريا الحفصيمركزا على تديته وكرمه وهمته، والملاحظ على القصيدة أنّ ابن الأبار قد أورد فيها وضع بلاده بدقة فسفارتة لم تشغله عن استقصاء أخبار بلاده، ومتابعتها أولاً بأول.

ومزج الشعراء بين شعر الاستصراخ ورتاء هذا القطر مثلما فعل الفقيه أبو الربيع سليمان هو الآخر وطنه مستسلماً للواقع المرير²، ومركّزاً على البعد الديني³ في رتاء المدن التي كانت رباطاً لأهل التقوى والصلاح ، ليكون وقعها في نفوس المسلمين أشدّ من ذلك في قول أبي الربيع:

وَكَانَتْ رِبَاطًا لِأَهْلِ التُّقَى فَعَادَتْ مَنَاطًا لِأَهْلِ الْوُثْنِ
وَكَانَتْ مَعَادًا لِأَهْلِ التُّقَى فَصَارَتْ مَالِذَا لِمَنْ يَدْنِ⁴

لقد قارن الشاعر بين حال مدينته في الماضي؛ حيث كانت رمزا للأمن وعرينا للدين ووضعها الرّاهن؛ إذ غدت فريسة تقاسمها الرّوم، واكتفى بعض الشعراء بالبكاء على مدّهم التي ترعرعوا في كنفها، وهم يرون أيدي العدو الغاصبة تعبتُ بها ولا يستطيعون لها دفعا ؛ ومن أكثر المدن التي

¹ - ديوان ابن الأبار، ابن الأبار ، ص: 408.

² - ينظر الإحاطة ، ابن الخطيب، ج1، ص: 725.

³ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج4، ص: 483.

⁴ - المصدر نفسه ، ص: 478.

رثاها الأندلسيون بحرقه مدينة بلنسية¹ التي كانت ولادة للشعراء ، ومن بينهم ابن عميرة المخزومي الذي جمع في رثائها بين الحنين والرثاء والتغزل بمحاسنها بعد أن جعلها في صورة غادة حسناء²، كما بكى الشعراء مدينة إشبيلية التي عرفت بجمالها وكثرة جناتها؛ ومن بينهم "أبو موسى هارون بن هارون" الذي حثّ الناس على الجهاد لاسترجاعها ، وهو في رثائه يرجع ليقصّ للمتلقى بداية العدوان لعله يخفف عن نفسه هول الفاجعة، ومحاولة منه لجعلها قضية دينية، كما يسعى لشدّ انتباه المتلقي قدر المستطاع؛ حيث يروي سقوطها في شكل قصصي إذ يقول:

لَمَّا نَفَرَقْتَ الْأَهْوَاءَ وَاضْطَرَمَّتْ نَارُ الْبَغَاةِ فَقَامَتْ لِلرَّذَى عِلْمًا
وَتُوزَعِ الْأُمَرَ أَهْلُوهُ وَقَامَ بِهِ مَنْ لَمْ يَجِدْ قَدَمًا فِيهِ وَلَا قَدَمًا
نَّارَتْ حَفَائِظُ اللَّتْلِيثِ فَاثْتَدَرُوا وَأَيَّظُوا مِنْ سِنَاتِ الْعَقْلَةِ الْهَمَمًا
وَأَنْشَرُوا مَيِّتَ الْأَحْقَادِ بَيْنَهُمْ وَلَوْ أَطَاقُوا لِعُمْرِي أَنْشَرُوا الرِّمَمًا
وَيَمُّوا حِمَصَ فِي جَمْعٍ يَضِيقُ بِهِ ذِرْعُ الْقَضَاءِ فَسَوَى الْوَهْدِ وَالْأَكْمَا³

ونلمس في هذه الأبيات عاطفة الشاعر المكوم على بلده، وهي عاطفة صادقة تعكس وقع الرزية على نفسه، وتصوّر مرارة ما عاشه، وبخاصة مع تواطء حكام المسلمين في هذا العدوان بسبب تقاعسهم عن مساندة إشبيلية في مقابل توحد صفوف المسيحيين، وإعداد العدة، ووضع الخطط اللازمة للإطاحة بهم، وسرد أبو موسى قصة محنة بلاده- في ما تبقى من القصيدة- التي بدا تأثيرها واضحا على نفسية الأندلسيين عن طريق المقارنات بين حال البلد قبل العدوان الذي أصابها وبعده.

ومع توالي الخطوب على الجزيرة أيقن أهلها صعوبة استرجاعها وأصبحوا أكثر وعياً وتسليماً لمشيئة الأقدار، وجاءت نونية أبي البقاء الرندي التي رثى فيها الجزيرة لتؤكد لكل إنسان أنّ الأيام دُول؛ فقصّة حُكم المسلمين للأندلس أصبحت ضرباً من التاريخ، وهي حقيقة ينبغي التسليم بها، وأخذ العبرة منها، وفي نهايتها التراجيديّة درسٌ لكل طامع متشبّثٍ بهذه الحياة الزائلة حيث يقول:

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ ، ص : 379-383.

² - ينظر نفع الطيب، المقرئ ، ص:493.

³ - المصدر نفسه ص: 493.

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُعْرُ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُولُ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْزَمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ هَذَا شَانُ¹

واستهل الرندي قصيدته بالحكمة التي ترهّد في الدنيا وتؤكد استحالة استقرارها على حالها، فكلّ كمال يتبعه نقصان، وهذه الدار مرحلة تمهيدية لحياة أبدية، ثم ينتقل في قسم آخر من القصيدة ليخاطب أهل العدو ويؤثّبهم لاكتفائهم بالصمت والعناية بتشيد ملكهم متناسين أنّ الأندلس جزء من أرضهم:

وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دَعَاةٍ لَهُمْ بِأَوْطَانٍ عَزُّ وَسُلْطَانُ²

وهذا البيت يشير إلى تواطء أهل العدو وغيرهم من المسلمين الذين بلغهم نبأ سقوط الأندلس فتخاذلوا في نصرتها على الرغم من صيحات الاستغاثة الكثيرة، وهو ما تبّه عليه ابن الأبار سابقا، وقد صاغ الرندي قصيدته الفريدة مازجا بين الرثاء والحكمة التي صدرت عن صوت العقل و الإيمان بالقضاء والقدر، فضلا عن التجارب التي فرضتها كثرة الخطوب التي أمت بالأندلس.

وبعد هذه اللّحة عن الرثاء على عهد الموحديين يمكن استخلاص النتائج التالية:

- ظلّ اسم المهدي حاضرا في المراثي حتى عند الذين لم يعاصروه معبرين عن ولائهم له، وفضله في إنشاء دولتهم .

- انتقل الشعراء من الرثاء المادّي للبشر إلى الرثاء المعنوي ورثاء الممتلكات.

- صدر شعر رثاء النفس عن أشخاص مُشبعين بالقيم الدينية خبروا الحياة وزهدوا فيها، وتحمل أشعارهم عاطفة إنسانية تطمح إلى إصلاح الغير وتحقير الدنيا، كما نلمس فيها إقرارا من قائلها بذنوبه، ورجاء نيل عفو الله (عزّ وجلّ) .

¹ - ينظر نفع الطيب، المقري ، ص: 487

² - المصدر نفسه، ص: 488

- كان لثناء الحسين بن علي (رضي الله عنهما) نصيبٌ في مرثي هذا العهد، ويعدّ كلّ من ابن الأبار وصفوان بن إدريس التجيبي من أئمة هذا النوع، وقد يكون ذلك صادراً عن تعاطفهم مع سبط رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا تشييعاً له .
- مزج الشعراء في هذا الغرض بين تفجّعهم على موتاهم وحنينهم إليهم، كما ربطوا بين الرثاء والحكمة لأنّ الشاعر في لحظة وقوفٍ على حقيقة تستوجب مساءلة الذات وتقييم الواقع.
- لقد أحبّ الأندلسيون مدنهم وتعلّقوا بها فبكّوها بجرقة كبكائهم على محبوباتهم من النساء بل تفوّقوا في ذلك - أحيانا - فأثروا في نفوس المتلقّين لصدق عواطفهم، وأبانوا عن التزامهم الشديد تجاه قضايا مجتمعهم .
- قدّم الشعراء لثناء المدن باستصراخ الأمراء والحكام من المسلمين، وحثّهم لهم على الجهاد، ثم تخلّصوا إلى المدح، وركّزوا على استفزاز مواطن العروبة والاسلام في نفوسهم.
- رثاء المدن هو وثيقة تاريخية على قصة سقوط الأندلس أو بعض مدنها على هذا العهد، ودليل حي على تواطء المسلمين في ضياعها، كما صوّر شعرهم تعطش النصارى وتكالبهم على الإطاحة بها فحقّقوا ما خطّطوا له من دهر بعيد.

6- الحنين:

عرف هذا العصر شعر التّشوق إلى الأهل، والبقاع المقدسة¹، وشعر الحنين إلى الماضي وقد ازدادت وتيرته لتوفّر دواعيه؛ ومن أهمّها كثرة الحروب وما خلّفته من هجرة ونزوح الشعراء عن أوطانهم التي تعلقوا بها، فضلاً عن كثرة الرحلات العلمية والحجازية، إلى جانب الاغتراب الزماني الذي انعكس هو الآخر على انتاجاتهم، وكان لزاماً على الشعراء مغادرة الأندلس بسبب كثرة الحروب وانفراط عقد مدنها، فشدّوا الرحال نحو المغرب أو المشرق وفي قلوبهم ذكرى وطنهم الحبيب، أين ذاقوا مرارة التّشتت

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 297.

فكانت تجربة الاغتراب عميقة في نفوسهم¹، ولعلّ أكثر ما يميّز شعر الحنين هو الشعور بالأسى والندم على مغادرة الوطن، وها هو أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد² يصوّر بدقّة حال المغترب الذي يتخبط بين الوحدة وضرورة التكيف مع الوضع الجديد فيقول:

أَصْبَحْتُ أَعْرِضُ الْوُجُوهُ وَلَا أَرَى مَا بَيْنَهَا وَجَهَّهَا لِمَنْ أَدْرِيهِ
عَوْدِي عَلَى بَدَائِي ضَالًّا بَيْنَهُمْ حَتَّى كَأَنِّي مِنْ بَقَايَا التِّيهِ
وَيَحُ الْغَرِيبِ تَوَحَّشْتُ الْحَاطَّةُ فِي عَالَمٍ لَيْسُوا لَهُ بِشَبِيهِ³

ويبدو أثر الوحدة عميقًا في نفس الشاعر حتى كأنه يعيش في عالم آخر بين مخلوقات أخرى، فما أشقى من نأت به الديار وأصبح يكابد الضياع!، وكان في مصر فأدركته وحشة لملاعب الصبا ورغد العيش في الأندلس فأنشأ قصيدة رائعة تترجم ما اختلجه، جاء في مطلعها:

هَذِهِ مِصْرُ فَأَيْنَ الْمَغْرِبُ؟ مُذْ نَأَى عَنِّي دُمُوعِي تُسْكِبُ
فَارَقْتُهُ النَّفْسُ جَهْلًا إِمَّا يُعْرِفُ الشَّيْءَ إِذَا مَا يَذْهَبُ
أَيْنَ حِمَصُ؟ أَيْنَ أَيَّامِي بِهَا؟ بَعْدَهَا لَمْ أَلْقَ شَيْئًا يُعْجِبُ
كَمْ تَقْضَى لِي بِهَا مِنْ لَذَّةٍ حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مَطْرِبُ⁴

ويتحسّر الشاعر على أيامه الخوالي التي قضها بالأندلس وسماها على سبيل التجاوز "المغرب" وأكثر ما يحنّ إليه مدينة إشبيلية حمص الأندلس، عنوان الحسن والجمال التي بحسها حقها بسبب رعونة الشباب، فتبددت أفراحه منذ فراقها.

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 156

² - أبو الحسن بن سعيد وهو وسطى عقد بيته، وعلم أهله، ودره قومه، المصنف، الأديب، الرحالة، الطرفة، الأخباري، العجيب الشأن في التجول في الأقطار، ومداخلة الأعيان، والتمتع بالخزائن العلمية، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية، ومن تواليه "المرقصات والمطربات"، و"المقتطف من أزاهر الطرف"، "المغرب في حلى المغرب" و"المشرق في حلى المشرق"، ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص: 270-271

³ - دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط3، 1987م، ص: 210.

⁴ - نفع الطيب، المقرئ، ص: 281.

وكان للضروف السياسية والاجتماعية دور في اغتراب العديد من الشعراء بحثًا عن الأمن أو لقمة العيش أو المجد، والشاعر سهل بن مالك (-640هـ)¹ أحد هؤلاء الذين هاجروا أوطانهم قصرًا، فضمّن بعض نظمه حينه إلى الأندلس التي باعده عنها البحر؛ وقد صوّر هذه الغربة ببراعة في قوله:

وَلَمَّا حَطَطْتُ بِسَبْتَةِ قَتَبِ النَّوَى وَالْقَلْبُ يَرْجُو أَنْ تُحْوَلَ حَالُهُ
وَالجَّوُّ مَصْنُوعُ الأَدِيمِ كَأَمَّا يُبْدِي الحَقِّي مِنَ الأُمُورِ صِقَالُهُ
عَايِنْتُ مِنْ بَلَدِ الجَزِيرَةِ مَكْسَا وَالبَحْرُ يَمْنَعُ أَنْ يُصَادَ عَزَالُهُ
كَالشَّكْلِ فِي المَرَاةِ تُبْصِرُهُ وَقَدْ قَرَّبْتُ مَسَافَتُهُ وَعَزَّ مَنَالُهُ²

وتصوّر هذه الأبيات نفسية الفرد الأندلسي المتعلق بوطنه، العاشق له على الرغم من الفراق المحتوم، فطارت أبياته في مشارق الأرض ومغاربها على حدّ تعبير ابن عبد الملك المراكشي³، وقد أبدع في البيت الأخير من خلال الصورة التي رسمها؛ حيث شبّه حاله حين تعدّر وصاله مع محبوبه الذي يسكن الجزيرة بالرغم من قربها، بشخص يرى وجهه في المرآة لكن يستحيل عليه لمسه بيده.

وكان أبو مروان بن زهر قد أطل المقام في مراكش فكتب إلى أبي حفص بن عبد المؤمن شعرًا في شوقه إلى أهله يقول فيه:

وَلِي وَاحِدٌ مِثْلَ فَرْخِ القَطَا صَغِيرٌ تَحَلَّفْتُ قَلْبِي لَدَيْهِ
نَأَتْ عَنْهُ دَارِي فَيَا وَحْشَتَا لِذَاكَ الشُّخَيْصِ وَذَاكَ الوَجِيهِ!
تَشَوَّقَنِي وَتَشَوَّقْتُهُ فَيَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي عَلَيْهِ
وَقَدْ تَعَبَ الشُّوقُ مَا بَيْنَنَا فَمِنْهُ إِلَيَّ وَمِنِّي إِلَيْهِ⁴

¹ - أبو الحسن سهل بن محمد بن سهل بن أحمد بن مالك الأزدي الغرناطي تلقى العلم عند أهل العلم بالأندلس والمشرق، وكلامه نظماً ونثراً جميل ، وقد صنف كتاباً في العربية رتبته على أبواب كتاب سيبويه، للتفصيل ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر2، ص: 101-132.

² - زاد المسافر، التحيي، ص: 54.

³ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، ص: 106.

⁴ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 400.

فلما بلغت الأبيات أبا حفص أمر بصرفه، لأن الأبيات تفيض عاطفةً ودفناً من شخص أضناه الفراق، وهي وإن كانت تعكس حرارة الشوق فإنها أيضاً ترسم صورة بريئة لذلك الشخص الذي حن إليه ابن زهر وهو "ابنه" من خلال استعمال صيغة التصغير في كلمتي "الشخص" و"الوجه" وهو ما منح الأبيات قوة وتأثيراً أكبر .

ومن أشهر الأبيات التي نظمها شعراء هذا العهد في تعلق الفرد بوطنه رائية الرصافي البلنسي التي يتشوق فيها إلى مسقط رأسه، وهو ما يؤكد محمد محي الدين في قوله: «وعلى أننا نعد رائية الرصافي النموذج البارز لشعر الحنين في هذه الفترة، فإننا لم نبتين فيها تصميمًا دقيقًا، ولا خطة واضحة، وإنما كان التداعي العفوي هو الذي يتحكم في بنائها. على أنها حوت جل ما يتداوله شعر الحنين إلى الأوطان. ففيها وصف لشوق جارف، وفيها تصوير لمعاناة المغترب، وفيها استعادة لذكريات جميلة؛ وقد أخذ التنويه بجمال الوطن ومدح أهله مكانا واسعا منها»¹ فقد كانت عاطفة الشاعر صادقة جعلت أفكاره ترد بسلاسة، وانسياب، دون أن يتكلف فيها، ومما جاء فيها قوله:

بِالْأَدِي الَّتِي رَيْشْتُ قُوَيْدِمِي بِهَا فُرَيْحًا وَأَوْرَثْتَنِي قَرَارْتَهَا وَكُرًّا
فَبَادِي أَنْيَقَ الْعَيْشِ فِي رَيْقِ الصَّبَا أَيْ اللَّهُ أَنْ أَنْسَى اغْتِرَارِي بِهَا غِرًّا²

ويرجع الشاعر بذاكرته إلى صباه حيث يشبه نفسه بالفرخ والوكر منزله، وهي صورة طريفة تعبّر عن دفء هذا الوطن الذي منحه الأمن، ولم يدرك قيمته إلا بعد فوات الأوان، ثم يرسم صورة لمدينته بلنسية فيقول:

بِلَنْسِيَةِ تَلِكِ الزُّمْرُدَةِ الَّتِي تَسِيلُ عَلَيْهَا كُلُّ لُؤْلُؤَةٍ نَهْرًا³

وقد شبه الرصافي بلاده بالزمردة ليرمز من خلالها عن علو شأنها في نفسه، وقد انعكس صفاؤها وحسنها على نهرها الذي يجيل لمن يرى مياهه العذبة عند جريانها أنها لآليء، ومزج مشاعر

¹ - الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 300

² - الإحاطة، ابن الخطيب، ج3، ص: 293.

³ - المرجع نفسه، ص: 295.

الحنين بوصف الطبيعة أمرٌ يستوقف الدارسَ لهذا الغرض في فترة الدراسة؛ إذ يعلّق فوزي عيسى على ذلك بقوله: « وقد ظلت الطبيعة الأندلسية تستثير في نفوس الشعراء أحاسيس الغربة والحنين، فالشاعر المغترب لا ينسى ذكرياته وساعات لهوه التي قضاها بين أحضان الطبيعة، ولا تفارق مخيلته مشاهد الجمال في وطنه وتبرز هذه الظاهرة بوضوح في شعر الغربة»¹ وما يزيد من صعوبة الوضع هو الجفاء الذي يلقاه التّازحون في ديار الغربة وهو ما نقله لنا الرصافي البلسي في قوله:

أُنَاسٌ إِذَا لَأَقَيْتَ مِنْ شَيْتٍ مِنْهُمْ تَلَقَّوْكَ لَا غَتُّ الْحَدِيثِ وَلَا عَمْرًا²
فالجفاء الذي يعاني منه المغتربون هو الذي يزيد تجربة الاغتراب مرارة وعمقاً، فشتان بين الأهل والأحبة الذين نشأ بينهم، وبين الناس الذين صادفهم، وما يلقاه من سوء معاملة في تلك الأرض الغريبة، وهو أمر تنبّه إليه ابن هشام القرطبي فقرّر البقاء في وطنه³.

وقد يتعدّد اللقاء بين الأصدقاء فينظمون شعرا يعكسون فيه مودّتهم، وأملهم في لقاء بعضهم بعضاً، وهو ما كان شائعاً على عهد الموحدين من ذلك ما بعثه ابن عميرة المخزومي إلى ابن الجنان الشاطبي(-641هـ)⁴ ضمن رسالة يتشوّق فيها إليه، وقد ضمّنها قصيدة استهلّها بتصريح فقال:

عِنْدِي مِنَ الشُّوقِ أَحَادِيثُ فَأَيِّنْ إِمَّهُـا ل وَتَلِيـثُ
شُّوقٌ وَقُلْ نَارٌ لَهَا بَعْدَهَا فِي الْقَلْبِ تَأْتِيْرٌ وَتَأْرِيْثُ
يَا صَاحِ وَالْوُدُّ لَهُ نِسْبَةٌ فَوَقِ الَّتِي مِنْهَا مَوَارِيْثُ
هَلْ ذَلِكَ الْعَهْدُ عَلَى حَالِهِ فَإِنَّ عَهْدَ النَّاسِ مِنْكَ وَوَيْثُ⁵

¹ - الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 157.

² - الإحاطة، ابن الخطيب، ص: 297.

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 159.

⁴ - أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري، المعروف بابن الجنان، وجرّت بينه وبين كتاب عصره مراسلات شعرية وثقافية، وكان محدثاً راوية ضابطاً، رائقاً، دتياً، خيراً ذكياً، وقد تبرم من الخدمة لدى أمراء الأندلس، وكان له في الزهد والمدائح بدائع، ينظر ديوان ابن الجنان الأنصاري الأندلسي " شاعر المديح النبوي في القرن السابع الهجري، جمع وتحقيق ودراسة: منجد مصطفى بحت، دط، 1990م، www.attaweel.com،

ص: 14-17، ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج7، ص: 415-431، ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 249-251

⁵ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص: 204.

ويعرب الشاعر في هذ الأبيات عن شوقه العام لصديقه الذي نأت به الأوطان، وقد حُقَّ له ذلك؛ فهو يعتبره أحنًا لا صديقًا لذلك كان نصيبه في المحبة أوفر من نصيب الأخ في ميراثه، ثم ينتقل في البيت الأخير إلى الاستفسار عن مكانته عند ابن الجنان راجيا من الله ألا يكون البُعد قد أنقص من شأنه في نفسه.

ويعكس هذا اللون من الشعر صفة الوفاء والأصالة في نفس بعض الأشخاص الذين يقرون بفضل غيرهم عليهم مهمًا كان هينًا؛ ومن ذلك ما نظمه محمد بن أحمد بن محمد القيسي إلى أستاذه ابن خروف يسأل عن حاله ويرجو عفوَه في قوله:

هَبْنِي أَسَأْتُ أَمَّا لِي فِي نَيْلِ عَفْوِكَ سُـوْلُ؟
وَسِيْلِي وَشَشِيْعِي إِلَى رَضَاكَ رَسُوْلُ¹

ويشتمل البيت الأول على سؤال الغرض منه رجاء الظفر بصفحه أستاذه عنه لشعوره بالتقصير في حقّه، ويجعل من شعره رسولاً ودًّا، وسلامٍ منه إليه، وهو ملمح إنسانيّ ينمّ عن إخلاصه.

وكان بعض الشعراء يسيرون على طريقة "مهيار الديلمي" في إطلاق أسماء بناتٍ على أماكن فارقتها ثم يتغزلون بها لأنّ ذكرها ظلّت ذكرها عالقّة في أذهانهم مثلما فعل الرّصافي البلسي²، كما عبّروا عن حنينهم إلى البقاع المقدسة سواء ممن زاروها أو ممن تعدّر عليهم، ومن بينهم ابن جبير الذي يمكن القول بأنه واضع اللّبنات الأولى لشعر الحنين إلى البقاع المقدسة في الأدب الأندلسي³، ومن قوله في الحجازيات مازجًا الحنين بالشكوى، وقد التزم بلفظة "جارا" في آخر كل بيت:

يَا أَهْلَ طِيَّءٍ قَلْبِي عَنْ مَنَهْجِ الصَّبْرِ جَارَا
أَشْكُو إِلَيْكُمْ زَمَانًا عَلَيَّ بِالْبَيْنِ جَارَا
وَبَعْدَكُمْ لَسْتُ أَرْضَى مِنَ الْبُرِّ لِي جَارَا

¹ - الذيل و التكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر 6، ص: 63.

² - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 304.

³ - ينظر المرجع نفسه ص: 311.

وَدَمْعُ عَيْنِي عَلَى نَبِيِّكُمْ
لَأَذْمُوعِ الْمِزْنِ جَارِي¹
يشكو ابن جبير في هذه الأبيات حينه إلى بلاد الحجاز الذي أنفذ صبره وبل مدمعه، فليس في خلق الله من يستحق وده غير أهل طيبة لمجاورتهم قبر النبي (عليه الصلاة والسلام)، فهو وإن رحل فقد خلف فؤاده في تلك الربوع المقدسة.

وعندما يغادر الشاعر بلاده فإنه يخامر الشك في العودة إلى أهله فيودعهم ويستسمحهم كقول (ابن إفرند) عندما ودع أصحابه بيت المقدس وهو قافل من رحلته الحجازية:

لَئِنْ كَانَ لِي مِنْ بَعْدِ عَوْدٍ إِلَيْكُمْ
فَضَيْتُ لِبَنَاتِ الْفُؤَادِ لَدَيْكُمْ
وَإِنْ تَكُنِ الْأَخْرَى وَلَمْ تَكُنْ أَوْبَةً
وَإِنْ تَكُنِ الْأَخْرَى وَلَمْ تَكُنْ أَوْبَةً²
وهذه الأبيات تترجم صدق مودة الشاعر لأصحابه الذين يعدهم بتحديد أيام الألفة عند لقائهم وإلا فإنه يستودعهم الله إذا كان قدره الرحيل دون عودة ، وقد كان للتصريح في البيت الأول بين لفظتي (إليكم ، لديكم) دور في إحداث نغم تتراح له أذن السامع، أما الطباق في البيت الثاني بين كلمتي (تكن ، لم تكن) فقد أكد المعنى وزاده قوة.

وانتقل الشعراء إلى التعبير عن حنينهم لما كانوا عليه في الماضي ويستحيل عليهم استرجاعه كحنين صفوان ابن إدريس إلى ماضيه:

أَفْدِيهِ مِنْ أَنْسٍ تَصَرَّمٍ فَانْقَضَى
فَكَأَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْإِعْفَاءِ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُ ذِكْرٌ أَوْ مُنَى
وَكَأَلَهُمَا سَبَبٌ لَطُولِ عَنَاءِ³
فقد كان الشباب رمزا للأنس الذي مرّ سريعاً كأنه مجرد غفوة؛ فلم يبق منه شيء يسلي النفس وهو ما يوجع الشاعر ويهقه.

وبعد هذا الدراسة الموجزة لغرض الحنين على عهد الموحدين يمكن الخروج بالنتائج التالية:

¹ - الذيل و التكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 5، ص: 615

² - التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ج1، ص: 66.

³ - الإحاطة، ابن الخطيب، ج1، ص: 35

- برهنت أشعار الحنين على صفة الوفاء بين الأصدقاء و التقدير لأولي الفضل.
- عكست أشعارهم نفسية الأندلسيين وما خلفه نأيهم عن الأوطان؛ من شرحٍ واعترابٍ عبّروا عنه بمرارةٍ وصدق .
- كان لشعر التّشوق إلى البقاع المقدسة أو " الحجازيات " نصيب وافر في شعر التّشوّق والحنين ويعد ابن جبير من أهمّ من نظموا فيه .
- زواج الشعراء بين الأسلوبين الحبري والإنشائي؛ فالأول كان لوصف مشاعرهم والتعبير عنها ، والآخر الذي استعان بالاستفهام ، وعبّروا من خلاله عن استغرابهم، وإنكارهم للوضع الذي استقرّوا عليه، وعموما فقد امتاز أسلوب شعر الحنين بالوضوح في الأفكار، وسهولة الألفاظ، وفصاحة اللغة، وجزالة الأسلوب الذي يعكس ذوق الشعراء المتميز في تصوير حنينهم، وأشواقهم النابعة من قلب صادق، وهو تصوير ينقل لنا تجاربهم بصدق، ولا شكّ في أنّ الهدف من كلّ ذلك هو التأثير في المتلقي.
- امتزج شعر الحنين بالشكوى للتّنفيس عن أوجاع الغربة، كما استعانوا بالوصف، وبخاصّة عند تذكّر معاهد الصبي.
- كشفت أشعارهم عن ردّة فعل الآخر مع أولئك المغتربين؛ فلم يجدوا التّرحيب الذي تطلّعوا إليه، ولم يتمكّنوا من التّأقلم مع الوضع الذي فرض عليهم .
- اشتمل شعر الحنين على نماذج تعكس تشوّق قائلها إلى أمور قد أيقنوا استحالة استعادتها فبكّوها بحرقّة.
- استعان الشعراء بصيغة التصغير " فُعيل " عند استرجاع ذكرياتهم ليرمزوا إلى صفاء الأيام المنصرمة، ونقاء نفوسهم إبّانها. كما وظّفوا المحسنات البديعيّة من جناس، وطباق، وتصريع لتأكيد

الكلام ولفت انتباه القارئ، لكسب تعاطفه؛ فضلا عن الصور البيانية لتأكيد المعنى وتقريبه دون تكلف.

7- الفخر:

أجّه شعراء هذا الغرض إلى امتداح النفس وتعداد مناقبها ومحاسنها؛ ومن ذلك التّعني بجمال الشكل الخارجي مثل قول حفصة الركنونية معتدة بجمالها:

زَائِرٌ قَدْ أَتَى بِجِيدِ الْعَزَالِ مُطْلِعٌ تَحْتَ جَنَحِهِ لِلْهَالِلِ
بِلِحَاطٍ مِنْ سِحْرِ بَابِلٍ صِيَعَتْ وَرُضَابٌ يُفُوقُ بِنْتِ الدَّوَالِي
يَفْضَحُ الْوَرْدَ مَا حَاوَى مِنْهُ خَدُّ وَكَذَا الثَّغْرُ فَاصِحٌ لِالَّالِي¹

لقد أرسلت حفصة هذه الأبيات إلى ابن سعيد تستأذنه في الدخول عليه، واختارت أسلوب الإغراء لمخاطبته؛ حيث شبّهت جيدها الجميل بجيد الغزال، كما كتبت بالهلال للتعبير عن روعة محيّاها وقلة زياراتها، ثم انتقلت في البيت الموالي لوصف سحر عينيها، ورضابها الذي يضارع الحمرة في سكره، وأما خدّها فقد أشبهتها الورد في جماله وحمرة فيما شبّهت أسنانها بالآلي، وبذلك تكون قد استعارت من محيطها كلّ ما يلفت الانتباه، ويؤثر في المتلقي، وهي صور تداولها شعراء الغزل بكثرة.

واشتهر (ابن مردنيش) بفروسيته وبسالته في الحروب؛ حيث كان يشقّ المواكب يمينا وشمالا، وأرهق الموحدين دهرًا، فحقّ له أن يفخر إذ يقول:

أَكْرُرُ عَلَى الْكَيْبَةِ لَا أَبَالِي أَحْتَفِي كَانَ فِيهَا أُمٌّ سِوَاهَا²
(فابن مردنيش) يقتحم صفوف الجيش دون إحساس بالخوف من قوّة العدو وكثرته، فكلّ ما

يهمه هو ما سيضربه سيفه من رؤوس ونفوس، ويقول يحيى بن غانية الميورقي في المعنى نفسه :

¹ - المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج 2، ص: 139

² - نفع الطيب، المقرئ، ج 3، ص: 563

أَظْلَمَ أَوْ رُحِي نَاصِرِي وَحَسَامِي وَضَمِيمًا وَعَزْمِي قَائِدِي وَزَمَامِي
 وَلِي بَأْسُ بَطَّاشِ الدَّرَاعِينَ ضَمِيمِمْ يُنَاضِلُ عَنِّ أَشْبَالِهِ وَيُجَامِي
 أَلَا عَيْيَانِي بِالصَّهِيلِ فَإِنَّهُ سَمَاعِي وَرُقْرَاقُ الدَّمَاءِ مُدَامِي¹

فلا يمكن لابن غانية أن يخضع أو يستسلم مادام محتما ومؤيدا بسيفه، ولن يجد الضيم لنفسه سبيلاً وهو يتحرك بعزمه، وكان صوت سهيل الخيول، وقرع السيوف يطربه، كما كان منظر الدماء التي أراقها يسره، ويجعله منتشياً.

وكانت محامد الأخلاق مدعاة للتباهي ومن ذلك قول محي الدين بن عربي في الاعتداد بالنفس:

نَصَبْتُ وَمَثَلِي لِلْمَكَارِمِ يَنْصَبُ وَرُمْتُ شُرُوقَ الشَّمْسِ وَهِيَ تَعْرُبُ
 وَحَاوَلْتُ إِحْيَاءَ النَّفُوسِ بِأَسْرِهَا وَقَدْ غَرَّغَرْتُ يَا بُعْدُ وَأَنَا أَطْلُبُ
 وَأَتَعَبُ إِنَّ لَمْ تُنَحِّحْ الخَلْقُ رَاحَةً وَغَيْرِي إِنَّ لَمْ تَتَّعَبِ الخَلْقُ يَتَّعَبُ²

لقد أعتت محاولة إصلاح النفوس، وتقوم الأخلاق ابن عربي وهذه الأبيات التي بين أيدينا، وإن كانت قد نظمت بغرض الافتخار بما هو عليه من شمائل فإنها بعيدة عن الغلو؛ فهي تصدر عن شخصية تحشى الله (عز وجل)، نذرت حياتها في حبه وخدمة دينه، ففي اعتزاز ابن عربي بنفسه شكر لله تعالى الذي منحه هذه الذات.

وما يلاحظ على شعر الفخر على عهد الموحدين، بعد هذه القراءة المقتضبة ما يلي:

- قلة الأبيات التي قيل فيها الفخر، وهي مع ذلك لم تتعد بعض المقطوعات وقد يرجع ذلك إلى طبيعة المجتمع الغالب عليه التدين والتأسي بمبادئ الإسلام، أو ربما لم يهتم الكتاب المعاصرون لهم بتدوينها للسبب نفسه، و قد ترجع هذه الندرة أيضا إلى ضياع الأشعار التي قيلت في هذا الغرض مع ما ضاع من أدب هذه الفترة.

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 6، ص: 63.

² - المصدر نفسه، ص: 64.

- كانت النساء يتباهين بجمالهن فيما اعتدّ الرجال بفروسيتهم وشهامتهم ومكارم الأخلاق التي اعتبروها زينتهم.

- صدر شعر الفخر من المتمردين على الموحدين الذي عُرفوا بقوّتهم التي أرهبت وأخضعت كل من عاصرهم؛ ففي افتخار أولئك المنشقين اعتزازٌ بشجاعتهم لوقوفهم في وجه هذه السلطنة.

8- الشكوى:

نظم الشعراء قصائد تعكس هموم أصحابها نظرا لطبيعتهم المرهفة¹ لذلك تباينت دواعي الشكايات؛ فمنها ما جاء كردّ فعل على طعن في الأخلاق²، أو تبرّما من مسؤولية؛ أو أملا في دفع بلاء؛ مثلما نجده عند أبي جعفر بن سعيد الذي بعث إلى أبيه أبياتا يرجوه فيها إعفائه من منصب الوزارة الذي عرضه عليه فيقدم أعذاره بقوله :

مَـنَافِي الْوِزَارَةِ حَظُّ لِمَنْ يُرِيدُ ارْتِبَاحَةً
كُلَّ وَقَالٍ وَقِيْلٍ مِمَّنْ يَطِيْرُ نَبَاحَةً
أُنْسِي أُنْسِي مُسْتَغِيْنَا فَاتْرِكْ فِدَيْتَ صَرَاحَةً³

فالشاعر يقرّ بعجزه على تحمّل أعباء الوزارة لأنّه لا يصلح لها؛ فهي تكدر حياة اللّهو والعريفة التي كان يعيشها، ولن تضيف إليه سوى سماع القيل والقال، وهو ما لا يستهوي الشاعر، وجاءت لهجة الاعتذار الذي رفعه لوالده بأسلوب محترم ولبق يعكس شخصيّة صاحبه وثقته التامة بتفهّم والده لوجهة نظره.

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 322

² - ينظر الإحاطة، ابن الخطيب، ص: 928

³ - نفع الطيب، المقرئ، ص: 180.

وقد يكون غرض الشكوى مُضمَّنًا في القصائد حيث يوظَّف في مطالعها ليتخلَّص إلى الغرض المقصود وهو ما نجده عند الشاعر "ابن شكيل" في قصيدته التي مدح بها القاضي أبا حفص، راجيًا منه أن يعفو عنه، بعدما سجن في المغرب:

يَا مَنْ لِصُّبِحِ الشَّيْبِ كَيْفَ تَنْفَسَا فِي لِمِي تِي فَأَجَابَهُ لَيْلُ الْأَسَى
لَا تَحْسَبِي سَوَادَ شَعْرِي نِعْمَةً لَكِنْ كَسْتَهُ هُمُومَ قَلْبِي حَنْدَسَا
إِلَّا يَكُنْ شَابَ الْعِدَارِ وَلَا انْحَنَى ظَهْرِي فَقَدْ شَابَ الْفُوَادُ وَقُوَسَا¹

فالشاعر يشكو لخليلته شيب شعره الذي صيرته حوادث الدهر ومآسي القلب أبيضًا، ولم يتوقف الأمر عند ذلك؛ فقد تقوس ظهره و تعبت نفسه، وأرهقته نوائب الدهر لذلك هو متجاوز عن الناس ، ويدفع سيئتهم بالحسنة، ويضاف إلى هذا كله حنينه إلى وطنه، واغترابه عنه فانقسم جسده إلى شطرين وبين أرضين .

وكان بعض الولاة يجورون على العامة فينهبون أملاكهم وقد يأخذونها غصبا فيرفع المتضررون أشعارا تستنجد بالخلفاء للبت في القضايا، على النحو الذي قامت به الشاعرة "الشلبية" إلى الخليفة تتظلم من صاحب الخراج في قولها:

نَادِ الْأَمِيرَ إِذَا وَقَفْتَ بِيَابِهِ يَا رَاعِيًّا إِنَّ الرَّعِيَّةَ فَايِيَهُ
أَرْسَلْتَهَا هَمًّا وَلَا مَرْعَى لَهَا وَتَرَكْتَهَا نَهْبَ السَّبَاعِ الْعَادِيَهُ
شَلَبَ كَالشَّلْبِ وَكَأَنْتَ جَنَّةً فَأَعَادَهَا الطَّاغُونَ نَارًا حَامِيَهُ²

والأبيات التي بين أيدينا تصف معاناة هذه المرأة؛ فهي لا تستطيع دفعًا لهذه النازلة التي حلت بها ، لهذا قررت توكيل أمرها للخليفة لأنها واثقة من عدله وسهره على راحة رعيتها، وقدرته على كف أذى بعض حكامه الذين استحلوا ما حرّمه هو على نفسه، ولم يتوقف الأمر عليها هي فحسب ، بل

¹ - أزهار الرياض، المقرئ، ص: 368

² - نفع الطيب ، المقرئ، ج4، ص: 292.

طال مدينة شلب بأكملها، وهي على يقين من استجابته لطلبها، وهو ما كان بالفعل؛ حيث يذكر المقري بأنه لما قرأ الخليفة المنصور الأبيات أمر لها بصلة¹.

وبعد عرضنا لهذه الأمثلة عن غرض الشكوى على عهد الموحدين يمكن الخروج بالتأنيح التالية :

- قلة شعر الشكوى على هذا العهد؛ وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن العديد منها كتبت نثراً؛ ولا سيما ما توجه به إلى الحكام مثلما سنبيّن لاحقاً.

- تباينت دواعي النظم في الشكوى بين أضرار نفسية ، وأخرى مادية .

- لم يتحرّج الشعراء من التعبير عن آرائهم بصراحة بصرف النظر عن طبيعة الأشخاص الذين توجهوا إليهم بخطاباتهم (شعرهم) مراعين تباين مقاماتهم .

- شاركت النساء في بث آلامهنّ إلى أولي الأمر بكلّ صراحة وشجاعة .

- تجاوب الأشخاص الذين قيلت فيهم هذه الأشعار، مهما كانت مراتبهم الاجتماعية.

9- المدائح الدينية:

عرفت الأندلس المدائح الدينية منذ القرن الثالث للهجرة وشهدت تطوّراً على عهد الموحدين؛ فقد اتّصلت بالأحداث السياسية التي شهدتها المنطقة، وبخاصّة عند تهديد الإفرنج للحكم الموحي حين عجزت وسائلهم المادية في ردّ العدوان فالتجؤوا إلى الله ورسوله يدفعون غائلة العدوان بالإيمان مستعينين بالتضرّع والدعاء، ومن أسباب تطوره أيضاً تهجّم المسيحيين على الدين الإسلامي؛ حيث دفعتهم الغيرة على دينهم للردّ عليهم، وازدادت وتيرة مدائحهم عقب سقوط غرناطة وما تبعها من منعٍ للتعامل بالعربية حيث استعانوا بالإسبانية واللاتينية²، كما كان للرغبة في اختصار البعد المكاني الذي يفصلهم عن قبر النبي (عليه الصّلاة وسلّم) وما حملوه له من مشاعر صادقة تعبّر عن شوقهم

¹ - ينظر المصدر نفسه، ص:292.

² - ينظر ديوان ابن الجنان، ابن الجنان، ص:50-51.

لنلك البقاع المقدسة دور في ازدهار هذا الغرض¹، ومن أبرز شعراء المدائح الدينية على هذا العهد: ابن الجنان الشاطبي، وابن خبازة، وأبو الحسن الخزرجي الغرناطي الذي لم يقدم مدحا لغير رسول الله (صلى الله عليه وسلم)²، وكان للنساء أيضا مشاركة في المدائح النبوية³. ومن الآثار التي تتصل بالمدائح الدينية رجز لأبي الحسن الجياني الموسوم "الأحكام في معجزات النبي عليه الصلاة والسلام" والتي ألفها ابن محمد حسن بن القطان⁴، بالإضافة الى "درر الدرر" لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي بكر العطار⁵.

وتنقسم المدائح الدينية من حيث الموضوعات إلى قسمين؛ منها ما يتعلق بالإلهيات وآخر يختص بالنبويات؛ ويتجه الشطر الأول منها إلى طلب عفو الله تعالى، والحديث عن بيته، والتشوق إليه، وعن تعظيمهم لشهر رمضان المبارك⁶ كقول ابن الجنان في ذكر اسم الله (عز وجل):

لله فضلٌ في الوجودِ أفاضُهُ كَم نِعْمَةٍ وَتَفَضُّ لِي اللهُ
لله فضلٌ في الوجودِ أفاضُهُ كَم نِعْمَةٍ وَتَفَضُّ لِي اللهُ
لله فينا رحمةً مَبْثُوتَةٌ نُحِيِّي بِهَا، وَبِرَأْفَةٍ لِي اللهُ⁷

لقد كرر الشاعر لفظ الجلالة "الله" مرتين في كل بيت ليثبت قدرته وعظمته وتفضله على العالمين؛ بحيث يرزق عباده من خزائنه دون قدر، لذلك حُق له أن يمن عليهم ويحاسبهم، وقد أكثر هذا الشاعر من التضرع لله والحديث عن صفاته حتى عارض رائية علي ابن الجهم في الغزل⁸.

ويدخل ضمن الإلهيات أيضا "الابتهالات؛ ومن أشهرها قول أبي القاسم السهيلي:

¹ - ينظر الخطاب الشعري الصوفي المغربي، أحمد عبيدي، ص: 53.

² - ينظر نوح الطيب، المقرئ، ج2، ص: 195.

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 194.

⁴ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 288.

⁵ - ينظر الخطاب الشعري الصوفي المغربي، أحمد عبيدي، ص: 48.

⁶ - ينظر ديوان ابن الجنان، ابن الجنان، ص: 19-24.

⁷ - المرجع نفسه، ص: 171.

⁸ - ينظر المرجع نفسه، ص: 24.

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ، أَنْتَ الْمَعْدُ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرْجَى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ، يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمَشْتَكَى وَالْمُفْرَعُ ،
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلٍ "كُنْ" !
أَمْنُنْ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ¹

فالشاعر يفزع لله تعالى من ذنوبه ويرجو عفوهُ وعونه، وقد تنتقل الأمدوحة من الحديث في الإلهيات إلى الخوض في النبويات² كابتهاالات ابن الجنان التي جمع فيها بين التضرع لله، والتوسل بنبِيِّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بأن يمنَّ عليه بنعمه من خزائن رحمته.

وتطرقت المدائح النبوية إلى الحديث عن الرسول (صلى عليه وسلم) بدايةً بنسبه، ومولده، وسيرته، وصفاته، ومعجزاته، وأخلاقه، فضلاً عن التوسل به، ومدح نعله الشريف³؛ وقد رافقت النبويات مختلف مراحل حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فقد وجدت قصائد للمولد النبوي مثل شعر ابن خبازة في الأنبياء وتدرجه فيهم ووصولاً إلى الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وقد أشار المقري لقصيدته في المولد النبوي⁴، ولم يكتفِ الشعراء بالقصيدة التقليدية بل اتجهوا إلى المخمسات التي تناسب الإنشاد مثل تلك التي نظمها أبو العلاء إدريس بن موسى القرطبي حيث قال :

أَهْلًا بِكُمْ يَا أَهْلَ هَذَا النَّادِي أَهْلَ اغْتِقَادِ الْوَعْدِ وَالْمِيعَادِ
أَهْدُوا الصَّلَاةَ إِلَى النَّبِيِّ الْهَادِي وَصَلُّوا السَّلَامَ لَهُ مَعَ الْأَبَادِ
يَنْدَى نَسِيمًا مُذَكَّرًا تَسْنِيمًا⁵

فالشاعر يدعو صَحْبَهُ إلى التحلُّق حوله لذكر النبي (صلى الله عليه وسلم)، والتغني بشمائله التي تهبّ على النفوس بنفحاتها العطرة فثحيبها، وهي قصيدة ميلادية طويلة نالت شهرة عند أهل

¹ - نفع الطيب ، المقري، ج2، ص: 102، تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص: 467.

² - ينظر ديوان ابن الجنان ، ابن الجنان، ص: 156.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 25-30.

⁴ - ينظر نفع الطيب ، المقري، ج7، ص: 446.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 441.

المغرب في مجالس التدريس¹، وقد قرّظها ابن الجنان ملتزماً فيها حرف اللام². وكان من عادة الموحدين عقد حلقات ينشد فيها الشعراء في تلك الليلة المباركة؛ حيث ينظمون أشعار على أوزان خفيفة ليسهل حفظها وترديدها³.

وأعجب الشعراء بخلال الرسول (عليه الصلاة والسلام) فراحوا يتغنّون بها كصنيع الشاعر عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي بكر العطار:

أَنْوَارُ أَحْمَدَ حُسْنُهَا يَتَأَلَّأُ الْمَصْطَفَى بِحُلَى الْكَمَالِ يَمَّالُ
الشَّمْسُ تَخْجَلُ وَهِيَ مِنْهَا أَضْوَأُ الثُّورُ مِنْهُ مُقَسَّسٌ وَمُجَزَّأُ
قَدْ زَانَ ذَلِكَ الثُّورُ إِبْرَاهِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا⁴

لقد نسب الشاعر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) الكمال في البشر فهو سليل إبراهيم الخليل (عليه السلام) الذي ضاهى جمال محيّه نور الشمس، وكان لحسن سيرته أريج يفتن الناس جيلاً بعد جيل، وأنشأ ابن الجنان محمّسة في معجزات الرسول ومما جاء فيها:

وَالْمَاءُ بَيْنَ بَنَانِهِ قَدْ سَالَ

عَذْبًا مَعِينًا سَائِعًا سَلْسَلًا

كَئِدَاهُ يَمْتَنِعُ رِفْدُهُ مَنْ سَالَ

وَيَنْبِيْلُ رَاجِيَهُ النَّوَالِ جَسِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا⁵

لقد ضرب الشاعر مثلاً لمعجزات الرسول ومن بينها خروج الماء بين يديه عذبا غزيرا، تماما

ككرمه ونواله ويدعو إلى الصلاة والسلام عليه وهذا دأبه في مدائحه النبوية اقتداء بقوله تعالى **BM**

¹ - ينظر نفع الطيب ، المقري ، ص: 438

² - ينظر نفع الطيب ، المقري ، ص: 444

³ - ينظر نفع الطيب ، المقري ، ص: 502 ، ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 583

⁴ - الخطاب الشعري الصوفي ، أحمد عبيدلي، ص: 48 نقلا عن تاريخ الأدب الجزائري ، محمد الطمار ، ص: 206-207.

⁵ - ديوان ابن الجنان ، ابن الجنان ، ص: 152-153 ، نفع الطيب المقري، ص: 436.

C D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z¹ وهو ما يوحي

بقوة إيمانه ، ومعرفته الكاملة بالسيرّة النبويّة لأنّ المحمّسة طويلة وتطرّقت، لتفاصيل مختلفة عن حياة خير الأنام، وقد نالت شهرة كبيرة.

وكانت زيارة قبر النبي وتخفيف الشوق بلثم ثراه هي الغاية من الذهاب إلى تلك البقاع كقول

ابن جبير:

إِذَا بَلَغَ الْعَبْدُ أَرْضَ الْحِجَازِ فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ مَا أَمَّ لَهُ
فَإِنْ زَارَ قَبْرَ نَبِيِّ الْهُدَى فَقَدْ أَكْمَلَ اللَّهُ مَا أَمَّلَهُ²

وتلخص هذه الأبيات سبب رحلات ابن جبير إلى أرض الحجاز؛ وهو تأدية أحد أركان الإسلام المتمثل في زيارة بيته العتيق، وطلب الصّفح منه ، لأنّ في مشاهدة قبر النبي (عليه الصلاة والسلام) شفاء للنفس من سقمها، وقد تعذّر على بعضهم التّقل إلى الحجاز فتخيّلوا أنفسهم بين الحجّاج، ووصفوا مشاهداتهم عند ذلك المقام المكرّم بروحانية عالية كأبي العباس بن الصقر الخزرجي الذي وصف في إحدى قصائده فراغه من تأدية المناسك على الرغم من أنه لم يزر أرض المشرق أو الحجاز قطّ:

حَسْبُ الْحَبِّ مِنَ الْحَيْبِ سَلَامٌ يَفْضَى بِهِ يَوْمَ الْوَدَاعِ ذِمَامٌ
رُحْنَا وَرَوْعُ الْبَيْنِ يَخْرُسُ أَلْسُنَا، وَمِنَ الدُّمُوعِ إِشَارَةٌ وَكَلَامٌ
يَا أَرْضَ يَثْرَبَ، لَا عَدَاكَ غَمَامٌ أَنْتِ الْمَنَى لَوْ تَسْعِفُ الْأَيَّامُ³

ويستهل الشاعر أبياته بتوديع الجناح الرّفيع الذي خلّف لديه فؤاده، ويصف دموعه الغزيرة التي تعكس حاله إذ ذاك، وأمله في لقائه مرّة أخرى، وهذا يشي بحبّ هذا الفقيه للرسول (صلّى الله عليه وسلّم) الذي دفعه إلى تخيّل نفسه بجوار قبره، وهو ما ينم عن قوّة خياله.

¹ - سورة الأحزاب ، الآية :56

² - تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص:610

³ - المرجع نفسه ، ص:410.

كما سلى بعضهم عن شوقه للحبيب بوصف "نعله الشريف"، وقد نظموا شعراً في فضله ومنزلته لديهم؛ ومن بينهم أم السعد بنت عصام الحميري (-640هـ)¹، وجمعت بعض القصائد بين الحنين إلى البقاع المقدسة ووصف ما اشتملت عليه من مشاهد نحو قول ابن عربي:

يَا حَبَّذَا الْمَسْجِدُ مِنْ مَسْجِدٍ وَحَبَّذَا الرَّوْضَةُ مِنْ مَشْهَدٍ!
وَحَبَّذَا طَيْبَةً مِنْ بَلَدَةٍ فِيهَا ضَرْبُ الْمَصْطَفَى أَحْمَدٍ
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مِنْ سَيِّدٍ لَوْلَاهُ لَمْ نُفْلِحْ وَلَمْ نُهْتَدِ²

ويعبر ابن عربي عن شغفه برؤية المسجد النبوي والروضة الشريفة وهي أماكن شديدة الصلة بنبينا المصطفى (عليه الصلاة والسلام) إمامنا وشفيعنا يوم القيامة، وقد حملته تواجده في المدينة المنورة - قرب قبره - على أن يتعلق بها قلبه هي الأخرى. ولم يكتف الشعراء بمدح النبي المصطفى (عليه الصلاة والسلام) فحسب؛ فقد أثنوا على سائر الأنبياء والمرسلين مقرّين بمكانتهم المقدسة ومعظمين لها باعتبارها ركنا من الإيمان، كشعر ابن عربي في سيدنا نوح (عليه السلام) الذي تطرق فيه لقصته مع قومه، واكتفى بالإشارة إلى الآية الكريمة تماشياً مع تعاليم المذهب المالكي التي منعتهم من الاقتباس المباشر والصريح في الشعر³.

ودفع الحب الشديد للرسول (عليه الصلاة والسلام) ببعض الشعراء إلى المغالاة في مدائحهم

له كقول ابن عربي:

أَلَا بِأَبِي مَنْ كَانَ مَلَكًا وَسَيِّدًا وَأَدْمٌ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَقِيفُ
فَذَاكَ الرَّسُولُ الْأَبْطُحِيُّ مُحَمَّدُ لَهُ فِي الْعُلَى جَدُّ تَلِيدٌ وَطَارِفُ
أَتَى بِزَمَانِ السَّعْدِ فِي آخِرِ الْمَدَى وَكَانَتْ لَهُ فِي كُلِّ عَصْرِ مَوَاقِفُ⁴

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج 4 ص: 166

² - تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص: 722-723.

³ - ينظر ديوان ابن الجنان، ابن الجنان، ص: 51

⁴ - الخطاب الشعري الصوفي، أحمد عبيدي، ص 54-55، نقلا عن الفتوحات المكية: ابن عربي، ج 1، ص: 143

ويفتدي ابن عربي الجناب الرفيع بأبيه ونفسه لأنه كان سيّدا على الناس من قبل خلق آدم فهو أولى الخلق بالنبوة، وقد اصطفاه الله وأدناه منه دون سائر عباده، وله الفضل على الناس منذ ذلك الحين وإلى أن يرث هذه الأرض وما عليها، وهذا الكلام يحيلنا إلى ما يعرف "بالحقيقة المحمدية" أو "النور المحمدي"¹ الذي كان منطلقا للفكر الصوّفي لدى العديد من الشعراء² وهي تقضي بتفضيل الله (عزّ وجلّ) للرسول (صلّى الله عليه وسلّم) على سائر أنبيائه، وإن كان القرآن قد نصّ على ألا

تفاضل بين أنبيائه مصداقاً لقوله تعالى: r q p n m l k j i h g M

α £ ϕ ~ وَأَطَعْنَا } { z y x w v u t s

فإنه (عزّ وجلّ) قد ساوى بين رسله جميعهم، وكانت هذه المغالاة تقع من بعضهم دون تمحيص، أو تحليل لكلامهم أو تحت تأثير ثقافة المجتمع⁴.

وبعد هذه اللمحة المقتضبة عن المدائح الدينية في القرنين السادس والسابع الهجريين يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- تميزت المدائح الدينية على عهد الموحدين بانقسامها إلى قسمين؛ يخوض الأول منها في الإلهيات التي يتجه فيها الشاعر بتضرّعه إلى الله تعالى عن طريق ذكر صفاته، وتعداد أسمائه الحسنى، وآخر يتعلق بالنبويات. وسارت هذه المدائح مختلف الأحداث التي شهدها نبينا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونقلت شوقهم إليه، والتعبير عن فرحتهم عند الكون بجواره، وقد بلغت بهم المغالاة في حبه إلى ظهور فكرة "الحقيقة المحمدية" التي تجعل مرتبته عند الله خاصّة دون سائر أنبيائه.

- جاء في شعرهم استبطان للحديث النبوي، والآيات الكريمة اعتمادا على لغة الاقتباس الإشاري، وتماشيا مع تعاليم المذهب المالكي .

¹ - ينظر ديوان ابن الجنان، ابن الجنان، ص: 52

² - ينظر الخطاب الشعري الصوفي، أحمد عبيدي، ص: 53

³ - سورة البقرة، الآية: 285

⁴ - ينظر الخطاب الشعري الصوفي، أحمد عبيدي، ص: 55

- الاعتماد على التكرار للتأكيد على الكلام، وترسيخه في ذهن المتلقي، وكذا الحفاظ على وزن القصيدة، فضلا عن الجناس، ولزوم ما لا يلزم، رغبة منهم في إظهار كل ما لديهم من إمكانات لغوية عند الكون في حضرة الله (عز وجل) أو بجوار نبيه (عليه الصلاة والسلام).

- كان لشغف الشعراء بزيارة الجناب الرفيع دور في جعل أفئدتهم معلقة به، وعند تعذر ذلك اتجهوا إلى ابتكار طرائق أخرى للتقرب منه؛ كتخييل أنفسهم بين الحجاج.

10- الزهد:

قامت دولة الموحدين على أساس ديني؛ فقد عُرف خلفاؤها بتدينتهم وتركيزهم الكبير على فكرة الجهاد التي تتطلب عزوفا عن الدنيا¹ كما كان لتأثير المجتمع دور في رواج هذا الشعر؛ فقد جاء كرد فعل على موجة المجون والتهتك التي انتشرت في أوساط العديد منهم وبخاصة طبقة الأثرياء، ومن جانب آخر دفع الفقر بالعديد منهم إلى الانزواء عن الدنيا والقناعة بالقليل، فضلا عن كثرة الرحلات العلمية والدينية إلى المشرق والحجاز، ولا سيما أن هذا العصر شهد حراكا علميا وبخاصة على عهد الأمير المنصور الذي قيل في شأن موته إنه ساح في الأرض وتخلي عن الملك²، ومن الزهاد أيضا القائد "محمد بن عبد الله بن طاهر³ وغيرهما كثير⁴، ويعد أبو عمران الميرتلي⁵ حامل راية الزهد على هذا العهد.

وكان من ثمار هذه الكثرة في الزهاد أن هناك من ألف فيهم كتب كصنيع أبي العباس بن صقر الأنصاري الذي ألف كتاب "أنوار الأفكار فيمن حل جزيرة الأندلس من الزهاد و الأبرار" وأكمل

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، فوزي عيسى، ص:201- 2012

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص:210، ينظر الخطاب الشعري الصوفي المغربي، أحمد عبيدي، ص:141

³ - ينظر المعجب، المراكشي، ص:229

⁴ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص:643، ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص:138، ينظر المغرب في حلى المغرب،

ابن سعيد، ج1، ص:58

⁵ - أبو عمران موسى بن عمران المارثلي أو الميرتلي، سكن إشبيلية واشتهر بالزهد، كان واحد وقته، يزوره الملوك ويتكلمون به، إلى أن توفي بإشبيلية سنة

604هـ، ينظر الغصون اليانعة، ابن سعيد، ص:135-137.

ابنه أبو عبد الله تأليفه¹، وخاض الشعر في مختلف المواضيع التي تتعلق بالزهد؛ ومن بينها تعريف الزهد كقول أبي عمران الميرتلي:

مَا الزُّهْدُ يَا قَوْمُ - فَلَا تَجْهَلُوا - بِلَبْسِ أَسْمَالٍ وَإِخْلَاقٍ
لَكِنَّهُ لِبَسِّ ثِيَابِ التَّقَى فِي حُسْنِ آدَابٍ وَأَخْلَاقٍ²

فمفهوم الزهد لدى أبي عمران يتعدى الظهور بالثياب الرثة البالية التي توحى بالعزوف عن الدنيا، بل إنه يستدعي أيضا الالتزام بتقوى الله وتقديم الطاعات له، والتأسي بالأخلاق الحميدة التي تُعدُّ إحدى الأسس التي يُبنى عليها والتي تمكّنها من التأثير في المجتمع، واستقطاب أتباع جدد؛ ومن بين الفضائل التي نبهوا عليها إخلاص النية لله في الطاعات³، وتركية النفس من خلال مجاهدتها ومحاسبتها، وهو ما سيقوده إلى توطيد العلاقة بين العبد وربّه، وهذا كلّهُ يتطلب الصبر والمرابطة في كافة نواحي الحياة⁴، وكان من مظاهر حرص الزهاد على التقرب إلى الله إكثارهم من الأعمال الصالحة سواء كانت فرضًا، أو تطوُّعًا؛ والإقدام على التوافل، وقيام الليل بنشاط كقول أبي الوليد محمد بن إسماعيل بن عفير الأموي:

لِللَّهِ قَوْمٌ حُبُّ اللَّهِ قَدْ قَسَّوْهُمَا زَمَانُهُمْ قِسْمَةَ الْحُبُوبِ فِي الْأَزَلِ
نَهَارُهُمْ لِيَصِيَامٍ فِيهِ مُتَّصِلٌ وَلَيْلُهُمْ لِقِيَامٍ غَيْرِ مُنْفَصِلٍ⁵

فأبو الوليد معجب بطريقة عيش الزهاد الذين آثروا الانشغال برضا الله (سبحانه وتعالى)، والتّحضير للآخرة بدل الحرص على رضا الناس، واتّخذوا من الصيام وجاء ضد المعاصي التي قد تعترضهم في النهار، كما كان قيام الليل هو الجبل الذي يربطهم بالله تعالى طمعًا في نيل أجره ومغفرته، وكانت القناعة والاقتصار على الضروري إحدى سماتهم مثلما أورد الميرتلي:

¹ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 227

² - شعر أبي عمران الميرتلي الأندلسي، صنعة وتقديم حياة قارة، منشورات دار الأمان لطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 200م، ص: 120.

³ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر 5 ، ص: 390

⁴ - ينظر نفع الطيب، المقري، ج 4، ص: 339

⁵ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 6، ص: 119.

سَلِيخَةٌ وَحَصِيرٌ لَمْتُ لِي بَيْتِي كَثِيرٌ
 وَفِيهِ شُكْرٌ لِرَبِّي حُبٌّ زَوْماً وَأَعْمِيرٌ
 وَقَوْقُ جَسْمِي تَنُوبٌ مِمَّنْ هَمَّ وَاءٍ سَمْتٌ
 فَرَرْتُ عَيْنًا بِعَيْشِي فَادُونَ حَالِي الْأَمِيرُ
 إِنْ قَلْبُ أَتَى مَقِيلٌ إِنِّي إِذَا لَكُمُ وُورٌ¹

فأبو عمران يرى في اقتناء السليخة والحصير لبيته والاقتصار على الماء والخبز في الطعام، والبسيط من الثياب زيادةً عن حاجته مادام حامداً لربه، ومقراً بنعمه التي تفضل بها عليه، وهي نظرة غارقة في الاتكال والسلبية بعدها عن التفاعل الاجتماعي، والتطلع للأفضل حسبما أشار إليه محمد مجيد السعيد²، فقد كان الرزق والغنى أمراً كاملياً بالنسبة للزهاد مثلما يؤكد في موضع آخر³.

وكان إعلان التوبة أولى الخطوات في درب الرجوع إلى الله، وهو من المواضيع التي تداولها الزهاد في شعرهم فكثيراً ما فرّ المذنبون إليه مقرّين بعيوبهم إعلاناً للتندم، لذلك نظم بعضهم أشعاراً في الزهد في عقب شعر الغزل؛ كتذييل ابن زرقون لشعر له في الجون بهذه الأبيات:

أَسْأَلُ اللَّهَ عَفْوَهُ، فَكَيْنَ سَأَا ءَ مَقَالِي لَقَدْ تَعَفُّ الْقُتُوبُ
 قَدْ يَنَالُ الْقَيْ الصَّغَائِرَ ظَرْفَا لَا سِوَاهَا، وَلِلدُّوبِ دُتُوبُ
 وَأَخُو الشُّعْرِ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ؛ وَسِوَاءَ صَدُوقُهُ وَالْكَدُوبُ⁴

ويقترُّ ابن زرقون بذنبه أمام الخالق لأنه مُتَيِّقٌ من لطفه ورحمته بعباده، ذلك أنّ شعره في التسيب كان من باب الترويح عن النفس لا غير، وإن كان هذا الأمر سيجرّه لإثم أكبر وهو الوقوع في الكذب

¹ - شعر أبي عمران الميزتلي، حياة قارة، ص: 112 .

² - ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين، محمد مجيد السعيد، ص: 297.

³ - ينظر نفع الطيب، ج4، ص: 317.

⁴ - المصدر نفسه، ج3، ص: 374-375.

لأنّ الشّعْر مقترن غالبا بالمغالاة في تصوير الأشياء، وقد جاء نصّ النّهي عنه صريحا في سورة الشعراء¹.

وأصعب ما يُعيق العبد في درّب العودة إلى الله هو كبخّ جماح النّفس وتزكيتها حسب ما يؤكّده الميرتلي:

إِلَى كَمِمْ أَقْـوُلُ وَلَا أَفْعَلُ وَكَمِمْ ذَا أَحْـوَمُ وَلَا أَنْـزِلُ
وَأَزْجِرُ نَفْسِي فَلَا تَرْعَوِي وَأَنْصَحُ نَفْسِي فَلَا تُقْبَلُ²

وحرب الميرتلي ضد أهوائه هي حقيقة يعيشها بنو آدم كلّ يوم؛ فكلمّا عاهد ربّه بالإقلاع عن المعاصي وجد نفسه واقعا فيها مجدّدا آملا في العذول عنها مستقبلا، و بخاصة أنّ الموت متربّص به في كلّ حين، وهذا دأبُ البشر إلّا الأبرار منهم. وإذا كانت الصّراحة والبساطة إحدى سمات شخصيّة أبي عمران فإنّ هذه الأخيرة انعكست على أسلوبه أيضا؛ حيث جاء قريبا من لغة الكلام اليوميّ وبعيدا عن التّكلف والغموض وهي سمة طبعت شعر الزهد في ذلك العصر³.

ويضاف إلى الذّنوب التي تُقدم عليها بالركض خلف الأهواء ذنوبٌ أخرى نقع فيها دون قصدٍ لأنّنا محكومون بسلطان القضاء والقدر؛ حيث يقول ابن زهر في هذا الصّدّد:

لَيْسَ النَّجَاةُ بِأَعْمَالٍ وَإِنْ حَسُنَتْ بَلْ رَحْمَةُ اللَّهِ مَنجَاةٌ وَ مُدَّخِرُ
يَا وَيَلْتَنَّا مِنْ ذُنُوبٍ جَرَّهَا قَدْرُ فَلَمْ أَطِقْ رَدَّ شَيْءٍ جَرُّهُ الْقَدْرُ
يَا وَيَلْتَنَّا مِنْ ذُنُوبٍ إِنْ تَكُنْ كَثُرَتْ فَإِنَّهَا عِنْدَ رَبِّ الْعَرْشِ تَحْتَقِرُ⁴

¹ - قال تعالى: M © « a - « ® - ° ± 2 3 μ ¶ 1 ° « L ، سورة الشعراء ، الآيات: 224-226.

² - شعر أبي عمران الميرتلي، حياة قارة، ص: 130.
³ - ينظر في الأدب الأندلسي ، محمد رضوان الداية ، ص: 91
⁴ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 6، ص: 402

فسعي المرء وحده لنيل رضا الله والتكفير عن الخطايا لا يمكن أن يدخله الجنة مهما حاول، إذ يظلّ في حاجةٍ إلى مساعدة الله ورحمته به من خلال التجاوز عن ذنوبه مهما كانت عظيمة لأنه أعلم بأحوالنا ونفوسنا، وهو وأرحم بها منا.

وكان تقلّب الدنيا أحد الأسباب التي دعت الناس إلى الزهد وواحدًا من أهمّ المحاور التي تطرّقوا إليها في شعرهم من ذلك قول ابن الطحان :

دَعِ الدُّنْيَا لِعَاشِ قَهْمَا	سَيُضْـبِحُ عَن رَشَائِقِهَا
وَعَادِ النَّفْسَ مُضْطَرًا	وَنَكِّبْ عَن خَلَائِقِهَا
هَـالِكُ المِرْءِ أَنْ يَضْحِي	مُجِدًّا فِي عِلَائِقِهَا
وَدُو التَّفْوَى يُدَلِّلُهَا	فَيَسْلُمُ مِّن بَوَائِقِهَا ¹

وتحمل هذه الأبيات نصيحة ثمينة من ابن الطحان إلى من أغراه بريق الدنيا الزائل؛ إذ يدعو الناس إلى نبذها لأنها أمّ دفر تزري بكل من تعلق بها فتسلمه إلى الخسران، وأن يستعينوا على فتنها بتقوى الله والاعتصام بتعاليم دين الإسلام.

وإذا كانت مرحلة الشباب مرتبطة في العادة بالعبث واتباع الهوى، فإنّ الكبر مُقترن بالحكمة، وهو محطة للاختلاء بالنفس والإقرار بضعفها؛ ففي مرحلة الشيخوخة يبدأ العدّ التنازلي لرحلة الحياة الدنيا فيدبّ الضعف في الجسم، وتكثر الأسقام، ويقلّ وعي المرء بما يدور من حوله وذلك للقصور الذي طال حواسه ، ويبدو العمر حينها كأنه أيام لا أكثر، وهو ماعبرّ عليه أبو جعفر الذهبي في قوله:

سَلامٌ عَلَي قَبْرِ الإِمَامِ المَمَجَّدِ	سَلامٌ عَلَي قَبْرِ العَالمينَ مُحَمَّدِ
وَمُشَبِّهِهِ فِي خَلْقِهِ ثُمَّ فِي اسْمِهِ	وَفِي اسْمِ أَيْبِهِ وَالْقَضَاءِ المَسَدِّ
وَمُخَيِّ عُلُومِ الدِّينِ بَعْدَ مَمَاتِهَا	وَمُظْهِرِ أسرارِ الكِتابِ المَسَدِّ

¹ - نفع الطيب، المقرئ، ج 2، ص: 634.

أَثْبَنَاهُ بِهِ الْبُشْرَى بِأَنْ يَمْلَأَ الدُّنَا بِقِسْطٍ وَعَدْلٍ فِي الْأَنْامِ مَخْلَدٍ¹
 ويأسف أبو جعفر على ابن آدم الذي يستقبل الأعياد كل عام بشوق وفرح بالرغم من أن
 أيامها محسوبة على أعمارنا التي حدد أجلها الباريء لذلك كان التأهب للموت واجباً يفرضه علينا
 قانون الحياة، وناموس الكون لأنه مصيرنا - بلا شك - وهو ما أكدوا عليه في أشعارهم²؛ فالموت
 حق لا ريب فيه، ومنجله لا يخطيء أو يميز؛ وتربصه بنا في كل حين حقيقة جليلة، لذلك وجب علينا
 إعداد العدة لحياة ما بعد الموت، وقد صور ابن طفيل لحظة وقوعه بالنفس في قوله :

يَا بَاكِيًّا فُرْقَةَ الْأَحْبَابِ عَنِ شَحَطِ هَلَّا بَكَيْتَ فُرْقَةَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ
 نُورٌ تَرَدَّدَ فِي طِينٍ إِلَى أَجَلٍ فَأَخَارَ غُلُوبًا وَخَلَّى الطَّيْنَ لِلْكَفَنِ
 يَا شُدَّ مَا افْتَرَقَا مِنْ بَعْدِ مَا اعْتَلَقَا أَظْنَهَا هَدْنَةً كَانَتْ عَلَيَّ دَخْنٍ³

ويستغرب الشاعر من أولئك الذين يتحسرون على فقدان الأحبة ويقفون على أطلالهم وكان
 الأحرى بهم أن ييخوا أنفسهم أولاً لأنها أصعب وأدق لحظة تمر بالعبء في حياته فبعد ملازمة رُوحه
 لبدنه أعواماً طويلة، كان عليها تركه في تلك اللحظة مستسلمة لأمر بارئها فترفع إلى السماء مخلقة
 إياه في الثرى في مشهد تراجيدي مؤثر، لذلك وجد شعر الكتابات على القبور كرد فعل منهم على
 ذلك القدر المحتوم، وكانت هذه الأشعار عادة من الزهاد .

ومن أهم ما يمكن الخروج به بعد هذه اللمحة الموجزة عن فعل الزهد ما يلي:

- انتشار شعر الزهد لتوفر دواعيه، ولم يقتصر على العامة من الناس بل انصرف إليه الحكام
 أيضا.

- اتسمت أشعار الزهد بالبساطة وهي أقرب للنظم منها إلى الإبداع الفني، كما اعتمدت
 أسلوب التقرير.

¹ - تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص: 561.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 634، 548-635.

³ - المعجب، المراكشي، ص: 173-174، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص: 85.

- استعان الزّهاد بالنّصح تارة، وبالتحذير تارة أخرى بهدف تعليم الناس القيم الفاضلة.

11 - التّصوف:

لقد واجه المتصوفة صعوبة في التعبير عن هذا العالم بلغة عادية ف لجئوا إلى الرّمز، ودفعتهم المعارضة التي لقيوها من الفقهاء والحكّام إلى التّستر عمّا كانوا يدينون به من مبادئ لا سيّما على عهد المرابطين الذين أدنوا الفقهاء منهم¹، ولذلك ازدحمت القصائد الصّوفيّة بالعديد من الرّموز التي تميّزت بكثافتها وثرائها²، ودارت مجملها حول: المرأة، والخمرة، والطلل، والطبيعة، وتعدّدت معانيها وفق عمق التجربة الصّوفيّة؛ فأصبح بعضها غامضا إلى الحدّ الذي لا يفهمه إلا قائله، فكثيرا ما جعلت الرّموز المتصوفة غرضة للتشكيك في صحة دينهم لذلك قام بعضهم بشرح تلك الألفاظ التي تداولوها في شعرهم حتى غدت مصطلحات تواضعوا عليها بداية بأبي مدين شعيب وتواصل الأمر في زمن تلميذه ابن عربي الذي اضطرّ لشرح ديوانه "ترجمان الأشواق" ليبيّن المقصد من شعره³، ومحاولة منه لتبرأة نفسه ممّا نسب إليه من ظلال⁴، فالصّوفيّة استعاروا جواهر هذه المسميات للتدليل على معاني تدور في أذهانهم تتعلّق بذات إلهية مقدّسة وساميّة.

أ- المرأة: كان للخطاب الصوفي رحي يدور حولها لتمرير رسائله بغية التعبير عن الحب الإلهي الخالص الذي لا تشوبه شائبة ولا يتعارض مع الواجب والأخلاق⁵ لذلك ناشدوا الجمال المطلق - الذي لا تطاله الصيرورة - وجعلوه موضوعهم في سبيل الوصول إلى الله (عزّ وجل) وهو لا يتأتى إلا

¹ - ينظر التراث المشترك الأندلسي المغربي في ميدان التصوف ، محمود علي مكي، ص: 161.

² - ينظر جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 61-62.

³ - ينظر تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ص: 367.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 366.

⁵ - ينظر الحب الإلهي في التراث الأندلسي، محمد الكتاني، مطبوعات سلسلة مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، عدد 23 أبريل 1992م، ص: 189.

بممارسات فضائل أخلاقية بحيث يكون القصد من ذلك اتباع الرسول (عليه الصلاة والسلام) لأنه أكمل نموذج بشري يُقتدى به¹.

ولأن المرأة كانت مصدر إلهام للرجل في إقبالها وإدبارها، فإنهم اتخذوها أيقونة للتعبير عن الحب الإلهي² بواسطة التغزل بها لعجزهم عن إيجاد لغة مستقلة عن الحب الحسي؛ فالصوفي كان يعبر عن عالمه الروحي بأدوات من واقعه، وهي عتبة لمعرفة الله والكون³، وقد احتلّ الغزل العذري - الذي يوصف صاحبه بالجنون وصدق العاطفة - مكانة أساسية في شعرهم؛ لتشابه تجربة العاشق مع تجربة الصوفي؛ حيث استعار قاموسه إلى حدّ قد يختلط الأمر في حال غياب قرينة لفظية أو عدم المعرفة بصاحبها وسيرته فيلتبس الأمر على القارئ بين نصّ إنساني وإلهي⁴، ومن مظاهر تشابه الحب العذري والصوفي أيضاً؛ الإخلاص والتودّد إلى المحبوب مع التّعفف، فكل لفظ أو حركة إلا ويرى فيها محبوبه، وإذا كان الهيام ديدن العذريين فإنّ الفناء ديدن الصوفيين، وفيه حياة لأرواحهم، ومن أهمّ مراحل الحب الإنساني والإلهي الوجد؛ إذ يهيم المحب بحبه فلا يرى سواه⁵.

وكان في تغزل المتصوفة تعبير عن حرمانهم؛ حيث اتخذوا هذا القلب، وأخذوا أشهر الشعراء وأسماء محبوباتهم للتعبير عن وجدهم⁶، وقد نظم ابن عربي ديوانه "ترجمان الأشواق" الذي يبدو للوهلة للوهلة الأولى أنّه شعر غزل في "نظام" ابنة شيخه "مكين الدين" إمام مسجد الحرم المكي ولكنه في الحقيقة قد ألفه في التصوف حسب ما صرح به في مقدمته⁷، ومما جاء في الديوان قوله:

¹ - ينظر جمالية الشعر الصوفي "محي الدين بن عربي نموذجاً"، هدي فاطمة الزهراء، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية 2006م، ص: 125

² - ينظر الحب الإلهي في التراث الأندلسي، محمد الكتاني، ص: 191

³ - ينظر جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 67

⁴ - ينظر شعر أبي مدين شعيب الرؤيا التشكيل، مختار جبار، من منشورات إتحاد الكتب العرب، سوريا، دط، 2002م، ص: 68

⁵ - ينظر تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي، رضوان محمد سعيد عجّاج إيزولي، ص: 251-252

⁶ - ينظر جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 66-67

⁷ - ينظر ترجمان الأشواق، محي الدين بن علي بن عربي، اعتنى به عبد الرحمان المصطفاوي، دار المعرفة، لبنان، ط1، 2005م، ص: 22-24

وَأَدْكُرَا لِي حَدِيثَ هُنْدٍ وَلَبْنَى وَسُلَيْمَى، وَزَيْنَبَ وَعَنَانَ¹
 فالمرأة أجمل تجلّ إلهي في الكون لذلك استعان بها المتصوّفة، وإذا كان ابن عربي قد عدّد أسماء
 محبوباته فهي في الحقيقة إشارة إلى محبوب واحد وهو الله، وأكثر من الأسماء ليرز حالة الوله الشديدة،
 وحيوته، ودهشته؛ وهي في الحقيقة تعبير عن يقينه²، ويعبر ابن عربي عن شدة وجده بالذات الإلهية؛
 فعند قراءة شعره تشعر بأنك أمام شاعر غزل عذري نظرا لسلاسة لغته، وقدرتها على التصوير الدقيق
 بفضل براعته في توظيف المجاز³ لأنّ هذا المحبّ قد صبا قلبه، ومنعته الحجب من وصال محبوبه. وفي
 تجاربهم - لطالما - كانت المعشوقة مطلوبة لديهم، وعند غيابها يهيم الصوفي على وجهه بحثًا عنها
 فيزري ذلك بنفسه وجسمه، كقول أبي مدين شعيب :

وَعَنْدِي سُهُودٌ لِلصَّبَابَةِ وَالْأَسَا يُزْكُونُ دَعْوَايَا إِذَا جِئْتُ أَدْعِي
 سُهَادِي وَوَجْدِي وَأَكْتِنَابِي وَلَوْعَتِي وَشَوْقِي وَسَقَمِي وَاصْفَرَارِي وَأَذْمُعِي⁴
 لقد شبّه الصوفي جمال المرأة بالجمال العالي الذي يتميّز بالوحدة والإطلاق وقدم أبو مدين
 البراهين الدالة على صدق حبه من نُحُول، وسهر ليؤكّد من خلالها على مجاهداته، وهو دائم الانتظار
 يحدوه الأمل والحرص على لقاء محبوبه بالرغم ممّا يلقاه من صدّ وجفاء إذ يقول:

تَدَلَّلْتُ فِي الْبُلْدَانِ حِينَ سَبَيْتَنِي وَبِئْتُ بِأَوْجَاعِ الْهَوَى أَتَقَلَّبُ
 فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ عِشْتُ بِوَاحِدٍ وَأَتْرُكُ قَلْبًا فِي هَوَاكِ يُعَدِّبُ
 تَسَمَّيْتُ بِالْجَنُونَ مِنْ أَلْمِ الْهَوَى وَصَارَتْ بِي الْأَمْثَالُ فِي الْحَيِّ تُضْرَبُ⁵
 فأبو مدين شعيب راض بمقام العبودية لأنه أحبّ وتلذذ بالتذلّل لأنّ فيه عزّته، وصفة الجنون هي
 دليل على المرحلة المتقدّمة التي بلغها الشيخ في التصوف فعندها يغيب العقل ومعه الوعي بالعالم

¹ - ترجمان الأشواق، محيي الدين بن عربي، ص: 103-104

² - ينظر جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 66-67

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 141

⁴ - شعر أبي مدين شعيب الرؤيا والتشكيل، مختار جبار، ص: 76

⁵ - جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 145

المحسوس وهو دليل على مرحلة الوله الذي كان على قدر التحلي المقترن بالمعرفة؛ فالعارف الكامل عند المتصوفة هو العاشق الكامل¹.

ب- الخمرة : شهد مفهوم الخمرة تحوُّلاً في الشعر الصوفي على النحو الذي عرفته المرأة، وكانت "رابعة العدوية" أول من استخدمتها كرمز عرفاني²؛ والقصد منها الرمز إلى ذوق اللقاء الأول بالذات العليا؛ وقد وصف المتصوفة لذتها وقدمها وسكرها، وهم متفاوتون في درجته وفق حالة اتصالهم بجبهم وحضوره لديهم وهو أوسع من أن يصفه كلام، ويكون عادة بعد صحتهم من خلوتهم لذلك استخدموا أفعالاً تدلّ على الزمن الماضي³، وتمتيز الخمر الصوفية عن الخمر المادية بأنها قديمة صرفة⁴ ووجدت قبل نفخ الروح في آدم (عليه السلام) كما أنها متصلة بعالم الغيب وخالدة ووجدت قبل الكرم الذي أنتج الخمر المادية⁵؛ حيث يقول أبو مدين فيها:

هِيَ الْخَمْرُ لَمْ تَعْرِفْ بِكَرَمٍ يُخْضُّهَا وَمَ يَجْلُهَا رَاحٌ وَمَ تَعْرِفُ الْدُنَا
لَهَا الْقِدْمُ الْخَضُّ الَّذِي شَفَعَتْ بِهِ بَقَاءً عَدَا يُفْنِي الزَّمَانَ وَلَا يُفْنِي⁶

فهذه الخمرة لا يمكن رؤيتها أو لمسها لأنها تلمس بالتذوق لا بالحس وترى بالقلب والكشف لا بالعين، لذلك كان سكرها وتأثيرها على النفس والروح أقوى. وشعور المخمور هو نفسه شعور العارف؛ وهو اللاوعي، والانفصال عن الواقع كلما زادت الجرعات⁷ وهو أمر يبعث شعوراً بالانتشاء؛ بالانتشاء؛ فيغيب الوعي وينفتح المجال للتخيل، أما اللذة التي يشعر بها؛ فهي لذّة الفناء في الله تعالى

¹ - ينظر تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي ، رضوان محمد سعيد عجاج إنزولي ، ص: 254-266

² - ينظر المرأة والخمرة رمزاً في الشعر الصوفي، يوسف هادي بور نهمي، التراث الأدبي، السنة الثانية ، العدد السادس، of sid.ir .

www.archive، ص: 9

³ - ينظر شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل، مختار جبار، ص: 79-81

⁴ - ينظر المرأة والخمرة رمزاً في الشعر الصوفي، يوسف هادي بور نهمي ، ص: 11

⁵ - ينظر شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل، مختار جبار، ص: 77

⁶ - جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة ، ص: 145، نقلاً عن الرمز الشعري عند الصوفية ، عاطف جودت نصر ، ص: 359

⁷ - ينظر المرجع نفسه، ص: 100

¹، وجاء سُكْرُ الصوفي كردة فعلٍ على لقاء الله المصحوب بالرغبة والرغبة، ولأنّ الخمرة ارتبطت بمرحلة الحضور، فإنّ ذكرها جاء قليلاً في شعرهم لأنّها لم تتأتّ لجميع المتصوفة لذلك كان الحديث عن الحرمان أكثر².

ومن المتصوفة الذين أكثروا من ذكر الخمرة أبو مدين شعب وفق ما يظهر من إحدى قصائده المطوّلة؛ حيث استخدم كلّ ما نجده في القصيدة الحسيّة من ذكر لأسماء الخمر وأوصافها، وذكر الكأس والذنّ، كما وصف الشاربين الذين تفاوتوا في السكر حسب الجرعات³ كقوله:

هِيَ أَسْكَرَتْ فِي الْخُلْدِ آدَمَ مَرَّةً	فَكَسَتْهُ مِنْهَا حَلَّةً وَوَشَّاحَ
وَكِذَّكَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ أَسْكَرَتْ	وَلَهُ بِذَلِكَ تَأَنُّنٌ وَصِيَّاحُ
لَمَّا دَنَّا مُوسَى إِلَى تَسْمَاعِهَا	أَلْقَى عَصَاهُ وَكُسِرَتِ الْأَلْوَاخُ
وَكِذَا ابْنُ مَرْيَمَ فِي هَوَاهَا هَائِمٌ	مُتَوَلِّعٌ بِشَرَّاحِهَا سَيَّاحُ
وَمَحَمَّدٌ فَخْرُ الْعُلَى شَرَفُ الْهُدَى	اخْتِارَهُ لَشَرَّاحِهَا الْفَتَّاحُ ⁴

وتشتمل هذه الأبيات على قصص الأنبياء عند لقاءهم بالله واتصالهم معه دون حُجب فقد كان سيدنا آدم أوّل خلق الله ورسله الذين اصطفاهم بوحيه وأسكنه في جنّة الخلد، واتّصل به عندما دعاه في السفينة حتى أنجاه وأتباعه، ثم يشير إلى لقاء سيدنا موسى (عليه السلام) مع الله في طور سيناء أين كلّم الله (عزّ وجل) فقام برمي الألواح التي بُعث بها من شدة دهشته ورهبته من ربّه، كما كان لسيدنا عيسى (عليه السلام) تكريم من الله عندما رفعه ونجّاه من المشركين، غير أنّ نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) هو الذي استأثر بحبّ الله حتى أقسم به، وجعله الأقرب إليه لذلك كان في سكر دائم من محبة الله، وهو ما يُعبّر عنه "بالحقيقة المحمدية" التي دارت حولها مختلف أشعارهم.

¹ - ينظر جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 69

² - ينظر شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل، مختار جبار، ص: 151

³ - ينظر جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 142-146

⁴ - جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 145 .

ج- **الطبيعة** : لقد وصف المتصوفة الطبيعة بما فيها من جامد ومتحرك، وتفاعلوها معها في غضبها وفرحها، وكثير منهم بلغ وُجده أقصاه عند سماع خرير المياه، أو صوت الرعد، أو تغريد الطيور؛ فالطبيعة هي أوضح تجلّ لله في الكون، وهو الأمر الذي قادهم لفكرة "الحلول" و"وحدة الوجود"؛ وهي في تصوّرهم كلّ لا يتجزأ، وهي في تنوّعها تدلّ على أنّ الله واحد، ومن بين عناصر الطبيعة التي ذكرت في شعرهم الماء وهو أحد رموز الوجود في الحياة وفي الجنة، وقد استخدموا البحر ليعبروا عن المعرفة أو النور الإلهي، ومن الحيوانات التي ذكروها "الطيور" وهي معروفة بحبّها الدائم للترحال، ورغبتها في التحليق بحرية في ملكوت الله، وكان لكلّ طير منها رمزٌ معيّن؛ فقد كانت الحمامة ترمز للشوق إلى النفس الكلية¹، وقرّنها بذكر المواضع الحجازية أين تغنّت الطيور فوق فروع أشجارها، وفي ذلك محاولة للتدليل على حبّهم الرّباني وتجلي أنواره في وجدانهم، وهو حبّ كبير .

د- **الطلل والرحلة**: يعدّ هذا الرّمز من مميزات القصيدة التقلّيدية؛ فكان أول ما يذكر فيها؛ إذ يحنّ الشاعر إلى دياره التي اغترب عنها بدافع تنقله اليومي؛ فيصوّر وحشتها وسكونها، وشوقه إلى مرابع صباه²، وجاء الطلل في القصيدة الصّوفية ليعبر عن اغتراب ذات الصوفي عن الذات العليا ونزوحها من عالم الأرواح الذي كانت مطمئنة فيه إلى عالم الأشباح المقترن بالشقاء، لذلك فهو لا يذكر المنازل لذاتها بل يذكرها من أجل المحبوب³ .

واقترن الطلل عادة بالرحلة ووداع الديار، ولا سيّما في أرض الحجاز التي كانت دلالتها في الشعر الدّيني تشير إلى موطن الحنين بوصفها مهبط الرّسالة، وسمّيت القصائد من هذا النوع بالحجازيّات. وتعني الرحلة في المفهوم الصوفي نزوح الرّوح من العالم الأقدس إلى الحياة الدّنيا، وقد انعكس حنين الصوفي إلى موطنه الأوّل فلوّن موضوعاته بالكآبة والحزن⁴؛ وكان موقفه متماثلا سواء

¹ - ينظر جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 72-76

² - ينظر شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل، مختار جبار، ص: 61-64

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 63-64.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 94-95.

عند الوقوف على الطلل أو عند توديع الطعائن المحتملة؛ حيث تنشأ لديه حالة من التوتر نظراً لما ينتج عنها من انفصال الشاعر عن محبوبه¹، ويعتبر "الحادي" عندئذٍ معادلاً موضوعياً لجذبات المحبة، أما "العيس" وما ينالها من إرهاق عند ترحالها فهي "السالكون" في معراج المحبة وما يصيبهم من ضعف ونحول لنيل مرادهم، وهي حالة درامية تتشكل وفق تدرج نفسي من ذاتهم بذاتهم وإلى ذاتهم² ويصور ابن عربي صراعه مع نفسه للعودة إلى موطنه الأول بقوله:

يَا خَلِيلِي عَرَجًا بَعْنَانِي، لِأَرَى رَسْمَ دَارِهِا بَعِيَانِي
فَإِذَا مَا بَلَعْتُمَا الدَّارَ حُطًّا، وَبِهِا صَاحِي، فَتَبْكِيَانِي
وَقَفَا بِي عَلَى الطُّلُولِ قَلِيلاً، نَتَبَاكِي، بَلْ أَبُكِ مِمَّا دَهَانِي³

فالشعر كان الرفيق الدائم للمتصوف بفضلته عبر عن حنينه إلى عالم الأرواح رمز الطمأنينة، كما نفّس عن حزنه بسبب شقائه واغترابه لذلك نجده يتحسر على نفسه عند تعثره في اللحاق بالمريدين الذين تساموا بين المقامات بفضل مجاهداتهم، فكانوا أقرب منه إلى رضا ربهم، والأحقّ برؤياه لذلك يرجو منهم أن يبلّغوا شوقه وحنينه إلى تلك الربوع التي نأى عنها مرغماً.

وبعد هذه اللمحة الموجزة عن التصوف على عهد الموحدين يمكن الخروج بالملاحظات التالية:

- شعر التصوف أفاضه الله على قلوب أوليائه من الفيوضات الروحانية، وقد اعتمد على الرموز للتعبير عن معان باطنية حتى لا يطلع عليها غيرهم، وهو مرتبط بطبيعة التجربة الصوفيّة .

- شهد هذا العصر ترسيخاً لفكرة الحقيقة المحمديّة التي تفضي بتفضّل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على سائر الرسل؛ ويظهر ذلك في كثرة توسّلهم به.

¹ - ينظر الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، ص: 161 .

² - ينظر شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل، مختار جبار، ص: 87-90 .

³ - ترجمان الأشواق، ابن عربي، ص: 103-104 .

- تميّز أسلوب المتصوفة بالرّقة والعدوبة؛ فيحتار السّامع أيّهما أحلى اللفظ الرائق أم المعنى الفائق.

-الخطاب الصوفي لم يكن دينيًا فحسب، بل كان تجربة إبداعية ذات مقومات جمالية، وقد ارتقت لغته كلّما زاد عمق التجربة.

12- الشعر التعليمي:

يعرف الشعر التعليمي بشعر الأراجيز، وشعر المتون، ويسمى أيضا بالشعر المنظوم؛ وهو ذلك الشعر الذي يصطنعه الشعراء لنظم العلوم، والسير، والقصص إلى غير ذلك لتقريب معانيها للطلاب، وقد استعمل بعض النقاد مصطلح منظومة¹ بدل مصطلح القصيدة، لتشابههما في الشكل وخلق المنظومات من العاطفة والخيال.

وكان ظهور الشعر التعليمي في العصر العباسي وذلك لكثرة الفتوحات الإسلامية والانفتاح الحضاري على سائر الأمم²، وكذا الرّقي الفكري والتطور المعرفي الذي عرفه هذا العصر والذي أثر في النتاج الأدبي وتأثر به؛ وهذا ما تؤكّده سلوى ناظم في قولها: « الشعر التعليمي جاء نتيجة طبيعية من نتائج العصور الأولى للحضارة »³، وكانت أولى الإرهاصات مع: "أبان اللاّحقي" الذي نظم في سيرتي (أردشير) و(أنو شروان)، كم نظم في أحكام باب الصّوم والزّكاة، وتبعه بشر بن المعتمر(-20هـ)؛ حيث أنشأ أرجوزة في تفضيل الإمام علي بن أبي طالب على غيره⁴، ثمّ تلت محاولات عديدة أثرت التراث العربي واقتترنت باتّساع المعارف والعلوم وازدهار حركة الترجمة، ويعلق عبد الرحمان عبان

¹ - الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، عبد الرحمان عبان، ص: 40

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 38.

³ - ينظر الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، عبد الرحمان عبان، ص: 39، نقلا عن منظومة القلادة لابن جبرول، دار المستقبل، سنة 1989، ص: 15.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 47.

على ذلك بقوله: « وهذه الوفرة تدل على الاهتمام بالتعليم في العالم العربي عموماً ، وسمة حضارية تميّز الأمة العربيّة الإسلامية عن باقي الأمم»¹، واتّسع نطاق تلك المحاولات لتصل إلى المغرب الإسلامي والأندلس التي لم تكن أقلّ تحضراً من المشرق، وسيما على عهد الموحدين؛ إذ تمكّنت دولتهم القويّة من إخضاع المغرب الإسلامي والأندلس كما عرفت رقيّاً حضارياً، بفضل نبوغ العديد من أبنائها في شتى العلوم وكذا امتلاكهم لناصية اللغة التي أسعفتهم في التعبير عن أفكارهم وتجاربهم بحريّة أكبر.

وقد ساعد الشعر التعليمي الحكماء والعلماء على نقل خبرتهم وعلمهم إلى المتعلمين من معاصريهم، أو من أبناء الأجيال اللاحقة نظراً لطبيعته المعينة على الحفظ والفهم، ويمكن تقسيمه من حيث المضمون إلى قسمين²:

أ- الشعر التعليمي العام : وهو ذلك الضرب من النظم المبتوث في ثنايا القصائد ممزوجاً بالأغراض الأخرى³؛ حيث يُنشر على شكل مقطوعات شعرية ضمن القصائد التي لا تخلو من الغنائية والعاطفة، ويورده الشعراء لإثبات سعة اطلاعهم وطول باعهم في شتى الأغراض، إذ يتطلّب من صاحبه الحكمة والمعرفة.

ب- الشعر التعليمي الخاص: وهو الشعر الذي يُنظم في علمٍ من العلوم مقرّراً حقائقه وواضعاً قواعده⁴، وهو أكثر تخصّصاً، ولا يملك من القصائد الشعرية غير القالب، وعادةً ما يكون على شكل أراجيز.

¹ - الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، عبد الرحمان عبان، ص: 41.

² - المرجع نفسه، ص: 60-72.

³ - المرجع نفسه، ص: 60.

⁴ - ينظر الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، عبد الرحمان عبان، ص: 68.

وأتجه الشعر الإسلامي إلى إصلاح الأخلاق فعمدوا في البداية إلى تهذيب النفوس، وقد كان موضوع الآخرة والاستعداد لها موضوعا شاغلا للعديد من الشعراء، فسعى بعضهم إلى التزود بحسن الخلق والقناعة والابتعاد عن زخرف الدنيا، وها هو الشاعر "أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني" ينصح إلى أبناء مجتمعه قائلا:

وَأَعْمَلْ لِأُخْرَى وَلَا تَبْخُلْ بِمَكْرَمَةٍ فَكُلْ ذَا شَيْءٍ عَلَيَّ حَدًّا إِلَى قَدْرِ
وَحَلِّ عَنْ زَمَنٍ تَخْشَى عَوَاقِبَهُ إِنَّ الزَّمَانَ إِذَا فَكَّرْتَ دُو غَيْرِ
وَكُلَّ حَيٍّ وَإِنْ طَأَلْتَ سَلَامَتَهُ يَغْتَالُهُ الْمَوْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالصَّادِرِ¹

وأبيات الكناني تشعّ بالعاطفة الدنيوية؛ فالشاعر يحثّ على الالتفات إلى الآخرة من خلال كثرة البذل، ويحذّر من تبدل الزمان لأنه معروف بالغدر و يؤكد على أن مال كل حيّ إلى الزوال.

وأكد الشعراء على ضرورة الفهم عند طلب العلوم، وقد عاب العلماء على الطلبة أخذه دون استيعابه بل إنّ بعضهم عرض بمن يقبل على اكتساب العلم رياء ولا يغوص في معناه، وذلك ضمن قالب هجومي ساخر²؛ وممن نظمهم في هذا الجانب ابن طفيل؛ حيث يقول:

مَاكُلُّ مَنْ شَمَّ نَالَ رَائِحَةً لِلنَّاسِ فِي ذَا تَبَايُنٍ عَجِيبُ
قَوْمٌ لَهُمْ فِكْرَةٌ تَحُولُ بِهِمْ بَيْنَ الْمَعَانِي أَوْلَيْكَ النُّجُوبُ
وَفَرَقَةٌ فِي الْمُشُورِ قَدْ وَقَفُوا وَكَيْسَ يَدْرُونَ لَبَّ مَا طَلَّبُوا
لَا غَايَةَ تَتَجَلَّى لَنَاظِرِهِمْ مِنْهُ وَلَا يَنْقُضِي لَهُمْ إِرْبُ
لَا تَعْدَى أَمْرُؤُ جِبَلْتُهُ قَدْ قُسِّمَتْ فِي الطَّبِيعَةِ الرُّتْبُ¹

¹ - عنوان الدراية، الغبريني، ص: 71.

² - شعر الأطباء في الأندلس في القرن السادس الهجري، سلسبيل محمد محمود نوفل، ص: 96

يشبه ابن طفيل طلب العلم بشمّ الورود ؛ وحسب رأيه فإنّ التمتع بعطره لا يتأتّى لأيّ كان فالتفاوت بين الطلبة يكون بقدر الإقبال على العلوم والغوص في مكنوناتها وتدبر معانيها لكشف أسرارها، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند قشور العلم جاهلين قيمة ما حصلوا، فيقصرون بذلك عن بلوغ مطالبهم ، وفي هذه الأبيات تأكيد على الفروق الفردية بين البشر.

ويقسّم الحكماء والعارفون العلوم إلى منازل ومراتب، تتفاوت وتدرج من السهولة إلى الصعوبة وفق البساطة والتعقيد وهذا ما يوضحه أبو العباس أحمد بن خليل الكومي (- 581هـ) في قوله:

إِنَّ الْعُلُومَ لَجَمَّةٌ وَأَجْلُهُمَا
عِلْمُ الْقُرْآنِ وَسُنَّةُ الْمُخْتَارِ
فَأَحْفَظُ كِتَابَ اللَّهِ وَآخِرَ عُلُومِهِ
فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَمِلْ إِلَى الْأَنْبَارِ
وَاعْرِفْ صَاحِبَ رِوَايَةٍ وَسَقِيمَهَا
وَتَحَرَّرْ هَدْيَ السَّادَةِ الْأُبْرَارِ²

إلى أن يقول:

وَالنَّحْوُ مِنْ شَرْطِ الْعُلُومِ فَإِنَّهُ
لِعَوَامِضِ الْأَقْوَالِ كَالْمَسْيَارِ³

يرى أبو العباس أنّ العلوم شتى وأجلّها ما تجّه إلى حفظ القرآن وتفسيره وفهم الحديث النبوي والاهتداء بسنة المصطفى (عليه الصلاة والسلام) ، ثم الاقتداء بسيرة الصحابة الأبرار، واقتفاء أثر التابعين والصالحين، فإذا فرغ من العلوم الشرعية انتقل إلى العلوم اللغوية ولعلّ أجلّها: علم النحو، وقد أُدرج هو الآخر ضمن العلوم النقلية لأنّه خيرٌ معينٍ على فهم كلام العرب، ومعرفة أسرار لغتهم، وهذا ما قد يفسر الكمّ الهائل من المنظومات التي ألّفت في هذا الجانب.

¹ - المغرب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف الشيخ الفقيه الحافظ المتقن الواعظ المفتن محي الدين أبي محمد عبد الواحد ابن علي التميمي المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان ، إشراف محمد توفيق عويضة ، مطابع شركة الإعلان الشرقية ، القاهرة ، دط ، سنة 1963م ، ص: 173.

² - الدليل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر 1 ، ص: 114.

³ - الدليل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 114.

ومن أشهر المنظومات الشعرية على هذا العهد ما وضعه ابن معطي الزواوي (628هـ)¹ التي وضعها في علم النحو وسمّاها "الدرة الألفية في علم العربية"، وقد شرع في كتابتها سنة 595هـ، وتشتمل على ألف واحد وعشرين بيتا في النحو نظمها على بحريّ الرجز والسريع²، ويعدّ ابن معطي أوّل من أطلق مصطلح الألفية على الشعر التعليمي الذي نظمه في علم النحو، والعروض، ومسائل أخرى في اللّغة العربية³، وقد استهلها بقوله:

يَقُولُ رَاجِي رَبِّهِ الْعَفُورُ
يَحِي بِنُّ مُعْطِي بِنِ عَبْدِ النُّورِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا
بِأَحْمَدِ دِينَا لَهُ ارْتِضَانًا⁴

وقد تطرق ابن عبد المعطي في ألفيته إلى مختلف المسائل النحوية بغية تسهيل حفظها وتقريبها للأذهان، داعمًا إيّاها بشواهد من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، كما لجأ إلى الشعر والأمثال وهذا كثير في ألفيته ليشهد بذلك على ثقافته الدّينية، ومعرفته بكلام العرب.

وكان الغرض من ذلك كلّه تسهيل حفظها وتقريبها من الأذهان، ومن أمثلة ما جاء فيها قوله في البيت الأربعين بعد الثلاث مئة، ثمّ البيت الذي يليه من باب المضمّرات؛ حيث قال:

وَمَوْقَعُهُ فِي الْإِبْتِدَاءِ وَإِنَّا
وَبَابُ كَانٍ مَعَ بَابِ ظَنَّنا
كَقَوْلِهِ جَلَّ: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
وَمِنْهُ مَا فَسَّرَ بِاسْمِهِ انْفَرَدَ⁵

¹ - هو أبو الحسين يحيى بن عبد المعط بن عبد النور الزواوي المغربي النحوي الفقيه الحنفي الملقب بزین الدين والمعروف بابن معطي، ولد في قبيلة "زواوة" بظاهر بجاية في المغرب الأوسط، سنة 564هـ، وأقبل منذ صغره على طلب العلم وتحصيله ومن أهم شيوخه التاج الكندي وابن عساكر والجزولي حتى نبغ في علم العربية ثم انتقل إلى مصر واستقر عند الخليفة الكامل حيث أجلسه للتدريس إلى أن توفي فيها ودفن بالقرب من الإمام الشافعي، له مؤلفات عديدة من بينها: ديوان خطب، وديوان شعر، ونظم ألفاظ الجمهرة إلى غير ذلك، ينظر ألفتة بن معطي في النحو والصرف والخط والكتابة، للعلامة يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي، ضبطها وقدم لها سليمان إبراهيم البلخي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ط1، سنة 2010م، ص: 11-09.

² - الدرة الألفية، ابن عبد المعطي الزواوي، ص: 85.

³ - المرجع نفسه، ص: 20.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 17.

⁵ - المرجع نفسه، ص: 36.

وتمضي جميع أبيات الألفية على هذا النسق؛ حيث نجده يستدعي المسألة المراد التعرض إليها ويدعمها بشواهد من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، كما يلجأ إلى الشعر والأمثال وهذا كثير في ألفيته ليشهد بذلك على خلفيّة الدّينية ومعرفته بكلام العرب ، ومثال استشهاده بالأمثال قوله في البيت الثاني عشر بعد المئتين:

شَأْنُكَ وَالْحَجَّ أَيُّ الزَّمِّ شَأْنُكَ أَهْلَكَ وَاللَّيْلُ أَيُّ الْحَقِّ أَهْلَكَ¹

ففي قوله الحق أهلك تضمن للمثل العربي القائل: " أدرك أهلك مع الليل"² ، ويقال إنّ هذه المنظومة هي التي أهدمت ابن مالك صاحب الألفية الشهيرة في النحو، وقد طارت هذه الألفية في مشارق الأرض ومغاربها.³

وقد وضع ابن معطي العديد من الأراجيز والمنظومات التعليمية التي مسّت كلاً من: علم النحو، والبلاغة، وعلم القراءات، وقد علّق عليه عبد الرحمان عبّان بقوله: «تكشف هذه المؤلفات عن نزعة ابن معطي الواضحة في نظم العلوم منسجماً في ذلك مع طبيعة عصره المتسمة بالجهاد والحروب الصليبية، والتي فرضت على العلماء الميل إلى الاختصار والتلخيص، فبرزت المنظومات التعليمية كوسيلة لتيسير العلوم»⁴ لقد نظم ابن معطي هذه الألفية شعراً استجابة لمعطيات الواقع حيث كان يهدف من ورائها إلى التيسير.

وبعد هذه اللمحة عن الشعر التعليمي على عهد الموحدين يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- لقد استطاع الشعر التعليمي أو المنظومات الشعرية كما يحلو للبعض تسميتها أن تعكس مقدرة الشعراء الموحدين - سواء في بلاد المغرب أو الأندلس - على نقل تجاربهم وخبراتهم إلى الناشئة؛ من خلال تركيزهم على ضرورة التحلّي بالأخلاق الحميدة ، وقد سكبوا مضمون العلوم والفنون في قالب

¹ - الدرة الألفية، ابن عبد المعطي الزواوي، ص: 29

² - ينظر الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين ، عبد الرحمن عبّان، ص: 98

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 13

⁴ - الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين ، عبد الرحمن عبّان، ص: 83.

شعري مميّز عكس براعتهم في اللغة العربيّة واهتمامهم الكبير بها، إذ كانت أوّل ما يلقّن لهم في الكتابات ودور العلم عند الجلوس في حلقات التّعليم المرتكزة في مناهجها على التّشبع بالقيم الدّينية، وفهم النّصوص الشّرعية التي اكتسبتهم شخصية مسلمة، قوية، متّزنة وعاقلة تعرف كيف تنهل من المعارف وترى في طلب العلم عبادة.

-اهتمّ العلماء والحكماء الموحّدين لم يقتصر على نوع واحد من العلوم بل اتّجه إليها جميعاً؛ وهذا لم يتأتّ من فراغ، بل جاء نتيجة لسياسة الدّولة الحكيمة التي عرفت أهمية العلم فشجّعت النّجباء من الطّلبة واستقطبت العلماء من شتى الأصقاع، ذلك أنّ العديد من حكامهم قد عُرف بغزارة علمه وتبحّره في شتى المعارف.

13- الموشحات والأزجال:

أ- الموشحات:

شهد هذا الفنّ ذيوغاً على عهد المرابطين؛ ومن أبرز الوشّاحين الأعمى التّطيلي (-525هـ)، ويحيى بن بقي (-540هـ)، وتواصل الأمر على عهد الموحدين الذي يعتبر من أزهى عصور هذا الفن¹؛ حيث استهوى كبار الشعراء بعدما كان في السابق مظهراً لضعف اللّغة²، وأسهم وشّاحو هذه الفترة في الدّفع بعجلته نحو التّقدم؛ سواءً بالتّسج على منوال سابقهم أو بابتكار مواضيع جديدة³؛ ومن بينها: الزّهد، والتّصوف، والمدائح، والخمر والمجون⁴ إلى جانب الاعتذار الذي فتح ابن نزار باب القول فيه⁵ كما شهد هذا العصر بزوغ نجوم تالّلات في سماء هذا الفنّ؛ ومن بينهم: "ابن خلف الجزائري"، و"ابن خزر البجائي"¹، و"ابن هردوس"²، وغيرهم³.

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 330

² - ينظر الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، مصطفى الشكعة، ص: 405-407.

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 395.

⁴ - ينظر الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، مصطفى الشكعة، ص: 332.

⁵ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 396، ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 493.

وكان ابن زهر الحفيد من حسنات دهره في هذا الفن وفق شهادات معاصريه⁴؛ فقد كان شاعراً مجيداً استطاع الرمي في كل فنّ بسهم، ولكن شهرته بلغت مداها في الموشحات بشهادة معاصريه⁵، فتبوّأ صدارةً وشّاحي هذا العصر، وقد ساعده حسنه الإبداعي، وحرصه على تجويد موشحاته في تحسين أشعاره⁶، ولعل قصته مع سهل بن مالك خير مثال على ذلك⁷، وكان لهذه المزايا إسهام في انتشارها بل كُتب للعديد منها الخلود إلى عصرنا الحالي⁸، كما شهد هذا العصر اقتحام المتصوّفة لهذا المجال على غرار محي الدين بن عربي، والششتري، ومن موضوعات الموشحات في هذه الفترة:

أ- الغزل: وضعت الموشحات بهدف الغناء لذلك كان من الطبيعي أن تتناسب مع شعر الغزل الذي قيل في مجالس الطرب⁹، وقد أكثر الشعراء من التغزل؛ سواء بإفراد قصائد مخصّصة له أو يجعله في مقدمات الموشحات، وتألّق نجم ابن زهر الحفيد في هذا العهد الذي يُعتبر بحقّ من أفضل وشّاحي الغزل¹⁰ وقد راوح الوشّاحون بين الغزل العذري والحسي¹¹ فمن العذري قول ابن الفرس:

نَزَّهُتُ فِيهِ مَقَامِي عَنِّ خَوْضِ أَهْلِ الْمَلَامِ

¹ - ينظر المقدمة ، ابن خلدون ، ج2، ص: 431

² - ينظر تاريخ الأدب العربي، شوقي صيف ، ص: 144

³ - قال فيه الأصبهاني: « شاعر المغرب الأوسط وأديبه، وألمعيه وأريبه، وهو صاحب توشيح وتوشيع، وتقصيد وتقطيع، وقد سار شعره غناء»، خريدة القصر ، العماد الأصفهاني، ج1، ص:- 181-182.

⁴ - قال عنه ابن دحية: « والذي انفرد شيخنا به وانقادت لتخيله طباعه، وأصارت النبهاء خوله واتباعه: الموشحات، وهي زيادة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته. وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق. وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضيء المشرق» ينظر المطرب ، ابن دحية ، ص: 204، ينظر ترجمته التكملة، ابن الأبار ، ج1، ص: 75

⁵ - ينظر خريدة القصر ، العماد الأصفهاني ، ص: 399.

⁶ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 400.

⁷ - ينظر نفع الطيب ، المقرئ، ج7، ص: 09.

⁸ - ينظر المصدر نفسه، ج2، ص: 250.

⁹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى ، ص: 332

¹⁰ - ينظر المصدر نفسه، ص: 341-344

¹¹ - ينظر المصدر نفسه، ص: 337

أَيُّنَ مِجْمِيْلٍ وَعُورُوهُ بِنُّ حِرَامٌ¹

فابن الفرس يترقّع في موشّحته عن الغزل الحسي الذي تحكّمه الغرائز، وصرّح في مقابل ذلك بأنّه على مذهب جميل بثينة، وعروة بن حزام اللذين اشتهرا بغزلهما العفيف الطاهر في المشرق.

وردّد الوشّاحون أسماء الجوّاري اللواتي أحببهنّ مثل "حسانة" التي كلّف بها القاضي أبو حفص عمر بن عبد الله السلمي فقال فيها موشّحات طارت شهرتها في الأقطار²، ولم تقتصر موشّحاتهم على نقل إعجابهم وتعزّزهم بمفاتيح محبوباتهم بل صوّرتهم أيضا في لحظات الضّعف وذلك عند محاولة إخفائهم حزنهم وافتقادهم لمحبوباتهم فيفتضح أمرهم³.

وتشابهت موضوعاتها مع شعر الغزل التقليدي؛ حيث احتفظت المرأة بالانطباع الذي تركته في القصيدة التقليدية؛ سواء من حيث المضمون أو الصّور⁴. والتفتّ الوشّاحون إلى جمال الغلمان أكثر من التفاتهم إلى جمال النساء بسبب ذبوع تيّار الجون؛ فعبروا عن كلفهم بهم سواء في الموشّحات الخمرية أو في غيرها؛ ونقلوا معاني الغزل الأثوي إلى هذا اللون من الغزل⁵، وصوّروا مفاتيح المحبوب متأثرين في ذلك بالطبيعة⁶.

ب- الطبيعة: انبهر الوشّاحون بمواطن الفتنة في بلادهم؛ حيث وصفوا الكثير من مظاهر الطبيعة الخلابة التي أغرموا بها؛ حيث يقول ابن مسلمة في وادي مألقة:

بِوَادِي رِيَّةٍ إِخْلَعُ عِدَارَ التَّصَابِي

أَمَّا تَرَاهُ مُفَرَّغٌ

¹ - المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد ، ج2، ص: 122.

² - الغصون اليبانة ، ابن سعيد، ج1، ص: 93.

³ - الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 340 نقلا عن جيش التوشيح 340.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 334.

⁵ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 346.

⁶ - ينظر ديوان ابن سهل الأندلسي، ابن سهل الأندلسي، ص: 23.

مَثَلُ الصَّبَّاحِ المَرَصَّعِ

بِالرَّوْضِ عَادَ مَجْرَعٌ¹

ويقترن ذكر نهر مالقة باللّهُو والتّصابي لأنّ كلّ ما فيه يدعو إلى ذلك؛ من انعكاس لنور الشمس على صفيحة مائه، وتألّفها بأنوار تسلب الألباب، ومنظر الرّوض الموشّى بالرياحين، وتساقط الغيث عليه. وقد يمتزج وصف الطبيعة أيضا بوصف الخمرة والتغزل باعتبار أنّ مجالس الخمر كانت تقام في كنفها وأنّ الواحد منهما يستدعي الآخر، كما امتزجت بالحنين الذي كان يُضمّن في كلّ مناسبة سانحة كموشح ابن زهر الذي تداوله المغاربة كثيرا²، وموشح ابن الحسن المريني في سد قرطبة³.

ج- الخمر والمجون: ارتبط وصف الخمر بالمجون كما ارتبط بوصف الطبيعة لأنّ كؤوسه كانت تدور بين أحضانها⁴ واهتم الوشاحون بتفاصيلها فوصفوها بالبكر وبالقدم كما شدّهم لوئها وتأثيرها في النفس، وقد اعتبرها ابن سهل خير دواء لصروف الدهر ونوائبه⁵ وقد عكفوا على شربها في كلّ حين، فيما كان لبعضهم الآخر أوقات محبّبة لمعاقرتها مثل: أبي العباس المنتائي الذي فضّل الأصيل⁶، وفي موشحاتهم وصفٌ للسّقاة سواء كانوا نساء⁷ أو رجالا، وقد أسروا زبائنهم بحسن مظهرهم وعذب كلامهم؛ كقول ابن زهر الحفيد (-595هـ) في موشحه الذي طار في مشارق الأرض ومغاربها:

¹ - المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج1، ص: 424

² - مما جاء في مقدمته: ما للمؤلّف من سُكْرِهِ لا يُفِيّقُ يالهُ سَكْران

نفح الطيب، المقرّي، ج2، ص: 250.

³ - ينظر المصدر نفسه، ج1، ص: 477.

⁴ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 357.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص: 365.

⁶ - نفح الطيب، المقرّي، ج2، ص: 364.

⁷ - ينظر قول ابن عيسى في جارية سحرته بحسن قدها، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج1، ص: 277.

أَيْهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمَشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعِ
 وَنَدَمْتُ هَمْتُ فِي غُرَّتِهِ
 وَسَقَانِي الرَّاحَ مِنْ رَاحَتِهِ
 كُلَّمَا اسْتَيْقَظَ مِنْ سَكْرَتِهِ

جَدَبَ الزُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَّكَى وَسَقَانِي مِنَ الرَّاحِ أَرْبَعًا فِي أُرْعٍ¹

فابن زهر يصف في هذه الموشح شدة سكره في قوله: "سقاني أربعًا في أُرْعٍ"، كما يصف هيامه بالغلام الذي سقاه؛ ولا سيّما غرّته الحسنة، وقد أبدع كثيرا في تصويره وهو متكئ يسقي السكارى، والموشحة تسيل خفة على حدّ وصف شوقي ضيف، ويرى أنها اعتمدت أعاريض مهملة من الشعر العربي، وليست من الشعر الأعجمي كما ادّعى (ريبيرا)².

ومزج الوشاحون وصف الخمرة بالمجون والدعابة، ويعدّ ابن حزمون خير من يمثّل هذا الاتجاه مقتديا بأبي نواس في المشرق؛ حيث عمد إلى الموشحات السائدة في عصره فقلبها وغيّر فيها كثيرا سواء من حيث العروض أم الرّوي بما يقود معناها إلى المجون، ولعلّ أكثر من تعرّضت موشحاته إلى هذه الظاهرة ابن زهر نظرا لعدوبتها³.

د- المدح: سعى الوشاحون في هذا الباب إلى منافسة الشعر التقليدي، وربما كان هذا الغرض من أوائل الأغراض التي تطرقت لها الموشحات على اعتبار أنّ الوشّاحين الأوائل كانوا مقرّبين من البلاط المرّوني فجاءت موشحاتهم تجمع بين المدح والغزل، وشهد هذا الضّرب من الموشحات رواجاً على عهد الموحدين؛ إذ كلف بما أمراؤهم وحكامهم؛ سواء في المغرب أم الأندلس حتى نازعت

¹ - المطرب، ابن دحية، ص: 205.

² - ينظر تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ص: 160.

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 362-372.

شعر المدح من حيث الأهمية نظرا لتأثيرها القوي في السامع؛ ذلك أنها كانت تُغنى مباشرة¹، وكان الوشاحون يقدمون وصف الخمرة على المدح كما قد يضيفون إليها الغزل، ووصف الطبيعة، وقد يقتصرون على وصف الخمر والتغزل بالساقى².

وسمحت الموشحة لقائلها باختصار المسافة بين المادح والممدوح بعكس القصيدة التقليدية؛ لأنها زُفعت الكلفة بينهما وأصبح المدح قريبا من الغزل فلا يتردد قائلها في وصف الملامح الحسية لممدوحه مثلما فعل ابن زهر مع الأمير أبي حفص الموحدي؛ حيث تحدّث عن حسن قدّه وجمال محيّه في قوله:

هُوَ الْحُسْنُ لَا أختَارُ مَطْلُوبًا عَلَيْهِ

وَجْهٌ تُشْرِقُ الْأَنْوَارُ عَلَى صَفْحَتَيْهِ

وَتَسْتَبِقُ الْأَبْصَارُ إِلَيْهِ إِلَيْهِ

وَقَدْ كَعُضْنَ الْبَانَ فِي حِقْفٍ مَهِيْلٍ
فَإِذَاكَ الَّذِي يَلْحَانِي عَلَيْهِ غُدُوبِي³

فالوشاح قد مزج بين الغزل والمدح والهدف من كليهما إبراز تأثير الممدوح في نفس من يراه أو يقابله فيفتنه في كلّ حركة أو سكون يصدره. وحرصت الموشحات أيضا على تقديم الممدوحين في صورة الأبطال الذين لا يترددون في الدود عن حمى الدين، فيذكرون ألقابهم ويتغنّون بشجاعتهم موازاةً مع مانسجوه في شعرهم التقليدي⁴، كما ركّزت على صفة الكرم والسخاء مثلما صنيع ابن شرف مع الخليفة أبي يعقوب⁵.

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 374-346.

² - ينظر ديوان ابن سهل الأندلسي، ابن سهل الأندلسي، ص: 314.

³ - المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج1، ص: 275.

⁴ - ينظر قول ابن هردوس في عثمان بن عبد المؤمن، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص: 215.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص: 219.

هـ - الرثاء : تطرقت موشحة الرثاء إلى مختلف المواضيع التي تعرّضت إليها المرثية التقليدية، ولعلّ موشحة ابن حزمون التي نظمها في "أبي الأعتة" أحد قادة بلنسية¹ هي الوحيدة التي نجت من مقصلة الضياع، وقد وصّور فيها باقتدار قيمة هذا القائد، كما تمكّن من تطويع الألفاظ لمعاني الرثاء موظفا الصنعة العروضية لتكثيف الأحاسيس².

و - الموشح الديني: استعان المتصوفة بالموشحات والأزجال لذيووعها بين الناس وارتقوا بها من الحبّ المادي إلى الحبّ الروحاني³، ومن موشحات الششتري قوله:

أَشْرَقَتْ	كَالشُّمُوسِ	فِي رُجَاجِ القَلْبِ
مُزِجَتْ	فِي الكُّؤُوسِ	مِنْخُلُوصِ الحُبِّ
وَهَدَتْ	لِلنُّفُوسِ	مِنْخِلَالِ الحُجُبِ
فَهْـدَاهَا اسـتَبَانَ	لِلحَمِيمِ الصَّـبْرِ	
وَرَأَاهَا عَيْـانَ	يُـوَسُّ فِي البَحْرِ	

لقد استعان الششتري بالخمرة الصوفية ليبرهن على صدق حبه لله (عز وجل) لأنها أضاءت رُوحه فتجلّت له قدرة الخالق ورحمته كما تجلت لنبيّ الله يونس (عليه السلام) في بطن الحوت وغيره من الأنبياء في باقي الموشحة وهو ما يدل على تأثره بأبي مدين شعيب.

وامتازت الموشحات في المغرب الإسلامي بالبساطة لأنها كانت معيارا للجودة عكس نظيرتها المشرقية، وذلك وفق ما ورد عن ابن حزمون الذي رأى أنّ الموشح لا يكون موشحا إلا إذا كان عاريا من التكلف⁵، وانقسمت الموشحات على هذا العهد إلى قسمين؛ فمنها ما جاء على أوزان الشعر العربي، ومنها ما ليس له وزن إلا ما جاء في الخرجة، وعمدوا إلى حيل للتجديد فيها كالتغيير في عدد

¹ - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ص: 217.

² - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، ص: 388.

³ - ينظر الخطاب الشعري الصوفي في المغرب، أحمد عبيدي، ص: 144.

⁴ - ديوان الششتري، الششتري، ص: 146.

⁵ - ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج2، ص: 430.

تفعيلات البحر الواحد في الفقرات كما أغاروا على الأوزان القديمة وولّدوا منها أوزانا جديدة، ولم يجدوا غضاضة في لزوم ما لا يلزم¹، ومن مظاهر التجديد أيضا مخالفتهم بين قوافي الأغصان وقوافي الأقفال على الرغم من تشابه قوافي هذه الأخيرة في الموشحة التي ظلّت محترمة، واقتصر التنوع على الأغصان لا غير.

ولم يقتصر التطور الذي شهدته الموشحات على المواضيع فحسب، بل طال أيضا عناصرها ومن أهمّها الخرجة التي تعدّ خصوصية المغرب الإسلامي؛ وكان الوشاحون يختارون الخرجة الأعجمية أو العامية ثم يبنون عليها أعمالهم، ومثّلت هذه الأخيرة نسبة كبيرة من موشحات الموحدين وكثرت في المدائح خلافا لما دعا إليه ابن سناء الملك، وذلك لانتشار لهجات عامية زاحمت الفصحى، وكثيرا ما قيلت هذه الخرجات على لسان الصبية أو النساء أو المجانين تتقدّمها ألفاظ معينة نحو "قال" أو "قالت" أو "غنى" وتتميّز ببساطتها وانسيابيتها، وعادة ما تكون على لسان فتاة تشكو لواعج العشق لأمتها وتضايقها من الرقيب بكلّ جرأة، وكانت تلك النساء في العادة من الجوّاري الإسمائيات أو المستعربات من أهل الدّمة، ونجح الوشّاحون في تطويع ألفاظ موشحاتهم للعروض العربي، وما وصلنا منها قليل لضياعتها، أمّا الخرجة المعرّبة فقيلت في موشّحات المدح مقترنة باسم الممدوح وتميزت بألفاظها الغزليّة جدّا التي تحرك النفوس، وقد نجد الوشّاح يضمّنها أبيات شعر أو خرجات لموشحات مشهورة بألفاظها أو مع التحوير فيها².

(ب) - الأزجال:

عرف هذا الفنّ شهرة كبيرة على عهد المرابطين؛ بخاصة مع مجيء ابن قزمان الذي يعدّ الواضع الفعلي لهذا الفنّ³، واستمر تطوّره على عهد الموحدين؛ إذ لم يمنعهم حبّهم للفصحى من تشجيع

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي سعد عيسى، ص: 407-409.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 407-427.

³ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 414.

الزجل الذي قيل بالعامية، وقد ذكر ابن سعيد العديد من الرجالين¹، ومن أشهرهم: ابن ناجية اللورقي الذي كان إمام الرجالين في عصره، واعتبره ابن الدباغ خليفة ابن قرمان²، وابن البخصبة الذي كان يقول أزجالا مرفوقة بالبوق على طريقة البدو³، إلى جانب مدغليس الذي نظم قصائد زجلية منظومة على أوزان العرب غير أنها قيلت بالعامية⁴؛ ولم يكن اشتغاله في الأزجال بسبب ضعف لغته لأنه كان ممن نظموا القصائد التقليدية، ولكنه كان أكثر براعة في هذا الفن فاقصر عليه، وجاءت أزجاله مطبوعة جيدة متبعة موشحات ابن حزمون⁵.

وطرق الرجالون مختلف الأغراض التي تناولها الشعر التقليدي، وكانت طبيعة المواضيع هي التي تفرض عليهم طريقة القول؛ كأزجال المدح والثناء التي ساروا فيها على طريقة العرب، فيما حذت بهم الخمريات، والشعر الشاذ إلى السير على نهج المحدثين⁶، ولذلك فقد أتبع الغزل نهج الشعر التقليدي سواء في مقدمات أزجال المدح أم منفردا، وجاءت صورة المرأة قريبة من التي رسمها الشعر التقليدي في المواضيع والصور حيث استعاروا من الطبيعة صورها، ومزجوا ذلك بوصف الخمر التي عبروا عن كلفهم بها، وخلعوا العذار في شربها، ووصفوا مجالسها، وعددوا أصنافها مثلما نجده في أزجال مدغليس التي تقدمها الغزل المستعين بأوصاف حسية ومعنوية، أما الهجاء فقد اشتهر به أبو علي الدباغ صاحب الهجاء الفاحش؛ حيث كان إمام الهجو على طريقة الزجل، والقول في اللياسة⁷.

¹ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 283-286.

² - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ص: 283.

³ - ينظر المرجع نفسه، ج1، ص: 177.

⁴ - يقول المقرئ عن مدغليس: « وكان مدغليس هذا مشهورا بالانطباع و الصنعة في الأزجال، خليفة ابن قرمان في زمانه، وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قرمان في الرجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قرمان ملتفت إلى الصناعة، ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديبا معربا لكلامه مثل ابن قرمان، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه»، نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 385.

⁵ - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ص: 214.

⁶ - ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، محمد محي الدين، ص: 417.

⁷ - ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ص: 438.

واقترح الزجالون مجال التصوف على يد الششتري الذي ترك إنتاجا غزيرا في هذا الميدان، صوّر فيه حياة الصوفي الذي يهجر الأهل، ويسبح في الأرض حبا في الله، وداعيا الناس إلى طريقته، كما صوّر في إنتاجه موقف الناس من حياته ومظهره، وعبر عن مذهبه، وأفكاره على غرار فكرة "وحدة الوجود" التي كانت مرتكزا لتصوّفه، واتخذ الخمر والغزل رمزا للتعبير عنها، فيقول:

فالتفتُ الخطابُ وسمعتوا مني

كُلِّي عَنْ كُلِّي غَابَ وأنا عنّي منّي

وارتفع لي الحجاب وشهدت أني

مَا بَقِيَ أَلِي أَتْر غِبْتَ أَنَا مَع أَتْرِي

لَمْ نَجِدْ مَنْ حَضَرَ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرِي¹

يصف الششتري في هذا الزجل لحظة انتباهه مما كان فيه من انفصال تام عن عالمه المحسوس؛

إذ لم يكن يشعر بشيء منه لأنّ وعيه كان مرتبطا بخالقه وحده، بحيث اتحد به فلم يعد يفصلهما

شيء، وهو شعور يفهمه كل من عاش صدق تجربة الششتري من المتصوفة، وهذه الأبيات تذكرنا بما

أوردناه سالفا عن ابن عربي التي حامت حول نفس المعنى .

وشهد هذا العهد استحداث نوع آخر من النظم في عدوة المغرب، قريب من الزجل سمي:

"عروض البلد" أو "الشعر الملحون"² الذي لم يخرجوا فيه عن قواعد الإعراب، ولا عن العروض، وقد

تطوّر مع الوقت ليتخذ أشكالا جديدة تؤكد على سرعة تقبله لدى العامة حسبما أورد ابن خلدون،

وقد استحسنه أهل فاس وولعوا به، ونوعوه أصنافا إلى "المزدوج"، و"الكاري" و"الملعبة"

و"الغزل"، واختلقت أسماؤها باختلاف ازدواجها³، ولقي هذا الضرب من النظم إقبالا من المغاربة

¹ - ديوان الششتري، الششتري، ص: 166

² - ينظر المقدمة، ابن خلدون، ص: 440.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 441.

فانتشر بينهم، وتفنّوا فيه، ونوّعوا في أسمائه، مراعين في ذلك الوزن، ومُتحرّرين من الإعراب طلبًا للسهولة أو تقصّدًا واستهتارًا¹.

ومن خلال دراستنا للموشحات والأزجال على عهد الموحدين خرجت بالنتائج التالية:

- حافظ الوشاحون والزجالون على صدراتهم في هذا الفن وتمكنوا من طرق أغراض جديدة لم تكن معهودة لدى سابقهم من تصوف واعتذار، وهو ما يشهد على براعتهم في النظم.
- زاحمت الموشحات الشعر التقليدي في أغراضه ومن بينها التصوف لقدرتها على إبلاغ رسائلهم من أيسر الطرق لاعتمادها البساطة، وقربها من العامة، وسهولة حفظها، وهو دليل على عمق تجربتهم الصوفية التي استطاعوا تقديمها للعامة في أسلوب بسيط بالرغم من صعوبتها.
- وجد شعراء زاوجوا بين الموشحات والشعر التقليدي وهذا التنوع يدلّ على مرونة فكرهم وتمكنهم من المزج بين اللغة واللهجات دون الإضرار بالمعنى.
- كان للمجتمع انعكاس كبير على الموشحات والأزجال ويظهر ذلك عند توظيف اللهجات المحلية والأجنبية .
- رسمت الموشحات صورة جريئة للمرأة لكونها الراغبة لا المرغوبة، وبوّحها بعشقها لأمتها متخطية بذلك الأعراف.
- استطاع الوشاحون إحداث تغييرات في الأوزان دون الخروج كليًا عن العروض العربي، وتطوّرت أشكال الزجل في عدوة المغرب لتؤكّد أنّه الأقرب للعامة.
- عرفت الصورة الفنية للموشحات ابتكارا ملحوظا في الأغراض والقوافي والخرجات والصور التي اعتمدوا فيها على التشبيه .

¹ - ينظر النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كون، ص: 130-131.

وبعد هذه القراءة في الأغراض الشعرية على عهد الموحدين يمكن الخروج بالملاحظات التالية :

- لجأ الشاعر إلى الطبيعية لأنها أقرب إلى فطرته وخياله والاستعانة بها لا يحتاج إلى جهد كبير في إعمال الفكر، وقد خلعوا عليها صفات إنسانية فجعلوها تحاكي مشاعره.
- خرج شعر الغزل عن الأعراف التي عهدناها في المشرق فقد كانت المرأة هي الطالبة لا المطلوبة، وشاع التغزل بالغلماان الذي ركز في صورته على ما عرفت به المرأة إلى حد الالتباس على المتلقي.
- تباينت طرائقهم في النظم حيث أتبع بعضهم الشعراء المشارقة، كما تأثروا بشعراء أندلسيين في عصور سابقة.
- الاعتماد على المحاورات والمراسلات الشعرية التي عكست مقدرة الشعراء على الارتجال و سرعة بديهتهم كما أكدت على طول باعهم في شتى الأغراض.
- شهد عهد الموحدين عدة فتوح، وجاءت المدائح وثيقة تاريخية تشهد على إنجازاتهم، وتخلد معاركهم التي عكست بطولاتهم الخالدة وسياستهم الراشدة ولاسيما في عهد القوة .
- كان للثقافة الدينية حضور كبير تجلّى في الألفاظ الدينية، وتوضيف القصص القرآني، واستحضار أحداث من التراث، ولم يهملوا البعد العقائدي الذي تمثل في مبادئ المهدي ابن تومرت الذي أخلصوا له في عهد القوة، ثم ما لبثوا أن انقلبوا عليه في ما بعد مسaire لأوامر الخلفاء.
- الاستعانة بالمحسنات البديعية، والصور البيانية في إطار المنافسة الشديدة بين الشعراء، وحرصهم على تجويد أشعارهم؛ بالاعتماد على التصريح والجناس وكثرة التشبيهات، والمرج بين الأسلوبين الخبري و الجمل الإنشائية ، كما امتاز شعرهم بصوره الطريفة لتقريب المعاني إلى الأذهان.

- تطرّق شعراء الوصف لكل تفصيل في الكون يحيط بالإنسان بدقة وبراعة وجاء ذلك نتيجة تأملهم الدائم وتدبرهم في كل ما يحيط بهم .
- شهد هذا العهد حربًا كلامية بين الفقهاء والفلاسفة من وجهة، وبين الفقهاء والمتصوفة من وجهة أخرى .
- كان لشعر التشوق إلى البقاع لمقدسة أو " الحجازيات " نصيب مهم في شعر الحنين .
- تطوّر غرض الرثاء في مواضيعه فظهر رثاء الحسين بن علي (رضي الله عنهما)، ورثاء النفس .
- يعدّ رثاء المدن والممالك الزائلة وثيقة تاريخية على قصة سقوط الأندلس، ويؤكد تواطء المسلمين على ضياعها، كما يصوّر تعطش النصارى وتكالبهم على الإطاحة بها .
- شهد هذا العصر منافسة قوية بين الشعراء الأندلسيين والمغاربة الذين لم يتأثروا بجيرانهم في الجزيرة تأثرهم بالشعراء المشاركة محاولة منهم لمخالفتهم، وجاء هذا التنافس كرد فعل على مغايرات الأندلسيين بشعرائهم وهو ما استفزّ المغاربة .
- غلب الشعر الديني على إنتاج هذه الفترة وشهد ظهور المولديات، والتغني بالشمائل الحمديّة إلى حد الغلوّ ومن مظاهر ذلك الحقيقة الحمديّة .
- نظم الشعراء في الشعر التعليمي بشقيه العامّ والخاصّ مبيينين عن ثقافة عالي في مختلف المجالات ، ومؤكّدين على كثرة العلوم وتنوّعها على عهدهم .
- تمكن الوشاحون والزجالون من طرق أغراض جديدة لم تكن معهودة لدى سابقهم من تصوف واعتذار مزاحمين الشعر التقليدي وهو ما يشهد على براعتهم في النظم، كما تمكنوا من توليد أشكال جديدة من الأزجال مثل : المزدوج والكارى والملعبة والغزل في عدوة المغرب نظمت باللهجات المحلية .

- تميّز الشعر بتداخل بين الأغراض الشعرية من قبيل ذلك مزجهم الغزل بالحنين، والوصف بالغزل، والحنين بالشكوى إلى غير ذلك.
- شهدت بعض الأشعار اضطراباً في نسبتها؛ حيث ألحقت بشعراء آخرين سواء كانوا ممن أظلم هذا العهد، أم من عصور أخرى.

الفصل الثالث: النشر الفني على عهد الموحدين.

1- الترسّل

2- التوقيعات.

3- الخطب

4- الوصايا.

5- التراجم والسّير

6- الأمثال ولحكّم والمواعظ.

7- المناظرات.

8- المقامة.

9- القصة.

10- أدب الرحلة

ارتبط النثر بالشعر على عهد المرابطين؛ فقد زواج بعض الأدباء بين الفنّين في كتاباتهم، ونبغ منهم طائفة من الكتّاب الذين أجادوا فنّ التّرسل؛ ومن أشهرهم: الفتح بن خاقان، وابن عبدون، وابن أبي الخصال، وغيرهم، وتميّزت كتاباتهم بالصنعة في استخدام المحسنات البديعية، كما اتّجهوا إلى الكتابة في فنون نثرية محدودة¹، أمّا على عهد الموحدين؛ فقد ازدهر النثر نظراً للنشاط الذي شهدته الحياة العلميّة والفكريّة - كما أوردنا سابقاً- بالإضافة إلى عوامل أخرى من بينها:

أ- ازدهار حركة الترجمة: اطلع الموحّدون على آداب الأمم المجاورة وآرائهم، ولاسيّما الفلسفيّة منها؛ وذلك بفضل دعم الحكّام للعلماء²، وأضفت هذه الكتب مسحةً عقليّة على الأدب الموحّدي، وكان لها دور كبير في ازدهار فنّ المناظرات، والمحاورات، والقصة.

ب- كثرة الرّحلات الداخليّة والخارجيّة: وهو ما أدّى إلى الاحتكاك بسائر الأمم، وكان لهذه الرّحلات دور كبير في نضج أدب الرّحلة الذي غدّى العديد من العلوم مثل: التّاريخ، والجغرافيا، والأنتروبولوجيا إلى غير ذلك من العلوم كما أسلفنا الذّكر.

ج - احتفاء النقاد بالنثر أكثر من الشعر: حيث فضّل بعضهم فنّ النثر على الشعر، على غرار: أبي القاسم الكلاعي³ مؤلّف كتاب "الإحكام في صنعة الكلام" الذي انتصر للنثر لأنّه الأصل حيث يقول: « وإمّا خصّصت المنشور لأنّه الأصل الذي أمن العلماء - لامتزاجه بطبائهم - ذهاب اسمه فأغفلوه وضمن الفصحاء - لغلبته على أذهانهم - بقاء اسمه فأهملوه ولم يُحكّموا قوانينه ولا حصرُوا أفانينه»⁴، وقد اشتمل المؤلّف على قواعد ينبغي مُراعاتها في الكتابة، وما تفضيله للنثر على الشعر إلّا لتنزّهه عن المثالب التي نُسبت للشعر وهذا ما يؤكّده في قوله: «أمّا الكتابة فبعيدة عن هذا كلّها، سليمة بما يدعو إلى المهجور، أو يتشبّث بالمهجور. ولذلك

¹ ينظر التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، حمدي عبد المنعم محمد حسين، ص: 389-390.

² ينظر المعجب، المراكشي، ص: 172-173.

³ هو ناقد من مواليد أوائل القرن السادس الهجري وتوفي في منتصفه، أخذ العلم عن علماء عصره، واهتم بالشرعية والأدب، من مؤلّفاته كتاب "الانتصار لأبي الطيّب"، ينظر إحكام صنعة الكلام، لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، لبنان، دط، 1966م، ص: 11-09.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 05.

تزهت طائفة من العلماء اسم الله تعالى عن الاستفتاح به فكتبوا في أول قصائدهم بذكر (الله أكبر)، فمتى ما كتبوا رسالة أو خطبة لم يفعلوا ذلك وكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم. وفي هذا كله دليل على فضل الكتابة على الشعر¹ وحسب النثر أنه اختص بالبسملة دون الشعر لأن الكتابة عادة ما تمتاز بالموضوعية والعقلانية فتأتي أفكارها أكثر صدقا، بعكس الشعر الذي يوصف بالعلو والمبالغة وتزييف الواقع أحيانا، وقد استشهد الكلاعي على دُنُو مرتبة الشعر عن النثر بقول ابن عمر الذي رواه عن النبي (عليه الصلاة والسلام)²، وبذلك يكون النثر أعظم مقاما وأشرف منزلة من الشعر.

وقد شهد عهد الموحدين ظهور عديد الكتب الذين زاوجوا بين النظم والنثر على نحو ما اتسم به المرابطون، بل تفوقوا عليهم؛ إذ كتبوا في أكثر من فن، ومن أشهرهم: ابن عميرة المخزومي (-648هـ)³، وأبو جعفر بن عطية (-553هـ)⁴ اللذين تفوقا على سائر كتّاب عصرهما بمقتضى قول الغبريني: «وما رأيت من الكتاب من أعجبي مثل كتب الفقيه أبي مطرف إلا كتب أبي جعفر بن عطية والكتاب كثير وكتب هذين الرجلين عندي مقدم على غيرهما»⁵ ويكفي دليلا على شهرتهما أنهما من كتّاب سرّ الدولة، يضاف إليهما ابن الأبار، وابن محرز الوهراني الذي برع في الرسائل والمقامات، وعبد المنعم بن عتيق الغساني⁶؛ حيث كانت له كتابات أدبية

¹ - إحكام صنعة الكلام، الكلاعي، ص: 39.

² - حيث قال (عليه السلام): «لأن يمتلي جوف رجل قيثا خير له من أن يمتلي شعرا»، ينظر فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله إسماعيل البخاري، شيخ الإسلام قاضي القضاة المحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الشافعي، التزام عبد الزحمان محمد، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط2، 1980م، ج10، ص: 451.

³ - جاء في ترجمته قول الغبريني: «هو الشيخ الفقيه المجيد المجتهد، العالم الجليل الفاضل (...). أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي، من أهل شقر، وسكن بلنسية، وكتب عن ولاتها... وتهادته الدول وولي القضاء (...). استوطن بجاية وتولى القضاء، له علم بالفقه وأصوله (رحل إلى تونس وولي القضاء وبها توفي سنة 658هـ، ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 298-302»

⁴ - ينظر رسائل موحدية، أحمد عزراوي، ص: 18-19.

⁵ - عنوان الدراية، الغبريني، ص: 298-302.

⁶ - الشيخ الفقيه، والقاضي الجليل، أبو محمد عبد المنعم الغساني من أهل الجزائر، كانت له نباهة ونزاهة ووجاهة، وشعر لائق، وكان ينشئ البياعات والخطب، وتخطط قضاء بجاية، ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 111.

فائقة سواء في الخطب، أم الكتابة السلطانية، فضلا عن أبي الخطاب بن دحية (-633هـ)¹ الذي كتب العديد من المخاطبات، والرسائل المغلقات، والمتأمل في أسماء الكتاب يجد أنّ أكثرهم من خاصّة المجتمع؛ فهم إمّا قضاة، أو فقهاء، أو أساتذة وقد يعود ذلك إلى وجوب مراعاة آداب الكتابة² والتي يصعب على العامة التزامها في كلّ حين .

وشهد عهد الموحدين تصنيف العديد من المؤلفات على غرار "ديوان خطب"³ لابن معطي الزواوي، و"ديوان رسائل" لابن الأبار⁴، و"رحلة ابن جبير"، ورسالة "حيّ بن يقظان" لابن طفيل، وكتاب "ترتيب الرحلة" لمحيي الدين ابن عربي؛ حيث تطرّق فيه لرحلته المشرقيّة، وذكر أهم العلماء الذين لقيهم فيها⁵، بالإضافة إلى كتابه "المناظرة بين الإنسان والحيوان"⁶، كما عنيّ كتاب الموحدين الموحدين بتدوين العديد من الشروح والاختصارات على كتب أدبيّة ذاع صيتها في المشرق أو المغرب الإسلامي مثل: "اختصار سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم"⁷ لمحيي الدين ابن عربي، فضلا عن "اختصار نوادر القالي"⁸، كما قام ابن المرخي بتأليف "اختصار اليتيمة"⁹ بيد أنّه لم يتبقّ من معظم هذه المؤلفات إلّا العناوين بعد أن طالها الصيّاع .

وسنحاول في هذا الفصل التّطرق إلى أهمّ الفنون النثرية على عهد الموحدين، وسيكون لنا

محطّات عند أهمّ المؤلفات التي دُوّنت، ولا زالت شهرتها تصدح إلى يومنا، مع استعراض بعض النماذج للوقوف على مميّزاتها الفنيّة، ومدى تطوّر فنّ النثر بين القرنين السادس والسابع الهجريّين

¹ - هو الشيخ الفقيه ، المحدث الحافظ المتقن ، النحوي اللغوي، أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي، ولد سنة 544هـ، وهو من كبار المحدثين، كانت له رسائل ومخاطبات، وأشعار، ارتحل إلى المشرق في زمن بني أيوب فرفعوا شأنه، ينظر عنوان الدراية، الغريبي، ص: 269-278

² - ينظر إحكام صنعة الكلام ، الكلاعي ،ص: 39-44.

³ - ينظر الدرة الألفية، ابن معط الزواوي ،ص: 10 .

⁴ - ينظر ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 18.

⁵ - ينظر عنوان الدراية، الغريبي ، ص : 168.

⁶ - ينظر المصدر نفسه ،ص: 172.

⁷ - ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁸ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 90.

⁹ - ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 97.

1- الترسُّل: شهد هذا الفنّ ازدهارا نظرا لسعة رقعة الدولة الموحّديّة، وانتشار ظاهرة الاغتراب المكاني بسبب الرّحلات والفتن؛ حيث صُعِب الالتقاء بين الأهل والأصحاب - مثلما سنرى لاحقا- ولذلك تنوّعت هذه الرّسائل وتعدّدت أصنافها على النحو الآتي:

أ - الرّسائل الإخوانية: وتدعى أيضا "الرّسائل الشّخصيّة"¹ التي تبادلها الأهل والأصحاب، وعرّفها محمد رضوان الداية بقوله: «رّسائل يعبّر فيها الكاتب عن قضايا خاصّة وأمور شخصيّة، أو تتعلّق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل والأصدقاء ممّن قرب مكانه أو بعد مزاره، ويدخل في ذلك التّهاني والعتاب والاستعطاف، والاعتذار والتّعازي والثناء والشّكر وما شابه ذلك من الموضوعات والأغراض»²، وتعكس الرّسائل جانبًا من العلاقات الاجتماعية التي تستلزم ساعاتٍ للتواصل بين الأحبة، وكانت تتمّ - عادةً - بإرسال بطاقات دعوةٍ نثرًا أو شعرًا إلى المنتديات بما فيها من أنسٍ وتدعو إلى الحضور، وتشجّع عليه³، وقد تباينَ موقِف المتلقّين بين القبول أو الرّفْض بأسلوب بأسلوب أنيقٍ لبق، وهي في هذا كلّه تصوّر جانبيّين من الحياة الاجتماعية؛ أحدهما في حالة السّلم والآخر في حالة الحرب⁴، مؤكّدة على تفاعل هذا الفنّ النثري مع الواقع.

وكرّرت المكاتبات بين الأصدقاء الذين حالت بينهم ظروف الحياة، ومن بينها ردّ عبد الوهّاب القيسي على تذييل "أبي الحجاج بن الشيخ" في تعليقه على بيّتيه اللّذين ذاع صيتهما في عهد الموحّدين، ومّا جاء فيها:

إِنَّ خَلِيلًا لِي مِنْ قُضَاعَةٍ ذَكَرَنِي أَيَّامِي الْمَضَاعَةِ
إِذْ الْهَوَى وَاللَّهُوُ لِي بِضَاعَةٍ مَهْلًا! فَذَاكَ الدُّرُّ قَدْ أَضَاعَهُ
خِلُّكَ لَمْ يَسْتَدِمِ ارْتِضَاعَهُ

¹ - ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان، دط، 2000م، ص: 223.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 227.

³ - ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوفي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ش.م.م، مصر، ط1، 2008م، ص: 184.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 202.

أيها الفاضل الحسيب، إلى متى هذا التغزل والنسيب؟ ألم تنفذ أيام الجهل؟ ألم يعدّ الفتى كالكهل؟ أما والله لقد أحاطت بالرقاب السلاسل، وأن أن يخاف من العقاب المتغزل المراسل (...). ثم ما أنت وعهد ساكنات الخيام وإن كانت من مباركات الأيام؟¹، وقد استهلّ الكاتب رسالته بتخميسٍ يدور حول نفس موضوع ووزن البيتين اللذين هو بصدد الحديث عنهما، ثم انتقل للتعليق على أبيات أبي الحجاج بقطعة نثرية افتتحها بالنداء في قوله: "أيها الفاضل الحسيب" وهو أحد الأساليب الإنشائية المعتمد على أداة "أيها" التي تدلّ على البعد المكاني، وكان الهدف من توظيف هذا الأسلوب هو لفت الانتباه، ثم يستعين بأسلوبٍ إنشائيٍ آخر؛ والمتمثل في الاستفهام من قوله: "إلى متى هذا التغزل والنسيب؟" والغرض منه الإنكار والتأنيب، كما استعان بالمحسنات البديعية كالسجع في قوله: "ألم تنفذ أيام الجهل؟ ألم يعدّ الفتى كالكهل؟" وهو ما أحدث إيقاعاً في النص شدّ إليه المتلقي.

ثم ينتقل الكاتب في الشطر الثاني إلى نصح صديقه بالعدول عن اللهو، والتزام النهج السوي في أموره، بقوله: «ولنذهب في منهاج من صالح العمل، ولنتأهب لانزعاج ليس يسعى به الجمل هذا؛ والله، هو الرأي السديد عند ذوي الرأي الحديد»²، وتميّزت هذه الفقرة بتضمينها محسنات بديعية كالسجع في قوله: "هو الرأي السديد عند ذوي الرأي الحديد"، وقد ساعده في الحفاظ على الإيقاع الذي اعتمده في مقدمة الرسالة، للفت انتباه المتلقي، كما اشتملت هذه الفقرة أيضاً على الجنس الناقص بين لفظي (السديد، الحديد)، وقد زاد المعنى قوة ووضوحاً.

وانتقل القيسي في قسم آخر من هذه الرسالة إلى الثناء على أبي الحجاج بن الشيخ، ومؤكداً أنّ كتابة هذه الرسالة كان على سبيل الدّعابة في قوله: «هذا رجل يرجع إلى عفاف ويقنع بكفاف، سلك في هواه أحمد طريقه وقنع ممن يهواه بمجّة ريقه»³ ولعلّ المعنى الذي تضمّنته هذه الفقرة يدلّ

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 5، ص: 84.

² - المصدر نفسه، ص: 85.

³ - لذيّل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 88.

على أن ما أبداه من استهجان لأبياته كان بدافع الإعجاب لا السخط، وقد نجح القيسي في إيهام القارئ بأن مضمون الرسالة مُخَالِفٌ تمامًا لرأيه الحقيقي، وهو ما يعكس مؤهبتَه على تطويع الكلام كيفما شاء.

وختم الرسالة بطلب السّماح من صديقه، ذلك أنّها كانت على سبيل المزاح والدّعابة فيقول: «أعزّك الله ربّما كان في كلامي بعض دُعابه لم أذهب به إلى معابه (...). ثمّ السّلام الأتمّ الأعمّ الأكرم على أخي ووليّي في الله، الفقيه الأجلّ أبي الحجّاج ، ورحمة الله وبركاته»¹ وجاءت خاتمة الرّسالة على شاكلة الرّسائل التّقليدية في التّحية، وتأكيد صدق المحبّة والاحترام، وإنزال المرسل إليه منزلة العلماء، وأهل الوَقار، وقد سكب ذلك كلّ في قالب أدبي بديع مُزوّج بين المساواة في الفواصل والجناس الناقص، ومُنيماً عن براعته الأدبيّة في الشعر والنثر معاً.

وتندرج رسائل التّعازي تحت "رسائل الإخوانيّات" ومن نماذجها ما بعثه ابن الجنان معزياً أبناء شيخه "سهل بن مالك الأزدي"² عند وفاته، ومُشارِكاً لهم في فقْدِهِم هذا العالم الجليل حيث استهلّها بقوله: «حديث الأشجان شُجون ووُجوه القراطيس به كوجوه الأيّام جُون³ فأصخ⁴ لي أبثك بّي واكتأبي⁵ أو أعزني نظرة في كتابي لتعلم ما بي، فعندي ضرب الأسي خيامه، وعلى وردي أطال باغي الأسي خيامه»⁶ لقد ضمّن ابن الجنان هذه المقدمّة كلّ ما من شأنه التأثير في المتلقّي وشدّ انتباهه من جناس ناقص في لفظتي: (اكتأبي ، كتأبي) ولفظتي (شُجون ، جُون) ، والسّجع في قوله: "

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 89، تاريخ الأدب العربي، عمر فَرّوخ، ص: 549.

² - هو أبو الحسن سهل بن الحاجّ أبي عبد الله سهل بن مالك الأزدي، قرأ كثيراً من المعارف وبرع، وسما قدره وارتفع، طال عمره وطاب ذكره، ينظر برنامج شيوخ الرعيبي، الرعيبي، ص: 59.

³ - الجُون: الأسود اليخُمومي، والأنتى جُونَة. قال ابن سيده: الجُونُ الأسود المشبع حُمرةً، ينظر لسان العرب، ابن منظور ، ج 13، مادة (جون)، ص: 101.

⁴ - الوصخ: لغة في الوسخ مضارعة ، المرجع نفسه، ج 3، مادة (وصخ) ، ص: 66.

⁵ - هكذا وردت، والأصل يقال: "اكتأبي".

⁶ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 4، ص: 114.

أعربني نظره في كتابي لأبتك ما بي"، واعتمد على توظيف المشتقات مثل: (الأشجان، شجون) و(أبتك، بتي)، كما استعان بالبديع لتأكيد المعنى (الحزن) وترسيخه أكثر في ذهن المتلقي.

وبعد أن أعرب ابن الجنان عن عظيم أسفه على هذا المصاب الجلل، استحضر مأساة الخنساء وفقدها لأخيها "صخر" الذي رثته بقصائد عديدة، لأن مصابهما واحد؛ يتمثل في فقدان رجل عزيز، وسيّد عظيم في قومه، فيقول: «فلو أنّ احتدّامي¹ والتدّامي²، وجفني الدّامي، اطّلت على بعضه الخنساء، لقات هذه عزمة حزن لا يستطيعها النساء، ذلك بأنّ قسمة المراثي كقسمة الميراث، وللدّكران المزية - كان السرور أو الرّزية - على الإناث، هذا لو وزن مبكّي مبكّيًا، ووازي ترايّ فلكيّا، أنا أبكي نور علم، وهي تبكي ظلمة جهل، وندبتها لصخر، وندبتي لجبل يدعى سهل، كانت تتفجّر منه الأنهار، وينهل جانبه من خشية الله أو ينهار»³، فلا مجال للمقارنة بين صخر/الحجر، وسهل بن مالك/الجيل، فالأوّل قاس صلب، والثاني متعبّد خاشع، وقد استعار ابن الجنان في مجال المقارنة بين "صخر" و"سهل بن مالك" بقوله تعالى: $l\ k\ j\ i\ h\ g\ m$ $i\ } \sim \text{فِيخْرُجُ}$ $\{ \ y\ x\ w\ v\ u\ t\ s\ q\ p\ o\ n\ m$ $L \pm \circ - \text{®} \text{¬} \text{®} \text{©} \text{¨} \text{§} \text{|} \text{¥} \text{¤} \text{£}$ وبذلك كان صخر رمزًا للظلام والجهل، وعُدّ ابن مالك رمزًا على العلم والهداية لأنّه مخلوق نُوراني.

وتمضي الرّسالة على هذا النّسق مُشيعَةً الفقيده، ومُعَدَدَةً مناقبه في جوّ مهيب، بلغة راقية، عاكسة ثقافة الكاتب الدّينيّة، ومؤكّدة أنّ الموت قضاء لا بدّ منه، فضلًا عن أنّها تُصوّر عواطف المحبّة والعرفان بالجميل، والتي تصدر من عالم مُتّلمذ على يد الفقيده، وهي مشاعر إنسانيّة صادقة.

¹ - حدم: «الحدم: الأزهرى شدة إحماء الشيء بحر الشمس والتار»، لسان العرب، ابن منظور، المجلد 12، مادة (حدم)، ص: 117.

² - اللدّم: الضرب، والتدّام التّساء: ضربين صدورهنّ ووجههنّ في التّباحة، واللّدم واللّطم واحد، ينظر المرجع نفسه، مادة (لدم)، ص: 539.

³ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 116.

⁴ - سورة البقرة، الآية: 74.

ب- الرسائل الأدبية: كان طابع بعض الرسائل الأدبية تنافسيًا؛ حيث يقوم أحد الأدباء بكتابة رسالة يلتزم فيها حرفًا مُعَيَّنًا، ويبعث بها إلى صديق مطالبًا إياه بالرد على منوالها، على سبيل الدعابة، وقد يزواج في نسجها بين الشعر والنثر¹ فإذا اعتمد هذا الأسلوب التزم الحرف ذاته في الأخير سواء في النثر أم في حرف زويّ أشعاره²، ومن الكتاب الذين جمعهم أواصر الصداقة والمودة، وكثرت المراسلات بينهم الأديبان: أبو حفص، وأبو محمد بن محمد بن عيسى التادلي، ومن أمثلة ذلك الرسالة التي هنأ بها أبو حفص هذا الأخير بمناسبة صرفه عن قضاء مدينة فاس مخافة التصغير في أداء المهمة³، بالإضافة إلى كل من: ابن عميرة المخزومي، وابن الجنان، وأبو الحسن العشبي⁴، إلى جانب رسائل أخرى عديدة دلّت على براعتهم الأدبية، وأخذت في بعض الأحيان طابعا قصصيا يحكي فيها صاحبها حثيثات كتابة الرسالة⁵.

ومن الرسائل الأدبية أيضا، ما بعث به ابن عميرة المخزومي إلى ابن الأبار؛ حيث بادر بتوجيه رسالة يرثي فيها المدن الأندلسية المتهاوية على يد التصاري، وقدم لها بأبيات من الشعر وهو أمر مستحب ومتداول على عهدهم⁶، ثم انتقل إلى الغرض من كتابه فيقول: «أيها الأخ الذي دُهِش ناظري لكتابه، بعد أن أدّهش خاطري من إغبابه، وسرّني من بشره إيماض، بعد أن ساءني من جهته إعراض (...). وحيّا الله تعالى منه وليّا على سالف عهدي تمّادى⁷ وبعد تقديمه هذه التحيّة الأخويّة التي تبين منزلته في نفسه ينتقل إلى تعداد مكارم ابن الأبار، والاعتراف بمنزلته الأدبية، ثم الثناء على نسبه الشريف، ومنه ما جاء في قوله: «فمهلاً أيّها الموفّي على علمه، النّافث بسحر قلمه، أتظنُّ

¹ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 178-179.

² - ينظر إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 62.

³ - ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السنيوي، ص: 229-230.

⁴ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص: 203، 206.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، السفر 1، ص: 53.

⁶ - ينظر إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 60.

⁷ - نفع الطيب، المقرئ، ج 4، ص: 491.

مَنْزَلَتِكَ فِي الْبَلَاغَةِ وَمَهِيَعَهَا¹ لِأَحِبِّ²، وَمَنْزَعَهَا بِالْعُقُولِ لِأَعِبٍ (...). وَكَيْفَ نَلْقَاكُمْ بِجَدِّنا، وَأَبُوكُمْ أَبُو بَكْرٍ مَعَدُّنا»³ لَقَدْ أَقْرَبَ ابْنَ عَمِيرَةَ بِمَنْزِلَةِ صَدِيقِهِ الْأَدْبِيَةِ الرَّفِيعَةِ؛ فَقَدْ تَفَوَّقَ فِي فَنِّي النُّشْرِ وَالتَّظْمِ مَعًا، وَسَمِعَتْ مَكَانَتَهُ فِيهِمَا سَمَوًّا نَسَبَهُ الشَّرِيفَ، وَهَذَا الْإِعْتِرَافُ مِنْ ابْنِ عَمِيرَةَ لِصَدِيقِهِ بِالتَّقْدِيمِ لَا يَنْقُصُ مِنْ قِيَمَتِهِ الْأَدْبِيَّةِ بَلْ يَدُلُّ عَلَى تَوَاضَعِهِ وَحَسَنِ سَرِيرَتِهِ.

وَيَتَخَلَّصُ الْكَاتِبُ بَعْدَ هَذَا التَّقْدِيمِ إِلَى ذِكْرِ مَقْصَدِهِ مِنْ كِتَابَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ بَعْدَ أَنْ يَبَيِّنَهُ شَوْقَهُ إِلَيْهِ لَطَوِيلَ غِيَابِهِ بِسَبَبِ مَا حَلَّ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ هَوْلٍ وَدَمَارٍ؛ فَيَقُولُ: «دَاءٌ خَامَرَ بِلَادَنَا حِينَ أَنَاها (...). وَشَحَى لِيَوْمِهَا الْأَطْوَلَ كَهَلِهَا وَفَتَاها، وَأَنْدَرُ بِها فِي الْقَوْمِ بِحِرَانِ أَنْيْحَةٍ⁴ يَوْمَ أَثَارُوا أَسَدَهُ»⁵ فَبَلَاءِ الْعَدُوِّ طَالَ الْجَزِيرَةَ بَرًّا وَبَحْرًا، وَاهْتَمَّ لَهُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، لِيَقِينَهُمْ بِأَنَّ النَّصَارَى عَازِمُونَ بِشِدَّةِ عَلَى مَحْوِ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْجَزِيرَةِ.

وَيَصِفُ ابْنَ عَمِيرَةَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ حَالِ مَدِينَةِ بَلَنْسِيَّةِ فِي تِلْكَ الْآوَانَةِ فَيَقُولُ: «هِيَ بَلَنْسِيَّةُ ذَاتُ الْحَسَنِ وَالْبَهْجَةِ وَالرَّوْنَقِ، وَمَا لَبِثَ أَنْ أَحْرَسَ مِنْ مَسْجِدِهَا لِسَانَ الْأَذَانِ، وَأَخْرَجَ مِنْ جَسَدِهَا رُوحَ الْإِيْمَانِ فَبَرِحَ الْخَفَاءُ وَقِيلَ: "عَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَاءُ"، فَأَيْنَ تِلْكَ الْخَمَائِلُ وَنَضْرَتِهَا، وَالْجُدَاوِلُ وَخَضْرَتِهَا، وَالْأَنْدِيَّةُ وَأَرْجِها وَالْأَوْدِيَّةُ وَمَنْعَرَجِها»⁶ فَأَوَّلُ مَا عَمِدَ إِلَيْهِ الْعَدَوَانُ الصَّلِيبِيُّ إِخْرَاسَ الْمَآذِنِ الَّتِي تَعَدُّ رَمْزًا لِلدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، ثُمَّ مَحَّوْ كُلَّ مَا خَلَّفَهُ الْعَرَبُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ مِنْ حَضَارَةٍ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِذَلِكَ؛ فَقَدْ خَرَّبُوا أَيْضًا طَبِيعَتَهَا الْفَاتِنَةَ بِمَا أَتَاحَتْ لَهُمْ وَحَشِيَّتِهِمْ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى رِثَاءِ جَزِيرَةِ شَقْرٍ فَيُضِيفُ: «زَحَفَتْ كَتِيبَةُ الْكُفْرِ بَزْرُقِها وَشَقْرِها، حَتَّى أَحَاطَتْ جَزِيرَةَ شَقْرِها، فَأَها مَسْقَطُ الرَّأْسِ

¹ - هَاغٌ يَهَاغُ وَيَهِيغُ هِيغًا وَهِيوَعًا وَهِيْعَةً إِذَا جُنَّ وَقَرَعَ، وَمَهِيْعٌ بِمَعْنَى وَاضِحٍ وَاسِعٍ وَبَيِّنٍ، جَمْعُهُ مَهَايِيعٌ، يَنْظُرُ لِسَانَ الْعَرَبِ، ابْنُ مَنْظُورٍ، الْمَجْلَدُ 8، مَادَّةُ (هـ.ي.ع) ص: 378-379.

² - اللَّحْبُ: هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَالْأَحِبُّ مِثْلُهُ، كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاسِعِ الْمُنْقَادِ الَّذِي لَا انْقِطَاعَ فِيهِ، يَنْظُرُ الْمَرْجِعُ نَفْسَهُ، الْمَجْلَدُ 1، مَادَّةُ (ل.ح.ب)، ص: 737.

³ - نَفْحُ الطَّيْبِ، الْمُقْرِيُّ، ج 4، ص: 491.

⁴ - يَقْصِدُ بِالْبَحْرَيْنِ الْمَرَضَ الَّذِي أَصَابَ أَرْبِحَةَ وَكَانَ إِذَا رَمَحَتْهُ بِسِقُوطِ بَلَنْسِيَّةِ، يَنْظُرُ الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ، هَامِشٌ ص: 492.

⁵ - الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ، الصَّفْحَةُ نَفْسِها.

⁶ - نَفْحُ الطَّيْبِ، الْمُقْرِيُّ، ص: 493.

هوى نجمه!، ولفادح الخطبِ سرى كلمه!¹ ويستعين ابن عميرة أسلوب الندبة للتفجع على ضياع مدينة "شقر"، كما وظف الجناس الكامل في لفظتي (شقرها، شقرها) فالأولى تعني لَوْن شعر النصارى والأخرى هي اسم للمدينة، ويصف الكاتب وصول جيش العدو إلى مسقط رأسه وتدنيسهم الأرض الطاهرة، وبرع ابن عميرة في تصوير هؤل الفاجعة، إلى أن يختمها بقوله: «راجعت سيدي مؤديا ما يجب أدائه (...) وإنما ناظلت ثعليا (...) وناظرت جدليا (...) أتم الله عليه آلاءه، وحفظ مودته وولائه (...) بمنه والسلام»² وقد أكد على منزلة "ابن الأبار" الأدبية، وبين مكانته الخاصة في نفسه، كما أشاد الغبريني بأسلوب ابن عميرة المخزومي الراقي قائلا: «فكتابته علمية أدبية وكتابة غير مقتصرة على نوع من الأدب، فكتابته جامعة بين كتابة العلماء والأدباء (...) وهذا المعنى الذي تميز به عن عداه، وسبق به من سواه»³ فالأسلوب الأدبي الفخم المحاك بعقلانية رفع ابن عميرة إلى طبقة الكتاب المبرزين من وجهة نظر الغبريني .

وتميزت هذه الرسالة بطولها على الرغم من اقتطاعنا لشطر كبير منها، وهي أنموذج للنثر الموحد الذي تفاعل مع المستجدات، وعالج مواضيع كانت حkra على الشعر مثل: رثاء المدن والممالك الضائعة، وصدرَ هذا الخطاب عن رجل مفجوع بما أصاب وطنه "بلنسية" بسبب عبث العدو بكل ما وقعت عليه يده، وما زاد من هؤل الصدمة هو تلاحق ضياع المدن الأندلسية، فلا عزاء لابن عميرة سوى مُقاسمة حزنه مع صديقه "ابن الأبار"، وقد وُفق في تصوير الوضع المزري بدقة تجعلنا نشعر بتلك المرارة التي في نفسه، فما بالك بابن الأبار الذي خرج من وطنه صوب الحفصيين مستنجدا بهم، ومحاولا استثارة عروبتهم، وطامعا في نجدة وطنه الحبيب كما فعل المرابطون والموحدون من بعدهم! ضاربا المثل للأديب الملتزم بهموم عصره.

¹ - نفع الطيب، المقرئ، ص: 493.

² - المصدر نفسه، ص: 496.

³ - عنوان الدراية، الغبريني، ص: 300-301.

وقد صاغ ابن عميرة المخزومي رسالته بأسلوب أنيق ينم عن براعته الأدبية التي تضارع مستوى "ابن الأبار"، وتميّزت عباراتها بالإيجاز؛ فهي متلاحقة تُحاكي تلاحق أنفاسه المرعوبة، وجاءت جمل النصّ محلاة بالسجع، ومشملة على الجناس بين (الخمائل، الجداول)، كما استعان بالسجع في قوله: " فأين تلك الخمائل ونظرتها، والجداول وحضرتها؟" هي جملة إنشائية تعكس انفعال الشاعر واستنكاره لما يحدث، بالإضافة إلى الترادف بين: (الحسن، والبهجة، والرّونق) لتؤكد على معاني الجمال والتفرد في الأندلس، كما ضمّنه المثل السائر في قوله: " على آثار من ذهب العفاء" مُبرهنًا على ثقافته الواسعة، كما أرفق الرسالة بقصيدة رائية طويلة تحوم حول نفس الموضوع¹، وعلى الرغم من مشاعر الإحباط المخيمة عليه إلا أنّها لم تمنعه من بثّ شوقه الكبير إلى صديقه، والاعتراف بمكانته الأدبية وهو ما يعكس نبل أخلاقه.

ج- الرسائل الدينية: اتخذت من التواحي الدينية موضوعًا لها، كما عبّرت عن تمسك الموحدين بشريعتهم وحرصهم على ضرورة تأدية الفرائض؛ كزيارة الكعبة المشرفة لتأدية مناسك الحج أو العمرة، وتشوّقهم لزيارة الأماكن المقدّسة في تلك البقاع المشرفة وعلى رأسها قبر سيّدنا محمد (صلى الله عليه وسلّم)، وقد دفع الشوق بعض من تعدّد عليهم بلوغ أرض الحجاز إلى كتابة رسائل تعكس لهفتهم للمشاهد المقدّسة، وإرفاقها مع المنطلقين إليها: كصنيع الفقيه "أبي الحسن الجيّاني" نزيل مراكش عندما تعدّد عليه الذهاب إلى الحجّ وذلك لنأي الديار، ومشقة السفر، فكتب رسالة وكلف ابن عبد الملك المراكشي بقراءتها عند وقوفه أمام قبر النبي (صلى الله عليه وسلم)، وقد استهلّها بقوله: « إلى سيّد المرسلين، ورسول ربّ العالمين، الذي جعل الأرض له مسجداً وطهوراً، وكان ولم يزل مُنتقلاً من صلب آدم نورا، من يلجأ إليه يوم الفرع الأكبر النبويّون² » وبعد تقديم التحيّة للرّسول (صلى الله عليه وسلّم) انتقل إلى تعداد معجزاته التي تؤكّد صدق نبوّته في أسلوب فخم يليق بمقام المرسل إليه، وقد استقى ألفاظه من المعجم الديني مثل:

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرّي، ص: 493-495.

² - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص: 288.

"رسول"، و"رَبِّ"، "مسجدا"، و"طهورا"، و"النبون" وغيرها، وهي تعكس خَلْفِيَّتَهُ الدِّينِيَّةَ، كما استعان بالمحسنات اللغوية كالسجع الذي منح الكلام جرسا موسيقيا، في قوله: "إلى سيد المرسلين، ورسول رب العالمين".

وينتقل الكاتب إلى إلقاء الأعداء التي حالت دون قدومه شخصيا لقبر خير الخلق، فيقول: «الذي تَبَطَّتْهُ الأقدار، وعَاقَهُ القُلُكُ المدار، عن الحُلُولِ بِمَشَاهِدِكَ الكريمة، والمثول في معاهدك التي هي لصادي الأمل أنقع ديمة، كَتَبْتُهُ وأنا أتَنَقَّسُ الصَّعْدَاءِ، وأناجي بل أغبط أهل زيارتك السَّعْدَاءِ، وللزَّفْرَاتِ تصعد وانحدار، ولِلْعَبْرَاتِ تردُّدٌ في الجفن وانهمار»¹ وتَمَضِي الرِّسَالَةَ على هذا النَّحو تجمع بين شوقٍ وأسفٍ على تعذُّر بلوغ قبره، وهي طويلة حملها عبارات الأسف، والحسرة، والشوق للاكتحال برؤية قبره، ولثَمُّ ثراه، ولكن ما باليد حيلة!

وقد التزم الجياني تضمين هذه الرسالة عبارات الدعاء، كما ذكر مختلف الشعائر التي يقوم الحجاج بتأديتها، وختمها برجاء الله (سبحانه وتعالى)، بأن يُبلِّغهُ أمله في زيارة بيته في قوله: «اللَّهُمَّ يَا رَبِّ فَأُجِدْ عَبْدَكَ المَسِيءَ وَأَعِنِّهِ عَلَى أَدَاءِ الفَرِيضَةِ، واشف من لَوَاعِجٍ² شَوْقَهَا لِرُؤْيَا بَيْتِكَ الكَرِيمِ وَنَبِيِّكَ العَظِيمِ نَفْسَهُ المَرِيضَةَ»³ وقد جاءت فواصلها قريبة، ومتساوية، استعان في تزيينها بالجناس الناقص بين لفظتي: "الفريضة" و"المريضة" والسجع في عبارة "بيتك الكريم، وبيتك العظيم".

د- الرِّسَالَةُ السُّلْطَانِيَّةُ: وتسمى أيضا "الرِّسَالَةُ الدِّيوانِيَّةُ"⁴، وقد تعلقت بالجانب الإداري كالبيعة، والدعوة إلى الوحدة أو الحرب⁵ كما تناولت كيفية تطبيق القوانين المختلفة، وشاع استعمال

¹ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، ص:290.

² - الألاعج الهوى المخرق، يقال: هوى لاعج، الحُرَّةُ القُوَادِ مِنَ الحُبِّ، لسان العرب، ابن منظور، المجلد 2، مادة (ل.ع.ج)، ص:357.

³ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، ص: 292.

⁴ - ينظر في الأدب الاندلسي ، محمد رضوان الدايدة، ص:213.

⁵ - ينظر النثر الفني في عصر الموحدين ، رضا عبد الغني الكساسبة ، ص:170.

هذه الرسائل نظرا لتساع رقعة الدولة الموحدية؛ فقد شكّلت وسيلة اتصال مهمّة¹، وهو ما اضطرّ الحكّام في الغالب إلى الاعتماد على أسلوب الكتابة بدلا من الخطابة لضمان استيعاب كافة عمّال الدولة، مقارنة بالخطابة التي اقتصرّت على المساجد ، ودليل ذلك استبدال خُطب البيعة بالرسائل الديوانية، وعنايتهم "بديوان البريد"² حرصا من خلفائهم على الإحاطة بالمستجدّات الطارئة ، والسهر على تطبيق أحكامهم، وضمان الرّبط بين مختلف جهات الدولة المترامية³، التي سخّرت أقالمها لخدمة مصالحها من ذلك "رسالة في الإمامة الكبرى" لابن القطان⁴ مؤرّخ الدولة الموحدية، وتميّزت بطابعها الدّعائي، ويعرض لنا (لافي بروفانصال) سبعا وثلاثين رسالة رسميّة من إنشاء كتّاب سرّ الدولة المؤمنيّة، وهم: أبو جعفر بن عطية، وأبو عقيل عطية، وأبو الحسن بن عياش⁵، وأبو القاسم القالمي⁶، القالمي⁶، وأبو الحكم بن مرخي⁷، وابن محشرة⁸، واشتروا على هؤلاء الكتّاب آدبا⁹ لزموها في الكتابة¹⁰.

¹ - ينظر المن بالإمامة ،ابن صاحب الصلاة ،ص:271.

² - ينظر الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ،حسن علي حسن ، ص:149-152

³ - ينظر رسائل موحدية ، أحمد عزوي، ق1، ص: 05.

⁴ - أبو الحسن بن القطان (562هـ-628هـ) ، من أهل فاس، كان مقدما عند المنصور الموحدي حيث انتدبه لقراءة الحديث ، للتفصيل ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص:165-195، و ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص:19-23.

⁵ - هو عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي القرطبي، كتب لبني حمدين أيام قضائهم، ثم قرّبه الموحدون ،اشتهر بحسن خطه، وبراعته في النظم، ينظر مجموع رسائل موحدية، لافي بروفانصال ، 1941، ص: هـ .

⁶ - أبو القاسم بن عبد الرحمن القالمي، ينظر المرجع نفسه ،ص:هـ.

⁷ - هو علي بن محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي الإشبيلي، عرف بابن مرخي، ولي خطة الكتابة من طرف الموحدين ، ينظر مجموع رسائل موحدية ، لافي بروفانصال ،ص: هـ .

⁸ - هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن عليّ بن طاهر بن تميم القيسي (541هـ - 598هـ) من أهل بجاية ،ينظر رسائل موحدية أحمد عزوي ،ص: "و" ، وقد اعتبره عمر فروخ أكبر المترسلين الذين ظهروا في المغرب الأوسط على عهد الموحدين حيث استكتبه الخليفان أبو يعقوب يوسف وابنه يعقوب المنصور، ينظر ترجمته في تاريخ في الأدي العربي ،عمر فَرُوخ ،ص: 546، وينظر عنوان الدراية، الغبريني ،ص: 53-55.

⁹ - ينظر إحكام صنعة الكلام ، أبو القاسم الكلاعي ،ص: 40.

¹⁰ - ينظر مجموع رسائل موحدية ، لافي بروفانصال ، ص: ج- د

وتفاوتت هذه الرسائل من حيث الحجم؛ ففي العادة لا تتجاوز الصفحة الواحدة، وقد تطول عند وصف نصر أو فتح¹، وتراوحت أشكالها بين رسائل داخلية تبادلها الخلفاء والقادة في مختلف أرجاء الدولة، وأخرى خارجية تبادلها الموحدون مع مختلف الدّول التي جمعتها بها علاقات صداقة وجوار أو حرب، وذلك حسب طبيعة مقدماتها وهو ما يشير إليه الكلاعي: « ونظرت - أعزك الله - في صدور الرسائل واستفتاحها فوجدتها أيضا تختلف . فكأنوا في الزّمان الأوّل يكتبون في صُدُور رسائلهم أمّا بعد: وهو فصل الخطاب الذي ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز² وقد تباينت أشكال أشكال الرسائل الديوانية تبعًا لصدورها، وقد فصل أحمد عزاوي في الحديث عن أشكالها³، وسنحاول إدراجها للوقوف على مدى تطوّر هذا النوع من الرسائل، وقد جاءت على النحو الآتي:

- أن تبتدئ بالبسملة والصلاة على النبيّ الكريم، وشكر الله على نعمة الإمامة، ثم الدّعاء للمهدي والخليفة من بعده مثل رسالة بيعة أهل إشبيلية للخليفة المرتضى⁴، ورسالة أهل غرناطة⁵، وقد يقتصر هذا النوع على البسملة والصلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثلما نجد في قولهم: « من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدّهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بمدينة غرناطة أمدهم الله بتوفيقه⁶ » وضمّن الأمير رسالته عبارات الدّعاء للخليفة بالتأييد ودوام البقاء⁷، وكانت الرسائل التي تصف النصر أو الهزيمة تُوجّه عادة إلى الطلبة

¹ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 201-207، 75.

² - إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 58.

³ - ينظر رسائل موحدية، أحمد عزاوي، ص: 36-40.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 111.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص: 112-113.

⁶ - المصدر نفسه، ص: 98-105.

⁷ - ينظر إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 74، ويشير إلى أنّ بعض العلماء أنكروا الدعاء بطول البقاء لأنّ الأجل مُقدّر، ينظر

المرجع نفسه، ص: 75.

وأشياخ الموحدين؛ سواء الذين ينتشرون في ربوع المملكة أم المختصين بولاية كانت مركز ثقل كمديني: غرناطة، و تلمسان، وهذا يؤكد على أهمية هذه الطبقة¹ في الدولة الموحدية.

- أن تفتح بلفظة "الحضرة": شاع هذا النوع من المقدمات في عهد الخليفة "المستنصر" على غرار ما بعث به القاضي أبو عمران بن أبي موسى إلى السيد أبي فلان يصف النصر الذي حققه الجيش الموحدى قرب مدينة تنس بالمغرب الأوسط، وقد افتتحها بقوله: « حضرة سيدنا المعظم الأسنى أبي فلان بن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين - أيد الله أمرهم وأيد نصرهم - من الملتزمين لأمرهم »² ومخاطبته للخليفة بالحضرة أمر محبب وشائع على عهدهم في التخلص إلى غرض الكتاب³، والملاحظ على هذه القطعة هو استعمال الكاتب للجمل الاعتراضية التي تحمل عبارات عبارات الدعاء للخلافة، ومخاطبة من هو أعلى مرتبة بضمير الجمع، وهو أمر يمكن تعميمه على رسائلهم.

- أن يكون في صدور الرسائل "أمّا بعد" أو "وبعد": مثل رسالة والي إشبيلية إلى وزير الخلافة العالية، وجاء في بدايتها: «...وبعد، حمد الله معوّد أمره العزيز كلّ فتح جليل»⁴ وجاءت هذا الرسالة الرسالة لإبلاغ مركز الخلافة بقتل شقيّ منطقة (جزولة) ، وقد يرجع سبب هذا النوع من الابتداء ضياع المصدمة أو الرغبة في طرح الموضوع مباشرة لأهميته، أو لتقارب منصب المرسل والمستقبل.

- أن يُذكر فيها اسم المرسل ثم المرسل إليه مباشرة: مثل رسالة الخليفة عبد المؤمن إلى جميع طلبة الأندلس، ومّا ورد فيها: «من أمير المؤمنين أيّده الله بنصره (...). إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس

¹ - رسائل موحدية أحمد عزاوي، ص: 108-109.

² - رسائل موحدية ، أحمد عزاوي ، ص: 83.

³ - ينظر إحكام صنعة الكلام ، أبو القاسم الكلاعي، ص: 71.

⁴ - رسائل موحدية ، أحمد عزاوي ، ص: 336.

وَمَنْ صَحِبَهُمْ مِنَ الْمَشِيخَةِ وَالْأَعْيَانِ وَالْكَافَّةِ (...) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ (...) أَمَّا بَعْدُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ¹ وجاءت الرسالة خالية من البسملة، كما اقتصر فيها صاحبها على التحيّة والاختصار على الدعاء للخليفة.

- قد تُفتّح الرسالة بذكر المرسل إليه مباشرة مع تقديم حرف الجر "إلى": على غرار رسالة المهدي بن تومرت إلى المرابطين يدعوهم فيها لطاعته، ويحدّثهم من عصيانه فيقول: «إلى القوم الذين استرّهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمان، الفئة الباغية»² وكان غرضها العتاب، وجاء نصّها قصيرا مقارنة ببقية رسائله³ مثل "الرسالة المنظّمة"، لابن تومرت التي تُعدّ نموذجا حقيقيا للحملة الدعائية التي شنّها على أعدائه المرابطين، وهناك عدد معتبر من الرسائل⁴ التي جاءت على هذا النّحو.

- أن تكون مبثورة المقدّمة: مثل الرسالة التي بعث بها أبو موسى الواصل إلى الخليفة المرتضى وجاء فيها: «اقتضى نظر سيّدنا ومولانا الخليفة الإمام الواصل بالله تعالى»⁵ ويمكن أن يكون سبب مجيئها على هذا النّحو؛ إمّا لأنّها اقتطعت من كلام، أو لضياح المقدّمة، أو لأنّها كتبت على عجل وكان التّركيز على الغرض من الرسالة لا غير .

- استهلالها بقولهم " وهذا كتابنا...": فقد بدأ فيه المرسل بذكر غرضه دون ذكر الالتزام بذكر البسملة ، وقد يرجع ذلك لكون المرسل أعلى مرتبة من المرسل إليه ،نحو رسالة الشيخ أبو حفص الهنتاني يُعلّم فيه بمقتل "الثائر الماسي" جاء في بدايتها: « كتابنا هذا من وادي ماسّة، بعدما تجدد من أمر الله الكريم»⁶ ويعلّق الكلاعي على هذا النوع من التّخلص إلى الأغراض في الرسائل بقوله: «

¹ - المصدر نفسه، ص: 61-71.

² - رسائل موحديّة ، أحمد عزاوي ، ص: 43.

³ - ينظر رسال موحديّة، أحمد عزاوي، ص: 44-49.

⁴ - ينظر رسال موحديّة، أحمد عزاوي ، ص: 76-78، 87-88.

⁵ - المصدر نفسه، ص : 407.

⁶ - المصدر نفسه، ص: 57-60.

وأما لفظة "كتابنا" فإنما يكتب بها عن نفسه أمرا أو ناه¹ ويبدو هذا النموذج من الرسائل أكثر حزمًا.

أما "الرسائل الخارجيّة" فقد رُوِيَ فيها "البسملة" و"الصلاة على رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم ذُكر اسم الخليفة مع الدّعاء له، وكذا ذكر الطّرف المرسل إليه مع مراعاة رُتبته على غرار رسالة الخليفة المرتضى إلى "بابا النصرانية" التي يقول في بداية نصّها: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيّدنا الأمير أبي إبراهيم بن أمير المؤمنين (...). أيّدهم الله تعالى بنصره، وأمدهم بمعونته إلى مطاع ملوك النّصرانية، ومعظم عظماء الأمة الرّوميّة، وقيم الملة المسيحيّة (...). أنار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وإرشاده»² وما يلاحظ على هذه الرّسالة أنّ مرسلها لم يذكر تحية الإسلام (السّلام) وهو من الأمور المتعارف عليها في مكاتبتهم مع أهل الكفر، لكنّه خالف هذه الآداب إذ استهلّ رسالته بالبسملة والصّلاة على النّبي الكريم على الرّغم من أنّ ترك ذلك مستحب؛ ففي ذلك رفع من قدر المخاطب، والأصل في مكاتبة أهل الملل الأخرى ترك تجيلهم³، فقد أكثر "المرتضى" من الثناء على "البابا" وقد يعود ذلك لضعف الدّولة آنذاك⁴.

- وقد يباشر الكاتب الرّسالة بذكر اسم الشّخص المستقبّل مثل: رسالة أبي يعقوب يوسف إلى أمير (بشّه) أو (بيزا) المبنية على حسن الجوار، فبعد استفتاحه بالبسملة والحمدلة عمد إلى تقديم المرسل إليه، وتأجيل اسم المرسل إلى نهاية الرّسالة، احتراماً وإعظاماً لقدرة حسب ما يبدو من طريقة كلامه إذ يقول: «إلى أمير المؤمنين أيّد الله أمره وأعزّ نصره، معظّمون مقامه»⁵ وقد اختتم الرّسالة بوضع اسمه: «أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين أيّد الله أمرهم وأعزّ

¹ - إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 69.

² - رسائل موحديّة، أحمد عزوي، ص: 402.

³ - يقول الكلاعي في هذا الصّدد: «مما يجب - أعزك الله - في مكاتبة أهل الكفر أن يترك تجيلهم ويتجنب ترفيعهم وتأهيلهم»، إحكام صنعة

الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 84-85.

⁴ - ودليل ذلك أنّ "الخليفة المرتضى" هو صاحب آخر رسالة في عهد الموحدين، وكتبها بخط يده، للتفصيل ينظر المصدر السابق، ص: 408.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 163.

نصرهم»¹ وهو ما يشير إلى احترامه، وتقديره لأترابه من الحكّام على اختلاف أديانهم، كما يدلّ على استخدام الختم في هذه الفترة .

ويندرج تحت الرسائل الديوانية أيضا "الشكايات"² التي رفعها عامّة الناس إلى الحكّام مبدّين تظلمهم من جور قد لحقهم أو نازلة أمت بهم وينهونها بالدعاء للحاكم والطّمع في رّفده، بالإضافة إلى "التّقديم"³ وهي الرسائل التي أرفق بها الحكّام عمّالهم عند تعيينهم في مختلف المناصب؛ حيث تعتبر وثيقة رسمية تحدّد مهمّاتهم، وتميزت هذه الرسائل باختصارها، وذكر الغرض من كتابتها وهي كثيرة، ويدخل في هذا المضمار "الظّهائر"⁴ وهي رسائل كُتبت في ظروف استثنائية إلى الولاة تقضي بضرورة تقديم الإعانات المادية لجهة معيّنة على وجه السرعة وهي قليلة.

وأدّت هذه الرّسائل دورا هاما في الرّبط بين أقاليم دولة الموحدين، كما واكبت مختلف المستجدّات التي شهدتها ذلك العصر؛ وهو ما يؤكّده (لافي بروفانصال) في قوله: «أمّا من الوجهة التاريخية فإنّها تعرض لنا بيانا مباشرا دقيقا منظّما لأهم الحوادث التي وقعت في أيّام الموحّدين من تدابير سياسية وإصلاحات اجتماعية، وغزوات، وانتصارات حربيّة، وأمّا من الوجهة الأخرى؛ فإنّها ستمكّن كل من يدرس تطوّر الآداب في الدّيار الغربيّة الإسلاميّة من نماذج شتى عن فنّ الكتابة الرّسميّة في العهد الموحدى»⁵ لقد كانت الرسائل بحقّ وثائقا تاريخيّة شاركت في رسم ملامح ملامح ذلك العصر، ولا سيما الإداريّة منها عن طريق ذكر مختلف القرارات التي تمّ إصدارها آنذاك.

¹ - المصدر نفسه، ص: 164.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 524.

³ - ينظر رسال موحديّة، أحمد عزّاوي ، ص: 427، 437.

⁴ - ينظر رسائل موحديّة ، أحمد عزّاوي، ص: 391.

⁵ - مجموع رسائل موحديّة، لافي بروفانصال، المقدمة ص: ب.

وبعد هذه اللّحة عن فنّ التّرسل، فإنّه يمكن الوقوف على بعض مميّزاته ومن بينها: المزوجة بين الشّعر والنثر في مراسلاتهم وبخاصّة لدى النّخبة من المجتمع، والاستعانة بتوظيف الآيات القرآنية، والأحاديث النبويّة، والمحسنات البديعيّة ولا سيّما الطّباق، والتّرادف، والجناس، والإكثار من الجُمْل الاعترافية والأدعية، وتوظيف الأمثال السّائرة، كما توسّعوا في الرّسائل الإخوانية؛ حيث عاجلت قضايا جديدة منافسة الشّعر على غرار رثاء المدن حيث يقول شوقي ضيف: « ومن الحقّ أنّ كتاب الأندلس كانوا من البراعة في الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا النضج وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم الأدبيّة وحيويتها النافذة بما كانت تتوهّج به دائما من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دائما بجمال الجرس وحسن الأداء¹ فالرّسائل جاءت لخدمة الدّولة، ومسايرة لمستجدّاتها، ونقلت جوانب عديدة من العلاقات الاجتماعية عند الفرح والحزن.

2- التّوقيعات: تمتاز عن سائر الفنون النثرية بأصالتها فهي فنّ عربي محض لأنّها تعتمد على الإيجاز والبلاغة وهما من صفات كلامهم²، وقد وظّفها الموحدون بشتى أشكالها؛ فقد جاء في توقيع لأبي بكر محمد بن الجلدّ (-630هـ) بعث به إلى أبي مروان الباجي قوله: « الحسب والوزارة - أعزكم الله - قد خُلِقا بالابتدال، وصارا من لباس الأندال، فرأيتُ الاقتصار على الاختصار، وترك التّشطيط³ في التّخطيط⁴» وتميّز كلام الموقّع بالإيجاز، والبلاغة وهما من صفات الكلام البديع، فقد روي عن أبي الوليد بن رشد أنّه كان يختصر جوابه في فتواه؛ فيكون في إجابته عند سؤاله: « هل يجوز أم لا ؟» برده قائلا: « لا »⁵، وقد تمّت بعض التّوقيعات بين الأهل؛ على غرار ما كتبه عبد الملك بن سعيد مُعفياً ابنه الشاعر أبا جعفر من الوزارة حيث قال: « قد تركنا سراح أنسك، وألحقنا يومك

¹ - تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، شوقي ضيف، ص: 446.

² - ينظر النثر الفني في عصر الموحدين، رضا عبد الغني الكساسبة، ص: 241، ينظر إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 160.

³ - الشّطط: مجاوزة القدر في بيع أو طلب أو احتكام، ويُطلق أيضا على الجور والظلم، ينظر لسان العرب، ابن منظور، المجلد 7، مادة (شطط)، ص: 334.

⁴ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 5، ص: 664.

⁵ - ينظر إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 161.

بأمسك»¹ وقد جاءت الرسالة بليغة وموجزة، وتكوّنت من عبارتين مسجوعتين، إلى جانب الطباق بين لفظتي (يَوْمِك، أَمْسِك) لتقوية المعنى، والجناس الناقص في لفظتي (أُنْسِك، أَمْسِك) وقد أوضحنا المعنى وزادناه قوّة.

واعتمد بعض الأدباء على هذا الفنّ في مخاطبتهم ففتنّوا فيه؛ حيث جاءت بعضها مقتصرًا على آيات قرآنية فقط، وقد يجمع الكتاب بين الآيات والشعر على نحو ما وقّعه المنصور الموحي للملك (ألفنش) الذي هدّده بالحرب في إحدى كتبه، فمزّقه وردّ على رسوله بقوله تعالى: **M 2**

3 4 5 6 7 8 9 : < ; = > L² ثم أمر كاتبه بأن يكتب على القطعة الممزّقة « الجواب ما ترى لا ما تسمع »، وزاد عليه قول الشاعر:

فلا كُتِبْ إِلَّا المشْرِفِيَّةُ والقَنَا ولا رُسُلٌ إِلَّا الخَمِيْسُ العَرْمَرَم³

وهذا التوقيع يشي بثقافة الخليفة الموحي الدينية، كما يُبين عن سرعة بديهة وحضور ذهنه، فضلا عن حنكته السياسية، ومّا يروى عنه أيضا أنّه طلب من أحد أعيان دولته جلب رَجُلَيْن لتأديب أبنائه، وقد صاغ شروطه فيهما بقوله « يكون أحدهما بَرًّا في عَمَلِهِ، والآخر بَجْرًا في عِلْمِهِ»⁴، فجلب له شخصين ظهر منهما غير ما اشترط، فكتب إلى من أحضرهما قوله تعالى: **M ð Ñ Ò**

Ó Ô Õ Ö × Ø Ù Ú Û Ü Ý Þ⁵ وقد استعان الخليفة بأسلوب التورية في وصف العالمين، وعلّق المقرئ بقوله: « وناهيك بهذا دلالة على قوّة فطنته ومعرفته»⁶ وهذا التوقيع يعتبر شهادة أخرى على سعة علم وبديهة المنصور الموحي.

¹ - نفع الطيب، المقرئ، ج4، ص: 180.

² - سورة النمل، الآية: 37.

³ - نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 102.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 104.

⁵ - سورة الروم، الآية: 41.

⁶ - نفع الطيب، المقرئ، ص: 102.

ونظمت بعض التوقيعات شعرا¹ على النحو الذي خطّه أحد الولاة للخليفة المأمون فقال :

مَوْلَايَ إِنَّ بِلَيْتِي مَعَ خِدْمَتِي حَصْمَانٍ فَاخُكُم لَلَّتِي هِيَ أَقْدَمُ

فلما بلغ هذا البيت إلى الخليفة ردّ عليه بقوله: « يا هذا قد أكثرت لنا من الرّقع، وقد أمضينا لك حكم ابن الرّقع»² وتميّز هذا التوقيع بحزم المأمون فقد الذي لا يتجاوز الجملتين المشتملتين على السّجع و الجناس أغنى صاحبه عن الإطناب الذي لا فائدة منه.

والمستبّع للمنتوج النثري في عهد الموحدين يجد توقيعاتٍ عديدة دُوّنت على عهد الموحدين عكست حزمهم، ولا سيّما الحكّام منهم الذين جمعوا بين الدّهاء السّياسي والثّقافة الواسعة، وقد زاوجت بين البراعة في الشّعْر، وبلاغة العبارة في النثر، بالإضافة إلى توظيف الآيات القرآنية، وتميّزت بدقّتها واختصارها فتركت انطبعا بالرهبة لدى متلقّيها.

3- الخطب: تطرّق إليها الكلاعي عند حديثه عن الفنون النثرية التي عرفها عند العرب، حيث قال: « الخطبة عند العرب تقوم على كلام منظوم له بال»³، وقد عرف المغاربة فنّ الخطابة منذ عهد الولاة والدولة الأمويّة في الأندلس؛ حيث اقتضتها الحروب، وعالجت موضوعي الدّين والعصبيّة السياسيّة، وقد شهدت تطوّرا على عهد ملوك الطوائف حيث أبجّحت لخدمة الأحزاب السياسيّة كما أخذت بُعدا ثقافيا⁴، وأدّت المهمّة ذاتها في عهدي المرابطين والموحدين؛ فقد عالجت مشكلاتهم وحاولت تقديم حلول لها، مؤكّدة على ارتباطهم بعقيدتهم⁵.

ويشيد رضا عبد الغني الكساسبة بفضلها على أصحابها لأنّها رفعت من مكانتهم سواء لدى حكّامهم أم عند عامّة النّاس، وهو ما نقف عليه من قوله: « كان الخطيب موضع الإجلال

¹ - ينظر إحكام صناعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 163.

² - نفع الطيب، المقرّي، ص: 105

³ - إحكام صناعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 166.

⁴ - ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوي، ص: 229.

⁵ - ينظر النثر الفني في عصر الموحدين، رضا عبد الغني الكساسبة، ص: 127.

والاحترام (...). بل لقد ارتقت الخطابة بأبطالها إلى أسمى المراتب وارتفعت بهم إلى أعلى الدرجات وأصبح لقب الخطيب من ألقاب التشريف والتعظيم وأضيف القضاء إلى الخطابة فزاد الاحتفال بها والإجلال لها والتشرف بالانتساب إليها¹ لقد زادت الخطابة الحكام والوجهاء شرفاً، وعزاً، ووقاراً؛ إذ ألحقت بلقب القاضي فزادت صاحبه هيبةً وإجلالاً، ومثل هذا الأمر يمكن ملاحظته بوضوح في مؤلفات الموحدين، والتي أكثرت من ذكر أسماء الخطباء؛ فلا نكاد نجد فقيهاً، أو قاضياً أو كاتباً إلا وكان خطيباً، ومن بينهم ابن عبد الواحد الغافقي الملاحى الذي وصف الرعيني براعته في الخطابة بقوله: «أجل من كان بقي من الأعلام والأكابر، وأخطب من أنشأ خطبة من رقة المنابر، إلى براعة الآداب وحفالتها، والإفادة لإجازتها وإطالتها، وفضيلة الذات وكماها، وحسن الشارة وجمالها، حسنة عظمى من حسنات الزمان ومفخرة يختص ببلده وتعم جميع البلدان»² فالملاحى كان إماماً وخطيباً مقدماً، جالت شهرته الأقطار لبلاغته، وحسن سيرته، ونقاء سيرته.

ومن الخطباء المشهورين أيضاً أبو الحسن بن الإشبيلي، الذي نال إعجاب ابن صاحب الصلاة فوصفه بقوله: «هو الخطيب المصنوع بين يدي الخليفة الرضى أمير المؤمنين عند حضور الوفود، الناطق بالفصاحة والبلاغة المنومة نظم العقود»³ لقد كانت مهمة أبي الحسن هي الوقوف بجانب الخلفاء عند استقبالهم للوفود؛ حيث تفنن في صياغة أرقى العبارات ترحيباً بالضيوف بفضل ما حباه الله به من بلاغة وفصاحة ومع ذلك لم يورد نموذجاً لخطبه وهو أمر يمكن تعميمه على هذا العهد، فقلماً نعثر على خطبهم على الرغم من احتفائهم بها، ويقينهم بشدة تأثيرها في نفوس المتلقين، وبخاصة في المساجد، فالخطب التي وصلتنا عنهم قليلة .

ونجد - في هذا العهد - منصب "صاحب الصلاة" الذي تولّى تعيينه الخليفة، وقد ذكر علي علام مهامه؛ ومن بينها أنه هو المسؤول على تعيين الأئمة، فيقول: «يرشدهم يراقبهم وينظر

¹ - ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

² - برنامج شيوخ الرعيني، الرعيني، ص: 67.

³ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 160.

في أحوالهم يختار أحيانا من الفقهاء والخطباء ، وأحيانا يلقي الخطب بنفسه في المناسبات والأعياد والجمع في المساجد الكبرى سواء في المغرب أو الأندلس¹، والجدير بالذكر أنّ الحكّام قد اشترطوا في قبول تنصيب أئمة المساجد الجامعة إتقانهم للهجة البربرية إلى جانب معرفتهم للغة العربية ؛ فخطيب جامع القرويين لم يكن بربريا ومع ذلك فقد تعلّم هذه اللهجة²، وهذا مايفسر قلة الخطب التي وصلتنا- ربّما- لاهتمام المصادر التاريخية بتراث هذه الحقبة المكتوب بالفصحى على حساب اللهجة البربرية الذي كان شفهيّا في الغالب .

وما يجب أن ننبّه عليه هو أنّ الخطباء كانوا يراعون آدابا عند الإلقاء يحدّثنا عنها الكلاعي قائلا: « ومّا يستحبّ للخطيب أن يجمع ذهنه ،ويحضر تخشعه ويُخلص لله سبحانه نيّته ،ويُشغِل بذكره حواسه فإنّه إذا فعل ذلك اشتغل عن المخلوق بالخالق فلم تلحقه هيبة ولم يخامر دهش ولم ينحل عقد نظامه ولم تنضب أودية كلامه »³ ويُفهم من هذا القول أنّه يجب على الخطيب إخلاص النية لله تعالى قبل الشروع في الخطبة، ومحاولة إشغال حواسه عن الناس لكي لا يتملّكه الخوف عند الإلقاء.

ومن الخطب ما تصدر مؤلّفاتهم وسّمّوها "خطبة الكتاب" ومن نماذجها ما نجدها في مقدّمة كتاب " ألف باء " للبلوي والتي يقول فيها: « أمّا بعد - دام لنا ولكم السّعد - فإنّي عازم بعد استخارة ذي الطّول ومن بيده القوّة والحول ورغبتني إليه في السّداد في العمل والقول على أنّ أجمع في هذه الأوراق كل معنى رقّ أو راق مما هو عندي مستحسن لا مستخشن ومستملح لا مستقبّح »⁴ ويمكن الوقوف في هذه الخطبة على أمرين: أولهما أنّ البلوي قد شرع في تأليف كتابه بعد استخارة الله

¹ - الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ،عبد الله علي علام ،ص :267.

² - ينظر النبوغ المغربي في الأدب العربي ، عبد الله كنون، ص :114.

³ - إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص :167-168.

⁴ - تاريخ الأدب العربي ،عمر فروخ ،ص :577.

(عز وجل) وطلب توفيقه في سعيه، والآخر أنه هذا الكتاب يعدّ من النماذج القديمة لما يعرف على أيامنا بأدب الناشئة، وهي التفتاة ذكية من المؤلّف للاهتمام بهذه الفئة لأهميتها في بناء مستقبل الأمة.

أ- الخطب الدينية : هاجم العديد من الفقهاء الفلسفة وأهلها؛ فاعتبروا الاشتغال بها مُروقا عن الدين؛ وأنجّهوا إلى وعظ العامة وتحذيرهم من الانسياق وراء أفكار المتكلمين المظلة، ويُعتبر الفقيه أبو حفص بن عمر نموذجًا لهؤلاء الخطباء الفقهاء؛ فقد دعا إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وألح على ضرورة الابتعاد عن علم القدماء، قائلا: « الحمد لله والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى عباد الله الذين النصيحة فخذوها محضة صريحة هدي الله هو الهدي ومن اتبع رسل الله اهتدى فيآكم والقدماء وما أحدثوا(…) الأنبياء ونورهم لا الأغبياء وغرورهم»¹، استهل الخطيب كلامه بإقرار الفضل لله وحده (عز وجل) والثناء على رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلّم)، ثم حذر الناس من الفلاسفة الذين سمّاهم الأغبياء، وشدد على ضرورة التمسك بما أُوثر عن الأنبياء لأنّ في الاعتصام بجلهم فلاح المرء في الدنيا والآخرة.

وانتقل إلى التأكيد على انحصار العلم والحكمة في كتاب الله وسنة رسوله (عليه الصلاة والسلام) الذي طهر أتباعه من الشرك حيث قال : «نقّاهم من الأوضار والأدناس، وقال: " كنتم خير أمة أخرجت للناس"، فالمطلوب ما به فضلوا ، وماذا علّموا وبه عملوا، والقصد الذي به وصلوا يُتلقَى خيره ويُتوقَى شرّه»² فالمسلم مكلف باتباع ما ورد في النصوص التقلّية التي تولّت تنظيم مختلف نواحي الحياة، والعمل على تطبيق تعاليمها في أحسن هيئة، وأتم صورة ، ويختتم خطبته بوجاء

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص227.

² - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص:228.

شفاعة الرسول (عليه الصلاة والسلام)¹ وجاءت هذه الخطبة طويلة على خلاف ما دعا إليه الكلاعي - وهو أحد نقاد هذا العصر - حيث استحَبَّ في الخطب الدنيَّة الإيجاز².

ب- الخطب السياسيَّة: من نماذجها الخطبة التي وجهها المهدي بن تومرت لأتباعه الموحدين

لشحن همهم واستمالة قلوبهم؛ حيث أوجد لدعوته مسوغات دينية منحتها المشروعية، فأقنعت المتلقين لأنَّه خير بنفسياتهم لما جبل عليه من ذكاء³، وقد ضمَّن خطبته حديثاً للرسول (صلى الله عليه وسلَّم) ، في قوله: « ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصبة المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلَّم لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال منكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة»⁴ وفي هذا القول تبريرٌ لسبب تسمية ابن تومرت أتباعه بالموحدين؛ فقد عدَّهم خير من يعبد الله على هذه الأرض، و يعتبر أنَّ حديث الرسول (صلى الله عليه وسلَّم) حول الطائفة الناجية كان يعني الموحدين أنفسهم، فهم منصورون - لا محالة - حتى قيام الساعة، ما داموا مُتَشَبِّهين بتعاليمه وإرشاداته.

ج- الخطب الاجتماعيَّة : تطرقت لمواضيع من الحياة اليومية ، مثل موضوع الزواج؛ حيث

ألقى صفوان بن إدريس التَّجِيبِي خطبة عقد قرانٍ افتتحها بقوله: «الحمدُ لله الذي تطوَّل بالإحسان من غير جزاءٍ ولا ثواب، وألبس المخلوقات من فواضله سوابغ المطارف وكواسي الأثواب»⁵ وتمضي مقدِّمة الخطبة على هذا النحو؛ من حيث شكر الله تعالى ، والإقرار بعظيم فضله على عباده الذين خلقهم في أتمِّ صورةٍ، واصطفاهم بزينة العقل، كما يحمدُه لأنَّه جعله من الأُمَّة المسلمة التي سينجيها

¹ - ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

² - وهو ما فهم من حديث عمار بن ياسر قال: «أمرنا رسول الله (ص) بإقصار الخطب» ينظر مختصر سنن أبي داود 2/20، ينظر إحكام صنعة الكلام ، أبو القاسم الكلاعي، ص:127.

³ - ينظر النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ص:101.

⁴ - المعجب، المراكشي، ص:135.

⁵ - نفع الطيب، المقرئ، ج5، ص:59.

من عذاب النار، ثم يعرج للحديث عن الرسل الذين بعثهم رحمة للعباد، ولا سيما سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) سراج الأمة وشفيعها، ويصف بركاته بقوله: «دَلَّ عَلَى الْمَقَامَاتِ الَّتِي تَحْضُ الْأَوْلِيَاءُ، وَأَفْصَحَ عَنِ الْكِرَامَاتِ الَّتِي تَنْقُذُ الْأَتْقِيَاءَ، وَقَالَ وَأَهْلًا بِهِ مِنْ قَائِلٍ: [تَنَاقَحُوا فَإِنَّي مُكَاتِّرٌ بِكُمْ الْأَنْبِيَاءُ] حرصاً منه صلوات الله عليه على الزيادة في أهل الإسلام والنماء (...). وحض على ذات الدين الحِصَان، وأَعْرَى بِالْإِعْتِصَامِ وَالْإِحْصَانِ»¹ فمن محاسن الزواج أنه يرفع من قدر العبد إلى مقام الأتقياء لأنه وجاء من المعاصي، فضلاً عن دوره في التكاثر وحفظ النسل، وقد ألح على ضرورة توفر شرط الصلاح في انتقاء الزوجة، ثم يسترسل في عدد محاسن الزواج على الصعيدين: الديني والاجتماعي، لينتقل إلى التلّفظ بصيغة العقْد² مُثْنِيًا على أهل العروس، وداعياً للزوجين بالتوفيق، وقد ضمّن خطبته معنى لحديث النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أنس بن مالك مرفوعاً: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنَّي مُكَاتِّرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»³ مؤكّداً على ثقافته الدينية، وكان إيراداً تماشياً مع مقام الخطبة وتأكيداً لكلامه، وقد تدرّج التّجبي في خطبته وفق تسلسل منطقيّ.

وبعد تتبّعنا لفنّ الخطابة على عهد الموحدين وجدناها شديدة الصّلة بواقعهم - على قلّتها - تماماً كما وصفها الكساسبة حيث قال: «تحكي في وضوح أخلاقهم وتصوّر طبائعهم في صراحة تامّة وثقة بالنفس عزّ مثلها وتناولت كلّ ماله صلة بالحكم والرّعيّة واتّصلت معانيها المؤتلفة بأغراضها المستهدفة بناءً على اتّصالها بحياتهم السياسيّة ونظمهم الاجتماعيّة والعلميّة والأدبيّة»⁴ فقد عكست الخطب واقعهم وخدمت متطلّباتهم، كما بدت متشعبة بتعاليم الدين الإسلامي لاستعانتها بكثرة الأدعية، واحترام المتلقّي، واستخارة الله في الأمور، بالإضافة إلى توشيحها بالآيات القرآنية استجابة

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 60.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 61.

³ - إرواء الغليل في تخرّيج أحاديث منار السبيل، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، سوريا- لبنان، ط1، 1979م، ج6، رقم 1784، ص: 195.

⁴ - النثر الفني في عصر الموحدين، رضا عبد الغني الكساسبة، ص: 169.

لآدابها¹، فضلا عن تضمينها الأحاديث الشريفة، إلى جانب حرصهم على رصانة الأسلوب، وتوظيف كل ما من شأنه شدّ انتباه السامع، والتأثير فيه وإقناعه؛ بإيراد الأدلة والحجج المختلفة لتأثرهم بالعلوم التي راجت على عهدهم، بالإضافة إلى الاستعانة بالمحسنات البديعية، والأساليب الإنشائية وبخاصة "أسلوب النداء" لشدّ انتباه الحاضرين.

5- الوصايا: كان الهدف منها النصح والتوجيه، والتعليم، للسير على الطريق الصحيح، وهي تصدر من قريب إلى أهله وخاصته دون رياء ولا تصنع²، وشهد عهد الموحدين قلة الوصايا النثرية مقارنة بالمنظومات الشعرية³، وقد يعود السبب في ذلك إلى كون الشعر أسهل حفظاً وأكثر تأثيراً في النفس، ومن أشهر الوصايا التي ألفيناها على هذا العهد؛ ما وجهه ابن تومرت لأتباعه عند اشتداد مرضه وإحساسه بدُنُوِّ أجله، وخوفه من تفرُّق شملهم، وضياع أمرهم بعد موته، فقرّر جمعهم، لرسم النهج الذي ينبغي أن يسلكوه من بعده، كما أمرهم بعقد البيعة لعبد المؤمن بن علي، وقد استهلّ وصيته بالحمد لله والثناء عليه، والصلاة على نبيّه المصطفى (عليه الصلاة والسلام) ثم أنشأ يترضى على صحابته الكرام، وذكر ما كانوا عليه من ثبات في دينهم، ونصرتهم له⁴، ثم تحدّث عن حال الأمة المسلمة التي أصابها فتنة أحدثت خللاً في دينها بعد عهد الخلفاء الراشدين ولما تتخلّص منها على الرّغم من جهود العلماء في تقويم الاعوجاج.

وبشّر المهدي أتباعه، وعدّهم محظوظين بدخولهم تحت راية التوحيد؛ فقد اصطفاهم الله، وجعلهم من زُمرَةِ الأخيار، كما وعدهم بأنّه سيؤيّدهم بقدرته وفضله بعدما هداهم من ظلالهم حيث قال: «وَرَيْنَ لَكُمْ الشَّيْطَانَ أَضَالِيلَ، وَتُرْهَاتِ أَنْزَهَ لِسَانِي عَنِ النَّطْقِ بِهَا، وَأَرَأَى بَلْفَظِي عَنِ ذِكْرِهَا، فَهَذَا كَمِ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَكُمْ بَعْدَ الْعَمَى، وَجَمَعَكُمْ بَعْدَ الْفِرْقَةِ، وَأَعَزَّكُمْ بَعْدَ الدَّلَّةِ، وَرَفَعَ عَنْكُمْ

¹ - ينظر إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 169.

² - ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوي، ص: 232.

³ - من ذلك أبيات في وصايا ابن جبير، ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 5، ص: 612-613.

⁴ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 140.

سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم أرضهم وديارهم»¹ فقد انقلب حال الموحدين من العُسْر إلى اليُسْر بظهور هذه الدّعوة الإماميّة، ولا شكّ في أنّ ما لهم سيكون النصّر المحتوم على المرابطين المارقين ليتجلّى للناس عدل الله بين خلقه، لذلك توجّب عليهم شكره و الإقرار بفضله بتجديد النّيّة الخالصة لله وحده (سبحانه وتعالى).

وانتقل ابن تومرت بعد ذلك إلى تحذيرهم من مسببات الشّقاق في قوله: « احذروا الفرقة واختلاف الكَلِمَة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدةً على عدوّكم فإنّكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس (...) وإلاّ تفعلوا شملكم الدّلّ وعمّمكم الصّغار واحتقرتكم العامّة فتخطّفتكم الخاصّة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرّقة بالغلظة واللّين بالعنف واعلموا مع هذا أنّه لا يصلح آخر هذه الأُمَّة إلاّ على الذي صلّح عليه أوّلها»² ويؤكد في هذه النّصّ على ضرورة الوحدة والتّلاحم بين الموحّدين لأنّها تُفضي إلى الهيبة والسّداد في الرّأي، وضرورة الموازنة في السّياسة بين الشّدة واللّين مع الاقتداء بالسّلف الصّالح في جميع أمورهم.

ويختتم الوصيّة بدعوة الحاضرين لمبايعة عبد المؤمن بن علي لتوقّره على شروط الخلافة، فيقول: « وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعناه أميراً عليكم هذا بعد أن بلّوناه في جميع أحواله من كَيْلِه ونهاره (...) واختبرنا سريره و علانيته فرأيناه في ذلك كلّه ثبتاً في دينه (...) وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربّه»³ وأعطانا صاحب النّصّ لمحة مقتضبة عن شروط البيعة على عهد الموحدين والتي أصبحت تقليداً عند خلفائه، ونلمس في هذه الوصيّة صدق عاطفة ابن تومرت، وحرصه الشّديد على مصلحة أتباعه من بعده، لأنّ أمر الدّعوة، ومستقبل الدّولة التي اختطّ معالمها مرهون بهم، ورسمت وصيّه المعالم التي ينبغي أن يُبنى عليها الحُكم الموحّدي .

¹ - المصدر نفسه، ص: 140.

² - المعجب، المراكشي، ص: 140-141.

³ - المعجب، المراكشي، ص: 141.

وإذا كانت وصية المهدي للموحدين تؤكد على ضرورة تعهد الدولة التي رسم معالمها، فإن الأديب ابن سعيد الأب قد كتب وصية لابنه "علي" الذي قرّر الرحيل إلى القاهرة لتكون متاعه وزاده في غربته ، وقد افتتحها بقصيدة جاء في مطلعها:

أودعُكَ الرَّحْمَانَ فِي غُرْبَتِكَ مُرْتَبِّبًا رُحْمَاهُ فِي أُوَيْتِكَ
وَمَا اخْتِيَارِي كَانَ طَوْعَ النَّوَى لَكِنِّي أَجْرِي عَلَى بُعَيْتِكَ¹

وتظهر في هذه المقدمة عاطفة الأب المكلوم على فراق ابنه، وهو يستودعه الله، وصرح بأن سماحه له بالخروج في هذه الرحلة لم يكن طوعاً، وإنما كان امتثالا لرغبة ابنه، وتقديماً منه لمصلحته، ويبدو أنه تعمد صياغة جانب من وصيته شعراً لتكون أسهل للحفظ، وأعلق في النفس .

ثم ينتقل إلى إبراز قيمة الوصية التي لا تصدر عادة إلا من وليٍّ لحميمٍ، وذلك لصدق وإخلاص البواعث الداعية إليها ؛ إذ يقول: « يا بني الذي لا ناصح له مثلي ، ولا منصوح لي مثله: قدّمت لك في هذا النظم ما إن أخطرتَه بخاطرِكَ في كلّ أوان رجوتُ لك حُسن العاقبة، إن شاء الله، وإنّ أخفّ منه للحفظ وأعلق بالفكر وأحقّ بالتقدّم»² ويؤكد لابنه بأنه سيسلم من كلّ سوء قد يعترضه في سفره إذا التزم بمحتوى الوصية ، التي حاول صياغتها بطريقة يسهل حفظها، ثم يردفها بنظم من إنشاء غيره يؤكد قوله، ويبيّن حفظه للأشعار.

ويتطرّق في الفقرة الموالية إلى ضرورة التحلي بالأخلاق الفاضلة، ومراعاة آداب مصاحبة الملوك³، ثمّ ينبّهه إلى ضرورة حفظ الأمثال والحكم حيث يقول: « ولا تتكل على عقلك، فإنّ النّظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غاليا بتجارهم يُربحُك، ويقع عليك رخيصة »⁴ وقد حضّه على ضرورة الاستفادة من تجارب السابقين لأنّ يعين على تفادي الوقوع في الزلل.

¹ - نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص:354

² - نفع الطيب، المقرئ، ص:354

³ - ينظر المصدر نفسه، ص:356.

⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ويتطرق ابن سعيد في موضع آخر للحديث عن أسس التعامل مع الناس، والتي ينبغي أن تبنى على الاحترام والحيطة وبخاصة الغرباء لقلة وفائهم وسرعة تبدلهم، وأن يستدلّ على طبيعة أخلاقهم من سمات وجوههم، وإذا اقتضى الأمر مصاحبة شخص؛ فالأولى ملازمة أهل الحشمة والتّعمة لتأصل الأخلاق الفاضلة فيهم، فكما يقال: "فالجياذ على أعراقها تجري" ويستدلّ على ذلك بقصة وقعت في مجلس عبد الملك بن مروان¹.

ويعرض في قسم آخر لآداب المجالس، ويوصيه بوجوب تسليم أمره كلّ الله، مستشهداً بالأشعار، والحكم، والأمثال السائرة لتكون حججه منطقيّة، ومقنعة لابنه، وتجعله يتقيّد بمحتوى الوصية التي ختمها بقوله: « والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم، وذو البصر يمشي على صراطٍ مستقيم (...). والله سبحانه خليفتي عليك، لا ربّ سواه² فالأب واثق من رجاحة عقل ابنه وحسن خُلُقِه، وأنّه سيلتزم بتنفيذ الوصية، أمّا خاتمها فقد صيغت على شاكلة ما استهلّها به، حيث دعا الله أن يتولّى ابنه بحفظه مبرهنًا على قوّة إيمانه بالله (سبحانه وتعالى).

والمتتبع للوصيتين السابقتين يلاحظ أنّ الشخص الموصي خبير بنفسية الشخص أو الجماعة التي يقصدها بخطابه، عارف لما يؤثّر فيهم، ويحرك عواطفهم؛ فابن تومرت وضمّ في كلامه المعاني الدّينية لأنّها قوام دولة الموحدين، والرّكيزة التي أسّس عليها دعوته، أمّا ابن سعيد فقد ترك وصية لابنه - علي - الأديب فاستعان بالأشعار، والأمثال والحكم التي هي من صلب اهتماماته وتعبّر عن ثقافته، وقد تحدّث السيوفي عن أسلوب الوصايا على هذا العهد فقال: « كانت تعتمد على إيجاز القول، ورشاقة اللفظ (...). وجلال المعنى ليكون لها وقع أشدّ، وتأثير عميق كما كانت تجنح إلى الكلمات المدوّية، والعبارات ذوات الصّدق القوي والجلبة الشّديدة، كي تنال الدّيوغ وتحظى بالانتشار وتصبح حديث الناس في عصرها وما يتلوه من عصور³ فالملح الإنساني البارز في فنّ

¹ - ينظر المصدر نفسه، ص: 358.

² - نفع الطيب، المقرئ، ص: 316.

³ - تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوفي، ص: 232.

الوصية يجعلها صالحة لكلّ شخص يبحث عن أسلوب عيش، أو يسعى لتحقيق غاية بصرف النظر عن طبيعتها، ومهما نأت به الديار .

6 - التّراجم والسّير: عمد الموحّدون إلى وضع سير للرسول (صلى الله عليه وسلم)، مثلما فعل أبو العباس أحمد بن محمد العزفي اللّخمي (-633هـ) في كتابه "الدرّ المنظم في مولد النبيّ المعظّم"، وابن دحيّة الخطابي (-633هـ) في مؤلّفه "التنوير في مولد السّراج المنير"، وقد اعتبرهما المنويّين أوّل من ابتكر التّأليف في المولد النبويّ¹، وقام بعض الكتّاب بتقديم شروح على السيرة النبوية؛ نحو صنيع أبي ذرّ الحشني في كتابه "شرح السّيرة النبوية"، وقد افتتح مقدمة الكتاب بقوله: « الحمد لله باعث الرّسل وناهج السّبل، الذي هدانا للإسلام وشرّفنا بملة محمد عليه أفضل الصّلاة والسّلام، تخيّره من أكرم نسب وجعله سيّد العرب والعجم (...)» وبعد فهذا إملاء أمليته بحفظي من لفظي على كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي تقدّم محمد بن إسحاق إلى جمعها وتلخيصها (...) قصدت فيه شرح ما استبهم غريبه ومعانيه وايضاح ما التبس تقييده على حامله وراويّه، مع اختصار لا يخلّ وإيجاز يتمّ به البيان ويستقل² استهلّ المؤلّف كتابه بحمد الله والثناء على سيّدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، ثم انتقل لذكر الغرض من تقييد الكتاب والمتمثّل في شرح السّيرة النبوية، كما ذكر الشّخص الذي تكفّل بجمعه، وتلخيصه، وشرح مغلقاته.

وعني الأندلسيون بتدوين سير علمائهم، وأدبائهم، وشعرائهم الذين تدرّجوا في أخذ العلم عنهم عرفاناً بفضلهم، وتعريفًا بهم للأجيال اللاحقة، وتحبيبًا لهم في العلم وأهله؛ ومن كتب التّراجم التي دوّنت في هذه الفترة: "التكملة لكتاب الصّلة" لابن الأبار القضاعي، الذي سعى فيه إلى تدوين الأعلام الذين أغفلهم ابن بشكوال في كتابه "الصّلة في تاريخ أئمة الأندلس" فبدأ من حيث أنهى سلفه، حيث جاء في مقدّمة كتابه: « وبعد، فهذا كتاب التّكملة لكتاب الصّلة الذي ألفه ابن

¹ - ينظر حضارة الموحدين، المنوي، ص: 47.

² - تاريخ الأدب العربي، عمر فزوخ، ص: 596.

بشكوال فوصل المنفصل وطبق في معارضة أبي الوليد بن الفرضي¹ لقد كان للفرضي وابن بشكوال قصب السبق في وضع تراجم لرجال الأندلس وأعلامها غير أنّهما أغفلا بعض الأسماء، وجاءت محاولة ابن الأبار لتقييدها، ولا سيما كتاب "الصلة" لتقارب عصريهما، حيث يقول: « وعلى ذلك فإنّه أغفل، مع أنّه احتفل، وأسأر مع أنّه أكثر، إذ الإحاطة لله وحده»² ولم يمنعه ذلك من الثناء على ابن بشكوال وكتابه؛ حيث قال: « وجاد بحسنة أثمرت له الحسنى، وجاد على عفاة العلم بصلة ما أسنى لا جرم أنّه أعاد بها ما كان فانيا وأعار الأندلس وأهلها عمرا ثانيا»³ وشرع في تصنيفه أواخر عام 646هـ، وذكر في مقدّمة كتابه أسماء الأشخاص الذين اعتمد عليهم في تراجمه⁴، وسعى لجعل عمله منظّما؛ فاعتمد فيه الترتيب "الألف بائي" وفق هجاء الأندلسيين، وجمع الأشخاص المتشابهين في الأسماء، وابتدأ في تراجمه بمن كان اسمه "أحمد" تيمّنا بالرسول (صلى الله عليه وسلّم) وعلى رأسهم "أحمد بن خالد التّغلي"⁵، وقد أورد تراجم لمن عرفوا بكُنّاهم، وكان لتراجم النساء نصيب من هذا العمل⁶، وقد تولّى "عبد السلام الهراس" تحقيق الكتاب، ويتّضح لنا ما عرضنا أنّ ابن الأبار كان حريصا على إبقاء مشعل العلم متّقدًا عندما خلد ذكر أهله، كما أفسح المجال لجيل من العلماء أتى من بعده، فتظافت أعمالهم لتنتج ما يمكن تسميته "موسوعة أعلام الأندلس".

وازدهرت "البرامج" على هذا العهد أو ما تسمّى "المشيخة" أو "المعاجم"⁷، وهي مصنّفات يسرد فيها المؤلّف أسماء شيوخه الذين تلقى عنهم العلم مع ذكر نسبهم، وبلدانهم، ورحلاتهم، ومؤلفاتهم، وإسهاماتهم، مُنوّها بفضائلهم، وكلّ ما من شأنه تأكيد سعة درايتهم، وحسن سيرتهم، وهوما يجعلهم في منزلة الثّقات، و يمنح لمعارفه التي حصّلها عنهم مصداقيّة أكبر؛ فهي بمثابة السيرة

¹ - التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ج 1، ص: 05.

² - المرجع نفسه، ص: 05.

³ - المرجع نفسه، ص: 05.

⁴ - ينظر التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ص: 07-09.

⁵ - ينظر التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار القضاعي، ص: 11.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ج 4، ص: 239-266.

⁷ - ينظر المغرب الأوسط على عهد الموحدين، علي عشي، ص: 177.

العلمية، وكلّما زادت أسماء الشيوخ الذين تلقى عنهم، وعظمت مكانتهم، كلّما انعكس ذلك إيجاباً على سمعة صاحب البرنامج، وحملت هذه المؤلفات عادة أسماء مؤلفيها .

وتعبّر البرامج عن صفة الوفاء التي يتحلّى بها مؤلفوها بفضل تخليد كتابها لمؤلفات شيوخهم، وذكر محاسنهم وعادة ما حملت أسماء مؤلفيها، واشتهرت البرامج بكثرة في المغرب الإسلامي؛ كبرنامج شيوخ الرّعيني لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الرّعيني الإشبيلي (ت666هـ)، وقد اختصّ علماء الحديث في هذا النوع من المؤلفات لعنايتهم بتوثيق السند الذي اعتمده، ومن بينها: "برنامج الإقناع في كيفية الإسماع" للشيخ أبي عبد الله محمد بن الحاج بن عبد الحق (ت625هـ)¹، وبرنامج القاضي أبي الحسن علي بن أحمد الزهري²، وبرنامج الأستاذ أبو الحسن اللبلي صاحب "برنامج المحدث النحوي"³، وتميّزت أساليب هذه التراجم والسير بالبساطة والوضوح في الأسلوب لحرصها على الفائدة الفائدة أكثر من العناية بالأسلوب عن طريق إيراد معلومات وأخبار العلماء، وألفت تكريماً لهم واقتداء بأخلاقهم، وهي دالة على كثرة العلماء على عهد الموحدين، وكان غرض مؤلفوها حفظ أعمال أعلامهم من الضياع و الترغيب في الاقتداء بهم.

7- الأمثال والحكم والمواعظ: مثلت خلاصة فكر الموحدين، وتجارهم، ونظرتهم للحياة، وموقفهم إزاءها، وقد استعان بها البلاغيون لما فيها من إصابة للمعنى ودقة في العبارة⁴، وتراوحت أساليبها بين الإغراء والتّحذير⁵؛ وصنّف أبو يحيى الرّجالي كتابه "أمثال العوام في الأندلس" وضمّنه عددا هائلا من الأمثال الشائعة على عهدهم والتي لا تزال متداولة في وقتنا الحاضر، وبخاصّة أنّه اعتمد في كتابته على العامية لا الفصحى، وارتبطت الأمثال بمختلف نواحي الحياة، كقولهم في

¹ - ينظر برنامج شيوخ الرّعيني، أبو الحسن الرّعيني، ص:169.

² - ينظر المصدر نفسه، ص:11.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 122، 125، 160.

⁴ - ينظر النثر الفني في عصر الموحدين، رضا عبد الغني الكساسبة، ص: 182.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص:227.

البائع الذي لا ينتفع من تجارته: «جَالَسَ فَالِدُكَّانَ، يُشَرِّدُ الذَّبَّانَ»¹ وأسهمت عباراتها المقتضبه في حفظها وتناقلها بين الناس، وقيل فيمن يصاحب من هُم أدنى منه منزلة: «من خالط الخدم ندم»² وفي هذا المثل دعوة لإنزال المنازل منازلهم؛ فقد يكون في رفع الوضيع جرأة على الكرام.

واشتهر الصالحون بحكمهم الكثيرة نظرا لتأملهم الدائم في تفاصيل الكون والغوص في جواهر الأشياء، ومن أشهرهم: أبو عمران الميرتلي الذي صاغ العديد منها حول آداب معاملة الناس منبها على وجوب الحيطة والحذر، نحو قوله: «من أعطاك رفته فقد منحك وده .ملك فؤادك من أفادك»³ واتسمت هذه الحكمة بالبلاغة، وقد استعمل أسلوب الشرط المعتمد على أداة "من"، كما اشتملت هذه المواظ على السجع نحو قوله: "ملك فؤادك من أفادك"، فضلا عن الترادف بين "أعطاك"، و"منحك"، والغاية من هذه المحسنات البديعية تأكيد الكلام.

كما أكدت حكمه على ضرورة التحلي بالحلم والأناة نحو قوله: «مَنْ خَفَّ لِسَانُهُ وَقَدَّمَهُ كَثُرَ نَدْمُهُ. التَّعَافُلُ عَنِ الْجَوَابِ مِنْ فِعْلِ ذَوِي الْأَبَابِ»⁴ ويحث الميرتلي المتلقي على تجاهل تصرفات وأقوال من عُرف بسفاهته، وزهدت بعض حكمه في الدنيا مثل قوله: «كُلُّ مَا يَفْنَى مَا لَهُ مَعْنَى»⁵ فلا داعي للتعويل على كل طارئ لأن ماله سيكون الزوال، وفي قوله: «القناعة بالقوت واللباس خير من سؤال الناس»⁶ إلحاح على وجوب التحلي بالقناعة بدل الاتكال على الغير، أما قوله: «ما لا ينفع لا يصنع»⁷ فهو دعوة للاقتصار على الأمور الضرورية فقط في الحياة.

¹ - أمثال العوام في الأندلس، أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، طبع بمساعدة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، مطبعة محمد الخامس، المغرب، دط، 1975م، ق 2، ص: 177.

² - المرجع نفسه، ق 1، ص: 220.

³ - شعر أبي عمران الميرتلي، حياة قارة، ص: 152.

⁴ - شعر أبي عمران الميرتلي، حياة قارة، ص: 135.

⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ - المرجع نفسه، ص: 135.

⁷ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ومن المواعظ التي ألفيناها على هذا العهد؛ ما بعث به أبو مدين شعيب التلمساني إلى صديقه أبي محمد عبد العزيز واعضا إياه في قوله: « من اتقى الله سبحانه وقاه، ومن توكل عليه حق التوكل كفاه، ومن استعاض به بنجاه، ومن شكره والآله، ومن أقرضه جزاه، واجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك فإنه لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا خشية له»¹ وجاءت رسالة أبي مدين مرصعة بالحكم والعظات، وأكدت على دراية ومعرفة الشيخ بالأمر التي تعصم المرء في الدنيا وتنجيه في الآخرة، كما أبانت عن براعته اللغوية التي أسعفته في التعبير عن مراده بعبارات دقيقة ومقتضبة حققت الغاية التي وظفت لأجلها، وهي تعكس مشاعره الصادقة الساعية إلى إصلاح الفرد باعتباره أساس المجتمع، وإرشاد صديقه لسبل الفلاح، وهي عاطفة مشبعة بتعاليم النصوص الدينية التي ألهمته كما في قوله: "لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ" التي اقتبسها من الحديث النبوي الشريف الذي رواه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)² حيث يؤكد على أهمية النية في الأعمال والطاعات.

وأح ابن عميرة المخزومي على وجوب التوبة والإنابة لله في قوله: « ويح ابن آدم أما يذكر قصة أبيه، ويقيس يسير جنائته بعظيم ما يجنيه، زاد عليه في المخالفة طولاً وعرضاً، فليته أعطي من ندامته ولو بعضاً، زلة أهبطته من جنة المأوى، وأذنته حتى أعلى بالشكوى»³ فالواعظ يلوم البشر المصيرين على ارتكاب المعاصي بالرغم من كونها السبب في إخراج أبيهم آدم من جنة الفردوس، وقد اعتمد على طباق الإيجاب بين كلمتي (طولاً، عرضاً)، والسجع في قوله: " زلة أهبطته من جنة المأوى، وأذنته حتى أعلى بالشكوى" وأحدث نغماً ترتاح له الأذن وتأن، ومن مواعظه أيضاً قوله: « يا هذا مداد الذنوب إنما يمحوه ماء الدمع أفلا تُعدُّ له عيناً باكية؟، وخطر العقل يقتل غلام الهوى وأنت

¹ - من أعلام تلمسان مقارنة تاريخية-فنية، محمد مرتاض، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دط، 2004م، ص: 32، نقلا عن أنس الفقير وعز الحقيير، ابن قنفذ القسنطيني، تحقيق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، دط، 1965 م، ص: 297.

² - قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): « إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى »، وقد علق الحقق على هذا الحديث بأنه متفق عليه، ينظر التلخيص الجامع الصحیح للبخاري، الإمام العلامة محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، حقه أبو قتيبة نظر محمد الفارابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 2008م ص: 791.

³ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 171.

تقول أقتلت نفسا زاكية؟¹ ويدعو ابن عميرة إلى ضرورة التّخشّع والتّضرع إلى الله بذرفِ الدّموع، كما يدعو إلى مجاهدة النّفس، ومخالفة الهوى مهما بدا في أعيننا هيّنا، وقد اعتمد في وعظه على الأسلوب الإنشائي؛ كالنداء باستخدام الأداة "يا" والتي تستخدم للبعد المكاني، ويبدو الشّخص المقصود في الوعظ غارقا في الذّنوب، غافلاً عن محاسبة النّفس، بالإضافة إلى أسلوب الاستفهام في قوله "أفلا تعدّ له عينا باكية؟" و قوله أيضا: أقتلت نفسا زاكية؟" والغرض منه الإنكار والتّوبيخ.

7- المناظرات: ألف الأندلسيون العديد من المناظرات، ومن أبرزها التي كانت بين الحيوانات والجمادات مثل: "مناظرة السيف والقلم" لابن برد الأصغر، و"مناظرة بين الورد والنّواوير" لأبي حفص بن برد² وذلك نظرا لحرية الفكر وتلاقح الأفكار، بالإضافة إلى طبيعة الأندلس السّاحرة، وشهد عهد الموحّدين تشجيعاً للتّرجمة، وانفتاحا على ثقافات الأمم المجاورة، فعبروا عن آرائهم بطلاقة وعمدوا إلى تأكيدها بتوظيف الحجج والبراهين، فأبدعوا في فنّ المناظرات الذي أسعفهم في التعبير عن آرائهم، وقد راعوا فيها آدابا ذكرها السيوفي في قوله: «تناول المتن والسند والمقدّمة والدليل، وحسن التّقسيم وهي رسوم يتّسم معها هذا الفن القولي بالموضوعية (...)» بالإضافة إلى حسن استخدامه للألفاظ الاصطلاحية التي تخدم موضوع المحاورّة والمناظرة تسهيلا للفهم وتحديدًا للفكرة³ ويحفل عصر الموحّدين بالعديد من المناظرات⁴؛ فقد أرسى ابن تومرت قاعدة شعبيّة أيّدته لبراعته في فنّ الجدل والإقناع⁵.

ومن بين المناظرات التي دُوّنت على هذا العهد تلك التي جرت بين "النّفس المطمئنّة، والنّفس الأمّارة بالسّوء" وهي من إنشاء ابن طاهر الذي أهداها للخليفة عبد المؤمن؛ وهي مناظرة

¹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

² - ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوفي، ص:123.

³ - تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوفي، ص:123.

⁴ - من أمثلة ذلك المناظرة التي دارت بين والي مدينة بجاية والأصولي، ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص:211.

⁵ - يقول ابن القطان في معرض حديثه عند دخول المهدي الى بجاية «فناظروه و ساءلوه فأجابهم ما أسكتهم ثم سألهم فما أحراروا جوابا» نظم

الجمان، ابن القطان، ص:94، و للاطلاع على المعارك الكلامية التي دارت بينه وبين فقهاء فاس، ينظر المعجب، المراكشي، ص: 132.

طويلة حاول فيها الانتصار لدعوة المهدي بن تومرت، وقد افتتحها بالبسملة والصلاة على النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)، ثم انتقل إلى حمد الله تعالى على نعمه والإقرار بفضله، ثم تخلص إلى المناظرة التي صاغها حواراً بين هاتين النفسين.

ويصف فيها جلوسه وحيداً، وقد تملكته الحيرة والتقمة على مجتمعه بسبب انتشار الفتن واستباحة المحظورات، وقد استسلم لليأس من إيجاد بلاد تراعي حرمة الدين الإسلامي، فإذا بصديق يحضر عنده، وكان قد زار دولة الموحدين في ظل حكم الخليفة عبد المؤمن بن علي ووجدهم أهل صلاح على النحو الذي كان يرجوه ويتمناه؛ حيث يقول: «فتنسمت ربح الحياة اللذيذة الشرعية، واستشعرت الإزاحة عن هذه المدن الضالة الجاهلية، وقلت: عسى أن الحياة الآن هي الخير»¹، وبينما هو فرحٌ مُستبشر بالخبر الذي زُفَّ إليه، فإذا بنفسه النزوعية² تهتف له مكذبة التبا، فردت عليها النفس النطقية³؛ مشيرة عليها بوجوب الارتحال إلى بلاد المهدي الذي بشر به الرسول (صلى عليه وسلم) لأنه من ذريته، وهو ما أثار استغراب النفس الأمارة بالسوء، فأخذت النفس المطمئنة بتقديم الحجاج التي تقضي بفساد دولة الملتئمين (المرابطين) الذين ظلموا المسلمين، وكان مجيء المهدي ابن تومرت رحمةً للعباد حيث طهر البلاد منهم؛ وأعاد عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وقد أيده الله بنصرته على أعدائه⁴، وهو ما جعل النفس الأمارة تلين وتُعجب بهذا الطرح.

وأبدت هذه النفس استغرابها من تسميته بالإمام، فأجابتها النفس المطمئنة بأنه أعلم الناس بطرق السعادة الحقيقية، وهو على أكمل الصفات والشمائل التي شهد بها كل من لزمه من أولي

¹ - نظم الجمان، ابن القطان، ص: 102.

² - المقصود بها النفس الأمارة بالسوء كما سماها في موضع آخر مستشهداً بقوله تعالى: M " # &% ' (+ *) ،
-./ 0 1 2 L ، سورة يوسف، الآية: 52.

³ - هي النفس المطمئنة، التي قال الله (سبحانه وتعالى) عنها: M 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : < = > ?

@ LA سورة الفجر، الآية: 27-34

⁴ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 103.

العلم على غرار الإمام الغزالي¹ الذي أثار فيه كثيرا وتثني عليه النفس مطمئنة بقولها: « وعلى هذا فهو أولى بأن يُتبع، ويُتخذ قائدا بل هو ملك على الإطلاق، أي على كل جهة من الوجوه، إذ كان رضي الله عنه مطاعا يقهر الظالم ويخوف الفاسق، ولما كانت هذه اللفظة - أعني " على الإطلاق " - تقع على معنى قولنا "على التحقيق"، فإذن صدق القول في المهدي - رضي الله تعالى عنه - مهدي على الحقيقة، وإنه ملك على الإطلاق، وإمام أول² فالنفس مطمئنة اعتبرت المهدي بن تومرت ملكا على الموحدين، وقد أردفت رأيها بالأدلة التي تؤكد ادعائها، وخلصت إلى نتيجة تؤكد صحة تسميته بالملك والإمام.

وانتهت هذه المحاورة - المناظرة - باستسلام النفس الأمانة بالسوء وتصديقها لدعوة المهدي ابن تومرت فعمت الطمأنينة نفس ابن طاهر - كاتب هذه المناظرة - وأصبح من زمرة الموحدين بفضل ما تحقق له من يقين، وهو ما يعبر عنه في قوله: « إذ صرتُ بكلي في زمرة الموحدين، دون أن ينازعني منازع مني، يجيء على شأني، وكلي موافق لكلي، وسري مساوٍ لجهري³ فقد اجتمعت النفسان على رأي واحد يؤكد صحة إمامة ابن تومرت، وهما متشوقتان للارتحال إلى بلاد المغرب، وهو ما يؤكد تجنيد الدعوة الموحدية أقلامها لإقناع الناس بصدق مهديهم.

واعتمد الكاتب على ألفاظ فلسفية لتأكيد موقفه مثل: "الإطلاق" و"التحقيق" وهذا ما دأب عليه طيلة المناظرة التي تطرق فيها إلى قضايا عديدة أكد صدقها بالحجج العقلية والنصوص الشرعية التي تثبت انتساب المهدي لآل البيت، وأن أخلاقه قريبة من السمائل المحمدية التي تواترت الأحدث⁴، ثم يؤكد ثقته بتأييد الله له كما فعل مع أنبيائه؛ إذ لا فرق بينه وبينهم. وعبرت هذه المحاورة التي جرت بين نفس الكاتب عن موقف الموحدين من مهديهم، والأسئلة التي طرحتها

¹ - ينظر المصدر نفسه، ص: 105.

² - نظم الجمان، ابن القطان، ص: 105-106.

³ - نظم الجمان، ابن القطان، ص: 121.

⁴ - ومن بين خصاله أنه مؤثرا للصدق، محبا للعدل، غاية في الذكاء، قوي العزيمة... واعتمد على قدر كبير من الأحاديث التي تثبت صلة المهدي بالرسول صلى الله عليه وسلم من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما، ينظر المصدر نفسه، ص: 110-114.

النفس الأتارة بالسوء كانت شغل العامة من أتباع المهدي آنذاك، أما أجوبة النفس المطمئنة فقد عبرت عن صوت العقل والحكمة الذي يُهتدى به إلى الطريق الصحيح الذي أكدّه القرآن الكريم، والأحاديث النبوية التي استعان بها ابن طاهر، وبذلك كان العقل مُنسجماً مع الدين الإسلامي.

كما وظّف الكاتب العديد من المصطلحات الفلسفية، والعلمية مثل: المطلق، والكل، والعلم وغيرها. وتكمن أهمية هذا المحاورة في كون المجتمع لا يمكن أن يقوم على أفراد مشككين في مبادئهم لذلك انبرى الكاتب للردّ على الشبهات التي نُسبت لدعوة ابن تومرت وقد غالى في التشيع له؛ بحيث رفعه إلى مصاف الرسل.

وتطوّرت فنّ المناظرة بخاصة في جزيرة الأندلس بحيث ظهرت المفاخرات بين المدن الأندلسية كالمناظرة التي جرت بين أبي الوليد بن رشد والطبيب ابن زهر في التفضيل بين مدينتي إشبيلية وقرطبة¹، أين ظهرت ملامح التعصّب في كلّ واحد منهما لمسقط رأسه؛ فكانت قرطبة حاضرة العلم وإشبيلية مدينة للفن، ويبدو أنّ افتتان الأندلسيين بمُدُنهم جعلهم ينظرون إليها على أنّها بشر؛ فهي تنطق وتختال بمحاسنها، ومن نماذج ذلك المغايرة التي جرت بين مدن جزيرة الأندلس في حبّ الأمير أبي عبد الرحمان بن يعقوب المنصور، وهي من إنشاء أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي، وابتدأها بالثناء على الأمير والدعاء له²، ثمّ وصف منزلته الرفيعة في قلوب الناس بفضل انتصاراته التي حقّقها، وحالة الرخاء التي عُرفت في عهده، فالجميع آمن، ومتنافس في لقاء الأمير والظفر بعطفه، وهذا الأمر لم يقتصر على الأشخاص بل انتقل إلى المدن التي تَمَنّت نيل شرفٍ ودّه وإقامته فيها³، فأخذت كلّ مدن الأندلس تشدو بما لديها مغرية إيّاه بجمالها.

¹ - للاطلاع على نص المناظرة كاملاً، ينظر نفع الطيب، المقرّي، ج1، ص: 155.

² - استهلها بقوله: «مولاي، أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه، كما ضمّ على حبّك أحناءهم وأحناءه»، نفع الطيب، المقرّي، ج1، ص: 170، زاد المسافر، التجيبي، ص: 124.

³ - يعبر عن ذلك ابن إدريس بقوله: «ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار، وطال بما الوقوف على حبك والاقْتصار، كلّها بفصح قولها، ويقول: أنا أحقّ وأولى»، زاد المسافر، التجيبي، ص: 124، نفع الطيب، المقرّي، ص: 171.

وبادرت مدينة "إشبيلية" إلى الكلام؛ وقد سماها التحيي "حمص" للتشابه الكبير بين هاتين المدينتين، فيقول: «تمّرت حمص غيظًا، وتكاد تفيض غيظًا، وقالت: ما هم يزيدون وينقصون، وَيَطْمَعُونَ وَيَحْرِصُونَ CM i h g f e d Lj¹، أنا مصر الأندلس والنيل نهر (...). لي ما شئتُ من أبنية رحاب، ورؤوس يستغني بنضرته عن السحاب»² فهذه المدينة جمعت بين نضرة الطبيعة وسحرها، وامتداد العمران، وجرّيان أوديتها، فكانت حاضرة من حواضر الأندلس التي امتدّ فضلها إلى غيرها من مدن العدوة.

ويبدو أنّ خيلاء مدينة إشبيلية لم يُعجب قرطبة التي يصفها التحيي بقوله: «نظرتها شرزا: وقالت لقد كثرت نزا (...). لي البيت المطهر الشريف (...). وفي جامعي مشاهد ليلة القدر، فحسي من نباهة القدر، فما لأحد أن يستأثر عليّ بهذا السيّد»³ لقد أنكرت هذه المدينة على إشبيلية مبالغتها في تصويرها لمحاسنها فأين هي من العاصمة قرطبة دار العلم؟ وكيفيها فخرًا جامعها الشهير الذي تتفاخر به على سائر الأمصار، وما يلفت الانتباه في هذه المناظرة هو دقة تصويره لمدينة قرطبة وهي تستمع لقول إشبيلية وكأنّها إنسان حقًا.

وشاركت مدينة "مالقة" الحوار مفاخرة ببخرها، وكثرة جناحها، وفواكها وكلّ ما يبهج زوارها⁴، كما عبرت "مرسية" عن أحقيتها باستضافة الأمير فهي جنة الله في أرضه، وقد أُرنت بخيراتها ومباهجها عن سائر المدن⁵، بالإضافة إلى مدينة "بلنسية" التي تباغت بمحاسنها الشائخة، ووصفتها، وجسرها اللذين ضارعا مدينة السلام (بغداد) بالعراق⁶ وهو ما استفزّ مدينة "تدمير" التي استشاطت غضبًا على ادّعاءات بلنسية، وعبر أبو بحر عن ردّة فعلها بقوله: « فعند ذلك ارتمت جمرة تُدمير

¹ - سورة يونس، الآية: 66.

² - نفع الطيب، المقرئ، ص: 171.

³ - زاد المسافر، التحيي، ص: 125.

⁴ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 173.

⁵ - ينظر المصدر نفسه، ص: 173-174.

⁶ - المقصود بما العراق وقد استدل على معنى ابن ادريس بقول علي بن للحهم: عيونها بين الرصافة والجسر، ينظر المصدر نفسه، هامش ص: 174.

بالشّرار (...). وقالت: عش رجبا، تر عجبا، أبعد العصيان والعقوق، تتهيمين لرتب ذوي الحقوق هذه سماء الفخر فمن ضمك أن تعرجي، ليس بعشك فادرجي¹ لقد أنكرت هذه المدينة على بلنسية تعديدها لمفاخرها؛ إذ أنّها على غير ما تصف، فهي لا ترق لأن تنازع سابقاتها في شيء، وقد شبّهت قُصور جمالها عن نظيراتها بالمرأة العرجاء التي تحاول أن تكون نداءً للغادة الحسناء، وقد استعانت في تعبيرها لها بتوظيف الحكيم

وبعد ذكر صفوان بن إدريس التحيي لمختلف الحواضر الأندلسية أنهى مفاخرته بالدعاء للخليفة، وقد برهن في نصها على براعته في فنّ المناظرة بالمزاوجة بين المنطق في التعبير، ورشاقة الأسلوب الذي استعان بالأوصاف كثيرا نحو: "شزرا"، "ونزرا"، و"غيظا" إلى غير ذلك لأنّه بصدّد تصوير جمال المدن الأندلسية، كما اعتمد الجمل القصيرة، وزواج بين الأسلوب الخبري والإنشائي، وتمثّل هذا الأخير في الدعاء نحو قوله: "أسأل الله تعالى أن يوقد من توفيقك ما خمد" التي أفادته في الحكيم.

كما عرفت الأندلس "مناظرات الأقاليم" إثر الانهيار السياسي في فترة حكم الخليفة الناصر، والانحزام في "معركة العقاب" بالإضافة إلى انتشار النزعة الإقليمية² التي ازدادت حدّتها مع نهاية الوجود الموحدّي، ولم تبق المناظرات حبيسة الأندلس، حيث تعدّتها لعدوة المغرب ومن أشهرها مفاضلة "أبي الوليد الشقندي"³ و"أبي يحيى بن المعلم الطنجي" بين برّي العدوتين؛ أين تعصّب كلّ واحدٍ منهما لبلده؛ فأمرهما الأمير أبو يحيى بن أبي زكريا صهر الخليفة الناصر بأن يكتب كلّ واحد

¹ - زاد المسافر، التحيي، ص: 137.

² - ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوي، ص: 124.

³ - هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد، من قرية شقندة على نهر قرطبة، له محاضرات ورسائل لا كاد تنفصل، وقد برع في الشعر والنظم، وتوفي بإشبيلية، ينظر نفع الطيب، المقرّي، ج3، ص: 222-224.

منهما في المفاضلة بين برّي العدوتين فامثلا لأمره، وقد ذكر المقري نصّ رسالة الشقندي، ولم يورد ما صاغه ابن المعلّم في مناظرته¹، لهذا سنكتفي بما ورد عن الأندلس فقط.

وقد استهلّ أبو الوليد الشقندي مناظرته بقوله: « الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بجزيرة الأندلس أن يتكلّم ملء فيه، ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يُثنيه، إذ لا يُقال للتّهار: يا مظلم، ولا لوجه النّعيم يا قبيح»² فهو يرى أنّ من حقّه المباهاة بالأندلس لأنّ أوّليتها وفضلها على المغرب واضِحان وضوح النّهار، ثمّ ينتقل إلى حمد الله والثّناء عليه لأنّه حباه بالفصاحة والبيان، وينتقل للصّلاة على نبيّه محمّد (عليه الصّلاة والسّلام)، ثمّ يبدي إنكاره على ابن يحيى افتخاره بعدوّة المغرب، لأنّه كلام لا يقبله المنطق إذ يقول: « فيا من نفخ في غير ضرم، ورام صيد البزاة بالرحم، كيف تتكثّر بما جعله الله قليلا، وتتعزّز بما حكم الله أن يكون ذليلا؟ ما هذه المباهنة التي لا تجوز؟ وكيف تبدي أمام الفتاة العجوز؟»³ فلا جدوى من محاولة خصمه الرّفْع من منزلة العدو لأنّ الله قد كتب عليها الهوان، كما ردّ على الطنجي الذي تباهى بكون ملوك المغرب هم الذين يحكمون المغرب الإسلامي آنذاك، فبرّر ذلك بأنّ الأيّام دُول، وذكره بأنّ حكام الأندلس الغابرين كانوا من قبيلة قريش وبفضلهم عرفت بلاد الأندلس عصورًا زاهرة لمع فيها جملة من الحكّام والفضلاء، وعلى رأسهم الخليفة " المنصور بن أبي عامر"⁴ الذي شغل الدّنيا في عصره حتّى امتدّت فتوحه إلى بلاد النّصارى، وبلغ صيته بلاد بغداد، وفي افتخاره بنسب بني أميّة في الأندلس تعريض بملوك المغرب من البربر.

¹ - وقد يكون السبب وراء ذلك قصدا لعدم جودتها مقارنة برسالة الشقندي التي حرص على نقلها كاملة، أو قد يعود السبب لضياح نصّها فلم يصل إلى المقري غيرها من النصوص التي ضاعت أو خلفتها في المغرب كما اورد ذلك المحقّق، ينظر المصدر نفسه، ص: 71.

² - نفع الطيب، المقري، ص: 187.

³ - نفع الطيب، المقري، ص: 187.

⁴ - هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر انتدبه أبو جعفر المصحفي للكتابة في القصر ثم ما لبث أن استأثر بالحكم، وله ما ينيف عن الخمسين غزوة لم يهزم فيها، تميز بذكائه وجوده حكم ستا وعشرين سنة، وتوفي عام 392هـ، للتفصيل ينظر نفع الطيب، المقري، ج1، ص: 399-402.

ويتدرج الشقندي في ذكر الدول التي تعاقبت على جزيرة الأندلس والتي عرفت بحضارتها؛ فبعد وفاة المنصور بن أبي عامر، دخلت الأندلس عهد "ملوك الطوائف" وشهدت فيه انقسامًا سياسيًا، وقد تبارى فيه الخلفاء على تشجيع الآداب والعلوم بحيث يقول: «تباروا في المنثور والمنظوم، فما كان أعظم مباحاتهم إلا قول العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني، وليس منهم إلا من بذل وسعه في المكارم»¹ وتبعًا لذلك كثرت قصائد المدح التي خلّدت آثارهم، وبخاصة في بلاط "بني عبّاد" بإشبيلية الذين عرفوا بتقريبهم للشعراء وكرمهم معهم، ثم خاطب خصمه متحديًا إياه بقوله: «وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهديّة، أبستقوت الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي؟ أم بيوسف بن تاشفين الذي لولا توسط بن عبّاد لشعراء الأندلس ما أجروا له ذكرًا، ولا رفعوا لملكه قدرًا»² ويشعر القارئ لهذا القول بوضوح بلهجة التهكم برموز المغرب من الحكام السابقين لعهد الموحدين، ويحفل التاريخ بقصص تشهد بجلفهم، وجهلهم للغة العربيّة ومعانيها اللطيفة³، فقد تمكّنت الأجيال من الشعراء الذين أنجبتهم الجزيرة أن تصوّر ظرف الأندلسيين، ورقة طباعهم بعكس نظرائهم المغاربة، فلولا المقطوعات التي كانت من إنشائهم في مدح حكامهم لما كان لهم ذكر، ويبدو الشقندي ساحطًا على الحكام المغاربة الذين امتد نفوذهم إلى الجزيرة، فهو جريء وغير آبه لحضور الخليفة الموحي، وقد بالغ في هذا القول كثيرًا وأبدى تعصبًا⁴.

وقد أشاد في موضع آخر من هذه المناظرة بأهل الصّلاح الذين ملأوا الجزيرة برًا وإحسانًا، وأسهموا في نشر الثقافة بفضل سيرهم ومؤلفاتهم التي لا يمكن لمغربيّ النّسج على منوالها، ويعود ليؤكد مرّة أخرى على براعة الأندلسيين في الشعر لما جبلوا عليه من بديهة، وقد مكّنتهم براعتهم في النثر

¹ - المصدر نفسه، ص: 190.

² - المصدر نفسه، ص: 191.

³ - من القصص التي يستدل بها قصة الخليفة المرابطي "يوسف بن تاشفين" مع الملك المعتمد بن عباد عندما أرسل هذا الأخير شعرا يتشوق فيه لأمير المسلمين الذي أساء فهم الأبيات وأولها بأن المعتمد يطلب منهم الخبز، وكتب له جوابا يدل على غلظة طبع تنفر منها رقة الأندلسيين، للاطلاع على نص القصة كاملا، ينظر المصدر نفسه، ص: 191-192.

⁴ - ينظر التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، حمدي عبد المنعم حسن، ص: 382.

من مقارعة كبار الشعراء المشاركة بشهادة نقّادهم¹ بل سبقوهم في خلق المعاني وابتكارها ببراعة وتفنّن²، وبخاصّة شعُر وصف الطّبيعة الذي تخصّصوا فيه وأبدعوا في قصائدهم رجالاً ونساءً، بعكس المغاربة الذين لم ينبغ لهم شاعر حاشا "أبي عباس الجراوي" الذي رام أن ينظم شعرا في المدح فإذا به يهجو لضعف لغته، وقُصور مخيلته³، ولم يكن يضاها في فصاحتهم إلا شجاعثهم، حيث اشتهر منهم فرسان مغاور تحكي قصصهم - التي سرد بعضها - مع التّصارى ما يؤكّد ذلك⁴.

ويميضي الشّقندي في القسم الأخير من مفاضلته إلى ذكر مدن الأندلس وتأكيد تفرّدها بالجمال؛ بحيث معدّدا محاسنها على نحو ما صنع التّجيبى، وزاوج في وصفه بين الشّعْر والنّثر، وبدأها بوصف مدينة إشبيلية، ومّا جاء في ذكرها وقد قارنَ بينها وبين مصر: «وقيل لأحدٍ ممّن رأى مصر والشام: أيها رأيت هذا أم إشبيلية؟ فقال بعد تفضيل "إشبيلية": وشرفها غابة بلا أسد، ونهرها نيل بلا تمساح»⁵ فقد فاق جمالها مدينة الإسكندرية، وهو بذلك يفضل هذه المدينة الأندلسية على حواضر شهيرة في المشرق، وقد عرفت بروج سوق الفنون بها، وإنجابها للعلماء والشعراء، وقد شابهتها في سحر طبيعتها الحُصْب تُربتها باقي المدن الأندلسية، إلا أنّها تفرّدت عنهم بعظم مساحتها.

وينتقل لوصف الحاضرة قرطبة أو كما سمّاها هو كرسىّ الخلافة، وقد عرفت باهتمامها بالعلوم، وتمسّك أهلها بمذهب الإمام مالك، ثم يميضي في وصف سائر المدن على غرار مدينة "جيان" الحصينة التي رسم لها صورة قريبة ممّا رأيناها عند التّجيبى، وكذا مدينة غرناطة التي ذكر أسماء شواعرها اللّائي جارين الرّجال في النظم، بالإضافة إلى مدينتي مالقة⁶ ومرسية اللّتين ذكّر طبائع أهلها وصِفَاتهم الجسميّة، ومّا جاء في سكّان هذه الأخيرة قوله: «وأما مرسية فإنّها حاضرة شرق الأندلس، ولأهلها

¹ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 198.

² - ينظر المصدر نفسه، ص: 193-209.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 210.

⁴ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 211.

⁵ - نفع الطيب، المقرئ، ص: 213.

⁶ - ينظر نفع الطيب، المقرئ، ص: 213.

الصّرامة والإباء ما هو معروف ومشهور»¹ فرجولة وشهامة سكّان هذه المدينة الذائع صيتها شدّتا انتباه الشّقندي، وعدّها عاصمة شرق الأندلس نظراً لما عرفت به من تحضّر .

وأما خاتمة هذه المغامرة فقد أكّدت على مزيّة بلاد الأندلس على سائر الأوطان في قوله: «الحمد لله الذي أطلع من المغرب هذه الشّمس، وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرّؤوس، وصلّى الله على سيّدنا محمد نبيّه المختار من صفوة العرب، وعلى أصحابه، صلاة متّصلة إلى غابر الحقب»² وأهى الشّقندي هذه المناظرة دون أن يدعّو للخليفة الموحي مثلما فعل صفوان ابن إدريس سابقاً، معرباً عن نغمه على الموحدين وحكّمهم، إذ في نظره لازالوا تابعين لأسيادهم الأندلسيين³.

ومثّلت هذه المناظرة التي جرت بين عُدوّي المغرب والأندلس نموذجاً آخر عن تطوّر هذا الفنّ الذي طُبِع بخصوصيّة الأندلسيين؛ وهي احتفاؤهم بمدّهم التي بهرّتهم بِجَمَالِهَا فصوّروا ذلك في نثرهم، وجعلوها حيّة تنطق وتعبّر عن مشاعرهما، محاولةً مجازةً شعر الطّبيعة الذي اشتهروا به، فوفّقوا في التّعبير عمّا اختلج في نفوسهم لأنّه نابع من انتماءهم لهذا القطر الذي تربّص به الأعداء في كلّ حين، ويبدو أنّ غيرة الشّقندي على بلاده أنسته أنّه في حضرة الخليفة الموحي الذي ينحدر من أصول مغربيّة، فلم يمنعه ذلك من التّهكّم بكلّ ما قد يخطر على بال البربر الافتخار به كلّما سنحت الفرصة إلى ذلك، مقارناً بداوتهم بعلوّ كعب الأندلسيين، و تفوّقهم على نظراءهم المشاركة مؤكّداً الخصوصيّة في العديد من فنون القول، وملّمحاً إلى استقلال الأدب الأندلسي عن المشرقي على الأقلّ في هذه الفترة .

وجاءت هذه المناظرة على شاكلة سابقتها وما سيتبعها من نماذج في عهد الموحدين مستوفية شروط هذا الفنّ الأدبي، ولاسيّما من حيث اعتماد الأدلّة المنطقيّة لإقناع العقل والتي لم تتوفّر عند

¹ - المصدر نفسه، ص: 212-220

² - المصدر نفسه، ص: 222.

³ - يبدو أنّ اللّحمة التي عرفها المجتمع الموحي في عصر القوة بدأت تتلاشى قبيل سقوط الدّولة، فقد نظر إليهم الأندلسيون باحتقار، مثلما تبيّنناه من أمثالهم، حيث قيل: «البربر والقار لا تعلّمهم باب الدّار»، أمثال العوام، الرجال، ق1، ص: 207.

خصمه أبي يحيى بن المعلم الطنجي حسبما تم إيرادها سابقاً، وجاء النص طويلاً سعى فيه صاحبه لتأكيد كلامه بمختلف الأدلة والبراهين؛ من آيات قرآنية، و آيات شعرية، وقد عرض فيه لمفاخر الأندلس سواء كانوا حكاماً، أو علماء، أم شعراء، أو بلدان مؤكداً تفوقهم على معاصريهم في عدوة المغرب، وبلاد المشرق في نواحي عديدة لفتت انتباه مصطفى السيوفي الذي عرض لطريقة تناولها حيث قال عنها: «تدل على خيال محلق وذوق حسن وبراعة اختيارٍ للألفاظ واستبطان لمواقع القول في ثوب قصصي جميل»¹ أما أسلوبها فقد جاء سهلاً لأنه يهدف إلى إيصال حقيقة تؤكد أولوية الأندلسيين على أهل عدوة المغرب على الرغم من التبعية السياسية للموحدين، واعتماداً على حقائق تاريخية .

ومن مميزات المناظرات أيضاً رقة الأسلوب وسهولته، وقد وصفها السيوفي بقوله: «أصبحت طبعاً في الكاتب يستطيع أن يتصرف من خلاله كما يجب دون أن يستعصي عليه فن القول (...) كالاقتباس من القرآن الكريم دون إشارة لذلك مثلاً بقوله تعالى أو ما يؤدي هذا المعنى، بل يستخدمون ذلك في تعابيرهم كاستخدامهم للحكم والأمثال دون إشارة صاحب القول أو قائل الحكمة»² لم تقتصر السهولة في الأسلوب على المناظرات وحدها، بل شملت سائر الفنون النثرية على هذا العهد حتى غدت طبعاً في كتاباتهم لاهتمامها بإقناع العقل أكثر من الإبحار اللفظي، وأسهمت هذه المناظرات في ظهور كتب المعارضات مثل كتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي³ الذي كان ثورة على النحو المشرقي، وكتاب "تهافت التهافت"⁴ لابن رشد الذي ردّ فيه على كتاب "تهافت

¹ - تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوفي، ص: 125.

² - تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوفي، ص: 129-130.

³ - ينظر الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، ص: 23.

⁴ - ألف ابن رشد كتاب "تهافت التهافت" ليكون رداً مباشراً على كتاب الغزالي، نصح فيه الأسلوب ذاته في شروحه على كتب أرسطو، حيث تتبّع فقرات كتاب تهافت الفلاسفة فقرة فقرة ويوردها بنصها كاملاً أو مجتزئاً أو بتصرفه في أسلوبها إذا أشكل على القارئ فهمه ويعلق عليه أو يوضح، وترك المسائل التي ناقشها الغزالي التي تخص العقيدة لأهل الدين فهم أولى بها وبالتالي جاءت بنية الكتاب مشابهاً لبنية كتاب الغزالي، ينظر تهافت التهافت انتصاراً للروح العلمية وتأسيساً لأخلاقيات الحوار، مع مدخل ومقدمة تحليلية وشروح للمشرف على المشروع الدكتور محمد عابد الجابري، إعداد مركز وحدة الدراسات العربية، لبنان، ط1، 1998 م، ص: 58.

الفلاسفة¹ للغزالي الذي هاجم فيه علم الكلام، على الرغم من طول الفاصل الزمني بين هذه الردود والكتب التي أقيمت عليها الحجّة.

8- المقامة: شهد هذا الفنّ نضجا في المشرق وذلك في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ولا سيّما على يد بديع الزّمان الهمداني²، ولم يكن الغرض من تأليف المقامات جعلها قصصًا، بل كان الهدف تعليميًا محضًا؛ يركز على الأسلوب المنمّق لإيصال فكرة دون إعطاء هذه الأخيرة أهمية، غير أنّ من اتّبعه من الأدباء التزموا في مقاماتهم الأسلوب القصصي بحيث يقول شوقي ضيف في معرض حديثه عن نشأتها: «إنما الغاية التّعليم والأسلوب الذي تعرّض به الحادثة. ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى في المقامة، فالمعنى ليس شيئًا مذكورًا، إنّما هو خيط ضئيل تُنشر عليه الغاية التّعليمية»³ لهذا كان الاحتفاء باللفظ على حساب المعنى هو الرّكيزة الأساسيّة في كتابة المقامات.

وارتحل الأندلسيون إلى بلاد المشرق لسماع المقامات وروايتها بخاصّة مقامات الهمداني⁴ فتأثّروا بها وحاولوا النّسج على منوالها؛ من بينها مقامات بن أبي الخصال الذي سعى فيها إلى رسم لوحات متعدّدة في مقامة واحدة⁵ وسمّى بطلها "الحارث بن همام" والرّاوي "أبو زيد السّروجي" على النّحو الذي ألفناه لدى الحريري، وفي القرن الخامس الهجري طالعنا السّرقسطي بمعارضات للحريري، اعتمد فيهما على شخصيّتين رئيسيتين هما: "السائب بن تمام" و"الشيخ أبو حبيب"⁶ أمّا في عهد الموحدين

¹ - يقصد الغزالي من عبارة "تهافت الفلاسفة" تناقض أفكارهم وعدم بلوغها مرتبة اليقين، ويتألف كتابه من خطبة، وأربع مقدمات، ثم فهرس للمسائل التي ناقش فيها ابن سينا لإظهار التناقض، وهي عشرون مسألة: أربع في الطبيعيات، وست عشرة في الإلهيات، وتدور قضاياها حول تلك التي يتخذها علم الكلام موضوعًا له، وجاءت بنية الكلام تدور حول مواضع جدال و مناقشات علم الكلام: ذات الله، صفاته، وأفعاله، للتفصيل ينظر تهافت التهافت، ابن رشد، ص: 59-60.

² - ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوي، ص: 269.

³ - المقامة، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، 1954م، ص: 09.

⁴ - ينظر المقامة، شوقي ضيف، ص: 275.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص: 277.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص: 283.

الموحدين فقد أقبل الأدباء على شرح مقامات المشاركة، ومن أشهرهم: عبد الله بن ميمون العبدي (-567هـ)¹، وأبو العباس أحمد الشّريشي (-619هـ) الذي قال المقرئ عنه: « وله رحمة الله تعالى شروح لمقامات الحريري: كبير، ووسط، وصغير وفي الكبير من الآداب ما لا كفاء له »² وغيرهم من الأدباء. فضلا عن أبي جعفر أحمد بن محمد الكنايني (-627هـ)³ الذي تنقل إلى الشام والحجاز وسمع مقامات الحريري من أبي الطاهر الخشوعي ونشرها بين الناس.

وقدم بعض الأدباء محاولات في فنّ المقامة على غرار أبي عبد الله محمد بن عياض اللبلي⁴ صاحب المقامة "الدّوحية" التي فاضت بالأوصاف الحسيّة، ومما جاء فيها قوله: « نبت بي معاهد الأحباب، في ريعان الشّباب، لقينة أذكت نيرانها، وألقت بمسقط الرّأس جيرانها، فامتطيت اللّيل طرفا، ومزقت السنّان طرفا، وجعلت أمسح الأرض بجدًا ووهدا، وأستطعم الآمال صابًا وشهدًا »⁵ وجاء طابع هذه المقامة غزليًا؛ فهي تحكي عن إحدى مغامرات اللبلي العاطفيّة، وتُصوّر محاسن محبوبته الحسيّة على هيئة قصّة ارتكز فيها على الحكاية التي تُعدّ ميزة هذا الفن، ووظف فيها المحسنات البديعيّة بكثافة مثل: الجناس بين لفظي (طرفا ، طرفا)، فضلا عن الاستعانة بالسّجع كما قوله: "نبت بي معاهد الأحباب في ريعان الشّباب" وتميّزت هذه المقامة بكون كاتبها هو الرّاوي، والبطل في الآن ذاته.

وعرف هذا الفنّ تطوُّرا مع إبداعات ابن محرز الوهراني في مقاماته؛ ومن بينها "المقامة البغدادية" التي حكى فيها عن رحلته إلى الحجّ ، ولقائه بالشيخ أبي العلاء في مدينة بغداد وحديثه

¹ - يقول ابن سعيد: « كان محمد بن عبد الملك بن سعيد مجالسه كثيرا، ويخبر عن تبخّره في النحو، وله شرح الجمل، وشرح المقامات، وعظمت منزلته عند المنصور »، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج1، ص: 211-212.

² - نفح الطيب، المقرئ، ج2، ص: 116.

³ - ينظر التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ج1، ص: 104-105.

⁴ - أورد ابن سعيد في ترجمته أنّه نحويا أديبا مصدّرا للإقراء في قرطبة في صدر دولة بني عبد المؤمن ، ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج1، ص: 433.

⁵ - المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد ، ص: 344.

معه الذي يصف حال الدول التي تعاقبت على البلاد الإسلامية من مشرقها إلى مغربها ورأيه في حكمها، وقد صاغ الكاتب أسلوبه بعبارات موجزة وبليغة؛ مثل حديثه عن حكم الموحدين؛ إذ يقول في ملكهم: « مؤيد من السماء، مسلط على من فوق الماء، خضعت له ذوو التيجان وخدمه الإنس والجان. ولو أنّ للقلم لسانا، وللورقة إنسانا، لتألمت وتظلمت، ولأنشدتك في الملاء قول الشيخ أبو العلا:

جَلَّوْا صَارِمًا وَتَلَّوْا بَاطِلًا وَقَالُوا صَدَقْنَا فُقُلْنَا نَعَمُ
ولكن السكوت عن هذا أنجح، ومسالمة الأفاعي أصلح¹ وبدا ابن محرز ناقمًا على الموحدين حيث اعتبرهم ظالمين، ودفعه الخوف من بطشهم إلى مداراتهم وإظهار الطاعة خوفًا من حزمهم وقوتهم اللتين أخضعتا لهم أعداءهم.

ثم ينتقل الوهراني إلى وصف دولة صلاح الدين التي خطت معالمها عمه "الملك المنصور" فأعاد لها مجدها بعد أن عبثت بها أيادي الإفرنج، وأبدى إعجابه بشخصية صلاح الدين الأيوبي الذي عدّه مثلاً للخليفة الحقيقي لأسباب عديدة من بينها ما جاء في قوله: «لما جُبل عليه من حميد الأوصاف، وإيثار العدل والإنصاف، وما اجتمع فيه من أخلاق الملوك وتواضع الصعلوك، وما خُصّ به من شهامة الجنان، وسماحة النفس والبنان، فتسلّمها مضطربة الأوائل، محشوة بالفتن والغوائل، تسري عقارب أصحابها (...) فوثب عليهم وثبة الأسد الكاشر (...) فأخرج المفسد والمحارب، وقتل الأفاعي والعقارب»² ويصف الكاتب صلاح الدين بالعدل والتواضع، والشهامة، وسماحة النفس بالإضافة إلى القوة والحزم، وهذه كلّها صفات هيأت له الملك، وأخضعت له المناوئين، كما نال بفضلها إعجاب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

¹ - منامات الوهراني، ابن محرز الوهراني، ص: 02-03.

² - منامات الوهراني، ابن محرز الوهراني، ص: 05.

ويظهر إعجاب ابن محرز بـجُكَّام المَشْرِقِ جليًا لما شهدته من فضلهم وعدلهم ؛ فقد أغنوه بعد أن خرج محتاجا من بلاد المغرب، ولعلَّ خاتمة هذه المقامة تختصر مشاعره، وتعكس نظرتَه؛ حيث يقول في ملوكهم، وبخاصَّة حَكَّام مصر: « تلك شجرة غرسها الإمام المرحوم بيده وربَّاهَا لولده. سقاها بماء الأمانة، وغذاها بلبان الدِّيانة، فظهر في لبَّها وحبَّها، ومنه توتِّي أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها»¹ فهذه الخلافة أمودج في الامتثال لتعاليم الإسلام الخفيف، وهو سرُّ بقائها قويَّة وثابتة، فهي مُؤيِّدة من الله، وهم يتوارثون أمجادها أبا عن جدِّ؛ فهي شجرة مباركة أصلها ثابتٌ بثبات عقيدتهم وحسن سيرتهم.

وما يلاحظ على المقامة البغدادية أنَّ الرَّاوي هو نفسه بطلُ القصة بالإضافة إلى شخصيَّة "أبي المعلى"، وجاءت "المقامة الصَّقليَّة" على شاكلتها؛ فهي قصَّة مُتخيَّلة لحوار حَضَره في أحد البساتين التي ضُمَّت مجلس علمٍ جمع بين بعض أهل الدِّين والفيلسوف أبي الوليد بن رشد الذي قدَّم رأيه في وجهاء الموحدين، وتباينت بين تأييد لبعضهم ومعارضة لبعضهم الآخر، ومن أمثلة ذلك قوله مخاطبا إيَّاه: «ما تقول في القاضي ابن رجاء؟ قال مصباح دجى، وشيخ علم وحجى، وهو بيت القضا وكلمة حكم وعدل ورضا»² فقد اعتبر ابن رشد هذا القاضي مثالا للنزاهة، ورجاحة العقل، وحسن السيرة، وقد يكون في توظيف ابن محرز لشخصيَّة حقيقيَّة مثل ابن رشد في مقامته سعيه لتكريمه بعد اتِّهامه بالزُّندقة، وتشويه سمعته؛ فقد جعله حَكَمًا فيما اختلف فيه الحضور على اعتبار أنَّه كان قاضيا مقدِّمًا امتاز برجاحة عقله، ومعرفته بطبائع البشر، وجعل ابن محرز هذا الحوار المتخيَّل يجري على لسان القاضي ابن رشد لكنَّه في الحقيقة عكس وجهة نظره هو عن مشاهير عصره في بلاد المغرب.

وإن كانت هاتان المقامتان تخلوان من الرَّاوي فإنَّ مقامة "شمس الخلافة" قد حكيت على لسان راويها "عيسى بن حماد الصَّقلي" ³ الذي هاجر من بلده صقليَّة إلى الشام لقلَّة الإسلام فيها، فالتقى

¹ - المرجع نفسه، ص: 09.

² - منامات الوهراني، ابن محرز الوهراني، ص: 219.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 97.

رجلاً من أهل قسنطينة في بلاد المغرب أثار فضوله وقرّر تقصّي أخباره من صديق له فأخبره بأمره، وحكى له كيف استغنى بعد فقر، وعزّ بعد ذلّ على الرّغم من شدّة غبائه، ومن أخبار هذا الرّجل أنه خرج من مدينته للبحث عن طعام يسدّ به جوعه، ومكانٍ يأويه فقاده القدر إلى امرأة مغربيّة ذكيّة كانت تعلمّ البنات العزّل فأطعمته وأحسنّت إليه فتروّجها، وسعت للرّفع من شأنه بين الناس عن طريق الاحتيال والتّظاهر بأنّه فقيه ومدرس غير أنّ خطّتها باءت بالفشل¹، واشتغل بعد ذلك حمّالاً فاستغنى واشتهر أمره بعدما طلق زوجته.

واعتمد ابن محرز في مقامته على الوصف الذي أجاده؛ ومن قبيل ذلك تصويره لمشهد الرّجل وهو جالس يتحاور مع زوجته التي أخذت في تلقينه آداب الجلوس بين الفقهاء؛ حيث أوصته قائلة: «إذا جلست فترّبّع ولا تتقنّب، وانشر أكمامك، وأظهر للناس أعلامك، فإنّ الغريب ابن ثويبه والمقيم بن جدّيه (...)» فإذا حضرت فانفخ حضنك وبطنك، وانفش بين الفقهاء ذقنك، وباكر المدرسة في الصباح وسابقهم في الرّواح² واعتمد الراوي على السّجع القصير كما في قوله: "باكر في الصباح وسابقهم في الرّواح" أحدث نعما في النصّ تأنس له الأذن، فضلا عن أسلوب الشرط كما في قوله: "إذا جلست فترّبّع ولا تتقنّب" مستعينا بأداة النهي "لا" بهدف التّعليم، بالإضافة إلى تضمين النصّ الحكيم؛ كما في قوله: "إنّ الغريب بن ثويبه والمقيم بن جدّيه" وكان الهدف من كلّ ذلك إظهار المقدرة اللّغوية، وسعة معرفة الكاتب، وإطلاعه.

ويحدّثنا الكساسبة عن مميزات المقامة على عهد الموحدين إذ يقول: « أمّا في عهد الموحدين فقد ركّزت على نَقْد آفات المجتمع بغرض تقويمه، واتّسعت موضوعاتها لتشمل العزّل وخاصة الحسّي منه نظرا لاختلاطهم ، كما ضمّنها أشعار وآراء نقدية لإبراز سعة اطلاعهم أو للمفاضلة بين الشّعْر والنثر، وامتازت بقلّة أسلوب الكدية ذلك أن مجتمعهم كان ينعم برفاهية، وقد تعرضوا للحياة بشتى

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص: 97-102.

² - منامات الوهراي، ابن محرز الوهراي، ص: 100.

مناحيها هادفين إلى وضع دستور أخلاقي للمسلمين عموماً وهذا سيرا على منهج ابن تومرت¹ فقد عرفت المقامة تطوّراً على عهد الموحدين؛ عن طريق التّغيير في بعض مكوّناتها مزاجين بين الشعر والنثر ، وكذا سردها دون راوٍ، أمّا الكدية فقد كانت قليلة نظراً لترف مجتمعاتهم ، وقد حاولوا من خلالها تهذيب الأخلاق، وتقوم اعوجاجها، وهو انعكاس لمعطيات واقعهم.

10- القصة: سعى الكساسبة لتعريفها بقوله: « تركيب فني تتحرّك خلاله الشخصيات وتنمو الحوادث وتترابط العناصر القصصية على خطة مقصودة وتدبير محكم»² ويقوم فنّ القصة على بناء وتنظيم محكم تتدرّج أحداثه ضمن إطار زمني ومكاني معتمدة على السرد، وقد عرف الأدب العربي القصة القصيرة عبر مقامات الهمداني الذي حاول نقد الظواهر الاجتماعية في أسلوب أنيق، وانتقلت إلى جزيرة الأندلس، ومن أشهر كتّاب القصة الشاعر والكتّاب الأندلسي أبو عامر بن شهيد صاحب قصة "التّوابع والرّوابع" التي ضاع جزء منها³ ، وبلغت ذروتها على عهد الموحدين بفضل المقامات و"المنام الكبير" لابن محرز الوهراني الذي تحدّث عن رؤية خادمه لنام عن أهوال يوم القيامة، وانبعثت الناس من قبورهم لتلقّي صفائحهم بين يدي الله (عزّ وجل)، فأعاد ابن محرز صياغته بأسلوبه الخاص ورواه على لسان خادمه في قالب قصصي.

ومن الأحداث التي يصفها الوهراني قوله على لسان خادمه: « فرأى فيما يرى النائم كأن القيامة قامت ، وكأن المنادي ينادي هلمّوا إلى العرض على الله تعالى ، فخرجت من قبري أيّمّ الداعي إلى أن بلغت أرض المحشر وقد أجمني العرق ، وأخذ منّي التعب والفرق⁴ ، وأنا من الخوف على أسوء حال »⁵ ويصوّر ابن محرز الحال التي بعث عليها من قبره وهو فزع غارق في عرقه، ومتمّجه

¹ - النثر الفني في عصر الموحدين، رضا عبد الغني الكساسبة ، ص:187.

² - المرجع نفسه، ص:189.

³ - ينظر الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، مصطفى الشكعة ، ص:641.

⁴ - الفرق، بالتحريك الخوف، وفرق منه بالكسر فرقا: جزع؛ وحكى سيويه فرقه على حذف من؛ قال حين مثل نصب قولهم أو فرقا خير من حُب

أيّ أو أفرقك فرقا، لسان العرب، ابن منظور، المجلد 10 مادة (فرق):، ص:304.

⁵ - منامات الوهراني، ابن محرز الوهراني ، ص:23-24.

نحو أرض المحشر، ثم يسرد الحوار الذي جرى بينه وبين خادمه إذ حاول أن ينقّس عن توتره بضربه وشمته، ويصف لنا ذلك المشهد على لسان خادمه بقوله: «وما كلّمتني كلمة دون أن لكمتني لكمة موجعة وَشْتَمَّتَنِي (وَلَعَتَّنِي وَطَيَّرَتْ فِي وَجْهِي خَمْسَ أَوْاقٍ¹ بصاق كعادتك عند الكلام) وقلت لي : يا عدوّ الله ما كفاك أنّك خاطبتني بِنُونِ الجمع وكاف المخاطب حتى ذكرت اسمي بغير كنية ولا لقب (...). فقلتُ لك: يا كافر القلب أما ترتدع؟ أما ترعوي؟ أما ترى الميزان يرتعد بما فيه مثل المحموم»² ويرصد لنا هذا الحوار ملامح شخصية ابن محرز الصعبة المتسمة بالخشونة والقسوة في التعامل، كما يشي عن براعته في دقّة الوصف التي تجعل القارئ يعيد تركيب المشهد كأنه يتحرّك أمامه.

ثم يسترسل الراوي في وصف مشاهد يوم القيامة على لسان خادمه الذي قرّر بعثه إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري³ لينكّل به بسبب تطاوله على سيّده (ابن محرز) بعد أن جعل كمال الدين في زمرة الصالحين؛ حيث وصفه حاله قائلاً: «عرضوا اليوم صحائف أعماله بين يدي الحق سبحانه وهي شيء عظيم مثل جبلي سنير فلبنان فقالت الملائكة أي ربّ (أشغالنا كثيرة في هذا اليوم) وقد جاء هذا الرجل بتخليط عظيم، وقد سبقه أممّ من الناس وهو يريد يوم قيامة وحده، ولا يحاسب فيه سواه وموازين برسمه لا يشركه فيها غيره، فيقول الباري جلّت قدرته " ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة " (سلّموه إلى الرّوح الأمين . فيقول جبريل عليه السّلام : هذا شيخ من شيوخ الإسلام (...). فدخل في زمرة الرّوح الأمين»⁴ وعكس هذا المشهد المتخيّل حسن الدّعابة لدى الكاتب الذي حاول تخفيف وقع الخوف من يوم الحساب في نفوس المسلمين.

¹ - قد يقصد بما الهبّطة التي يجتمع فيها الماء وبذلك يكون المفرد الأوقّة وجمعها الأوق و لم نثر في لسان العرب على هذا الجمع أي الأوق، ينظر لسان العرب، ابن منظور ، المجلد 10، مادة (أ.و.ق)، ص: 12.

² - منامات الوهراني، ابن محرز الوهراني ، ص: 25-26

³ - هو محمد بن عبد الله بن القاسم أبو الفضل كمال الدين الشهرزوري قاض ، و فقيه ، وأديب ولد بالموصل ، وكان من وزراء صلاح الدي الأيوبي، توفي بدمشق سنة 572هـ، وبلده شهرزور، ينظر منامات الوهراني، ابن محرز، الوهراني، ينظر هامش ص: 27.

⁴ - المرجع نفسه ، ص: 28.

وينقلنا الوهراني إلى مشهد آخر في جهنم مع مالك خازن النار الذي سحبه هو وخادمه بسلسلته إلى جهنم على لسان خادمه مصورا صدمته قائلا: « وَقُلْتُ لَكَ : هذا الذي خَوَّفْتُكَ مِنْهُ (قد وقعنا فيه) فقلت له : يا سيدي يا مال ! اسمع مِنِّي كلمتين لوجه الله تعالى فيقول لك : كيف أسمع منك وقد حذف ربع إسمي في النداء؟ فتقول: والله ما حذفته للترخيم الجائر في النداء الجائر عند جميع النحاة (...). وما حذفته إلا من شدة الهلع وانقطاع مادة الكلام »¹ فقد كانت ذنوبهما مُوبقة، وهي ما أحنقت عليهما هذا الملك الكريم الذي استطاعا النجاة من عقابه بفضل ذكائهما بعد أن كانا متّهمان بالمجون والخلاعة، ويستعرض ابن محرز طوال القصة² ما شاهده في المنام عند تجواله بين الجنة والنار فرأى فيهما جماعة من أهل العلم والأدب بالإضافة إلى الصحابة والصالحين³.

وصور ابن محرز في منامه مشاهد متخيّلة من يوم القيامة وأحوال الناس فيها؛ بين مجزيّ بالجنة ومُعاقب بالنار، كما حاول رصد أهوالها والفتنة التي تحلّ بالناس في هذا اليوم وهم يحاولون بكلّ السبل افتكاك الحسنات من بعضهم بعضا لاتقاء عذاب الجحيم، وصاغ ذلك بأسلوب فكاهي غلبت عليه الجمل الإنشائية التي عبّرت عن الانفعالات كالاستفهام في قوله: " أما ترتدع ؟ أما تنعوي؟" وهدفه الزجر والتأنيب، بالإضافة إلى الأسلوب الخبري المناسب للحكي والتصوير كما في قوله: « لما سمعنا ذلك أبلسنا وخرسنا وعلمنا أنّ الناقد بصير لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فرجعنا حينئذ إلى الملاحظة والسؤال وقلنا له: سألتناك بالله لا تعجل علينا فنحن صائرون إليك بعد قليل»⁴ وهو يصف إحاطة صحائف الأعمال العباد بدقّة، وبأسلوب ساخر بلغ حدّ التّطاول على الدين في بعض الأحيان، كما استند على الحوار بينه وبين خادمه بشكل أساسي في عرض قصّته التي اشتملت على أحداث يمكن اعتبارها قصصا أخرى .

¹ - المرجع نفسه، ص: 29.

² - ينظر المرجع نفسه ، ص: 44-45.

³ - ينظر منامات الوهراني، ابن محرز، الوهراني، ص: 54.

⁴ - منامات الوهراني، ابن محرز الوهراني، ص: 31.

ومن أهم القصص التي ألفت في هذا العصر قصة "حي بن يقظان" لابن طفيل والتي تميّزت بطابعها الفلسفي والصوفي؛ وقد استوحيت بعض عناصرها من التراث العربي حيث يقول إبراهيم موسى حاسر السهلي: «عمد ابن طفيل إلى تراث من سبقه في الفكر العربي فاستعار منه موضوع حي بن يقظان فجعله عنواناً لقصته التي عالج من خلالها قضية "المعرفة" التي شغلت رجال الفكر قبله علاجاً فنياً خالصاً»¹ فقد حاول ابن طفيل أن يدلي بدلوّه في نظرية المعرفة، وهذا ما ميّز هذه القصة عن نظيراتها على غرار الرسالتين اللتين كتبتهما قبله ابن سينا؛ حيث سمى القصة الأولى "حي بن يقظان"²، والثانية: "أبسال وسلامان"³، ويرى أحمد أمين أن قصة ابن سينا تشبهها إلى حدّ كبير، ودارت حول "أيمن إدريس"⁴ أي "حافظ الناس"، و استعار ابن طفيل من قصة ابن سينا أسماء الشخصيات فقط، كما تشابها من حيث الطابع الصوفي⁵، وألف ابن الأعرابي قصة شبيهة بما كتبه ابن طفيل من حيث المضمون⁶، ووجدت قصة أخرى نقلها "حنين بن إسحاق عن اليونانيين تدعى" تدعى "سلامان وأبسال"⁷، فضلاً عن حكاية الطفل المسيّب التي كانت من نسج (هومروس) (Homère)؛ والتي تدور أحداثها حول الطفل (بان) الذي تركته أمّه وحيداً في الجبال خشية أبيه⁸، وقد زعم (غوميز) (Gomes) أن أصل قصة ابن طفيل يعود إلى "أسطورة الصنم والملك وابنته" التي حجبها

¹ - تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهلي، 6، تحت إشراف أ.د. عبد البصير عبد الله حسين، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أمّ القرى، المملكة العربية السعودية، 1987م، ص255.

² - قصة بن سينا تسرد رحلة الإنسان إلى المعارف الخالصة عن طريق حواسه وسائر ملكاته ويتم اللقاء مع شيخ وقور هو "حي بن يقظان"، ينظر المرجع نفسه، ص: 258

³ - وهما شقيقان وقد كانت زوجة سلامان وهو الأخ الأكبر شريرة حاولت مراودة ابسال عن نفسه فنفطن لخدعتها واستعصم بالشرف، ينظر المرجع نفسه ص: 259، ينظر حي بن يقظان، ابن طفيل، قدّم له وحققه فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، دط، 1992م، ص: 23.

⁴ - ينظر تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهلي، ص: 23

⁵ - تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، شوقي ضيف، ص: 515.

⁶ - ينظر حي بن يقظان، ابن طفيل، تقدم فاروق سعد، ص: 20-25.

⁷ - ينظر تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهلي، ص: 260

⁸ - وقد ذكر في كتاب "النوادر" اسم شخصين هما "أبسال" و "سلامان" أحدهما طبيب خيرٍ والآخر حبيث، ينظر حي بن يقظان، ابن طفيل، تقدم فاروق سعد، ص: 16.

عن الناس، وأنّ ابن طفيل قد أخذها عن المورسكيين¹، غير أنّ ذلك يمنعه ذلك من التّويه بقيمتها². بقيمتها².

وعرف التراث الأدبي قصصا تحمل نفس عنوان عمل ابن طفيل، وجاءت متأخرة عنها مثل قصّة السّهوردي، وقصّة "سلامان" لعبد الرحمان جامي، وهي قصيدة شعريّة تميّزت بطابعها الرّمزي³، الرّمزي³، وعلى الرّغم من كثرة نظائر قصّة ابن طفيل؛ سواء من حيث العنوان أم المضمون، إلّا أنّ قصّته هي الوحيدة التي كُتِب لها الخلود، ولا شكّ في أنّها اشتملت على مقوّمات منحتها التّفرد، وهذا ما سنحاول التّطرق إليه فيما سيّلي من صفحات هذا البحث، وقبل ذلك يجب الإشارة إلى أنّ أحداث القصّة دارت في ثلاثة جزر أو أماكن :

- الجزيرة الأولى: هي "جزيرة الواق واق" التي يتولّد منها البشر من طين دون أم ولا أب ولد من بطن تخمّرت في الجزيرة فتشكّلت أجزاء جسمه حتى أصبح كائنا حيا⁴، وهو ما يرجّحه ابن طفيل طفيل ويستدلّ على ذلك بأقوال السابقين المتباينة في مسألة هذا الإقليم، ويسترسل في الحديث حول أقاليم الأرض ومميزاتها، وعن ظاهرتي الليل والنهار مرفقا ذلك بالأدلة⁵ التي تبرهن على طولّ باعه في علوم عدّة من بينها: الطّب، والطبيعيات، والجغرافيا.

كما يذكر جزيرة أخرى تحمل احتمالا آخر لأصل ابن يقظان ويصفها بأنّها جزيرة خصبة، وعامرة بالناس ومن بينهم رجل شديد الأنفة محبّ لأخته، وقد منعها من الزّواج لأنّه لم يجد لها كفؤا فتزوّجت سرّا من قريبها يقظان وأنجبت طفلا سمّته حي، فوضعت في اليّم واستودعته الله، وهذا يذكّرنا

بقصّة سيدنا موسى (عليه السّلام) مع فرعون في قوله تعالى: M. / 0 21 543

¹ - ينظر تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، شوقي ضيف: 515 .

² - ينظر حي بن يقظان، ابن طفيل، تقدم فاروق سعد، ص: 10.

³ - ينظر تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السّهلي، ص: 261

⁴ - ينظر حي بن يقظان، ابن طفيل، تحقيق وتعليق أحمد أمين، تقدم حسن حنفي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، دط، 2014م، ص: 26.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص: 27.

76 98 : ; < = @? > A B C D E LE وهذا يعطينا

لمحة عن مرجعية ابن طفيل الدينيّة.

أمّا الجزيرة الثالثة فهي جزيرة كان يعيش فيها رجلان هما سلامان وأبسال وهي أهلة بالسكان، وصفها ابن طفيل بقوله: « ذكروا أنّ جزيرة قريبة من الجزيرة التي ولد بها "حي بن يقظان" على أحد القوالبين المختلّفين في صفة مبدئه انتقلت إليه ملّة من الملل الصّحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدّمين صلوات الله عليهم»¹، وتميّزت هذه الجزيرة بقربها من مسقط رأس حي بن يقظان ، واعتناق أهلها لأحدى الملل الصّحيحة .

ثمّ يشرح ابن طفيل في سرد قصّة هذا الطّفل الذي سمعت صراخه ظبية أضاعت صغيرها، فأرضعته وتعهّده برعايتها ، وقد اعتاد عليها وعدّها أمّه ، ويصف ابن طفيل شدّة الارتباط بين حيّ ومحيطه فيقول: « فما زال الطّفل مع الطّي على تلك الحال يحكي نغمتها بصوته حتّى لا يكاد يفرّق بينهما وكذلك كان يحكي جميع ما يسمعه من أصوات الطّي وسائر الحيوان محاكاةً شديدةً لقوّة انفعاله لما يريد (...) فألفته الوحوش وألفها ولم تنكره ولا أنكرها»² فكان لشدّة انفعالات هذا الطّفل دور هامّ في حياته، حيث ساعدته في التّعلم بسرعة.

وحاول ابن يقظان الانسجام مع واقعه الذي خلق لديه العديد من التّساؤلات، من بينها الاختلاف الكبير بينه وبين سائر الحيوانات؛ من حيث الخلق والممارسات اليوميّة، وهو ما وُلد لديه حالة من الحيرة والاستياء، وصوّر لنا ابن طفيل جانباً منها بقوله: « وكان في ذلك كلّه ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسيةً بالأوبار والأشعار وأنواع الرّيش (...) ثمّ يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العُري وعدم السّلاح وضُعب العُدو وقلة البطش (...) فكان يفكر في ذلك ولا يدري ما سببه»³ ويبدو أنّه اعتمد على شدّة الملاحظة والتأمّل في يوميّاته بشكل كبير، وبمرور السنوات انتقل من تقليد محيطه

¹ - حي بن يقظان ، ابن طفيل ، تقديم حسن حنفي ، ص: 88-89.

² - حي بن يقظان ، ابن طفيل ، ص: 33.

³ - حي بن يقظان ، ابن طفيل ، ص: 33-34.

ويعود بطل القصة إلى حياته اليومية محاولاً إيجاد شبيه له ، لكن الأقدار فاجأته بأمر غريب لم يره من قبل، وقد رواه ابن طفيل في قوله: « واتفق في بعض الأحيان أن انقذت نار في أجمة فليخ¹ على سبيل المحاكاة. فلما بصر بها رأى منظراً هالاً وخلقاً لم يعتده قبل فوقف يتعجب منا ملياً ومازال يدنو منها شيئاً فشيئاً فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغائب حتى لا تعلق بشيء إلا أتت عليه وأحالتة إلى نفسها فحمله العجب بها² كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها نورا بهذا الشكل - بعد نُور الشمس - فحاول أن يمدَّ يده إليها تحركه غريزة الفضول فلسعته ألسنتها ، ثم مدَّ غصنا داخلها حتى إذا اشتعل طرفه أخذها إلى مأواه فاستحال دافئاً وأنسَ من وحشته ، فظنَّ أنَّها من النجوم التي كان يشاهدها ليلاً ،وزاد إعجابه بها بعدما جرَّها في الطَّهي³ فاعتقد أن الروح من قبيل النار لتشابه في منح الحرارة ولجهله بمصدرهما.

ودفعه الفضول إلى شقّ بطون الحيوانات والتَّعرف على أعضائها وأخذ يتأمّل في نفسه وحواسه ، وأيقن وجود الحركة في جميع الأعضاء مرتبط بوجود الروح، كما انتقل إلى التطوير في سبيل عيشه بفضل تدجين بعض الحيوانات والاستفادة من منتوجاتها⁴، وهو في هذا كله دائم التأمّل والتدبّر في الكون والمقارنة بين الموجودات من حوله، والوقوف على خصائصها الفيزيائية وما تحمله من أوجه تشابها واختلافها في محاولة للعثور على الروح التي تعد جوهر الوجود كي يصل إلى حقيقة مفادها أنّه لا بد للعالم من فاعل قادر وعالم لا يمكن لمسه أو تحيُّله، وتدلّ استنتاجات حي بن يقظان على بلوغه مبلغاً عظيماً في إعمال الفكر المبني على حجج عقلية جات خلاصة التجربة والتأمّل حيث

¹ - الأجمة: منبت الشجر كالغيظة وهي الآجام ، لسان العرب، المجلد 12، ص: 08، الفلّخ: القصب الأخوف، حي ابن يقظان، ابن طفيل: هامش ص: 40.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - ينظر حي ابن يقظان، ابن طفيل، ص: 41.

⁴ - ينظر حي ابن يقظان، ابن طفيل، ص: 44.

رسّخت في قلبه وجود خالق لهذا الكون، فقرر ملازمة مكان يتدبّر فيه مخلوقات الله (عزّ وجلّ)، ولا يفارقه إلا للضرورة التي جعلته يتمنى من الصّانع أن يخلّصه من هذا البدن لأنّه شغله عنه¹.

ثم يقحم ابن طفيل شخصيّات أخرى في القصة نحو: "سلامان و أبسال" اللذان التزمّا بإقامة شرائع الديانة التي انتشرت في جزيرتهما المحاذية لتلك التي كان يسكنها حي بن يقظان، وبمرور الوقت أخذتا يتفقّهان في ديانتهم، حيث يقول ابن طفيل: « فأما أبسال فمنها فكان أشدّ غوصاً على الباطن وأكثر عثوراً على المعاني الروحانية وأطعم في التأويل وأمّا سلامان صاحبه فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر وأشدّ بعداً على التأويل، وأوقف عن التصرّف والتأمّل وكلاهما مجدّ في الأعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى، وكان في تلك الشريعة أقوال على العزلة والانفراد وتدل على أنّ الفوز والنجاة فيهما وأقوال أخرى تحمل على المعاشرة وملازمة الإخوان² » لقد حدث اختلاف في فهم أقوال تلك الشريعة؛ حيث اكتفى سلامان بفهم ظاهر نصوصها فيما حاول أبسال الغوص في معانيها، فلقي مضايقةً من سكّانها دفعته للرحيل إلى الجزيرة التي كان يسكنها حي بن يقظان لما سمع عنها من اعتدال الهواء، وخصب المرافق، فاشترى مركباً، وقرّر اعتزال الناس والمكوث فيها للتعبّد فيما بقي من عمره، وهو ما دأب عليه منذ حلوله بالجزيرة .

وحدث مرّة أن خرج حي بن يقظان للبحث عن قوته فصّادف أبسال الذي خرج للسبب ذاته فوقعا في صدمة كبيرة عند لقائهما الأوّل ولا سيّما ابن يقظان لأنّها المرّة الأولى التي يرى فيها بشراً على تلك الجزيرة، فدفعه الفضول إلى الاقتراب من أبسال الذي دُعر ولاذّ بالفرار ، ثم ما لبثا أن تحسّنت علاقتهما، ولاسيما بعد أن علّم ابن يقظان النطق، والدّين عبرَ ترديد أسماء المسميّات³، فلمّا تمّ له ذلك حكى له قصته العجيبة ودهش لما وجدته في حي بن يقظان من معرفة بذات الحقّ (عزّ وجلّ) واعتبره وليّاً من أولياء الله الصّالحين.

¹ - ينظر المرجع نفسه ، ص: 60-80..

² - المرجع نفسه، ص: 89.

³ - ينظر حي بن يقظان، ابن طفيل ، ص: 90-93.

وحكى له أبسال بدوره قصته مع أهل جزيرته التي قررا العودة إليها بعد إصرار ابن يقظان على ذلك؛ إذ يقول ابن طفيل: « فشرع حي بن يقظان في تعليم وبث أسرار الحكمة إليهم فما هو إلا أن ترقى عن الظاهر قليلا وأخذ في وصف ما سبق إلى فهمه خلافه . فجعلوا ينقبضون عنه وتشمئز نفوسهم مما يأتي به و يتسخطونه في قلوبهم ¹ » فقد قابل سكان الجزيرة أفكاره بالنفور، واعتبروا تأويلاته تعديا على شريعتهم، وهو ما يذكّرنا بقصة سيدنا نوح (عليه السلام) مع قومه المشركين²، وسعى ابن يقظان جاهدا لإصلاحهم لكن محاولاته جميعها باءت بالفشل، بل زادتهم إصرارا وتشبثا بالدنيا الزائفة، فما كان منه إلا أن أوصاهم بالتمسك بما بلغهم من السلف الصالح، وترك الشبهات، وأن يقتصروا في تأويل النصوص القرآنية على الظاهر حتى لا تُفودهم تأويلاتهم إلى استنتاجات قد تكفرهم، أما هو فقرر العودة إلى جزيرته رفقة "أبسال" ليعبدا الله سويا.

لقد تطرقت قصة حي بن يقظان لابن طفيل إلى "قضية المعرفة" أو "نظرية المعرفة" التي شغلت الفلاسفة منذ عصور³، وبرهن فيها صاحبها أنّ اكتسابها يكون بالعقل الراجح الذي يعتمد المنطق والتأويل سبيلا، وتتم بعد ذلك بالحواس، كما تؤخذ بالقلب، وكثرة التّعبّد والمناجاة التي تستقي تعاليمها من الدين الإسلامي الحنيف، كما يُعدّ النص دليلا لكلّ تائه يبحث عن طريق الحقّ الذي يُدرك بالتأمل، والذي سيفضي في نهاية الأمر لكون الإسلام هو الدين الحقّ.

وقد تضمّنت القصة العديد من الرموز بداية بالعنوان "حي بن يقظان" وكأنّه قصد باسم "حي" كلّ إنسان حي كما قصد بن يقظان العقل والتنبّه أي الإنسان العاقل الفطن لما هو من حوله⁴، وقصد بتنقله في أرجاء الجزيرة بحثا عن أجوبة لأسئلته الإنسان ورحلته في الحياة بحثا عن المعرفة وسرّ

¹ - المرجع نفسه، ص: 95.

² - قال تعالى على لسان سيدنا نوح (عليه السلام): ﴿ مَآ تَدْعِيهِمْ إِلَى الْعِبَادَةِ لَوْلَا لِقَاؤُهُمْ فِي الْحَقِّ لَكُنَّا تُرَابًا ۗ ﴾ (سورة نوح، الآية: 7-8)

³ - ينظر حي بن يقظان، ابن طفيل، ص: 11.

⁴ - ينظر تجديبات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهلي، ص: 286.

الوجود، أما أبسال وسلامان فمثلاً جانباً من الصّراع الذي كان شديداً في عهد الموحدين بين الفقهاء الذين اعتمدوا على الظاهر وكفّروا الفلاسفة وبعض المتصوّفة الذين أولوا النصوص القرآنية، وسارت قصة ابن طفيل وفق مستويين؛ تطرق في القسم الأول من هذه القصة إلى البطل الرئيس لهذه القصة وهو حي بن يقظان، ويحكى قصته منذ ولادته إلى أن أصبح شاباً، وذكر في القسم الثاني لقاءه بأبسال أين تمت له المعرفة¹.

وعلق إبراهيم السهلي على أسلوب ابن طفيل في عرض أفكاره قائلاً: «وقد عرض لنا ابن طفيل مذهبه الفكري (...). عرضاً تجلّت فيه البراعة في الاستدلال والتّفرد والابتكار في البناء الفنيّ والمهارة في المعالجة والفعاليّة في الإيحاء استطاع أن يعالج قضيةً شغلت بال المفكرين المسلمين قبله بقرّون (...). ونظراً لدقّة هذا الموضوع وعلوّه على أفهام الكثيرين أثار في طريقة تناوله أن يعرضه على القارئ في هذا الأسلوب القصصي الممتع (...). ولعل هذا ما جعلها تنتمي إلى الأدب من جانب وإلى الفكر من جانب آخر فهي أدب من حيث الشّكل فكر من حيث المضمون»² لقد كان لشخصيّة ابن طفيل دور حاسم في شهرة هذا العمل فلم يقف عند ثقافته بل سكب ذلك في قالب أدبيّ بديع جعل هذه القصة تجمع بين الفائدة، والمتعة، والتشويق، وهو ما كتب لها الخلود .

وأما إذا أردنا قراءة القصة من منظور فنيّ فإننا نجد أنّ الحدّث جاء مُتّابِعاً وُقُق نظامٍ ؛ حيث بدأ نصّها بالحديث عن ولادة حي بن يقظان، وتولّي الطّبيّة تربيته، ثمّ تنقله في الجزيرة بحثاً عن جوابٍ لحقيقة الرّوح، ثمّ يروي لنا ابن طفيل كيفيّة لقاء ابن طفيل بأبسال ومناقشة أفكاره معه، ثمّ عودتهما إلى جزيرته لتعليم النّاس، وفشل محاولة ابن يقظان في تغيير فكرهم، ليختمها بعودته إلى الجزيرة رفقة صديقه أبسال وتعبّدهما معاً لله تعالى .

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص: 286.

² - تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهلي، ص: 282.

وقد انتقل ابن طفيل في عرض أفكاره من المقدمات للوصول إلى النتائج، وشهدت القصة حضوراً طاغياً لعنصر التشويق الذي جعل القارئ في ترقب لما سيأتي منذ بداية القصة عند حديثه عن ولادة حي بن يقظان التي كانت من تربة مُتخمّرة في جزيرة الواق واق¹، ونسج الحكمة بإحكام؛ فقد استعان بالوصف الذي كاد أن يكون واقعياً وبخاصّة في مشهد موت الطيبة، وعند رؤيته للنار، كما جاءت أحداث القصة بسيطة وبعيدة عن التعقيد، وقد اعتمد صاحبها على السرد في معالجة الأحداث مستعيناً بالحوار الداخلي أحياناً، ويرجع فاروق سعد ذلك إلى كون شخصية ابن يقظان شخصية نامية؛ تتطوّر بتطوّر أحداث القصة، كما بدت هادئة على الرغم من تنقلها المستمر في الجزيرة لأنّها مثال لسعي العقل المنطوق الذي يتعامل مع الأفكار، لا سعي الشخصية التي تتفاعل مع القضايا اليومية²، وأمّا أسلوبه فقد تميّز بعرض المقدمات التي اعتمدت على أسلوب المِنَاطِقَة³.

وتنبّه الباحثون من عرب وأجانب لأهميّة قصة حي بن يقظان لابن طفيل فترجموها إلى لغات عديدة، وقد نسب (لسبينوزا) ترجمتها من اللاتينية إلى الهولندية، كما ترجمها (برومل) إلى اللغة الإنجليزية سنة 1904م⁴، ولاشك في أنّها أثّرت في آدابهم، وعلى الرغم من اعتبار من بواكير الأدب العربي إلا أنّها وُلدت ناضجة عملاقة⁵، وكشفت عن شخصية ابن طفيل الذي مزج بين الطيب، والعالم في الطبيعيات، والجغرافيا، بالإضافة إلى كونه أحد كبار الفلاسفة الذين انطلقوا في بناء أحكامهم على النص القرآني حتى إنّّه يبدو في العديد من محطّات القصة متصوّفاً فانيّاً في الدّات الإلهية، وقد استوحى مشاهدٍ عديدة من القصص القرآني الذي وُفق في توظيفه مؤكّداً على أصالة قصّته وموسوعيّة فكره، وقد عرض ذلك في أسلوب شيق توخّى فيه البساطة ما أمكن، ليُنتج نصّاً

¹ - ينظر حي بن يقظان، ابن طفيل، تقديم فاروق سعد، ص: 28.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 32.

³ - ينظر تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهلي، ص: 290-292.

⁴ - ينظر تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السهلي، ص: 35.

⁵ - ينظر الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، مصطفى الشكعة، ص: 703.

زاخرا بالمعاني المتمازجة يستهوي القراء على اختلاف مستوياتهم مبرهنًا فيه ألا تعارض بين العقل والنقل.

10- أدب الرحلة: يُعدّ فناً أدبيًا لما يقدّمه من الامتاع الإخباري، والإبداع الفني، والجمال الأسلوبي، والإثارة التي تزوج بين الحقائق التاريخية، والرؤى الأدبية¹ فعلى الرغم أنّ الرحالة ليسوا من أرباب صناعة الأقلام إلا أنّ الرحلات شعبية قد لقيت تداولًا واسعًا بين القراء، وتكمن أهمية هذا الفن في تداخله مع فنون نثرية عديدة على غرار القصة لاحتوائها على عنصر التشويق.

وقد اهتمّ العرب بالرحلات والسفر منذ القدم؛ فترجموها إلى كتب ضمت مشاهداتهم، وكانت بمثابة مذكرات شخصية؛ حيث قيّدت تفاصيلها بدقة، وبدأت هذه الرحلات منذ انقراض عقد ملوك الطوائف بالأندلس، حين رفض بعض الأندلسيين الانصياع لحكم المرابطين، فهجروا بلدانهم قصرًا يحملون حبّها في نفوسهم²، ومن أشهر رحالة القرن الخامس الهجري "أبو بكر بن العربي (-543هـ)"³ الذي يعتبره (كراتشكوفسكي) واضع أسس أدب الرحلة في الأندلس، وقد اتفق معه حسين مؤنس في ذلك⁴ على الرغم من أنّه لم يبلغ نضجه إلا في القرن السادس الهجري ليزدهر في القرون اللاحقة برًا وبحرًا بسبب الفضول، وحبّ المغامرة وبخاصّة أنّ بلادهم كانت بعيدة عن المشرق⁵، ومن دواعي الخروج للرحلات أيضا التوجّه لتأدية مناسك الحجّ أو العمرة إلى جانب الضّرورة،

¹ - ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 268.

² - ينظر صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، بلال سالم الهروط، رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2008، الأردن، ص: 26.

³ - يقول ابن سعيد نقلًا عن الحجاري: «لو لم ينسب لإشبيلية إلا هذا الإمام الجليل، لكان لها به من الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كحيل»، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، ج1، ص: 254، وذكر المقرئ عن الشقندي أنه «صحب بابن تومرت في المشرق»، نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص: 27.

⁴ - ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 270، ينظر صورة الآخر في أدب الرحلة، بلال سالم هرموط، ص: 26، ينظر تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط 1986، م2، ص: 396.

⁵ - ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 267.

والتجارة¹، إلى غير ذلك من الأسباب²، ومهما كان الباعث على تنظيم هذه الرحلات؛ فقد أدت دوراً كبيراً نبّه إليه محمد رضوان الداية في قوله: «قربت اللهجات ونقلت العادات والتقاليد في ما بين البلدان شرقاً وغرباً وعرفت بعدد من جلة العلماء وقت تدوين الرحلة»³ فقد أسهمت هذه الرحلات في تقريب الأمم من بعضها فكان الرحالة يرصدون كل ما يحيط بهم، وينقلونه إلى الأمم المجاورة بفضل بعها الأنتروبولوجي.

وتعدّ "رحلة تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" من أوائل الرحلات التي دوّنت على عهد الموحدين، وهي لأبي حامد الغرناطي⁴ المعاصر للمرابطين و الذي عاش بقية حياته في كنف الدولة الموحدية، ويحدّثنا عنه فؤاد قنديل إذ يقول: «كان أبو حامد يزرع الشمال ذهاباً وإياباً حتى حفظ عن ظهر قلب معالم هذه الأصقاع وطبائع أهلها وعاداتهم بل علّمهم ونشر الإسلام بينهم، وتروّج وأنجب من نساءهم وصادق ملوكهم»⁵ ونقلت رحلته أحوال البلدان وما لقيه في طريقه إليها، وما رآه من أحوال سكانها بدقة .

كما تميّزت رحلة الغرناطي بتصويرها لمشاهد أقرب ما تكون إلى الخيال، وسردها قصصاً عجيبة؛ حيث نراه يقف على ما هو غير مألوف، وهو ما يعرف "بالعجائية"؛ وهي كما عرّفها علاوي الخامسة: «خليط من الواقع والخيال والمستقبل والماضي وحكايات التراث الشعبي المشبعة

¹ - من ذلك وصف ابن جبير لمدينة "عيزاب" القريبة من مدينة "جدة" في الحجاز، التي جابها الله بأعظم ميناء لكثرت المراكب الراسية، وانتفاع أهلها من يمه لغناه بالبحار والأصداف التي تحوي اللؤلؤ، ينظر رحلة ابن جبير، ابن جبير، ص: 45-46.

² - يضاف إلى هذه الأسباب: الرحلة ي طلب العلم التي كانت تقليدا لدى كل طالب علم مغربي أو أندلسي رغبة منهم في توثيق الأحاديث النبوية، ونيل الإجازة العلمية، ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 268.

³ - المرجع نفسه، ص: 269.

⁴ - هو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان، أبو عبد الله وأبو حامد بن أبي الربيع المازلي القيسي الأندلسي، من علماء تخطيط البلدان، ولد بغرناطة سنة 473هـ، ورحل إلى المشرق، فمات في دمشق سنة 565هـ، من كتبه "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"..." ونخبة الأذهان" و"عجائب المخلوقات"، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الغرناطي الأندلسي، تحقيق: عمر علي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2003م، ص: 06.

⁵ - تحفة الألباب، الغرناطي، ص: 358.

بالسحر والمغامرات والخرافات والأساطير»¹، وجاءت رحلة الغرناطي مشحونة بهذا اللون من السرد ، ومن ذلك حديثه عن "بحر الخرز" الذي يضم جزيرة عامرة بالجنّ فيقول واصفا إيّاها: «وكنّا نعبّر عندها بالسفن فيخرج أهل السفينة يأخذون بيض ذلك الطير وفراخه من بين الحيات والتّعايبين ولا تؤذي أحدا»² ومن القصص الغريبة كذلك ما يحكيه عن "حوريّة البحر"³ التي خرجت من بطن سمكة عظيمة ، ولم يكتف بذكر ما شاهده بل نقل لنا قصصا سمعها من أشخاص لقيهم في رحلته من ذلك ما رواه عن الحجاري عند حديثه عن الدّهن الذي في "جزيرة سرنديب"⁴ والذي إذا دهن به المرء لم يعمل فيه الحديد شيء.

ومن المخلوقات العجيبة التي أوردتها الرّحلة "طائر الرّخ" الذي حدّثه عنه صديقه أبو العباس روايةً عن عبد الرحيم الصّيني الذي كانت له مغامرة مع هذا المخلوق؛ فبعدما تقاذفت الأمواج سفينته هو ورفقائه وجدوا أنفسهم في جزيرة عظيمة ، وقد أورد الغرناطي الحكاية قائلاً: «فأروا فيها قبة عظيمة أعلى من مئة ذراع لها لمعان وبريق فتعجبوا منها، فلمّا دنوا منها وإذا هي بيضة الرخ فجعلوا يضربونها بالفئوس والخشب والحجارة حتى انشقت عن فرخ الرّخ كأنّه جبل فتعلّقوا بريش جناحه فجروه»⁵ وبعد أن قتلوا فرخ الرّخ وطبخوا لحمه جاء أبوه للانتقام منهم؛ إذ يواصل قائلاً: «فلمّا طلعت الشمس رأوا الرخ قد أقبل في الهواء كالسحابة العظيمة وفي رجليه قطعة حجر كالبيت العظيم، أكبر من السفينة فلمّا حاذى السفينة ألقى ذلك الحجر وكانت السفينة مسرعة بسعة من الأثقال عليها الشراعات فوق الحجر في البحر وسبقت السفينة ونجّانا الله عز وجل»⁶ لقد كان منظر هذا الطائر

¹ - العجائبية في أدب الرحلات ، رحلة ابن فضال نموذجاً، علاوي الخامسة ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2005م، ص: 04.

² - تحفة الألباب ، الغرناطي، ص: 79.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص: 82.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 76.

⁵ - تحفة الألباب، الغرناطي، ص: 77.

⁶ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

عجيبا فقد كان عملاقا وسريعا، وعند الوقوف على هذا الحيوان أو غيره من المخلوقات العجيبة نستشعر بحق عظمة الخالق.

وقد خصّص الغرناطي الباب الثالث¹، من رحلته لوصف البحار والمحيطات، وكذا الحيوانات المائية العجيبة التي رآها أو سمع عنها، وقام بذكرها من ذلك حديثه عن "التمساح" الذي لفت انتباهه، وقد جاء في وصفه: «وفي نيل مصر حيوان يعرف التمساح كبير يكون طول جسده ستّة أذرع أو أقل، أو أكثر، وذنبه مثل ذلك، وظهره وبطنه كالسلحفاة ويداه ورجلاه قصار على صورة الضّب وفي فمه ثمانون نابا (...). عظامه متّصلة بصدره (...). وهو شرّ من كلّ سبع في الماء، وإذا شبع وامتلأت معدته خرج إلى بعض الجزائر واستقبل الشّمس، وفتح فاه فيدخل في معدته أنواع من العصافير كالقنبر، في رؤوسها عظام كالمناكير فيأكلون ما في معدته»² وقد وُفق الغرناطي إلى حدّ كبير في وصفه التمساح؛ حيث رسم له صورة دقيقة تنبض بالحياة، وتعكس قوّة ملاحظته التي صقلتها الخبرة الناتجة عن التجربة أو الفضول الذي يدفع إلى سؤال المتخصّصين، ببراعته تصويرية معتمدة على الأسلوب الواضح الممزوج بصبغة علميّة، وهو ما التزم به في هذه الرحلة.

كما نقلت رحلته صورة الآخر من ذلك ما يحكيه عن بلاد الصّين، وما نقله من تعامل سكانها مع المسلمين في قوله: «وإذا مات بينهم غريب وله أحمال من الأموال لا يتعرضون لتركته ولا لشيء من ماله وأولاده ونسائه ويحترمون التّجّار من المسلمين غاية الاحترام ولا يُؤخذ منهم في بيع وشراء ولا مكس فيا ليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة»³ وهو يقارن بين حال الوثنيّين بالمسلمين ويراهم أكثر إنصافا من ملوك المسلمين مع أنّهم أوّلَى بحسن المعاملة للوافدين على بلدانهم، ويعتبر الصّينيّين مثالا يحتذى به في التّعامل مع الغرباء.

¹ - عنوان الفصل هو " في صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والتار" وقد جاء مسجوعا فيه تشويق للقارئ، ينظر المرجع نفسه، ص: 67-82.

² - المرجع نفسه، ص: 78.

³ - تحفة الألباب، الغرناطي، ص 22.

وقد اكتفى الغرناطي بوصف البلدان العربيّة في المشرق بفقرات قصيرة مقارنة بباقي البلدان¹، وعلى الرّغم من تميّز رحلته بالعجائبيّة إلاّ أنّه دعا لتصديقها، حيث أورد الحديث الذي دار بينه وبين صديقه أبي العباس عندما طلب منه أن يحكي له عن أغرب ما رآه في رحلاته، فردّ عليه هذا الأخير بقوله: «قد رأيت أشياء كثيرة ولا يمكن أن أحدث بها لأنّ أكثر النّاس يحسبون أنّها كذب، فقال الشيخ الإمام أبو بكر: يكون ذلك من العوام والجهال وأما العقلاء وأهل العلم فإنّهم يعرفون الجائر والمستحيل، وذكر عجائب خلق الله تعالى يستحبّ التحدّث بها لإظهار قدرة الله تعالى في عجائب مخلوقاته»² وقد يكون هذا الحوار من أسباب تأليف هذه الرحلة بخاصة أنّنا نلمس فيه الرّجل المتديّن الدّاعي إلى توحيد الله تعالى عن طريق استشعار عظمة خلقه، وإنّنا كنا ملزمين بضرورة الاعتراف أنّ الكثير من المشاهد والقصص التي اعتُبرت ضريبًا من الخيال هي معروفة على أيّامنا بفضل التطوّر العلمي والتّقني، كما أنّ العديد من الأبنية التي تحدث عنها قد أوردتها مؤلّفات قديمة أخرى، فسمّة العجائبيّة التي وُصفت بها الرحلة نسبيّة، وتتغيّر بتغيّر الزّمان، والمكان.

وبالإجمال، فقد صوّرت هذه الرّحلة شخصيّة الغرناطي المحبّة للمغامرة واكتشاف آفاق جديدة تعكس قدرة الله (سبحانه وتعالى)، وفي رحلته دعوة إلى التأمّل وعدم التّشبث بالدنيا الفانية عن طريق الوقوف على آثار أقوى الأمم الغابرة التي ظنّت بأن ما سيّدته سيضمن لها الخلود، وجاء أسلوب الغرناطي بسيطاً، بعيداً عن التّكلف نتيجة سعيه لتسجيل الوقائع في حينها دون وقوف طويل عليها لتتعميقها³، أبان فيه عن براعة في الوصف، وما يؤاخذ عليه أنّه ضمّن رحلته بعض الإسرائيليات كقصّة الحية المحيطة بعرش الله⁴، وهذا نتيجة عدم تحرّيه من صدق بعض المصادر التي اعتمدها.

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص: 42.

² - المرجع نفسه، ص: 75.

³ - تحفة الألباب، الغرناطي، ص: 358.

⁴ - وهو ما أشار إليه المحقق في الهامش، ينظر المرجع نفسه، ص: 24.

وقد اعتبرت هذه الرحلة مرجعا للعديد من الجغرافيين الذين جاءوا في العصور اللاحقة من بينهم القزويني (- 682هـ) في كتابيه "عجائب المخلوقات" و "آثار العباد" ، وابن الوردي (-749هـ) في مؤلفه "خريدة العجائب وفريدة الغرائب" بالإضافة إلى القلقشندي (-821هـ) في مصنفه "صبح الأعشى"، بالإضافة إلى المقري (-1041هـ) في كتابه "نفع الطيب"¹، واعتبر فؤاد قنديل رحلة "تحفة الألباب" النواة الأولى للأدب الرّوائي الحديث المعروف باتجاه "الواقعية السّحرية" التي ظهرت في أمريكا اللاتينية مع (جارسيا ماركيز)(García Márquez) الكولمبي و(جورج أمادو)(Jorge Amado) البرازيلي².

ويطالعنا القرن السادس الهجري برحلة آخر وهو "الشريف الإدريسي" صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" أو "كتاب (روجر)" نسبة لملك صقلية (روجر الثاني) (Roger II) الذي أهداه هذا الكتاب³، وصنّف هذا المؤلف الضخم في علم الجغرافيا ، لكنّ أسلوبه يشدّ الباحث في أدب الرّحلة لأنّه دوّن فيه الكثير من مشاهداته، وما سمعه من الشعوب التي احتكّ بها مثلما يبدو من العنوان⁴.

ومن المدن التي وصفها الإدريسي في مؤلفه جزيرة صقلية التي تعرّض لمدنها بالتفصيل؛ ومّا ذكره في وصفها: « إنّ صقلية فريدة الزّمان فضلاً ومحاسن ووحيدة البلدان طيباً ومساكن وقديماً دخل إليها المتجوّلون من سائر الأقطار والمتردّدون بين المدن والأمصار وكلّهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها»⁵ ويبدو الإدريسي معجباً بهذه المدينة التي تفرّدت بعظيم فضلها عن سائر الأمصار، وينتقل للحديث عن تاريخها السياسي عبر التّطرّق إلى حكّامها فيقول: «ودوّل ملوكها أشرف الدّول

¹ - تحفة الألباب ، الغرناطي ، ص:5.

² - ينظر المرجع نفسه، ص:367.

³ - ينظر المرجع نفسه، ص:193.

⁴ - ينظر تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص:195-203.

⁵ - نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 588-589.

وَصَوْلَتُهُمْ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ أَشَدَّ الصَّوْلَ فَمَلُوكَهَا أَعْظَمَ الْمُلُوكِ قَدْرًا¹ فالإدريسي يفضّل ملوك هذه الجزيرة أيضا عن سائر الملوك؛ فهم في نظره الأقوى، و دولتهم الأعظم، ثم يحدثنا عن تاريخ هذه المدينة فيقول: « ولما كان في سنة أربع مائة وثلاث وخمسين سنة² من الهجرة افتتح غرر بلادها وقهر بمن معه طغاة ولائها وأجنادها الملك رجار بن تنقرين خيرة ملوك الإفرنجيين ولم يزل يفرق جموع ولائها ويقهر طغاة حمائها ويشن عليهم الغارات في الليل والنهار ويرميهم بصنوف من الختوف والبوار ويعمل فيهم ماضي الشفار وماضي القنا الخطار إلى أن استولى على جميعها غلبة وقهرا³ ويمتاز أسلوب الإدريسي بالبراعة في سرد الحقائق التاريخية المصاغة بأسلوب أدبي بديع بعيد عن الغموض والتعقيد، زواج فيه بين استعمال الأوصاف، وتوظيف السجع وهو ما يلتزمه في وصف (رجار الثاني) (Roger II) الذي عاش هذا العالم في كنفه، ويواصل سرده لقصة المملكة: « ثم ورث الملك بعده ابنه الملك المعظم المسمى باسمه المقتفي أثر سننه رجار الثاني فأقام الدولة وزين المملكة وشرف السلطنة وأعطى الأمور أقساطها من النظر الجلي والفعل المرضي مع نشور العدل وإقامة الأمان والفضل حتى انقادت الملوك إلى طاعته (...) وتواردوا من كل الجهات عليه رغبة في التفيؤ بأفياء مملكته⁴ يبدو أنّ عدل هذا الحاكم استمال هذا العالم إليه، فضلا عن انتشار الترف والأمان في عهده، واشتملت هذه الفقرة على السجع في عبارة " أعطى الأمور أقساطها من النظر الجلي والفعل المرضي " ويبدو أنه صدر عفويا دون تكلف.

ويعرّج الإدريسي على مدينة (بلرم) التي كانت عاصمة ملكهم على ما يبدو، وقد تميّزت بتحضرها، حيث يصفها قائلا: « قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق كثير وبها الجامع الأعظم الذي كان في الزمن الأقدم وأعيد في هذه المدة على حاله (...) وصِفَتُهُ الْآنَ تَغْرِبُ

¹ - المرجع نفسه، ص: 589.

² - هكذا وردت، وفي الأصل " أربعمة "

³ - نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 589.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 589-590.

عن الأذهان لبدیع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة المنتخبة»¹ وعلى الرغم من كون سكان صقلية من النصارى إلا أنهم كانوا يحترمون الدين الإسلامي والجالية المعتنقة لهذا الدين، بل ذهبوا أبعد من ذلك؛ إذ رمّوا المسجد وجعلوه أحسن مما كان عليه، وهو ما يدلّ على نُبلهم في التعامل مع الغير واحترامهم للأديان، ولعلّه السر وراء استقراره في هذه المدينة.

ومن القصص العجيبة التي يرويها الإدريسي قصة (الإسكندر) مع التين² التي صاغها بأسلوب شيق، فضلا عما يرويّه عن سكان "جزيرة حسران"، وقد جاء في وصفهم قوله: «سمر قِصار لهم لحي تبلغ رُكبتهم ووجوههم عراض ولهم آذان كبيرة وطعامهم وعيشهم مما تنبت الأرض»³ وهذه القصة وإن كان يصعب تصديقها فإنّ تشابها بين الرحالة يُحتمّ علينا الاعتقاد بها، مثل قصة "جزيرة الخراف" التي أوردتها كلٌّ من الغرناطي⁴ والإدريسي⁵ مع اختلاف في الجزئيات.

وتميّز القرن السادس الهجري بظهور واحدٍ من كبار الرحالة الذين عرفهم العرب وهو ابن جبیر صاحب رحلة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" والتي تعد نموذجا آخر لهذا النوع من الفنون الأدبية، وجدير بالذكر أنّ ابن جبیر قد قام بثلاث رحلات إلى بلاد المشرق بنيت الحج⁶، واستهلّ رحلته بتاريخ تدوين رحلته مكانا وزمانا؛ حيث يقول: «ابتدىء بتقييدها يوم الجمعة الموفى ثلاثين

¹ - نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 592.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 218-219.

³ - المرجع نفسه، ص: 218.

⁴ يذكر أنّ هناك جزيرة بالقرب من جزيرة صقلية تضم الخراف فقط دون سواهم من المخلوقات وأنّ السفن تنزل إليها فتأخذ منها ما تضيق به ومع ذلك تبقى أعدادها كبيرة، ينظر تحفة الألباب، الغرناطي، ص: 75.

⁵ - الرواية تشبه ما حكاها الغرناطي غير أن لحمها مَر لا يمكن للبشر احتمال طعمه، ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 220.

⁶ - كانت رحلته الأولى 578هـ-581هـ صحبة أبي جعفر بن حسان حيث دَوّن الكتاب الذي نحن بصدد قراءته، ولما شاع خبر استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين تحمس للقيام برحلة ثانية سنة 585هـ، أما رحلته الثالثة فقام بها سنة 602هـ وكانت بعد وفاة زوجته ظلّ في مكة إلى أن وافته المنية. ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 5، ص: 606

لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمس مئة على متن البحر بمقابلة جبل شُليّ عرفنا الله بالسلامة منه»¹ وغير خفيّ على أحد تقديس المسلمين لهذا اليوم وتبرّكهم بتقديم الأعمال الصالحة فيه.

وقد خرج رفقة صديقه أحمد بن حسّان حيث يذكر مكان انطلاقه، والسبب الذي دعاه للقيام بهذه الرحلة، واليوم الذي انطلق فيه؛ فيقول: «وكان انفصال أحمد بن حسّان ومحمد بن جبير من غرناطة، حرسها الله، للنية الحجازية المباركة، قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي (...) ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشوال المذكور وبموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبراير المذكور أيضا»² لقد كان الغرض من هذه الرحلة هو زيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكان الخروج إليها فجرا، وقد استعان في التأريخ لرحلته بالشهور العربية والأعجمية، وينتقل في موضع آخر للحديث عن خط سير رحلته فيقول: «كانت مرحلتنا الأولى منها إلى حصن القَبْداق ثمّ منه إلى حصن قَبْرَة ثم إلى مدينة إِسْتِجَه»³ فقد أعطانا لمحة عن الطريق الذي سيسلكه في سفره حيث انطلق براً بين الحصون والقرى قاصداً البحر .

ويعرض لنا الرحالة وصوله إلى البحر وانطلاق رحلته إلى الحجاز بقوله: «وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة، والسادس لأكتوبر، صعدنا إلى المركب، وهو سفينة من السفن الكبار، بمّنه الله على المسلمين بالماء والزداد»⁴ ويبدو ابن جبير دقيقاً في رحلته عن طريق التأريخ لتنتقلاته، وذكر تفاصيلها من زاد، ووسيلة نقلٍ ليبيّن نوع الرحلة، ثم انتقل إلى وصف المسافرين الذين كانوا على ظهر السفينة فيقول: «وحاز المسلمون مواضع بانفراد عن الإفرنج. وصعده من النصارى المعروفين بالبلعريين، وهم حجّاج بيت المقدس، عالم لا يُحصى ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان، أراح

¹ - رحلة ابن جبير ، ابن جبير ، ص : 07.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - المرجع نفسه، ص: 07-08.

⁴ - رحلة ابن جبير ، ابن جبير ، ص : 283.

الله مَنْ صَحِبْتُهُمْ بِعَاجِلِ السَّلَامَةِ وَمَأْمُولِ التَّسْهِيلِ وَالصَّنْعِ الْجَمِيلِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ، لا مَعْبُودَ سِوَاهُ . وَنَحْنُ بِهِ مُنْتَظَرُونَ (...). بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»¹ وَيُوحِي النَّصُّ بِقُوَّةِ إِيمَانِهِ عَنِ طَرِيقِ الدَّعَاءِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَخُوَّةَ فِي الدِّينِ أزالَتْ الانْتِمَاءَاتِ العَرَقِيَّةَ؛ ففِي الوَقْتِ الَّذِي جَلَسَ فِيهِ بِمَحَادَاةِ البُلْغَرِيِّينَ لِأَتَمِّهِمْ مُسْلِمُونَ؛ فَإِنَّهُ تَحَاشَى الاِحتِكَاءَ بِالنَّصَارَى ، وَجاءَ نَصُّهُ مُختَصِراً بِأسلوبِ واضحٍ ، وَدقيقِ العبارة .

وَمِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي شَدَّتْ انْتِبَاهَ ابْنِ جَبْرِ فِي رِحْلَتِهِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ الأيوبي؛ حَيْثُ أُعْجِبَ بِعَدْلِهِ وَرِفْقِهِ بِحَالِ المُسْلِمِينَ ، وَبِخَاصَّةِ الحِجَّاجِ الَّذِينَ أَدَّى عَنْهُمْ ضَرْبَةَ فَرَضَتْ عَلَيْهِمْ² مُقَابِلَ السَّمَّاحِ لَهُمْ بِتَأْدِيَةِ المَنَاسِكِ ، كَمَا رَسَمَ لَنَا صُورَةً مُشْرِقَةً لِحَاكِمِ جَزِيرَةِ صَقْلِيَّةِ (المَلِكِ غُليَامِ) (Guillaume II) الَّذِي أُعْجِبَ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ المُوَافِقَةَ لِأَخْلَاقِ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَمِنَ لَهُمْ حَتَّى جَعَلَهُمْ مِنْ خَاصَّتِهِ؛ وَوَصَفَ لَنَا ابْنَ جَبْرِ غُلْمَانَهُ وَجَوَارِيَهُ الَّذِينَ أُعْجِبَ بِهِمْ فَصَوَّرَهُمْ قَائِلًا: « وَأَمَّا فِتْيَانُهُ الَّذِينَ هُمُ عَمِيقُونَ دَوْلَتَهُ وَأَهْلُ عَمَالَتِهِ فِي مَلِكِهِ فَهُمُ مُسْلِمُونَ ، مَا مِنْهُمْ إِلاَّ مِنْ يَصُومُ الأَشْهُرَ تَطَوُّعًا وَتَأْجْرًا ، وَيَتَصَدَّقُ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ وَتَرَلُّفًا»³ وَيَدُلُّ هَذَا الوَصْفُ عَلَى قُوَّةِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ وَتَأثيرِهِ حَتَّى عَلَى شُعُوبِ الدُّوَلِ الَّتِي لَمْ يُخْضِعْهَا آنذاك ؛ كَمَا رَسَمَ صُورَةَ حَسَنَةً لِلنَّصَارَى سِوَاءِ فِي بِلَادِ المِشْرِقِ أَمْ المَغْرِبِ مِنْ بَيْنِهِمْ نِصَارَى جَبَلِ لُبْنَانَ⁴ الَّذِينَ كَانُوا يَطْعَمُونَ مِنْ انْقِطَاعِ بِهِ السَّبِيلِ مِنَ المُسْلِمِينَ الغُرَبَاءِ .

وَجاءَتْ رِحْلَةُ ابْنِ جَبْرِ شَبِيهَةً بِالمَذْكُورَاتِ ، وَأَكْثَرَ تَنْظِيمًا وَدَقَّةً مُقَارِنَةً بِسَابِقَتَيْهَا ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَى تَقَالِيدِ الرِّحْلَةِ⁵ ، أَمَّا مِنَ النَّاخِيَةِ الفَنِّيَّةِ فَقدْ جَاءَتْ عِبَارَاتُهَا سَهْلَةً ، وَمُفَصَّلَةً عَلَى قَدْرِ مَا تَحْمَلُ مِنْ مَعْنَى ، وَطَرِيقَتُهُ فِي السَّرْدِ مُحِبَّةٌ لِلنَّفْسِ ، وَقَدْ اتَّسَمَتْ عِبَارَاتُهُ بِحِلاوَةِ البَيَانِ ، وَجَمالِ التَّرْكِيبِ مَبِينًا عَلَى

¹ - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

² - ينظر رحلة ابن جبير ، ص: 30-31 .

³ - المرجع نفسه، ص: 299 .

⁴ - ينظر رحلة ابن جبير ، ابن جبير ، ص: 259 .

⁵ - من بينها وداع الأهل واصطحاب صديق يصلي صلاة الاستخارة إلى غير ذلك ، ينظر أدب الرحلة في التراث العربي ، فؤاد قنديل ، ص 36-37 .

مقدرة في النثر تضاهاي براعته في الشعر¹، وما تؤاخذ عليه اكتفاء صاحبها بتصوير الوقائع من الخارج؛ فقليلا ما يتناول المشاعر والأحاسيس، ولعل ذلك نابع من خشية الزلل لفرط تقواه²، الذي انعكس على الرحلة، وقد أشار إليه محقق الرحلة بقوله: « وابن جبير قوي العاطفة الدينية يختم كل كلام بالدعاء إلى الله تعالى والتوكل عليه جلّ جلاله، وهذه العاطفة المتقدمة دفعته إلى إرسال الأدعية للمدن التي مرّ بها³ تبدو مشاهد هذه الرحلة أكثر واقعية من سابقتها لأنّ غرضها كان دينيا يهدف إلى وصف الناس وطباعهم.

وكان خط الرحلة محددا بهذه الغاية بعكس رحلة الغرناطي التي كان القصد منها استكشاف الأماكن المجهولة، ونالت رحلة ابن جبير شهرة واسعة لدى العرب والغرب على حدّ سواء، وفق ما أورده محققها؛ حيث قال فؤاد قنديل: « ورحلته هذه كتاب نفيس في بابها لا غنية عنها للمؤرخين والجغرافيين وكل من أراد الاطلاع على أحوال تلك الحقبة وقد اهتم به المستشرقون فترجم القسم المختص منه بصقلية إلى الفرنسية وطبع سنة 1846م وطبع كله إلى ليدن 1852هـ⁴ لقد أسهمت هذه الرحلة في تسليط الضوء على تلك الحقبة من تاريخ مدينة صقلية - وغيرها من المدن - فأقبل الباحثون على دراستها.

وبعد هذه القراءة في أشكال ومضامين الفنون النثرية على عهد الموحدين يمكن نستنتج ما

يلي:

- عناية أدباء الموحدين بفن الترسّل - بشئى أنواعه - أكثر من غيره حيث خلّفوا انتاجا غزيراً، جمع فيه بين طول النصوص، والإجادة في الإنشاء، وذلك لدواعٍ عديدة؛ كالاغتراب أو بُعد المسافة، كما لاحظنا ندرة في بعض الفنون كالخطابة رغم اشتراطها في القضاة والأئمة والفقهاء .

¹ - ينظر زاد المسافر، التحيي، ص: 72-73.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 389-390.

³ - رحلة ابن جبير، ابن جبير، ص: 06.

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص: 389.

- اهتمامهم بأحوال المتلقي جعلهم يتنبهون للفروق الفردية بين الأشخاص؛ من حيث الامتثال للعقل أو العاطفة عند الاستجابة، فكان لكلِّ مقامٍ مقال، كما لمسنا اهتماما بالتأشئة حيث خلّفوا نصوصا تربوية هامة.

- مزاحمة النثر للشعر في بعض أغراضه مثل: وصف الطبيعة، ورتاء المدن والممالك الزائلة، وذلك مقابل تنازله التسيبي عن بعض الأغراض مثل: الوصايا التي صيغت شعراً ليسهل حفظها.

- نضج العديد من الفنون النثرية مثل: قصة حي بن يقظان، والمقامة التي برع فيها ابن محرز الوهراني، وأسهم في تطويرها؛ حيث زويت مقاماته مراراً دون راءٍ، وقد أثروا في الأمم المجاورة عن طريق تقريب علمائهم من طرف الملوك في المشرق أو ممن كانوا جيراناً لهم في بلاد الأندلس مثل حكام جزيرة صقلية.

- غزارة الإنتاج النثري في الأندلس مقارنةً بما خلّفه أهل العُدوة، ولم يمنع ذلك من ظهور كتاب بارعين في الرسائل السلطانية لابن عتيبة.

- تأثير العديد من المؤلفات التي صنفت على هذا العهد في الأدب العربي؛ على غرار قصة حي بن يقظان، وكتاب نزهة المشتاق الذي يعتبر مصدراً هاماً لعلماء الجغرافيا؛ ونال أدب الرحلة شهرةً عالميةً؛ إذ أسهمت رحلة الغرناطي في ظهور الرواية الواقعية الحديثة في أمريكا اللاتينية، كما أعانت رحلة ابن جبير في دراسة تاريخ مدينة صقلية

- المقدرة على المزاجية بين النظم والنثر في الآن ذاته، وقد تميّزت كتاباتهم بالإسهاب وهو ما يدلّ على براعتهم، فضلاً عن إجادتهم في التنويع بين الفنون النثرية، وقد اكتست أساليبهم صبغةً دينيةً؛ حيث استقت ألفاظها من معجم الدين الإسلامي، ومعانيها من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، فضلاً عن الاعتماد على النزعة العقلية في طرح المواضيع؛ بإيراد الحجج والبراهين، وتوظيف المصطلحات العلمية، والفلسفية الأمر الذي منح نثرهم منطقيّة وواقعية.

- التزام حكّامهم بأوامر الدين الإسلامي عن طريق الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد انعكس بشكل حسن على أخلاقهم، وكان لتعاليم محمد بن تومرت تأثير على شخصيتهم؛ حيث خلّدوا اسمه في رسائلهم الرسمية، وسائر كتاباتهم الثرية، كما تميّزوا بصراحتهم في إبداء آرائهم التي بلغت حدّ الجرأة على الحاكم كما فعل الشقندي، أو على الدين على النحو الذي شهدناه لدى ابن محرز الوهراني في المنام الكبير.

الفصل الرابع: المظاهر الحضاريّة على عهد

الموحّدين

- 1- المظهر الديني
- 2- المظهر العسكري
- 3- المظهر الإداري
- 4- المظهر الاقتصادي
- 5- المظهر الاجتماعي
- 6- المظهر العمراني والفنيّ

ستتطرق في هذا الفصل إلى بعض المظاهر الحضارية على عهد الموحدين وذلك من منظور أدهم مع محاولة الاستغناء عن الكتب التي تناولت هذه الحقبة وجاءت متأخرة قدر الإمكان، وذلك لمحاولة الوقوف على أهم تجليات الحضارة الموحّدية؛ ومن ثمة التعرف على طابع هذه الدولة، وسنقارن بين استجابة كل من الشعر والنثر لمختلف الأحداث التي عرفها المغرب والأندلس في هذه الحقبة بغية إتمام المشهد الذي تشكلت لدينا بعض من ملامحه في الفصول السابقة، كما سنحاول الوقوف عند أهم الأسباب التي حذت بمالك بن نبي إلى اعتبار هذا العهد هو النموذج الوحيد للتحضر في الحضارة العربية الإسلاميّة بعد معركة صفّين.

أولاً : المظهر الديني: قامت دولة الموحدين على أساس مهديّهم محمد بن تومرت الذي سعى لتنمية صفة التدين في أفرادها والتي استقى تعاليمها من كتاب الله وسنة رسوله ، وزاد عليها تعاليمه التي طالبهم بحفظها، ومن مظاهر إقبال الموحّدين على خدمة الدين الإسلامي:

1- الالتزام بتعاليم الإسلام: وقد سعوا لنشره في بلاد التصارى بإعلانهم راية التوحيد التي اشتقوا منها اسمهم واشتهروا بتديّنهم حيث يقول ابن جبير: « ولتتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنّه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها. وما سوى ذلك ممّا بهذه الجهات المشرقيّة فأهواء وبدع، وفرق ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عزّ وجل من أهلها. كما أنّه لا عدل ولا حقّ ولادين على وجهه إلا عند الموحدين»¹ لقد جال ابن جبير بلاد المسلمين شرقاً وغرباً ، وجاء رأيه في الموحدين نتيجة لما وجدّه من تباين بين أحوال الناس في بلاد المشرق والمغرب، وقد اعتبر المصامدة النموذج المثالي للمسلمين نظراً لتطبيقهم شرائعه، كما نعت أهل المشرق بالضلال والاستسلام للأهواء على الرغم من قُرْبهم لمهبط الوحي بالحجاز، وقد عُرف ابن جبير بدَوْدِهِ عن الإسلام دُونِ خَوْفٍ أو تَمَلُّقٍ، وقد يكون سبب هذا الرّأي القاسي (على أهل المشرق) نتيجة معاينته ومعايشته للواقع اليوميّ في تلك الديار.

¹ - رحلة ابن جبير، ابن جبير، ص:56.

2- الانقلاب على مبادئ محمد بن تومرت: لقد لقي قول ابن تومرت بالعصمة، والمهدوية تشكيكاً من لدن بعض الخلفاء ووصل إلى حدّ الرّفص في آخر عمر الدولة ثمّ إسقاطه على يد الخليفة المأمون الذي أعلن ذلك في إحدى رسائله بقوله: « ولتعلّموا أنّا نبذنا الباطل وأظهرنا الحقّ، وألّا مهديّ إلاّ عيسى بن مريم وما سُمّي مهديّاً إلاّ لأنّه تكلم في المهدي، وتلك بدعة قد أزلناها (...). قد أزلنا لفظ العصمة عمّن لا تثبت له عصمة، فلذلك أزلنا عنه رسمه، فتسقط وثبتت، ومُحى ولا تثبت. وقد كان سيّدنا المنصور رضي الله عنه همّ أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرفع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يُساعده لذلك أجله»¹ فهذا المرسوم الصّادر جاء بعرض تكذيب محمد بن تومرت الذي ادّعى بأنّه هو المهدي المنتظر، ويؤكد المأمون في رسالته أنّ عيسى بن مريم سُمّي مهديّاً لأنّه كلّم الناس في المهدي²، وهو الأمر نفسه الذي كان من قبل في نفس الخليفة المنصور³.

3- المصحف الإمام: وهو المصحف الذي كان بخطّ عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وقد وصفه عبد الواحد المراكشي بقوله: « وهذا المصحف الذي ذكرناه وقع إليهم من نسخ عثمان رضه من خزائن بني أمية يحملونه بين أيديهم أنّي توجّهوا على ناقة حمراء عليها من الحلبي النّفيس وثياب الديباج الفاخر ما يعدل أموالا طائلة وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها وعن يمينه ويساره عصيان عليها لواءان أخضران وموضع الأسنّة منها ذهب شبه تفاحتين»⁴ وبذلك يكون الموحّدون قد خصّصوا ناقة حمراء لحمل مصحف عثمان بن عفان، ووشّوها بأنفس الأحجار، ووضعوا فوقها بردعة مزينة، ثمّ جعلوا على جانبيه رايتين خضراوين. وبلغت العناية بهذا الإرث الدّيني أوجّها على عهد المنصور الموحدي.

¹ - مجموع رسائل موحديّة، أحمد عزراوي، ص: 384.

² - وقد أخلط الخليفة في ذلك لأنّ المهدي هو رجل صالح يخرج في آخر الزمان ليملأ لأرض عدلا، أما المسيح فهو نبي الله عيسى بن مريم الذي رفعه الله تعالى وسيعود في آخر الزمان ليصلي خلف المهدي في بيت المقدس، وقد فصل ابن خلدون في هذا الشأن مشيراً إلى من وقع في خطأ الجمع بين المهدي وعيسى بن مريم في رجل واحد، ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج1، ص: 514-541.

³ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 212.

⁴ - المعجب، المراكشي، ص: 182.

- عنايتهم بالمصحف: كان لهذا المصحف تبريز عجيب يحضره الناس ووصفه ابن مرجي الأشبيلي المشهد في قوله: « إنَّ الذي حوالي جوانب¹ حفاظ هذا المصحف المكرّم من الذخائر لا يأتي عليها في القيمة عدد، ولا يأخذها عدد، وحين رأى النَّاس والنَّظارة ما ذكرته رأوا عجباً، وأمرأ مغرباً، تيقنوا في ذلك دين الخليفة ويقينه من اهتباله ، بكتاب الله تعالى واهتمامه به وعظيم إقباله² وهذا ما يؤكّد مرّة أخرى على عناية الموحّدين بالمصحف الإمام، فنقل لنا ابن مرجي وقوف النَّاس لمشاهدته مندهشين من روعة المنظر والمصحف هو في أجمى حلّة، وكان تبريزاً خاصاً لدى خلفائهم فتوارثوا هذا الأمر حتى أصبح تقليداً لديهم.

- زينته: تفنّن الموحدون في تنميق هذا الإرث الديني، ومن الحلّي المستخدمة في توشيته: الأحجار الكريمة؛ حيث كانت عنصراً هاماً في تزيين ثيابهم وأغراضهم؛ وبدت الاستعانة بها واضحة في تزيين مصحف عثمان بن عفان (رضي الله عنه) حسب ما أوردته المصادر ومن بينها المن بالإمامة حيث يقول مؤلفه في معرض حديثه عن التبريز: « والمصحف المكرّم منظم حول حفاظه بالجواهر النفيس والياقوت الأحمر، والأصفر ، والأخضر الغريب، والزمرّد الأخضر النفيس العجيب، قد جلبت أحجار الياقوت والزمرّد والجواهر إلى الخليفة الأوّل الرّضي خليفة المهدي ، ثم لابنه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ، ونظّم بها حُفَاط هذا المصحف المكرّم ، وكلّل بها جوانبه إكليلاً³ ولم يدّخر الأمراء جهداً في بذل كلّ نفيس لتزيين المصحف الشّريف عرفاناً منهم بجرمه؛ فتفننوا في هذا الشأن وتباروا فيه فبلغوا الغاية، وهذا يعكس شدة إيمانهم، كما يعكس الثراء الذي شهدته هذه الدّولة من خلال كثرة الأحجار الكريمة؛ من ياقوت، وزمرد، وجواهر نفيسة تطرّقوا إليها في شعرهم⁴.

¹ - هكذا وجدت، وفي الأصل "إنّ الدين حول جانبي".

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 351.

³ - المصدر نفسه، ص: 351.

⁴ - ينظر ديوان أبي الربيع الموحّد، أبو الربيع الموحّد، ص: 126، ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 162-

أ- **حجر الحافر:** وهو أحد الحلبيّ التقيسة التي ذكرتها المصادر واستخدم لتزيين المصحف، ووصفه ابن صاحب الصلاة في قوله: « لم يتقدّم إلى هذا الأثر الكريم أحد قبله من الملوك، ولا انتهض أن يدخل نفسه في هذا الفن المسلوک، فلقد حدثني عمر بن مرجي الاشيلي أحد الناظمين له أن فيه جوهرة تشبه حافر الفرس، وذكر لي أنه حدث أنّها الجوهرة التي كانت عند ابي الجيش خمراويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر وإفريقية والزّاب، وإنّ الأيّام وانتقال أحوالها وعجائب إقبالها لهذا الأمر العزيز، جلبت ذلك إلى ملك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين¹ ويُفهم من هذا الكلام أنّ الموحدين قد تلقوا هدايا نفيسة من نظرائهم في مصر، وهو ما قد يدلّ على حسن العلاقات بين حكام الدولتين أو قد تكون نوعاً من لحنكة الدبلوماسية لدى حاكم مصر، ومن وجهتهم الموحدين قاموا بتخصيصها في تزيين المصحف الشّريف.

ب- **التّفاحات:** وهي من بين الأدوات التي استعين بها أيضا في تزيين المصحف، وقد تعرّض لها ابن صاحب الصلاة في قوله: « وأمر بإحضار أربع رايات صغار، في أربعة رماح صغار، وفي أعلى كلّ رمحٍ تّفاحة من ذهب تتلأأ ضياء وشعاعا، والرّيات ملوّنة بالخلدي الأحمر، والأصفر والأبيض، وجعل تلك الرّيات الأربع، في أركان المصحف المكرّم: مصحف عثمان رضي الله عنه² ويفهم من النصّ أنّ الموحّدين قد تفنّنوا في تزيينه المصحف من خلال اعتماد الرّيات المبرقشة بالرّمح، ووضع التّفافيح في أعلى أسنتها لثرى من بعد، في مشهد يمزج بين روحانيّة هذه الدّولة وقوّتها.

4- **مصحف ابن تومرت:** وأوردت بعض المصادر تداول كتاب بين الموحّدين وهو من تأليف ابن تومرت، وأقبلوا على تدارسه والعناية به حيث قال صاحب المعجب: « وخلف التّاقة بغل محليّ أيضا عليه مصحف آخر يقال أنّه بخط ابن تومرت دون مصحف عثمان في الجرم محليّ بفضة مُموّهة بالذهب هذا كلّهُ بين يدي الخليفة منهم³، لعمري يحفل الموحّدون بمصحف عثمان (رضي الله عنه)

¹ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 351.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسه.

³ - المعجب، المراكشي، ص: 182.

وحده، بل اهتموا أيضا بمصحف ابن تومرت الذي زينوه هو الآخر لكن بدرجة أقل حسب تباين قدسيتهما، وهو يتألف من "المرشدة" المتمثلة في العقيدة التي كتبها ابن تومرت باللهجة البربرية و"عزّ ما يطلب"، وقد أكد هذا الاهتمام منهم على تمسكهم بما جاء به قائدهم الأول كتمسكهم بكتاب الله (عز وجل)، وخالف ابن عبد الملك المراكشي هذا الرأي؛ حيث ذهب إلى أنّ البغل كان يحمل كتاب الموطأ للإمام مالك والصّحّاحين، وسنن أبي داوود، والنسائي، وجامع الترمذي¹.

5- التبريز: ويقصد به احتفال الموحدين بالمصحفين على مرأى الجموع من الناس بشكل مهيب، وقد وصف ابن صاحب الصلاة جانبا من التبريز في قوله: « ثم استوى على صهوة فرسه، ومشى على الهياة المتقدمة ، والعساكر وراءه من الموحدين والعرب قد ملأوا بسيط الأرض، واتسعوا فيها بالطول والعرض، فلما قُرب من المدينة أمر بتقدم الطبول والزيات الكبار أمامه مع المصحفين المذكورين مع السّاقّة، على خلاف العادة في المشي، تنويها وتعظيما للتبريز والترتيب، وهو رضي الله عنه متقدّم والأشياخ من الموحدين ، والوزير والكتّاب والطلّبة وراءه»² فقد كان لهذين المصحفين تبريز خاصّ لدى خلفائهم، وتوارثوا هذا الأمر حتّى أصبح تقليداً، وجعلوا المصحف الإمام بمحاذاة مصحف ابن تومرت، على صهوة فرس متقدّماً العساكر ويتبعهم الموحّدون، وسط قرع الطبول، وحقق الزيات، وحظي هذا التبريز بإعجاب الناس حيث رافق مسير الجيش عند تمييزه .

6- عناية الخلفاء بالمصحفين: وقد سجّل الأدب جهود الخلفاء في العناية بالمصحف العثماني منذ الخليفة عبد المؤمن، ثم اقتدى به بقيّة أبنائه³ من بعده، وقد خصّه محمد بن عبد العزيز بقصيدة رائعة بعدما أمر بتزيين المصحف بالدرر النفيسة جاء فيها:

¹ - ينظر الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر1، ص:169، وقد يكون رأي المراكشي هو الأصح على اعتبار أن المنصور الذي كان شديد الاهتمام بمصحف عثمان بن عفان كان قد حارب كتب الفروع، فكان أخذهم مقتصرًا على الكتاب والسنة، ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، المجلد 7، ص: 11.

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص:356

³ - مدح ابن حيوس عبد المؤمن ومزج ذلك بشكره لعنايته بالمصحف، وقد جاء في مطلع القصيدة:

سَيَشْكُرُ الْمُصْحَفُ إِكْبَابَكُمْ عَلَيْهِ إِذْ أَوْجَدَهُ الْقُدُّ

وَنَقَلْتِ مِنْ كُلِّ مُلْكٍ ذَخِيرَةً كَأَنَّهُمْ كَانُوا بِرَسْمِ مَكَاسِيهِ
فَإِنْ وَرِثَ الْأَمْلاكُ شَرَفًا وَمَعْرِبًا قَدْ أَخْلُوا جَاهِلِينَ بِوَاجِبِهِ
وَأَلْبَسَتْهُ الدُّرُّ وَالْيَاقُوتَ حَلِيَّةً وَعَيَّرَكَ قَدْ رَوَاهُ مِنْ دَمِ صَاحِبِهِ¹

ويتحدث الشاعر عن مصدر الحلبي التي زينت المصحف الإمام والتي جلبت من مختلف الأمصار، وهي في الأصل إمام هبات، أو غنائم من ممالك مجاورة، لم تُوفَّه حقه كما ينبغي، ويُقارن في البيت الأخير بين صنيع المنصور بهذا المصحف وما فعله به قتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عندما لطَّخوه بدم صاحبه، وخرج الشعراء في بعض الأحيان عن الإعجاب والمدح إلى الإسراف في التملق مثل ابن القطان الذي نظم أبياتاً قريبة في معناها من قول أبي عميرة بمناسبة وضع الخليفة المصحف الشريف في حجره حيث قال:

أَلَا قَاقِدِرُوا قَدَرَهُ هَذَا الْمَقَامَ فَهَذَا الْإِمَامُ وَهَذَا الْإِمَامِ
إِمَامِ الْمَصَاحِفِ فِي حِجْرِ مَنْ بِهِ حَفِظَ اللَّهُ هَذَا الْأَنَامِ
وَنَاهِيكَ مِنْ مُصَحَّفٍ كُرِّمَتْ بِحِجْرِ الْكَرِيمِ سَلِيلِ الْكِرَامِ
فَطُوبَى لِمَنْ فَازَ مِنْ دَاوِدَا بِمَا فِيهِ حَظٌّ وَلَوْ بِالسَّلَامِ²

ويدي ابن القطان إعجابه بمنظر المصحف الإمام وهو موضوع في حجر الخليفة، وهو الأمر الذي زاده شرفاً، والمؤمن السعيد- في نظر الشاعر- هو من غنم بلمسهما؛ والمقصود هو حمل المصحف الإمام ومصافحة الخليفة، وهذا الشعر جعل محمود علي مكي محقق الكتاب يدي نغمه على الشاعر؛ حيث قال معلّماً: « وهي أبيات غثّة يهولنا فيها ما حشاه بها ناظمها من ملق ونفاق، ومن غلوّ في مدح الخليفة يصل إلى حدّ الخروج عن الأدب والاستخفاف بالقيم الدّينية ، فهو يقول في البيت الثالث إنّ صحف هذا المصحف قد شرفت بوضعها في حجر يعقوب المنصور!»³ وكان

للتفصيل ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 160-167

¹ - الإحاطة ، ابن الخطيب ، ج3، ص: 236-237.

² - نظم الجمال، ابن القطان، ص: 21.

³ - نظم الجمال، ابن القطان، ص: 21.

غرض ابن القطان من شعره هو التقرب من الخليفة ونيل رضاه، لكنّ استهتاره بالقيم الدينية أضّر بالأبيات وقلل من قيمتها في نظر المحقق.

وبعد هذه الأمثلة التي تمّ عرضها عن المظاهر الديني يمكن الخروج بما يلي:

- قامت الدولة على أساس ديني (رُوحِي) متّخذة من التّوحيد مبدأ وإسماً لها، وذلك بفضل جهود ابن تومرت وأتباعه من الخلفاء، وقد أسهم التّوحيد في إرساء ملكهم¹.
- انقلب الموحدون في آخر عمر الدولة على مبادئ ابن تومرت التي بثّها في أسلافهم، ومن مظاهر ذلك إزالة اسمه من الخطب والسكّة.
- تنافس الخلفاء في العناية بالمصحف الإمام، وقاموا بتوشيته بمختلف الحليّ النفيسة، تأكيداً منهم على خدمتهم للإسلام.
- قدّس الموحدون تعاليم مهديّهم ابن تومرت في عصر القوّة؛ حيث شملوه بالتبريز الذي أقاموه لمصحف عثمان بن عفان (رضي الله عنه).

ثانياً - المظهر العسكري: اعتنى الموحدون بالجيش لعلمهم بدوره في خلق الاستقرار الداخلي، ومنحهم هيبّة لدى الدول المجاورة، ومن مظاهر ذلك:

- 1- إجزال الهبات :** وكانت أجور قادة الجيش أعلى وأكثر وقد وقف عليها ابن صاحب الصلاة في قوله: «تمّ رضي الله عنه إعطاء الكسوات للموحدين والأشياخ من كل قبيل ولطلبة الحضر والعرب، بأن أعطى كلّ واحد ستّة أثواب: عمامة وغفارة، وقبطيّة مبطنة، ومقطعين مهديّين وكساء، وخصّ كثيراً منهم بأخبية وخيل عتاق، إحساناً وإنعاماً وامتناناً، وتمّ قضاء حوائج الناس ومسائلهم، وتصدّق على الضّعفاء المأسورين²» لقد كانت الهبات عديدة وقدّمت

¹ - وذكر ابن خلدون أنّ الملك عن العرب لا يتأسس إلا بفكرة دينية أو روحية، ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج1، ص: 289، 314.

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 360-361.

على هيئة ملابس، وكان الغرض منها تشجيع الجند على الوفاء لوطنهم والاستماتة أكثر في المعارك للدُّود عن جماه.

2- إخلاص النية لله في الجهاد: وكان الموحِّدون إذا أرادوا السير للحرب أوّل ما يقوم

به الخليفة قبل التَّحرُّك هو القيام بصلاة الاستخارة ليلاً مثلما يظهر من قول ابن صاحب الصلاة: « فبات أمير المؤمنين ليلة الأربعاء المذكور على النية الموصوفة، الخالصة بالجهاد لأعداء الله تعالى وبات الناس كذلك»¹ وهذا يحيل إلى نفسية القائد المتديّنة، التي تجعل أموره جميعها في يد خالقها، فإذا طلع الفجر قام بقراءة حزب من القرآن تضرّعا لله؛ إذ يواصل قائلا: « فلما أصبح الله بصباح يوم الأربعاء المذكور وقُضيت الفريضة وقُرى الحزب على حسب العادة من السنة أخذ الناس في الاستعداد ، والتأهب للجهاد »² ويظهر من قول المؤرخ أنّ الحزب كان يُقرأ عقب صلاة الفجر، وهو أمر تعوّدوا عليه منذ عهد ابن تومرت، وقد اعتبر المصامدة كل غزوة يُقدِّمون عليها جهادا مادامت الغاية منها نشر راية التوحيد، ذلك أكثرها من العبادات طمعا في نيل رضا الله (عزّ وجلّ).

3- الأخذ بالمشورة: كان الخليفة يأخذ بمشورة أهل الرأى من المقرّبين منه مثلما ظهر

لنا عند فتح مدينة وبذة على عهد الأمير أبي يعقوب حيث يقول ابن صاحب الصلاة: « فلما أصبح الله بصباح يوم الخميس المذكور ،وقضيت صلاة الصبح دعى³ أشياخ الموحدين ومزاورهم وأشياخ القوادم من أهل الأندلس وتذوكر معهم فيما يصنعون ، فكان رأي أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يُخرج ربع الناس من جميع العساكر والقبائل لعمَل الزرع وسوقه واختزان العلف والقوت لحصار هذه المدينة »⁴ وهذا يؤكّد مشاركة الجيش في أعمال الزراعة إلى جانب

¹ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص:90

² - المصدر نفسه، ص: 405.

³ - هكذا وردت وفي الأصل نقول : دعا.

⁴ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص:408.

عامّة النَّاس، وقد ساوى الخليفة في استشارته بين أهل المغرب والأندلس إيماناً منه بحكمتهم، وتجرّبتهم، وتُعدّ نظرهم.

4- تمييز الجيوش: كان لهذا الاحتفال أهميّة كبرى؛ حيث كان عبد المؤمن يروّح على نفسه بتمييز الجيوش، وأورد المراكشي قصّة على لسان وزيره أبي جعفر تؤكّد افتتاحاً بذلك، وهذا بعد أن أبدى الوزير إعجابه بالبستان الذي اغترسه في البحيرة؛ حيث يقول: «أمر ببعض العساكر آخذي أسلحتهم وجلس في مكان مطلّ وجعلت العساكر تمرّ عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة إثر كتيبة لا تمرّ كتيبة إلا وألقى بعدها أحسن منها جودة سلاحٍ وفراهة خيلٍ وظهور قوّة فلماً رأى ذلك التفت إليّ وقال يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا تشارك وأشجارك»¹ كانت المفاخرة على هذا العهد بقوّة الجيش الذي بسط نفوذه على برّ العدوتين، وبحرهما، وكان يتمّ باستعراض أفرادهم؛ بحيث يجلس الخليفة على مكان مطلّ، وتمرّ الكتائب مصطّقة في تتابع منظمّ وهم في أبهى حلّة، مقلّدين بأفضل الأسلحة؛ وكانت كلّ كتيبة تتمثّل قبيلة من القبائل الموحدية في نظام بديع بغية التأكّد من استعدادهم للحرب، على نحو ما نراه من استعراضات عسكرية في وقتنا الحالي ، ويبدو أنّ القادة والأشياخ والأمراء كانوا يحضرون هذا التّمييز على غرار أبي الرّبيع سليمان الموحّد الذي أنشأ شعراً يصف جندياً في يوم التّمييز فيقول:

وَعَلِقْتُهُ مِثْلَ غُصْنِ النَّقَا
تَنَاهَى بِهِ لِيْنُ أَعْطَافِهِ
فَقُلْتُ وَقَدْ مَرَّ مَدْرَعَا
لَقَدْ آدَ قَدْكَ لَبَسَ الْحَرِيرَ
تَنْوُ² بِهِ لِيْنَاتُ الْبُرُودِ
إِلَى غَايَةِ مَا عَلَيْهَا مَزِيدُ
تَطَيَّفُ بِهِ خَافِقَاتُ الْبُنُودِ
فَكَيْفَ بِهِ عِنْدَ لَبَسِ الْحَدِيدِ!³

¹ - المعجب، المراكشي، ص: 145

² - هكذا وجدت وفي الأصل "تنوء".

³ - ديوان أبي الرّبيع سليمان الموحّد، أبي الرّبيع سليمان الموحّد، ص: 88

وتصف الأبيات جنديا موحديًا وسيماً، وقد لفت انتباه أبي الربيع بجسمه المتمايل تمايل أغصان الشجر على نحو جميل، حتى إذا مرّ على مقربة منه علّق عليه الشاعر مستغرباً من حاله، وهو يرتدي الحرير فكيف به إذا لبس زيّ الحرب! وهو ما يشير إلى أنّ الملابس التي كان الجيش يرتديها عند "التميّز" تختلف عن تلك التي ارتداها أثناء الحرب، حيث كانت أكثر تطريزاً وهو ما جعلها ثقيلة الوزن.

5- تقاليدهم عند الانطلاق للحروب: كان البدء في التحرك إلى الوجهة المقصودة بالحرب يتم بعد الفراغ من تمييز الجيش، وعند وصولهم تُنصّب قبة حمراء اللون للخليفة¹، وذلك تمييزاً لها من غيرها ويلتفّ حولها الجيش لحمايتها وفق ما أورده ابن صاحب الصلاة في أثناء حديثه عن أحد الخلفاء حيث قال: «نزل على ربوة من الأرض مرتفعة، وضربت له فيها قبة خباء جلس فيها مع من ذكرته يقصد بهم الخليفة وإخوته وفقهاؤه وهما أبو بكر بن الجَدّ وأبو محمد المالقي وقضاته أبو محمد بن الصفار وأبو الوليد بن رشد»² ويتّضح من هذا القول أنّ الخليفة كان ينتقي العلماء لمصاحبته للجهاد، وتباينت وظائفهم بين قاضٍ، وفقهٍ ومفكّر، فضلاً عن إخوته، ويبدو أنّ هذه الفئة المذكورة هي التي أولاها مشورته نظراً لعلمهم وحكمتهم.

6- خطّهم الحرّية: اعتمد الموحدون على الحصار كثيراً في حروبهم، وقد خلّد الشاعر الطّليق فتح مدينة (وبذة) بأبيات زواج فيها بين وصّفه لمنعة المدينة وحنكة الموحدين في الحرب حيث قال:

¹ - ذكر المقرئ شعراً لابن خبّارة يصف قبة الخليفة المعتصم يحيى بن الناصر بن المنصور الموحدي قرب مراكش وقد قطع العرب والنصارى أطناهما بقوله:

أُنظِرْ إِلَى الْقُبَّةِ الْحُمْرَاءِ سَاقِطَةً لَمَّا رَأَتْ مُضْرَّ الْحُمْرَاءِ عَنْ كَتَبِ
مَنْ كَانَ أَوْلَى بِهَا إِنْ كُنْتَ ذَا بَصَرٍ الْعَجْمُ أَوْ مَعْدِنِ الْعَلْيَا مِنَ الْعَرَبِ
وَأَتَمَّا سَجَدَتْ لَهَا سَمَتْ وَغَدَتْ فَوْقَ الضَّلَالِ فَكَانَتْ أَعْجَبَ الْعَجَبِ

ينظر أزهار الرياض، المقرئ، ج2، ص: 383.

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 405.

مَنْعَةً مِنْ ذَرَى سَوْرِ تَكْتَفَهَا وَزَاحِرٌ مُرِيدُ الْأَمْوَاجِ مِنْ غَصَبِ
تَغْلَعْتُ فِي خِنَاقِ الْجَوِّ صَاعِدَةً حَتَّى حَسِبْنَا مَدَارَ النُّجْمِ فِي صَبَبِ
وَحِينَ غَادَرَهَا طَوْلُ الْحِصَارِ لَهَا كَأَنَّهَا مَرْكَبٌ أَشْفَى عَلَى الْعَطَبِ¹

وأول ما لفت انتباه الشاعر هو حصانة مدينة وبذة بفضل السور الذي يحيط بها فمن شدة معانقتها للسماء يُخَيَّلُ لناظرها أن النجوم في متناوله، وبعد أن أزهقها الحصار طويلاً استحال جانبها المطل على البحر شبيهاً بالمركب الموشك على الغرق، وقد نجح الحصار في إخضاعها .

7- الاستعانة بالأسلحة المختلفة: كان في استخدام الموحدين الأسلحة المختلفة دور في حسم العديد من المعارك لصالحهم، إذ يقول ابن صاحب الصلاة: « فتم ذلك ومعونة الله تصحبهم، والتوفيق إلى كل سعادة يقربهم، واشتغل مع ذلك بعمل آيات حربية يستظهر بها على الحصون المهيدة، وتكون مزيدا في الحرب والمكيدة، مثل المجانيق والدبابات والأبراج، فيسر الله بذلك ما ضمنه ذك المطلب، وسهل أحوال العلب»² وقد نوع الجيش الموحد في استخدام الأسلحة الثقيلة والتي كانت معروفة على عهدهم فسهلت عليهم فتح الحصون وكانت عديدة ومتنوعة سواء في البر أم البحر، وتنوعت بين مجانيق وأبراج، وغيرها.

8- اتخاذ الرّايات: عرف الموحدون بتعدد راياتهم، وانتخبوا لأنفسهم من بينها واحدة تليق بهم، وقد وصفها ابن صاحب الصلاة: «فأما رايته المنصورة المتقدمة بين يديه ففي أحد وجهيها مكتوبا" الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله" وفي الوجه الثاني وما من إله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله وأفوض أمري إلى الله»³ وعكست هذه الرّاية توجه الموحدين الدّيني، فهم يؤمنون بالله الواحد الفرد لا شريك له، وأنّ محمّدا (صلى الله عليه وسلم) نبيّه المبعوث بالحق، وأنّ قائدهم محمد ابن تومرت هو مهدي الزّمان، وهو خليفة الله الذي بعثه ليحيي الحق في الأرض،

¹ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 103-104

² - رسائل موحدية ، أحمد عزراوي ، ص: 147.

³ - نظم الجمان ، ابن القطان ، ص: 168.

وهو ما يؤكّد وفاءهم لأفكاره، فيما عبّر الجانب الثاني للرّاية عن فكرة التسليم المطلق لله تعالى والتّوكل عليه وحده، وكان يتقدّم الجيش في مسيره لواءً أبيضُ اللّون على بعد ربع ميل تتبعه الرّيات الكبار، والطّبول¹.

9- كثرة الطبول وتنوعها: ولم تكن عناية الموحّدين بالطّبول أقلّ من اهتمامهم بالرّيات، فقد عرفت الطّبول المربّعة الشّكل منذ عهد ابن تومرت وأضيفت إليها الرّينة لاحقاً²، وكانت بمثابة جرس التّنبية للجيش. ومن الرّاجح أنّه كان لكل قبيلة طبل خاص بها يقرع إيدانا لبداية المعارك؛ حيث يقول ابن صاحب الصلاة في هذا الشّأن: «وقد أمر أمير المؤمنين أن لا يدفعوا على النّصارى إلّا عند ضرب الطّبول وخفقتها، وقد صوّف منها مائة طبل، فعندما ضُربت الطّبول ودفعت العساكر صار النهار ليلاً»³ وهذا العدد الكبير من الطّبول قد يدلّ على تخصيص كلّ واحد منها لقبيلة بعينها، وكان الغرض من الاكثار منها وقرعها جميعاً هو جمع أفراد الجيش.

ووصف ابن صاحب الصلاة أحدهما بقوله: «ولما أصبح الصّباح من يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة عام سبعة وستين المؤرّخ تكلم بعض النّاس بالرحيل أنّه يكون في هذا اليوم، وضُرب الطّبل الكبير إشعاراً للنّاس بذلك فكأنّ القيامة قد قامت! فما من رجل حائر لا يدري ما يصنع، وآخر حازم قد أخذ بما كان يسمع أو يتوقّع»⁴ فمهمة الطّبل الكبير هو تنبيه الجنود للرحيل، وقد كان لحجمه الضّخم دور في لفت انتباههم نظراً لشدّة دويّه.

وكانت الطّبول ترافق الخليفة في رحلاته لأرجاء الدّولة مثلما يظهر من وصف المراكشي لنزول موكب عبد المؤمن بقريّة (تاجرًا) مسقط رأسه حيث قال: «فلما أطلّ عليه والجيش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية وهزّت أكثر من مائتي

¹ - ينظر نظم الجمال، ابن القطان، ص: 168.

² - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 342.

³ - المصدر نفسه، ص: 406.

⁴ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 413.

طبل وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الضخامة يجيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز وتجسّ فقلبه يكاد يتصدّع من شدة دويّها»¹ ولعلّ الغرض من جعل الطبول كبيرة هو إرهاب العدو عند سماع دويّها، أو قد يرجع السبب لكثرة عدد الجيش الموحد الذي لا يمكن جمعه أو تنبيهه إلا بطبول من الحجم الموصوف.

10- كثرة النفقات في الحروب: وكلفت هذه الحروب خزينة الدولة مصاريف باهظة واستمرّ بعضها وقتا طويلا تطلّب الإمداد بمؤونة إضافية، من ذلك أن أبا يعقوب كان قد خطّط لغزو الروم براً وبحراً بالأندلس فتجهّز لذلك إذ يقول صاحب المنّ بالإمامة: « وأعدّ من القمح والشّعير للمعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبّو بالمعمورة المذكورة ما عاينته مكّداً كأمثال الجبال»² كانت مؤونة الجيش من أكثر النفقات تكلفة للخزينة، وهو ما يدلّ على كثرة الجيش الموحد، وطول فترة الحروب نظرا لاعتمادهم الكبير على الحصار أسلوبا للقتال نظرا لمنعة المدن الأندلسيّة، وقد تطلّب فتح بعضها شهورا، فإذا نفذت المؤونة وتعذّر وصول المساعدات، قام الجنود بشراء الطّعام وكلّ ما يحتاجونه من ما لهم الخاص مهما كلف ثمنه³.

11- وصف المعارك: تفنّن الأدب الموحد في وصف هذه المعارك ولا سيما رسائلهم؛ ومن بينها تلك التي قادها الرّبان أبو محمد عبد الله بن سليمان في "مالقة" وانتصر فيها ومما جاء في نصّها قوله: « فلما أظلت عليهم تلك القطائع المباركة قاطعة برومهم، قارعة لقلوبهم الخبيثة بهول صباحهم ذلك ويومهم، راموا التحصّن بالشخاتير المذكورة فملئوها سِلَاحاً ورجالاً، وتخيّلوا من ردّ أمر الله خيالا فاسدا وضلالا. فبادر من بادر من الموحدّين - أعانهم الله - إلى الجبال التي وثّقوا بها شخاتيرهم المذكورة في البر، واعتقدوا الإسناد إليه بها جُتّة من ذلك أمرا فقطعوها قطعاً

¹ - المعجب، المراكشي، ص: 165.

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 147.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 421، 352.

بتاً، وقتوا بصرمها عن البرّ أعضاء الكافرين فتاً¹ ويصوّر الكاتب ردّة فعل العدو العاجز عن القتال، حيث ظنّ أنّ تخليّه عن سفنه وهروبه منها سيعصمه من فتك الموحّدين، غير أنّ أمله قد خاب، فأول ما قام به هو تجريدهم من أسلحتهم التي كانت في قوارب صغيرة موثقة بالسفن، واعتبر الكاتب أنّ نصر الموحّدين قضاء وقدر لأنهم مؤيّدون من الله وهم أهل الحقّ وخير خلقه على الأرض.

وينتقل الكاتب إلى وصف حيثيّات المعركة في قوله: « فلما عين أعداء الله حبالهم أنكاثا، ولم يجدوا دون سفار الموحّدين غياثا، بادروا التراسي في الماء، واغتموا الفرار طمعاً في الإبقاء على ذلك الدماء. فاقتفى الموحّدون بالقتل آثارهم، ووصلوا باللحاق المستأصل فرارهم² فقد لادّ العدو بالفرار عند فشله في الاستعانة بقوارب النّجاة وذلك عن طريق الارتقاء في الماء، ولكنّ جنود الموحّدين اقتفوا أثرهم وقتلوهم، وهو ما يُوحى بجودة تدريب الجيش؛ من خلال براعتهم في السّباحة ومطاردتهم لأعدائهم في البحر.

ولم يكن للانتصارات أن تتم لولا شجاعة الجنود واستماتتهم في المعارك؛ وحاول الشعراء تصوير جانب من تلك المعارك التي قُدّمت حولها تقارير من القادة مثلما فعل أبو بكر بن عبد الله بن وزير الشليبي إلى يعقوب المنصور في إحدى معاركه مع الإفرنج:

وَلَمَّا تَلَاقَيْنَا جَرَى الطَّعْنُ بَيْنَنَا
وَجَالَ غِرَارَ الهِنْدِ فِينَا وَفِيهِمْ
فَلَا صَدْرَ إِلَّا فِيهِ صُدُورٌ مُتَمَفِّفِ
صَبْرْنَا وَلَا كَهْفَ سِوَى البَيْضِ وَالقَنَا
وَلَكِنْ شَدَدْنَا شِدَّةً فِتْبَلَدُوا
فَمِنَّا وَمِنْهُمْ طَائِحُونَ عَدِيدُ
فَمِنَّا وَمِنْهُمْ قَائِمٌ وَحَصِيدُ
وَخَوْلُ الوَرِيدِ لِلْحَسَامِ وَرُودُ
كِلَانَا عَلَى حَرِّ الجِلَادِ جَلِيدُ
وَمَنْ يَتَبَلَّدُ لَا يَزَالُ يَجِيدُ³

¹ - مجموع رسائل موحدية، لافي بروفانصال، ص: 11.

² - مجموع رسائل موحدية، لافي بروفانصال، ص: 11-12.

³ - نفع الطيب، المقرئ، ج 4، ص: 381.

ويصف القائد لحظة التحام الجيشين في أرض المعركة، وقد سقط العديد من القتلى من الفريقين كلاهما، وكان سعي الموحدين حثيثا للإطاحة بأكبر قدر من جيش العدو فما كان يعصمهم من بعضهم بعضا سوى براعتهم في القتال وثباتهم في المعركة، غير أنّ جيش المسلمين كانوا أشد جلدًا وبراعة، فاضطرّ الخصم إلى التراجع الأمر الذي حسم المعركة لصالح جيوش المنصور، وهو دليل على قوة جيوش الموحدين، كما نجد في أشعارهم تصويرا للقتلى من الجانبين¹.

12- وفرة الغنائم: وعدت الرسالة في الأخير المغانم التي أحرزها الموحّدون في هذه المعركة؛ حيث جاء فيها قوله: « ثم أخذوا على بركة الله في الانصراف إلى قطائعهم، والعود إلى مواضعهم واحتشوا على ما كان بالمرسى المذكور من الغراب والشخاتير وحرقوا ما لم يمكنهم جلبه، ولا توجه لديهم طلبه، وغنموا من تلك الآلات الحربيّات ما أتى الوصف على ذكره² وقد تعددت مغانم الأسطول بين سفن، وغربان وشخاتير فأخذوا ما استطاعوا وأحرقوا ما بقي مكبدين العدو خسائر جسيمةً ومحقّقين نصرًا متوجًا بالمكاسب.

وانعكست الانتصارات إيجابا على نفوس الموحدين لأنهم هزموا راية المشركين، وكسروا شوكتهم، وسلبوهم كلّ نفيس، وفق ما يرويه ابن صاحب الصلاة إذ يقول: «هُدِمَت بِيَعْمِهِم وَأُخِذَتْ فِيهَا تِسْعَةُ نَوَاقِيسٍ قَاتِلٍ عَلَيْهَا الْكُفْرَةُ حَتَّى قُتِلُوا عِنْدَ كِنَائِسِهِمْ ، وَأَخْلَوْا أُسْوَارَهُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ³ فقد أسهمت هذه الانتصارات في رفع راية التوحيد، ويرى المحقق أنّه قد تمت الاستعانة بها في تزيين جامع القرويين بمدينة فاس الذي تنافس الخلفاء على ترتيبه ذلك أنّ البعض منها استحال بالصنعة إلى ثريات⁴.

¹ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص:198، ينظر الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي، محمد مرتاض، ص:839.

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص:12.

³ - المصدر نفسه، ص:406-407.

⁴ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، هامش 1، ص:407.

13- المفاخرة بقوة الجيش: وقد أنشد الشاعر أبو الحكم بن رضى البنسي شعرا يمدح

فيه أحد أمراء الموحدين ويصف فيه هيمنة الجيش الموحدى على البر والبحر بقوله:

قَادَ الْجِيُوشَ يَعْصُ الْمَشْرِقَانَ بِهَا
مَنْ كُلِّ مُعْتَقِلٍ سَمَاءَ لَهْدَمُهَا
أَوْ مُرْتَدِّ لِحَسَامٍ مِثْلَهُ دَرِبُ
أَوْ مُحْتَبٍ فَوْقَ مِثْلِ النَّهْيِ سَابِعَةً
أَوْ رَاكِبٍ فَوْقَ مِثْلِ الْمَاءِ مُرْتَفِقِ
فَالْبَرُّ كَالْبَحْرِ إِذْ تَسْتُنُّ أَدْرُعَهَا
وَالْمَعْرِبَانِ كَمَا غَصَّتْ خَلَائِلُ
أَوْ وَجْهُهُ فِي ظَلَامِ الْخَطِّ قُنْدِيلُ
غَايَةُ السَّيْفِ مَسْنُونٌ وَمَصْفُوعُ
وَعَضْدُهُ تَحْتَ ثَنِي الدَّرْعِ مَحْلُولُ
كَأَنَّهَ قَيْصَرٌ وَالْقَلْعُ إِكْلِيلُ
وَالْبَحْرُ كَالْبَرِّ إِذْ يَصْطَفُّ أَسْطُولُ¹

ويُسجِّلُ الشَّاعرُ إعجابه بكثرة الجيوش الموحدية وقوتها التي عكست دهاءٍ وحكمة هذا الحاكم العظيم حتى عند الخطوب؛ فهو مستعدٌّ دومًا للحروب مُشهر سيفه للقتال، لا يروِّعه شيء مادام قد دان له البرُّ والبحرُّ .

14- التَّمَنُّعُ بِالاستقرار والأمن: وأحدثت الانتصارات المتتالية التي حققتها الجيش في عهد

القوة حالة من الأمن والاستقرار وهو ما رصدته رسائلهم؛ حيث جاء في إحداها: « وأحوال هذه الجهات - وصل الله عزتكم - قد ظهر صلاحها، وتساوى في الأمانة والدعة ليلها ونهارها، وغدوها ورواحها؛ والبلاد - والحمد لله - ممهدة ساكنة، والرعية هادئة هادنة، والمصالح منتظمة متناسقة، وأصول البركة الإمامية - حرسها الله - في كل مكان ثابتة وفروعها باسقة»² لقد أدت قوة الجيش الموحدى واحترافه إلى تحقيق الأمن في مختلف ربوع الدولة على الرغم من سعتها، وانعكس ذلك بشكل إيجابي على مختلف الميادين لأنَّ الأمن يحفِّز على الخلق والإبداع، ودليل ذلك ما شهدته عصرهم من نشاط فكري، وازدهار في مختلف الميادين وذلك بفضل حكمة الخلفاء.

¹ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 335

² - رسائل موحدية، أحمد عزوي، ص: 280، وما بعدها.

15- استنجاد الدُول بهم: بلغت أنباء انتصارات أسطول الموحدين بلاد المشرق فأبرق الناصر صلاح الدين الأيوبي برسالة يستنجد فيها بالخليفة المنصور ليكفّ بلاء الصليبيين عن الشّام أو يُلجِم حملاتهم المتواترة، بعد عجزه عن دفعها، وفي الرّسالة اعتراف من حكام الدول المجاورة بقوة الأسطول الموحدوي ويؤكّد ما تطرّقنا إليه من كثرته وقوّته واحترافه، فقد كان رجاء صلاح الدين الأيوبي من المنصور الموحدوي أن يعينه بشرط من الأسطول ليكفّ بلاء الصليبيين في جزيرة صقلية غير أنّ هذا الطّلب رفضه الخليفة الموحدوي¹.

ومن أهمّ ما يمكن استنتاجه بعد هذه اللّمحة الوجيزة عن المظهر العسكري على عهد الموحدين:

- الاهتمام الّلافت بالجيش، بفضل كثرة المنح ، والهبات، وتخصيص نفقات هائلة له عند السّلم والحرب، باعتباره مدعاة للتّفاخر .
- الإكثار من الرّيات والطّبول لإرهاب الخصم، ولترمز للقبائل المنضوية تحت راية التّوحيد وتخصيص بعضها في مهام محدّدة كالإعلان للتّحرك.
- الامتثال لأوامر الشّريعة الإسلاميّة، والاقتراء بتعاليم المهدي بن تومرت، عن طريق إخلاص النّية للجهاد ، والقيام بصلاة الاستخارة ، والاستعانة بالشّورى قبل التّحرك للحروب .
- انتشار الأمن والاستقرار²، وهو ما أفسح المجال للإبداع ، كما لاحظنا استعانة الدّول المسلمة المجاورة لهم عند وقوعها في الفتن مثلما فعل صلاح الدين الأيوبي ، وهو ما يؤكّد على قوّتهم.

¹ - ينظر رسائل موحديّة ، أحمد عزوي ، ص: 184. ينظر المقدمة، ابن خلدون، ج 1، ص: 440.

² - ينظر قصة الحضارة ، ويل ديورانت ، ص : 03.

ثالثا - المظهر الإداري: سعى الموحدون لتأسيس دولة قويّة، وثابتة الدّعائم فاهتمّوا بتنظيم الإدارة، وتنويع أجهزتها بغية تمكينها من التسيير الأمثل لشؤون البلاد، ومن مظاهر تطوّرها:

1- اتّخاذ الأختام: وهي من شارات الملك ، وأشارت حفصة بنت الحجاج الرّكونية إلى العلامة السّلطانيّة في قولها مادحة عبد المؤمن:

أَمْنُنْ عَلَيَّ بِطِرْسٍ يَكُونُ فِي الدَّهْرِ عُودَهُ
تَحُطُّ بِمُنْمَاكَ فِيهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحُدُودُهُ¹

ويّضح من قول الرّكونية أمرين: أوّلها أنّ الخليفة كان يسمح بدخول المحتاجين عليه شخصياّ للبتّ في قضاياهم ، والآخر أنّ ختم الخليفة كان " الحمد لله وحده " وفي اتّخاذ هذا الشعار دليل على توحيدهم لله وإخلاص الطاعة له دون سواه.

2- إشراف الأمراء شخصياّ على البناء : ومن مظاهر مشاركة الأمراء في سهر الأمير أبي يعقوب على إتمام جبل الفتح، وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة: « واشتغل السيّد الأعلى أبو يعقوب رضي الله عنه بإشبيلية مدّة شهر في هذه الأوامر العليّة، التّافذة من الحضرة الإمامية، ولازم فيها الاجتهاد، وقاوم الجهاد يتطلّع مع السّاعات مبلغ أحوال المباني² ولا شكّ في أنّ هذه التّوعيّة من المهام من شأنها منح الخبرة للسّادة في التّعامل مع مختلف القضايا التي ستواجههم عند تولّيهم زمام الحكم، فضلا عن تقربهم أكثر من العامّة.

3- تسهيل مهام الولاية: تنبّهت الحكومة للعقبات التي تعترض عمّالها، فسعت لإمدادهم بمساعدتين أكفّاء وخبراء ليسهلوا مهامهم ، وذلك وفق ما أشار إليه حيث يقول: «وتذاكرنا معهم في أنّ الذي تكمل به هذه الإرادة، وترجى بالتّعاون عليه البركة والسّعادة، أن يكون مع كل واحد من المذكورين من ينتهي إليه الإحسان، ويقوم على خيره وفضله الجلاء والبيان، فعين لهم من كبار الطّلبة

¹ - المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص:138

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص:89، ينظر الحضارة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس، حسن علي حسن، ص: 77-78.

والحفاظ وأعيان الفقهاء والقضاة ، ونخبة الأئمة والثقات، وخيار الأجداد من العزاة»¹ ويبدو أنه جعل تسيير الأقاليم مستندا على لجنة حكومية شبيهة بالتي اعتمدها الحكومة المركزية في إدارة شؤون البلاد، وكان عبد المؤمن حريصاً على كسب موافقة رعيته، لذلك اشترط أن يكون العدل من الصفات الأساس التي ينبغي توفرها في الأمراء.²

4- مراقبة العمّال: كان الخلفاء على اطلاع بالمستجدات الطارئة في البلاد سواء بالتنقل إلى الأقاليم المختلفة أم عبر مساءلة الوافدين إليهم من مختلف الرّبوع، وهو ما ألفيناه عند الأمير أبي يوسف بحسب ما يرويه عنه المراكشي: « وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كلّ شهر يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمّالهم وقضاتهم وولّاتهم فإذا أثنوا خيرا قال اعلموا أنّكم مسؤولون فلا يقولن أحد منكم إلاّ حقاً»³ فالخليفة المنصور لم يكتف بالاطلاع على تقارير الولاية حول أوضاع البلاد، بل كان يحرص على أخذ الأخبار من مصادر مختلفة خشية تزييف عمّاله للحقائق، وحرصاً منه على محاسبة المقصّرين في مهامهم.

5- الحرص على مصالح الرّعيّة: يبدو أنّ الرّقاصين أي عمّال البريد كانوا يجترئون على العاقبة، فيكلّفونهم مالا يطيقونه باسم خدمة الموحّدين، فتدخلت الحكومة للحدّ من هذه التّجاوزات، حسب ما نتبيّنه من إحدى الرّسائل التي بعث عبد المؤمن بها إلى عمّاله في قوله: « فإنّه ذكر لنا أنّهم يأخذون الناس بالنّظر في كلّهم، ويُلزّمون في زادهم من كل موضع وعلفهم، وهذا فعل كلّ فرقة منهم في سيرها، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها، وإنّ من جملة ما حُكي عنهم أنّهم يتألّفون في الطّرق جموعاً، ويحلّون بأفنية الناس حلولا شنيعة مؤنّاتهم تكليف المجرم، ويتحكّمون عليهم بحكم

¹ - مجموع رسائل موحّدية، لافي بروفانصال، ص: 65 ، للاطلاع أكثر ينظر الحلل الموشية، ابن الخطيب، ص: 114-115، ينظر أخبار

المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 76-77.

² - ينظر رسائل موحّدية ، أحمد عزّاوي، ج1، ص424

³ - المعجب، المراكشي، ص: 208.

المغرم، حتى أنهم لا يرضون في ضيافتهم إلا بأسمن الجزر»¹ وفي هذا النص ما يؤكد تتبّع الخلفاء للمستجدات قصد التقرب من الناس، ويبدو عبد المؤمن ناقدًا على الرقاصين الذين حملوا العامة فوق طاقتهم فتخيروا أفضل الأطعمة زادًا لهم، مُعتمدين الغلظة والشدة في معاملتهم مع سكان المناطق التي ينزلون بها لفترات قد تطول عمّا خصّص لهم، غير آبهين بأهمية المهام التي أوكلت إليهم، وتسببها في تعطيل مصالح البلاد والعباد.

6- التعامل بحزم مع المقصرين في مصالح الناس: حرص الحكام على ضمان جودة

مختلف السلع حفاظًا على مصالح الرّبائين وحياتهم، فشدّدوا على عمال الحسبة بضرورة محاربة الغشّ بمختلف صوره وفق ما حدّد في تقاديمهم حيث ورد في إحداها: «وأمرناه أن يجتهد في إزالة المحدثات التي لا يجيزها الشرع، ومحق المنكرات التي يجب الزجر عنها والمنع، وأن يطمس آثار ذلك كله حيث كان في الأسواق وسواها»² فمن مهام المحتسب محاربة كلّ التصرفات المخالفة للشرع، ومنع التجاوزات بحزم مهما كانت الأماكن التي صدرت منها؛ سواء كان داخل الأسواق أم خارجها، كما أوكل إليهم أيضا مهمة معاينة الرّبّ التي تطلبت منهم الفطنة والصّرامة³.

7- الاستماع للمظالم: وهو مظهر من مظاهر التقرب من الرعية ولا سيّما على عهد المنصور

الذي عكف على الاقتصاص من الجائرين بنفسه، فاستمع شخصيًا للمظالم، واطّلع على الشكايات صونًا لكرامة الناس وحقوقهم؛ إذ يقول ابن صاحب الصلاة: «ولما كان يوم الاثنين التاسع عشر من الشهر المذكور أمر بفتح الباب المغلق المعروف بباب الأستوان الذي كان من عادته الجلوس في داخله، واجتمع الموحّدون أعزّهم الله لمشاهدة فتحه، ففتح وبسط موضع الجلوس فيه . وكان قد أعدّ كسوة للسقايف المسماة بمُنْتَيْمِي من الحصور ، فبسطت فيها أحمال الحصى والرمل، وفُرشت في وسط صحن الدار التي يمشي فيها الناس، وطبّع الموضع على أرتب هيبة تقدّمت. وجلس رضي الله

¹ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 198

² - رسائل موحدية، أحمد عزاوي ، ص: 506.

³ - ينظر نظم الجمان ، ابن القطان، ص: 197-197 .

عنه ودخل عليه أشياخ الموحدين»¹ ويتضح من هذا الخبر أنّ الخليفة تَخَيَّرَ مكانا فسيحًا وحسن الترتيب أجلس فيه المتخاصمين للاستماع إلى شكاويهم، وهو ما يؤكّد سعي الخلفاء الحثيث للتقرب من الرعيّة، والاقتصاص لهم من ظالمهم دون تمييز، وأمام مرأى الحاضرين، وهو ما يؤكّد على عدله.

8- حسن الجوار: سعى الحكّام لترك انطباع حسن لدى الآخرين، وتقديم صورة مشرقة

للإسلام السّمح، وهو ما نلمسه في رسالة بعث بها الأمير أبو الرّبيع سليمان الموحّد لملك غانة، والتي أعطت لمحة عن السياسة الخارجيّة لدولة الموحدين، ومّا ورد فيها قوله: «نحن نتجاوز بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرّفق بالرعيّة، ومعلوم أنّ العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة»² ويعكس هذه النّصّ شخصيّة الأمير أبي الربيع الحاكم المتشبع بمبادئ الدين الإسلامي الحاضر على الصّفح عند المقدرة مهما كان الشّخص المخطئ، ويؤكّد شروط الاتفاق بين دولتيهما التي تقضي ضرورة التزام السيرة الحسنة، والرّفق بالرعايا، ووجوب ضمان حقوقهم، لأنّه من مظاهر العدل الذي يعدّ أحد أهمّ الأسس التي يقوم عليها الملك.

لقد شهدت الإدارة الموحدية تنظيمًا وتنوعًا بعد تأسيس دولتهم، وهو دليل على قوّة ملكهم وتمكّنهم منه وسكونهم³، ومن مظاهر ذلك:

- تعدّد الأجهزة الإدارية، وتنظيمها لضمان رعاية مصالح البلاد وخدمة العباد، وذلك بفضل التخطيط المحكم من خلفائهم.

- الحرص على التقرب من الرعيّة عن طريق رعاية مصالحهم، وذلك بالجلوس للمظالم والانتصار للمظلومين، ومراقبة العمّال في مختلف الأقاليم، ومحاسبة المقصرين منهم.

¹ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 332-333.

² - رسائل موحدية، أحمد عزراوي، ص: 211.

³ - إنّ من مظاهر الملك الدعة والسكون وهو ما توفّر لدى الموحدين، ينظر المقدمة، ابن خلدون، ص: 331.

- السّهر على نشر العدل في ربوع الدّولة تكريماً لأفرادها، وحضّهم للدّول المجاورة على اعتماده في سياساتهم.

ثالثاً: المظهر الاقتصادي: شهد نشاطاً وقوةً منقطعي التّظير، ومن مظاهر ذلك :

1- وفرة الأموال:

أ- وفرة الواردات: كان عهد الخليفة أبي يعقوب أزهي عصور الموحدين ، وهو ما أدلى به المراكشي؛ حيث قال في هذا الخصوص: « فلم يرتفع ملك من الملوك أعني ملوك المغرب قبل أبي يعقوب هذا أو بعده ما ارتفع إليه من الأموال وقد بلغني من جهة رجل من أصحابنا كان يتولّى بيوت الأموال قال لي وجدت خرائط كثيرة مما كان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبي يعقوب بختمها¹ فالمراكشي وهو مؤرخ دولة الموحدين يجزم بأن الخزينة شهدت اكتفاءً منقطع النظير على عهد أبي يعقوب، وذلك لوفرة المداخيل، ولسياسة هذا الخليفة الرّاشدة ، ولاعروا أنّ هذا الانتعاش كان له أثر إيجابي في شتى الميادين .

ب - انتعاش بيت المال: عرفت الخزينة انتعاشاً وبخاصّة على عهد الخليفة أبي يعقوب وفق ما أورده المراكشي في قوله: «وكان الذي يسهّل عليه بذل الأموال مع ما جُبل عليه مالك سعة الخراج وكثرة الوجوه التي يتحصّل منها الأموال كان يرتفع إليه خراج إفريقية وجملته في كلّ سنة وقرّ مائة وخمسين بغلا هذا من إفريقية وحدها خلا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها والمغرب»² فقد كان الخراج مصدراً مهمّاً من واردات بيت المال، وهو من المصادر التي أقرّها الإسلام، وشهد بيت المال وفرة في المداخيل وذلك بفضل اتّساع الدّولة، وتعدّد أقاليمها.

ج- الاقتصار على المال الحلال في المداخيل: تصدّى الموحّدون لكلّ أنواع القبالة والزّيادات التي لم ينصّ عليها الشّرع، وذلك بمتابعة الأخبار، والاطّلاع على المستجدات الطارئة، مثل

¹ - المعجب ، المراكشي، ص: 184

² - المعجب ، المراكشي، ص: 184، المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 331.

فرض بعض العمّال ضرائب لم تعلنها الدولة، فأبرق عبد المؤمن برسالة يتوعّدهم فيها قائلاً: «ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس¹ والقبالات وتحجير المراسي² وغيرها ما رأينا أنّه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً، وأدناها إلى من تولّاها دماراً وهلكاً، وأكثرها في نفس الديانة عيثاً وفتكاً»³ فهذه صُور من الضرائب التي فرضها العمّال ، وكان الخليفة بريئاً منها، بل عدّها من الكبائر لعدم إقرارها شرعاً، وتوعّد مرتكبيها بالقتل، كما طالب عمّاله بالعودة إليه في أمر أموال المخزن لأنّه أعلم منهم بمواضع إنفاقها⁴.

د- توزيع المال على المستحقين:

- شراء المؤونة: عانت مدينة غرناطة من ضائقة شديدة استمرّت لسنوات استدعت تدخّل الخليفة لتوفير الطعام لأهلها فيما يرويّه ابن صاحب الصلاة؛ إذ يقول: « واتّصل في أثر هذا الفتح العظيم نظر الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه لمدينة غرناطة وقصبتها سنام الأندلس، فملاً مخازنها في القصبه بها بالقمح والشعير والملح وآلات الحرب من الرّماح والدّروق والسيوف والقسيّ والسّهام والرّسة بما أجهت الناظرين، وقصّر عن وصف الواصفين »⁵ سارع الموحّدون عند دخولهم للمدينة إلى إمدادها بمختلف المساعدات الضروريّة؛ من طعام وثياب وحتّى أدوات الحرب، فانتعشت هذه المدينة بفضل ما وصلها من مواساة وهبات⁶.

¹ - جاء في مادة مكس: « المكس: الجباية، مكسه يمكسه مكسا ومكسنته أمكسه مكسا. والمكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية. و الماكس: العثار. ويقال للعثار: صاحب مكس. والمكس: ما يأخذه العثار »، لسان العرب، ابن منظور، المجلد 6، مادة (مكس)، ص:220.

² - هكذا وردت، وفي الأصل: المراصي، وهو الحجر على حرية الانتفاع منها، ينظر، نظم الجمان، ابن القطان، الهامش: 5، ص:193.

³ - المصدر نفسه، ص:193-194.

⁴ - ينظر رسائل موحدية، أحمد عزوي، ص:68.

⁵ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص:137.

⁶ - استمرت المساعدات للمخازن بغرناطة ما بين 575هـ -563هـ ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص:137.

- **مساعدة المحتاجين:** وامتدت نفقات بيت المال لتشمل الفقراء والمحتاجين حيث يقول المراكشي: «أدركتهم، وقد قسّموا مدينة مراكش أرباعا وجعلوا في كلّ ربع أمناء معه أموال يتحرّون بها المساتير وأرباب البيوتات وكان كلّما دخلت السنّة يأمر أن يُكْتَبَ له الأيتام المنقطعون فيجمعون إلى موضع قريبا من قصره فيُخْتَنُون ويأمر لكلّ صبي منهم بمثقال وثوب ورغيف ورقمانه وربما زاد على المثقال درهمين جديدين هذا كلّه شهدته لا أنقله عن أحد»¹ فقد حرص المنصور الموحدى على استفادة المحتاجين من بيت المال على مدار السنّة، وهو دليل آخر على تواضع حكام الموحديين ورغبتهم في التقرب من العامّة، والسهر على قضاء حوائجهم بغية تحقيق المساواة بين فئات الشعب، وهو ما يعبر عن قمة الرقيّ الذي وصل إليه هذا العهد من حيث التكافل الاجتماعي .

- **دفع نفقات الجيش:** وقد استغلّت الجباي في دفع نفقات الجيش، واحتاجت إلى مبالغ طائلة لتغطية حاجاته وفق ما ذكره ابن صاحب الصلاة عن أبي يعقوب في قوله: « وجلس أمير المؤمنين في مجلسه العالي وأشياخ الموحديين معه وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب وأمر لوزيره أبي العلى ادريس المذكور أن يأمر الخزّانين بإحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدراهم فأحضرت أمامه وعلت أكداسا، وجنّسها من الذهب والفضّة أجناسا، وقدّم الموحديين في تنفيذ البركة لهم»² ويتّضح من هذه الشهادة للمؤرخ أنّ صرف أموال الخزينة لم يكن بيد الخليفة وحده بل كان يتم بحضور كبار القادة في الدولة، كما نلمس كرم هذا الرّجل مع جيشه حيث صرف أجورهم بمكافآت من الذهب والفضة وهو ما يوحي بوفرة هذين المعدنين.

هـ- **انتشار الرّخاء:** انعكست سياسة الحكام المالية بالتّفع على الاقتصاد؛ إذ يقول المراكشي: «ولم تزل أيّام أبي يعقوب هذا أعيادا وأعراسا ومواسم كثيرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتّساع معائش لم ير أهل المغرب أيّاما قط مثلها واستمرّ هذا صدرا من إمارة يوسف»³ فقد استطاع الخليفة

¹ - المعجب، المراكشي، ص: 208-209.

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 348.

³ - المعجب، المراكشي، ص: 184.

أبو يعقوب وغيره من الحكّام أن يحقّقوا التوازن بين فئات المجتمع فكسبوا ودّها، كما نجحوا في إنماء بيت المال بفضل دهائمهم في التخطيط وتسيير المداخل، إلى جانب غنى البلاد، وقد نتج عن هذه السياسة التي انتهجوها تحقيق الرّخاء والتّرف في المجتمع .

و- **سكّ العملات:** وهو مظهر من مظاهر تشجيع التجارة الخارجية ، ويعدّ "الدينار اليعقوبي" دليلاً على ترفٍ وغنى هذه الدولة، وتفاعل الأدب مع المستجدات التي شهدتها العملة، فسجّلوا انطباعاتهم عنها، ومن قبيل ذلك قول الشاعر أبي عباس الجراوي عند مضاعفة أبي يعقوب لوزن الدينار الموحدى :

رَأَى النَّضَّارَ عُيُونََ النَّاطِرِينَ وَقَدْ غَدَا اسْمُكَ الْمَعْتَلَىٰ عُلَاةَ مُكْتَبِيَا
قَدْ حَارَ فِي وَصْفِهَا تَبْرِيَّةٌ جَدُّدَا رَبُّ نَاظِمًا شِعْرًا وَمُخْتَطِبًا
مَا ارْتَابَ مُبْصِرُهَا فِي كَفِّ ذَاكَ وَذَا أَنَّ النُّجُومَ اسْتَحَالَتْ لِلْوَرَىٰ ذَهَبَا
نَدَاكَ عَمَّ بَيْبِي الدُّنْيَا وَالْبَسَهُمْ فِي الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ أَنْوَابَ الْغِنَى الْفُشْبَا
خَلِيفَةَ اللَّهِ رُحَمَاءُكُمْ لِمُعْتَرِبٍ نَاءٍ وَإِنْ نَأَىٰ دَارًا وَلَا اغْتَرَبَا¹

لقد أبحر "الدينار اليعقوبي" كلّ من أبصره، وما زاده شرفاً وجمالاً نقش اسم الخليفة أبي يعقوب أعلاه، فلا يمكن مجازاة حُسن منظره نظم شاعر أو قول ناثر، ولا يكاد يميّز ممسكها بينها وبين منظر النّجوم في السّماء، وقد شملت بركات هذا الخليفة العباد أيما حلوا لأنّ هذه العملة الجديدة قد سهّلت على التّجار البيع أيما توجّهوا، ويحمل البيت الأخير رجاء صريحاً للممدوح بأن ينعم عليه من بعض فضله.

2- الصّناعة :

¹ - المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدى " دراسة تاريخية وحضارية 580هـ - 995هـ - 1184م - 1198م"، ليلي أحمد النجار، جامعة أمّ القرى ، مكة المكرمة ،المملكة العربية السعودية، بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي ، ق 2، ص: 462، ص 121 .

أ-وفرة المعادن الثمينة: استخدم الصنّاع الذهب في طلاء تفايح صومعة مسجد إشبيلية؛ حيث يقول صاحب المن بالإمامة: « وكان عدد الذهب الذي طُلِّيت به هذه التفايح الثلاث الكبار والرّابعة الصّغرى سبعة آلافٍ مِثقالاً كباراً يعقوبية»¹ واستِخدام هذا المعدن الثّمين يعكس التّرف الذي شهده الموحّدون، كما يدلّ على وجوده بوفرة في تلك البلاد .

ب-كثرة المصانع: أوّل الخلفاء عناية كبيرة لصناعة السّفن في كلتا العدوتين؛ منذ عهد الخليفة الأوّل عبد المؤمن، ويحدّثنا ابن صاحب الصّلاة عنها فيقول: «فأمر بإنشاء القطائع² في سواحل العدوّة والأندلس فصُنِع منها زهاء مائتي قطعة، أعدّ منها في مرسى المعمورة بحلق البحر على وادي سبو بمقربة سلا مائة وعشرين قطعة، وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور، وأعدّ باقي العدد الذي ذكرته في أرياف العدوّة والأندلس وأمر بكتب الرّجال والرّؤساء الأبطال لعمارتهما، والقيام بحمايتهما والتّظر في آلاتها»³ وهذا يُوحى بقوّتهم في هذا الجانب ولا شكّ في أنّ هذه الكثرة سيكون لها أثر إيجابي على التّجارة فضلاً عن استخدامها في الحروب، وما تجدر الإشارة إليه أنّ صناعة السّفن كانت تتمّ على سواحل العدوتين وبأعداد كبيرة ، وقد سخّر أفضل الخبراء للإشراف عليها.

ج-الأرحاء: كانت صناعة الأرحاء التي تقوم بطحن الحبوب من بين أهمّ الصّناعات الثّقيلة؛ حيث نجد سعيّاً إلى توفير هذا التّوع من الآلات نظراً لأهمّيتها في توفير الحبوب التي تدخل في العديد من المطبوخات؛ حيث يقول ابن صاحب الصلاة: « وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فيه قد صنّع في أعلاه رحي تطحن الأقوات بالرّيح عاينها الثّقات مدّة البناء المذكور، فلمّا رجع إلى مراکش عند إكمال ما أمر به فسدت الرّحي لعدم الاهتبال بها»⁴ لقد كان الغرض من إرسال الحاج يعيش إلى إشبيلية هو تشييد جامعها، ولم يمنع ذلك من تأدية مهمّة إضافية تتمثّل

¹ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص: 393.

² - هكذا وردت ، والأصل " القطائع".

³ - المصدر نفسه، ص: 149-150.

⁴ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 88.

في بناء هذه الرّحى لتسهيل مهام الفلاحين - بدعم من بيت المال - ضاربا المثل للفرد الصالح المفيد لجمعه، وكانت هذه الآلات تعتمد في دورانها على الرّيح ويدلّ صنعها على وفرة الحبوب في المنطقة، وقد سخّروا أفضل المهندسين لبنائها.

3- الزراعة:

أ- استصلاح الأراضي: لم تكثف الحكومة باستغلال المناطق الخصبة طبيعياً، بل اتّجّهت لاستغلال أكبر نسبة ممكنة من الأراضي منتهجة سياسة التشجير لزيادة الإنتاج حسب ما يحدثنا به ابن صاحب الصلاة؛ إذ يقول: « نفذ الأمر العالي إلى أهل الأنظار بالشّوف بقلع أصول الرّيتون المختارة من الألوان بمال المخزن أنماه الله واستجلاهما إلى البحيرة المذكورة للاغتراس، فجلبوا منها عشرات الآلاف، وتعاون في ذلك أشياخ البوادي بالنّظر بينهم: الآلاف منهم مع الآلاف، فغرست على نسق عام بعد عام»¹ ويشي هذا النص بكثرة أشجار الرّيتون وتنوّع أصنافها، وسعي القائمين بالأمر لجعل البحيرة مشتلة لهذا النوع من الأشجار التي تمت زراعتها على مراحل عديدة، كما يُشير هذا النص إلى أحد صُور مصاريف بيت المال الرّامية إلى دعم الفلاحين.

وكان للتنوع في نظام السقي دور في طبيعة المحاصيل وما حققتة من اكتفاء ذاتي، فلم يقتصر الموحّدون على الرّي الطبيعي المتمثّل في مياه الأنهار فحسب²، بل كان الاعتماد أيضا على السواقي الجارية كما هو الحال في فحص غرناطة³، فضلا عن العيون مثل مدينة قفصة حسب ما أثبتته رسائلهم: « وخلصت للموحدين أعانهم الله هذه المدينة العتيقة والقاعدة الوثيقة (...). تتفجر عليها عيون مُستبجّرة تخرج من داخل البلدة فتسقي كلّ جنة بقسط مقسوم، وشرب معلوم، وانبط خلالها سوادها مياه تسقي ما ارتفع من الظهور على البطون، وامتدّ ذلك أميالا يجري سوادها على

¹ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 375.

² - ونهر جرّدة بتونس، ونهر بجاية الذي عرف بالوادي الكبير، ونهر ملوية بين تلمسان و تازا ونهر فاس الذي يحيط بها من شرقها وغربها، ونهر أم الرّبيع بالقرب من مراكش نهر إشبيلية تصب فيه أنهار كثيرة، ونهر مرسية، ينظر المعجب، المراكشي، ص: 272، 273، 265.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص128

هذا الوزن الموزون»¹ ويفهم من هذا القول أنّ الناس استفادوا من مياه العيون في الشرب والسقي وقَسَموه فيما بينهم حسب الحاجة ، كما انفجرت بعض العيون داخل أراضيهم فاختصرت على المزارعين نقل المياه عبر القنوات.

ب- **غرس الجنّات:** كثرت البساتين في الفترة المقترحة للدراسة وأدجت في مختلف المرافق لاستغلالها بأقصى درجة ؛ومن أهمّها الجنّة التي أشرف عبد المؤمن على غرسها بالقرب من قصره، وقد وصفه صاحب الحلل الموشية في قوله: «وإنّ الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستانا طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منه فيه كلّ فاكهة تشتهيها الأنفس وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط عيوننا كثيرة، قال ابن اليسع وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلّا وهذا البستان الذي غرسه يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمّنة على رخص الفواكه بها»² واستطاع عبد المؤمن التكلّف بهذا البستان فأجرى فيه الماء - بالرغم من سعته - ولم تكن مهام هذه البساتين تزيين القصور فحسب بل كان تستغلّ ببيع محاصيلها ومنتجاتها .

ج- **وفرة المحاصيل الزراعية وتنوعها:** شارك الفلاحون في خدمة أراضيهم فتعهدوها بالعمل وتفانوا في ذلك، فقد جاء في إحدى مراسلاتهم قولهم: «وأما الزرع فقد بسط الله الآمال لكثرتة وصلاحه في هذا العام بسطا، وأعطى هذه الجهات منه حظّا وافرا وقسطا، فإنّ الناس كانوا قد استكثروا منه في كلّ مكان وانفقوا فيه ما عزّ وهان، واعتنى أهل الثغور أيضا بالازدراع اعتناء الغير، وتنافسوا في الإكثار منه تنافس الواثقين بما تكفّلت به السعادة الإمامية من اليمن والأمن واليسر والخير»³ وكان من نتائج هذا الإقبال على خدمة أراضيهم أن كثرت المحاصيل، وشارك أهل الثغور في هذا العمل بتشجيع من الحكّام الذين أدركوا أهميّة الزراعة في الدّخل العام، وكان للشعراء مشاركة لافتة

¹ - رسائل موحديّة ،أحمد عزراوي، ص: 148

² - الحلل الموشية ، ابن الخطيب، ص: 110، المعجب ، المراكشي، ص: 145

³ - رسائل موحديّة ،أحمد عزراوي ،ص: 280.

في أعمال الزراعة والغرس، فقد أوردت المصادر نظماً لأحد الشعراء يمازح فيه ابن مرج الكحل لما رآه من مبالغته في العناية ببستانه قائلاً:

يَا مَرْجَ كُحْلٍ وَمَنْ هَذَا الْمَرْجُ لَهْ مَا كَانَ أَحْوَجَ هَذَا الْمَرْجُ لِلْكَحْلِ
مَا حُمْرَةُ الْأَرْضِ مِنْ طَيْبٍ وَمِنْ كَرَمٍ فَلَا تُكُنْ طَمَعًا فِي رِزْقِهَا الْعَجَلِ
فَإِنَّ مِنْ شَأْنِهَا إِخْلَافُ آمِلِهِ فَمَا تَفَارِقُهَا كَيْفِيَّةُ الْحَجَلِ¹

يرى الشاعر أنّ احمرار وجه المرأة قد يكون بسبب الخجل لا الحياء وكذلك هو الأمر للمرج الذي لا تدل حمرة تربته على خصوبتها بل على أنّها ليست مهياًة للغرس ، لذلك لا ينبغي عليه أن يتوقع منه خيرا وبخاصة أنّ الشاعر مرج الكحل كان مدعاة للتطير عند معارفه، وتشبي هذه الأبيات بدراية ناظمها بالزراعة.

د-دعم الفلاحة: اعتنى الفلاحون بالأراضي؛ وسخر الحكام المهندسين لتشييد قنوات نقل المياه العذبة، وربطها بمختلف المدن والبيوت منذ عهد الخليفة الأول بحسب ما يرويه ابن صاحب الصلاة إذ يقول: «أقام بمحلاته المؤدّية على عين غبولة ، والفعلة والمهندسون معه، فأجروا لها الماء من عين غبولة المذكورة في سرب تحت الأرض حتى إلى قصبه المهديّة المذكورة ، ودام اشتغال الأمر بذلك شهورا وهو مُقيم بعسكره ، حتى وصل الماء المذكور إليها، فصنع له سقاية لشرب الناس والخيل وسقي الأرض حوالها، فصارت فيها البحائر والجنانّات المغروسات»² فلم تقتصر أوامر الحضرة العليّة بإيصال المياه إلى القصبه بل أوصلوها كذلك إلى بساتينهم ومزارعهم؛ فارتوى منها الخلق جميعا، ومن المظاهر الدالة أيضا على عناية الحكام بتوفير المياه تشييدهم للصهاريج بُغية تجميع المياه فيها للحفاظ عليها.³

¹ الذيل والتكملة ، ابن عبدالمك المراكشي، السفر 6،ص:115.

² - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص: 358.

³ - ينظر المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة،ص:359-360 .

هـ - تشجيع التجارة: اعتنى أبو يعقوب بدعم التجارة الداخلية فقرر إلزام التجار الأجانب بتقديم العُشْرِ من المال فقط مقابل السماح لهم بالبيع في بلاده ملغياً بذلك الضرائب التي كانت مفروضة عليهم من قبل؛ وذلك وفق المرسوم الذي أصدره إلى عمّاله في أرجاء الدولة؛ حيث يقول: «فَرَعَبْنَا جَمِيعُنَا إِلَى فَضْلِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - لِيُنْفِذَ أَمْرَهُ الْعَلِيِّ بِتَسْرِيحِهِمْ بِجَمْلِهِمْ إِلَى أَوْطَانِهِمْ، إِذْ هُمْ وَسَوَاهِمُ مِنْ مَنْ¹ شَتَلَهُمْ هَذَا الْأَمْرَ الْمَلْتَزِمَ، وَالْعَهْدَ النَّافِذَ الْمَحْكَمَ، مُؤْمِنِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْمُوَحِّدِينَ لَا نَائِبَةَ تَنَوُّجُهُمْ، وَلَا ضَرِيَّةَ تُلْزِمُهُمْ سِوَى الْعُشْرِ الْمَعْتَادِ أَخْذَهُ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ بِعِزَّتِهِ يَجْعَلُنَا مِمَّنْ وَفَى بِعَهْدِهِ، وَحَافِظَ عَلَيَّ عَقْدِهِ»² كان لإعفاء التجار من القبالة دوراً في نشاط التجارة وازدهارها؛ فقد اقتصر التجار الأجانب على تقديم العُشْرِ للخرينة بدلاً من الضرائب التي كانت تُؤخذ منهم سابقاً ، في مقابل الجواز إلى الدولة وهو ما انعكس إيجاباً على عائدات الدولة، حيث ازدهرت التجارة، وكثرت المداخيل.

و- تنظيم التعاملات التجارية: حدّدت السّلطة الدّول التي يُسمح لسفنها التجاريّة الحطّ في مَراسيها، وأبلغت عمّالها في مختلف الأقاليم الساحليّة بهذا القرار ، حسبما جاء في إحدى رسائلهم: «وَأَذِنَ لَهُمْ - أَعْلَى اللَّهِ إِذْنَهُ وَوَصَلَ إِعْنَامَهُ وَمَنَّهُ - فِي الْوُصُولِ إِلَى بِلَادِ الْمُوَحِّدِينَ أَعَزَّهُمُ اللَّهُ لِلتَّجَارَةِ فِيهَا وَالتَّجَهُّزِ مِنْهَا، وَقَصَّرَهُمْ عَلَى أَرْبَعَةِ بِلَادٍ مِنْ جَمَلَتِهَا وَهِيَ سِبْتَةُ وَوَهْرَانُ وَبِجَايَةُ وَتُونِسُ - حَمَاهَا اللَّهُ - وَلَمْ يُيْحَ لَهُمُ التَّنْزُولُ بغيرها ولا الاحتلال بسواها إلا لضرورة من صعوبة البحر تُلجئهم إلى الإرساء»³ فقد سمح القرار لأربع مدن من عدوة المغرب بالمبادلات الخارجية، ويعود ذلك لعجز هذه المدن عن توفير ما يكفيها من بعض السلع بنفسها فلجأت إلى ابتاعها من دُولٍ خارجيّة، أو قد يرجع السبب في ذلك لحيازتها على منتجات فاضة عن حاجتها، فصدّرتها إلى مدن أخرى.

ومّا يمكن ملاحظته على المظهر الاقتصادي على عهد الموحدين:

¹ - هكذا وردت ، والأصح: مَن.

² - رسائل موحديّة ، أحمد عزّاوي، ص: 164.

³ - رسائل موحديّة ، أحمد عزّاوي ، ص: 174.

- كثرة الأموال في خزينة الدولة بفضل تعدد وارداتها وتنوعها.
- الاهتمام بالصناعة سواء كانت خفيفة أم ثقيلة، عبر صناعة السفن والأرجاء .
- نشاط التجارة الداخلية والخارجية، وتنظيم هذه الأخيرة للحفاظ على مصالح المشتغلين فيها.
- دعم الفلاحة عن طريق استصلاح الأراضي وغرس البساتين، وانتهاج سياسة التشجير القائم على انتقاء أجود الفصائل.

رابعاً: المظهر الاجتماعي: لقد حصر ابن خلدون مفهوم الحضارة في شقها الاجتماعي وعدد مظاهرها¹، وسنحاول التطرق إلى بعض مظاهرها في مايلي:

1- كثرة المهن والحرف اليدوية: ومن المهن التي شهدت إقبالا على الاشتغال فيها مهنة

الحداد ودليل ذلك قول ابن مسلمة واصفا كير حدادا:

وَمَنْصَرِّدٍ فِيهِ الرِّيحُ سَوَاكِينُ فَإِذَا تَحَرَّكَ آذَنْتِ بِهُبُوبِ
يَطْوِي عَلَى زَفْرَاتِهِ كَشْحًا لَهُ عِنْدَ التَّحَرُّكِ هَيْئَةَ الْمَكْرُوبِ
وَالْأَبْنُسُ الْفَخْمُ إِنْ عَرَّضْتَهُ أَهْدَى لَهُ مَا شِئْتَ مِنْ تَذْهِيبِ
صَدْرُ الْمَجِبِّ تَحَالُ مِنْهُ مَعْمَالًا وَمَتَى تَعَطَّلَهُ فَخَصْرُ حَيْبِ²

يُصَوِّرُ الشَّاعِرُ صَدَى الرِّيحِ عِنْدَ مَرُورِهَا دَاخِلَ الْكَيْرِ، كَمَا يَصِفُ طَرِيقَةَ نَفْخِ الْحَدَّادِ الَّتِي تَكُونُ بَعْمَقٍ فَتُوحِي لِمَنْ يَرَاهُ بِأَنَّ كَرِيْبًا أَلَمَ بِهِ وَهُوَ يَجَاوِلُ التَّنْفِيسَ عَنْهُ، فَإِذَا قَرَّبَتْ مِنْ نَارِهِ مَعْدِنًا اسْتَحَالَ لَوْنُهُ ذَهَبِيًّا بِلَهْيِبِهَا.

2- موقفهم من أهل الذمة: تعامل الخلفاء بحيطه مع هذه الفئة من المجتمع نظرا للصراعات

التي كانت تعيشها مع الدول النصرانية المتاخمة لها، وقد أسهب المراكشي في الحديث عنها، ولا سيما

¹ - ينظر المقدمة ، ابن خلدون، ص:338.

² - المقتضب من تحفة القادِم، ابن الأَبَار، ص75.

إبان حكم المنصور الموحدي؛ حيث قال: «ولم تتعد ذمة عندنا لليهودي أو نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة إنما اليهود عندنا يُظهرون الإسلام ويُصلون في المساجد ويُقرؤون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسُنَّتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحوي بيوتهم»¹ فقرار الموحدين كان حازماً حِيال هذه الفئة؛ حيث منعوها من مُمارسة شعائرها في الأماكن المخصّصة لها، وضَيّقوا عليهم الخناق فدفعوهم إلى اعتماد "التقيّة" خوفاً على حياتهم وممتلكاتهم من السّلطة خصوصاً على عهد المنصور الموحدي.

وهذا القرار الذي أصدره أبو يوسف وإن كان يبدو مخالفاً لتعاليم الدين الإسلامي السّمح الذي يدعو إلى ضرورة احترام باقي الأديان²، إلاّ أنّه كان له ما يبرره فقد صدر عن رجلٍ عُرف بتديّنه وذكائه³، ولعلّ تفسير ذلك هو ما جاء في تتمّة كلامه حيث قال: «وإنّما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الرّيّ وتمييزه إيّاهم بهم شكّه في إسلامهم وكان يقول لو صحّ عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صحّ عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبّيت ذراريهم وجعلت أموالهم فينا للمسلمين»⁴ فالخليفة المنصور كان مُرتاباً في شأن هذه الفئة بين اعتبارها مسلمة تتمتع بكافة حقوقها أو مشركة بالله مخيرة بين أداء واجباتها اتّجاه بيت المال أو القتل والسّبي، وقد يكون سبب إقدامه على هذا الأمر خوفه من غدر اليهود، وبخاصّة أنّ طابع الدولة ديني؛ يهدف إلى جمع الناس تحت راية التّوحيد وفق المفهوم الذي وضعه المهدي ابن تومرت.

¹ - المعجب، المراكشي، ص: 223.

² - وذلك وفق قوله تعالى على لسان نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم): $M < = > ? @ L$ ، سورة الكافرون، الآية: 6.

³ - ينظر الأنيس المطرب، ابن أبي زرع، ص: 142. وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 7، ص: 03-04.

⁴ المعجب، المراكشي، ص: 223.

والمتتبع لأمثالهم قد يجد تفسيراً لما أقدم عليه أبو يوسف المنصور حيث وردَ في بعضها قولهم: «إِذَا رَيْتَ الْيَهُودَ يَذَمُّ السَّلْعَ اذْرُ أَنْ يَشْرِيَهُ»¹، فقد كان لليهود سمعة سيئة في مجتمعهم بسبب مخالفة أفعالهم لما يضمرون في نفوسهم لذلك لا أمانَ لهم، ووجب التزام الحيطة في التعامل معهم.

3- صون حقوق المرأة: حرص الخلفاء على رعاية كرامة النساء وحماية حقوقهن ولا سيما

الجواري منهن؛ فقد أمر عبد المؤمن عمّاله بالسهر على متابعة سوق النخاسة وجعلها تسير وفق ضوابط حدّدها في رسالة الفصول للحفاظ على كرامتهن؛ حيث قال: «وإنه أعلمنا بأن من يرضى من تلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه، ولا يبالي أحسن الفعلة فعله أم قبيحة، يتتاع المرأة، يبيعها دون استبراء، ويعبث في ذلك بكلّ إقدام على الله تعالى واجترأ (...). فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يتتاع شيئاً منهنّ أو يبيع حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ لئلاّ يذهب الحقّ في ذلك ويضيع»² فقد نصّب عبد المؤمن الولاة أولياء للسبايا اللواتي أصبحنّ سلعةً تباع وتشتري دون رقيب، ولتحقيق ذلك، فإنّه وضع شروطاً في الأشخاص المكلفين بهذه المهمة؛ فلم يأذن للنخاسين ببيع الجواري دون موافقة الأمين وإعلامه عن أصلهنّ وكيفية حصولهم عليهنّ³.

4- الزواج: اشترط في المرأة الجمال، واختلقت معاييرها بين العدوتين؛ فقد فضّل الأندلسيون

المرأة الرشيقة الشقراء، فيما فضّل المغاربة المرأة الممتلئة لقولهم: «الشَّحْمُ زِينٌ، وَمَنْ فَقَدُو حَزِينَ»⁴، وبعد اختيار العروس يشرع أهل العريس في السؤال عن أهلها؛ فقد قالوا: «مَنْ لَا يَخْتَارُ لَا يَفْقَدُ عَارًا»⁵ وفي ذلك إلحاحٌ على ضرورة التأكّد من طيبِ أصلها وحُسنِ سيرتها، ثم يتقدّمون لخطبتها، وقد سجّل أدبهم ظاهرة غلاء المهور في العدوتين حيث نصح أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف الأولياء بعدم المبالغة في ذلك بقوله:

¹ - أمثال العوام ، الجزالي، ج1، ص: 215.

² - نظم الجمان ، ابن القطان ، ص: 196-197.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 197.

⁴ - أمثال العوام، الرّجالي، ج2، ص: 34.

⁵ - أمثال العوام، الرّجالي، ص: 330، 281.

والمَهْرَ مَهْرَ العُرْسِ لَا تُعْلَهُ
فَإِنَّهُ مَهْمَا غَلَا مَهْرَمَهُ
مَنْ دَمَهُ صَانَ لِجِرِّ التُّقَى
لَمْ يَخْشَ مِنْ لَوْمٍ وَلَا مَنَدَمَهُ¹

لقد أثقلت كثرة النفقات كاهل العرسان الذين احتاروا بين دفع المهور، وتجهيز البيوت، وتغطية المصاريف المتبقية للزفاف، وهو أمر مناف لتعاليم الإسلام التي حَضَّتْ على الاكتفاء بالمهور اليسيرة لما فيها من بركة، وقد تكون تلك المبالغة انعكاسا لثقافة المجتمع الذي تتباهى نساؤه بَعْلَاءَ مُهُورَهْنَ، وفق ما ذكرته أمثالهم التي كانت شديدة الصلّة بواقعهم².

وكانت النساء يرفضن أن يكنّ ضارارا وفق ما يفهم من قولهم: «مَشِيَةَ للحُفْرَ، وَلَا لُبَيْتَ مَرَا أُخْرَا»³ فقد اعتبرت المرأة ارتباطها من رجل متزوج إهانة لها، وانتقاصا من كرامتها، وبخاصة أنها كانت مُعتدّة بنفسها، وكثيرة التباهي أمام قريباتها.

-زينة النساء: اعتنت المرأة الموحديّة بمظهرها الخارجي، فاقتنت كل ما أتيح لها من وسائل الزينة؛ ومن أهمها الحلّيّ والجواهر لإبراز جمالها؛ ومن بينها "السّوار" المستخدم لتزيين المعصم، وقد وصفه أبو الرّبيع الموحّد في شعره بقوله:

لَمْ يَجِدْ عَيْنَايَ عَنْهُ مَصْرِفًا
أَرْقَمُ أَبْصَرْتُهُ مُنْعِطًا
وَعَدَا يُلِيْعُ بَعْضَ بَعْضِهِ
وَيَعُضُّ الْجِسْمَ مِنْهُ أَسْفَا
فَإِذَا جَالَ فَلَا بَأْسَ بِهِ
وَخَذَارٍ مِنْهُ مَهْمَا وَقَفَا⁴

لقد أبحر هذا السّوار الشاعر، وشبّهه بالتّعبان الذي يحيط بالغصن أو الشيء، ثم انتقل ليصف منظره على يد صاحبتّه؛ فشبهه شدّة إحكامه على ذراعها بِعَصَّةِ التّعبان عندما ينقضّ على الفريسة، وموضع التّشابه بينهما يكمن في لسعه للجسم، وشدّة إحكامه عليه.

¹ - المطرب ، ابن دحية، ص: 238.

² - ينظر أمثال العوام، الزجالي، ج2، ص: 339.

³ - المرجع نفسه، ص: 350.

⁴ - ديوان أبي الرّبيع سليمان الموحّد، أبو الرّبيع سليمان الموحّد، ص: 124.

وكانت المرأة تقف أمام المرأة لتأمل نفسها، وهامو ابن الأبار يلتقط صورة لإحدهن قائلاً:

تَنَاولَتْ الْمَرْأَةَ وَهِيَ صَقِيلَةٌ تَأْمَلُ وَجْهَهَا دُونَهُ ذَلِكَ الصَّقْلُ
فَلَمَّا تَنَاهَتْ أَوْدَعَتْهَا غِشَاءَهَا وَقَدْ حَدَّثَ الْقُرْطَانُ وَاسْتَمَعَ الْحِجْلُ
فَشَبَّهْتُهَا بِدُرٍّ عَالٍ خُسُوفُهُ فَأَظْلَمَ مِنْهُ مَا أَنْارَ لَهُ قَبْلُ¹

أعجب ابن الأبار بهذه المرأة التي وقفت بكل خيالتها أمام المرأة تستعرض جمالها، وما زادها حسناً الجواهر التي تزيّنت بها؛ من أقراط، وخلائل، ثم أسدلت الحجاب على وجهها الصبوح وخرجت من منزلها، وقد شبّها بالبدر المنير الذي يعلوه الخسوف فيحجب نوره.

ويبدو أنّ حالة الترف التي بلغت المرأة الموحدية المسلمة دفعت النساء المسيحيات من دُول الجوار إلى التأثر بها؛ مثل نساء صقلية اللواتي تشبهن في مظهرهنّ بها وفق ما يرويه ابن جبير؛ حيث يقول: « وزيّ النساء في هذه المدينة زيّ نساء المسلمين: فصيححات الألسن ملتحفات منتقبات (...) وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التخلي والتخصّب والتعطر² » لقد اقتدت نساء صقلية بالموحديّات في مظهرهن الخارجي؛ حيث لم يجدن حرجاً في الظهور به لتأدية شعائرهن الدينية، وهذه الصورة التي رسمها ابن جبير لتلك النساء المسيحيات هي في الحقيقة صورة المرأة الموحديّة المسلمة التي تحرص على الخروج في أبهى حلّة سواء في حياتها اليوميّة أم في مختلف المناسبات، ويُفهم من هذا القول أنّ الخضاب، والعمود، والتخلي كانت من مستلزمات الزينة لدى النساء الموحديّات.

5 - تنوع اللهجات:

تعدّ اللغة وسيلة اتصال بين الفرد بالمجتمع كما تعبر عن خلجاته وأفكاره، وتنوّعت لهجة الموحدين بين الغربيّة (البربرية) والأجنبيّة³ فضلاً عن اللغة المحلية التي لا زالت ألفاظها متداولة في

¹ - ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 265.

² - رحلة ابن جبير، ابن جبير، ص: 307.

³ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، الهامش 5، ص: 134.

الوقت الحاضر، والمتصفح لكتبهم يجد تراكيب كثيرة باللهجات المغاربية العامية ؛ وهو ما يتضح جليا من كتب الأمثال نحو "أمثال العوام في الأندلس للزجالي" ومن بين ذلك قولهم: «خُرَافَةُ الْقَطِّ لَا يُقُولُ شَيْءٌ وَلَا يَسْكُتُ»، و«خَلٌّ لِلصُّلْحِ مَكَانٌ»، «خَيْرِي وَخَيْرِي»¹، وهي كلها ألفاظ عامية تم توظيفها في أمثالهم التي تميّت بكثرتها لتؤكد أنّ أفرادها من الذين يحبون الاستفادة من تجارب الغير وهي سمة حضارية.

وشهدت اللهجات تنوعا، واستعانوا بها كثيرا في مؤلفاتهم؛ ومن ذلك قول البيدق: «ودخل معهم الدار وسدّها عليهم وأعطاهم الفيسان باش يحفروا فخلّاهم حتّى اشتعلوا بالحفر فردّ يده على سيف العدر فقتلهم به»² فالعبارة تتحدّث عن غدر رجل بأشخاص بعدما أعطاهم الأمان وكلمة الفيسان جمع "فاس" وهو الفأس ومن سنن المغاربة حذف الهمزة إذا توسّطت الكلمات مثل: الباس ، والكاس، والرّاس³، أمّا كلمة "باش" فتتوب عن "كَي" أداة التعليل، ومن الكلمات التي وقفنا عليها أيضا في مؤلفاتهم :

- الزّرب: « وكان النّصارى دمرهم الله قد صنعوا حفيرا خارج ريبض مدينتهم استعجلوا حفره في يومين، وصنعوا عليه زّربا من الخشب أضافوا إليه أبواب ديارهم وبيوتهم»⁴ وبذلك يكون "الزّرب" حاجزا أو جدارا من أشجار أو غيرها يحمي النّصارى من عدوّهم أو تهديد من نوع آخر.

- العلامات: يقول ابن صاحب الصلاة: « ولم يكن لهم بعد هذه الهزيمة رأس يخرجون معه ولا قام له غلام بعد ذلك أبدا»⁵ جمع "الغلام" وهو ما يقابله في الفصحى "العَلَم".

- اللّهو¹: والمقصود به الموسيقى والغناء.

¹ - أمثال العوام في الأندلس ، الزجالي، ج 2 ، ص:202،205،200

² - أخبار المهدي بن تومرت ، البيدق، ص:66

³ - نفع الطيب ، المقرئ ، ج1، ص : 470.

⁴ - الملّ بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 405،406

⁵ - المصدر نفسه، ص: 403، 432، 439 .

- البُحيرة: هي لفظة يعبر بها عن المكان الذي تكثر فيه الجنّات والمياه فضلا عن المنازل وهو قريب من المزرعة جمعه "البَحَائِر" ².

- الكُوشة: «والخبّاز يضمن عن عمّاله ووزّانه وعجّانه وفزّانه والجلّاس لبيع خبزة بِكُوشة عمّله» ³ ويقصد بالكوشة "الفرن" الذي يُطهى فيه الخبز.

- مَزَاوِرُهُم: كلمة بربرية جمع "مَزَوَار" وهو شَخْص يُنُوب عن أشياخ الموحّدين ⁴.

- القَشُّ ⁵: والمراد بها الثياب والملابس.

- مُنْتَيْمِي ⁶: هي السَّقَايف جمع "سَقِيْفَة"، وهي كلمة بربرية تطلق على البهُو المغطّى والمخصّص لجلوس الخليفة.

ومن الكلمات الأجنبية المتداولة على عهدهم؛ لفظ المرْكَطَال: وأصله اللاتيني (mercatellum) وهو المكان الذي تباع فيه الثياب المستعملة ⁷، فضلا عن استخدام أسماء الأشهر الأعجمية مثل: شهر مارس ⁸، و(مايه) الأعجمي ⁹ إلى غير ذلك من الكلمات العامية الكثيرة التي لم يجدوا حرجًا في توظيفها.

6- أخلاقهم: قدّس الموحدون الأخلاق ومن مظاهر ذلك:

¹ - أخبار المهدي بن تومرت ، البيدق ، ص: 24.

² - المنّ بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 358.

³ - في آداب الحسبة ، السقطي ، ص: 10.

⁴ - المنّ بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص : 408.

⁵ - أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 66-67.

⁶ - المنّ بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 333.

⁷ - المصدر نفسه، الهامش: 7، ص: 36.

⁸ - المنّ بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 394.

⁹ - المنّ بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 399.

- تجمل الخلفاء بالخصال الحميدة: حرص الأمراء على أن يكونوا قُدوةً صالحةً لشعبهم، فعكفوا على تربية أبنائهم تربيةً صالحةً مثلما فعل عبد المؤمن وفق شهادة أدلى بها صاحب نظم الجمان، حيث قال: «كان رضي الله عنه يطعمهم الطعام الحسن، ويلبسهم مثل ما يلبس من الثياب، وكان يدرّبهم في الدين ويشتدّ عليهم فيه ويعلمهم الأذان، ويأخذهم بالرّمي والعموم وركوب الخيل والتدرب عليها مع الموحدين أعزهم الله تعالى، وكان يأخذهم بحضور الصلوات الخمس في الجماعات، وبقراءة الحزب من القرآن إثر الصلاة، ويحضرون مع المؤذنين في الأسحار على ارتقاب الفجر والمنازل، وربّما يمشون على أقدامهم»¹ لقد كانت تنشئة السادة تقوم على أسس دينية؛ حيث حرص هذا الخليفة على تحفيظهم القرآن الكريم وتلاوة حزبه منه سيرا على نهج مهديهم، والتفقه في الدين، وملازمة المساجد، مع ضرورة المبادرة إليها فجرًا ليكونوا أول المصلين، وأضافوا إلى تربيتهم الدينية السليمة تعليمهم فنون القتال عبر إقحامهم مع طلبة الموحدين في مدرسته الخاصة أين تعلموا السباحة والرماية وركوب الخيل، وهي من الرياضات التي حضّ عليها ديننا الحنيف، كما لم يخل عليهم بأجود أصناف الطعام، والثياب الفخمة، بما يتناسب مع أئمة ملكهم.

ولفتت أخلاق وطباع بعض الأشخاص كتابهم، واتّسعت لتصبح تعميمًا على مدنٍ بأكملها مثل مدينة قرطبة التي استوقف سكّانها العديد من شخصيات الموحدين؛ ومن أشهرهم الإدريسي حيث يقول فيهم: «وفضائل أهل قرطبة أشهر من أن تذكر ومناقبها أظهر من أن تستر وإليهم الانتهاء في السناء والبهاء بل هم أعلام البلاد وأعيان العباد ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الرّي في الملابس والمراكب وعلوّ الهمة في المجالس والمراتب وجميل التخصيص في المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق وحميد الطرائق»² وهذا ليس غريبًا على كرسي الخلافة المرورية التي ظلّت أنوارها متألّفة على مدار قرون؛ فقد أنجبت العلماء الذين أصابوا في كلّ ميدان بسهم، وكانت عاصمة الخلافة، ولذلك كان التحضر سمة أهلها.

¹ - نظم الجمان، ابن القطان، ص: 170.

² - نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 574-575.

وقدّم السيّد أبو يحيى - شقيق السلطان يعقوب المنصور - رأياً مغايراً؛ فقد قيل له عند انفصاله عن ولايتها، كيف وجدت أهل قرطبة؟ فقال: «مثل الجمل، إن خففت عنه الحملَ صاح، وإن أثقلته صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سُخطهم فنتجنّبهُ؟ وما سلّط الله عليه حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرّاً من عامّة العراق، وإنّ العزل عنها لِمَا قاسيته من أهلها عندي ولاية، وإني إن كُلفت العود إليها لقائل: لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين»¹ وهذا الانطباع الذي يعبر عن مزاجية أهل قرطبة وصعوبة إرضائهم، قد ترسّخ في ذهن أبي يحيى نتيجة الممارسة اليومية التي جعلته ناقماً عليهم.

غير أنّ ابن سعيد قدّم رأياً محايداً عن القرطبيين عندما قال فيهم: «ولأهلها رياسة ووقار، لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم إلا أنّ عامتها أكثر الناس فضولاً، وأشدّهم تشغيلاً، ويُضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمرهم»² وقد حمل النصّ رأي ابن سعيد في أهل قرطبة وحاول فيه التّفاذ إلى نفوس؛ فكثرت العلماء من أبنائها، وكان لذلكاتهم وإحاطتهم بكلّ فنّ وعلم دور في جعلهم متفطّنين لتلاعب الحكّام لذلك ظلّوا منتقدين لسياساتهم، ومضيقين عليهم بغيّة تقويم اعوجاجهم حتّى يحقّقوا لأنفسهم رفاهة أكبر وهو الأمر الذي أسخط عليهم هؤلاء الحكّام.

-الكرم: حرص الخلفاء على الأمر بالمعروف والتّهي عن المنكر³، وعدّد الأدب خصال الموحّدين التي صدرت عن أعلى الهيآت من وفاء، وكرم⁴؛ حيث يصف لنا ابن صاحب الصلاة كثرة بذلهم لمن كانوا بالأمس ألدّ الخصوم حيث يقول: «وانفصل هلال بن مردنيش في ذلك الوقت مع أصحابه، وقد كان التّظر له في موضع لنزوله ونزول أصحابه، فأنزل في قصر محمد بن عباد أمير

¹ - نفع الطيب، المقرّي، ص: 155.

² - المصدر نفسه، ص: 154-155.

³ - ينظر نظم الجمان، ابن القطان، ص: 187، ينظر رسائل موحّدية، أحمد عزّاوي، ص: 348-349.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 176-177.

إشبيلية الرفيع الشأن ، العظيم البنيان، وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به ، وقد أعدت لهم الفُرش والبسط والمطاعم والمكارم والمشارب والمئارب¹، وأُفهموا، أُنهم الأقارب والأصحاب²، ورَحَّبت بهم المملكة الخلافية ، والدولة الإمامية³ فقد تجاوز الموحّدون عن (ابن مردنيش) بعدما دخل في دعوتهم وعَدّوه واحدا منهم، وحفظوا له المكانة التي كان عليها أنفا فتخيروا له أفضل الأماكن وهيأوا له أسباب الراحة رُفقة أصحابه .

ولعلّ الخليفة المنصور كان أكثر الخلفاء سخاء؛ إذ شمل عطاؤه العامّة، فيما يرويه المراكشي حيث يقول: « وكان كثير الصدقة بلغني أنّه تصدّق قبل خروجه إلى هذه الغزوة أعني التي كانت فيها الوقعة الكبرى بأربعين ألف دينار خرج منها للعامّة نحو من نصفها والباقي في القرابة»⁴، وكان هذا الأمير يجمع الأيتام كلّ عام؛ فيأمر بختامهم ويتصدّق عليهم بالثياب والطعام، وكان لهذا الكرم أثر عظيم في نفوس العامّة؛ فقد زاد من حبّهم لهذا الحاكم، لأنّه أسهم في رفع العُبن عنهم.

ويَتصل بالبذل والعطاء أيضا تقديم الهدايا التي تراوحت بين القيّمة والزّهيدة وكان تقييمها وفق الأثر الذي أحدثته في نفس متلقّيها؛ وكان صيد الأسود وترويضها ، ثم تقديمها لعبد المؤمن في مراكش هواية ابن حماد صاحب بجاية ، كما أهدها مرّة زُرُورًا أو ما يُعرف على أيامنا بالبيّغاء وحدث مرّة أن أمر عبد المؤمن الأسد بالجلوس فجلس ، وأعجب الحضور بذلك ، وقال أبو علي شعرا في ذلك:

أَنَسَ الشُّبْلُ ابْتِهَاجًا بِالْأَسَدِ وَرَأَى شِيبَهُ أَيْبُهُ فَقَصَدَ
وَدَعَا الطَّائِرُ بِالنَّصْرِ لَكُمْ فَقَضَى حَقَّكُمْ لَمَّا وَفَدَ
أَنْطَقَ الخَالِقُ مَخْلُوقَاتِهِ بِالشَّاهِدَةِ فَكُلُّ قَدْ شَهَدَ

¹ - هكذا ذكرت وفي الأصل "المئارب" . جمع المأربة ينظر لسان العرب ، ابن منظور ، ج1، مادة (أرب)، ص:208.

² - هكذا ذكرت والأصل "أصحابي جمع صاحب ويجمع أيضا على أصحاب وصحبان ، ينظر المرجع نفسه مادة (صحب) ، ص:519.

³ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص: 381..

⁴ - المعجب، المراكشي، ص:183.

أَنَّكَ الْقَاسِمُ بِالْأَمْرِ لَهُ بَعْدَمَا طَالَ عَلَى النَّاسِ الْأَمْدُ¹
 يصوّر الشاعر ردّة فعل الأسد عندما أمره عبد المؤمن بالجلوس فاستجاب لأمره، ثم ينتقل لوصف طائر الرزور الذي أنس هو الآخر بالخليفة فنطق يحيى الخليفة ، وهذه أمانة على صلاح حاله ،فهو من تولى بعد الله (عزّ وجلّ) رعاية خلقه، فبلغ في ذلك الغاية .

- **حرصهم على النظافة:** اعتنى الموحدون بهذه الصفة على اعتبار أنّها شرط في تأدية العبادات، وأشار ابن سعيد إلى عناية الأندلسيين بها في قوله: «وأهل الأندلس أشدّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائما وبيتاع صابونا ويغسل به ثيابه»² لقد كان الاهتمام بالنظافة مظهرا لافتا عند الأندلسيين، فقد آثروها على قوت يومهم، ففضلوا شراء ما ينظفون به ثيابهم أو مساكنهم بدل إشباع بطونهم، وهي سمة حضارية مميّزة شاركهم فيها أهل العدو أيضا؛ ومن مظاهر ذلك إقبالهم على الحمامات، وطول مكوثهم فيها؛ حيث ورد في بعض أمثالهم قولهم: «مشتت للحمام غابت سبع أيام»³ وهو مثل يضرب في المرأة التي تطيل المكوث فيه، ومن أشهر مستلزمات النظافة الصابون الذي ألغز فيه أبو الربيع الموحدي قائلا:

وَاسْمِرٍ يَصْرِفُ السُّودَانَ بِيضًا وَيَخْشَى الشَّمْسَ أَنْ تَعْدُو عَلَيْهِ
 لَهُ فِي صُنْعِهِ سِرٌّ مَلِيحٌ وَكُلَّ النَّاسِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ⁴
 يتّضح من البيتين أنّ لون الصابون الشائع عندهم كان أسمر اللون، ويبدو أنّه كان قابلا للدوبان وهو ما نستشفّه من قوله: "ويخشى الشمس أن تعدو عليه"، وركّز البيتان على أهميّة الصابون في الحياة اليومية للفرد الموحدي الذي لم يكن بإمكانه الاستغناء عنه لقيّمته الجماليّة والنفعيّة.

¹ - الحلل الموسية، ابن الخطيب، ص:113

² - نفع الطيب، المقرئ، ج1 ص:223

³ - أمثال العوام، الرجالي، ج1، ص:338

⁴ - ديوان ، أبي الربيع الموحدي، أبو الربيع الموحدي، ص133، الغصون اليانعة ، ابن سعيد، ج1، ص:133

- **حبهم للسياحة:** عُرف الموحّدون بحبهم للسياحة في مختلف البلدان وذلك لدواعٍ عديدة؛ ويشهد على ذلك رحلاتهم العديدة، حيث يقول أبي عمران بن المناصف (-627هـ):

سَافِرٌ بِإِلَّا زَادَ وَلَا مَزَكَبٌ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى الْمَغْرِبِ
وَحُضٌّ بِحَارًا مَا عَزَبَتْ أَمْوَالُهَا يَوْمًا عَلَى مَزَكَبِ
وَجِبَ قَفَارًا لَيْسَ تَعْيَا بِهَا فِي جَبَلٍ وَعَرٍ وَلَا سَبَسَبِ
فَهَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي سَهَلَتْ سُبُلَ الْمَسَافَاتِ فَلَمْ تَصْعُبْ¹

فالشاعر يدعو إلى السفر في أرجاء المعمورة من مشرق الأرض إلى مغربها دون الاكتراث بتوفير الزاد، ولا يجب أن تثني الرحالة سهولها وجبالها، وبحارها، وصحاريها، فالكون غدا صغيرا مادامت هناك سبل ووسائل للترحال، والتنقل، والتمتع بالحياة.

7- وسائل الترفيه والتسلية: أقبل الموحّدون على مختلف وسائل الترفيه وبمختلف أصنافها،

ومن بينها:

- **رحلات الصيد:** وصفت الأشعار رحلات القنص والصيد التي كانت تقام في الرياض والمنتزهات؛ ومن ذلك وصف أبي عميرة لإحداها على نهر جزيرة شقر حيث قال:

خُذْ فِي حَدِيثِكَ إِنَّ وَصْفَكَ يُطْرِبُ عَنْ يَوْمِ أَنْسِ ذِكْرُهُ مُسْتَعْدَبُ
وَاطْلُبْ إِعَادَتَهُ مِنَ الْأَيَّامِ إِنْ سَمَحَتْ بِذَا وَأَظُنُّ ذَلِكَ يَصْعُبُ²

فأبو عميرة يعبر عن حنينه لتلك الرحلة المميّزة، ويتمنى تكرار ذلك اليوم الرائع الذي بقيت ذكره عالقة في ذهنه، على الرغم من علمه بصعوبة تحقيق ذلك، ثمّ ينتقل في أبيات أخرى لوصف جانب من رحلته فيقول:

وَقَدْ امْتَطَيْتَنَا زَوْرَقًا فِيهِ فُقُلٌ صُبِحَ تَمَشَّى فِي سَنَاةٍ عَيْهَبِ

¹ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر 8 ، ص: 383

² - المقتضب من تحفة القادِم ، ابن الأبار ، ص 147

فَتَرَاهُ طَوْرًا طَائِرًا وَلَرِيمًا
وَلَنَا شِبَاكَ قَدْ يَجَاذِبُ غَرْهًا
نَسِجَتْ كَنَسِجِ الدَّرْعِ لَكِنَّ الرَّدَى
تُبْدِي لَنَا سَمَكًا أَرَادَتْ أَنْ يُرَى

ويبدو بأنّ الزورق كان يبحر ببطء ويصارع الأمواج كأنه صُبح قد طلع وسط الضباب؛ فكلاهما يبدو ثم يختفي، ويورد الشاعر بأنّ هذا الزورق قد اعتمد في زيادة سرعته على شراعه الذي يفردّه ويجمعه كيفما يقتضي الحال تماما كما يفعل الطائر عندما يخلق في السماء، ويرسم في البيت الثالث صورة أصدقائه، وقد انقسموا بين فريقين: أحدهما يرمي شباك الصيد في البحر، وآخر يخرج أخرى مملوءة بالسمك الوفير .

-الألغاز: كان للألغاز النصيب الأوفر والمتابع لشعرهم يلاحظ هذه الظاهرة نظرا لما تتطلبه من مجهود ذهني وهو ما كان يتمتعهم ، وقد أفرد أبو الربيع الموحّد قسماً خاصاً بالألغاز في ديوانه يؤكد على كثرتها؛ ومن ذلك قوله في جرسٍ رنانٍ له ثقوب كثيرة:

مَا اسْمُ لِشَيْءٍ وَهُوَ شَخْصٌ نَاطِقٌ
حَسَنُ الفَصَاحَةِ وَهُوَ أَبْكُمْ أَحْرَسُ
وَعْيُونُهُ كَثِيرٌ وَوَاحِدَةٌ لَهُ
إِنْ مُسَّ أَنْ لِعَيرِ ضُرٌّ نَالَهُ
فَإِذَا أَمَرْتَ بَلْفَظِهِ أَحَدًا مَضَى
وَإِذَا قَلْبَتْ وَغَيَّرْتَ حَرَكَاتِهِ

يشبه الشاعر الجرس بشخص ينطق، دون أن يفصح عما يريد، ومع ذلك فهو قادر على إعلام السامع بما يحتاج صياحاً، وبمجرد لمسه، ثم ينتقل إلى وصف شكله، فيقف عند عيونه الكثيرة والمتباينة

¹ - المقتضب من تحفة القادِم ، ابن الأبار ، ص: 148.

² - ديوان أبي الربيع سليمان الموحّد، أبو الربيع الموحّد ، ص: 110.

أماكنها، فإذا قليت لمعرفة ما يوجد في داخله طار الجسم إلى الداخل بغير جناح، وقد يكون في استعانة الشعراء على الألغاز سعي لتسهيل حفظها، ومحاولة استمالة السامع.

- الشطرنج: لقيت هذه اللعبة انتشارا ، وكانت مذمومة عند العوام لأنها مضيعة للوقت لذلك قيل: "أقل للنحسن: أي تمشي؟ قال: لشطرنجيا نمورك"¹ ، فقد اعتبروا الشطرنج نحسا، لأنه عادة ما اقترن بالكسالى، والبطالين، والمتقاعدسين عن العمل لكسب الرزق، وهي عادة خالفة لما عرف عند أفراد هذا المجتمع المتميزين بالنشاط والمقدسين للوقت والعمل، لذلك كانت هذه اللعبة حكرًا على الطبقة المترفة، مثل ابن زهر الحفيد وأبو الحسن ابن عياش اللذين برعا فيها².

- لعبة النرد: كانت من بين الألعاب التي اشتهرت لدى العامة من الناس، ويقول أبو الحكم المغربي واصفا إياها: ³

وَإِنْ وُلِعَتْ كَفُّهُ بِالْفُصُوصِ فَإِنَّ الْعَنِيَّ لَدَيْهِ فَقِيرٌ
تَدِينُ الشُّيُوشُ لَهُ وَالْبُنُوجُ وَمَا لِلْيُكُوكِ لَدَيْهِ ظُهُورٌ

لقد لفتت حركات الشخص الذي يلعب النرد نظر الشاعر؛ فهو ماهرٌ في التلاعب بها بين كفة وأصابعه، وقد تساوت في الوقت نفسه أقدار المتبارين فلا فرق بين غني أو فقير، ويذكر في البيت الثاني أسماء قطع النرد المعروفة لديهم ، وتظهر قيمة القطعة المسماة "اليكوك" والتي تحمل الرقم واحد، حيث تعني الخسارة في المباراة، وهو ما يدل على براعته في هذه اللعبة.

- العجايبي: هو صاحب ألعاب بهلوانية وسحرية متعددة، ويصف أبو عميرة المخزومي أحدهم بقوله: «هذا ولأحدهما وصف يزيد على الأوصاف، وعمل هو المشار إليه في الصحف، تصف له في مداره، وتلقى بمجال إقباله وإدباره، فيأخذها بأصبعين، ويديرها رأي العين، فتري عجا من نصب

¹ - أمثال العوام، الزجاجي، ج2، ص:22.

² - الغصون اليبانة، ابن سعيد، ص:43-44.

³ - الشيوخ: شيش، يشير إلى رقم6، بنوج: بنج يشير إلى رقم 5 ، وبكوك، معناه يك، ويشير إلى الرقم:1. خريدة القصر ، الأصفهاني ،

وإمالة، وإثبات وإزالة، واتساق بعير قد، والتصاق دون ودّ، وربما أكفأها في الهواء، وقد غمرها بالماء، فتحسبه جمد فيها فما يقطر، أو عاد سرايا في عين من ينظر¹ رصد أبو عميرة إحدى الاستعراضات التي قدّمها " العجايبي " وهو رجلٌ يقوم بحركاتٍ عجيبية اعتماداً على وسائل بسيطة تستخدم في الحياة اليومية مثل: الصّحف التي حرّكها ببراعةٍ في جميع الاتجاهات بطريقةٍ أبهرت الحاضرين، فتارة يجعلها تقف مُصطَفَّةً ومحيطةً به، وتارة أخرى يجعلها تتحرّك جيئةً وذهاباً، وما زاد المنظر غرابةً سكبهُ الماء فيها فجمدَ ولم تقطر من قطرة واحدة، وعندما فتّحها على مرأى من الناس، لم يجدوا للماء أثراً، وقد راوح في لعبته بين الاستعانة بالصّحف، والنار، والقُلل، وغيرها مصاحبةً لعزفِ الموسيقى؛ حيث يقول: «وهذا خلال نعمات حسان سماعيّة، وهيئات إيقاعيّة، يقف عليها الحسن والإحسان، وتهشّ لها العيون والآذان»² لقد زادت الإيقاعات التي أصدرتها الفرقة المصاحبة للعجايبي العرضَ تشويقاً، وتأثيراً في الحضور، ومثل هذه الحركات معروفةٌ في وقتنا الحاضر؛ حيث تُقدّم في استعراض (السّيرك)، ويمضي النّص في وصفِ حركات العجايبي التي أذهلت المخزومي.

8- طلب العلم وتقديسه: أقبل الموحّدون على تدارس العلوم، وقرّبوا أهلها، فبزغ لهم في كلّ

ميدان نجم، وحسبهم في ذلك قولُ أحدهم في ضرورة التّعلّم:

العِلْمُ شَيْءٌ حَسَنٌ	فَكُنْ لَكَ دَا طَلِبٌ
وَابْدَأْهُ بِالنَّحْوِ وَخُذْ	مِنْ بَعْدِهِ فِي الْأَدَبِ
فَإِنْ أَرَدْتَ بَعْدَ	دَا جَاهًّا وَفَضْلَ مَكْسَبِ
فَأَفْهَمِ أَوْلَ مَالِكِ	وَاحْفَظْ فُرُوعَ الْمَذْهَبِ ³

¹ - أمثال العوام ، الزجاجي، ج1، ص:252-253

² - المرجع نفسه، ص:253

³ - الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي، السفر2 ، ص:106-107

رَكَزَت الأبيات على العلوم التَّقْلِيَّةِ أساساً للتَّعلم على اعتبار أنَّها تُغذِّي الجانب الرُّوحي، وتُقوِّي الانتماء للدين الإسلامي الحنيف، وقد جعل الشَّاعر غاية العلم هو حِفْظ الفروع، ولا سيَّما المذهب المالكي، وفي ذلك تأكيد على عناية المغاربة بمذهبه، عن طريق الإقبال على تدارسه.

- الصراع بين الفقهاء والفلاسفة: وكان من أثر تشجيع الخلفاء لحرية الفكر ظهور طائفة من الفلاسفة أدلت بِدَلُوها في مختلف القضايا، وهو الأمر الذي رآه الفقهاء تعدياً على الدين الإسلامي، وقد امتحن بعض الفلاسفة فاستغلَّ الشعراء وبخاصة الفقهاء منهم الفرصة ليعبروا فيها عن بغضهم للفلسفة، ومن ذلك ما أنشأه ابن جبير شامتا في أبي الوليد بن رشد:

الـدِّينُ يَشُكُّو بِلِيَّةِ	مِـنْ فِرْقَةٍ مُنْطِقِيَّةِ
لَا يَشُكُّونَ صَـلَاةَ	إِلَّا لِمَعْنَى التَّقِيَّةِ
وَلَا تَرَى الشُّرْعَ إِلَّا	سِيَّاسَةً مَدَنِيَّةً ¹

ووصف الشعراء الفلاسفة بالزناديق لمروقهم عن الدين، وتكررت الصِّحاحات المنددة بتخلفهم عن الصَّلاة²، وبأنهم مخالفين لشريعة الحق، وما يظهرونه من حسن دين هو من باب التَّقِيَّةِ لا غير، ولذلك فإنَّ هذه الفئة تشكّل خطراً على الدين الإسلامي، وتماسك المجتمع الموحد.

- العناية بالكتب: ومن مظاهر اهتمامهم بالعلم أيضاً عنايتهم بالكتب المصنَّفة في مختلف العلوم، ولم يقتصر الأمر على فترات السُّلم فحسب، بل كانت من أهم أولوياتهم حتى عند الفتن والحروب، و ممَّا يُؤكِّد ذلك ما رواه ابن عبد الملك المراكشي حيث يقول: «وكان من غريب الاتِّفاقات أنَّ العادل لما استقرَّ بمراكش بعد قتل عمِّه أبي محمد وانتهاج أكثر كتب الخزانة التي كانت بالقصر في جملة ما نهب من ذخائره وخرج من قبل الخليفة العادل إلى أبي الحسن علي بن أبي جامع أمر بنظر علي في ترتيب ما بقي من كتب الخزانة وتمييز كاملها من ناقصها، وكان مراد العادل بعلي وزيره المذكور فأخبر الوزير أبا الحسن ابن القطان بذلك وأشعره بما فيه من التَّأتيس له والإيذان بالإقبال

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي السفر 5، ص: 611

² - ينظر زاد المسافر، التجيبي، ص: 69.

عليه¹، وهذا الحرص من الخليفة العادل يعكس ذهنية الحاكم العالم الذي سارع للحفاظ على ما رآه عزيزا ونفيسا من الحراب، يقينا منه بأهمية هذه الذخائر في تخليد مآثر الأمم، وقد تخير لترتيب شؤون خزائنه ابن القطان الذي كان مقربا من البلاط، فضلا عن كونه أديبا مقتدرا.

- **الاحتراف بالعلماء:** ولم يقتصر الخلفاء على تبجيل العلماء في حياتهم بل تعداه إلى موتهم حيث تأثروا لفقدانهم وفجعوا، فوصفوا الأجواء المهيبة المرافقة لجنائزهم بنفس مكلومة، وتعدى ذلك إلى وصف القبور وبعض الأمارات التي ظهرت أثناء الدفن مستدلين بها على صلاح مؤتاهم، وتحفيز المتلقي على الاستعداد للآخرة، ومن قبيل ذلك ما روي عن لحظة لحد الحافظ أبي القاسم بن الطيلسان (-607هـ) رواية عن ابن أخيه أبي القاسم حيث قال: «وأنا والله شاهدت داخل قبره عندما لحدته نُورا لم أر قبله ولا بعده مثله»² وهذا الأمر شائع بينهم³، وكانوا يزورون قبور الأولياء والعلماء تبركا بهم، ومن أشهرهم قبر محمد بن تومرت حيث يصفه الإدريسي بقوله: «وقبره في هذا الوقت بيت جعله المصامدة حجًا يقصدون إليه من جميع بلادهم وعليه بناء متقن كالقبة العالية لكنّها غير مزخرفة ولا مُزَيَّنة»⁴ فقد ظلّ الموحدون أوفياء لابن تومرت، و معترفين بفضله عليهم، فاتجهوا إليه بدعاويهم وأمنياتهم، وشبهه الإدريسي زيارة قبره بالحجّ لبيئ كثيرة الوافدين، ومكانته في نفوس أتباعه، وعلى الرغم من هذه المنزلة إلا أنّهم اكتفوا ببناء قبة على قبره بعيدة عن الزخرفة والفخامة، وهي شبيهة بالقباب التي تغطّي أضرحة الأولياء الصالحين في الوقت الحالي.

وكان العلماء يستحقون تلك المرتبة التي حظوا بها لدى الخلفاء والعامّة، لأنّهم كانوا على درجة كبيرة من الوقار والفتنة، فقد روي عن ابن محشرة كاتب سرّ الدولة أنّه كان يلزم آدبا عند دخوله على مجلس الخليفة، حيث كان يتأني ويتربص ويأتيه على أفضل حال من إصلاح هيئة

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص: 174-175.

² - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 2، ص: 59.

³ - ينظر عنوان الدراية، الغبريني، ص: 44، 51، 128.

⁴ - نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 230.

واستكمال زينة حتى وُشي به عنده فاستدعاه ليعاتبه قائلاً: «يا فقيه كثيراً ما تبطيء علينا إذا استدعيناك فما هذا منك؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، أنت إمام المسلمين، وما أحسب أن محلّ الإمامة إلا كمحلّ الصلاة، فكما آتى إلى الصلاة آتى إلى هذا المحل، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعُونَ وَأَتُوهَا [وَأَنْتُمْ] تَمَشُونَ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتُّوا"¹ فاستحسن ذلك منه أمير المؤمنين وزاد في تقريبه، وتركه على حاله، وحاجة الخليفة كانت إليه أكثر من حاجته² وهذه القصّة تؤكّد أنّ منصب الكاتب كان حكراً على النخبة من العلماء الذين جمّعوا بين تقدّمهم في ميدان الأدب، وتحلّهم بالأخلاق الفاضلة، ناهيك عن ذكائهم، وحسن حديثهم، ولم تكن صلاتهم بالخلفاء محصورة في مواعيد رسميّة، بل تعدّتها إلى مرافقتهم في مجالسهم التي كانوا يعقدونها، نظراً لدورهم الخطير في كتم أسرار الدولة، وتوجيه الحكام لذلك قال الغبريني بأنّ حاجة الخليفة إلى ابن محشرة كانت أكبر.

وكان لهؤلاء العلماء دور اجتماعي خطير يتمثّل في إصلاح أخلاق الناس وتقويمها فدعوا لضرورة التّأسي بالخلال الرّفيعة كقول أبو عمران الميرتلي وقد مزجه بالحكمة :

صُنِ النَّفْسَ وَاحْمِلْهَا عَلَى مَا يَزِينُهَا تَعِشْ سَالِمًا وَالْقَوْلُ مِنْكَ جَمِيلٌ
وَإِنْ قَلَّ رِزْقُ الْيَوْمِ فَاصْبِرْ إِلَى غَدٍ عَسَى نَائِبَاتُ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزُولُ³

فالأخلاق هي معيار الحكم على المرء، وهي في الآن ذاته مصدر اعتزازه وطمأنينته في هذه الحياة، أمّا المال فإنّه أمر كمالى لأنّه مقتزّن بالمداراة والتّصنّع مما يصعب التّعرف على مكانة المرء الحقيقيّة في نفوس الناس .

¹ - شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محمد بن صالح العثيمين (غفر الله له ولوالديه وللمسلمين)، طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، دار الوطن للنشر، المملكة العربية السعودية، دط،، 1426هـ، ج 5 ، رقم الحديث :704، ص:93.

² - عنوان الدراية ، الغبريني، ص:54

³ - نفع الطيب ، ج4، ص:317، وقد نسبت الأبيات للإمام علي بن أبي طالب ، ينظر ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي

الله عنه وكرّم وجهه، طبعة مصحّحة ومنقّحة على التّرواية الصّحيحة ، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم ، دط ، دت، ص:157

- البراعة في علم الفلك: ومن مظاهر براعة العلماء في علم الفلك ترتيبيهم لمنازل

الكواكب، ويقول الشاعر أبو جعفر بن جهور (-627هـ)¹ في المنازل وقت الفجر:

رَأَيْتُ أَنْاسًا قَرَّبُوا بِالْمَنَازِلِ قَوَانِينَ عِلْمِ الْفَجْرِ لِلْمُنْتَأَوِلِ
فَقَالُوا مَقَالًا لَا حَقِيقَةً عِنْدَهُ فَلَمْ يَحُلْ مِنْهُ السَّابِقُونَ بِطَائِلِ²

ويوجه الشاعر أبياته إلى المدلسين الذين يزعمون أن التنجيم والفلك هما علم واحد، وفي الحقيقة شتان بينهما؛ فالأول مرتبط بالسحر والكهانة الذي يؤدي الناس، والآخر يراقب الأجرام ويفيد الغير ويحفظ المصالح، وهو علم صعب المنال، ثم يكشف عن طول باعه في هذا المضمار الذي تلقفه من لدن رجال عارفين بأسراره وعالمين بخباياه، ثم يشرع الشاعر في تقسيم السنة إلى شهور فيقول:

إِذَا مَرَّ يَوْمٍ مِنْ أَعْشَتْ تَوَسَّطَ ال رَشَاءُ نُورِ الْفَجْرِ ضَائِي الْعَلَائِلِ
وَإِنْ مَرَّ عَشْرٍ مِنْهُ فَالَنْطُحُ مِثْلُهُ عَلَى رَأْيِهِ مَسْتَمْسِكُ غَيْرُ زَائِلِ
وَفِي اثْنَيْنِ مَرَّ بَعَجِ عِشْرِينَ لَمْ يَزَلْ لَدَيْهِ الْبُطَيْنُ حَافِظًا لِلْوَسَائِلِ
وَمَهْمَا مَضَتْ مِنْهُ ثَلَاثُونَ لَيْلَةً تَرَى لِلتَّرِيَّا تَهْضَمُ الْمُتَشَاوِلِ³

لقد اشتملت هذه القصيدة البديعة التي نظمها الشاعر في معرفة المتوسط من المنازل على ترتيب شهور السنة بحسب ما يعتري شهورها من ظواهر فلكية، وقد اتخذ الفجر وقتا لتقسيمها، ورأى أن بدايتها تكون من شهر أوت (أغشت) الذي يقسمه إلى أيام باختلاف طبيعة الطقس، ثم يتدرج في ترتيب الشهور إلى أن يصل لشهر يوليو، وهذا التقسيم للشهور هو الذي كان معتمدا لدى المغاربة، ولا يزال معروفا عند بعضهم إلى يومنا.

¹ - هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن اصبح بن جهور، كان نزه النفس، وقورا ونبيلا، ذا حظ وافر من العلم والأدب، ومعرفة بالعروض والتعديل، ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 209.

² - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 209.

³ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 210.

- الأسطرلاب: وهو من الوسائل التي استعان بها علماء الفلك في المراصد لمراقبة النجوم ومواقعها، وقد عبّر أبو الربيع عن إعجابه بالأسطرلاب في قوله:

لله أيُّ جَوَادٍ ظَلَّ مُرْتَبِطًا مِنْ تَحْتِ مَرَبِطِهِ السَّبْعُ المَحِيطَاتُ
 إِنَّ حَلَّ يَوْمًا تَرَى الأَفْلَاكَ سَاقِطَةً اللهُ حَسْبِي بَلِ السَّبْعُ المَحْوَطَاتُ¹
 ينعت الشاعر المنظار بالجود لأنه يمكن صاحبه من رؤية الكواكب بلا مقابل، ومن فرط تقرب عدسته للنجوم يخيل للناظر أنها ساقطة في الأرض وليست منثورة في الفضاء، وقد يبلغ هذا العلم المشتغلين به لمعرفة ما تضمه السموات المحيطة بالأرض، ويعتبر استخدام الأسطرلاب ملمحاً للتطور العلمي، وشاهداً على عناية الموحدين بعلم الفلك.

- أدوات الكتابة: نتج عن الاهتمام بالعلم والإقبال الكبير عليه استعانة بأدواته المختلفة،

ووصفوا الأدوات التي تعين في طلبه، ومن بينها القلم الذي يقول الأمير أبو الربيع مُلغزاً فيه:

وَمُذْنِفٍ مَا أَقَامَتْ فِيهِ عِلَّتُهُ إِلَّا فَوَاقًا قَلَمٌ يَبْرَأُ وَلَا انْتَعَشَا
 لَمْ يَشْتَمِلْ غَيْرَ ثَوْبِ السَّقْمِ بَعْدَ الحَلَى مِمَّا يُشَاكِلُهُ فِيهَا نَمًا وَانْتَشَى
 يَظَلُّ مَيْتًا طَرِيحًا لَا حِرَاكَ بِهِ حَتَّى إِذَا ارْتَشَفَ الثَّغْرُ الكَرِيهَ مَشَى²

يشبه الشاعر القلم بالإنسان الذي ينتكس بعد البرء، ويبدو أن علته ملازمة له فلا تفارقه، وهو في سقم وضعف حتى صارت ثوبا له، وهو جامد في مكانه إلى أن يأتي محبوبه ليلثمه فيصح بعد المرض، وفي ذلك استعارة مكنية حذف المشبه به الإنسان ورمز إليه بأحد لوازمه وهو المرض.

- المعرفة بالأنساب: قد كان للموحدين عناية بعلم الأنساب على غرار أسلافهم من العرب

في المشرق والمغرب، وهما أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الغساني يفصل في مصطلحات تدخل

¹ - ديوان أبي الربيع سليمان الموحّد ، أبو الربيع الموحّد، ص: 128

² - ديوان أبي الربيع الموحّد ، أبو الربيع الموحّد، ص: 119

في علم الأنساب، وتردّدت في التراث العربي كثيراً، وقد أردف كل مصطلح بمثال قصد الإيضاح والتبسيط:

الشَّعْبُ ثُمَّ قَبِيلَةٌ وَعَمَارَةٌ بَطْنٌ وَفَخْدٌ وَالْفَصِيلَةُ تَابِعَةٌ
فَالشَّعْبُ يَجْمَعُ لِلْقَبَائِلِ كُلِّهِ ثُمَّ الْقَبِيلَةُ لِلْعَمَارَةِ جَامِعَةٌ
وَالْبَطْنُ يَجْمَعُهُ الْعَمَائِرُ فاعْلَمَنَّ وَالْفَخْدُ يَجْمَعُ لِلْفَصَائِلِ هَاكِهِمَا
وَالْفَخْدُ يَجْمَعُ لِلْفَصَائِلِ هَاكِهِمَا جَاءَتْ عَلَيَّ نَسَقٌ لَهَا مَتَابِعَةٌ¹

انتقل الشاعر في تقسيمه للقبائل من العام إلى الخاص؛ فالشعب مصطلح جامع لكل القبائل يضم العديد من القبائل، التي تنضوي تحتها العمارة وهي بدورها تضم الفخذ، وهو أكبر من الفصيلة.

9 - وصف مجالس الأُنس: كانت المجالس التي عقدها الشعراء إحدى مظاهر الترف الذي

عرفته هذه الفترة؛ إذ يصف الأمير أبو الربيع إحداها حيث يقول:

لِللَّهِ يَوْمٌ قَدْ تَكَامَلَ أَنْسُهُ أَبَدَتْ لَنَا وَجْهَ الْمَسْرَةِ كَأْسُهُ
خَلَعَتْ كَمَايَمَهَا الْأَزْهَارُ بِهَجَةٍ وَتَلَفَّعَتْ بِالدُّجْنِ فِيهِ شَمْسُهُ
نَلْنَا بِهِ كُلَّ الْمَنَى فَلَذَاكَ مَا قَدْ ظَلَّ يَحْسُدُهُ عَلَيْهِ أَمْسُهُ
فَاعْكِفْ عَلَيَّ شُرْبِ الْمِدَامِ فَيَوْمَنَا جِسْمٌ وَلَكِنَّ الْمِدَامَ نَفْسُهُ²

ويبدو الشاعر في أتم السعادة بعد اجتماعه بأصدقائه، وما زاد المجلس بهاءً هو إشراق اليوم وصفاء جوّه، الذي انعكس بنوره على الأزهار الجميلة والخضرة التي تلف المكان، فقد كان يوماً مميّزاً، ولم يكن الشاعر ليكون بهذا السرور لولا حضور الخمر في هذا المجلس.

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 6، ص: 348.

² - ديوان أبي الربيع الموحّد، أبو الربيع الموحّد، ص 139

- **المغنون:** حارب الخلفاء الموسيقى فكسروا آلاتها وأغلقوا محلاتها، ولكن هذا لم يمنع من عودتها بعد ذبوع الترف، وحضر ابن القطاع إحدى سهرات الأُنس فأعجبه صوت المغني، وأنشأ قائلاً:

إِذَا غَنَى يُرِيْلُ الْهَمَّ عَنَّا وَيَأْتِينَا بِمَا نَهْوَاهُ مِنْهُ
لَهُ وَتَرُّ يُطَالِبُ كُلَّ هَمٍّ بِوَتْرٍ فَالْهُمُّومُ تَفَرُّ عَنْهُ¹

لقد بعث صوت هذا المطرب ارتياحا في النفس، وأزال الهموم عن الحضور بصوته المطرب الشجي، وما زاد من إعجاب الشاعر به براعته في العزف على آلة العود، ويبدو أن المغنين كانوا يلبون أذواق المستمعين، حيث امتثل لطلباتهم وأجاد في تأديتها.

- **آلة العود:** لفتت أدوات العزف انتباه الشعراء، وكانت العود من أعتق الآلات المستخدمة وأهمها في العزف، وقد نظم الصدي (-651هـ) شعرا فيها حيث يقول:

قَامَتْ لِعُودٍ تُنَاغِيهِ فَيَتْبَعُهَا فَاَنْظُرْ بَدَائِعَ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّجَرُ
عَنَّتْ عَلَى غُضَنِهِ الْأَطْيَازُ مُفْصِحَةً رَطْبًا لَمَّا عَسَى غَنَى بِهِ الْبَشَرُ
فَلَا يَزَالُ عَلَيْهِ أَوْ بِهِ طَرَبٌ يُهَيِّجُهُ الْأَعْجَمَانُ: الطَّيْرُ وَالْوَتْرُ²

يشير الشاعر إلى مصدر آلة العود التي تصنع من خشب الأشجار فبعدما تغنت العصافير على أغصانها وهي خضراء مورقة، تغنى بها الإنسان بعد استحالتها حطبًا ليستعمل في صناعتها، ووجه الشبه بينهما يكمن في الطرب الذي تبعته إلى البشر سواء من الطيور أم من أوتار العود.

- **منع الطرب وما يتصل به:** كانت الأغاني مما يتنافى مع مبادئ الدعوة المهدوية، ومن مظاهر محاربة ابن تومرت للغناء اقتحام المحلات التي تباع فيها آلات العزف وإتلافها حسب ما يرويه البيدق حيث يقول: «وسرنا معه وما علمنا أين يتوجه حتى وصلنا زقاق (بزقالة)، فقال لنا تفرقوا على

¹ - حريدة القصر، الأصفهاني، ج1، ص:59.

² - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 8، ص520.

الحوانيت ، وكانت الحوانيت مملوءة دفوفا وقرقر ومزامير وعيدانا وروطا وأرببة وكيثارات¹ وجميع اللّهُو، فقال لنا المعصوم اكسروا ما وجدتم من اللّهُو²، وهو يدلّ على تعدّد هذه الآلات وكثرتها ويبدو أن هذه المحلات قد اجتمعت في زقاق مخصّص لها وهو ما سهّل عليه هو وأتباعه إتلافها.

وسار أتباعه على خطاه ومنهم عبد المؤمن حيث قال عنه: «أمر أصحاب الشرطة بقطع الملّهيّن والقبض على من شهر من المغنين، فثقف من وجد منهم بكل مكان، فغيّروا هيآتهم وتفرّقوا على الأوطان، وبارت سوق القيان، وزهد كلّ الرّهد في هذا الشّان»³ لقد لاحق عبد المؤمن المغنّين واعتبرهم ملهّاة عن المصالح، ومفسدّة لاحتراهم في فنون الغواية ، لذلك أمر بتوقيفهم، وطاردهم ممّا أدّى إلى ترك أوطانهم فبارت هذه السّوق واتّجه أهلها إلى الاشتغال في غيرها.

ومستت هذه الإجراءات مختلف طبقات المجتمع ومن بينهم الفيلسوف ابن طفيل الذي كان شغوفاً بالموسيقى حسب ما يرويّه المراكشي: «كان يأخذ الجامكية من عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتّاب الشعراء والرّماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو نفق عليهم علم الموسيقا لنفقتهم عليهم»⁴ وهذا يوحي بعدالة الموحّدين ومساواتهم بين مختلف الطبقات في تنفيذ الأحكام رغبة منهم في أن يكون قادتهم أسوة صالحة لباقي فئات المجتمع.

- **منع الخمر:** جاء منعها التزاماً بتعاليم الدين الإسلامي الذي عدّها أمّ المنكرات، ومن مظاهر محاربتها مخاطبة عبد المؤمن لِوُلّاتِهِ في مختلف المدن؛ حيث قال: «والله الله في البحث على الخمرور! وتقدّم النّظر في أمرها، فهو من أهمّ الأمور فإنّها مفتاح الشّرور ورأس الكبائر والفجور»⁵ ، ولم يكتف بمحاربتها بل أراق دمّ شاربها، فتحايل البعض على هذا الإجراء من خلال بعض

¹ - أرببة : جمع الربابة ، أمّا الكيثارات : فالمقصود بها القيثارّة.

² - أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص: 23-24.

³ - البيان المغرب ، ابن عذارى، ص275، - ينظر مجموع رسائل موحّدية، بروفنصال ، ص: 133-134.

⁴ - المعجب ، المراكشي، ص: 172.

⁵ - نظم الجمان ، ابن القطان ، ص: 197 .

الإضافات التي زادوها للرب¹، فأصبح مُسكراً، وهو ما دفع عبد المؤمن إلى إبراق رسالة يأمر فيها بمنع بيعه².

10- الإيمان بالماورائيات: وكان لها وزن كبير على نفسياتهم سواء كانت رؤيا أو أحلام، حيث اعتبروها رسائل وأمارات ربّانية؛ فصدّقوا محتواها، ومن قبيل ذلك ما يرويهِ المراكشي عن أستاذه "أبي جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميري" عن ابنه عصام الذي رأى الخليفة المنصور متقلدا سيفين فعبرهما بأنه نصره على (الأدْفَنش)³ ويندرج تحت ذلك التّفاؤل⁴ والتّطير؛ فقد استتبع عبد المؤمن قصيدة ألقيت عليه في مهرجان الفتح بسبب مطلعها، حسب ما رواه عنه ابن صاحب الصلاة حيث قال: «لما أنشد المنشد هذه القصيدة بين يدي أمير المؤمنين أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر: "عَمَّضَ عَيْنَ الشَّمْسِ" وقال على مسمع من الناس "عَمَّضْ! عَمَّضْ!" مُنْكَرًا لها لأنّه يجب الفأل الحسن»⁵ والتّطير أمر محرّم في الدين الإسلامي⁶.

11 - اللباس :

¹ - الرّب: شراب يتناوله سكان الجبال ليعينهم على تحمل برودة الطقس ، ينظر المصدر نفسه أحمد عزراوي، الهامش 58، ص: 67.
² - رسالة في منع الرّب ومحاربه خطها ابن محشرة إلى الطلبة والأشباخ والأعيان بإشبيلية بأمر من الخليفة يعقوب بن يوسف ، ينظر المصدر نفسه، ص: 164-167، للتفصيل ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان ، المجلد 7، ص: 11 .

³ - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 219-220.

⁴ - ينظر المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 201.

⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ - قال تعالى على لسان أصحاب القرية: **لِيَكْجِيهف e** [Z YXW U T S M] \] ^ _ ` a b c

حسب ما فسّره الطبري⁶ ، وجاء عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: الطَّيْرُ شِرْكٌ، الطَّيْرُ شِرْكٌ، الطَّيْرُ شِرْكٌ ثلاثاً. أخرجه أحمد وأبو داود، وابن حبان في صحيحه.، ويذهب في تعريف الطيرة حسب ما ذهب إليه ابن الأثير هي التشاؤم بالشيء وهي مصدر تطير طيرة وتخيّر خيرة، كما التطير... تعرفه... حكمه... كفارته... والبديل المشروع، 30 محرم 1435هـ الموافق ل 03 مارس 2013، مركز الفتوى " إسلام

ويب"، fatwa.islamweb.net

تعددت أشكاله بتنوع المناطق؛ فقد كان أهل مكناس يلبسون الأكسية ويريطون العمائم¹، ولفتت ملابس أهل السوس انتباه الإدريسي فوصفها بقوله: «وزيهم لباس الأكسية من الصوف التفافا وعلى رؤوسهم الشعور الكثيرة ولهم بها اهتمام وحفظ ذلك أنهم يصبغونها في كل جمعة بالحناء ويغسلونها في كل جمعة مرتين بريق البيض والطين الأندلسي ويحتزمون في أوساطهم بمآزر صوف ويسمونها سفاس، ولا يمشي الرجل منهم أبدا إلا وفي يده رمان قصار العصي طوال الأسنان رقاها وينتخبونها من أطيب الحديد»² ولم يكتف الإدريسي بذكر لباسهم بل تعداه إلى وصف مظهرهم الخارجي الذي يشير إلى حرصهم على الظهور بصورة جميلة؛ حيث أولوا عناية بالشعر عبر تفردهم في طريقة ترجيله، إلى جانب حرصهم على إعطاء انطباع بالقوة؛ وهو ما يظهر من حمل الأسلحة التي استعملوها في القتال والصيد .

ووصف ابن سعيد زي الأندلسيين بقوله: «ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأسيخ المعظمون، وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا وخضرا؛ والصنفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعمم البتة»³ فقد كان الطيلسان، هو الزي الرسمي لأغلب الأندلسيين، ويبدو أنه كان مرفقا بغطاء ميز به الوجهاء وبياض الحضرة، فيما اختصوا اليهود بثياب صُنفر تمييزاً لهم عن المسلمين، كما ألزموهم بترك العمائم، لأنها كانت رمزا للعزة والشرف، وكانت ثيابهم تصنع عادة من الصوف المصبوغ باللون الأحمر أو الأخضر وهذا قد يدل على شدة البرد في جزيرتهم.

وكانت العمائم من مميزات أهل المغرب ولا سيما في الأندلس حيث يواصل ابن سعيد قوله: «وأما زي أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا

¹ - ينظر نزهة المشتاق، الإدريسي، ص: 246.

² - المرجع نفسه، ص: 227-228.

³ - نفح الطيب، المقرئ، ج1، ص: 223.

تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك»¹ لقد كان أهل شرق الأندلس متآخمين لملوك النصارى لذلك قرّروا ترك العمائم، اقتداء بهم، فيما التزم بقيّة الأندلسيين بارتدائها، ولاسيما وجهائهم لما أضفته عليهم من وقار وهيبة.

وقد خصّص الموحدون ثيابا للخلفاء ولم يميزوا لغيرهم ارتداءها مهما كانت شدة صلته بهم، وفق ما يرويه ابن عذارى حيث يقول: «ولما كان النزول برباط تازا التفت المنصور إلى ساقته فرأى أكثر القرابة من الأخوة والعمومة قد اصطقّوا واختصّوا بلباس الغفائر الزبيبيّة والبرانيس المسكيّة، فأنكر عليهم ملازمة ذلك الزي، لكونه من زيّ الخليفة في حالتي ركوبه وجلوسه في كل موطن، فجمعهم الشيخ أبو زيد (...) ودكّرهم بعوائد الأمر والمحافظة على آدابه وأن يتجنبوا أفعال الخليفة المختصّة به، فلم يعد أحد منهم بعد ذلك للباس تلك الألوان، المختصّة بالسلطان»² وهذا يوحى بخضوع الموحدين لنظام وآداب في أمورهم اليوميّة مهما كانت هيّنة، وقد أشار القول إلى أسماء الثياب الفاخرة على عهدهم مثل البرانيس؛ فقد وجدنا (يللتن) يخلع برنوسه ليجلس المهدي عليه³، ولا يزال هذا الزي يحتفظ بتلك الخصوصية على أيامنا على الأقلّ في بلادنا.

وبالغ بعض الميسورين في اتّخاذ الثياب باهظة الثمن، كثيرة الزينة على عهد المنصور فقرّر الحدّ من هذه الظاهرة يقول ابن عذارى في هذا الصدد: «أمر بقطع لباس الغالي من الحرير، والاجتزاء منه بالرّسم الرقيق الصّغير، ومنع النّساء من الطّرز الحفيل، وأمر بالاكتفاء منه بالسّاذج القليل، وأمر بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والدّيّاج المدهّب، فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقص»⁴ ويُفهم من النصّ أنّ الحرير كان من لباس

¹ - نفع الطيب ، المقرئ ، ص:222

² - البيان المغرب ، ابن عذارى، ص:289.

³ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق، ص:33.

⁴ - أخبار المهدي بن تومرت، البيدق ، ص :275.

الأغنياء، كما يتضح أنّ قرار الاقتصار على الثياب البسيطة شمل النساء أيضا، وهذا يعكس شخصية هذا الأمير الذي عرف بزهده، وورعه، وعدله بين الرعية.

13- تنوع أصناف الطعام :

- **المجبنات:** كان صنع الحلويات من العادات الهامة في الأعياد المختلفة، ونالت المجبنات مكانة مميزة في المناسبات وقد وصفوها كثيرا معربين عن حبهم لها، ومن ذلك قول أحمد بن محمد المعافري:

ثَوْتُ فِي النَّارِ وَهِيَ مِنَ الْجِنَانِ فَجَاءَتْ وَرَدَةً مِثْلَ الدَّهَانِ
مُجَبَّنَةٌ مُجَبَّنَةٌ إِلَيْنَا يُشَجِّعُ ذِكْرَهَا قَلْبَ الْجَبَانِ
لَقَرِطٍ لِدُونِهِ فِيهَا وَلِينٌ تَكَادُ تَذُوبُ مِنْ لَمَسِ الْبَنَانِ
تُنَاوِلُ نَفْسَهَا الْأَفْوَاهُ طَوْعًا وَإِنْ هِيَ لَمْ تَنَاوِلْهَا الْيَدَانِ
لَهَا صَخْبٌ إِذَا قُلَيْتَ وَقَبِي لَهُ صَخْبٌ عَلَيْهَا غَيْرُ وَإِنْ¹

وأكثر ما يشير الإعجاب بالمجبنات لينها فهي تذوب في الفم بسرعة، فأحببتها نفسه ، ثم لم يكن ظاهرها أقل روعة من مذاقها الذي يجيي النفوس ، أما مقادير صنعها فتتمثل في ربع جبن ، ونصف ربع دقيق، بالإضافة إلى ربع الربع من الزيت² ، وترمي العجينة صغيرة الحجم في الزيت ، وإذا به يتضاعف لتكتسب اللون الأرجواني حتى إذا فتحتها وجدتها محشوة بالجبن³ ، ويبدو أنّها كانت تؤكل ساخنة لذلك قيل في المثل: «مُجَبَّنَةُ الظُّهْرِ ، خَرَجَ نَارَهَا وَقَلَّ طَلَابُهَا»⁴ والقصد من هذا القول : أنّ المجبنة قد فترت حرارتها، وفقدت طعمها الذي يستهوي الراغبين فيها لأنّ الجبن الذي أذابته الحرارة أمسى جامدا ، وهو ما يؤثّر على مذاقها حيث تقلّ لذتها.

¹ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 451

² - ينظر في آداب الحسبة، السقطي، ص: 31.

³ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 451

⁴ - أمثال العوام ، الزجاجي، ج 2، ص: 343.

-الرُّبُّ: وهو من أشهر السوائل التي كانت تطبخ على عهد الموحدين؛ حيث رافق الأطعمة المختلفة، وكان الرُّبُّ المصنوع من التمر على شكل سائلٍ خلوٍ المذاق؛ فمنه ما هو مُسكِرٌ مَنَعَتْ الحكومة صنعه، وآخر حلالٌ يُطبخ في الاحتفالات¹، حيث ذكر ابن صاحب الصلاة أنه كان من بين القرى الذي قدّم في المناسبات حيث يقول: «يدخل كل يوم في البحيرة أزيد من ثلاثة آلاف رجل وقد صنّع ما تقدّمت العادة به: نهر من رُبِّ ممزوج بالماء، كل ما أكلت طائفة وقامت مشت إلى موضع الخليفة رضي الله عنه وسلّمت عليه ودعا لها ونحضت إلى ساقية الرُّب تشرب وتطرب»² وفي استخدام القائل لفظة "نهر" للرُّب دليل على كثرة إنتاجه، وهو ما يشير إلى كثرة التمور لأنه يستخرج منها، و المقصود هنا هو ما كان حلالاً فقط والذي قد ضُبطت درجة حلاوته عن طريق مزجه بالماء، وكان يُقدّم في الحفلات الفخمة.

14- كثرة الاحتفالات: تعددت أشكالها، ومن بينها: الولائم التي أقامها الخلفاء للجنود عقب كل نصر، حيث كانت فرصة لاستعراض الذّ وأجود أنواع الطّعام والشّراب المقدّمة للضيوف طيلة أيام مكوثهم، كما كانت مناسبة لتكريمهم فيما يرويه ابن صاحب الصلاة: «صنّع للموحدين الواصلين والعرب ولجميع المقيمين من جميع الأصناف الأتعمة الدارة، والأشربة الحلال المدارة على المسار السارة، مدة خمسة عشر يوماً في نعيم وسرور مُقيم»³ لقد أقيم هذا الحفل خصيصاً لمكافأة الجنود على بسالتهم في معاركهم واقتصر على الطّعام الحلال، وطالت مدّته، ولم يقتصر حضوره على الجنود بل كانت تقدّم دعوات للأعيان في مختلف الأقاليم.

أ- الشّعائبة: كانت العادة أن تقام نزهة وولائم في منتصف شهر شعبان المعظم، ويقدم فيها أصناف الأتعمة والأشربة على هيئة ما يقدم في الختان و المولد النبوي⁴، استعداداً لشهر رمضان

¹ - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 113.

² - المصدر نفسه، ص: 344.

³ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 215.

⁴ - ينظر الأسرة لأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، مريامة لعناني، ص: 147.

الفضيل لذلك قيل "شَعْبَانُ شَبَعَانٌ"¹ ، وفي رواية لابن الأَبَار أَنَّهُ خَرَجَ الشَّاعِرُ أَبُو الطَّاهِرِ لِلتَّنَزُّهِ مَعَ أَصْحَابِهِ وَفِيهِمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ زُرْقُونٍ، فَلَمَّا شَبِعُوا قَالَ أَبُو الطَّاهِرِ لَصَدِيقِهِ أَجِزْ فَارْتَحِلْ قَائِلًا:

حَمَدْتُ لَشَعْبَانَ الْمَبَارَكَ شَبْعَةً تُسَهِّلُ عِنْدِي الْجُوعَ فِي رَمَضَانَ
كَمَا حَمَدَ الصَّبُّ الْمَتِيْمَ زَوْرَةً تَحْمَلُ فِيهَا الْمَجْرَ طُولَ زَمَانٍ²

ويدي الشاعر سعادته باليوم الذي قضاه في التنزه رفقة أصدقائه، وما زاد من جماله الوليمة التي حضرها فأصيب بالتخمة، فارتحل أبو الطاهر قائلاً:

دَعَوْهَا شَعْبَانِيَّةً وَلَوْ أَنَّهُمْ دَعَوْهَا شَبْعَانِيَّةً لَشَفَّانِي³

وقد قرن أبو الطاهر شهر شعبان بالشعب الذي يغنيه عن الأكل طيلة شهر رمضان، بحيث تكثر فيها هذه الولايم احتفالاً بقدوم الشهر الفضيل، ويحرصون فيها على تقديم ما لذ وطاب من أصناف المطبوخات التي سيمتنع عنها المسلمون طيلة شهر كامل.

ب- عيد الفطر : أنشد محمد بن عبد الله الإشبيلي (-543هـ) واصفا المصلين بعد الفراغ من

صلاة العيد، حيث يقول:

إِلَيْكَ إِلَهُ الْخَلْقِ قَامُوا تَعْبُدًا وَذُلُّوا خُضُوعًا يَرْفَعُونَ لَكَ يَدًا
بِإِخْلَاصِ قَلْبٍ وَأَنْتِصَابِ جَوَاحِرِ يَجْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ سُجَّدًا
نَهَارُهُمْ يَلِيلٌ وَلَيْلُهُمْ هُدَى وَدِينُهُمْ رَعَى، وَدُنْيَاهُمْ سَدَى⁴

لقد هال منظرُ المسلمين الشاعر؛ فتحركت نفسه وأنشأت هذه الأبيات التي ترسم صورة صادقة للمصلين عقب تأديتهم لصلاة العيد ، وهم في قمة السعادة بعد إنهاء فريضة الصوم لشهر

¹ - أمثال العوام، الزجالي ، ج2، ص:438.

² - المقتضب من تحفة القادم، ابن الأَبَار، ص: 23

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - الشعر الاجتماعي في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، نضال سالم النوافعة، رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا استكمالاً

لمتطلبات الحصول على طلبة الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، السنة الجامعية 2004 م، ص: 25

كامل ، وكلهم رجاءً في تقبل عباداتهم ، وقد رفعوا أكتفهم في جوّ روحاني يعكس تشبّثهم بتعاليم الدين الإسلامي.

وأرفق الموحّدون هذه المناسبة بصنع أصناف من الحلويات التي كانت تصنع خصيصاً لعيد الفطر وتسمّى: "عصيات العيد"، وقد ذكروها في أمثالهم، حيث قيل: "خِفافٌ ورشاقٌ، بجلِّ عُصَيَّات العيد"¹، وقد ضرب هذا المثل في المرأة الرشيقة التي تمتاز بحقّة حركتها لحقّة وزنها، وكانت هذه تُصنع الحلوى على شكل عصي، ولا تزال هذه الحلوى معروفة في (إسبانيا) إلى يومنا².

ج- عيد الأضحى: لطالما اقترنت هذه السنّة بنحر الأضاحي سيرا على هدي نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإنّ من المناسبات الدينية السّارة التي تجمع الأسر المسلمة، وحرص أرباب الأسر على انتقاء الكباش وهو ما نَبَّيْنَه من قولهم: «وَيَا ذَرَى يَا كَبْشِي ، أَي تَزْعَى وَأَي تَمْشِي؟»³ فقد كانت نوعية الكلا المعتمد في تغذية الأغنام من بين المعايير المعتمدة في الشراء، وذلك ضمناً لجودة اللحوم، وكانت الأسر تنتظر هذه المناسبة بفارغ الصبر حيث قيل: «كَبَاشٌ لُضْحَايَا مَا لَهُمْ بَقَايَا»⁴ فلم تكن الاستفادة مقتصرة على اللحوم فحسب، بل شملت الجلود أيضاً.

د - العنصرة: كان يحتفل به نصارى الأندلس كاحتفالهم بالميلاد، وفيه ولد سيدنا يحيى بن زكريا (عليهما السلام) وفيه حبس الله الشمس عن يوشع (عليه السلام)⁵، ويسمى أيضا "عيد المهرجان" وهو اليوم الرابع والعشرون من (حزيران)⁶، ومع مرور الوقت شاركهم المسلمون في الاحتفال به؛ حيث كانوا يُوقِدُون شعلة من النَّار ويقومون بالقفز فوقها وهو ما يتّضح من قولهم: «الكَبْشُ

¹ - أمثال العوام ، الزجاجي، ج2، ص:207.

² - ينظر المرجع نفسه ، ج1، ص:206.

³ - المرجع نفسه، ج2، ص:238.

⁴ - أمثال العوام ، الزجاجي، ، ص:268.

⁵ - ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج7، ص:227.

⁶ - ينظر الأسرة لأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، مريامة لعناني، ص:149.

المصوّف، مَا يَكْفُرُ الْعَصْرَةَ¹ فقد كان الاحتفال يتم بإيقاد النار والقفز فوقها لأنها أقرب الموجودات إلى الشمس في نظرهم، واحتاج الأمر إلى رشاقة وقوة بدن، وقد شبّهوا الشخص البدين بالكبش كثير الصوف الذي يصعب عليه القفز على النار خوفاً من الاحتراق.

هـ - ينيرو: وسمي أيضا " النّيروز"، احتُفل به في المغرب والأندلس - على السواء - في شهر يناير استبشارا بالعام الجديد. وكانوا يطبخون حلوى "المدائن" على شكل عرائس، وتزينها بالفواكه مثل الجوز، والقسطل، والتّمر، والبلوط²؛ ويُعطى لكل شخص مقدار مُعيّن، وتختلف أّيّام الاحتفال به على قدر الاستطاعة³؛ حيث يقول أبو عمران موسى الطرياني في وصف المدائن:

مَدِينَةَ مُصَـوَّرَةٍ	تَحَارُّ فِيهَا السَّحَرَةُ
لَمْ تَبْنِهَا إِلَّا يَدَا	عَذْرَاءٍ أَوْ حَخَّ دَرَّةٍ
بَدَتِ عَرُوسًا مُجْتَلَى	مِنْ دَرَمِكٍ مُرْعَفَةٍ
وَمَالَهَا مَفَاتِحُ	إِلَّا الْبَنَانُ الْعَشْرَةَ ⁴

ويتضح من الأبيات أنّ حلوى المدائن استقت اسمها من شكلها الذي يشبه المدن المزينة⁵؛ وهي حلوى مخصّصة للصّغار مصنوعة من الدقيق الملتئوت بالزيت المحكم العجن بالماء، وتتخذ أشكال أرغفة مفاريد أو مثنيات أو مثلثات، ويُتفنّن في نقشها، وتُركّب بالبيض المصبوغ باللون الأحمر أو الأخضر أو الأصفر ثم تُغمس في الزعفران وتطبخ في الفرن⁶، وقد تفنّنوا في صنعها وتزينها بما أتيح لهم من أشكال الزينة المعروفة، وقد شبّه جمال منظرها بالعروس المتألّقة التي تخطف الأنظار واعتمدت في صنّعها على السُّكر بكميّات كبيرة، لذلك فقد كانت غالية الثمن، وكانت تناول هذه الحلوى يتم بأصابع اليدين لشدة طراوتها، وقد ذكرت أمثالهم هذه الحلوى حيث قيل: «مَنْعَ تَرْجُجَ، لِيَنِيَّرَ

¹ - أمثال العوام، الزجاجي، ص: 85.

² - ينظر الأسرة لأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، مريامة لعناني، ص: 148.

³ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 1، ص: 565.

⁴ - الدرمةك: ناعم الزعفران ودقائقه، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج 1، ص: 294.

⁵ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 565.

⁶ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، ص: 565.

يَرْفَعَهَا¹ وهذا يدل على أنهم كانوا يَحْزِنُونَ أصناف الفواكه لتزيين موائدهم في هذه المناسبة، لأنهم كانوا يتباهون بما أعدوه لها، ولا يزال هذا الاحتفال معروفاً لآيامنا هذه.

و- **المهرجانات الشعبية:** وصف ابن صاحب الصلاة الجانب الفلكلوري في ملاقاته أبي يعقوب مع أخيه أبي حفص فيقول: «وَبَجَّأَوَلَّتْ الخيل من فرسان العساكر بالجري واللعب والدفاع بالحملات والكُرَات والطُّبُولُ تُضْرَبُ من ضَحْوَةِ النَّهَارِ إلى آذان الظُّهْرِ من اليوم المذكور حتى حمل الأمير بنفسه في تلك الدُّفُعات سرورا فأظهر من ركوبه و فروسيته أمرا عجباً² وهذا يذكرنا بالمهرجانات الشعبية المقامة على آيامنا في المناطق البدوية؛ حيث يتسابق الفرسان على صهوة الخيول بالطريقة ذاتها التي وصفها ابن صاحب الصلاة.

ز- **احتفالات عسكرية:** أقيمت الاحتفالات عند تمييز الجيوش، أو عند الفراغ من تشييد صرْحٍ عظيم على النحو الذي قام به عبد المؤمن عند الفراغ من تشييد جبل الفتح حسبما يقصُّه المراكشي: « وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العُدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداء ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك إنما كانوا يستأذنون فيؤذَن لهم وكان على بابهم طائفة أكثرهم مجيدون³ فقد تحيَّن بعض الشعراء الفُرصَ للدخول على الخليفة في شتى المناسبات⁴، وتقديم تهانيمهم الممزوجة بالمدح، وهاهو شاعر الخلافة أبو العباس الجراوي يمدح أبا يعقوب ويهنئه بالبيعة:

أَلَا هَكَذَا تُبْنَى الْعُلَا وَالْمَأْتِرِ وَتَسْمُو إِلَى الْأَمْرِ الْكَبِيرِ الْأَكْبَرِ

¹ - مَنْعَاع : مَنْ مَعَهُ ، تَرْجُح ، أُتْرُجِح ، ينظر أمثال العوام ، الزجالي ، ج 2، ص: 327.

² - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 215.

³ - المعجب، المراكشي، ص: 151.

⁴ - نظم أبو الوليد الأفيلاج شعر تهنئة بالعيد للخليفة المأمون مطلعها:

هَذَا اللَّهُ بِأَلَادِ الْعَرَبِ مَا تَتَمَنَّاهُ بِأَلَادِ الشَّرْقِ

الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر 1، ص: 356 ، ينظر نفع الطيب ، المقرئ، ج 4، ص: 177.

نَوْمٌ لِيَبْعَاتِ الرِّضَا مَطْلَعُ الْهُدَى وَحَيْثُ الْهَدَايَا تُعْتَلَى وَالْأَمْرُ¹
 فاستمرار أمر هذه الدولة وسيادتها مرهون على تولية أشخاص أكفاء من طينة هذا الخليفة
 العظيم، الذي ارتضاه الناس إمامًا عليهم لما جُبل عليه من مآثر، وكان دخول الشعراء على الحُكَّام
 يسير وفق ترتيب ينبغي مراعاته، ويتكرّر في مثل هذه المناسبات وهو ما يوضحه لنا ابن صاحب
 الصلاة: « وجلس في اليوم الثاني من عيد الأضحى المذكور عند الشروق في مجلس اليمن من قصره
 بقرطبة مجلس السلام عليه والتّهنة إليه في أبعته الشريفة، المنصورة الفخمة المنيفة. وأدخل الوزير أبو
 العلى إدريس بن أبي اسحاق بن جامع إلى المجلس العالي من تقدّمت عادته بالدخول من أشياخ
 الموحّدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم على عادتهم بحسب منازلهم»² ويُفهم من هذا الكلام أنّ
 الخليفة كان قد خصّص مجلسا للتّهنة، وكانت مهمّة إدخال الضيوف منوطة بالوزير، وكان شرف
 حضور هذه المناسبات مقصورة على فئة بعينها سواء من بياض الحضرة أو الشعراء، وتتعدّى هذه
 التّهاني المناسبات الدّينية لتمسّ الجانب العسكري حيث خصّصت مجالس لاستقبال الوفود المهنئة
 بالانتصارات.³

15 - التّرف المادّي: لقد بلغ الموحّدون من الرّقيّ في العيش والتّرف أن أثروا في الدّول
 المجاورة، فقد حاول (غليام) ملك صقلية تقليد خلفاء الموحّدين في جميع أحوالهم وهو ما سجّله
 الرّحالة ابن جبّير حيث يقول: « وليس في ملوك النّصارى أترف في الملك ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو
 يتشبّه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبعته
 الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين»⁴ وتكفي هذه الشّهادة دليلا على مدى التّرف والتّقدم الذي
 بلغه الموحّدون في حياتهم اليوميّة؛ حيث كانوا أنموذجا للصّلاح فاقتدى بهم حكّام الدّول المجاورة.

¹ - أزهار الرياض ، المقرّي ، ص: 365-366

² - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص: 366-367.

³ - ينظر المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص: 434.

⁴ - رحلة ابن جبّير، ابن جبّير ، ص: 298.

16 - تقرب الخلفاء من الرعية: ومن مظهر هذه العناية زيارة المنصور الموحدى للمرضى حيث يقول المراكشي عن المنصور الموحدى: «وكان في كل يوم جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسل عن أهل بيت أهل بيت، يقول كيف حالكم وكيف القومة عليكم إلى غير ذلك من السؤال ثم يخرج ولم يزل مستمرا على هذا الحال إلى أن مات رحمه الله»¹ وهذا القول يرسم صورة رائعة لأبي يوسف المنصور الذي ضرب مثلا عزا نظيره في التواضع، والتقرب من الرعية، فقد اعتبر المرضى أقرباء له وصلتهم واجبة عليه لذلك اتخذها عادة يكرها كل جمعة.

17- تأثيرهم في الأمم المجاورة: وقد أعجب النصارى في جزيرة صقلية بأخلاق الموحدين فتشبهوا بهم بداية من ملكهم (غليام) الذي أعجب به ابن جبير وصور جانبًا من معاملات الخدم الذين في قصره؛ حيث يقول: «وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه؛ فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم تطوعًا وتأجرًا، ويتصدق تقربًا إلى الله وتزلفًا، ويفتك الأسرى ويربي الأصغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم، ويفعل الخير ما استطاع»² هذا كله يمكن إسقاطه على حكام الموحدين الذين تحلوا بمكارم الأخلاق، فكانوا بحق قدوة حسنة سواء لأتباعهم من الموحدين أم لغير المسلمين ممن عاصروه فتأثروا بهم في جميع أحوالهم.

ومن المظاهر الاجتماعية التي تدل على التقدم الحضاري الذي بلغه عهد الموحدين:

- حرصهم على جعل المجتمع يلتف حول راية الإسلام لتحقيق الوحدة، والتعامل بحزم مع أهل الذمة خوفًا من مكرهم وخبثهم.

- كثرة الأعياد وتنوعها ما بين أعياد للمسلمين، وأخرى لغيرهم.

- غنى المائدة الموحدية، وتزيينها بمختلف الأطباق التي اختلفت باختلاف المناسبات.

¹ - المعجب، المراكشي، ص: 209-210.

² - رحلة ابن جبير، ابن جبير، ص: 299.

- الاقتصار على الثياب البسيطة، وبعدهم عن البهجة ، اقتداءً بالمهدي بن تومرت .

- تقديسهم العلم والعلماء، تبعته نهضة فكرية، وكثرة في الاختراعات.

- الالتزام بمكارم الأخلاق¹، ومحاربة ما قد يؤدي إلى فسادها من هُوءٍ، وموسيقى، وشرب

خمر، وهذا لم يمنع بعضهم من الإسراف في الجون، في آخر عمر الدولة.

- تأثيرهم في البلدان المجاورة؛ عن طريق سعي أشرافهم لتقليد الموحدين وهو دليل على عزيمتهم

وتحصنهم².

خامساً:- المظهر العمراني والفني: قد يكون العمران من أكثر المظاهر قدرةً على تصوير

الحضارة، وذلك عن طريق الآثار التي تستطيع أن تصوّر بصدق مدى تطور بلاد المغرب الإسلامي في

هذه الحقبة من الزمن:

1- تشييد المدن: ومن أشهرها جبل طارق أو "جبل الفتح"، وقد أُوكلت هذه المهمة لابنه

السيد أبو سعيد عثمان حسبما تروي المظان: «ووصل الأمر العزيز ببناء مدينة كبرى ياكل(?) بإذن

الله تعالى ومعونته من ناضها من المدن والقرى بالجبل الميمون القديم البركة على جزيرة الأندلس

السامق الشاهق(...). تكون هذه المدينة منزلا للأمر عند إجازة العساكر المنصورة ومحلا ريثما تتقدم

الرايات المظفرة والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم»³ ويعطينا المؤرخ تبريرا لاختيار هذا المكان لبناء

المدينة، ويتمثل في أهمية الموقع الجبلي لهذا الموضع وقربه من عدوة المغرب، فقد كان قاعدةً للهجوم

على بلاد الروم، وقد أمر عبد المؤمن المهندسين بتشييد قصر له داخل المدينة أين استقر خمسة أشهر

يراقب أعمال البناء⁴.

¹ - ربط مالك بن نبي بين الاخلاق والحضارة وجعلها شرطا مهما لقيام الحضارة، ينظر ، شروط النهضة ، مالك بن نبي، ص: 88-90.

² - لقد أشار ابن خلدون لقضية التقليد ، فالغلوب دائما مواع بتقليد الغالب في سائر أموره ن ينظر المقدمة ، ابن خلدون ، ص: 283.

³ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 84.

⁴ - ينظر أخبار المهدي بن تومرت، البيدق ، ص: 73.

2- تجهيز المدن وتعميرها: زُوِّدَت مدينة إشبيلية بمختلف المرافق وذلك كُله تحت إشراف أبي يعقوب وفق ما يرويه ابن صاحب الصلاة: « وجلب الماء في الساقية لمشرب أهلها ولقصره، وابتنى فيها الجامع الكبير العتيق لانتساع الناس فيه عن ضيقتهم في جامعها فساوى به جامع قرطبة في الانتساع واستجلب في ابتناؤه العرفاء والفعلة، فكمل في مدّة قليلة من الأعوام على عظمه وسعة جرمه وارتفاع سُمكه، وابتنى قصبتهما إلى نصفها بتأسيسها حتى الماء، وابتنى الزلّال لأبواب إشبيلية من جهة الوادي احتياطاً من السيل الخارج عليها، وابتنى قصبتهما الداخلية والبرانية خارج باب الكحل والقصور المكرّمة خارج باب جهور، والقناطر حول مدينة إشبيلية من كل جانب»¹ وتعدّ مدينة إشبيلية نموذجاً حقيقياً لإسهامات الموحدين في تعمير المدن، ولا سيّما على عهد الخليفة أبي يعقوب الذي سهر على تطويرها واستغنائها عن غيرها، وما يلاحظ على أسلوبهم العمراني إحاطة مدنها بالأسوار لتكون منيعةً في وجه أيّ عدوان يعترضها، وهو ما يعكس طابع الدولة العسكري.

وأتجهوا أيضاً إلى تعمير المدن ومن بينها رباط الفتح؛ حيث قال ابن صاحب الصلاة: « ثمّ اتّصل الأمر العزيز بسكناها بالناس وبيّنا الديار حواليتها والأسواق، ولم يزل الخلفاء يخصّونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات يلمّون بها غاية الإمام، ويجعلون لها حظاً وافراً من التشريف لها بالاختصاص فيها والمقام، حتى غدت عراقاً، وتلاحق الناس بها لحاقاً (...). وأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا هو الذي مَصَّرَها ومَهَّدَها، وابتدأ بناء أسوارها من جهة الجوف والغرب»² وهذا يُبرز عناية الخلفاء بتعمير المدن وتوسيعها وإمدادها بكل ما يسهّل حياة السكّان فيها، وبخاصّة على عهد أبي يعقوب، ويبدو أنّ الموت قد عاقه عن إنهاء بنائها، فخلفه ابنه أبو يوسف المنصور الذي أتمّها وأحاطها بسورٍ منيع.

3- اشتهاار مدن مغربية: ذاع صيت بعض المدن على هذا العهد مثل مدينة فاس التي غدت من أهمّ حواضر بلاد المغرب على عهدهم فوصفها المراكشي بقوله: « فهي اليوم في غاية الحضارة

¹ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 166-167.

² - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 358-359.

وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم وما زلت أسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك فإنه ليس في المغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب¹ فقد اعتبرها المراكشي عنواناً للحضارة حيث جمعت بين دماثة خلق أهلها ، واستغناؤها عن غيرها من المدن حتى استحقت لقب "بغداد المغرب" لكثرة العلوم التي دُرست فيها.

ويذهب المراكشي لأبعد من ذلك حيث يُفضّلها على سائر مدن المعمورة حيث يقول: « وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أحقّ بذلك منها وما أظنّ في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معاش وأخصب جهات وذلك أنّها يحقّها الماء والشجر من جميع جهاتها ويتخلّلها الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها وفي داخلها وتحت سُورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه² وقد كان لخصب هذه البلاد، ووفرة منتوجاتها وجودتها وبخاصّة الجبوب، دور كبير في استغناء أهلها عن غيرهم إلا فيما ندر، وقد يكون هذا هو السبب الذي دفع المرينيين لاّتحاذها عاصمة لملكهم³.

4- تشييد القصور وترتيبها: تنافس الموحدون في بناء القصور، وقد وصف ابن صاحب

الصلاة بعضها حيث قال: « وتفرد العريف أحمد بن باسه عريف البنّائين بالأندلس في ابتناء القصور المذكورة من البحيرة حتى كملت فجاءت من الحُسن يحار فيها الوصف، ويشتغل بها عن الفرض الطّرف! أريت عن مباني الخوّزّق والدير، وطلّعت بباب جهّور كالبدر المنير ، وواصل بالبناء حواليتها بالحيطان المنيّة بالجيار والرّمّل والحصى من جهاتها وجميع جنباتها⁴ وهذا ملمح

¹ - المعجب، المراكشي، ص: 161

² - المعجب، المراكشي، ص: 161

³ - ينظر باقة السوسان، محمد بن رمضان شاوش، ج1، ص: 63.

⁴ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 376.

من براعة المهندسين في تصميم المباني وبراعة البنائين في تشييدها حتى كملت في أفضل صورة ،
وأحاطها بسور حفاظا عليها .

وشيّد السيّد أبو يحيى قَصْرًا وتحدث المقرئ عن سبب بنائه على لسان صاحبه في معرض حديثه عن أهل قرطبة : « عَلِمْتُ أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ وَالْيَا بَعْدَ عَزْلِهِ وَلَا لَهُ عِنْدَهُمْ قَدْرٌ ، لِمَا بَقِيَ فِي رُؤُوسِهِمْ مِنَ الْخِلَافَةِ الْمَرْوَانِيَّةِ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَبْقَى لِي فِي بِلَادِهِمْ أَثَرٌ أَذْكَرُ بِهِ عَلَى رِغْمِهِمْ »¹ ، فقد كان مراد أبي يحيى من بناء هذا القصر هو تركه لأثر في قرطبة رغم أنف أهلها، وقد نال هذا الصرح إعجاب الشعراء ومن بينهم ناهض الإدريسي فوصفه بقوله:

أَلَا حَبَّذَا الْقَصْرُ الَّذِي ارْتَفَعَتْ بِهِ عَلَى الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْحِجَارَةِ الْأَقْوَاسِ
هُوَ الْمِصْنَعُ الْأَعْلَى الَّذِي أَنْفَ الثَّرَى وَرَفَعَهُ عَنِ لَثْمِهِ الْمَجْدُ وَالْبَاسِ
فَأُزْكِبَ مَائِنَ النَّهْرِ عِزًّا وَرِفْعَةً وَفِي مَوْضِعِ الْأَقْدَامِ لَا يُوجَدُ الرَّاسِ
فَلَا زَالَ مَعْمُورَ الْجَنَابِ وَبَابُهُ يَعْصُ وَحَلَّتْ أَفْقُهُ الدَّهْرَ أَعْرَاسُ²

عبر الشاعر في هذه الأبيات عن إعجابه بالقصر، وحاول أن يصوره عن بُعد فهو مطّل على النهر ويرتفع ليعانق عنان السماء، إذ لا يمكن لك رؤية أعلاه لشدة ارتفاعه، وهو مشرّع الأبواب للوافدين الكثر الذين يعبرون عن فرحتهم وبهجتهم بما غنموه من فضل صاحبه عند كل زيارة.

ومن القصور التي شيدها الخلفاء في عدوة المغرب "قصر الربيع" وهو أحد قصور عبد المؤمن، وقد وصفه أبو علي حسن ابن فكون³ بقوله:

وَلَمَّا نَزَلْنَا سَاحَةَ الْقَصْرِ رَاعِنَا بِكُلِّ جَمَالٍ مُبْهِجِ الطَّرْفِ مُرْتَقِ
فَمَا شِئْتِ مِنْ ظِلٍّ وَرَيْفٍ وَجَدُولٍ وَرَوْضٍ مَتَى تَلَمُّمٌ بِهِ الرِّيحُ يَعْبِقُ⁴

¹ - نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 470.

² - المصدر نفسه، ص: 470.

³ - ترجم له الغبريني بقوله : « الشيخ الفقيه ، الكاتب الأديب البار، أبو علي حسن بن فكون، من الادباء الذين تستظرف أخبارهم، وتروق أشعارهم، غزير النظم والنثر، وكأنها أنوار الزهر »، عنوان الدراية، الغبريني، ص: 334.

⁴ - عنوان الدراية، الغبريني، ص: 335.

لقد أعجب ابن فكون بجمال هذا القصر فصاغ قصيدة ضارعت حسنه، ومن بينها: هذان البيتان اللذان يصوران جمال بهو القصر، الذي لم يكن أقل فخامة عن القصور المشيدة في الأندلس وقد شابهها من حيث احتوائه على حديقة زينت بمختلف الفواكه والرياحين المتزامية على ضفة الجدول.

وانكب أصحاب القصور على تزيينها بشتى أصناف الرياحين والأشجار فاستحالت حدائق غناء وتعهدوها بالرعاية، وهو ما قاله ابن صاحب الصلاة: «وقد تقدم الأمر العالي إلى العمال بأغرناطة ووادي آش أن يجلبوا إلى هذه البحيرة ضروب الإحاص المسمى عند الأطباء بالكمثري، والإحاص المسمى بالعبقر والأزره والتفاح، فكانت تصل بذلك القطار إثر القطار، بجميع الثمار المختارة للاغتراس وللإثمار»¹ ولم يكن القصد هو غرس الحدائق فحسب بل تحيّر أجود أصناف الأشجار التي اشتهرت بها كل منطقة للتباهي والافتخار بين أتربهم .

5- التفنن في بناء فوارات المياه: وأضفت فوارات المياه سحرا جماليا خاصا على الحدائق

حتى أصبحت سمة عمرانية مميزة ، واتخذ بعضها أشكال حيوانات، وقد وصف ابن حنون فؤارة على شكل أسد في قوله:

وَمُوهِمٍ قَصْدٍ حَضْنٍ لَيْسَ مَقْصِدُهُ إِلَّا السُّكُونُ فَمَا شَيْءٌ يُحَرِّكُهُ
تَقْبِضُ اللَّيْثَ حِرْصًا لِلْوُثُوبِ عَلَى فَرِيْسَةِ وَحَدَارِ الْفَوْتِ يُدْرِكُهُ
وَالْمَاءِ فِي فِيهِ كَالْتُعْبَانِ مُضْطَرِبًا يَبْغِي التَّخْلُصَ مِنْهُ وَهُوَ يُمْسِكُهُ²

فهذا الأسد - في نظر الشاعر - يبدو وكأنه يريد حضن شيء ، والحركة التي يظهر بها غير مقصودة لأنه منحوت هكذا فهو ساكن منتصب في مكانه؛ كما يبدو متأهبا للانقضاض على فريسته وهيئات أن يفلتها من قبضته، لأن منظره يوحي ببراعته، وحجمه ينبئ عن قوته، وأضفى أبو حنون على هذا الحيوان المفترس لمحة أسطورية من خلال الماء المنبعث من فمه والذي ينسكب بغزارة وكثافة

¹ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ،ص:376.

² - الذيل والتكلمة ابن عبد الملك المراكشي ،السفر 1،ص:100-101

تشبه في شكلها الثعبان المتخبط وهو يحاول الفرار من الأسد الذي أحكم قبضته ، وهذه الأبيات تجعلنا نقف على مدى تطوّر فنّ النحت على عهد الموحدين .

6- كثرة المنتزهات والحدائق: لم تكن الحدائق حكرًا على البيوت الفخمة فقط؛ فقد خصّص بعضها للعامّة يقصدونها للتنزّه¹، وكانت جلسات السمر والأنس تعقد في المنتزهات الموجودة عادة على حافات الأنهار، وقد شجّعت تلك المناظر الخلابة على الغناء ونظم الشعر وبخاصة الموشّحات والأزجال²، التي صحبتها آلات العزف، ومن أشهر المنتزهات: "حور المؤمل" أو "الحور" بغرناطة الذي قال فيه أبو جعفر ابن سعيد موشّحًا جاء فيه:

حَبَّذَا بِالْحُورِ مَعْنَى

هِيَ لَفْظٌ وَهُوَ مَعْنَى

مُذْهِبِ الْأَشْجَانِ عَنَّا

كَمْ دَرِينَا كَيْفَ سَرْنَا

ثُمَّ فِي وَفَاتِ الْأَصِيلِ لَمْ نَكُنْ نَدْرِي³

وكانت تسمية المنتزه بالحور مطابقة لمعناه لأنه كان من جنّات الأرض ؛ حيث شابهه في روعة مناظره جمال حُور العين التي وصفها القرآن الكريم ، فكلّ ما فيه يفتن الزّائر، ومهما جُلت في رياضه تهيّأ لك أنّك لم تبرح مكانك لتشابه أرحائه في الحُسن، وكان منظر غروب الشّمس من أجمل المناظر، وبخاصّة إذا رافقه صوّت القيان الذي يضيف على المكان سحرًا خاصًا .

ووصف ابن عبد ربّه أحد تلك المنتزهات، وأجاد عند وصف تأثير الغيث على الأرض فقال:

¹ - ينظر المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ، ص: 266.

² - ينظر المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد ، ج2، ص: 220.

³ - المرجع نفسه ، ص: 104.

بَيْنَ الرِّيَاضِ وَبَيْنَ الْجَوِّ مُعْتَرِكُ
بِإِضْ مِنْ الْبَرْقِ أَوْ سُمْرٌ مِنْ السُّمْرِ
إِنْ أَوْتَرَتْ قَوْسُهَا كَفَّ السَّمَاءَ رَمَتْ
نَبْلًا مِنْ الْمَاءِ فِي زَعْفٍ مِنْ الْعَدْرِ
لِأَجْلِ ذَاكَ إِذَا هَبَّتْ طَلَاتُهَا
تَدْرَعُ النَّهْرُ وَاهْتَزَّتْ فَنَا الشَّجَرُ¹

يشبه ابن عبد ربه تساقط المطر بالعدو الذي يهاجم الأرض بالرماح؛ فتحاول الأنهار الدفاع عن نفسها بدروع من أمواجها حتى إذا سقطت فيها السهام لم تؤثر فيها، وعلق عبد الواحد المراكشي على هذه الأبيات بقوله: « فانظر حفظك الله إلى حسن توطئته لهذا المعنى وحسن تخلصه إلى هذا التشبيه بأحسن لفظ وأسهله على السمع والنطق»² لقد أعجب باختراع ابن عبد ربه لهذا المعنى بفضل الإغراب في التشبيه، وفي لجوئه لهذه الصورة انعكاس للحياة اليومية القائمة على الحروب والجهاد.

وحرص الموحّدون على نضارة هذه الحدائق فأجروا فيها السّواقي مستعينين بخبرة مهندسيهم مثلما يؤكّده هذا القول: «فما زال المهندس يعيش يتتبعه بالحفر بالعدانين والفعلة بالمئيين من الرجال والخدام معه حتى أوقعه الحفر في العين القديمة... وإذا بالماء في تلك العين ليست بعين، وإنما كانت موضع فتق في طريق السّرب القديم، فانقطع الماء عند وصول الحفر إلى العين المذكورة عند الناس»³ وهذا يشي عن كثرة عمال الفرقة التي كانت تابعة للجيش والتي كانت مكلفة بأعمال البناء والترميم وتميّزت باحترافها، ودليل ذلك نجاحها في العثور على المصدر الحقيقي للمياه المتسرّبة على السطح.

7- تطوّر العمارة المائية: تنبّه الموحّدون إلى دور المياه في تشجيع الناس على الاستقرار في أماكن عيشهم فسعوا لتقريبه منهم، وجعله في متناولهم على نحو صنيع أبي يعقوب في مدينة إشبيلية حيث يقول ابن صاحب الصّلاة: «أمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بإجرائه وجلبه إلى داخل إشبيلية إلى القصور، ولشرب الناس ومرافقهم على أوفى الفضل منه بكمال الهندسة

¹ - المعجب، المراكشي، ص: 218، نسبت هذه الأبيات أيضا إلى أبي الربيع سليمان الموحّد، ينظر ديوانه، ص: 140.

² - المعجب، المراكشي، ص: 218.

³ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 377.

والتدبير. وأمر ببناء محبس ماء بداخل إشبيلية في حارة ميور بها... وحضر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه في عسكر من كبار الموحدين والفقهاء والطلبة، وضربت الطبول على إجرائه والسرور بوصوله إلى محبسه¹ وهذا القول يقدم صورة عن سهر المسؤولين على تسهيل الحياة اليومية من خلال توفير الماء، وتنبههم إلى دورها في استقرار السكان في مواطنهم، ومشاركتهم فرحة اكتمالها مع عامة الناس، وعلى هذا النحو مضت جهود حكّام الموحدين قُدماً فحفروا الآبار²، وبنوا الصّهاريج³، والأخبية⁴.

كما اهتموا بصناعة الدواليب التي تساعد في تدوير المياه وقد وقف عندها شعرهم مرارا⁵، ومن ذلك قول الرّصافي:

وَذِي حَنِينٍ يَكْأَدُ شَوْقًا يَحْتَلِسُ الْأَنْفُسَ اخْتِلاَسًا
لَمَّا غَدَا لِلرَّيَاضِ جَارَاهُ قَالَ لَهُ الْمَحَلُّ لَا مَسَاسًا
يَبْتَسِمُ الرُّوضُ حِينَ يَبْكِي بِأَذْمُعٍ مَا رَأَيْنَ بَاسًا
مَنْ كُفَّ جَفْنٍ يَسْلُ سَيْفًا صَارَ لَهُ عُمدُهُ رِيَاسًا⁶

يشبه الشاعر الدّولاب برجل يعتصره الشّوق اعتصارا فلا يكاد يتنفس إلا بصعوبة، ويمضي في حركته المحاذية للرّوض فيجانبه دون أن يمسه، فإذا بكى دون سبب ابتسم الرّوض عن أفاح، فكانت دموعه أشبه بالسيف في مضيها وكان البستان عُمدًا يحتويه .

¹ - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 38

² - الفوراخة: هي زكن في الجدار يبرز عن الحصن يُستمد منه الماء في حالة الحصار، ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، هامش 1،

ص: 306.

³ - نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 497-498

⁴ - المصدر نفسه، ص: 497.

⁵ - الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، السفر 5، ص: 190.

⁶ - المعجب، المراكشي، ص: 158.

8- المقصُورات: وقد احتوى جامع مراکش على مقصورة للصلاة والدعاء¹ ، وقد أنشئت

خصيصاً للخليفة المنصور تظهر وتختفي بطريقة أتوماتيكية وكانت اختراعاً أذهل كل من رآه فحاول ابن ماجر ترجمة إعجابه بأبيات يقول في مطلعها:

أَعْلَمَنِي أَلْقِي عَصَا التَّسْيَارِ فِي بَلَدَةٍ لَيْسَتْ بِدَارٍ قَرَارٍ²
يستهل الشاعر القصيدة بتشبيه سحر هذه المقصورة بعصا النبي موسى (عليه السلام) وكلاهما معجزة في عصرهما أبهرت كل من رآها، ثم ينتقل لوصف شكلها الخارجي وسرعتها في الظهور والضمور؛ فيقول:

طَوْرًا تَكُونُ بِمَنْ حَوْتُهُ مُحِيطَةٌ فَكَأَنَّهَا سُورٌ مِنْ الْأَسْوَارِ
وَتَكُونُ حِينَئِذٍ عَنْهُمْ مَحْبُوءَةٌ فَكَأَنَّهَا سِرٌّ مِنْ الْأَسْرَارِ
وَكَأَنَّهَا عَلِمَتْ مَقَادِيرَ الْوَرَى فَتَصَرَّفَتْ لَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ
فَإِذَا أَحَسَّتْ بِالْإِمَامِ يَزُورُهَا فِي قَوْمِهِ قَامَتْ إِلَى الزُّورِ
يَبْدُو فَتَبْدُو ثُمَّ تُخْفَى بَعْدَهُ كَتَكُونُ الْهَالَاتِ لِلْأَقْمَارِ³

يشبه الشاعر هذه المقصورة بالسور المنيع الذي يجنب الخليفة عن الناس وهو ما يوحى بارتفاعها وعلوها، ثم يتطرق إلى وصف وضعيتها عند اختفائها عن الأنظار وغياب الخليفة، ويتم ذلك بطريقة عجيبة وكأنها تعلم مواعيد قدمومه ورحيله، فإذا قدم برزت وكأنها تستبشر به فيبدو منظره وهو جالس فيها كأنه بدرٌ محاط بهالة تزيد رونقاً وجمالاً ، وقد استعان الشاعر بهذه التشبيهات لتقريب المعنى وتأكيده وتقويته، وذاع صيت هذه المقصورة في العصور اللاحقة؛ فقد أوردتها المقري مبدئياً إعجابه بها وذكر مصيرها إذ تعطلت حركاتها وبقيت آثارها⁴ .

¹ - يقول ابن خلدون في هذا الشأن: «فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على الخراب فيجوز به وما يليه. فأول من

أخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي» ، المقدمة ، ابن خلدون، ج1، ص:455

² - نفع الطيب، المقري، ج3، ص:239.

³ - المرجع نفسه، ص:239.

⁴ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص:240.

9- تشييد المساجد : إنّ المتتبع لتاريخ الدولة يلاحظ كثرة في المساجد بسبب ميل الخلفاء للدين، ومن أشهر المساجد على هذا العهد.

أ- جامع إشبيلية: واكب ابن صاحب الصلاة إنجازات الموحدين باهتمام كبير حيث نقل مراحل إنجاز بعضها ومن أشهرها مسجد إشبيلية فقد تحدّث عن القبة حيث قال: « واهتبل العرفاء واستعرفوا ، وتحدّقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاهتبال، في العمل بصنعة الجبس والإقباء بالبناء ونجارة الخشب بغاية الاحتفال ، وأقبوا يسارَ المحراب سَابَاطًا في الحائط يمشي في سِعة فيه الماشي معدًا لخروج الخليفة عليه من القصر إلى هذا الجامع لشهود صلاة الجمعة »¹ فقد أقبل البنّاءون على تشييد هذا الصّرح بجمّة ونشاط ، وكان لكلّ منهم مهمّته الخاصّة به قصد تعجيل إنجائه، وقد جعلوا على جانبه ممراً واسعاً مخصّصاً لدخول الخليفة في صلاة الجمعة.

وأعجب المراكشي بتخطيطه فوصفه بقوله: «وبنى فيها مسجدا عظيما كبير المساحة واسع الفنا جدا لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه وعمل له معذنة في نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يُصعد فيه بغير درج تصعد الدّواب بالطّي والآجر والحصص وجميع ما يُحتاج إليه إلى أعلاها»² وكانت منارة الإسكندرية مصدرَ إلهامٍ للمنصور الموحدي الذي حاول تقليد شكل بنائها³، واعتبر المراكشي معذنة هذا المسجد أطول المآذن في بلاد المغرب، وقد اعتمدوا في بنائها الطّين، والآجر، والحصص، ومختلف المواد المستخدمة في البناء .

و كانت صومعة هذا الجامع فريدة زمانها من حيث البناء والصنعة ؛ وقد عبّر ابن صاحب الصلّاة عن ذلك في قوله: « وهذه الصّومعة الفايث وصفها للناطقين، السّابق حديثها إلى المخبرين لا

¹ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة ،ص: 387.

² - المعجب ، المراكشي، ص: 192- 193.

³ - يقول ابن خلّكان: « وانتقل الى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المنزهات المعدة له، وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الاسكندرية في اتساع الشوارع وحسن التقسيم واتقان البناء وتحسينه وتحصينه ، « وفيات الأعيان ابن خلّكان ، ج7،ص:9.

صومعة تعدلها في مساجد الأندلس: سمّو شخص وُرسُو أصلٌ ووثاقُهُ عمل، وبنيان بالآجر، وغرائب صنعة، وبدائع ظاهرة قد ارتفعت في الجوّ وعَلَّت في السّماء، تظهر للعين على مرحلة من إشبيلية مع كواكب الجوزاء»¹ كما أمر أبو يعقوب بتزيين هذه الصّومعة بتفاح من ذهب زُكِّبت في عمود من حديد مُوثق في أعلى الصّومعة²، وتميّزت بعلوّها الشّاهق، وخُلّو الطّريق المؤدّي إليها من الأدرج³، وقد شهدت ترميمات عدّة على عهدهم⁴.

وذهب ابن بشكوال إلى أنّ صومعة جامع قرطبة لا نظير لها في بلاد المسلمين، فردّ عليه ابن سعيد مفنّدا ذلك بقوله: «قال ابن بشكوال هذا لأنّه لم ير صومعة مراكش ولا صومعة إشبيلية التي بناها المنصور من بني عبد المؤمن، فهما أعظم وأطول، لأنّه ذكر أن طول صومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعا وإلى أعلى الرّمانة الأخيرة بأعلى الزج ثلاثة وسبعون ذراعا (...). قال ابن سعيد: وطول صومعة مراكش مائة وعشرة أذرع»⁵ فابن سعيد يبرهن بالأرقام طول كلّ من مئذنتي إشبيلية ومراكش الموحّديّتين، وهذا الرّأي أثبته الباحثون المعاصرون مثل عبد العزيز سالم⁶، كما عبّر عنه قبله المقرّي⁷.

وقد عبّر (ليني بروفنصال) (Lévi-Provençal) عن إعجابه برّوعة العمران الموحّدي الذي عكس قوّتهم وعظمتهم التي عبروا عنها في قالب ديني حيث يقول: «كان الموحّدون كأسلافهم المرابطين، إن لم يُفوّقوهم أيضا، بُناءً عظاما، في إسبانيا وفي مراكش على حدّ سواء، فمدينتا مراكش والزّباط، في شمال إفريقيا، هما إلى حدّ ما من صنعهم وقد خلدوا في إشبيلية مدينتهم المفضّلة،

¹ -المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة ص: 390.

² - ينظر المعجب، المراكشي، ص: 392-393.

³ - ينظر المصدر نفسه، ص: 391.

⁴ - ينظر المصدر نفسه، ص: 392.

⁵ - ينظر نفتح الطيب، المقرّي، ص: 563.

⁶ - هذا رأي ابن سعيد وأيده فيه عبدالعزيز سالم، ينظر العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، السيد عبد العزيز سالم، ص: 126.

⁷ - ينظر نفتح الطيب، المقرّي، ص: 208.

(الجيرالدا) أو البرج الذهبي. وكل آثارهم ضخمة توحى بالجلال شُيِّدت على نحوٍ رائعٍ ومتناسقٍ إنَّها عبوس، عارية من الزَّخرف، تتأقَّف من عبارات المديح لأبي أمير ولا تقبل إلا برُفْم مناسبةٍ تَمْتَدَّ عرضانيًا على شكل أفايز قرآنية¹ ويشبَّهه (بروفنصال) (Provençal) الموحدين بالمرابطين في حبِّهم للبناء في عُدُوِّي المغرب والأندلس؛ إذ يعود لهم الفضل في تشييد مدنٍ بأكملها لاتزال شاهدة إلى يومنا على عظمتهم قوتهم، بالرَّغم من البساطة التي ميَّزتها حيث اكتفوا في تزيين مساجدهم بكتابات من القرآن الكريم تعبيرًا عن تمسُّكهم بتعاليم الدين الإسلامي.

10- البيمارستانات المتطورة: كان من مظاهر حرص الدولة الموحدية على تطوير الخدمات الاجتماعية تشييدها للمستشفيات وكان بعضها سابقا لعصرها؛ نحو صنيع المنصور الموحدي، وقد أسهب المراكشي في وصفه حيث يقول: «وبنى بمدينة مراكش بيمارستان ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تحيَّر ساحة فسيحة بأعدل مَوْضع في المدينة وأمر البنَّائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزَّخاريف المحكَّمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسطه إحداها رُحام أبيض² فقد زواج بين روعة الهندسة اليدوية التي حذق فيها البنَّؤون والصنَّاع داخل هذا المستشفى، وبين جمال الحديقة المحيطة بالمبنى التي اتخذت من الفواكه والرياحين وشاحًا لها، وأضفت برك الماء المتناثرة هنا وهناك جمالا خاصًا عليها.

أ- تجهيزها: وينتقل المؤلف إلى الحديث عن التجهيزات التي سُخِّرت للمستشفى ويصفها في قوله: «ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحريير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق التعت وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عمَّا جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعدَّ فيه

¹ - حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، لبنان، دط، دت، ص: 28.

² - المعجب، المراكشي، ص: 209.

للمرضى ثياب ليل ونهار للتوم من جهاز الصيف والشتا¹ وبذلك يكون المستشفى قد كُسي بأفضل الأفرشة وأرقاها، ومُنح المرضى ثيابا لليل وأخرى للنهار تختلف من موسم لآخر، كما استفاد المرضى من الطّعام المجاني الذي خُصّص له ميزانية من الحكومة ، وألحقت الصيدليات بالمستشفيات واشتملت على مختلف الأدوية، وبذلك يكون هذا المستشفى على شاكلة أرقى المستشفيات في عصرنا الحالي.

ب- الرّعاية الشّاملة للمرضى: ولم تقتصر رعاية الحكومة بالمرضى داخل المستشفى فحسب بل تعدّته إلى ما بعد خروجهم حيث يقول: « فإذا نقه المريض فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وإن كان غنيا دُفع إليه ماله وتركته وسببه ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حُمّل إليه وعُولج إلى أن يستريح أو يموت وكان في كلّ جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسلّ عن أهل بيت أهل بيت² لقد استفاد الفقراء من المرضى بعد خروجهم من المستشفى من منحة تُعِينُهُم ، وأُتيح هذا المستشفى للجميع حيث قصدُهُ النَّاسُ من مختلف الأماكن فلاقوا الرّعاية والعناية من القائمين عليه ، وما يدعو للإعجاب هو زيارة المنصور للمرضى كلّ جمعة للتّخفيف عنهم ومواساة أهلهم.

11- المدارس: ومن مظاهر خدمة العلم مشاركة الميسورين منهم في تشييد المدارس؛ فقد شيّد الفقيه المحدث أبو الحسن الشاري (-643هـ) إحداها فتخيّرهما في أفضل مكان بمدينة سبتة وأعمل عليها أفضل الرجال فجاءت هذه المنقبة فريدة ببلاد المغرب حاكي بها نهج المشاركة في طريقة نظامها، وزوّدها بمكتبة أودعها أهم الكتب المشهورة على عهدهم³، فهَمَّ أبو القاسم بن عمران لتهنئته بها في رسالة صدرها بقصيدة جاء في بعضها:

أبا حسن زادت مآثركم حسنا بفعل جميلٍ مُوجِبٍ لَكُمْ الحُسنا

¹ - المعجب، المراكشي، ص:209.

² - المعجب ، المراكشي، ص:209.

³ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عد الملك المراكشي، السفر8، ص:197.

لَكُمْ أَجْرُهُ الْأَوْفَى وَأَجْرُ مَنْ اقْتَفَى
 أَجَلَ وَالْيَدُ الطُّوَلَى فَلَيْسَ بَعْرِنَا
 تَحَيَّرْتَ أَعْلَاقَ الدَّوَابِّ مُمْرَضًا
 وَمَا زَالَتْ مِنْهَا فِي النَّفْسِ مُنَافِسًا
 سَبِيلَكَ فِيهِ أَوْ بِسُتَّتِكَ اسْتَتْنَا
 حَفِيٌّ بِأَهْلِ الْعِلْمِ مِتَّتِكَ امْتَنَا
 بِإِدْنَائِهَا مِنْكُمْ عَنِ الْعَرْضِ الْأَدْنَى
 إِلَى أَنْ تَسْنَى فَاشْتَرَيْتَ بِهِ أَسْنَا¹

استهل الشاعر أبياته بمدح أبي حسن الذي أقدم على أمر جليل استوجب شكره وتقديره؛ فقد سن سنة حميدة سيثيبه الله عليها هو وكل من اقتدى به في بلاد المغرب، ولم يستغرب أبو القاسم هذه المبادرة منه؛ لأنه كان من حملة العلم ومحبيه، كما يُبدي الشاعر إعجابه بالخزانة الملحقة بالمدرسة، والتي زادت في شأنها؛ فقد رصعها بالدرر النفيسة من ذخائر الكتب والمصنّفات حرصاً منه على تبليغ العلم النافع للنشء.

وأردف الأديب قوله بقطعة نثرية لا تقلُّ قيمة عمّا نظمه، وقد ورد في جانب منها: « ولقد أسست بهمتتك السنّية، وطريقتك السنّية، ما برز للوجود في أجمل مرأى وأحرز صيانة، وبه للأذهان المهنّوة بالأذهان إبانة، وبرّ أجرك الله عن نفسك، وعن أبناء جنسك² » ويبيدي أبو القاسم إعجابه بعمّة أبي حسن الشاري العالية، وحرصه على الاقتداء بالسلف الصالح الذي دعا إلى إتقان العمل؛ فلم يكتفي بالسبق لتشييدها، بل حرص على جعلها تحفةً في الكمال، والفخامة أملاً منه في الفوز بتمام الأجر من الله (عزّ وجل)، وهو ما تمناه له أبو القاسم بن عمران، ونالت هذه المدرسة إعجاب الأجيال اللاحقة فنظمو فيها القصائد³.

12- اختطاط الأسواق المنظمة: عُني المسؤولون ببناء المجمعّات التجارية من دكاكين

وأسواق حيث يقول ابن صاحب الصلاة: « والحوانيث في المواضع المذكورة بأوثق البنيان، وأحسن نوعٍ في ذلك الشأن، عجيبة غريبة في الزّمان، وجعل لها أربعة أبواب كبار تحوطها من جوانبها

¹ - الذيل والتكملة، ابن عد الملك المراكشي، ص: 197- 198

² - المصدر نفسه، ص: 198.

³ - ينظر الذيل والتكملة، ابن عد الملك المراكشي، ص: 199.

الأربع: أكبرها الباب القبلي والجوفي تقابلن باب الجامع الجوفي منه ، فلمّا كملت هذه الأسواق بحوانيتها بالبناء نُقلت إليها سوق العطارين وسوق التجار من البزازين وسوق المركّطين والحيّاطين، وتزاحم النَّاس باعتبارهم في المزايدة في كرائها»¹ ويفهم من هذا الكلام أنّ تقسيم الأسواق كان يتمّ بحسب نوعيّة السلع المعروضة، وهذا من مظاهر حسن التخطيط وبعدهم نظريهم، وطول باعهم في حُسن التدبير حيث سهّلوا على النَّاس التّسوّق وقضاء حوائجهم، وشراء ما يلزمهم في أيسر وقتٍ.

13- بناء الجسور والقناطر: تنبّه الموحّدون إلى أهمية الطّرق في الرّبط بين مختلف جهات الدولة المترامية الأطراف، وتسهيل الحياة اليومية، وتنشيط حركة التجارة وبخاصّة على عهد أبي يعقوب²، حيث كان الإقبال كبيراً على تشييد الجسور³، والقناطر وفق ما أورده ابن صاحب الصلاة: «وقد كان أمره الكريم نَقْدَ يعمل القنطرة على الوادي لمصالح الناس وإجازة العساكر عليها ومرافق أهل إشبيلية وأهل الشّرف والأنظار، فابتدأ العرفاء والصنّاع العمل فيها والتجارة والهندسة لوضعها على الوادي يوم السبت أوّل يوم محرم سنة سبع وستين المؤرخة - أمس وصول سيدنا أمير المؤمنين - فاتصل العمل فيها وزاد بحضوره الاجتهاد»⁴ وهذا النصّ يرسم صورة أخرى لأبي يعقوب الخليفة الذي حرص - شخصياً - على تفقّد مصالح النَّاس، وقضاء حوائجهم دون مبالغة أو تأجيل مع مراعاة الإحكام في البناء ممّا جعله حاكماً مقرّباً من شعبه، وبخاصّة بعد سماحه لهم بالجواز على

¹ - المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص: 396.

² - اشتهر الأمير أبو يعقوب بحبّه للتشيد فقد بنى المارستان للمرضى والمجانين وانفق على العميان والخدماء شيد المساجد والمدارس في المغرب

الإسلامي ، وشيد المنازل من سوس الأقصى الى سويقة مصكوك الحديد، ينظر الأنيس المطرب، ابن أبي زرع، ص: 153

³ - ينظر المن بالإمامة ، ابن صاحب الصلاة، ص: 360.

⁴ - المصدر نفسه ص: 370.

القنطرة دون قبالة¹، وخصّص فرقةً من الجيش محترفة في البناء، وكان لهذه المنشآت صدى في نفوس العامة من الموحّدين الذين قابلوها بالاحتفالات مبدّين ابتهاجهم بها².

14- التّفنن في التّرف: تفتّن الموحّدون في تنميق عمراهم بشتى الوسائل المعروفة على

عهدهم، والمعينة على إخراجهم في أبهى منظر أسرّ ألباب الناظرين، وظلّ شاهدا على عظمتهم، ومن الأغراض التي كانت مستخدمة للتزيين ثريا المصابيح التي ازدانت بها القصور والمساجد والمكاتب، وقد وصف أبو الرّبيع بن سليمان الموحّد إحداها بقوله:

يَا مُظهِرًا لِلضَّمِيرِ مَا شَجَرَهُ لَيْسَتْ إِذَا أَثْمَرَتْ بِمُبْتَكِرِهِ
تَطْلَعُ مِنْ ثَمَرِهَا لِناظِرِهَا مِثْلَ الأَزَاهِرِ تُشْبِهُ الحَبْرَهُ
أصوؤها لِلسَّمَاءِ صَاعِدَةً وَفُضِّبَها ضِدًّا ذَاكَ مُنْحَدِرَهُ³

يشبّه أبو الرّبيع هذه الثّريا بالشّجرة المثمرة التي تفرّعت أغصانها فأينعت زهورًا عجيبة وجميلة المنظر، فبدل أن تنبت فروعها من الأرض، وتتجه نحو السّماء، خالفت ذلك حيث استقرّت جذورها في الأعلى وانحدرت فروعها نحو الأرض.

وقد أشاد ابن سعيد بفضل الموحّدين على الحفصيين في تعمير تونس، حيث قال: «ويكفي في الإنصاف أن أقول: أن حضرة مراكش هي بغداد المغرب، وهي أعظم ما في برّ العدوّة، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنّما ظهرت في مدّة بني عبد المؤمن، وكانوا يجلبون لها صنّاع الأندلس من جزيرتهم، وذلك مشهور معلوم إلى الآن. ومدينة تونس بإفريقية وانتقلت إليها السّعادة التي كانت في مراكش بسطان إفريقية الآن أبي زكريا يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس»⁴ ويعتبر هذا النصّ شهادة حقيقية من

¹ - ينظر ذلك عند تشييده للقنطرة بين إشبيلية وأطريانة بالأندلس، ينظر المصدر نفسه، ص: 372.

² - ينظر المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ص: 370-371.

³ - ديوان أبي الرّبيع سليمان الموحّد، أبو الرّبيع الموحّد، ص: 120.

⁴ - نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 153.

كاتب عاصر الدولتين الموحّدية والحفصيّة، وقد اعتبر دولة بني عبد المؤمن أنموذجا للحضارة؛ حيث شبه عاصمتها مراكش ببغداد عاصمة الدولة العبّاسية في العراق، وأثّرت في الدّول اللاحقة، كالحفصيين في تونس الذين عمدوا إلى جلب الصّناع من الأندلس ليشيّدوا عمراناً شبيهاً بما وجد لدى الموحّدين .

كما كان لهذه الدّولة تأثير في الدّول المجاورة ، حيث يقول ابن جبير في معرض حديثه عن الدّول العظمى التي شهدتها ديار الإسلام : « ولم يبق إلاّ الكائنة السّعيدة من تملك الموحّدين لهذه البلاد، فهم يستطلعون بها صباحاً جليّاً ويقطعون بصحّتها، ويرتقبونها ارتقاب السّاعة التي لا يمترون في إنجاز وعدها. شاهدنا ذلك بالإسكندريّة ومصر وسواهما مشافهة وسماعاً أمراً غريباً يدلّ على أنّ ذلك الأمر العزيز أمر الله الحقّ ودعوته الصّدق. ونمي إلينا أنّ بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها قد حبر خطباً أعدّها للقيام بها بين يدي سيّدنا أمير المؤمنين¹ وهذه شهادة أخرى يقدّمها هذا الرّحالة الذي طاف البلدان واحتكّ بالنّاس، فهو يفضّل دولة الموحّدين على سائر دول المسلمين على ذلك العهد على الرغم من إعجابه الشّديد بصلاح الدّين الأيوبي، وقد استند في ذلك لما سمعه من عامّة الناس وأفاضلهم الذين فضّلوا الدّولة الموحّدية على نظيرتها الأيوبيّة، وقد أعدّ الفقهاء خطباً لإلقائها بين يدي الموحّدين ، وينتظرون موعد لقائهم بفارغ الصّبر .

ولم يقتصر الأدب على رسم ملامح حضارة الموحّدين عند القوّة بل واكب لحظات ضعفها وبخاصّة في آخر عهدها ومن ذلك تصويرهم لهول البلاء الذي ألمّ بجزيرة الأندلس قبيل سقوطها، ومن أمثلة ذلك :

15- تصويرهم للعدوان الصليبي على معالم الإسلام: ومن الشعراء الذين صوّروا بحُرقة تلك

الوضعيّة المؤسّفة ابن الأبار؛ فقد دفعته غيّرته وخوفه الشّديدين على الأندلس إلى مغادرة الجزيرة، وطلب النّجدة من حاكم إفريقية، ومن شعره في هذه المحنة قصيدته السيّنية التي قال في جانب منه:

¹-رحلة ابن جبير ، ابن جبير، ص: 57.

تَقَاسَمَ الرُّومُ لَأَنَالَتْ مَقَاسِمُهُمْ إِلَّا عَقَائِلَهَا الْمَحْجُوبَةُ الْأُنْسَا
 وَفِي بَلَنْسِيَةَ مِنْهَا وَقُرْطُوبَةَ مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
 مَدَائِنُ حَلَّهَا الْإِشْرَاكُ مُبْتَسِمَا جَدْلَانَّ وَازْتَحَلَ الْإِيمَانَ مُبْتَسَا
 وَصَيَّرَتْهَا الْعَوَادِي الْعَابِثَاتُ بِهَا يَسْتَوْجِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا أَنْسَا¹

ويصف ابن الأبار في البيت الأول حال الأندلس عند إلقائه للقائدة، وقد تقاسمها النصارى، ولم تسلم من هذا العدوان إلا بعض المدن المنيعة التي استعصت عليهم، ومن أكثر المدن التي تدعو للحسرة مدينة بلنسية الشهيرة بالجمال، وقرطبة عاصمة ملكهم على مدار عهود طويلة، ويستعين الشاعر في البيت الثالث بالمقابلة ليقارن بين فرحة النصارى باستيلائهم على هذه المعقل، وبين حزن المسلمين عند افتكاكها منهم، ويتطرق في البيت الموالي للحديث عن حالها المؤسف بعدما نُحِيت محاسنها، وهو وضع تدمع له العين وتستاء له النفس أضعاف ما سُرَّت به من قبل عند حضارتها.

وكان أول ما عمد إليه النصارى في حملتهم الشعراء على بلاد الأندلس محاربة معالم الدين الإسلامي، ومن أهمها المساجد التي صوّر ابن الأبار حالتها المؤسفة حيث يقول:

يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَاتٍ لِلْعِدَى بِيَعَا وَلِلنَّدَاءِ غَدَا أَنْتَاءَهَا جَرَسَا!²
 وقد استعان ابن الأبار بأسلوب التذبة ليوضح حزنه وتفجّعه على حال المساجد التي تغيّرت مآذنها إلى نواقيس للكنائس وأصبحت مظهرًا للشرك بعد أن كانت رمزا للإيمان.

16- حسرتهم على التفريط في منجزاتهم: وينتقل ابن الأبار إلى وصف ظلم الروم وبطشهم

بالجزيرة فيقول:

مَحَا مَحَاسِنَهَا طَاغِ أُوَيْحَ لَهَا مَا نَامَ عَن هَضْمِهَا حِينًا وَلَا نَعَسَا

¹ - ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 408.

² - ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 409.

وَرَجَّ أَرْجَاءَهَا لَمَّا أَحَاطَ بِهَا فَعَادَرَ الشُّمَّ مِنْ أَعْلَامِهَا خُسَا¹
 خَالًا لَهُ الْجُوُّ فَاثْتَدَّتْ يَدَاهُ إِلَى إِذْرَاكِ مَا لَمْ تَطَّأ رِجَالَهُ مُخْتَلِسًا
 وَأَكْثَرَ الرِّزْعَمَ بِالتَّثْلِيثِ مُنْفَرِدًا وَلَوْ رَأَى رَايَةَ التَّوْحِيدِ مَا نَبَسَا²

يؤكد ابن الأبار في البيت الأول من هذه المجموعة على بطش الروم بالأندلس، فلم يتوانوا لحظة في سلب خيراتها وتخريب ما طالته أيديهم، وتسببت هذه الفتنة في رحيل علمائها وصلحائها وشرفائها خوفا على أنفسهم ودينهم، وهو ما سهّل له بسط سيطرته عليها بعدما كانت بالأمس مستعصية عليه على الرغم من محاولاته السابقة المتكررة، أما البقية فقد امتحنوا في دينهم؛ فانتشرت النصرانية واليهودية على حساب الإسلام.

ولاشك في أنّ ابن الأبار لم يكن الشاعر الوحيد الذي تأثر بما آلت إليه الأوضاع في الأندلس، فهذه العاطفة الصّادرة عن نفس مكلومة تشاركها معه كل من عايش هذه المرحلة العصبية من تاريخ الأندلس، والتي ستزداد حدتها في القرون اللاحقة.

ومن خلال ما تطرّقنا إليه في هذا الفصل يمكن التوصل إلى ما يلي:

- تفاوت الأدب في تصوير المظاهر الحضارية على عهد الموحدين.

- قامت دولة الموحدين على أساس ديني³؛ فقد قدّس الموحّدون المصحف الإمام باعتباره إرثا ورمزا دينيا فجعلوا له تبريزا خاصا به، كما أغدقوا عليه كلّ نَفيس، ولم يكن القرآن والسنة المرجعية الدّينية الوحيدة، فقد كان لفكرة التّوحيد مكانة خاصة لديهم، وذلك بعدما منحه ابن تومرت بعدا خاصا عندما ادّعى العصمة والمهدوية، وكان السّبق للتّوحيد والإخلاص لابن تومرت معيارا للتفاوت

¹ - الحثوس: الانقباض والاستخفاء، حَسَسَ: أي انقبض منه و تَأَخَّرَ، يقال حَسَسَ به أي وازاه. ويقال: يُحَسِّنُ بِهْمِ أي يَغِيْبُ بِهْمِ. ويحَسِّنُ

الرجل إذا تَوَازَى وَعَبَّ ينظر لسان العرب، ابن منظور، المجلد 6، مادة (حَسَسَ)، ص: 71.

² - نَبَسَ نَبَسًا: وَهُوَ أَقْلُ الْكَلَامِ. وَمَا نَبَسَ أَي مَا تَحَرَّكَ شَفَتَاهُ بِشَيْءٍ. وَمَا نَبَسَ بِكَلِمَةٍ أَي مَا تَكَلَّمَ ابْنُ مَنْظُورٍ، لسان العرب، مادة

(نَبَسَ)، ص: 225، ديوان ابن الأبار، ابن الأبار، ص: 409.

³ - ينظر شروط النهضة، مالك بن نبي، ص: 61-72.

بينهم وقد بدا واضحا في تقسيم المجتمع والجيش، وأثر هذا المبدأ في تآلف وتلاحم المجتمع بكل أطيافه وهو ما عاد بالنفع على البلاد في عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل وسرعان ما بدأ الضعف يدب في أركان الدولة مع تلاشي هذه التعاليم، .

- من مظاهر تشبّثهم بمبادئ الدين الإسلامي اعتمادهم في جميع أمورهم على صلاة الاستخارة، و اعتماد مبدأ الشورى، فضلا عن ترتيب حزب من القرآن عقب كل صلاة فحجر، والاقْتِصَار في مداخيل بيت المال على ما أقرّه الشّرع فقط، ومحاربة كل أنواع القبالة، وحرصهم على صرفه للفائدة العامة، فضلا عن محاربة ما نهى عنه الشّرع وبخاصّة الخمر، والظلم، والغناء وكل ما يفسد الأخلاق التي كانت إحدى الدعائم الهامة التي قامت عليها حضارتهم وقد اعتبرها العديد من علماء (الأنثروبولوجيا) معيارا للتحضر مثلما أوردنا في موضع سابق من هذا البحث.

- قامت سياسة الخلفاء على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع ضرورة إقامة العدل باعتباره أساس الملك جامعين في ذلك بين الشدّة واللين ، فكانوا رفقاء بالرّعية وأولياء لمن لا ولي له، فضلا عن تحمّلهم بالخلال الحميدة التي كانت نتاج ثقافتهم الدّينية وتربيتهم التي استقوها من تعاليم ابن تومرت، فانعكس ذلك على سياستهم الحاضرة على التّقرّب من الرّعية؛ فقد عاينوا سير المشاريع ووقفوا إلى جانب المرضى في المستشفيات، وعكفوا على الاستماع لشكاوى المظلومين والاقْتِصَاص لهم صونا لكرامتهم سواء بالجلوس شخصيا للمظالم أم التّنقل في ربوع الدّولة مؤمنين بقدرات شعبهم وتشجيعها، وهو ما كان له انعكاس إيجابي في نفوسهم؛ فكانوا قُدوة صالحة لشعبهم الذي أقدم على العمل بحبّ وإتقان فعكس كفاءته في مختلف الميادين، ولا شك في أنّ الإنسان هو العنصر الأساس في بناء الحضارة لذلك وجدنا مالك بن نبي يجعل من الفرد الموحدى نموذجا للتحضر نظرا لخصائصه النفسية والذهنية سواء كان حاكما أم فردا عاديا في مجتمعه.

- كان الإقبال على خدمة الأرض من بين اهتمامات الموحدين بمختلف فئاتهم ووعيا منهم بأهميتها في إمداد الاقتصاد بالمواد الأولية، ولم تبخل الحكومة بتشجيعها لهم، وتقديم المساعدات

المختلفة للرفع من مستوى الإنتاج وتحسينه ، فكان لها ما أرادت حيث استطاعت تحقيق الاكتفاء الذاتي، وحملت منتجاتها إلى مختلف الأقطار، وكان للأمن الذي نعمت في كنفه الدولة وبخاصة في فترات القوة دور إيجابي على الفلاحين حيث أسكنت الثغور، وتغير الوضع في عصر الضعف إذ افتتحت مدن عديدة من يد الموحدين فأثر ذلك سلبا على نفسية الأفراد الذين عانوا من الضياع بعد أن مُسَّت هويتهم، وقد أشار بن نبي على دور الأرض أو التراب الحضاري.

- أدرك الموحّدون قيمة الوقت فحرصوا على استغلاله في العبادة والعمل المتواصل ، وقد شدّد الخلفاء على عمّالهم بضرورة الإسراع في إنهاء المشاريع، كما أفردوا فرقا عديدة من الصنّاع، والبنّائين، وغيرها لإصلاح كلّ ما قد يعترض طريق الحكّام والقادة عند التنقّلات الميدانية أو عند خروجهم للحرب، وهو ما عاد بالفائدة على سير مصالح البلاد والعباد سيرا حسنا مشدّدين في الآن نفسه على ضرورة إتقان العمل ومراعاة الجانب الجمالي في منجزاتهم، ولا نغفل دور التخطيط والتنظيم اللّذين تميّزت بهما - هذه الدّولة - في مختلف المجالات وهو ما اختصر عليها الوقت، وأيّعت المنجزات العديدة المظفّرة وعدّت مظهرا من مظاهر فاعليّة هذه الدولة حيث عادلّت إنجازاتها في قرين من الزّمن ما قد تستغرقه دُول أخرى لقرون، وقد أكّد مالك بن نبي على أهمية الوقت في تشييد الحضارة لأنه مرتبط بفكرة الإنجاز .

- على الرّغم من حالة الرّفاهية التي بلغتها دولة الموحّدية والتي ترجمها الرّقي العمراني وازدهار مختلف الميادين إلّا أنّ سمة البساطة والتّقشّف ظلّت ميزة هذا العصر وهو ما انعكس في اقتصار حكّامهم على الزّهد والبُعد عن البهرجة وبخاصة ابن تومرت و أبي يوسف المنصور، وهذا ما تجلّى واضحا - أيضا - في عمراهم الذي ابتعد عن المبالغة في التّزيق و التّتميق ، كما تميّرت بالقوّة والعظمة، والمتانة.

- تميّز الفرد الموحّدي بوعيه لما يحيط به وسعيه لتغيير واقعه نحو الأفضل يحذوه في ذلك حبّه لوطنه وغيرته عليه ، وهمته التي دفعته إلى تحقيق إنجازات هامة جمعت بين تعاليم الدّين الإسلامي

وخصوصية العهد الذي خضع لأفكار ابن تومرت التي لا زالت شاهدة على تفرّد الموحدين ، لذلك ضرب مالك بن نبي بهم المثل في التحضّر حيث جمعا - في رأيه - كلّ مقومات الحضارة من فاعليّة أفراد مجتمعه، وإقبالهم على خدمة الأرض واستغلال خيراتها¹ ، كما عرفوا قيمة الوقت فقدّسوه² فكان سقوط هذه الدّولة سقوط الحضارة لُفظت أنفاسها باندثارهم³.

- ويجب علينا -نحن المغاربة- تصحيح نظرة العرب والغرب لتراثنا الذي لازال في حاجة للكثير من جهودنا لسبر أغواره⁴ ، والقيام بدورنا على اعتبارنا شهداء على النّاس، واسترجاع بعض إرث أسلافنا التّليد.

¹ - ينظر شروط النهضة، مالك بن نبي، ص: 129-136.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 137-142.

³ - ينظر وجهة العالم الإسلامي ، مالك بن نبي ، ص: 36.

⁴ - ينظر حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ص: 37-39.

خاتمة

هكذا- إذأ-وبعد هذه المغامرة الممتعة وبعد سفرٍ وترحالٍ بين أدبٍ وحضارةٍ الموحّدين يمكن الوصول باسم النّهيات إلى ختام رحلة هذا البحث التي تفرض ضرورة التّؤفّف عند أهمّ النّتائج التي أفضت إليها هذه المحاولة وهي كالآتي:

- وُردت تعاريف عديدة للحضارة لكنّها لم تتمكّن من وضع مفهوم شاملٍ وكاملٍ لها، وذلك يرجع لتعقيد موضوعها وتداخله مع الثقافة، هذه الأخيرة التي تُعدّ من أكثر الألفاظ استعمالاً وهو ما حال دون تحديد مفهوم مضبوط لها هي الأخرى.

- قامت دولة الموحّدين على أساس دينيٍّ وهو الإسلام، وقد منح المهدي بن تومرت فكرة التّوحيد بعداً خاصاً عندما ادّعى العصمة والمهدويّة، فكان السّبق للتّوحيد معياراً للتّفاوت بين الموحّدين في مختلف المجالات.

- اعتمد الخلفاء على سياسة تقوم على مبدأ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، مع ضرورة إقامة العدل، جامعين في ذلك بين الشّدة واللّين، فكانوا رفقاء بالرّعية وأولياء من لا وليّ له، فضلاً عن تجلّهم بالخلال الحميدة التي كانت نتاج ثقافتهم الدّينية وتربيتهم التي استقّوها من تعاليم محمد بن تومرت، مثلما تجلّى - من خلال أدبهم - سهرهم على إنجاز المشاريع في أيسر وقت وأفضل صورة مخلفين آثاراً رائعة في عُدوتي المغرب والأندلس لا تزال تستهوي الباحثين وتأسر الناظرين إلى يومنا، وقد أسعفهم استيعابهم للحضارات المجاورة والسّابقة وإحاطتهم بها كثيراً على إبداعهم الحضاري.

-اعتنى حكام الموحّدين بنشر الثقافة ودعمها، فانعكس ذلك على مختلف مجالات الحياة؛ حيث ازدهرت الحياة العلميّة والفكريّة بفضل كثرة مراكز التّعليم، وحرصت الحكومة على تشييد المؤسّسات العلميّة بمختلف أشكالها، وقد شهدت العديد منها - ولاسيما في عدوة المغرب - تخصّصاً في العلوم الدّينية، كما اعتمدت على طرائق تعليم متطوّرة، وحرص المتعلّمون من وجهتهم على أخذ العلم من ينابيعه، فضلاً عن تسابقهم على حصد الألقاب العلميّة، وهو الأمر الذي أسهم في تخريج أفواج من العلماء شغلوا مناصب سامية في بلدانهم أو في الأماكن التي هاجروا إليها، و كان لهم مشاركة واسعة

في شتى العلوم التي أثمرت بآراء ونظريات هامة غيرت مفاهيم عديدة، كما أسهموا في تكوين جيلٍ من المتعلمين متشبع بالقيم الدينية التي أكسبتهم شخصية مسلمة، ومترنة، وقوية.

- كان لثقافة الخلفاء الأدبية والنقدية العالية انعكاس إيجابي على الحياة الأدبية التي امتازت بسيرورة دائمة؛ فقد شهد الشعر تطوراً بفضل كثرة النظم ولاسيما الشعر الديني؛ سواءً بالتنوع في أغراضه من خلال طرق مواضيع جديدة كثرء النفس والمولديتات، أو عبر استحداث أشكال نظم جديدة على نحو صنيع المغاربة مع الزجل، وتطوّرت أكثر مع مرور الوقت بفضل استحداث الصور والابتكار في المعاني.

- شجّع الخلفاء المنافسة بين الأندلسيين والمغاربة فكانت المحرك الرئيس نحو التقدم، وقد شملت مختلف الميادين؛ ففي مجال الأدب عكف الأندلسيون على تجويد نتاجهم وتحسين لغتهم، فانتعش أدب عدوة المغرب ليبرهن على علو كعب أصحابه الذين نجحوا في التقرب من الحكام وتخليد أسمائهم مع الحفاظ على شخصيتهم المحلية التي ساعدتهم في تطوير أغراض وفنون جديدة تعكس هويتهم، وهو ما انعكس إيجاباً على طبيعة الأدب الموحد ككل حيث أسهم في إثرائه وتطويره، كما أثر في الأدب المشرقي أيضاً.

- طرق الأدباء مواضيع مختلفة في الشعر والنثر كانت مقتصرة في السابق على نوع واحدٍ منهما دون غيره؛ فقد تمكّن الأدباء بفضل شخصيتهم القوية وخيالهم الواسع من تطويع اللغة لتخدم أفكارهم، دون الاكتراث للحدود القائمة بين الشعر والنثر أو بين الأغراض والفنون فيما بينها؛ ذلك أنّ أغلبهم استطاعوا المزاجية بينهما في عمل أدبي واحد، وهو ما يعكس طول باعهم في ميدان الأدب فتفوّقوا في ذلك على نظرائهم المشاركة.

- خلّف الأدباء الأندلسيون إنتاجاً ثرياً غزيراً في الأندلس غزارةً بالمقارنة مع ما خلّفه أهلّ العُدوة، وقد شهد هذا العهد ظهور المحاولات الأولى للعديد من الفنون النثرية التي جاءت ناضجة ومكتملة المعالم.

- عكس الأدب شخصية الفرد الموحدي المتشبع بالثقافة الدينية، نظراً لكثرة الصالحين والمتبتلين الذين نشطوا في مختلف المجالات وأثروا بأرائهم ومواقفهم فغيروا الكثير في واقعهم، كما عكس عقلية الإنسان الموحدي التحليلية؛ حيث قادهم التأمل الدائم وتدبرهم في تفاصيل الأشياء بدقة وبراعة إلى وعيهم الكبير بواقعهم والنجاح في التفاضل إلى جوهر الوجود، كما تميزوا بتلقائية وسرعة بديهة، وقد تجلّى ذلك في الاعتماد على المحاورات والمراسلات الشعرية المكتوبة، إلى جانب مقدرتهم على الارتجال في النظم، فأسهم أدهم بذلك في تحقيق إنجازات هامة جمعت بين روح الدين الإسلامي وخصوصية العهد.

- تميّز أسلوب أدباء الموحدين بتوظيف اللهجات المحلية والأجنبية إلى جانب اللغة الفصحى، وانعكست النزعة الدينية على أسلوبهم؛ حيث أثرت على ألفاظهم وصورهم التي اقتبسوها من التراث الإسلامي أو من الطبيعة الخلابة من خلال الاستعانة بالمحسنات البديعية والصور البيانية، ولم يهملوا في أساليبهم أيضاً البعد العقائدي، عن طريق إيراد الحجج والبراهين وتوظيف المصطلحات العلمية والفلسفية وهو ما أضفى على أدهم - وبخاصة النثر - منطقيّة وإقناعاً أكثر، كما كان لتمكّنهم من ناصية اللغة دور في تطويع مضامين العلوم المعقّدة وسكّنها في قوالب شعرية لتسهيل حفظها عاكسة التطور الحضاري فنالوا قصب السبق في ذلك.

- تتمتع أدباء الموحدين بجرية كبيرة سواءً في التفكير أو في التعبير عن آرائهم، ومن مظاهر ذلك نشوء حرب كلامية بين الفقهاء والفلاسفة، وأخرى بين الفقهاء والمتصوفة، كما تمكّنوا من إبداء آرائهم بصراحتهم الكبيرة التي وصلت إلى حدّ الجرأة على الحاكم أو على تقاليد المجتمع، أو على الدين - أحياناً - مازجين في ذلك بين الجدّ والطرفة، ولا تزال الكثير من آرائهم شغل الناس إلى يومنا حتى أنّ بعضها تحوّل إلى نظريات.

- كان أدباء الموحدين على دراية كبيرة بنفسيات البشر وطبائعهم فاهتموا بأحوال المتلقي، من خلال تنبّههم للفروق الفردية بين الأشخاص من حيث الامتثال للعقل أو للعاطفة، فكان لكلّ مقام

مقال، فضلاً عن احترام الهوية المغاربية عن طريق دعم البربر وتشجيع لهجتهم، و كذا تخصيص حيّز للناطقين بلهجتهم في مختلف المناصب، وهو ما جعل وقع خطاباتهم على المتلقين أكبر.

- بلغ الموحدون من الرقي والتفنن في البناء مبلغاً عظيماً، فأوجدوا لأنفسهم طابعاً خاصاً يميّزهم عن سواهم، ويعكس شخصيتهم المتميزة بالبساطة والمتانة والتأثر الواضح بتعاليم الدين الإسلامي، ويشهد على ذلك المنجزات العديدة التي خلّفوها في العدوتين فهي تعدّ مظهراً من مظاهر فاعلية هذه الدولة التي عادلّت إنجازاتها في قرنين ما استغرقتهم دول أخرى لقرون إذ لا تزال آثارهم شاهدة على تفرّدهم بفضل إقبالهم على العمل وإتقانه.

- تأثر الأدب بالمستجدات التي أفرزتها الحياة اليومية فنطق بلغة بيئته ؛ وتجلّى ذلك في مضامين الرسائل الديوانية وشعر رثاء الممالك والمدح والوصف، كما أثر في محيطه من خلال الدور الذي أدّاه المتصوِّفة في الحثّ على الجهاد وقيامه (الأدب) بتربية النشء وتوجيه الناس (الخطب الدينية، الزهد)، وقرب بين الناس (الرسائل والرحلات)، ولم يكتف بذلك، بل نقل عديد إنجازات الموحدون التي عبرت عن هويّتهم، كما نقل لحظات الضعف والانكسار التي شهدتها بلادهم بعاطفة حزن صادقة؛ مبينين عن رُوحٍ وطنية عالية من خلال سفاراتهم في عصر الضعف التي ضربوا بها المثل للأديب البارّ بوطنه وأمتّه والذي لم يتنكّر لجميل أو كرم حُكّامه من خلال الاستنجاد بالخلفاء في عدوة المغرب بغية تغيير واقعه فكان أدبهم بحقّ أدب حضارة لأنّه التزم بقضايا الأمة وعبر عن واقعه بكلّ صدق ودقّة .

- لقد توفّر في دولة الموحدين عناصر التحضّر وفق رؤية مالك بن نبي من احترام للأخلاق التي تتوافق مع تعاليم الدين الإسلامي ومبادئ المهدي بن تومرت، وضربوا مثلاً للحكومة التي تخدم شعبها وتجنيد استثمار طاقاتها البشرية مهما كانت طبيعتها وتوظيفها بذكاء بما يلائم مصالحها، كما ونجحت في الاستفادة من إمكاناتها المادية فاستغلّت كلّ شبر من قطرها ولم تدّخر جهداً في الحفاظ عليه، وكان لتقديس عنصر الوقت دورٌ حاسم في تحقيق الإنجازات الهامة في مختلف الميادين والتي اتّسمت

بالإتقان و حضور اللمسة المحليّة، فكانت دولتهم بحقّ واحدة من أهمّ الحضارات التي نشأت في كنف الدين الإسلامي منذ معركة صفّين.

وأخيراً لا أدعي أنني بلغت درجة الكمال في هذه الدّراسة فالكمال لله وحده، وما هذه التّائج التي توصلت إليها إلاّ بداية مفتوحة لمزيد من الدّراسات أمل أن يُفيد منها الباحثون.

قائمة المصادر

والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

أولاً: المصنّفات المطبوعة:

1. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تقديم مراجعة وتعليق بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ق3.
2. إحكام صناعة الكلام، لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، لبنان، دط، 1966م.
3. إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، إعداد ودراسة إصلاح عبد السلام الرفاعي، إشراف ومراجعة عبد الصبور شاهين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مصر، ط1، 1988م.
4. إرواء الغليل في تخرّيج أحاديث منار السبيل، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، سوريا- لبنان، ط1، 1979م، ج6.
5. البيان والتبيين، تأليف أبي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط7، 1998م، ج1.
6. الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال " دراسة تاريخية أثرية "، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1997م.
7. أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، أبو بكر بن علي الصنهاجي المكتبي بالبيدق، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، دط، 1971م.
8. آداب المعلمين، لابن سحنون، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، الشركة التونسية للنشر، تونس، ط2، 1972م.
9. الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، لبنان، ط2، 2008م.

10. الأدب والمجتمع دراسة في علم اجتماع الأدب، حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المكتب الجامعي الحديث، مصر، ط1، 2005م.
11. أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2011م، ج1.
12. أزهار الرياض في أخبار عياض، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ضبطه وحققه وعلق عليه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، دط، 1940م، ج2.
13. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى " الدولتان المرابطية والموحدية"، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق وتعليق جعفر ناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، المغرب، دط، 1997م، ج2.
14. استمرارية التاريخ ما بين صدام المصالح وحوار الحضارات، حسن إبراهيم أحمد، المنهل، ط1، 2014م.
15. أطروحات فوكوياما وهانتنتون والنظام العالمي الجديد "دراسة تحليلية مقارنة"، يحي سعيد محمد قاعود، مركز البيان للدراسات والبحوث، دط، 2015م.
16. أعز ما يطلب، محمد بن تومرت مهدي الموحدين، تقديم وتحقيق عمار طالبي، صدر عن وزارة الثقافة، الجزائر، دط، 2007م.
17. الأمة العربية الممزقة بين البداوة المتأصلة والحضارة الزائفة دراسة لتفسير الصراع بنظرية العقل المجتمعي، علاء الدين صادق الأعرجي، شركة بريطانية مسجلة في إنجلترا E- kutub ltd لندن، ط1، 2015م.
18. أمثال العوام في الأندلس للزجالي، أبو يحي عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، طبع

- بمساعدة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، مطبعة محمد الخامس، المغرب، دط، 1975م،
ق1، 2.
19. الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين " عصر الطوائف الثاني " 510هـ-546هـ
/1116م-1151م، عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1988م.
20. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أبو الحسن علي
بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي وقيل لأبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي، عني بتصحيحه
وطبعه وترجمته، (كارل جونس تورنبرغ)، دار الطباعة المدرسية، دب، دط، 1843م.
21. باقة السوسان في التعريف بالحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان " جغرافيا- وتاريخيا-
وفنيا- ومعماريا (دراسة مصحوبة بخرائط وصور)، الحاج محمد بن رمضان شاوش، ديوان المطبوعات
الجامعية، الجزائر، ط3، 2003م، ج1.
22. برنامج شيوخ الرُّعينيِّ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرُّعينيِّ الإشبيليِّ، حقَّقه إبراهيم
شَبَّوح، مطبعة مديريَّة إحياء التِّراث القديم، دمشق، سوريا، دط، 1962م.
23. بلاغة العرب في الأندلس، أحمد ضيف، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط2،
1998م.
24. البيان المغرب في اختصار أخبار الأندلس والمغرب، أبو العبَّاس أحمد بن محمد بن
عداري، حقَّقه وضبط نصّه وعلَّق عليه بشَّار عوَّاد معروف، محمود بشَّار عوَّاد، دار الغرب الإسلامي،
تونس، ط1، 2013م، ج3.
25. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق كعبد الستار أحمد
فراج، سلسلة التِّراث العربي، الكويت، ط2، 1965م، ج9، ج11.
26. تاريخ ابن خلدون " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي
السُّلطان الأكبر، عبد الرِّحمن بن خلدون، خليل شحَّادة، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر
والتوزيع، لبنان، دط، 2000م، ج6.

27. تاريخ الأدب الأندلسي، مصطفى السيوفي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ش.م.م، مصر، ط1، 2008م.
28. تاريخ الأدب العربي "عصر الدول والإمارات الأندلس"، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، دط، دت، ج8.
29. تاريخ الأدب العربي، الأدب في المغرب والأندلس "عصر المرابطين و الموحدين"، عمر فروخ، دار العلم للملايين، لبنان، ط2، 1985م، ج5.
30. تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دت، ج2.
31. تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط2، 1986م.
32. تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، عبد الرحمن حسين العزاوي، دار الخليج، الأردن، ط1، 2011م.
33. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 2002م.
34. تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مطلوب، دار الكتاب الجديد، ليبيا، ط2000، 1م.
35. التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، حمدي عبد المنعم محمد حسين، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1977م.
36. التواصل اللساني والسيمائي والتربوي، جميل حمداوي دت، دط، www.alukah.net
37. تاريخ المغرب العربي تأسيس الدولة وقيامها 550-555هـ، سعد زغلول عبد الحميد، منشأة دار المعارف، الإسكندرية، دط، دت، ج5.

38. تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، مكتبة نهضة الشرق، دب، دط، 1990م.
39. تاريخ الموحّدين (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)، عبد الواحد المراكشي، تحقيق دوزي، مطبعة ليدن، بريطانيا، دط، 1871م.
40. تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الغرناطي الأندلسي، تحقيق عمر علي، مكتبة الثقافة الدينيّة، مصر، ط1، 2003م.
41. التّربية الإسلاميّة في المغرب أصولها المشرقيّة وتأثيراتها الأندلسيّة، محمد عادل عبد العزيز، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، دط، 1987م.
42. ترجمان الأشواق، محي الدين بن علي بن عربي، اعتنى به عبد الرّحمن المصطفى، دار المعرفة، لبنان، ط1، 2005م.
43. التّكملة لكتاب الصّلة، للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ابن الأبار، تحقيق عبد السّلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنّشر، لبنان، دط، 1995م، ج1، ج2، ج3.
44. التلخيص الجامع الصّحيح للبخاري، الإمام العلامة محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النّووي، حقّقه أبو قتيبة نظر محمّد الفاريابي، دار طيبة للنّشر والتوزيع، المملكة العربية السّعودية، ط1، 2008م.
45. تهافت التهافت انتصارا للروح العلمية وتأسيسا لأخلاقيات الحوار، مع مدخل ومقدمة تحليلية وشروح للمشرف على المشروع الدكتور محمد عابد الجابري، إعداد مركز وحدة الدراسات العربية، لبنان، ط1، 1998م.
46. الثقافة وتجلياتها السّطح والأعماق، علي ناصر كنانة، مؤسّسة الرّحاب الحديثة للطباعة والنّشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2017م.

47. جمهرة اللّغة لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، حقّقه وقدم له رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، 1986م، ج1.
48. الجودة الشاملة في التعليم " وأسواق العمل في الوطن العربي"، خالد محمد الزواوي، مجموعة النيل العربية، مصر، دط، 2003م.
49. الحضارة - الثقافة - المدنية" دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم"، نصر محمد عارف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المملكة الأردنية الهاشمية، دط، 1994م.
50. الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عهد المرابطين والموحدين"، حسن علي حسن، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980م.
51. الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، ط2، 1986م.
52. حضارة الموحّدين، محمد المنوني، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1989م.
53. الحضارة "دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها"، حسين مؤنس، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1987م.
54. الحلال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ذو الوزارتين محمد لسان الدين بن الخطيب، طبع على نفقة الفاضل السيد الحاج عبد الله بن الحسين الجراري المغربي السوسي الفاضل السيد إبراهيم بن محمد العيسي، عني بتصحيحه السيد البشير الفورتي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، دت.
55. حي بن يقظان، ابن طفيل، تحقيق وتعليق أحمد أمين، تقدّم حسن حنفي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، دط، 2014م.
56. حي بن يقظان، ابن طفيل، قدّم له وحقّقه فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، دط، 1992م.

57. خريدة القصر وجريدة العصر " قسم شعراء المغرب"، العماد الأصفهاني الكاتب، تحقيق محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلالي بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، تونس، ط3، 1986م، ج1.
58. خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق آذرناش آذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد العروسي المطوي، الجيلالي بن الحاج يحيى، محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1986م، ج2، ج3.
59. الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي عند فقهاء المغرب العربي " دراسة تحليلية نقدية"، محمد مرتاض، دار الأوطان، الجزائر، دط، 2009م، ج2.
60. دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد مكّي، دار المعارف، مصر، ط3، 1987م.
61. دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي، محمد حسين قجّة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1985م.
62. دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عزّ الدين عمر أحمد موسى، دار الشروق، دب، ط1، 1983م.
63. الدرّة الألفية" ألفية ابن معطي في التحو والصرف والخط والكتابة"، للعلامة يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي، ضبطها وقدم لها سليمان إبراهيم البلكي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، ط1، 2010م.
64. دولة الإسلام في الأندلس، "عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، عصر الموحدين وانحيار الأندلس الكبرى"، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1990م، ق2.
65. الدولة الموحّدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، عبد الله علي علام، سحب الطباعة الشعبيّة للجيش، دب، دط، 2007م.

66. ديوان ابن الأَبَّار، أبو عبد الله مُحَمَّد بن الأَبَّار القضاعي البلنسي، قراءة وتعليق عبد السلام الهُرَّاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، دط، 1999م.
67. ديوان ابن سهل الأندلسي، دراسة وتحقيق يسرى عبد الغني عبد الله، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، ط3، 2003م.
68. ديوان أبو الرِّبيع سليمان بن عبد الله الموحَّد، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، سعيد أعراب، محمد بن العباس القباج، محمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الآداب والمركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، دط، دت.
69. ديوان الحسن الششتري "شاعر الصوفية الكبير في الاندلس والمغرب"، حققه وعلق عليه علي سامي النشار، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، ط1، 1960م.
70. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه حمد وطواس، دار المعرفة، لبنان، ط2، 2004م.
71. ديوان الشنفرى عمرو بن مالك نحو 70 ق هـ، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، لبنان، ط2، 1999م.
72. ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، طبعة مصحّحة ومنقّحة على الرّواية الصّحيحة، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، دط، دت
73. الدّيل والتّكملة لكتّابي الموصول والصّلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسى المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، لبنان، دط، دت، السّفر1.
74. الدّيل والتّكملة لكتّابي الموصول والصّلة، تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك، الأنصاري الأوسى المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، ط1، 1973م، السّفر2-4، السّفر5، السّفر6.
75. الدّيل والتّكملة لكتّابي الموصول والصّلة، تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك، الأنصاري الأوسى المراكشي، تقديم وتحقيق وتعليق محمّد بن شريفة، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، المغرب، دط، 1984م، السّفر8.

76. رحلة ابن جبير، ابن جبير، دار صادر بيروت، لبنان، دط، دت.
77. الرّد على النحّاة، ابن مضاء القرطبي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، 1982م.
78. رسائل موحدية " مجموعة جديدة"، تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب، ط1، 2002م، ج2.
79. زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، اعتنى بنشره وتهذيبه والتعليق عليه عبد القادر محداد، لبنان، دط، 1939م.
80. شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محمد بن صالح العثيمين (غفر الله له ولوالديه وللمسلمين)، طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، دار الوطن للنشر، المملكة العربية السعودية، دط، 1426هـ، ج5 .
81. شروط التّهضة، مالك بن نبي، ترجمة عمر كامل السقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، دط، 1986م.
82. شعر أبي مدين شعيب الرؤيا التشكيل، مختار جبار، من منشورات اتحاد الكتب العرب، سوريا، دط، 2002م.
83. الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط1، 2008م.
84. الشعر النسوي الأندلسي " أغراضه وخصائصه الفنية"، سعد بوفلاقة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت.
85. الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، دب، ط2، 2008م.
86. الطّاعة السياسيّة في الفكر الإسلامي، النصّ والاجتهاد والممارسة، هاني عبادي محمد سيف المغلّس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ط1، 2014م.

87. عنوان الدرّاية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية ، تأليف أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني ، حقّقه وعلّق عليه عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1979 م.
88. العولمة الثقافيّة واللّغة العربيّة (التحدّيات والآثار)، محمد يوسف الهزايمة، دار المنهل، لبنان، دط ، دت.
89. الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة، ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، دط، 2009 م، ج2.
90. فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله إسماعيل البخاري، شيخ الإسلام قاضي القضاة الحافظ أبي الفضل شهاب الدّين أحمد بن عليّ بن محمد بن حجر العسقلاني الشافعي، التزام عبد الرّحمن محمد، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط2، 1980م، ج10.
91. الفن والأدب، مشال عاصي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، دط، دت.
92. في آداب الحسبة، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي، ترجمة (ليفي بروفانصال) و(ج.س كولان)، مكتبة (أرنست برونكس)، باريس ، دط ، دت.
93. في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان، دط، 2000م.
94. قراءة في أدب التّفنّس "شعر أبي عمران الميرتلي الأندلسي"، صنعة وتقديم حياة قارة، دار الأمان للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2008م.
95. قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، راغب السرجاني، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2011م.
96. القضايا الكبرى، مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر، سوريا، ط11، 2014م.

97. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، لبنان، ط1، دت، مج1، مج2، مج3، مج4، مج6، مج7، مج8، مج9، مج10، مج11، مج12، مج13.
98. مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، إ. لافي بروفانصال، المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، الرباط، المغرب، دط، 1941م.
99. مدخل إلى سوسولوجيا الأدب العربي، محي الدين أبو شقر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005م.
100. مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين "دراسة سياسية وحضارية"، جمال أحمد طه، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، دط، دت.
101. مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية (442هـ-665هـ)، محمد بركات البيلي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، دط، 2000م.
102. المدخل إلى علم الاجتماع العام، أحمد طاهر مسعود، المنهل، 2011، دط، www.books.google.com.
103. المساجد والقصور في الأندلس، السيد عبدالعزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، دط، 1986م.
104. المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية ذي النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع، لبنان، دط، دت.
105. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مصطفى عبد الكريم الخطاب، مؤسسة الرسالة، دب، ط1، 1996م.
106. المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، دار الرشاد الحديثة، المغرب، دط، 2000م، ج1.

107. المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، حققه شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط4، 1955م، ج1، ج2.
108. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، دنيس كوش، ترجمة السعيداني، مراجعة الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2007م.
109. المقتضب من كتاب تحفة القادم، ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي الأندلسي، اختيار وتقييد إبراهيم البلفيقي، تحقيق إبراهيم الأبياري، قرئ على طه حسين، مطبعة الأميرية، مصر، دط، دت.
110. مقدمة ابن خلدون، العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، حقق نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، سوريا، ط1، 2004م، ج2.
111. مقدمة في أنثروبولوجيا العولمة الغرب من اقتصاديات الذات إلى جغرافيا الآخر (رؤية تحليلية) جعفر نجم نصر، صفحات للدراسات والنشر، دط، 2011م.
112. من أعلام تلمسان مقارنة تاريخية فنية، محمد مرتاض، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دط، 2004م.
113. المن بالإمامة " تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين"، تأليف عبد الملك بن صاحب الصلاة، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط3، دت.
114. منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل، ألمانيا، ط1، 1998م.
115. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صنعة أبي الحسين حازم القرطاجي، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008م.
116. الموحّدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، عزّ الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، دب، ط1، 1991م.

117. موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، دار الفارس للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1995م، ج2.
118. النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، مكتبة التراث المغربي الأندلسي، المغرب الأقصى، ط2، 1960م، ج1، ج2، ج3.
119. النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبد الغني الكساسبة، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، دط، 2004م.
120. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دط، دت، مج1.
121. نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتّاني الشهير بابن القطان المراكشي، درسه وقدم له وحقق له محمد علي مكّي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1990م.
122. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1988، ج1، ج2، ج3، ج4، ج5، ج7.
123. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكي، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ط1، 1989م، ج1-2.
124. وجهة العالم الاسلامي، مالك بن نبي، دار لفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر المعاصر، سوريا، ط1، 1986م.
125. الوساطة بين المتني وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد الجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، سوريا، دط، دت.
126. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، دت، ج3، ج7.

ثانياً: الكتب المترجمة:

1. الأندلس، ج.س. كولان، لجنة الترجمة إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني ، ودار الكتاب المصري، ط1، 1980م.
2. حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، روجي لي تورنو، ترجمة أمين طيبي، الدّار العربيّة للكتب، تونس، دط، دت.
3. حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة ، لبنان، دط، دت.
4. صدام الحضارات "إعادة صنع النظام العالمي"، صمويل لنتون، ترجمة طلعت الشايب، تقديم: صلاح قنصوة، Center ,Rockefeller,Simon and Schuster
ny10020، New york،1230Avenue of the Americas
،ط1999،2م.
5. قصة الحضارة (نشأة الحضارة)، ويل وايرلديورانت، تقديم محي الدين صابر، وزكي نجيب محمود، دار الجيل للمطبوعات والنشر والتوزيع، بيروت، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والتعليم، دط، دت ، مج 1 ، ج 1.

ثالثاً: الأطارح الجامعيّة:

1. الأسرة الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، مريامة لعناني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، تخصص تاريخ وحضارات بلاد الأندلس، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر ، دت ، تحت إشراف عبد العزيز فيلاي.

2. تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، إبراهيم موسى حاسر السّهلي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة أمّ القرى، المملكة العربية السعودية، 1987م، تحت إشراف أ.د. عبدالبصير عبد الله حسين، نوقشت يوم 25 أكتوبر 1987م.
3. جمالية الرّمز في الشعر الصوفي "محي الدين بن عربي نموذجاً"، هدي فاطمة الزهراء، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية 2006م.
4. جمالية الرّمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، حمزة حمادة، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة قاصدي مباح، ورقلة، الجزائر، السنة الجامعية 2008م، تحت إشراف د. أحمد موساوي.
5. الجهود اللغوية في المغرب الأوسط من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجريين، عمار مصطفىاوي، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، السنة الجامعية: 2006-2007م.
6. الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس والسابع الهجريين "دراسة موضوعاتية فنية"، أحمد عبديلي، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، السنة الجامعية: 2004-2005م، تحت إشراف د. محمد الأخضر الزاوي.
7. شعر الأطباء في الأندلس في القرن السادس الهجري، دراسة تحليلية نقدية، إعداد سلسبيل محمد محمود نوفل، أطروحة مقدّمة استكمالاً لنيل شهادة الماجستير، تخصص لغة عربية بكلية الدراسات العليا، جامعة مؤتة، نابلس، فلسطين، السنة الجامعية: 2009م، تحت إشراف أ.د. وائل أبو صالح، يوم 7 جويلية 2009م.
8. الشعر الاجتماعي في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، نضال سالم النوافعة، رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا استكمالاً لمتطلبات الحصول على طلبة الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، السنة الجامعية 2004م، تحت إشراف د. ذياب البداينة، نوقشت يوم 22 جويلية 2004م.

9. الشعر الأندلسي في عصر الموحدين " مقارنة لفنونه وخصائصه في الفترة الأولى"، محمد محي الدين، رسالة للحصول على شهادة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة تلمسان، 2008م، تحت إشراف د. محمد عباس، نوقشت يوم 27 ماي 2008م.
10. الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم على عهد الموحدين، دراسة في موضوعاته وبنيته (ابن معطي نموذجاً)، الطالب عبد الرحمان عبان، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، السنة الجامعية 2007-2008م، تحت إشراف د. العيد جلولي.
11. شعر الرصافي الرفاء البلنسي " دراسة موضوعية فنية"، خالد شكر محمود صالح الفراجي، رسالة من متطلبات الحصول على درجة الماجستير آداب في اللغة، جامعة ابن رشد، العراق، 2003م، تحت إشراف د. عبد الرحمان كريم عذاب اللامي.
12. صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، بلال سالم الهروط، رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، السنة الجامعية 2008م، تحت إشراف د. فايز القيسي، نوقشت يوم 8 ماي 2005م.
13. الصورة الشعرية في ديوان أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحّد، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري القديم، إعداد الطالب رابع محوي، إشراف عبد الرحمن تبر ماسين، جامعة خيضر بسكرة، الموسم الجامعي 2008-2009م، تحت إشراف د. عبد الرحمن تبر ماسين.
14. صورة المرأة في الشعر المغربي حتى نهاية القرن الثامن الهجري، إعداد الطالب إبراهيم قادة، إشراف الدكتور عبد الحميد بن صخرية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2008-2009م.
15. العجائبية في أدب الرحلات، رحلة ابن فضلان نموذجاً، علاوي الخامسة، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2005م.

16. مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا و الأندلس (بلاد المغرب)، عبد النبي بن محمد، رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1979م.
17. المغرب الأوسط على عهد الموحدين، دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية (534هـ/1139م إلى 633هـ/1235م)، علي عشي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية: 2011-2012، تحت إشراف أ.د.مسعود مزهودي.
18. المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي" دراسة تاريخية وحضارية 580هـ - 995هـ- 1184م-1198م"، ليلي أحمد النجار، بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أمّ القرى ، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ق 2 ، تحت إشراف د.أحمد السيد درّاج، نوقشت يوم 16 جوان 1990م.
19. مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي" بحث تمهيدي لمرحلة الماجستير في الدراسات الإسلامية"، عبد الملك عبد الرّحمن عبد العزيز العتيق، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، لبنان، السنة الجامعية: 2004م.

رابعاً: الدّوريات:

1. مجلة أدب الرافدين، العراق، العدد 40، 2005م.
2. مجلة الفضاء المغاربي " مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، السنة الثامنة، العدد 5، فبراير 2009م.
3. مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن، العدد الأول (عدد أبريل، مايو، يونيو)، 1977م.
4. مطبوعات سلسلة مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، عدد 23 أبريل 1992م.

خامساً: المواقع الإلكترونيّة:

www.alhayat.com .1

www.dorar.net/article .2

www.hiramagazine.com .3

www.iasj.net/iasj?func .4

www.maghress.com .5

www.uobabylon.edu.iq .6

الفهرست

شكر و عرفان

إهداء

مقدمة أ

المدخل: علاقة الأدب بالحضارة.....1-22

1- الفصل الأول: واقع الحضارة على عهد الموحدين 110 - 23

أولاً- لمحة عامة عن عهد الموحدين..... 60 - 25

1- نبذة عن قيام دولة الموحدين..... 25

2-النظام العسكري..... 30

3-النظام الإداري..... 35

4-الحياة الدينيّة..... 40

5-الحياة الاقتصاديّة..... 43

6-الحياة الاجتماعيّة..... 49

7-البناء والتعمير..... 56

ثانيا : الحياة العلميّة والفكريّة:..... 110-60

1-الحواضر العلميّة: 65

71.....	2-المؤسّسات التّعليميّة.....
77.....	3-روافد الحركة العلميّة.....
83.....	4- تجلّيات الحركة العلميّة.....
92.....	5- ميادين الحركة العلميّة.....
218 - 111.....	الفصل الثاني: الشعر على عهد الموحدين
117.....	1- الغزل
128.....	2- المدح
141.....	3- الوصف
149.....	4- الهجاء
157.....	5- الرثاء
167.....	6- الحنين
175.....	7- الفخر
177.....	8- الشكوى
179.....	9- المدائح الدينية
186.....	10- الزهد

192.....	11- التصوف
196.....	12- الشعر التعليمي
205.....	13- الموشحات والأزجال
295 - 219	3- الفصل الثالث: النثر الفني على عهد الموحدين
223.....	1- الترسّل
238.....	2- التوقيعات
240.....	3- الخطب
246.....	4- الوصايا
250.....	5- التراجم والسير
252.....	6- الأمثال والحكم والمواعظ
255.....	7- المناظرات
266.....	8- المقامة
271.....	9- القصّة
283.....	10- أدب الرحلة
382 - 296	الفصل الرابع: المظاهر الحضارية على عهد الموحدين
297.....	1- المظهر الديني

303.....	المظهر العسكري	-2
314	المظهر الإداري	-3
318.....	المظهر الاقتصادي	-4
327.....	المظهر الاجتماعي	-5
361.....	المظهر العمراني والفني	- 6
383.....	الخاتمة	
389.....	قائمة المصادر والمراجع	
409.....	الفهرست	

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

ملخص رسالة الدكتوراه في أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطية

الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين
من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد مرتاض

إعداد الطالبة:

فايزة سعيدات

السنة الجامعية: 1437-1438هـ/2017-2018م

الملخص باللغة العربية :

تُعدُّ الحضارة العربية الإسلامية واحدة من أهمّ الحضارات التي شهدتها الإنسانية؛ فقد استطاعت بفضل تعاليم هذا الدين الحنيف وما أضفاه عليها من مُرُونة و عالِية أن تمتدَّ في مشارق الأرض ومغاربها؛ حيث قامت في ظلّها دُول عديدة تنبض بتعاليم الإسلام، ولعلّ دولة الموحدين في بلاد المغرب الإسلامي واحدة من أهم الدول التي تداولت على هذه المنطقة، حيث استطاعت أن توحد بين عُدوتي المغرب والأندلس تحت حكومةٍ مركزيّةٍ واحدة لأوّل مرّة في تاريخ المنطقة بالرغم من تعاقب دُول عديدة عليها، ولم تكتف بذلك فقط بل سعت إلى تحقيق العديد من الإنجازات المعنوية والمادية لتخلد أسماء حكامها، ويُعدّ الأدب أحد أهم تلك الآثار التي خلفها هذا العهد بصفتها أحد المعايير الهامة بل الحاسمة في الحكم على المستوى الفكري للأمم فالموحدون لم يشدّوا عن ذلك، وبصفتي طالبة في قسم اللغة والأدب العربي أحببت أن أقف على حضارة الموحدين من هذا المنظور(الأدب).

ولم يكن اختياري للموضوع مصادفة بل كان إملاءً لرغبةٍ شخصيّةٍ تتمثّل في إعجابي بدولة الموحدين التي كانت مغربيّة الفكرة والدعوة والثورة، و محاولة الإسهام -ولو بالنزر القليل- في إثراء التراث المغربي وإحيائه والمحافظة عليه ونقله للأجيال اللاحقة من خلال التركيز عليه، لاعتقادي أنّ عبء إحياء تراث أيّ أمةٍ يكونُ على كاهل أبنائها بالدرجة الأولى، بحكم انتمائهم إليها وعيشهم فيها وهو ما يؤثّر في سبر أغوارها من أقرب الطرق وأسلمها في الكشف عن خصوصيّتها، وذلك بفضل احتكاكهم بالمنطقة ومعرفتهم لآثارها، وقد كان أمني كبيراً في أن أوفق يوماً إلى الكشف عن

إنجازات أسلافنا الأدبية والحضارية فاهتديت إلى عنوان بحثي الموسوم " الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري " و ذلك بتوجيه من أستاذي المشرف فله عظيمُ الشُّكر والتَّقدير، ولأنَّه لا يمكن لأَيِّ عمل أدبي أن يُبنى من فراغ، فقد اعتمدت في بحثي على مجموعة من المصادر القديم والحديثة التي لها صلة بموضوع بحثي.

ويسعى هذا البحث إلى الإجابة عن مجموعة من الإشكالات؛ منها:

* ما طبيعة الموروث الثقافي والإنجاز الحضاري الذي خلَّفه الموحدون؟

* ماهي أهم الأغراض الشعرية والفنون النثرية التي قامت في كنف دولة الموحدين، وأيها كان أقدر على تصوير واقع الموحدين؛ الشعر أم النثر؟ وهل كان تركيزه على مظهر واحد، أم أنه تطرق لمختلف المظاهر؟

* هل استطاع أدب الموحدين أن يستوعب الحضارة العظيمة التي شهدها هذا العهد؟

* هل يمكن اعتبار الحضور الثقافي والحضاري لدولة الموحدين ذا تأثير إيجابي أم سلبي؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة استعنت بخطة للوصول إلى النتائج المؤمل تحقيقها فجاءت هذه

الدراسة في مدخل وأربعة فصول مذيِّلة بخاتمة، وبقائمة المصادر والمراجع وفهرس للموا.

ففي المدخل تناولت تعريف لفظي كلٍّ من الحضارة والثقافة من خلاله ذكر تعريفات مختلفة

حاولت التأسيس لمفهوم الحضارة و للإشارة فإنه وردت تعاريف عديدة لها لكنّها لم تتمكّن من وضع

مفهوم شاملٍ وكاملٍ لها وذلك يرجع لتعقيد مَوْضُوعها وتداخله مع الثقافة هذه الأخيرة التي تُعتبر من

أكثر الألفاظ استعمالاً وهو ما حال دون تحديد تعريف لها هي الأخرى، وبعد ذلك حاولت الوقوف على طبيعة العلاقة التي تربط بين كل من الأدب والحضارة ومدى تأثير كل واحد منهما في الآخر.

وأفردت الفصل الأول للحياة الفكرية والثقافية للتعرف على مدى مشاركتهم في العلوم التي كانت سائدة في عصرهم فلاحظت أنهم أعطوا عناية فائقة لمختلف العلوم ودعموها، وقد انعكست على الحياة الفكرية والعلمية بوضوح، كما كانوا سباقين إلى استحداث أنماط جديدة من التعليم لم تكن معروفة لديهم، فضلاً عن تشييد حكاهم للعديد من المؤسسات التعليمية بمختلف أشكالها حرصاً منهم على نشر الثقافة، واهتم طلبة العلم من جهتهم بأخذ العلم من ينابيعه فحرصوا على نيل الألقاب العلمية، وهو الأمر الذي أسهم في تخريج أفواج من العلماء شغلوا مناصب هامة في بلدانهم أو في الأماكن التي هاجروا إليها، كما كان لهم مشاركة واسعة في حركة التأليف، التي أثمرت بآراء ونظريات هامة غيرت الكثير من المفاهيم ولا زال الكثير منها يدرّس إلى يومنا، كما أسهموا في تكوين جيل من المتعلمين متشبع بالقيم الدينية التي أكسبتهم شخصيّة مسلمة، ومتمتزة، وقوية.

وانتقلت في الفصل الثاني للحديث عن الحياة الأدبية ومحاولة الاطلاع على الوضع الذي استقرت عليه في هذا العهد، وذلك من خلال التطرق إلى مختلف الأغراض والفنون الشعرية التي شهدت رواجاً في هذا العصر و استكشاف مدى تطورها واستخلاص مميزات فلاحظت أن الموحدين * شهد عهد الموحدين فتوحات لمدن عديدة وجاءت قائد المديح كوثيقة تاريخية تشهد على إنجازات الموحدين وتخلد معاركهم التي عكست بطولاتهم وسياستهم الراشدة. * كان لثقافة الخلفاء الأدبية والنقدية العالية انعكاس إيجابي على الحياة الأدبية التي كانت في سيرورة دائمة فقد شهد الشعر تطوّراً من

خلال كثرة القول - وذلك مقارنة بعهد المرابطين - ولا سيما الشعر الديني منه سواء بالتنوع في أغراضه من خلال طرق مواضيع جديدة كثرء النفس و المؤلديّات أو من خلال استحداث أشكال نظم جديدة على نحو صنيع المغاربة مع الزجل وتطورت أكثر مع الوقت بفضل استحداث الصور وابتكار المعاني كما تمكّن الشعر على عهدهم من تدوين إنجازاتهم التي أبحرت العالم قديماً، ولا تزال مرجعا إلى يومنا حيث عكست التطور الحضاري الذي عرفته الدولة الموحدية، كما شهد هذا العصر تنافسا بين الشعراء الأندلسيين والمغاربة الذين تأثروا بالمشاركة في طريقة نظمهم، ومحاولة منهم لمخالفته الأندلسيين، وجاء هذا التنافس كرد فعل على مغايرات الأندلسيين بشعرائهم وهو ما استفز المغاربة.

وقد طرق الشعر والنثر المواضيع التي كانت مقتصرة في السابق على نوع واحد منهما دون غيره وأما الفصل الثالث فقد خصّصته لأهمّ الفنون النثرية مع عرض نماذج لكلّ واحد منها بغية الوقوف على مميزاتا على هذا العهد، فقد تطرق الكتاب لمختلف الفنون النثرية سواء تلك التي كانت معروفة قبلهم فزادوا عليها وابتكروا فيها ، أو باختراع أساليب كتابة جديدة مثل القصة ، أو المنامات أو أدب الطفل وهذا كله يعكس سعة خيالهم وبراعتهم اللغوية ، ودليل ذلك أنّهم استطاعوا بإبداعهم النثرية أن يؤثروا في الكتاب المعاصرين ؛ فقد تمكّن الأدباء بفضل شخصيتهم القويّة وخيالهم الواسع من تطويع اللّغة لتخدم أفكارهم دون الاكتراث للحدود القائمة بين الشعر والنثر أو بين الأغراض والفنون فيما بينها ذلك أنّ أغلبهم استطاعوا المزاجية بينهما في عمل أدبي واحد، وهو ما يعكس تمكّنهم في ميدان الأدب فتفوّقوا في ذلك على نظرائهم المشاركة.

وبالإجمال فقد شجّع الخلفاء المنافسة بين الأندلسيين والمغاربة فكانت المحرك نحو التقدم وشملت مختلف الميادين وفي مجال الأدب عكف الأندلسيون على تجويد انتاجاتهم وتحسين لغتهم فانتعش أدب عدوة المغرب ليبرهن على علو كعب أصحابه الذين نجحوا في والتقرب من الحكام وتخليد أسمائهم مع الحفاظ على شخصيتهم المحلية التي ساعدتهم في تطوير أغراض وفنون جديدة تعكس هويّتهم، وهو ما انعكس إيجابا على طبيعة الأدب الموحد ككل حيث أسهم في إثرائه وتطويره، كما أثر في الأدب المشرقي أيضا.

تأثر الأدب بالمستجدات التي أفرزتها الحياة اليوميّة فنطق بلغة بيئته واستقى مواضيعه من الحياة اليوميّة وتجلّى ذلك في مضامين الشعر والنثر الهادفة إلى إصلاح الفرد والمجتمع، كما صوّر أدبهم مختلف المنجزات التي خلّفها الموحدون والتي عبّرت عن هويّتهم، فضلا عن لحظات الضعف التي شهدتها بلادهم بعاطفة حزن صادقة مؤكّدين على رُوحٍ وطنيّةٍ عالية من خلال الاستنجاد بالخلفاء في بلاد المغرب بغية تغيير واقعه فكان أدبهم بحق أدب حضارة.

كما تميّز أسلوب الموحدين بتوظيف اللهجات المحليّة والأجنبيّة إلى جانب اللغة الفصحى، وانعكست الثقافة الدينية على أسلوبهم، من خلال إيراد الحجج والبراهين وتوظيف المصطلحات العلميّة والفلسفيّة وهو ما أضفى على أدبهم منطقيّة وإقناعا أكثر، كما كان لتمكّنهم من ناصية اللغة دور في إخضاع مضامين العلوم المعقّدة وجعلها في قوالب شعريّة لتسهيل حفظها عاكسة التطور الحضاري.

ويمكن القول إنّ الأدب عكس شخصية الفرد الموحد المتشبع بالثقافة الدينية ، نظرا لكثرة الصّالحين الذين نشطوا في مختلف المجالات وأثروا بأرائهم ومواقفهم فغيروا الكثير في واقعهم ، كما عكس عقلية الموحدين التحليلية ؛ حيث قادهم التأمل الدائم وتدبرهم في تفاصيل الأشياء بدقة وبراعة إلى وعيهم الكبير بواقعهم والنجاح في النفاذ إلى جوهر الوجود كما تميزوا بتلقائية وذكاء ، وتجلّى ذلك في الاعتماد على المحاورات والمراسلات الشعرية المكتوبة التي عكست سرعة بديهتهم وقدرتهم على الارتجال ، فأسهم أدبهم بذلك في تحقيق إنجازات هامة جمعت بين روح الدين الإسلامي وخصوصية العهد ، وآثارهم لا تزال شاهدة على تفردهم بفضل إقبالهم على العمل وإتقانه .

وتطرق في الفصل الرابع للمظاهر الحضارية التي عكسها أدب هذه الحقبة فقد كان للحرية الكبيرة التي تمتع بها الموحدون انعكاس عليهم سواء في التفكير أو في التعبير عن آرائهم ، ومن مظاهر ذلك ظهور حرب كلامية بين الفقهاء والفلاسفة من وجهة ، وبين الفقهاء والمتصوفة من وجهة أخرى ، كما تمكنوا من إبداء آرائهم بصراحتهم الكبيرة التي وصلت إلى الجرأة على الحاكم أو على تقاليد المجتمع ، أو حتى الدين أحيانا .

ووجدت أنّ الخلفاء اعتمدوا في سياستهم على ضرورة إقامة العدل ، فكانوا رفقاء بالرعية وأولياء من لا ولي له ، فضلا عن التزامهم بالخلال الحميدة التي كانت نتاج ثقافتهم الدينية فضلا عن تجملهم بالخلال الحميدة فانعكس ذلك على سياستهم الداعية إلى التقرب من الرعية ؛ فقد تابعوا سير المشاريع ووقفوا إلى جانب المرضى في المستشفيات ، وعكفوا على الاستماع لشكاوي المظلومين وحفظ

كرامتهم سواء بالجلوس، وهو ما كان له انعكاس جيّد في نفوسهم فكانوا قُدوةً صالحةً لشعبهم الذي أقدم على العمل بحب وإتقان فعكس كفاءته في مختلف الميادين.

كما بلغ الموحدون من الرقي والتفنن في البناء مبلغاً عظيماً، فأوجدوا لأنفسهم طابعاً خاصاً يميّزهم عن سواهم، ويعكس شخصيّتهم المتميّزة بالبساطة والمتانة والتأثر الواضح بتعاليم الدين الإسلامي، ويشهد على ذلك المنجزات العديدة التي أنجزوها في العدوتين والتي تعدّ مظهراً من مظاهر فاعلية هذه الدولة التي عادت إنجازاتها في قرنين ما استغرقتهم دول أخرى لقرون.

وضمّنت الخاتمة مجموعة استنتاجات تُعتبرُ محصّلةً لأهمّ النتائج التي حاولتُ الوصول إليها.

وإذا كان لكل بحث منهج يحدد عناصره، ويوضح محاوره، فإنّ بحثي هذا أيضاً اعتمد على مجموعة من المناهج اقتضتها طبيعة الموضوع حيث استعنت بالمنهج التاريخي عند العودة لأحداث تاريخية معينة، كما وظفت المنهج الفني عند قراءة النماذج الأدبية، فضلاً عن المنهج التحليلي عند محاولة شرح وتبسيط معاني النصوص الشعرية أو النثرية.

هذا، وقد واجهتني مجموعة من الصعوبات في هذا البحث، ومن أهمّها: طبيعة الموضوع الواسعة والمتشعبة؛ فهي تجمع بين الأدب بشقيه الشعري والنثري وكذا الحضارة بأبعادها ومظاهرها المختلفة في عدوتي المغرب والأندلس خلال فترة تنيف عن قرن من الزمن وقلة الدراسات في هذا الجانب، حيث اقتصرت بعض المصادر على جمع إنتاجات أدبية معينة ركزت على البعد الديني وإهمال إنتاجات أخرى إمّا عن قصد أو عن غير قصد، فضلاً عن تقارب مجالات العديد من العلوم كالفقه وأصول الفقه العلوم العقلية وتداخلها فيما بينها كالسير والتاريخ وماله من تشتيتٍ للذهن، إلى

جانب الاختلاف في نسبة العديد من الأشعار لأصحابها الحقيقيين لضياح العديد من المصادر والدواوين، فضلا عن عدم شكل أغلب الآثار الشعرية وهو ما صعب الغوص في معناها الحقيقي وذلك يعود لقلّة الاهتمام بهذا الكنز المغربي، وطال الاختلاف تواريخ ميلاد ووفيات العلماء والأدباء-أيضا- وبخاصة مع امتداد عمر بعضهم إلى الدول اللاحقة ، وهو ما كان له تأثير كبير في الحسم بشأن اعتماد بعض النصوص أو التّغاضي عنها، كما كان لرحلاتهم وتنقلاتهم الداخلية والخارجية منها صوب المشرق والحجاز دور في طبيعة المادة التي اشتمل عليها البحث حيث اقتصرّت في غالبه على ما كان إبداعه مغاربيًا سواء من حيث القائل أو البيئة دون إهمال دور تلك المؤثرات الخارجية على تطوّر العلوم والفنون على هذا العهد.

ومن مظاهر تشبّثهم بمبادئ الدين الإسلامي اعتمادهم على مبدأ الشورى في مختلف القضايا، والاقتصار في مداخيل بيت المال على ما هو حلال وحرصها على صرفه للفائدة العامة، فضلا عن محاربة ما نهى عنه الشّرع وكلّ ما يفسد الأخلاق

وكانت خدمة الأرض من بين اهتمامات الموحدين بمختلف فئاتهم وعيا منهم بأهميتها في إمداد الاقتصاد بالمواد الأولية، ولم تبخل الحكومة بتشجيعها لهم وتقديم مختلف المساعدات للرّفح من مستوى الإنتاج وتحسينه فكان لها ما أرادت حيث استطاعت تحقيق الاكتفاء الذاتي و حملت مُنتجاتها إلى مختلف الأقطار، وكان للأمن الذي نعمت به الدولة وبخاصّة في فترات القوّة دور إيجابي على الفلاحين حيث أُسكنت الثّعور، وتغيّر الوضع في عصر الضّعف إذ أخذت مدن عديدة من يد الموحّدين فأثر ذلك سلبا على نفسيّة الأفراد الذين عانوا من الضّياح بعد أن مُست هويّتهم.

وأدرك الموحدون قيمة الوقت فحرصوا على ملئه بالعبادة والعمل المتواصل ، وقد شدّد الخلفاء على عمّاهم بضرورة الإسراع في إنهاء المشاريع، كما أفردوا فرقا عديدة من الصنّاع ،والبنّائين ،وغيرهما لإصلاح كلّ ما قد يعترض طريق الحكام والقادة عند التنقلات الميدانية أو عند خروجهم للحرب ، وهو ما عاد بالفائدة على سير مصالح البلاد والعباد سيرا حسنا مشدّدين في الآن نفسه على ضرورة إتقان العمل ومراعاة الجانب الجمالي في منجزاتهم، ولا يجب أن نغفل في هذا الشأن دور التخطيط والتنظيم اللّذين تميّزت بهما في مختلف المجالات وهو ما اختصر عليها الكثير من الوقت ونتج عن ذلك المنجزات العديدة التي حقّقوها في العدوتين التي تُعدّ مظهر من مظاهر فاعلية هذه الدولة حيث عادلّت إنجازاتها في قرنين ما قد تستغرقه دول أخرى لقرون .

وبالرّغم من حالة الرفاهية التي بلغتها دولة الموحدية والتي ترجمها الرقي العمراني وازدهار مختلف الميادين فإنّ سمة البساطة والتّكشّف ظلّت ميزة هذا العصر وهو ما انعكس في اقتصار حكامهم على الزّهد والبُعد عن البهرجة وبخاصّة ابن تومرت و أبي يوسف المنصور، وهذا ما تجلّى بوضوح - أيضا - في عمرانهم الذي ابتعد عن المبالغة في التزييق والاكتفاء بالقوّة والعظمة والمتانة.

وتتميز الفرد الموحدى بوعيه لما يحيط به وسعيه لتغيير واقعه نحو الأفضل يحذوه في ذلك حبّه لوطنه وغيّره عليه ، وهّمته التي دفعته إلى تحقيق إنجازات هامة جمعت بين تعاليم الدين الإسلامى وخصوصية العهد الذي خضع لأفكار ابن تومرت التي لا زالت شاهدة على تفردّ الموحدىين ، ويكفى ضرب مالك بن نبي بهم المثل في التحضر حيث جمعوا - في رأيه - كلّ مقوّمات الحضارة فكان سقوط هذه الدولة سقوطا لحضارة لفظت أنفاسها باندثاره، ويجب علينا -نحن المغاربة- تصحيح نظرة العرب

والغرب لتراثنا الذي لازال في حاجة إلى الكثير من جهوداتنا لسبر أغواره ، والقيام بدورنا على اعتبارنا شهداء على الناس، واسترجاع بعض من إرث أسلافنا، و أخيرا لا أدعي أنني بلغت درجة الكمال في هذه الدراسة فالكمال لله وحده، وما هذه النتائج التي توصلت لها إلا بداية مفتوحة لمزيد من الدراسات آمل أن يفيد منها الباحثون.

Introduction:

Among the most important civilizations that humanity has known; Arab-Islamic civilization. The latter has succeeded thanks to the provisions of the holy religion and to what has been brought to them, to spread from all over the world. Maybe, the State of the Almohads in the Islamic Maghreb, is one of the countries the most important ones that united Maghreb and Al-Andalus under a central government for the first time in the history of the region. This, despite the many successive attempts of the countries, and which also sought to achieve a large number of moral and material achievements to perpetuate the names of his men; and I, as a student at the Department of Arab Language and Literature, wanted to rely on the Almohad civilization in this perspective - literature - .

It was not a coincidentally chosen subject, but to fulfill a personal desire to admire the Almohades' empire, which had a

Maghreb revolution. And then to try to contribute a bit to the Maghreb heritage and to revive and to preserve it and for future generations by focusing on this subject, because I believe that the burden of reviving the nation's heritage is insane. Because of their contact with the region and their knowledge of its effects. I hoped one day to reveal the achievements of our literary and cultural ancestors through my research entitled: "The literary life and aspects of civilization in the age of Almohads from the sixth century to the end of the seventh century ". Under the supervision of my teacher framer whom I thank enormously, so that no literary work can be built from a vacuum, and I referred in my research on a range of ancient and modern sources that are relevant to a research topic.

This research aims to answer a set of problems, including:

What is the nature of cultural heritage and cultural achievements left by the Almohads?

What are the most important goals of poetry and prose by the arts within the boundaries of the Almohad State and which of the two has been most successful in representing the reality of the Unitarian, poetry or prose? and if the base was put on only one of the aspects or then on the various aspects?

Did the literature of the Almohads understand the great civilization witnessed by this alliance?

Can the cultural and civilizational presence of the Almohad state be considered as positive or negative?

To answer these questions I followed a plan to achieve good results. This study consists of an entry and four chapters followed by the conclusion, and list of sources and references and index materials.

In the entry, I treated the definition of civilization and culture by presenting different definitions, it is to emphasize that many definitions to before did not comprise a global and

complete concept, and this because of the complexity of the latter with culture, which is considered one of the most widely used words. After that, I tried to identify the nature of the relationship between literature and civilization and the magnitude of the impact of each of them in the other.

I devoted the first chapter to the intellectual and cultural life to know the extent of their participation in the science that prevailed in their time. I noticed that they gave particular attention to the various sciences supported, which has reflected clearly on the intellectual and scientific life, as well as they sought to develop new models of education that they did not know before, and this by the constitution of educational institutions in various forms in order to spread their culture. Science students, in turn, were interested in taking their share of the science of the springs to win scientific titles, and that has helped to create researchers who have held important positions

in their country. They have also contributed to the formation of a generation of educated people filled with religious values that have earned them a Muslim, balanced and strong personality.

And, I devoted the second chapter, to the literary life and I tried to see the situation stabilized in the present pact, addressing the various goals of poetry and the arts, which were popular at that time and exploring the scope of its developmental and extractive characteristics. While observing that, the Unitarian Kingdom saw the Unitarian conquests of many cities came to command rent historical document attesting the achievements of the Unitarian and perpetuate their battles, reflecting their heroism and adults.

The culture of the literary and monetary caliphs had a positive reflection on the literary life which was in a permanent process which where poetry evolved through the many say, compared to the time in office, especially religious. Then

diversification into its objectives through the methods of new subjects or by the development of new forms of systems to Maghrebian formulas and evolved over time. Thanks to the modernization of images and creation of meanings The poetry of their time has made record achievements which has dazzled the world in ancient times and is still a reference today, where reflects the cultural development known in the Almohad Empire.

This time was a competition between the Andalusian and Maghreb poets who were touched in the way of their systems, by addressing the topics of poetry and prose that were previously limited to one type of them without the other.

The third chapter was allocated to the most important prose arts with the presentation of the models for each of them in order to stand on the benefits of this alliance. The writers addressed the various prose arts, as well as those that were

known before, and by creating new writing methods such as history, or children's literature and all this reflects their ability to imagination and mastery of the language and evidence that they may have influenced modern writers and were able. Thanks to the strong personality and wide imagination to adapt the language to serve their ideas without worrying about the existing boundaries between poetry and prose, or between the goals and the arts in while most of between them were pairing them in the measure of one's literary work. It allows them to put literature in the field and have succeeded on their Eastern counterparts.

In total, the caliphs encouraged competition between Andalusians and Maghrebians as the driving force to progress and included various fields. In the field of Andalusian worked literature to improve and demonstrate the height of the heel of his companions, who managed to bringing leaders, together and

perpetuating their names while preserving the local personality that has helped them for development purposes. The arts reflect a new identity, which positively impact the nature of the literature as a whole, where the Almohads have contributed to enrich and develop the effect of oriental literature as well.

The literature has been influenced by the developments that have emerged from everyday life, he has taken his linguistic environment and pulled his subjects from everyday life and reflected in the content of poetry and prose aimed at reforming the individual and society. This as image literature different achievements left by Unitarians and expressed their identity, as well as moments of weakness seen their passion pain Honest highlighting the good spirit and a high national call in the Maghreb caliphs to change the reality was against the literature of the civilization of literature.

The Almohad style was also marked by the use of local and foreign dialects, as well as the classical language, and reflects the religious culture of their style, by arguments of income and evidence and employing scientific and philosophical terms. Which have given logical literature more convincing, to enable them to oppose the role of language to submit the content of complex science and make them to facilitate their conservation reflecting cultural development.

It can be said that the literature has reflected the personality of the Almohad individual through religious culture, because of the many righteous who are active in various fields and have influenced their opinions and attitudes have changed so much in reality. Also reflects the mentality of the analysis, where led by the constant Unitarian meditation in the details of the things with precision and know-how to the great awareness of their reality and the success in access to the essence of

existence as spontaneously distinguished themselves and their ability to improvise the literature. Thus realizing important achievements brought together the spirit of the Islamic religion and the privacy of the Covenant, monuments still testify their uniqueness through the motivation to work and developed.

The fourth chapter was devoted to the cultural aspects, reflected by the literature of that time, it was the great freedom enjoyed by Unitarian reflection on them, whether in thought or expression, and aspects of emergence. of a war of words between scholars and philosophers on the one hand, and between researchers and Sufis on the other, as they were able to express their great frankness that reached the audacity of the rule or the traditions of society or even religion sometimes.

And I found that the caliphs were baptized in their policy on the need for the administration of justice They were the companions of the parish and the parents of no guardian him, as

well as their commitment to the good qualities that were the product of religious culture. As well as qualities of good things that reflected on their policy, calling for closer to the parish followed the advancement of projects stand near patients in hospitals and were interested in listening to complaints of the oppressed and the dignity of good thinking in them. They were a good example for their people who work on the oldest and the yield in various fields.

The Almohads have achieved sophistication in building a large amount for themselves a special character to distinguish them from others. This reflects their personality and simplicity, durability and vulnerability to influence the teachings of the Islamic religion, as evidenced by the many accomplishments that they have completed in the bow, which is an aspect of state efficiency, equivalent to two centuries of work, which other nations have done for centuries.

Conclusion:

The conclusion contained a series that reflected the most important results I received, including:

The Almohads refer to the teachings of the Islamic religion and Ibn Toumart's ideas as evidence that their name was inspired by the doctrine of Islam that is based on monotheism. Besides relying on the principle of consultation on various issues, and limiting the house of money back on what is halal keen on purely public interest, as well as the fight against it forbids him and all that violates morality.

Land farming was among Almohades' concerns across various categories and aware of its importance in the economy of supply, raw materials, and the government did not retain by encouraging them and by providing various forms of helping to raise the level of production. Then improvement has been able

to achieve self-sufficiency and exercise its products in various countries and the security available to the State. This especially in terms of strength on the positive role of the peasantry as the change when he moved to the situation at the time of the weaknesses, as many cities were taken from the hand of Unitarian the negative impact on the psyche of people who suffered losses after feeling their identity.

The Almohads realized the value of time to complete the worship and the work and the caliphs emphasized their workers to speed up the projects and created numerous teams of craftsmen, builders and others to repair anything that might be objected by the leaders movement, which has been beneficial for the functioning of the country's interests. While stressing at the same time the need to master the work and taking into account the aesthetic aspect of their achievements must not neglect in this respect, the role of planning and organization,

which characterized them in various areas, which they achieved in a lot of time and gave rise to many achievements. They reached in the bow. That a manifestation of the efficiency of the State where equal their achievements in two centuries what can other countries for centuries.

The Almohad individual was aware of what surrounds him and his quest to change the reality for better in that his love for his homeland and his jealousy for her, and the ambition that led him to achieve important achievements collected. Collection between the teachings of the Islamic religion and the private life of the alliance that he underwent Ibn Toumart ideas that still testify to the uniqueness of the Unitarian and quite hit Malik ben Nabi their ideals in terms of urbanization gathered at his opinion.

Despite the state of well-being achieved by the Almohad state that reflects the sophistication of the cities and the

prosperity of the different areas. As well as simplicity and functionality of austerity remained this characteristic of the time, which to confine their ascetic leaders, especially Ibn Toumart and Abu Yusuf El Mansour, which is clearly clear in construction far from exaggeration in decoration but based on strength, size and durability.

Regarding the nature of the methodology adopted in my study, the research was based on a set of programs dictated by the nature of the subject where approaching the historical when you return certain historical events as artistic approach used during the reading literary models. As well as the analytical approach in trying to explain and simplify the meanings of poetry or rich texts.

In addition, I encountered a series of difficulties in this research, the most important of which is: a vast and complex subject nature, because it combines literature, poetry and prose,

as well as the dimensions of civilization and different aspects. In the Maghreb and Al-Andalus and a lack of studies in this aspect has been limited to some sources the collection of some productions publications focused on the religious dimension and neglecting other productions either intentionally or inadvertently. As well as the convergence of areas of several sciences and the principles of jurisprudence and mental science and the overlap between them as walking, history and wealth distracting the mind. In addition to the difference in the proportion of many poems for their owners the right loss of several sources and government offices as well as not form the most effects of poetry and it is due to lack of interest in this Maghreb heritage. Especially with the extension significant in discounts on the adoption of certain texts or neglected, as for their internal and external journeys and their eastward movement and the role Hedjaz in the nature of the material. This included the research was limited to the predominance

that did not say all Maghrebian creativity both in terms of the view or the environment to neglect the role of these external influences on the development of science and the arts in the present Covenant.

In the end , we can say that we must-we Maghrebians-correct the Arab and Maghrebian look about our heritage that still needs a lot of effort for the glory, and do our part to the spirit of martyrs of the people. Then recover some of what our ancestors gave us, and finally, I can only say that I have arrived at perfection in this study, for perfection belongs to God alone. These results are just the beginning of other in-depth studies in which I hope the researchers will give more.

جَامِعَةُ أَبِي بَكْرٍ بَلْفَايِد - تِلْسَان

مجلة
الفُضَاءُ المِفْكَارِيَّة

مجلة دورية محكمة يصدرها
مفبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها
في المغرب العربي

العددان العاشر والحادي عشر

السنة الرابعة عشرة - جمادى الآخرة 1437هـ / مارس 2016 م



رقم الإيداع القانوني

508-2003

الترقيم الدولي

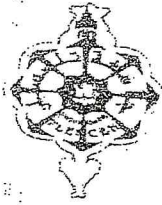
ISSN: 1112-4067



توزع مجاناً

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

مجلة الفضاء المغربي



مجلة دورية محكمة يصدرها
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية
وأعلامها في المغرب العربي



العددان العاشر والخادي عشر

السنة الرابعة عشرة - مجادى الآخرة 1437 هـ / مارس 2016 م

رقم الإيداع القانوني 2003-508
التسجيل الدولي ISSN 1112-4067

الفضاء المغاربي

مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي

المدير المسؤول: أ.د. محمد مرتاض
رئيس التحرير: أ.د. محمد زمري

الهيئة الاستشارية:

أ.د. عكاشة شايف / الجزائر
أ.د. حسن الأمراي / المغرب
أ.د. فهد سالم الراشد / الكويت
د. حسن جلاب / المغرب
أ.د. كلود أودبار / فرنسا
أ.د. سان أوغستان / فرنسا

هيئة التحرير:

أ.د. محمد مهداوي
أ. رحيمة حران
د. نورية بن عدي
د. نجلاء مرتاض
أ. عمارة حياة

ضوابط النشر

- ترسل الأعمال المرشحة للنشر إلى المجلة مطبوعة على الحاسوب بخط: Traditional Arabic
- بحجم: 16 ومصحوبة بنسخة على القرص المضغوط (CD).
- يجب أن تكون الهوامش والإحالات في نهاية المقال.
- يراعى في المقالات التوثيق، والبعد عن الانطباعية.
- لا تنشر المجلة إلا المقالات التي لم تنشر من قبل.
- لا تعبر المواد المنشورة في المجلة إلا عن آراء أصحابها.
- لا ترد المقالات إلى أصحابها نشرت أولم تنشر.
- ترتيب المواد يخضع لمقاييس فنية.

تتم المراسلات باسم :

مدير المجلة : مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي، كلية الآداب واللغات ، ص ب :
138 - تلمسان 13000 الجزائر. هاتف/ فاكس : 88 58 21 (043) البريد الإلكتروني: lab_elcm19@yahoo.fr

فهرس

7	افتتاحية العدد
دراسات شعرية ونثرية	
11	المولديات بين المنزح الاجتماعي والتفرد الفني أ.د. محمد زمري
23	التجليات الإلهية عند شعراء تلمسان المتصوفة د. فاطمة داود
43	قراءة في موشحات أبي مدين شعيب د. حسين فارسي
51	صورة المرأة في التراث الشعري الزياني ودورها في تأصيل الهوية العربية الإسلامية نجاة بلعباس
59	صورة المرأة في شعر الأمير أبي الربيع سليمان الموحد فايزة سعيدات
67	جمالية الرمز الأنثوي في شعر مفدي زكرياء د. ليلى قراوزان
77	المختلة التراثية وأبعادها في الرواية العربية الجزائرية د. ابن جماعي أمينة
89	دلالة العنوان وانفتاح اللغة على التراث في رواية (لونجة والغول) لزهور وليسي د. طرشي سيدي محمد
97	المرأة الموضوع والفاعل في المثل الشعبي التلمساني د. نصيرة شافع بلعيد
107	صورة المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية أ. ليلى رمضان
115	نظرة عن دلالة المكان في القصيدة المغربية ابن عمارة منصورية
الأدب القصصي والمرأة	
129	المرأة والثورة في القصة القصيرة الجزائرية أ.د/ أحمد طالب
135	المرأة في الرواية الجزائرية مريم حموم
143	صورة المرأة في النثر الجزائري (الرواية أمودجا) قنون أمينة
151	صورة المرأة في رواية «غادة أم القرى» لأحمد رضا حوحو صابر حفيظة
159	صورة المرأة في الرواية الجزائرية شخصية نفيسة في «ريح الجنوب» أمودجا ستي بوكليخنة
165	صورة المرأة المهمشة في روايات مولود فرعون لطيفة بن سعيد
171	صورة المرأة في رواية نجمة لكاتب ياسين زهيرة مشرن

175	صورة المرأة وتجلياتها في رواية أسيا جبار- امرأة بلا قبر ابن عديس زهيرة
179	صورة المرأة في رواية: «الأسود يلبق بك» لأحلام مستغامي فاطمة بن شعشوع
189	شخصية المرأة (البطلة) و فعل المقاومة في رواية «الأسود يلبق بك» لأحلام مستغامي جتان فاطمة الزهراء
المصنفات والأعلام	
203	عبد الكريم الفكون(من أعلام القرن العاشر الهجري) أ.د. محمد مرتاض
215	الآراء التلمسانية في المسائل النحوية والصرفية واللغوية د. فهد سالم خليل الراشد
237	مرجعية المصادر الأدبية التلمسانية في تاريخ الحضارة الإسلامية د. عبد الواحد عبد السلام
255	مصادر شعر المغرب على عهد القاطمين أ. نورالدين سعيداني
274	الأدب المغاربي ونقده في مصنفات المقرئ بلعربي جلييلة
285	كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق لأبي العباس المقرئ د. عبد القادر شرشار
299	الإشارات النقدية في ديوان الصباية لابن أبي حجلة التلمساني د. عبد الحميد الحسامي
323	قراءة في كتاب الشعر الجزائري القديم لمحمد مرتاض أ. زليخة شعبان صاري
327	قراءة في كتاب «من أعلام تلمسان مقاربة تاريخية - فنية» للدكتور محمد مرتاض نعيمه طهراوي
331	قراءة في كتاب «أوزان الشعر» لمصطفى حركات* د. رحمان ليلى
335	ابن باديس شخصية ومواقف معط الله فتيحة
345	البشر الإبراهيمي سيرة و مسيرة فاطمة قلال
355	أعلام المدائح النبوية في الشعر الزياني- دراسة توثيقية - عبدالحق هتهوت
التاريخ والفكر والثقافة	
363	أثر ابن مرزوق الخطيب في المشرق العربي عباد عبد القادر
376	القضاء في عهد الدولة الزيانية لطفي بقال بريكي
383	إسهامات «المجلة الإفريقية La Revue Africaine» الفرنسية في نشر التراث الأدبي المغاربي دراسة وصفية تحليلية د. بغداد عبد الرحمن
393	نضال المرأة الجزائرية خلال القرن الماضي أ.د. محمد مهداوي

افتتاحية العدد

تمضي السّنون سِراعاً، وتنسلخ الأشهر والأيام تِباعاً، ولا يفضل إلا ما يُنجز أو يُحقّق؛ إذ لا مقام للخامل المتقاعس في صفحات البقاء، وقراطيس النّماء.

وللتاريخ، فإنّ هذه المجلّة لم تعرف جواً مُريحاً ولم تنعم بالولادة الطّبيعيّة على غرار أخواتها في العالم، ولكنها عانت في رحم أمّها قبل أن تفلت إلى الخارج. ميّداً أنّه، وعلى الرّغم من بعض العراقيل التي كانت دائماً تقف في طريقها، فإنّنا قد أنجزنا وعدنا، وظللنا نكابد ونُناصح من أجل أن يُكتب لمجلّتنا الاستمرار، ويتأتّى لها حضور الولايم العلميّة التي تحظى بها نظيراتها في الجامعات الجزائريّة ومخابرها. وليس سراً أنّ إصدار هذه المجلّة لم يك إلا وهماً وحُلماً، لكنّ مع إصرار المخبر على المُضيّ قدماً في إصدارها أتاح للمتلقّي الكريم مغرباً ومشرقاً أن يتصفّح أعدادها المتلاحقة التي كان بعضها في مستوى البحث العلميّ مادّةً ومنهجاً، وبعضها الآخر كان دون ذلك؛ إنّما الأكيد أنّ الموضوعات التي نُشرت فيها كانت في مجملها ذات أصرة بالعنوان الكبير الذي أُسس في ضوئه؛ وهو المغرب العربيّ.

أجل، جاء هذا العدد، وقد حقّقت المجلّة طفرة كبرى بعد أن شرفها أدباء وباحثون من مختلف أقطار العالم العربيّ، إضافةً إلى الباحثين الجزائريّين من مختلف الجامعات الوطنيّة. ولا غرو، فقد دأبنا على أن نتلقّى بحوثاً من موريتانيا والمغرب وتونس، وفي هذه المرة ننشر بحوثاً لأكاديميّين عرب من الكويت وليبيا والسّعودية وغيرها، وهو ما يمنح المجلّة دفعاً جديداً ويتسامى بها إلى الانفتاح على العالم الذي تُعزّزه مقالات باللّغات الأجنبيّة المختلفة.

ولعلّ أنّ هذا الذي أشدنا به هو الذي أسهم في تركية مجلّتنا من قِبَل اللّجان العلميّة على مستوى مديريّة البحث العلميّ بوزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ، حين أدرجت « الفضاء المغاربيّ » ضمن المجلّات التي ترقى إلى مصافّ التّحكيم. فغدت، وابتداءً من

هذا العدد مجلة علمية محكمة بصورة رسمية لا شكلية، مثلما هو الحال عليه بالقياس إلى مجلات متداولة! وما كان لهذا التطور أن يحصل، ولا لهذا الهدف أن يتحقق لو لم يقيم كل عضو من أعضاء هيئة التحرير بجهود مضاعفة، كما أن إسهام الكتاب الأفاضل وطنياً وعربياً وعالمياً كان له الشأن العظيم في ذلك، ناهيك عن بعض الملاحظات والتوجيهات التي كان القراء يوافقونها بها شفويّاً أو كتابياً.

وإلى عدد قادم بمشيئة الله.

المدير المسؤول

أ/ د. محمد مرتاض

فهرس

7	افتتاحية العدد
دراسات شعرية ونثرية	
11	المولدات بين المنزع الاجتماعي والتفرد الفني أ.د. محمد زمري
23	التجليات الإلهية عند شعراء تلمسان المتصوفة د. فاطمة داود
43	قراءة في موشحات أبي مدين شعيب د. حسين فارسي
51	صورة المرأة في التراث الشعري الزياني ودورها في تأصيل الهوية العربية الإسلامية نجاه بلعباس
59	صورة المرأة في شعر الأمير أبي الزبيع سليمان الموحد فايزة سعيدات
67	جمالية الرمز الأنثوي في شعر مفدي زكرياء د. ليلى قراوزان
77	المختلة التراثية وأبعادها في الرواية العربية الجزائرية د. ابن جماعي أمينة
89	دلالة العنوان وانفتاح اللغة على التراث في رواية (لونجة والغول) لزهور ونيسي د. طرشي سيدي محمد
97	المرأة الموضوع والفاعل في المثل الشعبي التلمساني د. نصيرة شافع بلعيد
107	صورة المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية أ. ليلى برمضان
115	نظرة عن دلالة المكان في القصيدة المغربية ابن عمار منصورية
الأدب القصصي والمرأة	
129	المرأة والثورة في القصة القصيرة الجزائرية أ.د/ أحمد طالب
135	المرأة في الرواية الجزائرية مريم حموم
143	صورة المرأة في النثر الجزائري (الرواية أمودجا) قنون أمينة
151	صورة المرأة في رواية «غادة أم القرى» لأحمد رضا حوجو صابر حفيظة
159	صورة المرأة في الرواية الجزائرية شخصية نفيسة في «ريح الجنوب» أمودجا ستي بوكليخة
165	صورة المرأة المهمشة في روايات مولود فرعون لطيفة بن سعيد
171	صورة المرأة في رواية نجمة لكاتب ياسين زهيرة مشرن

175	صورة المرأة وتجلياتها في رواية أسيا جبار- امرأة بلا قبر ابن عديس زهيرة
179	صورة المرأة في رواية: «الأسود يليق بك» لأحلام مستغامي فاطمة بن شعشوع
189	شخصية المرأة (البطلة) و فعل المقاومة في رواية «الأسود يليق بك» لأحلام مستغامي جنان فاطمة الزهراء
المصنفات والأعلام	
203	عبد الكريم الفكون (من أعلام القرن العاشر الهجري) أ/ د. محمد مرتاض
215	الآراء التلمسانية في المسائل النحوية والصرفية واللغوية د. فهد سالم خليل الراشد
237	مرجعية المصادر الأدبية التلمسانية في تاريخ الحضارة الإسلامية د. عبد الواحد عبد السلام
255	مصادر شعر المغرب على عهد الفاطميين أ. نورالدين سعيداني
274	الأدب المغربي ونقده في مصنفات المقري بلعربي جليلة
285	كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق لأبي العباس المقري د. عبد القادر شرشار
299	الإشارات النقدية في ديوان الصباة لابن أبي حجلة التلمساني د. عبد الحميد الحسامي
323	قراءة في كتاب الشعر الجزائري القديم محمد مرتاض أ. زليخة شعبان صاري
327	قراءة في كتاب «من أعلام تلمسان مقارنة تاريخية - فنية» للدكتور محمد مرتاض نعيمة ظهراوي
331	قراءة في كتاب «أوزان الشعر» لمصطفى حركات* د. رحمان ليلى
335	ابن باديس شخصية ومواقف معط الله فتيحة
345	البشير الإبراهيمي سيرة و مسيرة فاطمة قلال
355	أعلام المدائح النبوية في الشعر الزياني- دراسة توثيقية - عبدالحق هتهوت
التاريخ والفكر والثقافة	
363	أثر ابن مرزوق الخطيب في المشرق العربي عباد عبد القادر
376	القضاء في عهد الدولة الزيانية لطفي بقال بريكسي
383	إسهامات «المجلة الإفريقية La Revue Africaine» الفرنسية في نشر التراث الأدبي المغربي دراسة وصفية تحليلية د. بغداد عبد الرحمن
393	نضال المرأة الجزائرية خلال القرن الماضي أ. د. محمد مهداوي

صورة المرأة في شعر الأهير أبي الربيع سليمان الموحّد

فايزة سعيدات

طالبة دكتوراه- جامعة تلمسان

كانت المرأة ولاتزال على امتداد العصور موضوعا استقطب اهتمام الأدباء والمفكرين، وقد تمكنت من مداعبة أحاسيسهم وإلهام مخيلاتهم فانعكست صورتها في ثنايا مؤلفاتهم المختلفة خاصة النتاج الأدبي سواء كان نثرا أو شعرا، فالمرأة هي الأم، الابنة، الحبيبة ورفيقة الجهاد... ولم يشذّ الأدب الجزائري عن هذه القاعدة في القديم كما في العصر الحديث.

ويعدّ الأمير «أبو الربيع سليمان بن عبد الله الموحّد» أحد الشعراء الجزائريين الذين خلّفوا مادّة غزيرة في المرأة عكست تجربته المتميزة في حبّ العذري من جهة، كما رسمت من جهة ثانية ملامح المرأة الموحّدية، لذلك يعتبر نظمه نموذجا جيّدا للتعرف على شعر الغزل على ذلك العهد، وقبل التطرق لدراسة نتاج «الأمير أبي الربيع سليمان» الشعري لآبأس بتعريف موجز لهذه الشخصية التي غيّبها التاريخ ولما تستوفها الدراسات حقّها من البحث.

شاعرنا هو «أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الزناتي الكومي الموحّد»¹ المعروف بكثير² والمكنى بالشيخ، والفقيه، والأديب والمحدث ولد بمدينة بجاية، وبقي تاريخ ميلاده ظنينا، ويرجح محقق ديوانه أنّه كان سنة 552هـ أو 553هـ³ أخذ العلم على يد كبار علماء وفقهاء المغرب الإسلامي آنذاك، فحصل ثقافة دينية وأدبية حتّى لم يكن له مثيل في أمراء الموحّدين، قيل أنّه توفي⁴ وهو في طريقه إلى مراكش لمبايعة ابن عمّه «يوسف بن عبد المؤمن» سنة 560هـ.

أمّا منزلته الأدبية فيحدثنا عنها الشقندي في معجمه حيث ذكره وأطنب في الثناء عليه، ومما قاله فيه أنّه: «من مفاخر بن عبد المؤمن، ومحلّه منهم محلّ ابن المعتزّ من بني

العبّاس، وابن المعزّ من العبيديّين...»⁵، وحيازته لهذه المكانة مردّه إلى اهتمامه الكبير برجال الأدب والعلم؛ فقد كان «قصره سواء بالأندلس والمغرب منتمى للشعراء والكتّاب، ورجال العلم على العموم...»⁶، وقد اشتغل أبو الرّبيع بالتأليف؛ فاخصر كتاب الأغاني كما خلف شعرا غزيرا جمع في ديوان طرق فيه جلّ الأغراض الشعريّة .

ويعدّ شعر الغزل أحد الأغراض التي أكثر النظم فيها⁷، وهذا يعكس اهتمامه الكبير

بالمرأة التي ألهمت مخيلته ، فراح يحاول محاكاة جمالها في العديد من القصائد والمقطعات، كما نلاحظ أنّها شغلت حيّزا مهمّا من شعره في الرثاء، فعكس بذلك ثنائية الحياة والموت بوضوح في هذين الغرضين، أمّا عن هويّة المرأة التي كانت موضوع شعره فقد كاد يقتصر على ذكر زوجته التي كانت في الأصل حبيبته فنظم شعرا في التّغزل بها قبل وبعد الزواج ورثاها كثيرا بعد موتها، وتحاول هذه الدّراسة رسم ملامح تلك الغادة التي ألهمته، وقد اقتصرّت الدّراسة على شعر الغزل، ذلك أنّه أقرب إلى تصوير جمال زوجته في شتى حالاتها.

وقد وظّف أبو الرّبيع سليمان الموحد المرأة توظيفا حسّيا وبلغة مباشرة بعيدة عن الرّمزية، وعندما أسرته مفاتنها التفت إلى الطبيعة مستعينا بمكوناتها لتصوير جمال محبوبته⁸ الذي جاء على شكل لوحة فنيّة تمازجت عناصرها لترسم مشهدا يأسر الناظرين، وقد نجده يصفها جمال جسمها بشكل مجمل كما في قوله⁹ :

وعلقته كالبدر عند تمامه	وكالغصن في أعطافه وقوامه
وقد غرست كفّ الجمال بخده	رياضا سقاه الحسن صوب غمامه
غزال رخيم لم يذق طعم ذا الهوى	فيا شدّ ما ألقاه عند كلامه !

في هذه الأبيات يشبّه الشّاعر محبوبته ببدر التمام فهو يضيء الدجى، وتضارع رشاقتها وحسن قدّها الغصن في انعطافه و انثنائه، وهي استعارة تصريحية حذف فيها المشبّه ورمز له بإحدى لوازمه وهي «الغرس»، أمّا خدّها فهو آية أخرى من مشاهد الجمال فهي جنة تسقى من غمام ناظرها وهي استعارة تصريحية أخرى حذف المشبّه وهو الانسان ورمز له بإحدى لوازمه وهي الغرس كذلك.

ويجد المتتبع لشعر أبي الربيع أنه أكثر منالتغزل بوجه محبوبته فمرّد منتهى الحسن إليه ومن الصور التي رسمها له في قوله¹⁰:

أتى الصّبح لما أتى مسفِراً وقد لبس اللّيل مستنكراً
فمن أجل مبسمه في الدّجى يخاف إذا زارني أن يُرى
على أدهم مصمت ماخفاً فكيف إذا ركب الأشقرا؟
فيا فاضح البدر في ضوئه أردت بفعلك أن تعذرا!

وفي هذه الأبيات نجد أن الشاعر يحوم حول نفس المعنى وهو التأكيد على جمال محبوبته، وقد استهلا لمقطوعة بوصف قدوم محبوبته وهو أشبه ما يكون بمنظر اللحظات الأولى لدخول الصّبح حيث يتداخل النور مع الظلام ذلك أنّ المرأة التي يحدثنا عنها كانت ترتدي السّواد، الأمر الذي زاد في إبراز جمالها الطّاعي لبياض وجهها وصفائه، فظهورها باد للعيان حتّى وهي صامته ومتمطي جوادا أدهم فكيف لو تبسّمت أو ركبت حصانا أشقر؟ هذه الصّورة المرّكبة تدلّ على سعة خيال الشّاعر وخصبه، وقد نجد في أشعاره كثرة يتغزّل بكلّ عضو من أعضاء الوجه ومعينه في التّصوير الطّبيعة ومكوّناتها.

فللأمير وقفة مع العيون ذلك أنّها مرآة النّفس، وتأثيرها في قلب الشّاعر كبير، فقد ذكرهما في جلّ نظمه، ومما قاله فيهما:¹¹

سلّت لواحظها على سيوفها فحذار ثم حذار من فتكاتها!

فأميرنا في حالة استنفار دائم لأنّ نظراتها الآسرة قد تطعن قلب الشّاعر وتفتك به كما يفتك الفارس بعدوّه، وقد لجأ الشّاعر للمجاز عندما شبّه العيون بالغمد والرّموش بالسّيوف على سبيل الاستعارة المكنية التي وظفها لتقريب شدّة معاناته وقسوتها معه لهذا فإنّ شاعرنا يحاول ألا يطيل النّظر إليها؛ فهو لم يسلم من سحرهما في القرب ولا في البعد وهذا ما أرقه وأحزنه.

وهاهو يصوّرهما وقد زانهما الكحل¹²:

ويلتقي الحزن والدّاجي فيذكّرني حسنين من مقلتيه الكحل والكحل

هذا البيت يعطينا صورة عن المرأة التي تهتم بجمالها باعتبار الكحل أداة شائعة

للزينة عند القدماء ووضعها للكحل زاد في إظهار جمال عينيها السوداءوتين .

كما كان للردف والخصر نصيب في تشبيهه كما في قوله¹³:

أراد قوام الغصن يحكي انشاءه وأين قوام الغصن من ذلك القد ؟

وتشبيه الردف بالغصن شائع في شعره ؛ ذلك أنه وجد في المشبه به ملاذا للتعبير عن حسن القد وشباب محبوبته لأن الأغصان تعبر في وجهها الآخر عن فصل الربيع وما يتبعه من جمال وخضرة، وقد اختار شجرة الردف للتعبير عن فكرته.

ومن بين الصور الرائعة التي يرسمها الشاعر لتلك الغادة وما يكابده معها مشهد معركة نشبت بينهما¹⁴:

أترك الجزع يسارا ولاثر	ربربا يفتك فينا الأعينا!
وانح عن حي رماة كلهم	طالما سقوا نجيعي الدمنا
بسيوف بين ألاحظهم	ظاهروا الهند بها واليمنا
وقدود حشو أبرادهم	نازعوا الخط بها لدن القنا

وهذه المعركة محسومة مسبقا لأن محبوبه الشاعر ملكت فؤاده وشغلت حواسه فتواطؤوا جميعا مها، ويحاول ان يتحلى بالشجاعة في وجه ربرب يسحر العيون بنظراته التي تفعل فعلا لسهام في الجسم فبان أثرها على الجسم، أما رموشها فلها صرامة وبرتحاكي بهما سيوف الهند واليمن اللتين اشتهرتا بجودتهما وحسن صنعهما بين العرب آنذاك ، ويبدو أن فروسية الشاعر، وإقدامه، ومكانته في قومه لم تشفع له عندها .

كما يستطيع الباحث أن يلمس سعة خيال الشاعر حيث يركز عليه في نظمه بشكل ملفت وإنه لشعر يدل على فوة صاحبه في اللغة وقواعدها...وهو على العموم مقتصد في الصنعة وأكثر ما وقع منها في شعره التشبيه...¹⁵ والإستعارة بشتى أنواعهما رغبة منه في تأكيد المعنى وإجلاله، وتقريبه، وقد تعدد الصور البيانية الى أكثر من واحدة في البيت الواحد وهذا يدل على مقدرة الشاعر، وقد ساعده في ذلك قصر التراكيب التي اعتمدها، وهذا ملمح آخر يترجم مقدرة الشاعر البلاغية .

والملاحظ من خلال الأبيات التي سبق عرضها أن الصورة البصرية شغلت حيزا كبيرا

في تشبيب الشاعر؛ إذ كان لمواطن الجمال- التي التقطها بناظريه- انعكاس على منتوجه الشعري .

وقد استعان في ذلك بمعطيات الطبيعة حيث وجد خياله فيها ملاذا وموطنا خصبا لإبداعه، وقد وُصف موادها الجامدة والمشعة¹⁶ خاصة: كالصبح الذي يدل على النور، الشمس التي ترمز إلى الدّفء والبدر الذي يعبر عن الوضوح والجمال بالإضافة إلى مواد أخرى، كالغصون التي ترمز إلى الشباب، كما نجده يركّز في تشبيهاته على الرّشا والظبي كرمزين للجمال، وهو شائع في الشعر¹⁷، وقد عرفنا منذ العصر الجاهلي، وهو في تشبيهاته لم يخرج عما هو متعارف عليه في الشعر العربي، «فهم إذا وصفوا محاسن النساء لم يزيدوا على الاوصاف الطبيعية التي تقع عليها العين إذ كنّ غير مقصورات ولا محجوبات، وإمّا تأتي طهارة الغزل من اعتبار الحسن اعتبارا طبيعيا كالذي تعرفه النفس من جمال الشمس والقمر وخضرة الرياحين، وأريج الأزهار ونحو ذلك، وأظنّ أنّ إجماع الناس كافة على اختلاف أممهم في تشبيه الحسن النسائي بتلك المعاني إمّا جاءهم من ذلك الاعتبار، لأنّه فيهم إرث الطهارة الطبيعية من لدن الإنسان الأوّل...»¹⁸ فالشاعر إذن لجأ إلى الطبيعة لأنها أقرب إلى فطرته وخياله والاستعانة بها لا يحتاج إلى جهد كبير في إعمال الفكر .

لهذا اعتمد على صور متداولة لدى الشعراء المتقدمين كما قال « فجعل اللؤلؤ موازيا للدموع والنرجس مقابلا للعين، والورد للخدود، أمّا العنّاب فلأطراف الأصابع، وأمّا البرد فللأسنان، وأعتقد أنّ كلّ ذواق يحس بما يمكن أن تثيره هذه الصورة في النفس من ألوان المشاعر....»¹⁹، وهذه الصور تجعلنا نلامس نفس الشاعر الرقيقة

ولم يقف الشاعر عند رسم حسن محبوبته وملهمته بل قدم لنا صورا من تعاملها معه، ومن بين الصور التي رسمها لها البعد والهجران²⁰:

لم لا وأنت بخيلة ومزاركم	ناء وطيفك لأراه يطيف ؟
فارعي رعاك اللاحق ذمامه	ففؤاده بك هائم مشغوف
قد يشكو من بعادك وحشة	إذ منتهى ما يشتهي سجوف

فهذه المرأة تبخل بالزيارة وشوقه لها جعله يرى طيفها في كل مكان، وينتقل في البيت الثاني إلى رعاية العهد والبقاء وافية لأن فؤاده لا يرى غيرها، والوحشة تملأ حياته في بعدها

كما يصور لنا جانباً من صدّها²¹ :

أنا أهواه وأعشقه وهو يجفوني ويظلمني

ويبقى الشاعر عاشقاً محباً لها رغم جفائها وجورها عليه دون سبب ويحتوي البيت على طباقين من نوع الإيجاب الول بين أهواه وأعشقه، والثاني بين يجفوني ويظلمني الهدف منه تأكيد وترسيخ معاناة الشاعر من جفائها، فلو حاول مراسلتها عليها تبعث ماتطمئن به فؤاده لكن يبدو ان رجاءه بها سيخيب²² :

وكنت أرى أنّ الجواب تعلل فقد زاد ما بي إذا رأيت جوابها

فجوابه عمق الجراح أكثر وخيب آمال الأمير بل أكثر من ذلك فقد أضرم نار الشوق في نفسه أكثر فحوّل حبه لها إلى مأساة.

يظلّ هذا الجفاء حتى عند لقائهما يقول في هذا الصدد²³:

إن شكيت البين قالت بهزء عجا والله ماذا تقول ؟

وفي استغرابها من قوله استهزاء بمشاعره فهي تتلذذ بلا شك في تعذيبه وإذلاله، وكلمة هزء دليل على ذلك ، وهذا ما يزيد من معاناة الشاعر ويجعله يعيش مأساة حقيقية .

لكنّها سرعان ماتعدّل وترجع مستسلمة معبّرة عن حبّها وحنينها لملاقاته يقول على لسانها²⁴:

قالت :فسر نحو الحبيب وقل له : بي مثل ما بك حذوك التمثيلا

وهواه إلا أنّه متمكّن لا تستطيع النفس عنه عدولا

ولأنت بغيتها وغاية سؤلها لاترتضي بسواك منه بديلا

ففي هذه الأبيات تعبير صريح عن شوقها له ومبادلتها لمشاعر الوجد وتمكّن هواه في قلبها إذ لاتستطيع نفسها له دفعا، ولا تبديلا فهي وفيه له ولن ترضى بغيره خليلا .

لقد استطاع أبو سليمان من خلال التماذج الشعرية وباقي الأشعار سواء التي قمنا باستعراضها أو الأخرى التي نظمها في الغزل أو الهجاء من رسم ملامح واضحة لمحبوبته سواء كانت حسية أو نفسية وإن كان قد ركّز على الشق الأول بشكل كبير وبدت هذه المرأة عادة جميلة الوجه بيضاء البشرة، متناسقة الجسم وحسنة القدر، تولي عناية كبيرة

بجميع أشكال الزينة لتزيد من جمالها، كما كشفت أشعاره عن بعدها النفسي فهي امرأة مدللة، كثيرة الصد قاسية في تعاملها مع شاعرنا وإن كانت ترضخ في بعض الأحيان لنداء مشاعرها فتعود وتطلب منه الوصل، وقد تمكن نظمه أن يعطينا فكرة عن المرأة الجزائرية على عهد الموحدين التي عرفت بحياتها وتمنعها وجمالها الطاغي بالإضافة إلى أدوات الزينة من كحل وخضاب وحلي ليعكس ملمحا حضاريا من جهة أخرى كما وقفنا على طريقة الشاعر في نظمه واتباعه لمدرسة الغزل العذري وكذا مقدرته اللغوية وطبيعة المفردات التي استقاها من بيئته مقتديا بنهج المتقدمين في الشعر العربي .

الهوامش:

- 1- ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، تحقيق محمد بن تاويتالطنجي، سعيد أعراب، محمد بن العباس القباج محمد بن تاويتالطنجاني، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس، دط، دت، ص03.
- 2- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تأليف أحمد بن أحمد بن عبد الله أبو العباس الغبريني، حثقه وعلق عليه عادل نويهيض، منشورات دار الأفاق الجديد، بيروت، لبنان، ط2 سنة 1979، ص 279
- 3- المصدر السابق، ص04.
- 4- ينظر المصدر نفسه، ص04.
- 5- الغصون الياضعة في تراجم الذين تحققت سنون وفاتهم، ابن سعيد www.almostafa.com
- 6- ينظر المصدر نفسه، ص13.
- 7- بلغت قصائده في غرض النسيب 56 قصيدة و36 مقطوعة ينظر ديوانه: 49-109
- 8- ينظر الصورة الشعرية في ديوان أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري القديم، إعداد الطالب رابح محوي، إشراف عبد الرحمن تير ماسين، جامعة خيضر بسكرة، الموسم الجامعي 2008-2009، ص48-56.
- 9- ينظر ديوان الأمير أبي الربيع، ص: 103.
- 01- المصدر نفسه، ص 79.
- 11- المصدر نفسه، ص 76.
- 21- المصدر نفسه، ص 67.
- 31- المصدر نفسه، ص 98.
- 41- المصدر نفسه، ص 77.
- 51- المصدر نفسه نص 12.
- 61- ينظر الصورة الشعرية في ديوان أبي الربيع سليمان الموحد، ص 48-56.
- 71- ينظر جمالية الأنا في الشعر المغربي القديم، إعداد الطالب رضوان جنيدي، إشراف الأستاذ الدكتور العيد جلوي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، تخصص أدب مغربي وأندلسي،

- جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، الموسم الجامعي 2012-2013، ص 240 .
- 81- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان دط، سنة 2000، ج3، ص86.
- 91- ينظر صورة المرأة في الشعر المغربي حتى نهاية القرن الثامن الهجري، إعداد الطالب إبراهيم قادة، إشراف الدكتور عبد الحميد بن صخرية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2008-2009، ص 191، نقلا عن الأدب وفنونه ندراسة ونقد، دار الفكر العربي القاهرة، مصر، ط8، سنة 2004، ص 81.
- 02- ديوان الأمير أبي الربيع سليمان الموحد، ص 59.
- 12- المصدر نفسه، ص 56.
- 22- المصدر نفسه، ص 49.
- 32- المصدر نفسه، ص 64.
- 42- المصدر نفسه، ص 58.

Université ABOU BEKR BELKAID – Tlemcen

**REVUE
L'ESPACE MAGHREBIN**

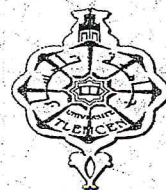
REVUE PERIODIQUE
DIRIGEE ET PUBLIEE PAR LE
LABORATOIRE D'ETUDES LITTERAIRES
ET CRITIQUES ET DES GRANDES
FIGURES DANS LE MAGHREB ARABE

Numéros 10 - 11



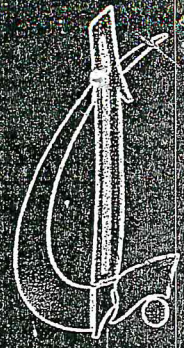
N° légal d'édition
508-2003

Numérotation nationale
ISSN: 1112- 4067



دراسات أدبية

LITERARY STUDIES



دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية

دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية

العدد 21 / ماي 2017

- من أساليب الاتساع الدلالي في الحديث النبوي الشريف د. تووير أحمد هندي
- شعرية الإيقاع في قصائد أبي فراس الحمداني جرو فاطمة / الطيب بن دحان
- المظاهر الحضارية في شعر الوصف على عهد الموحدين فائزة سعيدات
- أفلاطون والشعر د. كرد محمد
- الحركة الثقافية خلال العهد الزياني - تلمسان في القرنين السادس والسابع للهجرة الطالبة: فضيلة بوعباد
- نقد الشعر عند الدكتور محمد مصابف ملىح فائزة
- اللغة العربية أزمة إنسان أم أزمة لسان بختة بن علة
- إعجاز القرآن بين مفاتيح الترجمة و ضبابية التأويل أ. طارق بن عيسى
- الشواهد النحوية في كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري الدكتورة: بن عيسى مهدية
- شعرية الصورة في شعر ابن خفاجة الأندلسي الأستاذة: نوال عبد ربي
- إشكالية تعليم اللغة العربية ورهانات التغيير الطالب: علام محمد
- المعرفة الصوفية إشكالية القراءة ومعضلة الفهم الطالب: بوسماحة الطيب
- النمو العقلي واللغوي عند الطفل فاطمة زهراء بوزياني
- الترتيب المعجمي في القاموس المدرسي محمد بن رمضان
- تعليمية اللغة العربية وفق استراتيجية بيداغوجيا المقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية سعاد عباسي
- شعرية اللون في سينية البحري أ. بلهادي حسين
- جمالية الإيقاع والصور الشعرية في القصيدة المغربية أ. بن عمارة منصورية
- الدراسات التقابلية ودورها في تطوير حقل تعليمية اللغات الأجنبية أ. حورية نهاري
- الحياة الفكرية والثقافية في عهد الموحدين تلمسان أمودجأ أ. نجاة بلعباس
- معجم « مرشد الطلاب المنصور » بين منطق العلمية وأصابع النقعية (دراسة في النقد المعجمي) د. طيبة ميدني

التقييم الدولي : 2170 - 046x الإيداع القانوني : 1900-2008

وراسات أوبية

دورية فصلية محكمة تصدر عن:

مركز البصيرة



للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية

- العدد الواحد و العشرون -

(21)

د. عبد الحليم ريوقي
eladabiya@hotmail.fr

هيئة التحرير

- ♦ إسماعيل بوزيدي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة
- د/ بن يامنة سامية - المدرسة العليا للأساتذة - وهران
- ♦ د. فتيحة بن يحيى - جامعة تلمسان-
- ♦ د. محصول سامية - المدرسة العليا - بوزريعة -

المراسلات باسم مدير مركز البصيرة

46 تعاونية الرشد القبة القديمة، الجزائر

ها: 0021321289778

فا: 0021321283648

markaz_bassira@yahoo.fr

البريد الإلكتروني:

www.albasseera.net

الموقع الإلكتروني:

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع القانوني : 2008/1900

ر.د.د ISBN 2170-046X

التوزيع



مطبعة دار الخلدونية للنشر والتوزيع
05، شارع محمد مسعودي القبة الجزائر.

قواعد النشر

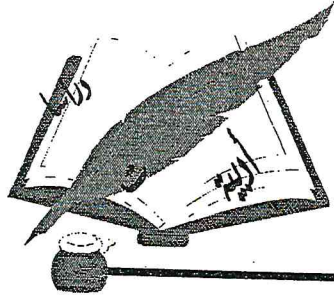
- تقبل البحوث والدراسات التي تعالج القضايا المتخصصة المتميزة. ويشترط في تلك الأعمال مراعاة قواعد النشر التالية:
- 1 (أن يتوافق البحث مع أهداف الدورية ومجاورها.
 - 2 (أن يكون البحث غير منشور سابقاً.
 - 3 (يرفق البحث بإقرار خطي بعدم تقديم البحث إلى أي جهة أخرى لغرض النشر.
 - 4 (أن لا يكون البحث جزءاً أو مقتطفاً أو مقتبساً من رسالة تخرج نال بها صاحبها شهادة علمية.
 - 5 (يرفق البحث بملخصين: (العربية والفرنسية) أو (العربية والإنجليزية).
 - 6 (يقدم الباحث بيذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
 - 7 (ترسل البحوث والدراسات إلكترونياً أو تسلّم في قرص مصغوظ إلى إدارة المجلة.
 - 8 (تقبل البحوث باللغات: العربية والفرنسية والإنجليزية، على ألا يقل عدد صفحات البحث عن 15 صفحة ولا يزيد عن 25 صفحة، والأ يزيد عدد الأشكال والملاحق عن 15 بالمائة من حجم البحث.
 - 9 (أن يكتب البحث ببرنامج (Word) بخط: (Arabic Transparent) حجم 14 بالنسبة إلى المتن وحجم 10 بالنسبة إلى الهوامش (اللغة العربية) وبخط: (Times New Roman) حجم 12 بالنسبة إلى المتن وحجم 10 بالنسبة إلى الهوامش (اللغة الأجنبية).
 - 10 (أن يراعى في البحث المنهجية العلمية، ومناهج البحث العلمي، وعلى صاحبه الالتزام بالموضوعية.
 - 11 (ترتق هوامش البحث وقائمة مصادره ومراجعته في نهاية البحث.
 - 12 (تخضع البحوث للتحكيم العلمي المتعارف عليه عالمياً، ويبلغ الباحث بقرار هيئة التحرير في آجالها.
 - 13 (يعدّ البحث في حكم المسحوب إذا تأخر الباحث عن إجراء التعديلات المطلوبة على البحث لمدة تزيد عن شهر من تاريخ تسلمه الرد بوجوب التعديل.
 - 14 (لا يمكن للباحث أن يسحب بحثه بعد موافقة الهيئة العلمية عليها وإدراجها ضمن مواضيع المجلة.
 - 15 (الإدارة ليست ملزمة بنشر كل البحوث التي تصلها وليست ملزمة كذلك بإعادتها نشرت أم لم تنشر.
 - 16 (تعبر البحوث عن رأي صاحبها ولا تمثل بالضرورة رأي الدورية أو المؤسسة التي تصدرها.
 - 17 (يحق للدورية إعادة نشر البحث كاملاً أو جزءاً منه بأي شكل وبأي لغة دون الحاجة إلى استئذان الباحث، إذ تتمتع الدورية بكامل الحقوق الفكرية للبحوث المنشورة فيها.
- من حق الدورية إصدار عدد يخصص بأكمله لغرض واحد عند الحاجة.

المهية العلمية

- الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن حسن العارف وكيل معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، السعودية.
- الأستاذ الدكتور علي ملاح، جامعة الجزائر 2.
- الأستاذ الدكتور سعيد بنكراد، كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، المملكة المغربية.
- الأستاذ الدكتور عبد الله محمد العضيبي أستاذ الأدب والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى مكة المكرمة، السعودية.
- الأستاذ الدكتور سعيد يقطين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المملكة المغربية.
- الأستاذ الدكتور عبد الكريم عوفي، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.
- الأستاذ الدكتور محمد المشد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الكويت المفتوحة، الكويت.
- الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد، جامعة تونس.
- الأستاذ الدكتور محمد هاشم فالوقي، جامعة طرابلس، ليبيا.
- الأستاذ الدكتور عبد الرحيم مرشدة، رئيس قسم اللغة العربية، جامعة جدارا، المملكة الأردنية الهاشمية.
- الأستاذ الدكتور عطا محمد إسماعيل أبو جبين، المديرية العامة لتطوير المناهج، سلطنة عمان.
- الأستاذ الدكتور محمد عبد الحي، جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، الإمارات العربية المتحدة.
- الأستاذ الدكتور يسري عبد الغني عبد الله، خبير بالتراث الثقافي، جامعة القاهرة، مصر
- الأستاذ الدكتور رباح اليميني مفتاح، كلية الآداب، جامعة الأقصى، غزة، فلسطين.
- الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
- الأستاذ الدكتور جيلالي بن يشو، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.
- الأستاذ الدكتور محمد زمري، جامعة تلمسان.
- الأستاذ الدكتور محمد مرتاض، جامعة تلمسان.
- الدكتور هشام خالدي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.
- الدكتور عبد الحليم بن عيسى، جامعة وهران.
- الأستاذ الدكتور: عبد الحكيم والي دادة، جامعة تلمسان
- الدكتور: رقيق كمال - جامعة بشار

آراء الباحثين لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدورية

مركز البصيرة يرحب بأبحاثكم واقتراحاتكم ونصائحكم.



الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وبعد.

شهدت الحركة المصطلحية مناهج مختلفة على مرّ العصور، تأثراً بعلوم عدّة أثرت في المجالات والاختصاصات المختلفة، بما في ذلك المجال اللغوي؛ إذ أسهمت هذه العلوم في إغناء المصادر المصطلحية على مختلف الصعد الصوتية والصرفية والدلالية. وقد اعتادت بعض الدّراسات أن تعرض النظريات اللغوية، من دون الإشارة إلى خلفيات هذه النظريات، من فلسفية وعقدية وفكرية وعلمية وغيرها، ومن غير التّعرّض إلى منعكسات هذه النظريات وتأثيراتها في حركة التنمية اللغوية والمصطلحية.

وعلى هذا الأساس ارتبط تصور الشعوب والأمم للغة قديماً بترائهم الثقافي وعقيدتهم الدّينية، فأول ما لفت نظر الإنسان القديم الطبيعة بما فيها من عظمة خلقها وظواهرها، وعلى صعيد التطبيقات المعجمية تراوحت اللغة التي أخذتها المعاجم آنذاك بين الإحصاء لكل مواد اللغة العربية، وبين الاختيار منها، اختيار الفصيح وإهمال الغريب والوحشي والمبتذل.

وقد استمرت مسألة القياس في اللغة العربية موضع الجدل والخصومة بين اللغويين، حتى وقتنا الحالي، فانقسم اللغويون إلى مجددين ومحافظين؛ إذ وجدت العربية نفسها أمام حضارة أخرى ذات ألوان مختلفة لم تنبت في أرضها أو بيئتها بحيث تخرج وعليها سمة هذه اللغة.

إن محتوى العدد الحالي الذي أمّلت به مجلة دراسات أدبية جاء لتوضيح معطيات مهمة، في حقول اللغة والأدب العربي، متضمن عدّة مستويات منها حقل اللسان والبلاغة والنحو وعلم الأصوات، وعلم الدلالة إضافة إلى فنون الأدب من شعر ونثر وغيرها

هيئة التحرير

الفهرس

9	مِنَ أَسَالِيبِ الْأَنْسَاعِ الدَّلَالِي فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ. د. تنوير أحمد هندي
22	شعرية الإيقاع في قصائد أبي فراس الحمداني جرو فاطمة / الطيب بن دحان
36	المظاهر الحضارية في شعر الوصف على عهد الموحّدين. فايزة سعيدات
43	أفلاطون والشعر د. كرد محمد
55	الحركة الثقافية خلال العهد الزياني - تلمسان في القرنين السادس والسابع للهجرة. الطالبة: فضيلة بوعياذ
65	نقد الشعر عند الدكتور محمد مصايف مليح فايزة
78	اللغة العربية أزمة إنسان أم أزمة لسان بختة بن علة
95	إعجاز القرآن بين مفاتيح الترجمة و ضبابية التأويل الأستاذ: طارق بن عيسى
103	الشواهد النحوية في كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري الدكتورة: بن عيسى مهديّة
114	شعرية الصورة في شعر ابن خفاجة الأندلسي الأستاذة: نوال عبد ربيّ
126	إشكالية تعليم اللغة العربية ورهانات التغيير إعداد الطالب: علام محمد
135	المعرفة الصوفية إشكالية القراءة ومعضلة الفهم الطالب: بوسماحة الطيب
142	النمو العقلي واللغوي عند الطفل فاطمة زهراء بوزياني
151	الترتيب المعجمي في القاموس المدرسي محمد بن رمضان
161	تعليمية اللغة العربية وفق استراتيجية بيداغوجيا المقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية سعاد عباسي
169	شعرية اللون في سينية البحريّ الأستاذ: بلهادي حسين

176	جمالية الإيقاع والصور الشعرية في القصيدة المغربية. بن عمارة منصورية
194	الدراسات التقابلية ودورها في تطوير حقل تعليمية اللغات الأجنبية. حورية نهاري
202	الحياة الفكرية والثقافية في عهد الموحدين _ تلمسان أمودجا. أنجاة بلعباس
211	دور الوسائل التعليمية في ضمان جودة التعليم. الطالبة: لعديدي سليمة
221	المسة الفنية الإسلامية في أعمال محمد راسم قليل سارة
228	دور العناصر الثانوية في المعجم المدرسي د. فاطمة الزهراء ضياف
237	التحليل البنوي للسرد رولان بارت «Roland Barthes» أمودجا محمد بلعزوقي
245	الصحافة الجزائرية المكتوبة وموقع «جريدة لسان» منها. آمنة بومكحلة
251	واقع اللغة العربية في الصحف الإلكترونية الجزائرية الطالب: بومكحلة جيلالي
257	آثار أدبية لأعلام أندلسية _ نهاية المرابطين وبداية الموحدين- طه شقرون : طالب دكتوراه
264	دور ملوك بني زيان في ازدهار حضرة تلمسان الطالبة: طهراوي نعيمة / طالبة دكتوراه
272	تشكيلات المكان الحكائي في مقامات ابن محرز الوهراني د. بغداد عبد الرحمن
287	عوامل ازدهار الحركة الثقافية في تلمسان الزيانية الباحثة معطى الله فتيحة
295	ابن منظور (ت711هـ) هو مؤسس الصناعة المعجمية وليس الغرب أ.فاطمة بن شعشوع
301	المفصل الصوتي في الدرس اللساني العربي الحديث: الباحثة: رحمة كزولي
313	حضرة الأندلس وأثرها في الشعر الطالب: نايري سيد أحمد
321	معجم « مرشد الطلاب المصور » بين منطق العلمية و أصابع النفعية (دراسة في النقد المعجمي) الدكتورة. طيبة ميدني

المظاهر الحضارية في شعر الوصف على عهد الموحّدين.

Les Aspects de la civilisation dans la poésie descriptif au cour de la dynastie des Almohades

فايزة سعيدات

السنة: رابعة دكتوراه.

المؤسسة: جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان .

الملخص:

شهدت حضارة الموحدين تقدما كبيرا بفضل التطور الذي عرفته الدولة و الذي شمل مختلف الميادين، فحاول شعر الوصف محاكاة هذه النهضة التي عرفتها البلاد على هذا العهد، وتنافس الشعراء في تصوير واقعهم بمختلف مضامينه بما في ذلك البعد الحضاري الذي تمكنوا من تجسيده بكل براعة وتفنن، وقد أبانوا من خلاله عن ارتباطهم بواقعهم، كما أعربوا عن ثقافة واسعة ودراية بمختلف العلوم التي شهدها هذا العصر.

الكلمات المفتاحية: المظاهر - الحضارية - شعر - الوصف - الموحدين.

Le résumé :

La civilisation des Almohades a connu un grand essor grâce au développement de sa dynastie qui a embrassé des différents domaines.

La poésie descriptif a essayé de s'adapter a ce développement، et les poètes ont entrées en concurrence a fin d'être en harmonie avec cette vie et ces fond، y compris aspect de la civilisation qu'il été représenté par excellence et raffinement dans des vers qui reflète l'attachement des poètes a cette vie ; et aussi une culture vaste et connaissance des différentes sciences a cette époque.

Les mots clé

Les Aspects-civilisation-la poésie-la description-les Almohades

المقال :

عرفت الحركة الشعرية ببلاد المغرب والأندلس على عهد الموحّدين نشاطا كبيرا شمل مختلف الأغراض الشعرية رافقته غزارة في الإنتاج على الرغم من ضياع عديد الدواوين ، وهذا يعود إلى حسّ الشعراء المرهف الذي كان يتفاعل مع مختلف الظروف المحيطة بهم، كما شهدت الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية تطورا كبيرا نتيجة لوضع الأمن والاستقرار الذي عرفته البلاد ، وتشجيع الحكّام للمفكرين والأدباء، وهذا ما ألقى بظلاله على الجانب الحضاري حيث شهد هذا المجال تطورا ملحوظا على عهد الموحّدين ، فهل استطاع

شعر الوصف أن يواكب الازدهار الحضاري الذي عرفته دولة الموحّدين؟ وماهي الجوانب التي اتخذها هذا الشعر موضوعا له؟

لقد شهد عهد الموحدين اهتماما كبيرا بتشييد القصور التي اتّسمت بالفخامة وحسن الترتيب ، وقد برهن المهندسون والصنّاع من خلالها على كفاءتهم في مضمّار البناء فجاءت متميّزة تجمع بين القوّة والمتانة من وجهة ، والإبداع في تزيينها مع التّركيز على إعطائها مساحة جمالية من وجهة أخرى، فقد أعربت عن تفرد معماريّ عكس ملامح العظمة لدولة الموحّدين، وقد حاول الشعراء تصوير العديد منها، وهاهو ناهض بن إدريس يحمل ريشته ليصوّر إحدى هذه التّحف ؛ وهي قصر السيّد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن:

إِلَّا حَبْدًا الْقَصْرُ الَّذِي ارْتَفَعَتْ بِهِ عَلَى الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْحِجَارَةِ الْأَقْوَاسِ
هُوَ الْمَصْنُوعُ الْأَعْلَى الَّذِي أَنْفَ الثَّرَى وَرَفَعَهُ عَنِ لَثْمِهِ الْمَجْدِ وَالْبِئَاسِ
فَارْكَبْ مَتْنِ النَّهْرِ عَزًّا وَرَفَعَةً وَفِي مَوْضِعِ الْأَقْدَامِ لَا يُوْجَدُ الرَّاسِ
فَلَا زَالَ مَعْمُورَ الْجَنَابِ وَبَابِهِ يَغْنَصُ وَحَلَّتْ أَفْقَهُ الدَّهْرُ أَعْرَاسِ(1)

وهاهو شاعر آخر وهو أبو حنّون أحمد يحدثنا عن أعجوبة أخرى زينت إحدى قصور الخلفاء والتمثّلة في منبع ماء صمّم على هيئة أسد:

وَمُوهِمٍ قَصْدِ حَضْنِ لَيْسَ مَقْصُودُهُ إِلَّا السُّكُونُ فَمَا شَيْءٌ يُحَرِّكُهُ
تَقْبِضُ اللَّيْثُ جِزْصًا لِلْوُثُوبِ عَلَى فَرِيْسَةٍ وَحَدَارِ الْفَوْتِ يُدْرِكُهُ
وَالْمَاءُ فِيتِي فِيهِ كَالْتُّغْبَانِ مُضْطَرِبًا يَبْغِي التَّخْلُصَ مِنْهُ وَهُوَ يُمَسِّكُهُ(2)

فهذا الأسد - في نظر الشاعر- يبدو وكأنّه يريد حضان شيء ، والحركة التي يظهر بها غير مقصودة لأنّه منحوت هكذا فهو ساكن منتصب في مكانه؛ كما يبدو متأهبا للانقضاض على فريسته وهيئات أن يفلتها من قبضته، لأنّ منظره يوحي ببراعته وحجمه ينبئ عن قوّته، كما نجد أنّ أبا حنّون يضيف على هذا الحيوان المفترس لمحة أسطورية من خلال الماء المنبعث من فمه والذي ينسكب بغزارة وكثافة تشبه في شكلها الثعبان المتخبط وهو يحاول الفرار من الأسد الذي أحكم قبضته ، وهذه الأبيات تجعلنا نقف على مدى تطوّر فنّ التّحت على عهد الموحّدين.

وقد نجد الشعراء يلتفتون إلى مظاهر حضارية تكررت لدى أسلافهم ولكنهم حاولوا أن يسجّلوا انطباعاتهم عنها ،علّها تأتي بالجديد كما فعل أبو الأصعب ابن رشيد الإشبيلي في وصف دولاب :

وَمَنْ جُنُونٌ إِذَا دَارَتْ سَمِعَتْ لَهَا صَوْتًا أَجَشَّ وَظَلَّ الْمَاءُ يَنْهَمِلُ
كَأَنَّ أَقْدَامَهَا رَكِبَ إِذَا سَمِعُوا مِنْهَا جِدَاءً بَكَوْا لِلْبَيْنِ وَارْتَحَلُوا(3)

يصف الشاعر في هذين البيتين الدولاب وهو يدور بقوّة دفع من الجنّ التي تسمع دوي أصواتها الحزينة كلّما تحرك فتؤثر في المستمعين ومن بينهم شاعرنا ، كما يشبّه ابن رشيد

الإشبيلي أقدام الدّولاب بأشخاص على متن إبل قد بكوا على مفارقة الأحبة فانسكبت دموعهم غزيرة ، وهو مشهد حزين يوحي بخصب خيال الشّاعر، وقد تكرّر ذكر الدّولاب في شعر الأندلسيين والمغاربة ، ولعلّ الجديد عند هذا الشاعر يكمن فيتوضيفه للإبل كمطيّة بدلا للخيل رغم أنّه أندلسي لم تعرف بلاده استخدام الجمال في تنقلهم ، كما أنّهم لم يكونوا بدوًا مفارقين لأوطانهم ، فقد عاد بنا إلى شبه الجزيرة العربيّة ما يعكس حنينه و تأثير سحر بلاد المشرق واحساسه بالغربة عن تلك الرّبوع ، وقد جاءت صورته تقليديّة رغم تجديديات الأندلسيين في شعر الوصف ، أو قد تكون أبياته انعكاسا لحزنه على بداية سقوط الأندلس في أيدي العدوان الصليبي الذي ينبئ برحيل قريب وهنا تكمن ميزة هذه الأبيات .

وقد تفنّن المهندسون والحدّاق في تصميم سّتى المنشآت التي زاوجت بين الإبداع والجمال خاصة في فترة خلافة المنصور الموحّدي، وهاهو عبد الله كنون يحدثنا عن مقصورة شيّدت في جامع مرّاكش الذي بني بأمره محاولة منه لمنافسة مسجد قرطبة وقد برع الحدّاق في تشييد مقصورة داخل هذا المسجد خصيصا للخليفة المنصور الموحّدي، وكانت هذه المقصورة تحفة معماريّة متميّزة ، يحدثنا كنون عنها: «... وأنشأ في جامعهم بمرّاكش المقصورة والمنبر " الأتوماتكيين" وكانا موضوعين على حركات هندسية ؛ بحيث يبرزان لدخوله دفعة واحدة ويغيبان لخروجه كذلك، كانت هذه المقصورة كبيرة تسع أكثر من ألف رجل - كما عند صاحب الحل- والذي صنعها هو الحاج يعيش المهندس الذي بنى جبل الفتح لعبد المؤمن وقد أعى الأديباء وصفها...» (4) ، كما تبارى الشّعراء في وصفها، ويعدّ ابن مجبر أحد المتفنّنين في ذلك حيث رسم صورة تقرّيبية لها :

طُورًا تَكُونُ بِمَنْ حَوْتَهُ مُحِيطَةٌ فَكَأَنَّهُا سُورٌ مِنَ الْأَسْوَارِ
وَتَكُونُ حِينًا عَنْهُمْ مَحْبُوعَةٌ فَكَأَنَّهُا سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ
وَكَأَنَّهُا عَلِمَتْ مَقَادِيرَ الْوَرَى فَتَفَرَّقَتْ لَهُمْ عَلَى مَقْدَارِ
فَإِنْ أَحْسَتْ بِالْإِمَامِ يَزُورُهَا فِي قَوْمِهِ قَامَتْ إِلَى الزُّورِ (5)

لقد صور الشّاعر هذه المقصورة بمنتهى الدّقة والتفت إلى كلّ جزئية فيها حيث بدأ بوصف حركاتها التي تتراوح بين الظهور والضمور بشكل عجيب يدهش الناظرين وكأنها تتنبأ بإقبالهم، فإذا شعرت بظهور الإمام أو الخليفة ، واقترابه من موضعها برزت لاستقباله مستبشرة بقدومه، حتّى إذا دخل المسجد ظهرت بتوقيت متزامن مع قدومه في مشهد بديع على نحو الكراسي الأتوماتكيّة ، وهذا اختراع سابق لعصره يوحي بالتقدم الذي بلغه العقل الموحّدي.

وقد يعمد بعض الشّعراء إلى تخليد تحفة حربيّة أضيفت إلى تجهيزات الجيش الموحّدي، أو زوّد بها أسطولهم الذي كان رمز قوّتهم ومبعث أمنهم ، ويعدّ الشّاعر أبو يزيد بن عبد الله اللّخمي الإشبيلي الكاتب من الذين تفنّنوا في وصف السّفن التي تعدّدت أشكالها وأحجامها لتعدّد استعمالها إذا يقول:

وَيَا الْجَوَارِي الْمُنْشآت وَحُسْنِهَا طَوَائِرَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْجَوِّ عَوْمًا!
إِذَا نَشْرَتْ فِي الْجَوِّ أَجْنَحَةً لَهَا رَأَيْتَ بِهَرَوْضًا وَنُورًا مُكَمَّمًا
وَإِنْ لَمْ تُهْجَهُ الرِّيحُ جَاءَ مُصَافِحًا فَمَدَّتْ لَهُ كَفًّا خَضِيْبًا وَمِعْصَمًا

مَجَازِفُ كَالْحَيَاتِ مَدَّتْ رُؤُوسَهَا عَلَيَّ وَجَلَّ فِي الْمَاءِ كَيْ تَرْوِي الضَّمَا
كَمَا أَسْرَعَتْ عَدَا أَنَامِلُ حَاسِبٍ يَفِيضُ وَيَسْبُطُ يَسْبِقُ الْعَيْنُ الْقَمَا(6)

يستهلّ الشاعر أبياته بإبراز جمال هذه السفن التي حازت إعجابه فيشبهها بالأسماك التي تسبح في الماء ثم تقفز في الجو فتبدو وكأنها تحلق لفرط ارتفاعها، وقد عبّر عن هذه السفن بلفظة "الجواري المنشآت" وهو لفظ أطلقه الله عزّ وجلّ على البواخر في قوله تعالى: { وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ } (7)، وهذا يدلّ على ثقافته الدنيّة، ثمّ ينتقل إلى تصوير شراعها الكثيرة التي تضارع أجنحة الطيور، وهي تشبه زهور الرياض في تفتحها وتعدّد ألوانها، تضارع في انبساطها الكفوف المصافحة التي تناشد السّلم وتبعث الأمن لرائيها، وهي حمراء اللون مخضبة متزيّنة احتفالاً بقدوم الأعداء، وهذا يرمز لقوّتها التي تعكس عظمة الدّولة الموحدية المعروفة باهتمامها بتشييد وصناعة وسائل الحرب ومن بينها السفن التي أخضعت لها البحر، وينتقل الشاعر إلى التحدّث عن المجازيف الكثيرة لهذه السفينة وقد شبهها بحيات البحر التي تطفو فوق سطح الماء، ثمّ تعطس وكأنها تروم الشّرب، فتبدو حركاتها متناسقة كأصابع الكف التي تقوم بالعدّ إلى أنها أسرع منها.

لقد عرف عهد الموحدين مرحلة من الأمن والسّلم اللّذين دفعا الناس إلى التفرغ للتشييد والتمتّع بالحياة التي اختلفت الناس في طريقة عيشها بين منكبّ على العبادة وطلب العلم وآخر منصرف إلى حياة اللّهو والعبث، حيث وصف العديد من الشعراء تلك المجالس وما كان يشوبها من هتك للدين والأخلاق، وقد كانت الخمرة هي الفلك الذي درات حوله مختلف معاني هذه الأشعار، من ذلك هذه الأبيات التي تصف كأساً مملوءة بالخمرة:

يَاعَادِلِي فِي شَرِبِهَا لَوْدُقْتَهَا مَاكُنْتُ فِيهَا لِلْعُدُولِ مَصِيخَا
يُضْحِي بِهَا تَرَحُّ الْقُلُوبِ مُرَحَّلَا وَيَدِيلُهُ فَرَحٌ يَحْطُّ مَنِيخَا
وَإِذَا بَدَتْ لِلشُّرْبِ فِي غَسَقِ الدُّجَى تَرَكَ الظَّلَامَ ضِيَاؤُهَا مَسْنُوحَا
كَسَتِ الْأَنَامِلُ بِالشُّعَاعِ فُخَيْتِ أَنْ الثَّرِيًّا يُمَسِّكَ المَرِيخَا(8)

يستهلّ الشاعر أبياته بتقديم تبرير للعدول الذين يلومونه على شربه للخمر لأنهم لو تدوّقوا طعمها لكانوا قد تراجعوا عن رأيهم فيها، فهي تنسي الهموم التي تكبل النّفس وتفسح المجال للغبطة والسّرور، ثمّ إنّها تشعّ نورا خاصّة في اللّيالي التي يجتمع فيها المتسامرون فتعكس نورها على أنامل السّاقى، وهذا المشهد شبيه بصورة النجوم التي تحوم حول كوكب المريخ فقد شبه الأنامل بالنجوم المشعّة في ظلمة اللّيل والكأس المملوءة بالخمرة الحمراء بكوكب المريخ لتشابههما في اللون، وإن كانت هذه الأبيات تنشي باستهتار بالدين من الشاعر فإنّها تنبئ عن ثقافته ومعرفته بعلم الفلك.

ومن مثلّ تصويرهم لمجالس اللّهو قول الرّصافي البلسني يصف عازفاً:

وَمُطَارِحٍ مِمَّا تَجُسُّ بِنَاتِهِ لَحْنَا أَفَاضَ عَلَيْهِ مَاءٌ وَقَارِهِ
يُنْتَبِي الحَمَامَ فَلَا يَرُوحُ لُوْكَرِهِ طَرَبًا وَرِزْقُ بَتِيهِ فِي مَنقَارِهِ(9)

حسب الرّصافي فإنّ أنامل هذا العازف البارح أبدعت في تشكيل لحن شدّ انتباه السّامعين الذين جلسوا للاستمتاع اليه ، فقد فاقت روعة عزفه صوت الحمام الذي أعجب باللّحن فبقي ساكنا وهو يحمل قوت صغاره في منقاره.

وقد ظهر تيار يدعو لمكارم الأخلاق - كردّ فعل على ظاهرة المجون- باعتبارها الأساس القويم الذي تبنى عليه الحضارة فلم تقف عند توفير الأشياء المادية فقط بل اتّجّهت إلى تهذيب أفراد المجتمع من خلال التّركيز على التّحلي بالأخلاق الفاضلة المستقاة من الدّين الإسلامي ؛ حيث يقول أبو الوليد محمّد بن إسماعيل بن سعد السّعود بن أحمد بن هشام بن إدريس مع التّركيز على البذل والعطاء: ¹⁰

أَلَا لَا تَلْمِنِي أَنْ أَبْذُلَا وَلَا تَمْنَعْنِي أَنْ أَسْأَلَا
فإن رمت بخلي على سائلٍ بَخِلْتُ عَلَيْكَ بِأَنْ أَبْخَلَا
فَإِنَّ النَّيَاءَ لِمَنْ يَبْتَغِيهِ كَذَا يَقْتَتِيهِ وَإِلَّا فَلَا (10)

يوجّه الشّاعر خطابه إلى أبناء مجتمعه الذين لاموه على كثرة بذله وكرمه و يؤكد بأنّ ردّه على من يدعوه إلى البخل سيكون معارضا، وأنّ الشّاعر سيبخل بالموافقة لأنّ الفضل حسب رأيه مرهون بمقدار مشاركة الأشياء مع الآخرين وكثرة المنح دون منّ ، ويمكن أن نلمس عاطفة أبي الوليد المحبّة لأبناء مجتمعه و نفسه الهادفة إلى إصلاح ما فسد من الأخلاق وخاصة تلك التي أوثرت عن العرب وفي مقدمتها الكرم .

كما أكّد الشّعراء على ضرورة طلب العلم الصّحيح إيمانا منهم بأهميته في ارتقاء الشّعوب ونقاوتها في التّقدم، إذ يقول الشّاعر نفسه - أبو الوليد محمّد بن إسماعيل - في ذلك :

لِلْعِلْمِ نُورٌ مُسْتَبِينٌ كَمَا لِلْجَهْلِ أَيْضًا ظُلْمَةٌ فِي الْوَرَى
فَالْعِلْمُ يَسْمُو بِكَ فَوْقَ السُّهَى وَالْجَهْلُ يَهْوِي بِكَ تَحْتَ الثَّرَى
فَدُدْ عَنِ الْعَيْنِ بِإِسْهَارِهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لَذِيذِ الْكَرَى
وَأَمْشِ بِهِ نُورًا فَمَا مَنْ يَرَى مَمْشَاهُ بِالنُّورِ كَمَنْ لَا يَرَى (11)

يستهلّ الشّاعر المقطوعة بعقد مقارنة بين العلم والجهل ؛ فالعلم نور يضيء الدّرب لصاحبه ، وفي مقابله الجهل ظلمة تطمس نظر أصحابه ، كما أنّ العلم يرتقي بأهله فوق الثّريا فيما يند الجهل أولياءه ، ثمّ يدعونا الشّاعر إلى تمتيع عينيه بطلب العلم و تمتيع نفسه بذلك ، فنوره سيكون بصيرتك التي تنير طريقك وتجعله يسيرا أمامك شتّان بين متعلّم وجاهل، وفي ذلك تأكيد على معنى البيت الأول .

وقد تنافست النّخبة في تأليف الكتب، والمتتبع لعهد الموحدّين يلاحظ كثرة المؤلّفات التي صنّفت في هذه الفترة إيمانا منهم بأهميتها باعتبارها وثيقة تاريخية، وهاهو الأمير أبو الرّبيع سليمان الموحدّ يقول ملغزا في كتاب:

أَلَا بِأَبِي لُدُنِ الْمَعَاطِفِ أَهْيَفُ كَحِيلِ الْجُفُونِ وَالْحَلِيِّ وَالْحَوَاجِبِ

جَمِيلٌ مُحْيَاهُ كَرِيمٌ لِقَاؤُهُ رِقَاقٌ حَوَاشِيهِ صَقِيلُ التَّرَائِبِ (12)

يشبه أبو الربيع الكتاب بامرأة متريّنة بمعاطف حسنة قد زادت جسمها الرشيقة حسنا، كما زان الكحل عيونها وزادتها الحلي زينة فأضفت على وجهها جمالا آخر، والمقصود بالكحل هنا القلم المستخدم في الكتابة وعيون هذه الحسنة هي العنوان ، كما شبه غلاف الكتاب بوجه هذه المرأة التي يسر لقاءها نفس الشاعر وقد أبدع في التعبير عن إعجابه بشكل الكتاب أو المرأة الجميل الذي يأسر الناظر ويشده إليه ، ثم يواصل في وصفه بقوله:

فَتَوْسَعُهُ لَثْمًا وَتَكْبِرُ قَدْرَهُ وَتُؤْفِي لَهُ بِرًّا لِأَسْنَى الْمَرَاتِبِ

تَرَى الْخُدَّاقَ يَسْتَأْطِفُونَهُ فَيُلْفُونَ فِيهِ جَامِعَاتِ الْغَرَائِبِ (13)

ينتقل أبو الربيع في هذا البيت ليرسم صورة أخرى للكتاب وهي صورة العالم الجليل أو الشيخ الوقور الذي يسارع طلبة العلم لتقبيله بغية نيل بركته وإكبارا بقدره ذلك أن كلا الشخصيتين تتمتعان بحكمة كبيرة وعلم غزير ، ثم يصور انطباع القراء على الكتاب إذ تجدهم معجبين بمحتوياته التي تشبع جوع الفضوليين مهما اختلفت أذواقهم ، وهذه الأبيات تؤكد على قيمة الكتاب باعتباره وسيلة لتبليغ العلم ، و دوره في حفظ أثار السابقين من جهة ، خاصة وأن هذا الشاعر رجل سيّد في قومه ، وقد عرف بغزارة علمه وتقريبه لأهله ، كما أنّ هذه الأبيات تصور جانباً من اهتمام الموحدية بالألغاز التي شغلت حيزاً معتبراً من شعرهم لدورها في تحفيز الذهن والترويح عن النفس .

لقد تمكن الشعراء من خلال هذه النماذج التي استعرضتها هذه الدراسة من رصد الكثير من مشاهد حضارتهم التي زاوجت بين التحلي بكمارم الأخلاق من جهة و الاهتمام بفخامة المنشآت والمرافق العمومية من جهة أخرى، ودعوتهم إلى طلب العلم وتوقير أهله من جهة ثالثة ، فسادت على الكثير من الأمم المجاورة كما أخضعوا بلاد المغرب والأندلس معا لأول مرة تحت رايتهم «... ومع اتساع رقعة الحرية المتاحة للمجتمع في عهد الموحدية فقد تركت الحياة الاجتماعية السائدة آنذاك بصماتها على شعر الوصف خاصة في ذكر مجالس الشرب ، ووصف مظاهر العمران التي صوّرت جانبا من حياة البذخ واللهو والإسراف» (14)؛ فقد أبان شعراء الموحدية عن مقدرة عالية في غرض الوصف وإن كانت العديد من معانيهم مطروقة لدى الشعراء السابقين في ميدان تصوير المظاهر الحضارية، كما تجلّى لنا بوضوح إحاطة الشعراء بعلوم عصرهم وسعة ثقافتهم المتأثرة بالدين الإسلامي الحنيف والتي انعكست على ألفاظهم.

هوامش الدراسة :

1- نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، حققه

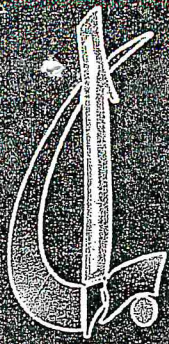
الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، سنة 1968، ج1، ص: 470.

2- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تأليف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك

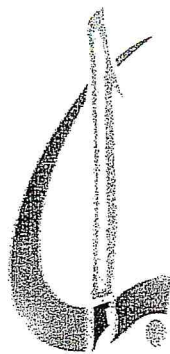
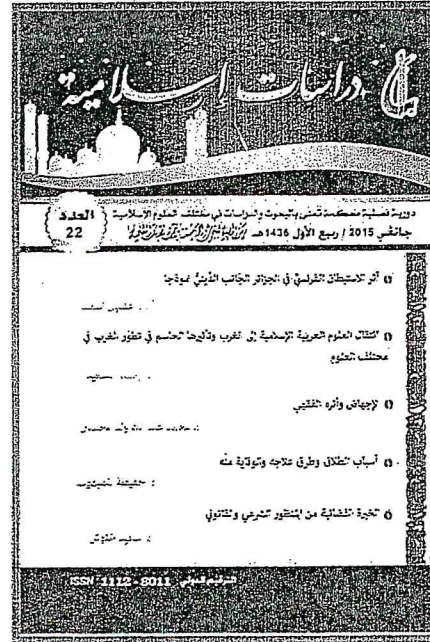
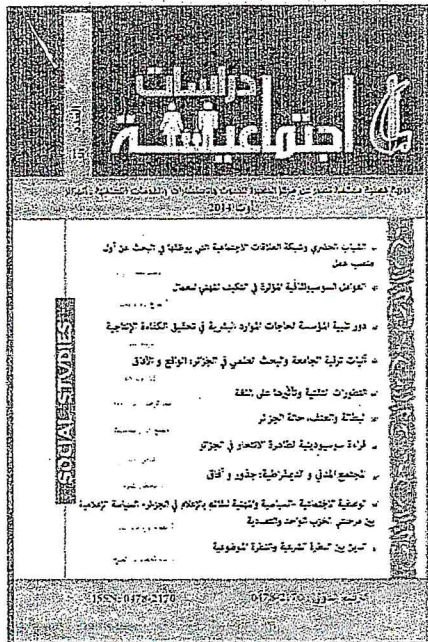
الأنصاري الأوسني المراكشي ، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت ، لبنان، دط ، دت ، السفر

الأول، الجزء الأول ، ص: 100-101.

- 3- الذّيل والتّكملة لكتّابي الموصول والصلّة، تأليف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسيّ المراكشي، حقّقه الدكتور إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، دت، السّفر الخامس، ص:190.
- 4- التّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ط2، ج1، ص: 137.
- 5- شعر ابن مجبر الأندلسي، جمع ودراسة وتحقيق: د. محمد زكريّا عناني، دار الثقافة، بيروت، ط1، سنة 2000، ص:23.
- 6- نفع الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، الشّيخ أحمد بن محمد المقرّي التلمساني، حقّقه الدكتور إحسان عباس، ج 4، ص:56.
- 7- سورة الرّحمن، الآية 24، برواية ورش عن نافع.
- 8- الذّيل والتّكملة لكتّابي الموصول والصلّة، تأليف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسيّ المراكشي، تحقيق محمد بن شريفة، السّفر الأوّل، القسم الأوّل، ص:101
- 9- شعر الرّصافي الرّفاء الديلمي، دراسة موضوعية -فنيّة، خالد شكر محمود صالح الفراجي، رسالة مقدّمة إلى مجلس كنيّة التّربية وهي من متطلّبات رسالة الماجستير، جامعة ابن رشد، بغداد، العراق، سنة 2003، ص:62.
- 10- الذّيل والتّكملة لكتّابي الموصول والصلّة، تأليف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسيّ المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، لبنان، ط1، سنة 1983، السّفر السادس، ص:121.
- 11- المصدر نفسه، ص:120.
- 12- ديوان الأمير أبي الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق محمد بن تاويتالطنجي، محمد بن العباس القّبّاج، سعيد أعراب، محمد بن تاويتالطنواني، منشورات كليّة الآداب جامعة محمد الخامس، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، دط، دت، ص:115.
- 13- المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
- 14- شعر الأطباء في الأندلس في القرن السّادس الهجري، دراسة تحليلية نقدية، إعداد الطالبة سلسبيل محمد محمود نوفل، أطروحة مقدّمة استكمالاً لمتطلّبات الحصول على شهادة الماجستير في تخصّص اللغة العربيّة، كليّة الدراسات العليا، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين، سنة 2009، ص:71



LITERARY STUDIES



مركز البحوث والدراسات الإسلامية

46 تعاونية الرشيد القبة الضخيمة الجزائر

هاتف: 021 38 97 78 فاكس: 021 28 36 48

www.baseeracenter.com Email: martéz_bassira@yahoo.fr